رواية اسمها سورية

نبيل صالح

مئة شخصية أسهمت في تشكيل وعي السوريين
في القرن العشرين

رواية اسمها سورية

مئة شخصية أسهمت في تشكيل وعي السوريين
في القرن العشرين

الجزء الأول

نبيل صالح
تحرير وإشراف عام

رواية اسمها سورية

المؤلف : مجموعة من الباحثين

تحرير وإشراف عام : نبيل صالح

إصدار خاص

الطبعة الثانية 1428 هـ - 2007م

عمليات فنية BJconcept.com

الباحثون المشاركون

فواز حداد
ممدوح عزام
د. عابد إسماعيل
عادل محمود
وائل السواح
سعاد جروس
حسن م يوسف
نجم الدين سمان
علي الكردي
ناظم مهنا
خضر الآغا
محمد منصور
طه خليل
وفيق يوسف
عقبة زيدان
راشد عيسى
روزا ياسين حسن
عمر كوش
د. سعد الدين كليب

وليد إخلاصي
خيري الذهبي
نبيل سليمان
وفيق خنسة
ياسين رفاعية
عادل أبو شنب
ميشيل كيلو
د. عمر الدقاق
حسين العودات
حسين شحادة
حمدان حمدان
صلاح الدين المحمد
د. نضال الصالح
أحمد بوبس
د. محمد محفل
د. أحمد برقاوي
د. يوسف سلامة
محمد جمال باروت
نبيل صالح

الهيئة الاستشارية

الفهرست

❖ المجلد الأول:

❖ المجلد الثالث:

إلى الوزير الشهيد، رمز الاستقلال والحرية

يوسف العظمة

تصدير

يبدو هذا العمل أقرب إلى عمل روائي أكثر منه موسوعي، «رواية اسمها سورية» وأبطالها مئة شخصية مؤثرة، أسهمت في تشكيل هوية المجتمع السوري وثقافته، حباً أو قسراً، خلال القرن العشرين؛ وبالتالي سوف يتم التركيز على الجانب الدرامي المشوق في حياة كل شخصية: طفولتها وشبابها، أول ظهورها وخاتمته وفيما بينهما من أقوال وأعمال أثرت في حياة السوريين ووعيهم، سلباً وإيجاباً.

وتنبع أهمية هذا العمل من قدرته على استقطاب الأجيال الشابة لمعرفة تلك الأسماء التي سلمتهم هذا الإرث العريق الذي تنمو في تربته أشجار الوطن وعوسجه، أزاهيره وأشواكه، بدقة وموضوعية موثقة بالمراجع والشهادات، بحيث نتمكن من تقديم صورة واضحة لتاريخ سورية الحديث بأسلوب قصصي مشوق، تمتزج فيه المعرفة بالمتعة، والقراءة بالرؤيا.

وصف سورية

التاريخ هو حركة الذئاب في الزمن، وكذلك هي الرواية. ليس هناك من أخيار أو أشرار بشكل مطلق، فما هو شرٌ بالنسبة لنا خيرٌ بالنسبة لأعدائنا، والعكس صحيح. فقيمة كل امرئ بحسب ما يقدم لأهله وقومه ووطنه أولاً، وللمثل العليا ثانياً، حيث تبدو الأخلاق أمراً ثانوياً عندما تعترض مصالح الأمة. وهذا أمر يفهمه السياسيون والقادة الكبار، في اللحظات التي يمرّ فيها التاريخ متدفقاً بين أيديهم، مثلما تمرّ العجينة بين يدي الخباز إلى بيت النار، فإما أن يتلقفها في اللحظة المناسبة، رغيفاً حقيقياً، تتلمسه أيدي الشعب وأسنانه، وإما أن تتجاوزه اللحظة، فيحترق ما كان بين يديه ويذهب إلى العدم.

إذاً، فالتاريخ ليس مجرد أوراق مركونة في زوايا المكتبات، أو مجرد أحداث وقعت ثم قُيِّدت في السجلات والكتب المدرسية؛ إنه سيرة أفراد صنعوا أيامنا، واستمرت حكاياتهم بالتناسل عبر ذاكرتنا على مرّ الزمان. حكايات شكلت الجزء الأكبر من وعينا، ومن هويتنا، كعرب وشركس وأكراد وتركمان وأرمن وآشوريين، مسلمين ويهود ومسيحيين.. حكايات تملي علينا سلوكنا وتصرفاتنا، شئنا ذلك أم أبينا. قال الإمام علي: «ولعمري ما تقادمت بكم ولا بهم العهود، ولا خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاب والقرون، وما أنتم اليوم من يوم كنتم في أصلابهم ببعيد». فشيفرتنا الوراثية، تمتد عبر آبائنا وأجدادنا، كما لو أننا نعيش عمراً واحداً في أجساد متعددة، متقمصين أفكارهم وأخلاقهم، مع إضافات الحياة المعاصرة عليها. إنه «الجينوم» الممتد عبر التاريخ، ينام فينا، في شغاف القلب، ومسامات الجلد، وتلافيف الدماغ، نحن السوريين، أعرق الشعوب في أعتق الأوطان. هنا، في شعاب «قاسيون»، حيث استقر الفلك بعد الطوفان، وأنزل الرب أول أبطال رواياته فوق هذه الأرض، من قتلة وأنبياء، مغفّلين وأشقياء، قابيل وهابيل وآدم وحوّاء.. المكان الذي انطلقت منه رسالة العقل الخالدة إلى شتى أرجاء الأرض، وتلاقحت مع الأمم، لنخلف فيهم بالأمس ما نلتقي عليه اليوم، ونختلف معهم اليوم على ما

لم نخلفه فيهم بالأمس، إلى أن صار العالم على ما هو عليه من خلاف واتفاق، وشرق وغرب، ومدنيّة ورقيّ، ووحشية وتدمير. ذلك أن التاريخ رواية ممتدة لنهايات مفتوحة وأحداث لا تنتهي ما بقي هناك بشر.

❖ ❖ ❖

تعتبر سوريا جغرافياً وبشرياً، مفتاح المنطقة وسرّها. ولهذا تطلعت كل الإمبراطوريات التوسعية عبر التاريخ للسيطرة عليها، من أجل ضمان استمرار وجودها المشرقي، ثم فشل الجميع في ذلك، بسبب عدم فهمهم لطبيعة نسيجها الاجتماعي، وعمقه الجغرافي، وثقافته العربية.. فقد شكلت سوريا عبر التاريخ (قلب العروبة النابض) وأكملت قومياتها بقية أعضاء جسدها، لذلك كان لزاماً على القلب أن يضخ دماءه إليها بالتساوي، وإلا حصل خلل ما في الوطن السوري؛ إذ لا يستطيع القلب أن يحيا منفرداً بذاته، كما لا تستطيع بقية أعضاء الجسد الاستمرار بالحياة من دونه. وهذا هو سرّ الحياة السورية وجوهرها: التناسق والتكامل والتناغم بين مختلف القوميات والمذاهب والأديان، التي تشكل نسيجها وألوانها البديعة. وكل محاولة للتمييز أو الفصل أو الإلغاء من قبل الاستعمار أو السلطات الحاكمة، كانت تؤدي إلى عكس ما تريده، إذ فشل جميع الطغاة في أن يأخذوا الجسد السوري إلى أسرَّتهم بالرغم من قوتهم، لذلك نرى أن صناعة الوحدة الوطنية تقتضي أن نبين مساهمات كل الطوائف والقوميات، في بناء عزة هذا البلد والدفاع عن سيادته.

❖ ❖ ❖

حاولنا جاهدين، في هذا العمل الجديد في فكرته وبنيته، أن نكون موضوعيين ما أمكننا ذلك، حيث أشرفت لجنة من المفكرين والمؤرخين الثقات، على غربلة واختيار الأسماء التي يمكن تعدادها ضمن طبقة الفحول ونخبة النخب، ممن لا يمكن تجاهل تأثيرهم في حياتنا المعاصرة. ففي المرحلة الأولى، تجمع لدينا أكثر من مئة وخمسين اسماً، وقد فاضلنا بينها، حتى وصلت القائمة النهائية إلى مئة اسم (كإصدار أول)، وقد حاورنا سائر الباحثين المشاركين، كي نصل إلى تصور نهائي أكثر إقناعاً، لنا وللنقاد الذين يستمتعون بكشف الثغرات والأخطاء.

ولم ننطلق في عملنا هذا من نزعة سورية شوفينية، بدليل اختيارنا لأعلام غير سوريين، ولكنهم أثروا في حياة السوريين، سلباً أو إيجاباً، كجمال عبد الناصر، وفوزي القاوقجي، وجمال باشا السفاح، والملك فيصل.. كما اخترنا اسماً كان إنجازه الحقيقي خارج سوريا، كجول جمّال، المواطن العربي السوري المسيحي، الذي كان أول من قام بعملية استشهادية في العصر الحديث، دفاعاً عن تراب مصر، ليجسد بعمله هذا منارة للاستشهاديين الذين جاؤوا بعده، كما كان له كبير أثر في نفوس الشباب السوري والمصري، بحيث يمكن اعتبار استشهاده حجر الأساس، الذي أرسى الوحدة بين سوريا ومصر.

❖ ❖ ❖

لم أستطع أن أرى سوريا يوماً مجسدة في تلك الخريطة التي كنا نرسمها في المدرسة، ذلك أن كل بلدان العالم لها خرائط وفيها جبال وأنهار وأشجار وسهول وبحار، وليس في ذلك ما يميزها عن بعضها.. فأنا أعتقد أن الوطن هو تلك السمة التي يحملها المواطنون في دواخلهم، خارج حدود رقعتهم كما بداخلها، ولا يمكن توصيفها إلا من خلالهم، وبالتالي أرى أن سوريا موزعة في كل العالم بحسب توزع أبنائها فيه. ومن هنا انطلقنا لوصف سوريا، عبر توصيف السوريين.. وبما أننا لا نستطيع توصيفهم جميعاً، كان لزاماً علينا أن نختار عيّنات من نخبها الفكرية والسياسية والفنية والعسكرية، عبر مرحلة زمنية تمتد لثلاثة أجيال. ومن ثم تقديمها، كما لو أنها شخصيات روائية تاريخية، نستعيد عبرها أيام السوريين ونكهتها منذ قرن إلى اليوم: من المرحلة العثمانية، فالفرنسية، فالاستقلال، فالحقبة البعثية، من خلال مسار أشخاص مشوا خلف أقدارهم، على وقع الحروب والمعارك والانقلابات والمؤامرات...

اعتمدنا مبدأين متعاكسين في الاختيار، ومن ثم الترتيب، فاختيار الشخصيات كان مرهوناً بإدراكها للقرن العشرين، فكان أول من توفي فيه هو عبد الرحمن الكواكبي 1902 وآخر من توفي من المختارين هو عبد السلام العجيلي 2006، ثم رتبنا تسلسل ورود الشخصيات في الكتاب بحسب سنة ولادتها، فكسبنا بذلك نصف القرن التاسع عشر، إذ إن أقدم من ولد فيه من بين شخصياتنا هو أبو خليل القباني سنة 1833 وآخرها هو سليم بركات الذي ولد سنة 1951، وذلك

بهدف تسلسل الأحداث زمنياً، إضافة إلى ربط الشخصيات مع بعضها بشكل منطقي.. كما وضعنا ثبت المراجع ومصادر الأبحاث في نهاية الكتاب وليس آخر كل بحث، حتى لا ينتبه القارئ إلى أنه يقرأ عملاً تاريخياً، وإنما يظل ضمن الإيحاء الحكائي للشخصيات، ذلك أن متعة الحكاية هي ما يشدّ القارئ أكثر من أي شيء آخر.

❖ ❖ ❖

بعد قراءة هذا الكتاب، قد يلاحظ القارئ، أن هؤلاء القادة والزعماء لم يظهروا من تلقاء أنفسهم، وإنما جاؤوا في مقدمة موجة تدفعهم نحو طموحاتها بالسيادة والتوسع والشبع والأمان. لذلك أقول بأن التاريخ هو حركة الذئاب في الزمن، حيث كان القائد البطل هو من يبطل قوة خصمه فيأكل روحه ويضيفها إلى قائمة الافتراس التي سيدونها التاريخ في رصيده المظفر. هذا هو جوهر الصراع – برأيي- وباطنه، أما ظاهره فمغلف على الأغلب بلبوس أيديولوجية ودينية وقومية ووطنية متعصبة، حيث استغلت القطعان بالشعارات أيما استغلال. وغالباً ما كانت تتلاءم طموحات الرعاة مع الرعية، وأحياناً أخرى تختلف. وتبعاً لمدى تلاؤم الطموحات بين القطبين، كانت تستمر حكوماتهم، وإذا خرج الراعي عن مصالح قطيعه، فإن الموجة التي أوصلته ستبتلعه قبل أن ترفع طامحاً آخر فوق ظهرها، إلى أن تضعف قوة هذا الأخير عن ركوب الموج واستغلال وجهة الرياح.

أخيراً نقول: خلال مئتي يوم عمل، أنجز هذا الكتاب بحب وشوق ومتعة بين عموم المشاركين في كتابة بحوثه، وهذا شرط أول لاستقباله وانتشاره بين الناس.

نبيل صالح

دمشق في **2006/7/1**

أبو خليل القباني

استنبات المسرح

(1903-1833)

لم يكن يخطر ببال أحد من المحتشدين الذين جاءوا ليحتفلوا بختم أحمد بن محمد آغا آقبيق لحفظ القرآن، أنّ الحفل سينفضّ سريعاً؛ حين ينهض مفتي الديار الشامية الشيخ محمود حمزة مغادراً الحفل غاضباً ومتوعداً؛ بل ومعلناً طرد الصبي من دروسه. كان المفتي نفسه قد أثنى منذ هنيهة على ذكاء الصبي ومثابرته: «إنه لحداثة سنه وصغر مداركه، أراه لا يترك حلقة من حلقات التدريس التي يعقدها علماء الشام في المسجد الأموي إلا قصدها وكان من روادها». ولكن العالم الشيخ بكري العطار، وفي الوقت الذي أراد فيه أن يزيد الصبي ثناء، قاد ذلك الحفل إلى نهاية مخيبة حين قال في وصفه: «تراه في الحلقات يكثر من تحريك أصابع يديه ورجليه، ويكثر في التنغيم والترنيم همساً في فمه، وكثيراً ما يسترسل وهو ساهم غائب عن الدنيا». ثم ما لبث الشيخ العطار أن توجه لوالد الصبي بالقول: «إن صدقتّني فراستي فولدك هذا لا بد أنه يتردد على مجالس الموسيقى، ويعاشر الموسيقيين». ولم تخب فراسة الرجل، فقد تحوّل المديح والاحتفال إلى حديث مسهب حول ولع الصبي بالغناء والتمثيل؛ وتردده على مجالسهما، فما كان من مفتي الشام إلا أن أقفل الاحتفال بالانفضاض عنه، وهو يتعوّذ من شيطان الغناء والموسيقى والتمثيل. كانت تلك أول مواجهة في سلسلة من مجابهات سيخوضها الصبي أمرّ وأكثر شراسة.

وبالفعل كان الصبي لا يكف عن مجالسة كزبر؛ المغني الذي أخذ عنه فنون الغناء والطرب. وفي واحدة من المجالسات طالبه الناس بالغناء، فغنى وأطرب، ما دفع بمعلّمه إلى لجة الغضب، وتوبيخه بكلمات نابية، وتحدّيه إن كان يقدر على الحفظ والغناء، فمضى أبو خليل ليعتكف في منزله منقطعاً إلى الحفظ والتمرّن إلى أن تمكّن، فدعا كزبر إلى منازلته، فغنى هذا، وغنى ذاك، فطرِب الناس لأبي

خليل، وصفقوا له طويلاً، واحتفوا به ليدخل عهداً من التفوق، وليمضي كزبر إلى مزيد من الغيظ والقطيعة.

أما تعلّمه لفنون التشخيص، فقد أخذه عن الكركوزاتي علي حبيب، حين كان يمضي إليه في مقهى العمارة الكبير، ويشهد محاوراته مع الصور الخيالية المؤلفة من رسوم عنترة وعبلة والمهلهل والزير والزناتي خليفة والملك الظاهر... وغيرهم من أبطال القصص التاريخية الخيالية؛ وهو فوق ذلك كان يذهب في كل أسبوع مرة أو مرتين إلى مكان خصصه ابن السفرجلاني وابن الغبرة والإدلبي وغيرهم، ممن لهم ميل خاص في الموسيقى والأهازيج؛ ليتمرنوا هناك على الغناء والتمثيل. ولقد كان الشيخ أحمد عقيل الحلبي من أبرز أساتذته في الموسيقى ورقص السماح.

وبعد أن جرى تداول كل هذا في تلك الأمسية الاحتفالية، لم يكن المفتي وحده لينقلب على الصبي؛ وإنما غاب أبوه في ذهول وصمت مما سمع، ومما ينبئ بأن الصبي ضلّ عن الطريق الذي أراده الأب، فما كان منه إلا أن طرده، ليستقبله كاتم أسراره خاله عبد الله النشواتي، وقد كان هذا يحبه ويحدب عليه، فقرّبه من مجالسه، وكفل معيشته، ووكّله ببعض أعماله، إلى أن استطاع الصبي أن يشتري قبّاناً مما جمع، اشتغل به في سوق البزورية وفي سوق العتيق.

ومنذ ذلك الوقت صار اسمه القبّاني، أحمد أبو خليل القباني، في عمر لم يتجاوز اثنتي عشرة سنة. وإذا كان قد أُلصق به اسمٌ من مهنة طارئة، فهو لم ينس معها ولعه بالفن، وقد «شوهد مراراً يدمدم بصوت خافت، وينقر بأصابعه على جسر القبّان»، وكان في هذا الوقت يقيم الأذان في مئذنة عيسى في الجامع الأموي، كما يعلّم المؤذّنين طرقاً ومقامات جديدة في تأدية الأذان.

❖ ❖ ❖

لقد قيل في تجربة القباني: «إن وجه الفخر في أبي خليل أنّه لم ينقل فن التمثيل عن لغة أجنبية، ولم يذهب إلى الغرب لغرض اقتباسه، بل قيل له إنّ في الغرب فناً هذه صورته فقلّده». وإذا كانت الأسباب الأولى قد توفرت للقباني لتجعله على عتبة فن المسرح، ونعني تعلمه لفنون الغناء والموسيقا ورقص السماح، وكذلك فن التشخيص، كما تعلمه على يد الكركوزاتي، فربما ما كان ينقصه مشاهدة نموذج حي ومباشر لذلك الفن الذي سمع عنه. وهذا ما توفر له بالفعل،

حين جاءت فرقة تمثيلية فرنسية تابعة للكوميدي (فرانسيز)، قدمت عروضها في مدرسة العازارية في حي باب توما، حتى ليقال إنّ القباني قد التقى مدير الفرقة الفرنسية، وجادل في مسائل تفصيلية لهذا الفن الوافد والغريب. ولقد حاول الباحث محمد يوسف نجم في كتابه (المسرحية في الأدب العربي الحديث) أن يقتفي أثر المنابع التي استقى منها أبو خليل فنه المسرحي، فبالإضافة إلى علمه بالموسيقى والغناء، لا بد أنّ أخبار مارون النقاش ومدرسته المسرحية في لبنان قد وصلت إلى دمشق؛ وقد يكون القباني شاهد أحد عروضه في لبنان أو دمشق بالفعل. وعدا عن الكتب الشعبية التي كانت بين يدي القباني، من (ألف ليلة وليلة) وسواها، فلا بد أنّ الرجل اطلع على المسرحيات التركية، وما ترجم من اللغات الأخرى إلى التركية، وكان يتقن الفارسية والتركية، فيما حركة الترجمة إلى التركية في أوج نشاطها وحيويتها.

هكذا أطلق القباني مسرحيته الأولى (ناكر الجميل)، العام 1878م، التي يجري بها التأريخ لبداية المسرح السوري. وقد لقيت حظاً كبيراً من النجاح ومن تشجيع والي دمشق آنذاك صبحي باشا الذي أعجب بها، وشجّع صاحبها؛ فخرج للناس بمسرحيته (وضاح)، يقال إنه كتبها في ثلاثة أيام، ثم قدمها في كازينو الطليان في باب الجابية. لكن مجد القباني بدأ بعهد الوالي مدحت باشا، الذي كان يلقب بالمصلح الكبير أبو الدستور أو أبو الأحرار، فكلّف اسكندر فرح مع القباني بتأليف فرقة للتمثيل، فاتفق الرجلان واستأجرا في جنينة الأفندي في باب توما، قدما فيها (عائدة) التي ترجمها سليم النقاش عن الإيطالية، وكان وضع ألحانها الإيطالي فيردي بناء على طلب الخديوي إسماعيل، ومثلت في القاهرة بمناسبة افتتاح قناة السويس. وراح القباني يقدم مسرحية تلو أخرى في ظل والي دمشق مدحت باشا ورعايته، وكان هذا يلقبه (كوميدي الشرق). وحين تيقن أبو خليل من نجاح خطاه، عمد إلى بيع حصته من أرض قرية جديدة عرطوز، وحصة من أملاكه بدمشق، مع القبان الذي يملكه، وذلك لإنشاء مسرح، بعد أن استأجر في خان الكمرك.

لقد أصابت مسرحيات أبي خليل نجاحاً كان يدفع بجمهور المتفرجين إلى التسابق على أبواب المسرح قبيل ساعات من بدء المسرحية؛ حاملين زادهم وقوت ساعات الانتظار، وهو ما يذكّر حقاً بمتفرجي المسرح الإغريقي، الذين كانوا يقضون وقتاً طويلاً في المسرح، حاملين معهم زادهم وزوادتهم. ولكن الأمر لم يكن

ميسراً لأيٍّ كان، فالروايات تحكي قصصاً طريفة عن أولئك الذين باعوا أغراض بيوتهم ليشاهدوا مسرحية؛ وأكثرها طرافة قصة الرجل الذي باع قبر أبيه من أجل مسرحية، وهناك بالطبع من لم يكن يدفع لقاء الدخول لجاه أو منصب، وكان القباني يغض الطرف خشية التصادم مع ذوي النفوذ. لكن فرادة القباني لم تكن في النصوص التي تقوم عليها مسرحياته، فتلك بنتُ زمانها، بل في تحوّله إلى ظاهرة اجتماعية، تواصلٌ من نوع مدهش بين الناس وهذا الفن الغريب، ذلك التواصل الذي يصعب أن نجده في المسرح المعاصر الذي اهتم دائماً بخلق علاقة جديدة مع المتفرج في صالة العرض. كان الجمهور يجلس على مقاعد أو دكك خشبية أمام المسرح، ويتدخل في التأليف والتمثيل، ويفرض رأيه على المؤلف الذي لا يملك إلا أن يقبل وإلا انصرف عنه الجمهور، إنها علاقة غريبة ولا شك، علاقة المشاركة التي يفرضها المتفرج على ممثل صار أكثر قدرة على الارتجال.

هكذا سارت الأمور حتى عرض القباني مسرحية (أبو الحسن المغفل)، فقام الناس ولم يقعدوا، لظهور هارون الرشيد على المسرح على شكل أبي الحسن المغفل، سوى أنّ وجود مدحت باشا على رأس ولاية الشام كبح جماحهم، إلى أن أزيح الرجل من منصبه. أمّا نص مسرحية (أبو الحسن) فكان من تأليف مارون النقاش، الذي أخذها بدوره عن واحدة من حكايات (ألف ليلة وليلة)، ويحكي فيها عن رجل اسمه أبو الحسن، يتمنى لو أنّ أمور الحكم تجتمع في يده ولو ليوم واحد. وحين تصل الأمنية إلى أذني هارون الرشيد يمضي متنكراً مع حاجبه مسرور إلى بيت الرجل، فيضعا في طعامه مخدراً، ليجد نفسه وقد صحا في قصر الخليفة، حوله وزراء وخدم، وبيده أمور البلاد، لتبدأ سلسلة من المفارقات، من وضع رجل بائس محلّ الخليفة، ومن وضع الخليفة متنكراً في ثياب بائسة وفقيرة. هذه الحكاية - من بين عشرات الحكايات التي قدمها أبو خليل على المسرح - تصلح نموذجاً لتقصّي أسباب انهيار مسرحه، وللبحث في السؤال: «لماذا وقفت الرجعية ضد أبي خليل القباني؟» الذي طرحه المسرحي الراحل سعد الله ونوس في مقالة مطولة يتقصّى فيها مختلف الأسباب.

يستعيد ونوس ما سيق من حجج وذرائع تحاول الإجابة عن ذاك السؤال، فيعتبرها أوهى من أن تقدر فعلاً على إيقاف التجربة القبانية؛ فمن أسباب

أخلاقية تقول إنّ المعضلة في المشاهد الغرامية في مسرحيات القباني، وفي حوارات الحب التي تشجع على الخلاعة والمجون، إلى احتجاج بعض الأعيان على نقصان حصته من المال التي يُعتقد أنّ أبا خليل كان يسترضي بها أولئك، إلى سواها من أسباب، يصل ونوس إلى سلاح (البدعة) التي كانت تُرفع في وجه كل جديد يمس النظام الاجتماعي القائم. وبالطبع بإمكاننا أن نتذكر تاريخ التحريم الطويل في بلادنا، من تحريم الغناء والموسيقا، إلى تحريم المطبعة التي دخلت بلادنا متأخرة أكثر من مئتي عام على اختراع المطبعة، إلى تحريم التصوير، وسواها كثير من البدع التي كان يُخشى دائماً أن تحرك المستنقعات الراكدة.

ولكن لماذا رُمي القباني بتهمة (البدعة)؟، يتابع ونوس أسئلته ليجيب بأنّ عوامل الخطر تكمن في الظاهرة المسرحية بذاتها، بغضّ النظر عن الأفكار التي كانت تتضمنها العروض، معتبراً أنّ ظهور المسرح في تلك الآونة كان جزءاً من حركة التنوّر والنهضة التي رافقت صعود البرجوازية؛ كما أنّ المسرح على المستوى الاجتماعي يساوي بين جمهور متباين قد يخرج عن تقاليد الفرجة لينفجر باتجاهات لا يستطيع أحد التكهن بها؛ وهناك أخيراً خطورة التشخيص، ونعلم أنّ معظم شخصيات القباني كانت من الملوك والأمراء أو الخلفاء، والتشخيص قد ينزع عن تلك الشخصيات قدسيتها، «فزلّة الممثل يمكن أن تجعل الملك مضحكاً، والأمير سخيفاً. وإذ يضحك المتفرج يسقط في أعماقه جدار من الخوف، ثم تولد التساؤلات» وهذا هو - على ما يبدو- السر وراء وقوف أعيان دمشق ضدّ تجربة القباني عند مسرحية (أبو الحسن المغفل) بالذات، إنه ظهور الخليفة هارون الرشيد على شكل أبي الحسن المغفل.

هكذا استطاع الشيخ سعيد الغبرا أن يهيّئ مضبطة، ويجمع تواقيع بعض أعيان دمشق، ثم يمضي بها إلى دار الخلافة في إستانبول. ولما عرف أنّ السلطان عبد الحميد سيصلي الجمعة في جامع (أيا صوفيا)، انتظر موكبه هناك، وما إن هلّ الموكب حتى صاح الغبرا بأعلى صوته مردداً على مسامع السلطان بيانه المضبطة: «أدركنا يا أمير المؤمنين، فإنّ الفسق والفجور قد تفشيا في الشام، فهتكت الأعراض، وماتت الفضيلة، ووُئد الشرف، واختلطت النساء بالرجال». وسرعان ما جاء أمر السلطان بإغلاق مسرح القباني، وما كاد الخبر يصل إلى

الشام حتى هاجم خصومُه مسرحَه في خان الكمرك، فأحرقوه، ولم يُبقوا له أثراً على الأرض حتى لا يتذكره أحد، كما حرضوا عليه الصبية فلاحقوه بالأهازيج المسفَّة، مذكّرين إياه بمهنته القديمة، داعين إياه إلى العودة إلى كارِه الأول: قباني.

اعتزل القباني في منزله لا يبرحه أوّل الأمر، ثم خطر له صديقه التاجر الحمصي القديم سعد الله حلابو المقيم في الإسكندرية، أرسل له يستطلع رأيه في سفره إلى مصر، فرحّب هذا، بل وأشاع على الفور نبأ قدوم ذلك العبقري الشامي إلى مصر.

❖ ❖ ❖

هيّأ له صديقه الحمصي مقهى الدانوب في الإسكندرية، التي عرض فيها أيضاً على مسرح زيزينيا وعلى مسرح القرداحي، وبدأ عمله فيها العام 1884، حيث مثل فيها (عنترة)، (أنس الجليس)، (ناكر الجميل)، (عفيفة)، (ملتقى الخليفتين)، (أسد الشرى)، (لوسيا)... وغيرها. وراح يتنقل بين الإسكندرية والقاهرة، فبعد أن عرض في هذه الأخيرة في التياترو المصري، وفي مسرح البوليتياما الذي كان استأجره، وقدم فيه بعض العروض، وعلى مسرح حديقة الأزبكية، عرض في دار الأوبرا الشهيرة بعد أن قدمه حلابو إلى الخديوي إسماعيل، الذي مكّنه من التمثيل فيها من دون أن يرتب عليه أيّ نفقات للدار. وقد حضر الخديوي أول عرض مسرحي قدمه القباني في دار الأوبرا، وكان بعنوان (الحاكم بأمر الله). وفيها أيضاً مثّل في مسرح عنايت في حي العتبة الخضراء، وكان بناه عبد الرازق عنايت أحد مفتشي وزارة المعارف آنذاك من ماله الخاص. كما تجول القباني في مختلف المحافظات المصرية، وعرض في المنيا والفيوم وبني سويف والمنصورة. وكان خلال جولاته في الأقاليم المصرية يعود دمشق التي زارها مرتين أو ثلاث مزوِّداً جوقته بخبرات سورية في التمثيل والغناء والرقص. أما رحلة فرقة القباني إلى أمريكا فما من أحد يؤكد أنّ أبا خليل كان على رأس جوقته، وإن كان من المؤكد أنّ فرقته قد عرضت هناك وتجولت لستة أشهر، وقد ضمت الفرقة أحمد أبو العدل والممثلة المطربة لبيبة ماللي والممثلة مريم سماط وسليمان قرداحي وسليمان حداد والمغنية ملكة سرور، بالإضافة إلى كامل الخلعي، أبرز تلامذته.

وفي مصر، بلغت شهرة القباني وتأثيره حداً دفع بعبده الحامولي ومحمد عثمان الموسيقيَّين الكبيرَين للعمل في مسرحه، وتقديم شيء من أغانيهما بين فصول الروايات، وعنهما ينقل خليل مطران: «وقد سمعتُ من نادرتَيّ زمانهما المرحومين عبده وعثمان، أنه على توسط صوته كان أكبر أساتذة الموسيقى علماً وإنشاءً وبراعة إيقاع». أمّا الشيخ سلامة حجازي فكان قد أرسل الأستاذ الموسيقيّ محمود رحمي لينضم إلى جوقة القباني، ليأخذ عنها الألحان، ويتعلم ضربها وتوقيعها.

وبالطبع ليس غريباً على القباني، في طريقه إلى استنبات شجرة المسرح الوافدة إلى بلادنا، أنْ يستخدم كل ما أمكنه من فنون الرقص والغناء والموسيقى، إلى حدّ جرى وصفه مبتدع المسرحية الغنائية القصيرة Operette في المسرح العربي؛ حيث سنرى فيما بعد تجارب مشابهة له في المسرح العربي، مثل تجربة المسرح الغنائي الرحباني التي ظهرت في لبنان بعد عقود على تجربة القباني، وإن كان لافتاً فيه موهبة فطرية استثنائية، جمعت مهارات عديدة وضعته في مصافّ رجال المسرح الكبار، فعدا عن كونه مديراً ناجحاً استطاع أكثر من مرة أن يجمع شمل فرقته، ويذلل العقبات في طريقها، وأبرزها تحدي غياب عنصر المرأة في بدايات عمله الذي عوّضه باستخدام فتيان أتقنوا تمثيل أدوار النساء؛ كان مؤلفاً مسرحياً ومؤدياً، وإن لم يكن صاحب صوت، وكان أمراً لا يصدق أنّ رجلاً من ذاك الزمان كان يستخدم في مسرحه كلّ تلك العناصر؛ من رقص السماح الذي يقال إنه قد أضاف إليه وإلى الموسيقى والموشحات، بالإضافة إلى عناصر الديكور والملابس، والأهم كيف استخدم النصوص التي وصلته إما عن طريق الترجمة إلى اللغة التركية أو العربية؛ أو تلك التي أخذها مباشرة من التراث والقصص الشعبي بما يشبه بمفاهيم اليوم عمل الدراماتورج، بل إنّ القباني قدَّم في خواتيم بعض مسرحياته في ذلك الزمان، فصولاً مستقلة من الفن الإيمائي (البانتوميم)، عُرف فصل منها بعنوان (الصيدلية).

وإذا كان هناك من يأخذ على تجربة القباني تضمينه للغناء في مسرحياته، وكأن المسرحيات ليست سوى ذريعة للغناء، فلا شك أنّ من دون أغنيات القباني تلك، كان من الصعب أن تُبنى جسور مع متفرجي تلك الأيام، ولذلك حرص القباني على القالب الغنائي حتى لو لم تتابع الأغنيات حواراً مسرحياً يجري على

الخشبة؛ ولعلّ ذلك ما سهّل انفصال الأغاني واستقلالها عن سياقها في العقود التالية. إنّ أجيال اليوم ما زالت تغني بافتتان ألحاناً جميلة دون أن يعرف البعض مؤلفها الحقيقي، ومنها: (يا طيرة طيري) ذات الطابع الدمشقي الواضح، و(يا مسعدك صبحية)، فيما يصعب إثبات أن تكون أغنيات أخرى من تأليف أبي خليل مثل: (يا مال الشام) و(بلبل عالشجر غنى) و(صيد العصاري)، وكلها أغنيات ما تزال رائجة إلى اليوم.

❖ ❖ ❖

في العام 1897 سيُقدِم الرعاع للمرة الثانية، ولأسباب مجهولة كلياً هذه المرة، على إحراق مسرح القباني المعروف باسم عنايت، الأمر الذي سيقود إلى انفراط عقد فرقة القباني، بعد أن أعياها البحث عن مكان تمثل فيه، فسوّى أبو خليل أوضاعه في مصر، وعاد إلى دمشق مضطراً لبيع بيته ليعيش من ثمنه.

وفي آخر أيامه ذهب إلى الآستانة بعد أن هيأ له الدمشقي أحمد عزة باشا العابد زيارة إلى هناك؛ حيث أعيد تكريمه بتخصيص راتب له، ظلت ابنتاه تتقايضانه بعد وفاته العام 1903.

راشد عيسى

يوسف العظمة

الوزير الشهيد

(1884- 1920)

قبل أن يلتحق يوسف العظمة بالحكومة العربية، كان قد رُقّي في الدولة التركية عام 1916 إلى منصب رئيس أركان الجيش العثماني الأول في استنبول، تقديراً لكفاءته العسكرية، ولم يكن قد بلغ الثانية والثلاثين من عمره بعد.

ولد يوسف بك ابن إبراهيم بن عبد الرحمن العظمة عام 1884، في دمشق حي الشاغور. تلقى تعليمه في المدارس الشامية، ودرس العلوم العسكرية في المدرسة الحربية العليا بالآستانة 1906، ثم تخرج من مدرسة أركان الجيش بألمانيا. كان ضابطاً عثمانياً لامعاً، برهن في الحرب العالمية الأولى عن شجاعته وقدراته العسكرية. انضم إلى جمعية (العربية الفتاة) السرية. بعد الحرب عاد إلى دمشق، واختاره الأمير فيصل مرافقاً له، ثم عينه معتمداً عربياً في بيروت، فرئيساً لأركان الحرب. لمع نجمه كضابط موهوب جسور وذكي، أسهم في بناء الجيش العربي خلال فترة قياسية. عُين، إبان اقتراب الخطر الفرنسي، وزيراً للحربية في وزارة هاشم الأتاسي، وخاض معركة ميسلون ضد الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال غوابييه.

❖ ❖ ❖

في أوائل شهر تموز 1920، اضطرب المشهد السوري، إلى حد بات يدعو للقلق الشديد؛ كانت البلاد مهددة بالاحتلال؛ الأخبار القادمة من باريس وبيروت تشير إلى أن الفرنسيين يحشدون قواتهم العسكرية على الحدود الشرقية في زحلة وقرب حلب، وعملاؤهم ينشرون الدعايات المضادة للحكومة العربية. جماعات من الخونة الموظفين وغير الموظفين، يدسون الدسائس، ويبثون روح القنوط بين المواطنين.

في بيروت ازدادت قناعة المفوض السامي الجنرال غورو، بعد مؤتمر سان ريمو، بأن الانتداب لا يمكن فرضه إلا باحتلال عسكري، بعد تمنع الإدارة العربية في دمشق؛ واعتزامها على المقاومة.

في المدن السورية كان الإقبال على التجنيد مستمراً، الجرائد تنشر مقالات وطنية ملتهبة بالحماسة، مظاهرات صاخبة في الشوارع والميادين، الطلبة ينادون بالقتال إلى النهاية. عاد وزير الحربية يوسف العظمة من جولة في شمال سورية بهدف تجنيد المزيد من القوات، والاتصال بالحركة الوطنية التركية في كيليكيا. وتمكن، رغم ما واجهه من معارضة خفية للتجنيد في حلب، من إعادة تعزيز الجيش استعداداً لغزو فرنسي بدا حتمياً.

كانت الأيام الأخيرة للحكومة العربية، قد بدأت:

10 تموز: أرسل الملك فيصل ممثله نوري السعيد إلى بيروت، ليعلن نيته في السفر إلى أوربا، لعرض القضية السورية مجدداً على مؤتمر الصلح؛ ويطلب من المفوض السامي الجنرال غورو إعداد الوسائل اللازمة لمغادرته؛ أبلغه غورو أن الدعوة لم تعد مفتوحة، وأعلمه بأنه أعد إنذاراً رسمياً سيرسله بعد أيام، ولن يسمح للملك بالسفر ما لم يقبل الشروط التي يتضمنها.

11 تموز: في دمشق وصلت الأزمة إلى أوجها، حين عُرف فحوى الإنذار والشروط التي حملها نوري السعيد:

1. وضع سكة رياق ـ حلب، تحت تصرف الجيش الفرنسي.
2. قبول الانتداب الفرنسي.
3. إلغاء التجنيد الإجباري وتسريح المجندين.
4. قبول الأوراق النقدية التي أصدرها البنك السوري.
5. معاقبة المجرمين الذين ناوئوا فرنسا.

أطلع فيصل قناصل الدول الأجنبية في دمشق على فحوى الإنذار غير الرسمي؛ وناشد عدالة الحلفاء التدخل لإنقاذ سورية المهددة، وطلب لجنة تحكيم دولية واعداً بتنفيذ قرار اللجنة وشعبه.

12 تموز: القوات الفرنسية تتقدم إلى المعلقة، وتحتل محطة رياق، وهي النقطة التي يلتقي فيها الخط القادم من دمشق وحلب. وصلت الأخبار إلى دمشق، وأثارت قلقاً شديداً في المحافل الحكومية والوطنية، وهياجاً عظيماً بين مختلف طبقات الناس.

عقد فيصل مجلساً حضره كبار الزعماء ووزير الحربية يوسف العظمة؛ وقابل ممثلي الأحزاب السياسية في العاصمة. كذلك عُقد اجتماع شعبي، حثَّ فيه الخطباء الحكومة والجيش على رفض المطالب الفرنسية.

قام وزير الحربية باستدعاء عشرين فرقة، وأعطى الأوامر بتجميع وسائط النقل اللازمة.

13 تموز: عقد المؤتمر السوري جلسة، وطلب من الوزارة الإدلاء ببيانها، فقدم يوسف العظمة بيان الحكومة أمام المؤتمر، وأعلن إلى الأمة وإلى العالم أجمع: «إننا لا نريد إلا السلام والمحافظة على شرفنا واستقلالنا... ولا نريد الإخلال بالصِّلات الحسنة مع حلفائنا... لا نرفض المفاوضات... ونقبل كل حلٍّ لا يمس استقلالنا وشرفنا... نحن مستعدون كل الاستعداد ومصممون على الدفاع عن شرفنا وحقوقنا».

14 تموز: تسلَّم الملك فيصل الإنذار الفرنسي، وكان على شكل مذكرة باسم الحكومة الفرنسية، ويتلخص بأن الانتداب يمكن أن يتوافق مع وجود حكومة سورية؛ ويُعدد سلسلة من الشكاوى على أعمال حكومة دمشق مع مطالب محددة غايتها تأمين إشراف فرنسي على أعمالها؛ ثم يذكر الشروط الخمسة؛ ويضيف بأنها مجموعة لا تقبل التجزئة، تُقبل أو ترفض بمجموعها خلال أربعة أيام، تنقضي في منتصف ليلة 18 تموز، وفي حال الرفض فإن حكومة فرنسا تتحرر كليّاً من أيّ قيد، وقد لا تكتفي (بالضمانات المعتدلة) التي طلبها الإنذار. أما في حال القبول، فيجب أن تصدر الحكومة السورية الأوامر للسلطات بعدم عرقلة احتلال القوات الفرنسية للمحطات الواقعة على الطريق المؤدي إلى دمشق. أخيراً إصدار مراسيم التنفيذ لسائر الشروط قبل 18 منه، على أن يتم التنفيذ قبل انتهاء الشهر.

عقدت وزارة الأتاسي جلسة برئاسة الملك فيصل، تضاربت فيها الآراء حول الوضع. قال البعض إن الفرنسيين لن يهاجموا المنطقة الشرقية ما لم يرغَموا على ذلك، وأن العمليات الأخيرة ليست إلا مظاهرة عسكرية لإقناع الحكومة في دمشق بقبول الإنذار. ورأى البعض الآخر أن الموقف خطر جداً، بينما أصر وزير الحربية يوسف العظمة على الدفاع والقتال. ثم عقد القواد العسكريون برئاسة العظمة جلسة سرية للتداول في الخطط الدفاعية.

طلب فيصل من مندوب بريطانيا التدخل لدى فرنسا، فرفض مبيناً أن لفرنسا الحق الأول في سورية، وقد تثيرها هذه الخطوة، هذا بالرغم من وصول تقارير إلى لندن تقول بأن الفرنسيين بدؤوا بعمليات تحشيد حدودية، عربات مسلحة، ودبابات، وطائرات، ومدفعية، وفرق فرنسية وسنغالية دون ظهور مقاومة عربية.

15 تموز: تهافت أفراد الشعب بجموع كبيرة إلى الشوارع بعد أن علموا بالإنذار، وتجمّعوا في الساحات لتلقي آخر الأخبار.

دلت الإجراءات المُتّخَذَة عن عزم الحكومة على المواجهة، وأعلنت تطبيق الإدارة العرفية، وكانت لم تلغَ بعد، وبدأت باتخاذ تدابير دفاعية على اعتقاد أن دمشق هي الهدف الأساسي للتقدم الفرنسي.

أجرى يوسف العظمة ترتيباته العسكرية، فعين القواد لإدارة التحركات في مختلف الجبهات، وأهمها جبهة مجدل عنجر، التي تمركز فيها حوالي خمسة عشر ألف جندي سوري؛ كانت خطة العظمة إنشاء سلسلة حصون في هذه المنطقة المطلة على سهول البقاع والمسيطرة على طريق رياق دمشق.

أرسل الملك هيئة خبراء عسكريين لفحص تحصينات الجيش ودراسة إمكانياته من أبرز أعضائها ياسين الهاشمي؛ وكان الهاشمي من أبرز الداعين لاستعمال القوة العسكرية مع الفرنسيين قبل أشهر.

16 تموز: قدم الهاشمي تقريره إلى الملك، وكان مخالفاً لجميع التوقعات؛ ذكر فيه بأن الجيش أضعف من أنْ يثبت للمقاومة والدفاع، وليس لديه من العتاد ما يكفي لصد هجوم فرنسي شامل على الجبهة، والسبب تزايد عدد الجيش

الفرنسي وتعاظم قوته خلال هذه الفترة، فقد: «جاءتهم أسلحة وذخائر، أما نحن فلم نفعل شيئاً، المدافع ليس لها إلا عدد قليل من القذائف لا تكفي لحرب ساعة، وإذا اشتبك جيشنا في حرب نظامية، فعتاده ينفد بعد ساعتين».

قرر مجلس الوزراء عقد جلسة للقادة العسكريين للتأكد من الوضع العسكري جيداً، تخلف عنها يوسف العظمة. فتقدم كل واحد من الضباط بما يخصه من أمر التعبئة مع بيان بالأرقام والوثائق، وبينوا بأن الدفاع مستحيل، فأضعفوا احتمال أي نجاح في المقاومة العسكرية وصد الهجوم الفرنسي. أحد الوزراء سأل الضباط: لو دخلنا الحرب، فكم تقدرون أن نبقى في المعركة؟ فأجابوا: نصف ساعة. فتغلبت على رجال الحكومة فكرة المسالمة ومحاولة إنقاذ الموقف.

علم العظمة بالأمر، وبقي على تشدده، وأنذرهم بالاستقالة.

17 تموز: قرر مجلس الوزراء نتيجة اقتناع الحكومة بعدم إمكانية الدفاع قبول طلبات الجنرال غورو بدلاً من تدمير البلاد، على أن تجرى مفاوضات مع الفرنسيين، يُشترط فيها المحافظة على الحكم الوطني تحت الانتداب، لكن العظمة خالفهم، ورفض الاشتراك بتوقيع القرار، وانسحب من المجلس، فدعوه إلى حضرة الملك، واضطروه إلى التوقيع مكرهاً.

صدرت الإرادة الملكية بحلّ الجيش وتسريحه، وتوقيف استدعاءات التجنيد. وأوعزت الحكومة إلى القادة بسحب الجيش من الجبهة وإعادته إلى دمشق.

18 تموز: صباحاً دُعي أعضاء المؤتمر السوري، واجتمع قبل انتهاء مدّة الإنذار بـ 16 ساعة في قصر الملك، ظن أعضاء المؤتمر أن الدعوة من أجل إعلان الحرب، بينما كان الغرض حملهم على تأييد قرار الحكومة.

لم يكن المؤتمر على رأي واحد: تمسك أعضاء المنطقة الغربية والجنوبية بمبدأ الدفاع، ولم يطالبوا بأكثر من أن يتمكن الجيش من إعاقة تقدم الفرنسيين؛ كان اعتقادهم أن بمقدور التشكيلات الشعبية الدفاعية أن تعمل بعد ذلك على شكل حرب عصابات تلفت نظر العالم وتدفعه للتدخل؛ بينما جنح ممثلو المناطق الأخرى للسلام، وعملوا على تخفيف وطأة الإنذار، وقالوا بقبوله لأن الرفض سيؤدي إلى الحرب، وتخسر سورية كل شيء. وانفضّ الاجتماع دون الوصول إلى قرار.

عاود أعضاء المؤتمر الاجتماع في مقرهم، وعقدوا جلسة سرية للطعن بالحكومة ووصموها بالخوف والتردد؛ لاعتقادهم بأنها قررت التسليم، واتخذوا بالإجماع قراراً: «باعتبار كل حكومة تقبل شروط الفرنسيين غير شرعية، وعدم التقيد بأية معاهدة لا يقرّها المؤتمر، وتحميل الوزارة كل تبعة أو مسؤولية تجاه الوطن». وذهب وفد من المؤتمر برئاسة رشيد رضا، وأبلغوه للملك، فانزعج وقال لهم: «من أنتم؟ أنا الذي خلقت سورية». فرد رشيد رضا: «أنت خلقت سورية؟! لقد خُلقت سورية قبل أن تُخلق».

كان الملك فيصل قد أرسل دون معرفة الحكومة برقية إلى غورو، يعلمه فيها أنه قبل شخصياً وبصورة مبدئية شروطه. ورد غورو ببرقية تشعر باستلامها، ولكن «ما يريده ليس قبول الشروط وإنما تنفيذها»، وجدد مهلة الإنذار إلى 20 تموز.

أرفق غورو إنذاره بكتاب، طلب فيه صراحة تبديل الحكومة القائمة: «لا أستطيع أن أعول في تنفيذ الضمانات التي تشرفت بطلبها من سموكم الملكي، إذا تولت ذلك الحكومة الحاضرة، إن بقاءها في الحكم ينطوي على معنى العداء لفرنسا، لأنها كانت بذلت جهدها لجرِّ بلادكم إلى الحرب وإلقائها في أتون بلاياها ...». فكان من الضروري استقالة الحكومة.

طلب فيصل من ياسين الهاشمي تشكيل حكومة جديدة، غير أنه تردد، ثم اعتذر قائلاً: «الأوفق أن يتم قبول الشروط على يد الوزارة القائمة، على أن ينظر في تأليف الوزارة الجديدة، بعد الانتهاء من أزمة الإنذار».

19 تموز: ازداد الحماس شدة في دمشق، وتعذرت سيطرة الشعب على مشاعره إزاء مطالب غورو، بينما كانت الحكومة راغبة في التوصل إلى تفاهم مع الفرنسيين حتى ضد معارضة الشعب.

عندما اجتمع المؤتمر ثانية، أمرت الحكومة، بتعليمات من الملك، بتعطيل جلساته، كيلا يحرض الشعب على الثورة، ويدفع بذلك الجيش الفرنسي لاحتلال دمشق. وعندما أراد بعض النواب عدم الامتثال لأوامر الملك، أقنعهم رئيس المؤتمر رشيد رضا بتنفيذ الأمر خوفاً من ثورة داخلية، تكون عاقبتها اتّهام المؤتمر بأنه ضيَّع استقلال البلاد.

20 تموز: توصلت الوزارة بعد ظهر اليوم إلى قرارها النهائي بقبول شروط الإنذار، وأرسلت برقية الموافقة الرّسمية إلى الكولونيل كوس ضابط الارتباط الفرنسي، بعد أن قدر فيصل والوزراء أن عدم قبول الإنذار سيؤدي إلى إبادة الجيش. ورأوا أن لا أمل للبلاد في جيشها، خاصة وأن المنطقة الشرقية محرومة من السواحل وأراضيها محاطة بالقوات البريطانية والفرنسية، مما يجعل تموينها بالذخائر عسيراً، وأملوا بعد ذلك أن تتغلب الأفكار التحررية في أوربا وتسوى مسألة الانتداب بطرق دبلوماسية، كان القبول استسلاماً واقعياً لأمر بات محتوماً.

بدأت الإجراءات لتنفيذ الشروط المطلوبة، فتلقى قائد الفرقة المدافعة عن جبهة دمشق من مجدل عنجر (تحسين الفقير) أمراً هاتفياً مساء اليوم نفسه، بلزوم تحريك القطعات إلى دمشق حتى يبدأ تسريحها. أما القطعات العسكرية الموجودة في دمشق، فتم تسريحها فوراً.

بدأ انسحاب القوات من مجدل عنجر عبر وادي الحرير، بعد أن قرأ قائد الفرقة الأولى على الجنود قرار التسريح. كان الانسحاب مؤلماً، لأن خط دفاع مجدل عنجر كان منيعاً أكثر من خط دفاع ميسلون، لوجود حاجز طبيعي هو نهر الليطاني، عدا أن المواقع العربية كانت مشرفة على تحركات الفرنسيين، بل وكان الانسحاب كيفياً بحيث تُركت الأسلحة والذخائر على طول الطريق وفي المستودعات لعدم توافر وسائل النقل.

أثار قرار الحكومة بتسريح الجيش وانسحابه، استياء عاماً في دمشق؛ ابتدأ بخروج عدة جنود من ثكنة البرامكة، شاهرين السلاح بدعوى أن الحكومة استسلمت للفرنسيين، والتحق بهم المتحمسون من الأهالي، ومروا بشارع النصر، وبدلاً من أن يصدهم حرس الموقع التحق بهم، ثم زاد التجمهر بانضمام المشاغبين إليهم، وتعرضوا لسيارة وزير الحربية في شارع السنجقدار، واتهموه بالجبن والخيانة، وقاموا بمهاجمة الثكنات العسكرية بغية الحصول على سلاح، فمنعهم الأمير زيد بالرشاشات. ثم هجموا على القلعة، فحطموا الأبواب وأخرجوا المساجين، واستمر إطلاق النار إلى ما بعد منتصف الليل، ونُهبت بعض الدكاكين وقُتل 25 شخصاً.

21 تموز: عمّت الفوضى؛ المظاهرات تنادي بسقوط الحكومة، وتحث الناس على الجهاد؛ الجموع الغفيرة تجوب الشوارع، وتقترب من قصر الملك؛ الأصوات ترتفع وتتهم فيصل بالخيانة وتنادي بسقوطه مع الوزارة. ثارت ثائرة الملك من اتهامه بالخيانة، وبذل مرافقوه جهدهم لئلا يحصل اصطدام بين المتظاهرين وحرس القصر.

فجأة تواردت الأخبار بتقدم الجيوش الفرنسية من شتورة وزحلة نحو مجدل عنجر، ودخولها وادي الحرير دونما مقاومة؛ فوقعت الأخبار على فيصل والحكومة كوقع الصاعقة. لم تكن تحركات الجيش الفرنسي باتجاه دمشق من الأمور الداخلة في شروط الإنذار؛ استدعى الملك فيصل الكولونيل كوس واستفسر منه عن جلية الأمر، فأظهر كوس حيرة شديدة، وعجز عن التعليل، وسافر لاستجلاء الموقف، والسعي لإيقاف الجيوش الفرنسية.

عاد الكولونيل كوس، وأعلمهم بأن البرقية المتعلقة بقبول شروط الإنذار، قد تأخر وصولها إلى الجنرال غورو؛ بسبب انقطاع الأسلاك في جهات سرغايا. اقترح كوس إيفاد أحد رجال الحكومة إلى (عاليه) للتفاهم مع غورو في هذا الأمر.

تذاكر الملك مع الوزراء، فعادوا ورجحوا فكرة الدفاع عن دمشق ورفض طلبات غورو. نبههم يوسف العظمة إلى أن ضيق الوقت لا يسمح بإعادة تنظيم الجيش وجمع شمل الجنود والمتطوعة؛ فتعهد الرؤساء والزعماء للملك بجلب آلاف المتطوعين؛ ما جعل الملك والوزراء يضغطون على العظمة بدعوى أن الوقت وقت حمية وفداء.

وقع اختيار الملك على وزير المعارف ساطع الحصري لمقابلة غورو والتفاهم معه. قبل أن ينطلق الحصري في مهمته، اقترب منه يوسف العظمة، وهمس في أذنه: «أنا ذاهب إلى الجبهة لإعادة تنظيم الجيش على قدر الإمكان؛ فأرجو أن تعمل على إكسابي أكثر ما يمكن من الوقت».

أوقف العظمة عملية تسريح الجيش، وحاول إبقاء الوحدات المتراجعة في الأماكن التي وصلت إليها، وأصدر أمراً إلى القطعات المنسحبة من مجدل عنجر بالتوقف عند فوهة وادي القرن غربي خان ميسلون. تلقى الأمر قائد اللواء الأول

حسن الهندي في الساعة الرابعة إلا ربعاً بعد الظهر؛ ولم يكن قد بقي من لوائه إلا مجموعة من الفوج الأول والفوج الثالث يقل عددهم عن 300 جنديّ نظاميّ؛ يساندهم فوجان من لواء المدفعية، أخذ بنشرهم في مواقع على شكل جناحين، تحميها المدفعية على المرتفعات، في حين جعل أركان اللواء في الوسط. مع حلول منتصف الليل بدأت أفواج المتطوعين تتدفق إلى ساحة المعركة بأسلحة مختلفة، وبعضهم دون عتاد، وجرى تنظيم هذه القوة وتوزيع الأسلحة عليها، ووضعها وراء الخطوط كاحتياطي، ولم يتجاوز عددها 800 متطوع.

22 تموز: قابل الوزير ساطع الحصري في اليوم التالي - وهو في طريقه لمقابلة غورو - الوزير العظمة في ميسلون، وكان يشرف على توزيع القوات، فأعاد عليه العظمة طلبه، قائلاً: «اكسب لنا أكثر ما يمكن من الوقت».

قابل الوزير الحصري غورو في (عاليه)، وكان المفوض الفرنسي في حالة غضب وعناد، ورفض دعوى فيصل بإرساله البرقية قبل انتهاء الإنذار بست ساعات، وحمَّل الحكومة تأخر وصولها، لإفساحها المجال لنشاط العصابات، ولم تردعهم. كما رفض أن يصدر أوامره بالتوقف، لأن الجيش لا يمكنه إيقاف زحفه قبل الوصول إلى مكان يأمن فيه من جميع الطوارئ؛ على أن الحصري نجح بالحصول على تمديد المهلة المحددة للإنذار 24 ساعة تنتهي في منتصف ليلة 23 تموز؛ لكنه عاد ومعه قائمة بمطالب وضمانات وشروط جديدة. في حين كان يوسف العظمة يجمع ما أمكن جمعه من قوى، لدعم الجبهة العسكرية في ميسلون نظراً لأن القوات العسكرية المنظمة قد تشتتت وتضعضعت؛ ولم يستطع أن يحشد للمعركة أكثر من 4000 جندي و100 هجانه، تبعهم جماعات من الأهالي والعربان لنجدة اللواء الأول.

23 تموز: اجتمعت الوزارة صباحاً للنظر في المطالب الجديدة، وفي أثناء الاجتماع جاء الكولونيل كوس ومعه برقية أخرى من غورو؛ يطلب السماح للقوات بالتقدم نحو خان ميسلون بحجة توفر الماء في المنطقة وارتباطها بالسكة الحديدية بطريق صالحة لسير العجلات؛ أي أنه يريد التقدم بجيشه إلى مسافة 25 كم من دمشق، وبعدها يتعلل بطلب جديد.

لم تترك برقية غورو مجالاً لقبول الشروط، ولم يعد بإمكان فيصل أن يقبل أكثر أو أن يحمل غيره على قبولها، بعد أن ظلت الحكومة حتى المساء تعتقد بإمكان تجنب الحرب على أمل أن تكسبهم هذه السياسة عطف أوربا.

أدرك فيصل أنه لا تأثير لتأخر الردّ ولا لظروف تمديد المهلة على مجرى الأحداث؛ ولم يعد يثق بغورو الذي أنكر تلقي قبوله للإنذار قبل الوقت المحدد لكي ينفذ ادعاءات فرنسا العدائية؛ ووضح له أنه يريد دخول دمشق عنوة؛ ليفرض الاحتلال بقوة السلاح. ولم يكن الإنذار سوى ذريعة لتنفيذ هذه الخطة بالذات. كما كانت المطالب الجديدة تتضمن رضوخاً كاملاً، أكثرها صعوبة قبول بعثة فرنسية للإشراف على تنفيذ الشروط وطرق تطبيق الانتداب؛ ما يعني أن فرنسا قررت الحكم المباشر من دون فيصل، وأنها لن تعدل عن فكرة الاحتلال، بل تسعى لخلق الحجج لجعله أمراً واقعاً.

خطب الملك فيصل في المسجد الأموي، وأعلن للناس من فوق المنبر: «أردت أن أردَّ عنكم زحف جيش الأعداء بإجابة مطالبهم، فلم يرتدوا. فإن كنتم في حاجة إلى بلدكم، فاخرجوا للدفاع عنه».

ذاع خبر قرار الملك بالدفاع عن دمشق، فازدحمت الشوارع بالناس، وازدادت كثافة البشر أمام القصر، وبدأت حركة تطوع شاملة مقترنة بمظاهرات حماسية، كان على رأسها الشيخ كامل القصاب الذي دخل على الملك قائلاً: «ما دمت قد قررت الدفاع، فأنا أعدك بتجنيد عشرة آلاف حامل بندقية حتى المساء». وفي المساء عاد الملك وقدم له بضع مئات من طلقات البنادق مختلفة العيارات، مع 300 ذهبة لشراء عتاد؛ وكان ياسين الهاشمي حاضراً، فقال بمرارة: «أبمثل هذا العتاد تصدون فرنسا؟ تظنون أن الحرب كالمظاهرات والنزهات؟».

مساءً لم يعد بوسع الحكومة أن ترسل أكثر من ملاحظة بسيطة سلمتها إلى الكولونيل كوس، نصّت على: «نحن مستعدون لتنفيذ شروط إنذار 14 تموز بحذافيره، لكن قبول الشروط الوارد في مذكرتكم الأخيرة يعرضنا لا محالة إلى حرب أهلية». مما أعطى غورو ذريعة كي يصدر أوامره للقوات الفرنسية بالتحرك نحو دمشق.

24 تموز: منذ الفجر كانت القوات العربية في جبهة ميسلون متيقظة ومتهيئة، تنتظر نشوب المعركة. في الساعة الرابعة والنصف صباحاً أمر يوسف العظمة قائد اللواء بتفتيش الجبهة؛ فذهب إلى الفوج الأول على يمين الطريق، بينما أرسل مرافقه إلى الفوج الثالث على الجناح الأيسر ليتفقده. وعندما لاح ضوء النهار، تبين أن الفرنسيين قد وضعوا ليلاً بطارية مدفعية في فم وادي القرن. في هذا الوقت مرت طائرة فرنسية فوق الجبهة، فرمتها المدفعية وبعض الرشاشات والمتطوعة، وأطلقت المدفعية نيرانها على مدفعية العدو المتمركزة في مخرج الوادي، بينما أخذت المدفعية الفرنسية الثقيلة تصب نيرانها على الخطوط الأمامية والخلفية. في الساعة السادسة اجتاز أحد أفواج المشاة الفرنسية وادي القرن، وتخطى الحواجز المقامة على الطريق الموضوعة لعرقلة تقدم الدبابات؛ وبدأت الخيالة الفرنسية تتقدم من الجناح الأيمن على مرتفعات وادي الزرزور الغربيّة، يرافقها فوجان من المشاة، أخذوا بتسلق منحدراته الشرقية بحماية كثيفة من المدفعية والدبابات. من الوسط على جانبي الطريق المزفّت، أخذت الدبابات مع سرية من المشاة في اجتياز الوادي وإزالة الموانع.

كانت معنويات الجنود والمتطوعة العرب مرتفعةً، وكان أملهم بالنصر كبيراً، ويزداد كلما شاهدوا تباطؤ تقدم الفرنسيين، بالرغم من نيران مدفعيتهم ورشاشاتهم الكثيفة. في هذه الآونة أصابت قنبلة مباشرة موقع رشاشَين محصنين، هدمته على رؤوس الجنود، فانسحبوا منه تاركين الرشاشَين. ولم يجسر الفرنسيون على الاستيلاء على الموقع، وبقي نحو ساعة خالياً، حتى أعيد إشغاله بعدد من المتطوعة. الطائرات الفرنسية تحوم فوق ميدان المعركة، وتلقي بقنابلها وصليات رشاشاتها عليه وعلى الخطوط الخلفية. كان ثقل المعركة موجهاً إلى الجناح الأيمن نحو الفوج الأول.

في الساعة الثامنة والنصف، شوهد على الجناح الأيسر في مرتفعات قرية (ينطة) اشتباك بين القطعات العربية من الخيالة والهجانة والقوات الفرنسية؛ فأمر قائد الفرقة بإرسال عدد من المتطوعة لإسنادهم؛ ولما اشتد قصف المدفعية والطائرات، انسحب أكثر المتطوعة الذين لم يكن لهم سابق معرفة بالحرب والطائرات، ولم يبق منهم في احتياطي الفوج الأول أكثر من مئة وخمسين عنصراً،

وحصل مثله في الفوج الثالث، هذا عدا من انسحب من الضباط والجنود أيضاً. بات مجموع ما بقي من الجنود النظاميين في الجبهة لا يتجاوز 250 محارباً. ومع هذا استمرت المعركة على أشدها، ووضع الجيش العربي لا يزال سليماً، ومعنويات الباقين منه جيدة.

خلال المعركة كان وزير الحربية يوسف العظمة في نقطة الترصد، يراقب مجرياتها، وبالقرب منه قائد الفرقة وآمر اللواء ومرافقه، ظهرت دبابات العدو تتقدم صاعدة على الطريق، إلى أن اجتازت نصف المسافة بين أسفل الوادي ومركز الترصد؛ ولما أصبحت في زاوية غير مرئية للمدفعية، توقفت قليلاً، ثم تقدمت الدبابة الأمامية وبدأت تصعد الطريق نحوهم. فلما شاهد العظمة تقدم الدبابة بينما المدفع صامت، مع أنه وضعه خصيصاً في أعلى منعطف الطريق من خط دفاع الجيش؛ ليسيطر على جميع المنعطفات من أول الطريق حتى أسفل الوادي؛ التفت إلى آمر اللواء وسأله غاضباً: «ما بال المدفع لا يرمي الدبابة؟! أنا ذاهب إليه، وأنت اذهب إلى اليمين وثبت الجنود». عندما اقترب يوسف العظمة من المدفع وطلب من الرامي أن يرمي الدبابة المتقدمة، في هذه اللحظة رمته الدبابة بطلقة من مدفعها عيار 37 فأردته شهيداً. وعندما عاد آمر اللواء اعتقد أن العظمة قد عاد قبله، فلم يجده. وسمع من خلفه صوتاً ينادي: «يوسف بك قتل». التفت فرأى ضابطاً برتبة وكيل من سرية الرشاش مكشوف الرأس، يركب حصاناً، وهو ما يزال يصيح: «يوسف بك قُتل». فأمره بالسكوت مهدداً إياه بالمسدس، ثم أمر بحجزه في الخلف. بعد قليل شوهدت دبابة تتقدم على بعد 250 متراً، فرمتها بعض الرشاشات، فتراجعت مع من كان يحميها من المشاة، واستمر ضغط العدو على الجناح الأيمن.

سرعان ما ذاع خبر استشهاد يوسف بك بين صفوف المقاتلين، فبدأ تسربهم إلى الخلف جنوداً وضباطاً. ولم يبق من الأفواج الأمامية المرابطة سوى آمر اللواء حسن الهندي، يقود الجبهة ومعه مرافقه وجنوده، بالإضافة إلى عشرة جنود من الفوج الثالث. أما المدفعية فنفدت ذخيرتها، وتمكنت من سحب ستة مدافع صحراوية ومدفعي أوبس، وتركت في ميدان المعركة 19 مدفعاً، فيما انسحب قائدها إلى دمشق.

حوالي الساعة الحادية عشرة كان الفرنسيون قد استولوا على جميع الخطوط الأمامية، ولم يبق أحد من الأفواج؛ كما لم يبق في نقطة الترصد مع آمر

اللـواء الهنـدي سـوى مرافقـه والجنـود؛ فـأمر مرافقـه بالانسـحاب قبلـه مـع نصـف الجنود، ثم انسحب بعده.

لم تسـتغرق المعركـة بـين الجـيش العربـي والجـيش الفرنسـي أكثـر مـن سـت سـاعات؛ أخفقـت فيهـا الخطـة الـتي وضـعها وزيـر الحربيـة يوسـف العظمـة؛ فقـد أخطـأ في جعـل قيادتـه في الخطـوط الأماميـة، ولم يتوقـع ألا تنفجـر الألغـام قـرب مدخل وادي القرن، كما تـأخرت العمليـة المرسـومة للالتفـاف ومباغتـة الفرنسـيين، ونفدت ذخيرة الرشاشـات والمدافع، ومـع ذلـك كانـت الخسـائر الفرنسـية أكثـر ممـا كـان متوقعـاً (150 جنـدياً)، لكـن الخسـائر العربيـة كانـت الأكثـر مـن ناحيـة العتـاد والجنود، ومن بينهم يوسف بك.

تابع الملك فيصل أخبار المعركة من موقع في الهامة، وفي السـاعة العاشـرة عرفـت الحكومـة بنبـأ الانكسـار، حـين أبلـغ قائـد الجبهـة القيـادة العامـة بأنـه: «أفاد مراقبونـا الأمـاميون أنهـم يـرون جموعـاً غفـيرة تعـود مـن جبهـة ميسـلون، ولم يروا منتهاها».

غادر فيصل دمشق بعد ظهر اليوم نفسه إلى الكسوة مع وزرائه، ومـن ثـم أُبلـغ رسمياً باسـم الحكومـة الفرنسـية بضـرورة مغـادرة الـبلاد، وخـيم مـن جديـد علـى سورية الحكم الأجنبي.

مـا الـذي يجعـل مـن هـزيمـة كاسـحة وسـريعة مـأثرة كـبرى في تـاريخ سورية الوطني؟!

كـان يوسـف العظمـة أكثـر مـن يعـرف بـأن عـدم القبـول بالمطالـب الفرنسـية سيؤدي بسورية إلى حرب خاسرة، كان على يقين بضعف تسليح الجيش، الـذخائر الموجودة قليلة وغير فعالة، ولا يمتلك مقداراً كافياً مـن العتـاد، عـدا أن الجـيش قـد سُرّح، ومن المستحيل إعادة تنظيمه بين ليلة وضحاها.

إبان التعبئة الوطنية ضد الفرنسيين، بـالغ العظمـة بقـوة الجـيش العربـي. فيمـا بعد عندما استفسر ساطع الحصري منه عن الحقيقة، قال له: «يا عزيزي، أنـا كنـت أبلـف، لأخـدع الفرنسـيين». فقـال الحصـري: «لكـن الأمـور تجـاوزت حـدود البلـف،

وأصبحنا أمام تهديد حقيقي». فقال العظمة بمرارة: «لو كان الملك فيصل يسير معنا على طول الخط منذ البداية، لكان من المحتمل أن نفعل شيئاً، لكن الآن..؟!».

كان لتردد الملك فيصل أكبر الأثر في تمييع حركة التجنيد، والتطوع، وتصعيد المقاومة، وحشد القوى الوطنية. أراد الملك الحفاظ على مملكته الوليدة، ولو كان تحت السيطرة الأجنبية. وقدم الكثير من التنازلات، ليوفر على سورية احتلالاً مفضوحاً، بيد أنها فرصة فوتها عليه الفرنسيون. كانوا يريدون سورية مستسلمة ومغلوبة ومن دون ملك؛ فخسر فيصل مملكته، وكان يمكن أن تكون نموذجاً للاستقلال الحقيقي ونواة لوحدة العرب.

لم يجهل يوسف العظمة مهمته، كان يعرفها جيداً، ولم يجهل ما هو بانتظاره. في اليوم السابق لمقتله عشية ذهابه إلى الجبهة ودَّع الوزراء، وقال للملك: «أنا ذاهب، إني أترك ليلى أمانة لديكم أرجوكم لا تنسوها». كان قبل قليل قد ودع ليلى ابنته الوحيدة وزوجته بعد مجيئهما من الآستانة منذ أسبوعين، مدركاً أن المعركة خاسرة، وأنه ذاهب إلى الموت.

كان العظمة جندياً شجاعاً، يحارب عندما يؤمر بالحرب دون أن يفكر إذا كان سيكسب المعركة أو يخسرها. وكانت معركة ميسلون معركة يستحيل كسبها، لكن لا بد من قبول التحدي مهما كانت التضحيات، ولا بد أن تخاض، مهما بلغ اليأس. ولقد فاق حجم الهزيمة توقعات السوريين، لكن الذين صمدوا هناك وحاربوا ببسالة منقطعة النظير جعلوا من مجرد هزيمة ساحقة معركة مشرفة؛ يستعيدها السوريون بكل كبرياء وفخر. لم يكن سقوط يوسف العظمة في ميسلون انتحاراً قدر ما كان ارتقاء بالمقاومة إلى حدود الموت دونما حسابات للحياة. كان إحساسه بكرامة الأمة قد جعل منه رمزاً لصمودها.

بعد ميسلون راهن الفرنسيون على انتهاء المقاومة، لكنهم أخطأوا التقدير، تحداهم السوريون طوال مدة وجودهم، وقال ديغول فيما بعد، عندما اضطر الجيش الفرنسي للانسحاب منها مرغماً: «كانت سورية مخيّبة لآمالنا».

فواز حداد

عبد الرحمن الكواكبي

الجهاد السياسي

(1848 - 1902)

تذكر بعض المصادر التي أرّخت للكواكبي، أن ولادته كانت في حلب عام (1265هـ 1848م)، وفي مصادر تعود لعائلته، تذكر أن ولادته كانت عام (1271هـ1854م). والكواكبي هو عبد الرحمن بن أحمد البهائي بن مسعود الكواكبي، والده الشيخ أحمد بهائي، كان من البارزين في المجتمع الشامي بعد أن كان أميناً للفتوى في حلب، ومدرساً في الجامع الأموي بدمشق، ومدرساً في المدرسة الكواكبية في حلب، وقد توفي سنة (1300هـ). ووالدته هي السيدة عفيفة بنت مسعود آل النقيب المفتي في أنطاكية.

هاجر أجداد عبد الرحمن إلى حلب منذ أربعة قرون، فأصابوا فيها شهرة واسعة ومقاماً رفيعاً. وعندما بلغ الكواكبي سن الخامسة، أحضر له والده أستاذاً علّمه أصول اللسانين التركي والفارسي. وفي المدرسة (الكواكبية) المنسوبة لأسرته، تلقى العلوم العربية والشرعية. وكان والده يدير هذه المدرسة ويدرّس فيها، فقرأ عليه مبادئ العلوم العربية والدينية. وقد كان من أساتذته، في هذه المدرسة، الشيخ «عبد القادر الحبال»، والشيخ «محمد علي الكحيل» أمين الفتوى بحلب آنذاك. وقد أجازه أساتذته بما لُقّنه عنهم. وأخذ، إلى جانب العلوم اللسانية والدينية، طرفاً من العلوم العصرية. وكان أستاذه في ذلك الحين الأديب التركي «خورشيد»، الذي أتقن الكواكبي على يديه اللغة التركية واللغة الفارسية تكلماً وكتابةً، مما أكسبه شهرة زائدة بين أقرانه. ولم يكتفِ بهذا القدر، بل أخذ يطالع، منذ ذلك الحين، كتب التاريخ والفلسفة وما كان يقتنيه من المجلات والكتب العلمية والاجتماعية، فأصاب من ذلك جميعاً حظاً وافراً من السياسية والعمران والتاريخ.

أُولع الكواكبي منذ صباه بالسياسة، فظهرت تباشير جهاده السياسي في وقت مبكر، واتخذ داراً لنفسه يجتمع فيها مع أصدقائه للتداول والمشاورة في شؤون

البلاد. ولعل دراسته الدقيقة لقوانين الدولة وإحاطته بها وحفظه لبعضها، كان يعينه على اكتشاف الداء وتلمس الدواء بعين البصير المتفهم لخفايا الأمور وملابساتها ودقائقها. وقد توزع نشاطه في أكثر من حقل، فكان أول ما اضطلع بأعبائه، وظيفة محرر عربي ومترجم تركي لجريدة (فرات) الرسمية (1875 – 1880)، ثم ما لبث أن تقلَّب في وظائف متعددة: فقد شغل عام (1880)، منصب عضو فخري في لجنة امتحان المحامين بحلب، كما عُين سنة (1881)، رئيساً فخرياً للجنة المنافع العمومية في حلب. وفي سنة (1887)، شغل منصب مدير إجراء حلب، وفي سنة (1895)، ترأس كتاب المحكمة الشرعية، وترأس غرفة التجارة والزراعة والصنائع في حلب، وفي سنة (1899)، عُين نائباً شرعياً لقضاء راشيا، لكنه لم يمارس هذه الوظيفة، لأنه غادر حلب متخفياً إلى الإسكندرية.

فيما يتعلق بنشاطاته الأخرى، فقد أنشأ جريدة (الشهباء) في حلب سنة (1876)، التي كانت تصدر أسبوعياً. وصدر منها خمسة عشر عدداً، إلا أن الحكومة سارعت بإلغائها. ثم أصدر جريدة أخرى باسم (الاعتدال)، والعدد الأول منها مؤرخ في (25 تموز 1879)، وقد كانت تصدر باللغتين العربية والتركية، ولكنها لم تدم كذلك، فسرعان ما أغلقتها الحكومة. وقد نشر الكواكبي مقالات شتى في صحف (النحلة) بنسختيها العربية والانكليزية، وفي (الجنائن، وثمرات الفنون، والجوائب، والقاهرة، والمؤيد، والمنار)، وكانت مقالاته تصل إلى بيروت والقاهرة ولندن. لكن، وبعد أن عُطلت صحيفتاه، انكبَّ على دراسة الحقوق حتى برع فيها، وعُين عضواً فخرياً في لجنتي المالية والمعارف العمومية، والأشغال العامة. ثم عضواً فخرياً في لجنة امتحان المحامين، ثم صار مأموراً للأجراء. وبعد هذا، اتخذ مكتباً في الفرافرة قريباً من بيته وسراي الحكومة عند المدرسة العصرونية، استقبل فيه المظلومين من سائر الفئات واستمع إلى كل أشكال الظلم؛ حيث كان يسعى لتحصيل حقوقهم ورفع ظلماتهم بتحرير الشكاوي وإرشادهم إلى طرق الاحتجاج، وكل ذلك كان خدمة مجانية دون مقابل. ومن جملة ما دافع به الكواكبي عن المظلومين، أنه احتج على عدم قبول تطوع بعض المسيحيين في الجيش العثماني إلا بعد اشتراط تغيير أسمائهم بأسماء إسلامية. ومن أشهر دفاعاته عن المظلومين، دفاعه عن المحامي «زيزون جقماقيان»، الذي كان يتدرب على المحاماة في مكتبه ويدافع عن بني ملته

الأرمن. وقد أدى به دفاعه عن الحرية والأحرار، إلى أن زُج به في غياهب السجن، مع مجموعة من أعيان حلب ووجهائها، بتهمة التحريض على اغتيال الوالي، الذي أطلق عليه الرصاص من قبل واحدٍ من الأرمن المتحمسين. ولم يطلق سراحه إلا بعد أن خرجت أول مظاهرة سياسية نسائية في تاريخ البلاد من دار «أحمد الكيخيا» (والد السياسي السوري الراحل المرحوم رشدي الكيخيا) بحي الفرافرة، ضمت زوجته وزوجة الكواكبي وزوجات معتقلين سياسيين آخرين، مثل: محمود الشريتجي وحسام القدسي، ونافع أفندي الجابري، ونصري أفندي الأنطاكي، وعابد بك الدري، وأحمد بك الداغستاني، وسواهم.

ورغم إطلاق سراحه من السجن، فإنه لم يخلص من غضب الوالي عليه؛ فما زال الوالي يضيّق عليه الخناق، حتى ضجر من تلك الحالة المضنية، فأغلق مكتبه ولزم منزله، وانقطع عن أصحابه وأترابه. بقي على تلك الحال، إلى أن عُين الوزير «عثمان باشا» والياً لحلب، فقرب إليه السيد «عبد الرحمن»، ليكون من أعوانه ومعينيه، وأسند إليه رئاسة البلدية في (10 شباط 1893)، حيث قام بمشاريع عمرانية كثيرة، من أهمها أنه قرر إقامة أعمدة حديدية في مداخل سوق المدينة الأثرية، كي تحول دون دخول الجمال إلى هذه السوق، فتؤذي المارة وتلوث المكان. ومن مشاريعه أيضاً انكبابه على دراسة مشروع إنشاء (سد الفرات) عند قرية «يوسف باشا»، لمدِّ حلب بالمياه العذبة، ومشروع تجفيف مستنقعات الروج قرب مدينة إدلب. وسعى الكواكبي للحصول على امتياز لمد سكة حديد حلب- أنطاكية حتى ميناء السويدية. كما أن نهر قويق نال من اهتمامه الشيء الكثير، فقد حضّر دراسة لجرِّ مياه نهر الساجور إلى حلب ليرفد نهر قويق. وكلّف بعض المهندسين باستثمار النبع الحار المعدني (حمامات الشيخ عيسى) وتجميلها وترميمها. وبمساع من تجار متضررين من الإصلاح بسوق المدينة، عُزل الكواكبي عن رئاسة البلدية في (19 آذار 1893)، وغُرّم بقيمة الأعمدة الحديدية التي أقامها على مداخل الأسواق، كما غُرم بفروق رواتب موظفي البلدية التي زادها قطعاً لدابر الرشوة. وفي عام (1894)، تسلّم وكالة المحكمة الشرعية بحلب، فنظم ديوان المحكمة، وضرب بيد من حديد على شهود الزور، الذين كانوا يتجمعون عند بابها. وثارت ثائرة هؤلاء، وأكثرهم متعممون وحملة مسابح متظاهرون بالتدين. ووصلت

شكوى هؤلاء إلى شيخهم الأكبر، فرأى في هذه المناسبة فرصة سانحة لإبعاد الكواكبي عن المحكمة الشرعية، فاستصدر أمراً بعزله عن نيابتها.

في سنة (1895)، سافر إلى اسطنبول، وانزوى في أحد خاناتها؛ حيث جمع، من تردده إلى قصر يلدز، مادة كتابه (طبائع الاستبداد)، والتقى في هذه المرحلة بـ «أبي الهدى الصيادي»، الذي أحسن استضافته. وبعد أن أقام في اسطنبول بضعة أشهر، قفل منها راجعاً إلى حلب. وفي سنة (1896)، التزم إدارة الريجي (شركة انحصار الدخان)، والتي أحالها إلى شركة مساهمة. ولثقة الناس به، أقبلوا على الاكتتاب فيها؛ غير أن الوالي أصدر أوامره بحرق التبغ العائد لها سراً. فأصيبت الشركة بخسائر فادحة، انتهت بها إلى الإفلاس.

في سنة (1898)، غادر عبد الرحمن حلب إلى مصر خفية، واستُقبل هناك استقبال المصلح الملهم. وفي مصر استطاع أن يعبر عن آرائه بصراحة وحرية. دخل عضواً عاملاً في جمعية الكتاب، وما لبث أن نشر كتابيه (أم القرى) و(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد). بالإضافة إلى ذلك، التفَّ حوله جماعة من الأدباء الأتراك، الذين كانوا يزعمون أنهم من طائفة «جون تورك»، وما هم في الحقيقة إلا جواسيس يرقبون حركاته. وبعد اجتيازه لبلاد الدولة العلية ومصر والسودان، خرج سائحاً في البلاد، فطاف جانباً من سواحل أفريقيا الشرقية وسواحل آسيا الغربية، ثم أتمَّ سياحته، فاختبر بلاد العرب التي كانت موضع أمله أتم الاختبار. فما كان منه إلا أن دخلها من سواحل المحيط الهندي، وما زال يتوغل فيها حتى دخل بلاد سوريا، واجتمع بالأمراء والشيوخ والقبائل. وعرف استعدادهم الحربي، وانتهى في رحلته إلى (كراتشي)، من موانئ الهند. ومن ذلك الميناء، عاد على متن سفينة حربية ايطالية، حملته بتوصية من وكيل ايطاليا السياسي في مسقط، فطاف به في سواحل بلاد العرب وسواحل أفريقيا الشرقية.

في (15 حزيران 1902)، وبعد أن احتسى فنجاناً من القهوة في مقهى اعتاد التردد عليه، شعر بالألم في أمعائه، فقام وذهب في الحال إلى داره. وقبل وصول الطبيب فارق الحياة. ومع نور الصباح كان كبار رجال مصر، قد تلقوا النعية ومنهم (الخديوي)، الذي أصدر أمراً بتشيع جنازته على نفقته الخاصة. وكانت جنازة رسمية، شارك فيها الخديوي ممثلاً عن نفسه، كما شارك فيها كبار رجالات مصر،

ودفن في سفح (جبل المقطم). وبعد مضي ثلاثين سنة تقريباً على وفاته، نقلت رفاته إلى مقبرة خاصة ببعض كبار مشاهير الرجال في التاريخ القديم.

لو أننا نظرنا في مجمل التراث الذي تركه لنا الكواكبي، لوجدنا أن هذا التراث يتألف من كتابين أساسيين: (أم القرى)، وهو عبارة عن وصف لحاضر العالم الإسلامي كما تبدى للكواكبي في نهاية القرن التاسع عشر. وهو ينحو في هذا الكتاب نحواً إسلامياً صرفاً في الوصف والتشخيص، فضلاً عن سبل الحل التي اقترحها للخروج بالعالم الإسلامي من وهدته التي كان وما يزال يتردى فيها. والكتاب، مع ذلك، في جملته متماسك، لأنه ينطلق من مقدمات إسلامية رئيسية، ويستنتج منها النتائج المترتبة عليها، بالمعنى الدقيق للكلمة.

ومن الممكن النظر إلى هذا الكتاب على أنه (يوتوبيا إسلامية)، تستهدف مواجهة الفتور بوصفه واقعاً مسيطراً على العالم الإسلامي وعلى الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر. غير أن الكتاب، أو هذه (اليوتوبيا)، لا يكتفي بمجرد التحليل التفصيلي لأسباب الفتور وأوجه الضعف المختلفة التي ألمت بالمسلمين في ذلك الزمان؛ بل إن الكتاب أيضاً يحاول أن يستكشف الأوجه المختلفة والمسالك اللازمة، التي من شأنها أن تمكن المسلمين من تجاوز هذا الفتور ومن الانعتاق من التقليد الذي سيطر عليهم، إلى المشاركة في حياة العالم المتمدن، ولكن في الحدود التي رأى أن الالتزام بها ضروري، للبقاء ضمن الدائرة الإسلامية الثقافية والدينية.

ركز الكواكبي، في مناقشته لفتور المسلمين وضعفهم، على عزل ثلاثة أسباب، تحدث عنها بصراحة وتفصيل، عدّها مسؤولة عما آل إليه حال المسلمين من التخلف والجمود والضعف. وهي أسباب دينية وأخلاقية وسياسية، بالإضافة إلى الدور السلبي الذي لعبه التخلف السياسي والإداري للدولة العثمانية في ذلك الوقت.

أما كتابه (طبائع الاستبداد)، فإن جزءاً منه لا بأس به، يتألف من أفكار حداثية، علمانية، ديمقراطية، أوروبيةّ المنشأ والتوجه. وإذا ما قارنا بين هذا الجزء من (طبائع الاستبداد) وبين (أم القرى)، فسنجد أن الكتابين يشكلان بنية متناقضة، التضاد شديد الوضوح فيما بين أفكارهما ورؤاهما وتشخيصاتهما؛

حيث أن الكواكبي، في أي من فقراتهما، لم يستطع أن يرفع هذا التضاد البين فيما بينهما. لو نظرنا في كتابه (طبائع الاستبداد)، وهو الأهم في تراث الكواكبي، لتبين لنا أنه نموذج بيّن وصارخ على التضاد الذي يمكن أن يحفل به كتاب أو فكر مؤلف من المؤلفين. فمن يقرأ هذا الكتاب بعناية ودقة، سيكتشف أنه يتألف من مجموعة كتب، أو على الأقل من كتابين، جمع المؤلف فيما بينهما جمع تجاور بين دفتي كتاب واحد. وهذا يعني أن الكواكبي ينطلق من نقاط ابتداء متعددة متناقضة ومتضادة ومتنافرة، وليس من نقطة ابتداء واحدة ينميها ويستخرج كل ما تنطوي عليه ممكنات منطقية ووجودية وتاريخية. فهذا الكتاب أوروبي حداثي، علماني، تنويري، وعلاقته بالثورة الفرنسية واضحة بيِّنة: حرية، إخاء، مساواة. وهذه هي معظم أفكار التنوير الفرنسي الأساسية للقرن الثامن عشر، التي وصلت إلى الكواكبي متضمنة، بصورة أو بأخرى، في هذا الكتاب. وهو من هذه الناحية وثيقة أوروبية بامتياز. وما نعنيه (بوثيقة أوروبية)، هو أن هذا الكتاب يشهد على التأثر العميق الذي خضع له الكواكبي بأمهات الأفكار الفرنسية، التي أنتجها عصر التنوير، وقام بنقلها إلى اللغة العربية بعض المثقفين العرب والأتراك.

وبهذا المعنى، فإن الكواكبي يكشف لنا هنا عن شخصية منفتحة، عقلانية، واسعة الإطلاع، وهو يترك نفسه على سجيتها، تتأثر بهذا التيار الحداثي الوافد إلينا من وراء البحار، أملاً في أن يترجم العرب عن أنفسهم في دورة حضارية جديدة في صورة من هذه الحداثة وذلك التنوير. ولذلك فالكتاب، من هذه الناحية، يشكل نقداً نافذاً للاستبداد، والدين، وغياب المواطنة، واستئثار الأقلية بالخيرات من دون الأكثرية، وانفراد شخص واحد بالأمر كله من دون الجميع، سياسة واقتصاداً ومجتمعاً. ومن ثم، فالكتاب بجملته نقد للشرق وللأوضاع العربية وللأدوار التي يلعبها في هذا الشرق رجال الدين والسياسة؛ وهو، قبل كل شيء وبعد كل شيء، نقد لطريقة التفكير التقليدية، وسعي لوضع طريقة مختلفة في التفكير، مقابل طريقة التفكير التقليدية، التي ما تزال سائدة في كثير من الأوساط.

غير أن طبائع الاستبداد، وفي الوقت نفسه، خاضع لتيار مناقض تماماً هو تيار التقليد والسلفية. ولذلك فهو بالمثل وثيقة شرقية إسلامية عربية، تشهد على أن صاحب هذا الكتاب لم تنتصر لديه أفكار التنوير والحداثة والديمقراطية

والحرية والإخاء والمساواة والمجتمع المدني والحكومة الديمقراطية بالمعنى الدستوري للكلمة، ذلك لأن الكواكبي يستعيد التراث كاملاً في هذا الكتاب بصورة أو بأخرى، وكأننا بإزاء وثيقة متحدرة إلينا من القرن الرابع أو الخامس الهجريين.

وهكذا، فإن الكواكبي يعيد الكرامة والأهمية لكل العناصر التي بدا أنه ينقدها ويدمرها لصالح إقامة عالم جديد. إنه يقوم بعملية معاكسة، يمكن اعتباره بمقتضاها ينقلب على هذا الجديد، مما يفتح الباب مرة أخرى أمام ترسيخ القديم، عندما يعيد الاعتبار كاملاً لتلك الذات السلفية مع كل ما من شأنه أن يؤدي بطريقة أو بأخرى إلى التقدم. فهو بذلك يبعث الذات السلفية من رقادها، ويؤكد أنها ما تزال متسمة بالشرعية والحيوية والفاعلية. غير أننا إذا ما نظرنا إلى هذا الكتاب من الزاوية الأولى، فمن الممكن اعتباره محاولة لتمهيد السبيل أمام ولادة ذات جديدة حداثية متأثرة بالقيم الجديدة، أي بمنظومة القيم السارية في العالم الجديد. فالكتاب ينطوي إذاً على ذاتين متضادتين متناقضتين، أو على ذات واحدة ولكنها متمزقة، مغتربة إلى الماضي، وهي مغتربة أيضاً في الحاضر والمستقبل في وقت واحد. وبالتالي فهي ذات لا تملك من أمر نفسها شيئاً. إنها ضحية لهذا التضاد الذي لم تستطع الخروج منه، مما جعلها، آخر الأمر، عاجزة عن التركيب فيما بين هذه الأضداد مجتمعة. وبذلك ظلت الأضداد كلها حية وماثلة بكل قوة، مما جعل منهج الكتاب يميل إلى عرضها متجاورة لا متفاعلة، حتى في الصفحة الواحدة من صفحات الكتاب.

ولذلك فهذا الكتاب، مرة أخرى، هو وثيقة جديرة بالدراسة العميقة المدققة، بقصد التعرف على الأسباب التي فرضت عليه منهج التجاور، من ناحية، وفرضت على الكواكبي أن يكون عاجزاً عن التركيب، فيما بين هذه الأضداد، من ناحية أخرى.

لو نظرنا في المفهوم المركزي في فكر الكواكبي، أعني (الاستبداد)، لوجدنا أن هذا المفهوم أيضاً شكَّل لديه حالة نموذجية للتضاد والتقابل في الفهم والتفسير، كما هو الحال بالنسبة إلى المفاهيم الأخرى في هذا الكتاب. ولعل ازدواج العقل والنقل، أو التضاد فيما بينهما، هو القاعدة الخلفية أو اللاشعورية التي يستند إليها الازدواج والتضاد في هذا المفهوم، ذلك أن التضاد المتعلق بمفهوم الاستبداد ها هنا يعبر عن نفسه من خلال التقابل بين ما يبدو أنه أسس سياسية

واجتماعية، يفسر بها الكواكبي نشأة الاستبداد وتطوره، وبين ما يبدو أنه أسس دينية غيبية لاهوتية، يتحول الاستبداد بموجبها إلى نوع من العقاب الإلهي الذي يوقعه الله على عباده المقصرين والمسرفين على أنفسهم، بسبب طاعتهم للمستبد وخضوعهم له، وتحمل كل ما يصدر عن المستبد مما يمس بالكرامة الإنسانية ويعرض سلامة الهيئة الاجتماعية لخطر التفكك والاضمحلال الناجمين عن ضروب التخريب، التي يلحقها المستبد بالفرد والجماعة على حد سواء. وفيما يتصل بالجانب الأول من التضاد، فإن الكواكبي يحاول أن يُعرّف الاستبداد بدلالة تصوره لعلم السياسة، أي أنه يتخذ من الأسس الاجتماعية قاعدة لتفسير الاستبداد نشأةً وتطوراً. إذ «لما كان تعريف علم السياسة بأنه (إدارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة، يكون بالطبع أول مباحث السياسة وأهمها بحث الاستبداد) أي التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى». وهو يعرف الاستبداد أيضاً، انطلاقاً من الأسس الاجتماعية والسياسية قائلاً: «هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة».

ومن الواضح أن هذين التعريفين عامان، وبينهما قدر من الإبهام، لأنهما يتحدثان عن فردٍ أو جمعٍ يبيح لنفسه التصرف في شؤون الأفراد بمقتضى الهوى والنزوة أو بمقتضى التغلب والقوة، في حين أن الأمر في الحقيقة أكثر تعقيداً من ذلك؛ إذ إن الاستبداد يتعلق، في النهاية، بالأسلوب الذي تسوس به حكومة ما مجتمعها؛ وبالتالي، فهو أبلغ تعبير عن انعدام الشرعية الذي يتجلى في ممارسة حكومة ما لسلطتها على مجتمعها، من غير أن تكون مخولة بذلك من المحكومين أنفسهم. وربما يكون الكواكبي نفسه قد أدرك هذا الأمر، فحاول أن يصوغ تعريفات للاستبداد تتسم أنها أدق، وألصق بالحياة السياسية للدولة والمجتمع. ولذا فهو يمضي إلى تعريف الاستبداد بأنه «هو الحكومة التي لا يوجد بينها وبين الأمة رابطة بينة معلومة مصدقة بقانون نافذ الحكم». وهو يُعرّف الاستبداد أيضاً استناداً إلى الأسس السياسية والاجتماعية نفسها بقوله: «إن الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان فعلاً، أو حكماً، التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين». ومن البيِّن هنا أن الكواكبي يقدم تعريفاً دقيقاً وعميقاً للاستبداد، يتناول شكله وأسلوبه في حكم الناس، بالتعسف والانفراد والاستئثار

بالخيرات كلها للمستبد وعائلته وخدمه وعشيرته وعسكره، الذين يسهرون على أمنه من ثورة المحكومين. أولئك العسكر الذين يستأصلون كل علامة من علامات التحرر قد تظهر من فرد أو جماعة قبل نضجها، ليظل المجتمع في حالة فراغ من كل البدائل، فيوهم المستبد بذلك المستبَد بهم بأنه لو تركهم وشأنهم لضاعوا وتخبطوا وتصارعوا فيما بينهم. ولذا فمن الخير لهم الرضا بما هم فيه من الاستبداد، بدلاً من أن ينتهي المجتمع إلى عاقبة أسوأ، وهي الفوضى التي قد تفضي إلى انهيار الحياة الاجتماعية، وإلى اضمحلال الدولة التي هي أعلى أشكال الحياة الأخلاقية والإنسانية تعبيراً عن إنسانية الإنسان في هذا العالم.

ومن الجلي أن هذا التحليل الذي ينبني على أسس اجتماعية وسياسية للاستبداد، يتطابق مع الضد الأول الذي من المرجح أن يكون الكواكبي قد أفاده من الثقافة الأوروبية، أعني الجانب العقلي في تحليلاته المختلفة للظواهر المدروسة في كتابه (طبائع الاستبداد). فهذا التحليل، في جملته، يستند إلى أسس عقلية أو إلى ملاحظات مستمدة من التجربة التاريخية، اعتمد الكواكبي في حصرها على المعطيات العقلية في التحليل والتقويم واستخلاص دلالاتها السياسية والاجتماعية، واستكشاف أثرها في الحياة الإنسانية، حياة الفرد والجماعة.

وكعادته، لا يتوقف الكواكبي عند التحليلات المستندة إلى أسس عقلية فقط، بل ينتقل مباشرةً، وفي الوقت نفسه، إلى الضد الثاني أو البعد الثاني في التحليل، الذي يؤدي إلى تولُد التضاد في فكره وتحليلاته على حد سواء. وهكذا، فإن عنصر (النقل) أو (العنصر النقلي) في تجربة الكواكبي في تفسير الاستبداد، سرعان ما يظهر جنباً إلى جنب مع العنصر العقلي، الذي سيطر على تحليلاته من قبل. واستناداً إلى هذا الجانب المتعلق بالنقل في تجربته، يعرف الاستبداد بأنه «يد الله القوية الخفية، يصفع بها رقاب الآبقين من جنة عبوديته إلى جهنم عبودية المستبدين الذين يشاركون الله في عظمته». والاستبداد أيضاً: «هو نار غضب الله في الدنيا، والجحيم نار غضبه في الآخرة». وهو أيضاً: «أعظم بلاء يتعجل به الله بالانتقام من عباده؟ ولا يرفعه عنهم حتى يتوبوا توبة الأنفة». ولا يخفى هنا أن ما يجمع بين التعريفات السابقة للاستبداد، إنما هو تعبير عن الغضب الإلهي والانتقام الرباني من عباده المقصرين المسرفين على أنفسهم بسبب طاعتهم

للمستبد. والكواكبي بذلك، ينزلق بسهولة من التفسير الاجتماعي السياسي، القائم على العقل والملاحظة، إلى التفسير اللاهوتي الغيبي، القائم على النقل الذي يتجاهل الأسباب الحقيقية للحوادث أو الظواهر، كي يلحقها بتفسيرات، يجيء بها على الأغلب من خارج الدائرة الحقيقية للتفسيرات المحتملة والممكنة. وبذلك يظهر(النقل) مضاداً بقوة للعنصر العقلي في التجربة الروحية للكواكبي، وذلك من خلال تفسيره للاستبداد وشتى الظواهر الاجتماعية والسياسية أيضاً. والدليل على صحة ما نقوله، أن تفسيره للاستبداد يعود هنا فيلحق بعنصر النقل استناداً إلى روايات مأثورة، يبني عليها مصوغات تفسيراته اللاعقلية أو النقلية لظاهرة الاستبداد، بوصفه انتقاماً إلهياً ممن رضوا أن يكونوا عبيداً للمستبدين. قول: إنه قد ورد في الخبر «الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه.. ومن أعان ظالماً على ظلمه سلطه الله عليه». وليس ثمة ما يدعونا إلى الشك، في أن هذه النصوص مجتمعة، إنما تشهد على قوة العنصر النقلي في ذهن الكواكبي، إلى الحد الذي يجعله في تقابل وتضاد حادين مع العنصر العقلي، الذي سبق أن أشرنا إليه. وهذا ما يعزز العنصر اللاعقلي أو النقلي بمجموعة من الاستشهادات في تجربته الروحية؛ فهو، على سبيل المثال، في إجابته عن السؤال:(لماذا يبتلي الله عباده بالمستبدين؟)، يجيب: «إن الله عادل مطلق لا يظلم أحداً، فلا يولي المستبد إلا على المستبدين». وهو يقول أيضاً: «فالمستبدون يتولاهم مستبد، والأحرار يتولاهم الأحرار [أي] (كما تكونون يولى عليكم)».

وهكذا يتضافر العنصر النقلي، مع الموروث الشعبي، ليعضد الكواكبي بها الضدّ الثاني، الذي يدخل في علاقة تقابل وتناقض صريحين مع الضد الأول، الذي يفسر الكواكبي من خلاله الاستبداد بالاستناد إلى العناصر العقلية المتحققة في التجربة السياسية والاجتماعية للمجتمعات الإنسانية. وحتى عندما يفكر الكواكبي في التخلص من الاستبداد، فإن هذا الفعل يتحول إلى حركة أسطورية معاكسة للحركة التي ولد الاستبداد بمقتضاها أول مرة. فالأمة، في نظر الكواكبي «لا يقودها إلا العقلاء، بالتنوير والإهداء والثبات، حتى إذا ما اكفهرت سماء عقول بنيها، قيَّد الله لها، من جمعهم الكبير، أفراداً كبار النفوس، قادة أبراراً، يشترون لها السعادة بشقائهم، والحياة بموتهم، حيث يكون الله قد جعل في ذلك لذتهم، ولمثل تلك

الشهادة الشريفة خلقهم، كما خلق رجال عهد الاستبداد فُسّاقاً فُجّاراً مهالكهم الشهوات والمثالب، فسبحان الذي يختار من يشاء لمن يشاء وهو الخلاق العظيم».

من ذلك يتضح أن العناصر اللاعقلية أو النقلية، قد أسهمت في خلق (الضدية) بكل قوة داخل التجربة الروحية للكواكبي. فعلى الرغم من أن الاستبداد قضية سياسية اجتماعية، فهو يحاول أن يجد لها تفسيرات لاهوتية، تفضي بتفسيره الأخير إلى أن يصبح في تضاد حاد مع تفسيراته الأولى، التي اصطبغت بدرجة أو بأخرى بالصبغة العقلية والمنطقية، بسبب انطلاقها من التحليلات السياسية الاجتماعية لظاهرة الاستبداد السياسي. والأعجب من ذلك كله، أن الكواكبي في بعض الأحيان يقرن بين الاستبداد الديني والاستبداد السياسي، ويقرر صراحةً أن الواحد منهما متولد من الآخر، أو أنهما صنوان لا ينفصلان عن بعضهما بعضا. ولذلك فهو يمضي إلى القول: «تضافرت آراء أكثر العلماء الناظرين في التاريخ الطبيعي للأديان على أن الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني، والبعض يقول: إن لم يكن هناك توليد، فهما أخوان، أبوهما التغلب، وأمهما الرياسة، أو هما صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التعاون لتذليل الإنسان، والمشاركة بينهما، إنما هما حاكمان أحدهما في مملكة الأجسام والآخر في مملكة القلوب».

يلاحظ الكواكبي هنا الأثر العميق لهذا التداخل بين الاستبداد الديني والاستبداد السياسي على عامة الناس، الذين سرعان ما يخلطون بين (عبادة الإله)، و(عبادة الحاكم المستبد). وهذا تأكيد على الازدواج العميق الذي يسيطر على ذهن الكواكبي، فيجعله ممزقاً متضاداً فيما بين الاتجاهات المتباينة، وفيما بين التجارب والخبرات التي اكتسبها الكواكبي نتيجة لمعايشته التجارب الإسلامية والشرقية العربية في إطار الدولة العثمانية، وأيضاً من الثقافة التي اكتسبها نتيجة لاطلاعه على التجارب التنويرية الغربية، وبصورة خاصة التنوير الفرنسي. وهكذا يكون الكواكبي قادراً على حذف أيٍ من الاحتمالين، ومن غير أن يكون قادراً على التركيب بين الأضداد التي تكونت منها تجربته الروحية العميقة.

وعلى الرغم من كل ما تقدم، فإن الكواكبي يفتح باب الأمل للخلاص مما يعانيه البشر كافة، ولا سيما المسلمون، من كل أوجه الاستبداد والفساد والضعف

والتنافر المسيطر على العلاقة فيما بين الشعوب، وعلى التباغض والتحاسد ضمن الأمة الواحدة. وآية ذلك أن الكواكبي، وإن لم يستطع أن يقدم لنا (يوتوبيا إسلامية) مقنعة في كتابه (أم القرى)، ففي خاتمة كتابه (طبائع الاستبداد) يعود فيقدم لنا يوتوبيا جديدة، تمتاز هذه المرة بأنها تفتح باباً للأمل والتفاؤل، ليس أمام المسلمين وحدهم، بل أمام أفراد الجنس البشري قاطبةً. هذه اليوتوبيا الجديدة هنا، على العكس من سابقتها، هي يوتوبيا علمية، ليست ناجمة عن أي دافع ديني أو باعث قومي، مما يشهد على أن الكواكبي ها هنا قد أصبح يتمتع بمزيد من الانفتاح على الإنسانية بأكملها، الأمر الذي يسمح لنا أن نصفه بأنه صاحب نزعة إنسانية بامتياز. إذ هو يختتم كتابه (طبائع الاستبداد) بما يشبه البشرى أو النبوءة، التي يقرر فيها «بأن بواسق العلم، وما بلغ إليه، تدل على أن يوم الله قريب. ذلك اليوم الذي يقل فيه التفاوت في العلم وما يشيده من القوة، وعندئذ تتكافأ القوات بين البشر، فتنحل السلطة ويرتفع التغالب، فيسود بين الناس العدل والتوادد، فيعيشون بشراً لا شعوباً، وشركات لا دولاً». فالكواكبي متفائل بأن البشر سيحصلون في النهاية أقداراً متقاربة من العلم، تؤدي إلى تقارب ما يمتلكه البشر من القوة التي ينتجها العلم. والنتيجة المترتبة على هذا التقارب في مستوى القوة، هي انحلال السلطة وارتفاع التغالب أو الصراع الذي لا ينفك عن السلطة ولا تنفك عنه، مما يؤدي إلى سيادة العدل والتوادد في العلاقات الإنسانية، فينفتح الباب بذلك أمام كل البشر للانخراط في معيشة مشتركة، قوامها الشراكة الإنسانية الحرة، بصرف النظر عن الانتماءات الضيقة، التي تنتسب إلى المراحل السابقة على التطور العلمي، كما يفهمه الكواكبي.

د. يوسف سلامة

ماريانا مراش

الخروج عن مجتمع الحريم

(1848- 1919)

سيكون محرجاً للتاريخ أن يقبل بين صناعه، ولو مجاملة، من لا يملك الشرط القوي للمشاركة في صناعته. إن النقطة الحاسمة بالنسبة إليه هي القدرة على تقسيمه إلى مرحلتين: ما قبل وما بعد: قبل ظهور معركة، كمثال، وبعدها، قبل حدوث زلزال مدمر، وبعده، قبل ظهور قائد سياسي قوي، وبعده... إذ إن التاريخ مراحل، ومن لا يستطيع جعله كذلك، فإن أي شفاعة ستقابل بالرفض، كائناً ما كان ذلك الشفيع. إن الأمة التي لا تقسم التاريخ إلى مراحل يركلها خارجه، والأديب الذي لا يفعل ذلك، عليه أن يقدم طلب اعتذار منه وينسحب بهدوء، قبل أن يكشر هذا عن جبروته ويطرده خارجاً بوصفه مجرد متطفل يريد، عنوة، الانتساب إلى نادي المشاركين في صناعته، بالغ الصغر.

وبنفس القدر من هذا الإحراج سيكون التاريخ عليه إذا ما سها أو غفل أو تعمد، لسبب ذكوري أو غيره، إغفال ماريانا مراش وعدم دعوتها إلى ذلك النادي، بوصفها أول سورية كتبت في الصحافة، وأول سورية نشرت كتاباً، وأول سورية كتبت باسمها الصريح، وأول شرقية أقامت صالوناً أدبياً، في زمن كانت المرأة فيه، بما فيها ثيابها واسمها، ليست سوى «عورة» يجب إخفاؤها في أكثر الزوايا ضيقاً وحلكة واختفاءً، وكان يعبر عن ذلك بصراحة صفيقة.

❖ ❖ ❖

كان التاريخ العثماني أواخر القرن التاسع عشر ساكناً، خمولاً، مترهلاً، لايكاد يستطيع التحرك؛ وإذا ما فعل، فإنه يشحط رجليه ببطء يثير الغيظ. كان تاريخ المنطقة، إلى ذلك، يرتدي تلك العباءة الصفراء المهترئة، عباءة رجال الدين الإسلامي الذين لفظهم الدين الإسلامي الحقيقي خارجاً، لشدة تهتكهم وتخلفهم وجهلهم، وكان يطلق لحية شعثاء مغبرة لشدة ما تراكم عليها من هباب القرون

الميتة، ومن غبار العتبات التي كان يلصقها بها، وهو يستجدي ويبارك تخلف ووحشية وجهل السلاطين «العصمليين»، وذلك بوصفه التاريخ المزعوم للدين الإسلامي، وقد دخل المنطقة، تحت هذه اليافطة التي كثفها بصيغة «الجامعة الإسلامية»، وبقي فيها أربعمائة سنة، لم يفعل خلالها سوى أنه كان مستلقياً يجتر التراب وما تخلفه الطبيعة من قذارات، فيما بطنه توالي الانتفاخ وسيقانه تهزل. هذا هو التاريخ العثماني في المنطقة. في هذا التاريخ ولدت ماريانا مراش.

ومن المفارقات البائسة في ذلك التاريخ أن ماريانا ابتليت، كسائر الخاضعين للحكم العثماني، وهي في أوج شبابها، بوصول السلطان عبد الحميد إلى السلطنة (1878- 1908): ولقد تميز عهده ببطش لا يُحسد عليه معاصروه. من تلك المفارقات، أن ماريانا أهدت فاتحة قصائد ديوانها الشعري الوحيد إلى السلطان عبد الحميد.

❖ ❖ ❖

تاريخ المكتبات يذكر بإعجاب «المكتبة المراشية» في حلب، ويذكر أيضاً صاحبها: فتح الله مراش، الذي يعتبره بعضهم «علاّمة عصره»، وسنذكره أيضاً باعتباره، إضافة إلى ذلك، والد ماريانا مراش. فهو الرجل الذي لم ينزِو جانباً، ولم يمتقع وجهه حين أخبروه في شهر آب عام 1848 أن زوجته أنجبت له بنتاً، بل، على خلاف الغالبية العظمى من الآباء في ذلك العهد (وإلى الآن)، هلل لذلك، وحمل المولودة بين يديه، وطاف في أرض الغرفة، وسماها: ماريانا.

كانت الطفلة ماريانا تعبث بكتب أبيها العامرة، وتتطلع بفضول إليه وهو يتأبط الكتب في دخوله وخروجه من وإلى المنزل، وإلى انكبابه عليها في كل الأوقات. الأمر الذي جعل الكتاب في حياتها، يبدو وكأنه عضو من أعضاء الجسد. وظلت على ذلك إلى أن شبت قليلاً، فدخلت المدرسة المارونية في حلب. لكن يبدو أن أباها كان يتطلع إلى ابنته على أنها تستحق المزيد، وكان انهماكها بالدراسة والقراءة يشي بذلك، فانتقلت إلى بيروت ودرست في المدرسة الإنجيلية. وفي تينك المدرستين كانت تتعلم، إضافة إلى مبادئ اللغة العربية والحساب وبعض العلوم، اللغة الفرنسية.

لكن يبدو أن لحلب جاذبية خاصة، الأمر الذي جعلها تعود إليها من بيروت بعد مدة ليست طويلة، ليحيطها والدها برعاية خاصة. إذ إنها عندما أكملت

الخامسة عشرة من عمرها علمها الصرف وأصول النحو والعروض. وتعلمت دون معلم فن الموسيقا، فصارت عازفة ماهرة على البيانو: الآلة الموسيقية الأرستقراطية، وتعلمت أيضاً العزف على آلة القانون: الآلة الشرقية ذات الأوتار الكثيرة، والتي يتطلب العزف عليها مهارات خاصة.

وللبنت مطامح أخرى. فبمقابل الاضطهاد والتخلف العثماني، الذي جعل البلدان الخاضعة لنفوذه أشبه بالكتل البشرية المتحركة بتثاقل، وجعل الحياة الفكرية متوضعة في أشد الأمكنة ظلاماً ورجعية، فقد كانت، كمثال، ثمة طرق صوفية منتشرة حينذاك: البكتاشية، المولوية، النقشبندية، الرفاعية بطورها الانحطاطي الذي أسسه، برعاية من السلطان عبد الحميد في أواخر القرن التاسع عشر، الشيخ محمد أبو الهدى الصيادي، والجيلانية أو القادرية... كذلك السعدية والشاذلية.. وكان بعضها يعبر أصدق تعبير عن أطوار الانحطاط في الحياة الفكرية آنذاك، والتي استقطبها ورعاها كاملة ذلك السلطان، لتعميق تخلف وجهل العرب الخاضعين له، والتي أثرت بشكل جلي على الحركة العامة للسوريين، وفق الخارطة الجغرافية لسوريا في تلك الفترة والمختلفة كثيراً عن الخارطة الجغرافية لسوريا الآن. مقابل ذلك، كانت أوروبا، وبوجه خاص فرنسا، منتجاً لأفكار تنتمي لسلالة أفكار الثورة الفرنسية المتمثلة بمفاهيم: مساواة، حرية، عدالة...الخ، وقد بدأت هذه الأفكار تدخل البلدان «العثمانية». هنا بدأت البنت الطموحة ماريانا بالتفكير بفرنسا: كيف يعيش الفرنسيون، وكيف يفكرون، ما سر هذا التقدم...؟ وكانت تشعر إزاءهم بشيء من الغيرة والحسد إضافة إلى الفضول. فقررت قراراً واحداً لا رجعة عنه: علي أن أذهب إلى فرنسا.

في فرنسا كان كل شيء مختلفاً عن بلد ماريانا: العادات، التقاليد، السلوك، العلاقة بالحكومة، وضع الفرد، ووضع المرأة بشكل خاص. فالمرأة تتعلم جنباً إلى جنب مع الرجل، وتشاركه صوغ المجتمع، وتجتمع معه في مكان واحد دون أن يكون الشيطان ثالثهما... أكثر من ذلك، كان يحدث أمر شكّل لماريانا ما يشبه الصدمة، ونظرت إليه من باب التعجب، وخلق لديها دافعاً قوياً لأن تحذ حذوه: الصالون أو المنتدى الأدبي الذي تقيمه المرأة، ويجتمع فيه، دورياً، الأدباء والمفكرون والمثقفون عموماً، ويتناقشون في جميع القضايا، ويقرؤون نتاجاتهم الأدبية والشعرية...

كان ذلك بالنسبة إليها اطِّلاعاً على ثقافة الغرب، وعلى الهوة الشاسعة التي تفصله عن الشرق، وبصفة خاصة الشرق العربي الخاضع للعثمانيين. الأمر الذي جعلها تكوّن بعض الآراء وتصمم على تنفيذها في بلدها. فكانت عودتها إلى حلب بمثابة الواجب، الذي عليها إتمامه والقيام بعبئه مهما كلف الأمر، فعادت تحمل أفكارها ومشاريعها على ظهرها كالحدبة.

❖ ❖ ❖

أول ما قررت تنفيذه من مشاريعها وأفكارها، إبان عودتها من فرنسا، إنشاء صالون أو منتدى أدبي يجتمع فيه الأدباء والمثقفون والمفكرون من الرجال والنساء. ماذا؟ منتدى أدبي؟ ولامرأة؟ ويجتمع فيه الرجال أيضاً دون حجاب أو حاجز؟ وفي منتصف القرن التاسع عشر الشرقي؟ وفي ظل التواجد العثماني؟! لا شك أن صاحبة هكذا فكرة قد ذهب عقلها ولا أمل في أن يعود بأي حال... لكن ماريانا قررت، ولن تتراجع عن قرارها.

سيذكر الأدباء والمفكرون والمؤرخون ذلك، وسيذكره التاريخ، ليس العربي فحسب، بل تاريخ الشرق، وبشيء من الشعور بالإرغام. إذ إن ماريانا قسمت التاريخ: ما قبل ظهور صالون أدبي وما بعده. التاريخ الذي كتبه الذكور سيطأطئ، لكنه سيشعر فيما بعد أن كتابته ليست حكراً على الرجل. ألم تشارك في صياغته امرأة؟ إذاً، سينظر إلى نفسه من الآن فصاعداً على أنه تاريخ الجميع، وبنوع من الإرغام أيضاً.

وسيرتاد هذا الصالون الذي هو أول صالون من نوعه في الشرق كبار الكتاب والمفكرين والأدباء من الرجال والنساء أيضاً. وعليه، ستشعر المرأة في الشرق بشيء من الاعتداد والتواجد والحرية... كان من رواده: الأديب الشهير قسطاكي الحمصي، المفكر والشاعر جبرائيل دلال (1836- 1892)، صاحب قصيدة «العرش والهيكل» التي أودت بحياته؛ حيث هاجم فيها رجال الدين المتزمتين والحكم الاستبدادي، ودعا إلى الثورة عليه وتأسيس حكم جمهوري. الأمر الذي لم يرق للسلطان وأعوانه، فألقوا به في السجن، ومات فيه بعد سنتين. من رواده أيضاً رزق الله حسون (1825- 1880) الذي كان من أوائل المفكرين المستنيرين الذين دعوا إلى حكم ديمقراطي وإلى فصل الدين عن الدولة والأخذ بالعلم الحديث،

وصاحب أول صحيفة عربية في استنبول (مرآة الأحوال)، التي صدرت عام 1855. وقد شكلت آراؤه، وآراء ما يسميه بعضهم: «التيار المسيحي المستنير» أحد أعمدة ما سمي «عصر النهضة» العربي. كذلك كان يرتاده كامل الغربي وسواهم..

وفيما كان رواد الصالون يأخذون أماكنهم، ويتحضرون لجدل شديد الإيجابية ومثمر ومتنوع، كانت الفتاة الأرستقراطية تجر ثوبها الطويل خلفها، وتتأكد من ميلان قبعتها الشبكية على رأسها، وتلمس البيانو بأصابعها ذاتها التي تكتب فيها، ثم تجلس على الكرسي، وتبدأ عزفاً متقناً، يجعل الحاضرين يسابقون أفكارهم وانتشاءهم، ويخرجون، افتراضياً، من البطش العثماني. وعلى إيقاع البيانو، كان يمشي التاريخ الخاص بماريانا.

ليس ذلك فحسب، بل إن ماريانا ستوالي تحديها للتاريخ، وستوالي إحراجه إذا ما تناساها، وستوالي إرغامه، ليس فقط على أن يجعلها تدخل نادي الكبار، بل على أن يتغير. فمهمة الكبار والرواد الأولى، ليس الدخول في نادي التاريخ، بل تغييره. وبما إن لماريانا ما تقوله، وإنه يجب أن يصل إلى الناس، فسوف تنشر ما تقوله في الصحافة. امرأة ستنشر في الصحافة؟ سنتخيل خطورة ذلك لو أنها لم تنشأ وسط عائلة مثقفة على ذلك المستوى: والدها «علامة عصره»، وأخوها رجل الاستنارة الكبير: فرنسيس مراش، بالتأكيد الأمر سينطوي على كارثة محققة. لكن يبدو أنها قررت الكتابة والنشر وانتهى الأمر.

كتبت عن عادات مجتمعها، منتقدة، ولم يعجبها وضع المرأة الذي يزداد تخلفاً وجهلاً بسبب عدم تعلمها، فحضتها على التعلم ودعتها إلى التزيين، لا بالأقراط والحلي، بل بالعلم والأدب. وحيث أن الشعر طفولة العالم وبدء نطقه، كتبت الشعر. ولم ترسل ما كتبته إلى صحف صغيرة أو صحف تعنى بالبدايات، بل أرسلته إلى كبريات الصحف آنذاك: مجلة «الجنان»، التي يصدرها بطرس البستاني، ذلك الرجل الذي اتفق جميع الكتاب والمثقفين في عصره، على تسميته بـ«المعلم»، فنشر لها وشجعها على الكتابة، لعله وجد فيها استجابة لنداءاته بالتعليم. إذ أنه أول من دعا إلى تعليم المرأة. ونشرت أيضاً في جريدة: «لسان الحال»، التي كان يصدرها خليل سركيس أحد كبار كتاب عصره. وشجعها أيضاً على الكتابة وتنوير بنات عصرها.

وهنا أيضاً اقتحمت حصون التاريخ فخلخلتها بهذا الأمر العظيم: أول امرأة سورية تكتب في الصحافة. فيما بعد درجت المرأة على الكتابة والنشر، لكن ذلك لم يكن ليتم دون أثمان، فكانت أولى الأثمان: اختفاء المرأة، إذ إنها -المرأة- كتبت بأسماء مستعارة تحاشياً لغضب المجتمع... إلا أن ماريانا، ومنذ ذلك الوقت، ومنذ البداية، كتبت باسمها الصريح، مكثرة في هذا وذاك من تقسيم التاريخ إلى مراحل: ما قبل، وما بعد. ليضطر إلى الاعتراف دائماً: ما قبل ماريانا مراش، وما بعدها.

الحقيقة، ليس من السهولة أبداً، بل إنه لمن الصعوبة التي تقترب في حدها من الاستحالة أن ينال المرء، أي امرئ، شرف الأولوية، شرف أن يكون البادئ، خصوصاً إذا كان هذا المرء امرأة في المجتمع الشرقي الذكوري المتعنت، وخصوصاً أكثر إذا كان ذلك في القرن التاسع عشر، وفي ظل الحضور العثماني شديد الحلكة. ضمن هذه الصعوبة البالغة نجد أن عمل ماريانا مراش ريادي بصيغة مشددة: كونها رائدة، وكونها امرأة، وكونها تعيش في مجتمع شرقي عثماني في القرن التاسع عشر.

ثمة فوران يجيش داخل ماريانا، هذا الفوران جعلها لا تتوقف عن ابتكار الطموحات وابتكار وسائل تحقيقها، إذ إن الشعر الذي كتبته لم يزل مبعثراً في الأوراق وعلى صفحات الصحف والمجلات، فلا بد إذاً لهذا الجهد أن يجمع في كتاب وينشر للناس. لكن المشكلة أنها لم تجد امرأة، في تاريخ سورية الحديث، قبلها نشرت كتاباً. غير أن مشاكل كهذه لدى ماريانا من السهولة حلها: لتكن أولى من تنشر كتاباً. تأبطت أوراقها وذهبت إلى نظارة المعارف وتقدمت بمخطوط شعري صغير بعنوان «بنت فكر»، وطلبت الإجازة في نشره، فنالتها. ثم ذهبت إلى بيروت حيث توجد المطبعة الأدبية، وطبعته عام 1893. وجاء في إهداء فاتحة قصائدها: «لأقدام سدة حضرة مولانا وسيدنا الخليفة الأعظم والخاقان الأفخم صاحب الشوكة والاقتدار السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني بعيد جلوسه المأنوس الواقع في 15 ذي الحجة سنة 1306هـ».

وهكذا أيضاً غيرت عادات التاريخ الحديث، فجعلت من عاداته أن يقبل، بعد ماريانا مراش، أن تنشر امرأة كتاباً. فحققت بذلك ريادة أخرى من رياداتها المتعددة.

يجري الديوان شكلاً ومضموناً على طريقة الشعر العربي السائد آنذاك، ويتضمن مجموعة قصائد في الغزل والمديح والرثاء:

بذكر المعاني هام قلبي صبابة ... فيا نور عيني هل أكون على القرب
عسى الشمس في مرآك للعين تنجلي ... فتنقل للأبصار ما حل بالقلب

الحقيقة إن شعرها كان أقرب إلى النظم منه إلى الشعر، وكان أيضاً نمطياً. بمعنى: كانت تتغزل كما تغزل الشعراء العرب قبلها، وبنفس الطريقة كانت تمدح، وكذلك شأنها في كافة المواضيع التي تطرقت إليها. يقول عيسى فتوح: «لم يكن في وسع ماريانا أن تكون غير ما كانت، لأن طبيعة الفترة التي عاشت فيها، فرضت عليها نوعاً من النمطية، وجعلتها تنحو منحى من تقدموها من الشعراء، وتسير على خطاهم التي رسموها دون أن تحيد عنها قيد شعرة. تكرر ذاتها، ليس لأن الجرأة تعوزها فحسب، بل لأن الجمود السياسي فرض عليها شيئاً من الجمود الفكري».

في الواقع إن هذا الرأي صحيح إلى حد كبير. ويمكن أن نضيف عليه أن همَّ ماريانا، أساساً، كان اجتماعياً أكثر من كونه أدبياً، فنياً. كان ثمة ما تريد قوله بصرف النظر عن مدى تقدم الشكل الفني لقوله. بعبارة أخرى: كان همها «نهضوياً» على المستوى الاجتماعي والسياسي، وليس على المستوى الفني، مستوى الكتابة. ذلك أن الجمود السياسي والفكري للمرحلة ليس شرطاً أن يؤدي إلى فن يشبهه. إن المبدع يخترق الأنماط والأشكال السائدة لخلق أشكال جديدة بصفة مستمرة. المبدع يخترق التاريخ. يمشي معه، أو أمامه، لكنه لا يمشي، بأية حال، وراءه.

والحال، فإن أهمية ماريانا مراش أهمية تاريخية، من حيث كونها رائدة، وإن هذه الأهمية مضاعفة، من حيث كونها شملت أكثر من حقل، واستطاعت، كما ذكرنا، تقسيم التاريخ إلى مراحل أكثر من مرة.

❖ ❖ ❖

لقد عاشت ماريانا في بيئة أسرية متميزة، الأمر الذي لا بد أن يكون ساعدها على تنفيذ قراراتها وتطلعاتها، لا سيما في تلك الفترة الحالكة من التاريخ العثماني في المنطقة. فوالدها: فتح الله مراش يعتبر «علاّمة عصره»، وهو صاحب

واحدة من أهم المكتبات الحلبية آنذاك: «المكتبة المراشية». وأخوها، وهذا هو الأكثر أهمية وحسماً في الموضوع، فرنسيس مراش (1835- 1874) الذي كان في طليعة ما يسمى بـ: «التيار المسيحي المستنير» المذكور سابقاً، والذي قاد عملية التجديد الفكري العربي إلى جانب طاهر الجزائري (1851- 1920) في دمشق وعبد الرحمن الكواكبي (1846- 1902) في حلب. فإذا كان التجديد الإسلامي دعا للعودة إلى الينابيع الأولى وإلى النص القرآني وسنة الرسول وفهمهما الفهم الحقيقي والاقتداء بهما، وإلى التوفيق بين الدين والعلم في قسم كبير من طروحاته، فإن التجديد المسيحي كان جذرياً، فقد دعا إلى فصل الدين عن الدولة، وإلى الأخذ بالعلم الحديث كعلم لا علاقة له بالدين، ودعا إلى حكم جمهوري ديمقراطي... وثمة أفكار كثيرة انتقلت من هذا التيار إلى الأوساط المسلمة، خاصة مفاهيم مثل الوطنية والقومية، في بدايات القرن العشرين، إلا أن هذا التيار كان يُتهم من قبل العامة، وبتأثير وتوجيه من السلطنة، بأنه هجوم مسيحي على الإسلام.

يعتبر إذاً فرنسيس مراش من رواد وأعلام العصر الذي سمي بـ عصر «النهضة العربية». وعندما بدأت أخته تكبر، كان ذائع الصيت وداعياً كبيراً من دعاة الاستنارة. ولا شك أنها تأثرت بوسطها الأسري هذا، وبأخيها حصرياً، إضافة إلى رواد صالونها وأصدقائها: رزق الله حسون وجبرائيل دلال... وسلالة ذلك الفكر التنويري. هذه الظروف ساعدتها بلا شك على تحقيق رغباتها وتطلعاتها. لذلك ليس غريباً أن تكون، مع أخيها، رائدة من رائدات ما سمي بـ عصر «النهضة» العربية.

لتلك الأسباب، فإن حضور ماريانا مراش في ذاكرة معاصريها كان قوياً جداً ومهماً وشديد اللطافة. يقول عنها قسطاكي الحمصي: «كانت ماريانا عذبة المنطق، فكهة الأخلاق، طيبة المعشر، واسعة المعرفة، وكان منزلها في حلب مثابة الفضلاء، وملتقى الظرفاء، والنبهاء، وعشاق الأدب».

وعندما فرَّ جبرائيل الدلال إلى فرنسا، هرباً من الضغط العثماني، أخذ يراسل قسطاكي الحمصي من هناك واصفاً له، شعراً، الأحوال الفرنسية التي تنأى عن أذية الإنسان عبر احترام حريته:

وإذا لم يكـن هنـا غـير أن الحـر يعـيش فيهـا دون منـازعٌ
وهو يكفي خطأً لقلبي وإن سالت على غربتي غروب المدافعٌ
لم تبـق لي الأرذال في الشـهباء مـن مـأرب ولا مـن مطـامعٌ

وحيث إن «الشهباء» في ذلك العصر لم تكن تذكر دون ماريانا، فإنه يتذكرها بحنين غامر:

لا ولا أشـتهي سـواكم فيهـا مـن بعـد تلـك الوقـائعٌ
غير قرب الفريدة اللطف ذات الصون والحس والذكاء والبدائعٌ
ربـة الفضـل والفضـائل «مريانـا» الـتي ذكرهـا يسـر المسـامعٌ
والـتي زانهـا الكمـال إذ زان سـواها الحلـي وسـدل البراقـعٌ

وللأسباب ذاتها، فإن التاريخ السوري الحديث يذكرها باستمرار: تاريخ الكتابة الصحفية، تاريخ نشر الكتب، تاريخ نشر الشعر النسائي، تاريخ النشر النسائي بالاسم الصريح، تاريخ المنتدى الأدبي، تاريخ المدن «حلب»، تاريخ التحولات الثقافية، تاريخ ما يسمى بـ «النهضة العربية»، وتاريخ نساء النهضة... دخلت في المراجع والمعاجم... والأكثر أهمية من هذا، دخلت ذاكرة الثقافة وذاكرة الناس. وسوف تدين لها المرأة التي تُعنى بتحررها وحريتها، أنها من حرثت لها أرضاً كانت شديدة الوعورة، وصخرية...

لكن للتاريخ ثأراً، وللتراجيديا نهاية، وعلى الأغلب تكون تلك النهاية دراماتيكية: ألم تنته مي زيادة في مصح بوصفها «مجنونة»؟

هكذا سيثأر التاريخ الذكوري العنيف من الهزء الذي ألحقته به تلك المرأة الحلبية الحازمة، سيثأر من ذلك التحقيب الذي أرغمته عليه امرأة، وقر قرار التاريخ: سيقهر تلك المرأة. فاتخذ، لأجل ذلك، العثمانيين وسيلة لقهرها.

لم تستطع السلطنة أن تغض نظرها عما يجري على الأراضي الخاضعة لها، لم تستطع الركون إلى الخلخلات الفكرية التي بدأ أولئك المتنورون يفعلونها، لم تستطع أن ترى نوراً ما، ولو ضئيلاً، يتسلل إلى غرفها المظلمة. فكان لا بد لها من إسدال ستائر كتيمة أمامه، وإبقاء الحال على ما كان.

وبدأت تتكرر مفردات البطش والاستبداد التاريخية: ملاحقة، اعتقال، اضطهاد، وشمل ذلك صالونها الأدبي، فاعتقل من اعتقل، وفرَّ من فرَّ خارج أراضي السلطنة... فأقفر الصالون، وبدأت العتمة تتسلل إلى مناخ ماريانا.

مات أبوها: درعها القوي. مات أخوها: فرنسيس: بطلها وصديقها وأستاذها وحليفها، فبكته كما لم تبك أحداً قبلاً، ورثته كما رثت الخنساء أخيها صخراً:

ما لي أرى أعين الأزهار قد ذبلت	ومال غصن صباها من ذرا الشجر
أبدى من الفضل ضوءاً لا خبو له	والشمس شمس وإن غابت عن النظر
وإنه بحر علم لا قرار له	وقد حوى كل منظوم من الدرر
هذا الذي جابت الأقطار شهرته	قد صار مُطَّرحاً في أضيق الحفر
خنساء صخر بكته حينما نظرت	إليه ملقى بلا سمع ولا بصر

شعرت المرأة بنفسها وحيدة، معزولة، وبدا دورها في التنوير وكأنه فشل، وأن رسالتها النهضوية بدت وكأن أحداً لم يقرأها. فانزوت شاعرة باللاجدوى، واليأس، والهزيمة، الأمر الذي جعلها تفكر بطريقة تقليدية بعيدة عن تفكيرها الذي دعت إليه، وحضت مجتمعها (والمجتمعات عموماً) وبنات جيلها (والبنات عموماً) على التمسك به حتى النهاية، فتصالحت مع الواقع، كما تفعل جميع النساء الشرقيات اللواتي خرجت ماريانا منهن وعليهن، وانتقدتهن، وانتقدت المجتمع الذي أوصلهن إلى هذا المستوى. وتزوجت بطريقة تقليدية من السيد حبيب الغضبان الحلبي. وكي يزيد القدر من بؤسها، لم تنجب طفلاً. وهكذا بدأت أحوالها النفسية والصحية تسوء وتسوء، والبؤس يمعن فيها ويمعن، إلى أن حل العام 1919 وإذا بقلب تلك الرائدة يتوقف عن الخفقان. لكن رسالتها التي وضعتها على جناح طير، وجدت من يحملها عنه، ويتابع ما بدأت به: واصلت المرأة السورية (العربية) الكتابة والنشر وافتتاح الصالونات والدعوة إلى الحرية والتحرر وتغيير عادات التاريخ، ويتم بشكل متوال، وإن بغصّة، الاعتراف بقدراتها ووجودها وبهائها.

تلك «العورة» فتّحت، وراحت، وإلى مدى بعيد، ترى كل شيء...

خضر الآغا

طاهر الجزائري

التأسيس للمجتمع المدني

(1852- 1920)

ولد الشيخ طاهر الجزائري عام 1852 في دمشق، لمهاجر جزائري، تولى الإفتاء فيها، هو الشيخ صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني، وعاش في بيئة وصفها مؤرخ الشام محمد كرد علي بالعبارات التالية: «أدركت مدينة دمشق، وليس فيها طبيب قانوني ولا صيدلي قانوني ولا حقوقي قانوني ممن درسوا هذه الفروع على الأصول، وعرفوا صناعتهم معرفة ثاقبة لعهدي بها، وليس فيها حيسوب، لأن الأمة عاشت بدون حساب. أما العلوم الرياضية التي كان يدرسها أجدادهم مع علوم القرآن، فقد غدت عندهم أسماء لا مسميات لها؛ أو من المعارف التي يستغنى عنها».

في هذا الزمن: الأخير من حياة الإمبراطورية العثمانية، ساد - فضلاً عن الجهل الذي وصفه كرد علي، وبلغ مبلغاً عجباً في الناس، حتى ندر فيهم من يعرف القراءة والكتابة - حكمٌ استبداديّ عزّزه تخلف الدولة، وفساد الإدارة والجيش، وخروجهما على النظام، وانعدام القانون، وضعف الحكومة التي شاركها صلاحياتها متنفذون من رجال الإقطاع في القرى وأصحاب الوجاهة في المدن؛ بينما كان معظم موظفيها أميين أو شبه أميين، حصلوا على وظائفهم لقاء خدمات قدموها لكبار أعوان السلطان، فكانت وظائف القضاء تُشترى بالمال، وصار بيع الألقاب والأوسمة تجارة رائجة، الوسطاء فيها معروفون، يعيشون في قصور العاصمة عيشة الأمراء والوزراء، على حد قول الدكتور عدنان الخطيب الذي يُبرز مكانة المنجمين عند بعض الأمراء وكبار القادة، ويروي قصة تزعم أنّ الجيش العثماني هُزِم أمام جيش محمد علي لأنّ منجّماً نصح قائده بعدم القتال ما دام نجمه منحرفاً.

إلى هذا كانت مسؤولية رجال الدين كبيرة عمّا آل إليه وضع الدولة والناس: ليس لأنهم لم يبالوا بما وصلت إليه الأحوال، بل لأنهم شاركوا بنشاط في الفساد

العام. وعندما أصدر كبار العلماء فتوى تجيز أن يخلف ابن العالم أباه في وظائفه ولو كان طفلاً رضيعاً، صارت الوظائف الدينية تورّث كما تورث العقارات والأموال، فضعف طلب العلم، وتصدى الجهلة وأنصاف المتعلمين للتدريس والخطابة، وقصّر أبناء المسلمين عن طلب علوم الدين بعد تقصيرهم في طلب علوم الدنيا، وانتهى الأمر بهم إلى المشاركة في ما سعى إليه آل عثمان من دك آخر ما بقي من حضارة العرب ومحو ما لتراثهم الإسلامي من مقومات، مع ما ترتب على ذلك من انهيار الوازع الديني، وفساد بطانة السلاطين والقضاة، وهدر كرامة المواطنين وحقوقهم، وضياع ثقتهم بالعدالة.

وزاد الطين بلّة تلك السياسة المعادية للعرب، التي مارسها الحكم العسكري بعد انقلاب عام 1909 الذي أطاح بالسلطان عبد الحميد؛ وجاء إلى الحكم بضبّاط جمعية الاتحاد والترقي ذات النزعة التركية المتطرفة؛ وقام بجهد مكثف لإضفاء طابع تركي صَرْف على الدولة، يمنع تحويلها إلى دولة ثنائية القومية، للعرب فيها استقلال ذاتي -إداري واسع، أو يحول بينهم وبين الانفصال عنها، عبر سياسة تتريك مدروسة استهدفت احتواء النخب العربية المتعلمة في الجيش والسياسة ومناحي الحياة العامة الأخرى، ولا سيّما الرسمية منها، وإلا فالقضاء عليها، بما أن بعضها كان يدعو إلى الاعتراف بحق العرب في الحرية، والإقرار بما لهم من مكانة داخل الدولة، وبعضها الآخر يطرح برامج ترمي إلى استقلالهم عن دولة ليست لهم؛ تطالبهم بتضحيات لا حصر لها دون أن تعترف بهم أو بأي حقّ من حقوقهم.

❖ ❖ ❖

حدد هذا الإطار التاريخي نشاط الشيخ طاهر الجزائري، وعيّن نظرته إلى نفسه وزمنه؛ ودفعه إلى تبني نظرة سياسية تعطي الأولوية للإحياء المجتمعي، ومن ثمّ الفردي والشخصي، على أيّة أولوية سياسية، وتقول بضرورة وضع قدرات الدولة وفئات المجتمع الثرية من تجار ورجال دين وسلطة وملاك عقاريين في خدمة هذا النمط من الإحياء، الذي لا ينجح إذا لم يشارك كل فرد فيه بصفته مواطناً يتمتع بقدر وافر من الحرية. وكانت بداية الإحياء عند الشيخ مطالبته بإصلاح عقل العامة، من خلال إصلاح ديني، يعيد لعلوم الدين مكانتها في حياة

المسلمين، بعد تنقيتها من الخرافات، وإعادة جوهرها الأصيل إليها الذي غيبه الجهل والتطيّر والفكر الخرافي. ولتحقيق هذه الغاية ألّف الشيخ كتباً كثيرة من أهمها كتاب (توجيه النظر إلى أصول الأثر) ضمّنه عصارة ما في كتب الفقه من قواعد وفوائد. قال بضرورة إصلاح عقول الخاصّة أيضاً، وبذل جهوداً يوميّة وحثيثة لنشر العلوم الوضعية والتعريف بها، وربط هذا بتأسيس مدارس حديثة يتلقى الناشئة فيها علوم البلدان التي سبقت العرب والمسلمين إلى التقدم والعمران، عمل الرجل على إقامتها بجميع السبل، ولا سيما العون الذي قدمه المصلح العثماني الشهير مدحت باشا الذي صار واليا على دمشق خلال قرابة عام واحد 1879؛ وبادر إلى تعيين معلم المدرسة الشيخ طاهر - الذي صار صديقه وشريكه في عمل إصلاحي رمى إلى تحديث الدولة والمجتمع العثمانيَّين - مفتشاً عامّاً على المدارس الابتدائية، وهو موقع أتاح له العمل بجد على تأسيس مدارس جديدة غطّت معظم الديار الشامية، أقامها بمعونة ما عرف آنذاك (الجمعية الخيرية)، وهي جمعية علمية دينية واجتماعية كان قد أسهم في تأسيسها وإدارتها، نَفّذت بمبادرة منه وتحت إشرافه خطة لنشر التعليم الأهلي غير الرسمي؛ جمعت لتنفيذها المال من الموسرين، وأنفقته على بناء وفتح مدارس جديدة كان بعضها تكايا دينية، حولتها إلى مدارس حديثة عمل فيها مدرسون قديرون من محبّي العلم واللغة العربية، بإشراف وإرشاد الشيخ، الذي ما لبث أن شارك في تأسيس أول مدرسة ثانوية عرفتها دمشق؛ ووضع لها وللمدارس الابتدائية الجديدة برامج تعليمية تناولت مختلف فروع المعرفة؛ وتضمنت شروحاً ومختصرات ومناهج تدريس آمن بضرورتها، لتربية الأجيال العربية الجديدة على تقبل العلوم الحديثة؛ والتفكير بطرق علمية تمكنها من تمثل ما فيها من مكتشفات وحقائق؛ مختصرات جمع فيها خبرات العرب القديمة والشعوب والأمم الحديثة في العلم والتعليم؛ دون أن يكف عن مطلبه في تحديث العلوم الدينية، أو يرى فيها علوماً تغني المتعلم عن غيرها، وقد ساعدت مؤلفات وملخصات الشيخ معلمي وأساتذة المدارس الجديدة على تبني واقتباس أفضل طرق التعليم؛ لا سيما وأنّ عدد هذه المدارس التي ضمت لأول مرة مدارس خاصة بالفتيات، ما انفك يتزايد باطّراد، فكان من الحتميّ أن يضع الشيخ كتباً تلائم أوضاع تلميذاتها وتعدهن لدورهن الخاص في المجتمع

العربي الإسلامي؛ تخرجهن من قيود التقليد والجمود إلى رحابة الحياة الحديثة التي آمن بحاجتها إليهن؛ وبحاجتهن إلى المشاركة الفاعلة فيها، ضمن تطلعه إلى ربط الدين والعلم والعمران؛ الثالوث الذي اعتقد أنّ تجديد أركانه سيتكفل ببعث النهضة العربية، وبردٍّ العرب إلى موقعهم من الحضارة الإنسانية.

أكمل الشيخ مشروعه الهادف إلى محاربة الجهل والتأخر بالعمل على نشر الكتاب مخطوطاً ومطبوعاً وملخصاً على أوسع نطاق وفي كل وسط اجتماعي؛ كان الكتاب رفيق الشيخ في حلّه وترحاله، لا يكاد يفارقه في ليل أو نهار، حتى أنه آثره على نفسه، فكان ينفق القليل من المال على طعامه وشرابه ولباسه وسكنه، والكثير منه على شراء الكتب الجديدة، ونسخ وتحقيق وطباعة المخطوطات القديمة التي كان يوزعها دون مقابل على تلامذته ومريديه؛ بل وعلى عامة الناس؛ لحثهم على القراءة وطلب المعرفة واقتناء الكتب والاهتمام بها والحديث عنها. وقد أعانته كتبه في ساعات الشدة التي كثيراً ما مرّ بها، وهو الرجل الفقير المشكوك بولائه للسلطات، فكان يبيع بعضها، ولا سيّما المخطوط منها، كي يتدبر أموره بعائدها، في سياق اهتمامه بالكتب وشغفه بنشرها.

أسس الشيخ أول (دار كتب وطنية) في سوريا، عرفت باسم (المكتبة الظاهرية)؛ لأنه أقامها تحت قبة مدفن الملك الظاهر. جمع فيها ما وجده من كتب ومخطوطات في المساجد والمدارس والتكايا والزوايا، كما كان أول من أسس دار كتب في فلسطين هي (المكتبة الخالدية)، التي جعل مقرها القدس عاصمة فلسطين، حيث كان له نشاط تعليمي وتربوي بارز.

أخيراً عمل الشيخ دون كلل أو يأس لدفع الناس إلى طلب العلم، فكان يعقد ندوات وينظم لقاءات يكرسها للحوار والنقاش حول مختلف الشؤون العامة؛ وحول الكتب والعلم بصورة خاصة، حتى أنّ بعض تلامذته ومريديه كانوا يستغربون سلوكه ويعدّونه جهداً ضائعاً، وينصحونه بضرورة قصر علاقاته على طلاب العلم ورجاله، بينما كان هو يصرّ على أنّ العلم يجب أن يكون في متناول الجميع، ويعتقد أن النهضة العربية الإسلامية لن تقوم على أكتاف النخب وحدها، حتى إن كانت هي التي ستقودها، وأنّ من الحتمي مشاركة المجتمع فيها، وإلا فإنها لن تتحقق أو تحقق الغرض منها.

اتخذ الشيخ من المساجد أماكن للقاء الناس وتبادل الحديث معهم، وكان يحضر الأعياد والمناسبات الاجتماعية المختلفة، ويزور الأحياء الشعبية، حيث يلقي دروساً دينية أو أحاديث ومحاضرات علمية. كان أول من حدس بوجود مجتمع مدني عربي إسلامي، وأول من عمل لتزويده بمعارف تمكنه من الاهتمام بشؤونه، ولإمداده بوعي مستنير منفتح على الآخر، ضمن ما اعتبره شرطي النهضة الحديثة التي لن تقوم بدونهما، وهما: المرونة في الاقتباس من حضارات الأمم الأجنبية في وسائل القوة، والاحتفاظ بتقاليدنا التاريخية وأوضاعنا الوطنية ولساننا الأصيل. أما أداة هذه النهضة فهي في رأيه: حزب وسطي معتدل ينهي انقسام المجتمع العربي الإسلامي إلى حزبي غلوّ وتطرّف، على أن يكون قيامه نتاجاً للعلم ولإصلاح العادات والتقاليد، ونشر المعرفة بين الناس، من خلال المدارس والصحف، التي كان قد شجع على إنشائها، وامتدح دورها، وحثّ على قراءتها، والكتابة فيها، ونشر ما تورده من أخبار وآراء بين الناس.

بعد عزل الوالي مدحت باشا، صدر قرار سلطاني بإلغاء منصب مفتش التعليم العام في سوريا؛ فبقي الشيخ عاطلاً عن العمل طيلة أربع سنوات، عاش خلالها من بيع الكتب، ثم عين مفتشاً عاماً لدور الكتب، وتعرض من جديد لملاحقة السلطات، ففرَّ عام 1907 إلى مصر، محملاً بكتبه ومخطوطاته، حيث واصل نشاطه الثقافي التنويري، وألّف بعض الكتب ككتاب (توجيه النظر إلى علم الأثر) الذي وضعه عام 1910، وكان له من الأهمية ما جعل مستشرقاً كبيراً هو جولدتسهير يترجمه إلى المجرية والألمانية.

عاد الشيخ إلى سوريا عام 1919 بعد ثلاثة عشر عاماً أمضاها في مصر؛ ليتولى منصب مدير عام دار الكتب الوطنية (الظاهرية)، ويصير عضواً في المجمع العلمي العربي الذي أسسه وترأسه تلميذه محمد كرد علي، لكن المنيّة وافته يوم 5 كانون الثاني عام 1920، بعد مضي زمن قصير على رجوعه إلى بلده، وتحقّق حلمه في قيام دولة عربية فيه. كان الشيخ يعرف الثقافات التركية والفارسية والفرنجية والعربية، ويتقن لغات كثيرة شرقية وغربية.

❖ ❖ ❖

لم يكن الشيخ طاهر سياسياً أو محباً للسياسة، وإذا كان قد طلب الإصلاح فمن أجل تغيير النفوس سبيلاً إلى استنهاض العرب والمسلمين وترقية مجتمعاتهم، وعلى العموم فإن آراءه السياسية كانت أقرب إلى الاعتدال منها إلى التطرف والغلو، ذلك أنه كان ينشد نهضة عربية شاملة في إطار الرابطة العثمانية الإسلامية، ويؤمن أن الإسلام والمسلمين – وعلى رأسهم العرب – لن يصلح حالهم إلا على مثل الأيدي التي تولت أمورهم في عصر التابعين. كما كان يرى مركزية دور العرب في الإسلام والسياسات الإسلامية، ويعتقد أنهم مادّة الدين وحملته الأوفياء، وأن النهضة الإسلامية لن تتحقق دون قيادتهم، ودون مكانة خاصة يحتلونها فيها ودوراً مميزاً يلعبونه داخلها، وأن العثمانيين ضلوا في نهاية حكمهم سواء السبيل، واستغلوا الإسلام لمآرب تجافي مقاصده، وأنّ نهضة العثمانية من جديد رهنٌ بقبولهم دوراً عربياً قيادياً في شؤون الدين، وما يتصل بها من شؤون الحكم، لا سيّما وأن العرب لم يفقدوا استعدادهم الديني وقابليتهم الحضارية، رغم ما لحق بهم من تنكيل واضطهاد، وتعرضوا له من جور واستعباد. إلا أن مواقف الشيخ المعتدلة من العثمانيين ما لبثت أن تبدلت بمرور الوقت، مع تصاعد نضال العرب من أجل الحكم اللامركزي والاستقلال، وتعاظم التعنت والجور العثماني ثم التركي، ولا سيّما بعد انقلاب جمعية الاتحاد والترقي، الذي عمل على تتريك العرب بدل الاعتراف بحقوقهم، بل وأعدم بعضاً من خيرة تلامذة الشيخ، بينهم ابن شقيقه، الضابط في الجيش العثماني سليم الجزائري الذي نشأ في كنفه وكان له بمثابة الابن. وكان الشيخ قد تنبأ بخسارة تركيا الحرب، ودعا إلى تهيئة وإعداد العرب للاستقلال عنها بعد نهاية القتال، ولإقامة دولة عربية حرة. وإذا كان خوفه من السياسة ونفوره منها قد دفع به – في الحقبة المبكرة من نشاطه – إلى إطلاق اسم (الجمعية الخيرية) على الجمعية العربية – الإسلامية، التي شارك في تأسيسها واعتبرها أداة للنهضة، وإلى الامتناع عن تأليف كتب خاصة بالسياسة، فإن خوفه هذا لم يمنعه من إعداد تلامذته إعداداً عربياً، ومن دعوتهم إلى الجهر بالعروبة والفخر بها، وحثهم على حبها وإنهاضها من كبوتها، ولم يدفعه إلى تملق الولاة والسلاطين، ولم يحل في حقبة تالية بينه وبين نفض يده من السياسات العثمانية، وناهض السلطات التركية إلى الحد الذي جعلها تطارده

وتفتش بيته بحثاً عن أدلة يمكن أن تدينه قضائياً، وتجبره على مغادرة سوريا إلى مصر فراراً من الملاحقة التي كانت تتم بأوامر مباشرة من الآستانة. كان الشيخ يفتش، آنذاك، دور الكتب في القدس، وحين علم بما حدث عاد سراً إلى دمشق، حيث أمضى أربعة أعوام متنقلاً من مكان لآخر، قبل أن يشتد البحث عنه ويضطره للهرب إلى القاهرة، التي وصلها عام 1907، وانزوى في واحد من منازلها الصغيرة والفقيرة، حيث عاش وحيداً، واقتات بما عاد به عليه شراء وبيع الكتب من مال قليل، رغم اتصال خيرة علماء القاهرة به، ممن عرفوا فضله وعلمه وأفادوا من خبرته وثقافته.

رسم محب الدين الخطيب صورة حية عن حياة الشيخ في مصر، فقال: « ... وكان يعيش عيش الكفاف، ثم انقلبت حاله إلى تقشف ظاهر، فجرى الحديث في دار المؤيد مع العلامة أحمد تيمور عن ضيق ذات يد الشيخ، وعن ما فُطِرَ عليه من عزة نفس وحب للبذل في سبيل الخير. واقترح تيمور السعي لتعيين الشيخ في دار الكتب المصرية، فوعد صاحب المؤيد، وكانت له دالة على الخديوي، ولما بلغ الشيخ الخبر رفض قبول الوظيفة، معتذراً بأن شيخوخته لا تساعده على إيفاء الوظيفة حقها. وفكر صاحب المؤيد بمحاولة يجري الخديوي معها على الشيخ راتباً من الخزينة... فنجح». وطلب إلى الخطيب إخبار الجزائري بذلك. ثم اجتمع به ووصف تلك اللحظات بقوله: «كنت أظن أنّ الخبر سيسره، لكنه غضب من الحادثة غضباً شديداً لم أعهده فيه من قبل، وقال لي: كيف يقدم صاحب المؤيد على هذا الأمر دون أن يأخذ رأيي؟. ثم أضاف معاتباً: كأني معك يوم كلمت الخديوي بشأني فقلت له: إنك سمعتني أثني عليه لتعضيده مشروع زكي باشا في إحياء الآداب العربية بطبع النفائس التي نقلها من خزائن الأستانة. نعم، إني أثني على كل من يخدم العلم ويعمل على نشر كتب السلف، ولكن من الذي يضمن لك أن لا أقف من الخديوي عكس هذا الموقف، إذا صدر منه ما يناقض ذلك العمل؟».

كتب الشيخ في صحف مصرية متنوعة من أجل كسب عيشه، دون أن ينقطع عن التأليف والقراءة. وعندما أعلن الدستور العثماني وتمّ خلع السلطان عبد الحميد، وانتشت البلاد العثمانية بشعارات الانقلاب الجديد (عدالة – حرية – مساواة)، كاتبه عديد من تلامذته طالبين إليه العودة، بعد أن زالت أسباب هجرته؛

لكن الشيخ رفض، وأخبرهم أنّه لا يطمئن إلى رجال (جمعية الاتحاد والترقي)، الذين يعرف آراءهم وأحلامهم وما يضمرونه من حقد على العرب عامة والسوريين منهم خاصة؛ وعرف ما يدعو إليه متطرفوهم من وجوب القضاء على القومية العربية والعمل على تتريك البلاد. وفي النهاية علموا ما قاله الشيخ لصديق كان قد سأله عن سبب امتناعه عن العودة إلى دمشق: «لم يزل كل شيء على حاله، وما هذا الانقلاب الخلاب إلا انتقال من نير استبداد الفرد إلى نير استبداد الجماعة». فيما بعد، زاد نفور الشيخ من الأتراك الجدد بعد إعدام أحرار العرب يوم 6 أيار عام 1916 في دمشق وبيروت، حتى إنه رفض تلقي العزاء بابن شقيقه وربيبه سليم الجزائري، ولم يقبله إلا بعد قيام الدولة العربية ونهاية الحكم التركي.

عاش المصلح الشيخ طاهر في حقبة عرفت مصلحين آخرين هما الشيخان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، لكنه لم يكن على صلة بهما، رغم أنه قاسمهما مواقفهما من الحرية والاستبداد، وقد طرحت أسئلة كثيرة حول أسباب هذه الواقعة، اختلف المتابعون والمهتمون في الرد عليها، وإن كان بعضهم قد أشار إلى أن الرجال الثلاثة كانوا ماسونيين، لكن الأفغاني وعبده عملا على تعضيد الدولة العثمانية ضد الخطر الخارجي عامة والبريطاني خاصة، في حين ربط الجزائري التحرر من السيطرة العثمانية بعون بريطانيا؛ لهذا السبب لم يكن هناك اتصال بين الأفغاني وعبده وبين الجزائري، واختلف معنى الإصلاح عندهما عنه عنده، واختلفت توجهاتهما عن توجهاته، وهو الذي كان يرى في بريطانيا «أحسن من يخلص العرب له الود»، كما قال في رسالة بعث بها إلى أمينة سرّ حاكم العراق المستشرقة (غرترود بل) في الأول من شوال عام 1337 هجرية، ضمنها تدابير وسياسات من شأن تحقيقها «اشتداد التلاؤم بين الفريقين» ووقعها باسم: المخلص للأمة العربية ولبريطانيا العظمى طاهر الجزائري.

لا حاجة إلى القول إن هذه الرسالة التي اعتقد الشيخ بأن ما أورده فيها من نصائح سيرشد بريطانيا إلى سياسة صحيحة تخدم العرب وتخدمها؛ كما يؤكد في أحد مقاطعها؛ وهي تشير إلى اقتناعه بأنّ نهوض العرب بقدراتهم وحدها لم يكن أمراً متاحاً أو سهلاً، وأنّ دعم بريطانيا ضروري لهم، وإلا تأخرت نهضتهم بسبب المعوقات الكثيرة، التي خلفها لهم حكم بني عثمان، لا عجب أنّ الشيخ أعطى

الأولوية لاستقلال العرب عن الترك، بعد نشوب الحرب العالمية الأولى عام 1914، وأنه أيّد الثورة الكبرى التي قاموا بها بقيادة الشريف حسين بن علي التي كانت ترمي إلى استقلالهم، وإقامة دولة موحدة لهم بالتفاهم مع بريطانيا ومساعدتها.

❖ ❖ ❖

لئن كان جمال الدين الأفغاني قد عرف بتأثيره المباشر في معاصريه، سواء عبر اللقاء الشخصي معهم أم من خلال كتبه وخططه واقتراحاته الثورية وأفكاره المجددة التي طالت كل مجال من مجالات السياسة والمجتمع، وإذا كان محمد عبده قد اشتهر بحواراته ومؤلفاته الغنية وكتاباته الصحافية وزياراته المتعددة داخل مصر وخارجها، وموقعه في دار الإفتاء وعلاقاته مع العلماء وأصحاب الأمر في آن معاً، فإن الشيخ طاهر كان كالشجرة التي تعرف بما تعطيه من ثمار. والحق إنّ الشيخ عُرف أكثر ما عُرف من خلال تلامذته ومريديه الذين فاقت شهرتهم وأفعالهم شهرة كتاباته وأفكاره وحواراته؛ وإذا كان صحيحاً أنه لعب دوراً مهماً في سوريا عند مطالع القرن العشرين، فلأنه نجح في تربية جيل تحمل مسؤولية بناء الدولة الحديثة فيها، برز ممثلوه في كل مجال، حتى إنه يصعب تصور سوريا الراهنة الحديثة المستقلة دون أدوارهم وإسهاماتهم وتضحياتهم. ولو عددنا من كان بين أصدقاء وأتباع الشيخ طاهر من شيوخ دمشق الفطاحل، لوجدنا: الشيخ جمال الدين القاسمي الذي كان عالماً كبيراً تزعم الدعوة إلى الإصلاح الديني، والشيخ عبد الرزاق البيطار، الخبير في الأدب والتاريخ، والشيخ سليم البخاري، رجل الإصلاح الديني في بلاد الشام، الذي تولى منصب الإفتاء وصار رئيساً لعلماء الشام. أما إذا تأملنا أبناء الجيل الجديد من مريديه الذين التحقوا به، فإننا سنجد عدداً من نوابغ الأدباء وحملة السيف والقلم أمثال: رفيق العظم، ومحمد كرد علي، وشكري العسلي، وعبد الوهاب المويلحي، وعبد الحميد الزهراوي، وسليم الجزائري، ومحمد علي مسلم، وعبد الرحمن الشهبندر، وفارس الخوري، ومحب الدين الخطيب، ومحمد سعيد الباني. وقد كان الشيخ يلتقي هؤلاء في أوقات محددة بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع، أو في يوم معين من أيامه، أو في مواعيد متغيرة تشهد سهرات ليلية متواصلة يتنقل فيها معهم بين مختلف أحياء المدينة متخيراً المنازل التي يكثر زائروها من المثقفين والمتعلمين، حيث يقوم

باستعراض ومناقشة القضايا والتيارات الفكرية والعلمية والسياسية، التي تكون قد أثارت اهتمامهم خلال الأسبوع الذي يجتمعون في نهايته.

وقد حمل هؤلاء الرجال راية النهضة العربية - الإسلامية، وشارك بعضهم في تأسيس الجامعة السورية، والمجمع العلمي العربي، وجدد وأصلح مؤسسات دينية وتعليمية وإدارية وعسكرية، وضحى نفر منهم بنفسه من أجل استقلال العرب، كما فعل رفيق العظم، وشكري العسلي، وعبد الوهاب المويلحي، وسليم الجزائري، الذين أعدمهم جمال باشا والي سوريا السفاح، يوم 6 أيار من عام 1916، بعد أن كانوا قد أسسوا جمعيات تدعو للعرب وتطالب بإنصافهم وإعطائهم المكانة القيادية التي يستحقونها، في إطار الإمبراطورية العثمانية، ثم باستقلالهم عقب قيام جمعية (الاتحاد والترقي) التركية. وإذا كان الشيخ قد رفض الانضواء في فريق الأتراك والمستتركين من رجال الإدارة والجيش، أو في فريق المشتغلين بالأدب العربي والتاريخ الإسلامي من العرب والترك، فلأنه كان يائساً من إصلاح المسلمين - وعلى رأسهم العرب - بواسطة الجمعيات والأحزاب، ويعتقد أن نهوضهم رهن بعاملين هما: العلم وحرية الإرادة والعودة إلى الأصول والسلف الصالح.

❖ ❖ ❖

قالوا في الشيخ طاهر:

- «أستاذنا العلامة الشيخ طاهر الجزائري في هذه الديار كالأستاذ الإمام محمد عبده في مصر» تلميذه محمد كرد علي.

- «في تلك المدة التي قضاها الشيخ طاهر الجزائري بالشام كان يتحلق حوله في دمشق صفوة المتعلمين والنبهاء والمفكرين العرب، فتألفت من جماعهم أكبر حلقة أدبية وثقافية كانت تدعو إلى تعليم العلوم العصرية، ومدارسة تاريخ العرب وتراثهم العلمي وآداب اللغة العربية، والتمسك بمحاسن الأخلاق الدينية، والأخذ بالصالح من المدنية الغربية». الأمير مصطفى الشهابي.

- «كنت أرى فيه الأثر الباقي والمثال الحي والصورة الناطقة لما كان عليه سلفنا الصالح، من حيث الجمع بين الرواية والدراية في كل المعارف الإسلامية، وبين الدأب على نشرها بعد التدقيق والتمحيص، واستثارة خباياها وإبراز

مفاخرها، هذا إلى التفاني في توسيع نطاقها بقبول ما تجدد عند الأمم التي تلقت تراث العرب باليمن، والدعوة إلى الإقبال عليه مضموماً إلى آثار الأبناء ومآثر الأجداد». أحمد زكي في رثاء الشيخ.

- «ندر جداً أن جاء في المتأخرين من علماء المسلمين؛ أي في عصور الانحطاط العلمي، رجل وعى في صدره من العلم ما وعاه الشيخ طاهر الجزائري، فكان متضلعاً في علوم الشريعة وتاريخ الملل والنحل وما يتشعب عنها، منقطع القريب في تاريخ العرب وتراجم رجالهم وسلاسل أعمالهم ومناقبهم ومناقشاتهم ومناظراتهم فهو في ذلك الحجة الثبت...». تلميذه محمد كرد علي.

- «إنّ الشيخ طاهر الجزائري هو جرثومة الخير الأولى في ديار الشام، وهو مؤسس كل ما تأسس في سوريا ولبنان وفلسطين من مدارس أميرية، وقد تمكن بدهائه أن يجعل العربية لغة التعليم فيها، إلى أن غلب على أمره، فكفت يده، وجعل التعليم فيها بالتركي. وإنّ جميع الذين يعرفون الشيخ طاهر من مثقفي الشام كانوا يتصلون به يستفيدون منه، وكان هو يوجههم بحكمته ورفقه إلى الوجهة التي تكون بها الأمة أمة، ويتصل بها خلف الأمة بسلفها، ويتعرف به دليل القافلة إلى الهدف الأعظم... عرفت عروبتي وإسلامي من هذا الغريب الصابر الدائب، وعرفت منه أن المعدن الصدىء، الآن، الذي برأ الله منه في الدهر الأول أصول العروبة ثم تخيرها ظئراً للإسلام، إنما هو معدن كريم لم يُبرىء الله أمة في الأرض تدانيه في أصالته وسلامته وصلابته، وعظيم استعداده للخير والحق». تلميذه محب الدين الخطيب.

- «وكان على قدر زهده باللذائذ المادية راغباً في اللذائذ الأدبية، وهي لذة العلم ولذة الحرية والأخلاق، فكما أنه لا يقدر أن يتقيد بقيد سوى ما قيده به الشرع والعرف، فإنه كان أبعد الناس عن كل ما من شانه تشويش الذهن وتقييد الفكر ووخز الضمير». تلميذه محمد سعيد الباني.

ميشيل كيلو

مؤلفاته

1- المؤلفات المطبوعة

- الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية.
- منية الأذكياء في قصص الأنبياء.
- مد الراحة إلى أخذ المساحة.
- مدخل الطلاب إلى فن الحساب.
- الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام.
- تسهيل المجاز إلى فني المعمى والألغاز.
- إرشاد الآباء إلى تعليم ألف باء.
- التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن.
- التثريب إلى أصول التعريب.
- توجيه النظر إلى علم الأثر.
- تدريب اللسان على تجويد البيان.
- كتاب التمرين على البيان والتبيين.
- معجم أشهر الأمثال.
- مبتدأ الخبر في مباديء علم الأثر.
- عمدة المغرب وعدة المعرب.
- مختصر أدب الكاتب لابن قتيبة.

2- المؤلفات المخطوطة:

- الكافي في اللغة.
- التفسير الكبير.
- الإلمام بأصول سيرة النبي عليه الصلاة والسلام.
- مقاصد الشرع.

3- **كتب التراث**، وهي بالعشرات نختار منها :

- إرشاد القاصد لابن ساعد الأنصاري.
- روضة العقلاء لابن حبّان البستي.
- الأدب والمروءة لصالح بن جناح.
- الأدب الصغير لابن المقفع.
- أمنية الألمعي وتفسير النشأتين للراغب الأصفهاني.
- الفوز الأصغر لمسكويه.

ومن آثاره عدد كبير من المقالات والإملاءات نشر كثير منها بتواقيع مستعارة في مختلف صحف ومجلات القاهرة ودمشق وبيروت.

محسن الأمين العاملي

إمام الوحدة والإصلاح

(1864 - 1952)

اعترض على الحكومة السورية في عهد الاستقلال، لاتخاذها قراراً يوزع المقاعد في المجلس النيابي على أساس طائفي، يدفع بالانتخابات وفق مفهوم الأقلية والأكثرية؛ فلم يكن منه إلا أن كتب كتاباً يدعو فيه الحكومة بأن الشيعة في سورية يرفضون الافتراق عن إخوانهم من السنة، لأنه يعتبر المسلمين طائفة واحدة. وتستجيب الدولة لندائه الوطني، وتقرر بالإجماع الاعتماد على كتابه بأن المسلمين على اختلاف مللهم طائفة واحدة، يتقاسمون المقاعد بينهم على السواء.

فمن هو هذا الرجل، الذي ترك لسوريا العروبة والإسلام ميراثاً ضخماً من ثقافة الوحدة والإصلاح والتجديد ...؟

هو إمام يحمل فقه المذهب الشيعي وعراقة الجبل العاملي. وهو كما تظهره لنا صورته المطبوعة في الصفحات الأولى من معظم كتبه: عينان واضحتان يشعّ منهما نور غامض، تعلوهما عمامة سوداء مكوّرة كنصف هلال، ثم ذقن كثّة بيضاء تكمل دورة الهلال، ويدان تمسكان بمقبض عصا كموقع ارتكاز وسط جبة واسعة، وقفطان حتى كأن التوازن الهندسي في الصورة يرشح من توازن آخر هو توازن الإيمان؛ أو كأن الصورة هنا، هي صورة الروح في عالم الدين، فالزِّي مفصّل على الروح لا على الجسد.

كان وحيداً لم يتجاوز عمره يومئذ السبع قبل مولد شقيقتيه، وقد ذهبت به والدته إلى معلّم القرآن في القرية، أيام كان التعليم في الكتاتيب قسوة وفلقة، فلم يضق صدره من آيات القرآن، ولكنه ضاق ضيقاً شديداً، وجزع جزعاً مفرطاً من معلم القرآن، فكان إذا غضب المعلم على واحد لذنب هو من الصغائر، وهو قريب منه، تناوله ضرباً على رجليه بالعصا القصيرة، فإن كان بعيداً عنه ضربه عليها

بالعصا الطويلة، وإذا غضب على الجميع تناولهم بالضرب على أرجلهم، وهم جلوس صابرون على هذا البلاء خوفاً من الأشد ..

ومن طريف ما يرويه (السيد) عن قسوة الأستاذ في عصره أن عدد الجلدات التي ينالها الطالب المذنب ليس له حد في شرع المعلمين، وليس كحد الزنا وشرب الخمر له مقدار معين؛ بل هو من نوع التعزيز الموكول أمره إلى الشرع الذي يمثله الإمام، وكذلك ضرب المعلم للتلميذ، فهو موكول أمره إلى نظر المعلم، فيختلف بحسب اختلاف ذنب الطفل، ومقدار درجة المعلم وتفاوت حاله في الغضب، ولا يتكلم أهل الطفل في شأنه بشيء، بل يقولون للمعلم لك اللحم ولنا الجلد والعظم، اعتقاداً منهم أن ذلك في مصلحته وأنه محتاج إلى التأديب.

وبهذا نشأت في نفسه حاجة شديدة إلى مخرج من هذا العذاب، فأبى أن يذهب في اليوم الثاني إلى الشيخ. ولقد أشفقت عليه أمه فتولت تعليمه القرآن، وتولى والده تعليمه أصول اللغة والحساب، وأما الخط فكان شيوخ العائلة يكتبون له قاعدة على لوح من التنك بجدار من تراب أبيض ثم على الورق فأتقنه في مدّة يسيرة. ولم يكن له في حال الصغر فيما يعتاده الصبيان من اللعب، إلا أنه تعلّم السباحة وركوب الخيل والمطاردة ولم يتعلم الرماية ببنادق الصيد والمسدسات، لأن ذلك مما يعاب على طالب العلم الديني، فلم يحمل سلاحاً بيده، لكن أهل دمشق يروون عنه أنه كان يوماً مع ثلّة من المؤمنين في بعض متنزهات دمشق، ومعهم مسدس، فأخذه السيد، وصوّبه إلى شجرة وغمّض عينيه، وأطلقه، فأصاب المرمى.

على الرغم من نفور السيد من طريقة الشِّدة والفظاظة في تعليم الأبناء، إلا أنه يقر بنجاعة تلك الأساليب بقوله: «ومهما قلنا بقساوة التعليم في تلك الأعصار ولينها اليوم، لا نستطيع أن نقول إن نتائج التعليم اليوم الأخلاقية والدينية تعادل نتائجها في تلك الأعصار...»، ويعلل فلسفة ضرب التلاميذ في عصره بأنّ معلماً ضرب بعض أولاد الأكابر على غير ذنب، وهو يعلمه، فسُئل عن ذلك، فقال: أردت أن يعرف مرارة الظلم فلا يظلم أحداً.

يكبر السيد، وتكبر معه روح التسامح، وينصرف في جهد عملي نادر إلى تنقية المجتمع من الشوائب بأدب الرحمة؛ فلم يرمِ خطيئةً بحجر. ومن الأمثلة على ذلك

ما يقوله الشيخ جعفر الخليلي: لقد حمل السيد عدداً ممن عثر بهن الحظ على التزام التوبة، ثم دفع بهن إلى من هيأ لهن زواجاً، فعشن شريفات، ورزقن بأولاد صالحين ببركة مساعيه..

ونراه شغوفاً بالمطالعة، يقرأ بعقل الحريص على تصحيح ما يقرأ، ويكتب بعقل الأمين على توثيق ما يكتب، حتى عُدَّ من كبار الرجال الموسوعيين. وتقديراً لمكانته العلمية السامية، وما قام به من جليل الأعمال والمآثر، فقد اختاره إخوانه أعضاء المجمع العلمي بدمشق زميلاً لهم؛ فانضمّ إلى مجمع الخالدين سنة 1361هـ. وإيماناً منه بإصلاح الكتاب الديني، كان يضع هوامشه الإصلاحية على كتب التدريس؛ فيحذف منها ما يراه شائبة، ويضيف عليها بتجديد ما يراه نافعاً، ولا يكاد يخلو كتاب في النحو والفقه والبلاغة والعقيدة والأصول من فكرة أو خاطرة تخدم هذا الإصلاح الذي كان يتوق إليه ويتعقبه من أصول مناهجه القديمة. ولغزارة لغته وبديع بيانه، فقد طاوعته الأفكار والألفاظ وسلس له قيادها، ولو شاء أن يكتب الرواية، وما كان ينبغي له أن يفعل ذلك لمقام الإمامة، لعُدَّ من أئمة الرواية العربية بلا منازع.. فقد كتب ثلاث روايات تمثيلية، مثلها طلاب المدرسة العلوية على مسرح المدرسة بدمشق، غير أنه انصرف بقلمه عن ذلك ليكتب في قضايا الوحدة والإصلاح والتجديد؛ ومن بواكير مؤلفاته في الوحدة الإسلامية: (حق اليقين في التأليف بين المسلمين) ومن بواكير مؤلفاته في التجديد (الدرة البهية في تطبيق الموازين الشرعية على العرفية). وكتب في الإصلاح رسائل كثيرة هي رسائل الرد والنقد، يغلب عليها الدفاع عن عقيدة أهل البيت، فكان يعزّ عليه أن ترمى الشيعة بتهم الابتداع والكفر بغير ما سبب، فتوقف عندما اعتبر نقاط خلاف بين الشيعة وسائر المسلمين، فبيَّن أن الخلاف مصطنع، وأن السياسة لا الدين، هي مصدر ذلك، وأن الخلاف بين المسلمين لا يطال بأي حال من الأحوال جوهر العقيدة الإسلامية وأصولها.

لم يعكر صفو تعليمه إلا تلك الحرب التي اشتعلت بين روسيا والدولة العثمانية سنة 1290 هجرية؛ فوقع الناس في خوف وجوع، وغُلبت الدولة العثمانية، ودخل الروس بحر استانبول، ولم تكن الحرب تستعر بكلمة إلا من أجل القرصنة والسطو على الأوطان، فتحرك الأسطول الإنكليزي لدفع الروس عن

بحر استانبول، وما كان لهم أن يفعلوا ذلك إلا مقابل التهامهم لجزيرة قبرص. ولقد حدث من وراء ذلك أن أعلنت الدولة العثمانية إفلاسها، وطبعت ورقاً للمعاملة كان يُسمّى قوائم. فلما أفاقت خواطر السيد من ذكريات الحرب، كان يقرأ في ديوان أبي فراس الحمداني، وهو أول ما قرأه من شعر في حياته، وربما تحقق له أن يرثي والدته متأثراً بشعر أبي فراس؛ فكان من مناجاته في رثاء أمه ذلك العنفوان الذي نجده في أدب الحمداني:

من معدن طاب أصلاً في العلى فزكت منه الفروع ونور الشمس غير خفي
يا ديمة من سحاب العفو مثقلةً إذا مررت بجنبي قبرها فقفي

وعلى شجرة هذا النسب، فالسيد محسن الأمين ابن السيد عبد الكريم الحسيني؛ ولد بقرية (شقرا) التابعة لناحية هونين من أعمال مرجعيون، وهي من قرى جبال بني عاملة المعروفة الآن بجبل عامل. ينتهي نسبه إلى الحسيني ذي الدمعة بن زيد الشهيد ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين شهيد كربلاء.. وكل شأنه مع الكلمة والقلم. وقد تناهى إلى سمع طفولته كيف نهبت ذخائر جبل عامل أيام الجزار؛ وكيف أحرقت كتب السلف التي أوقدت في أفران عكا؛ فتحرك ضميره ليستنقذ التاريخ المحترق بموسوعته المشهورة بـ (أعيان الشيعة)؛ وعلى هواه يغرس الطفل في مخيلته شجرة من نيّرات الأسماء يطوف حولها، فيما تروي له جدته فلا يمتري أنّ الأصول أطايب، وأنه حسيب أولئك الغطارفة، وكأنه مكتوب على جبينه من فجر مولده في قرية شقراء الجنوبية سنة 1284 هجرية أن يفني حياته منقّباً عن جذور العلويين وذاكرة الهاشميين؛ وقد بلغوا من العلم والأخلاق في دنيا العراق وبلاد الشام ما بلغوه.

والإمام السيد محسن الأمين العاملي واحد من أبرز فقهاء الشيعة، ومراجعهم في نهايات القرن التاسع عشر. أنهى الثمانين من عمره فقيهاً وأصولياً ومؤرخاً ولغوياً وأديباً وشاعراً رحالة. كتب في الفقه مجدداً في أسلوب الاجتهاد والاستنباط، فتاواه المشهورة في الدرّ الثمين، وكتب في علم الرجال مجدداً تاريخه بمنهج مختلف عن أسلافه في تدوين هذا العلم، أسماه: أعيان الشيعة في علم الرجال. وكتب عن بلاد الشام، مؤسساً لمنهج جديد في كتابة التاريخ الوطني. وكتب في نقد التراث وموروثات الوجدان الشعبي كتابه: (المجالس الحسنية في سيرة

الحسين وكربلاء..)، وكتب في أدب التصوف والابتهالات: (مفتاح الجنات في الأدعية والأوراد)؛ فاجتمع بين يديه من تجارب الأيام وحصاد سنوات الفرح والألم ديوان شعري هو: (الرحيق المختوم في المنثور والمنظوم). والديوان مفتاح شخصيته، ومفتاح عصره. وكانت قناديله الصبر وقبلته الحق، أوذي من جهالات مجتمعه، حتى إذا ما رشقه معاند بطعنة شتيمة أو سباب، ذرفت عيناه دمعة الإشفاق على خصومه ومعارضيه؛ يدعو لهم في سجود صلاته: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. وامتلأت دنياه بمناظرات الجدل والحوار، يُساجل مخالفيه بأدب الحكمة والموعظة الحسنة، وفي همه أن يصحو العقل العربي من رقاده، ينهض إلى احتمال أمانته في التجديد والإصلاح على مد جيوش الاحتلال التي كانت تشحن عقول الناس بالأساطير والخرافات؛ وتملأ عصبيات قلوبهم بحميات التنازع والفتن. فكان إمام الوحدة عند المسيحيين كافة، وعند المسلمين كافة. وفي هذا قال عنه نقيب أشراف دمشق: «هو دافع الأمة في طريق التقارب والالتقاء إيماناً منه بكلمة الله الجامعة ووحدة الدين».

السيد محسن الأمين هو علم من أعلام الشام، يوم كانت سورية متصلة بلبنان كأوثق ما يكون الاتصال في وحدة الجغرافيا والتاريخ والثقافة؛ وهو من بين قلة قليلة من فقهاء عصره، ربط عملية اجتهاده الفقهي برسالة الإصلاح في مجتمعه. ولعل وقفة تأملية في بعض سيرته، تساعد الباحث على استخلاص بصماته الفكرية على جبين دمشق، في زمن شهد استجابات شتى للتحديات التي عصفت في العالم الإسلامي آنذاك؛ وتحديداً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

وتأتي فرادته كفقيه مصلح في مناداته المبكرة لدخول العلماء زمن المعاصرة من منطلقين، إحداهما: التصدي للسياسة الاستعمارية، وثانيهما: تجديد الثقافة الإسلامية وإصلاح مؤسساتها على قاعدة فقه الوحدة الوطنية والإسلامية، بعيداً عن أصوات بعض الفقهاء الذين ساهموا من حيث يدرون أو لا يدرون في عمليات التجزئة السياسية، التي مني بها العرب والمسلمون وفقاً لخطوط نشأة السلطنات وحاجتها لتبرير شرعيتها؛ فلم يكن من السيد إلا أن هتف بوجه المذهبيات التي وقعت في شباك التوظيف السياسي للسلطة قائلاً: « لم نزل نتخاصم على شرعية الخليفة حتى صار المندوب الفرنسي خليفتنا ».

وتذكر الشام مقاومته للمستعمر الفرنسي في وقفة من وقفات العز والإباء، رافضاً أن يصافح المحتل، منددا بالاعتراف بشرعية وجوده؛ وكان رده على المفوض السامي الفرنسي عندما عرض عليه منصب رئاسة العلماء والإفتاء لفصل الطائفة الشيعية عن إخوانهم من المسلمين السنّة قائلاً له: «إن من كان موظفاً عند الله لا يمكنه أبداً أن يكون موظفاً عند المفوّض السامي»؛ ثم دعا زعماء الكتلة الوطنية المجتمعين عنده من مختلف الطوائف السورية إلى توحيد موقفهم من مقاطعة الشركة الفرنسية، التي كانت تقطع الكهرباء عن كل معارض لسياسة الاحتلال؛ فخرج الناس في شوارع دمشق يحرقون عرباتها هاتفين بالوحدة والحرية والاستقلال؛ ويعتلي السيد مقعده في عضوية المجمع العلمي بدمشق حارساً من حرّاس اللغة وأميناً من أمنائها. يصفه الدكتور حكمت هاشم الذي خلفه في مقعد المجمع: «تواضع وزهد في الجاه، وعزوف عن المنزلة، واحتقار للمظاهر. لم يبال بمتاع الدنيا. يباشر بيده طعامه غير حافل برفاهية، ولا ملتفت إلى زينة في شارة أو كسوة.. الآلاف ذهباً كانت ترد عليه، فما يمسها ويحولها في الحال إلى وجوه الخير. أنفق من ماله على تأسيس المدارس.. ولم يكن يتملق العامّة أو يسترضي الدهماء».

حملَ السيد رسالة الإصلاح، وأسس جمعيات البّر والإحسان، ونادى بتوحيد المجتمع ومحاربة التشرذم والحزبية والطائفية والتعصب للأشخاص، وعلى نهج الإمام عليّ عليه السلام كان الناس عنده صنفان: أخ في الدين أو نظير في الأخوّة الإنسانية. وكان يرى أنّ المستعمر لم يحقق أهدافه إلا من جهة إفساد المجتمع، وما آل إليه من تقديس رجال السياسة والإقطاع، فكان - كما قيل عنه - رسول الوطنية ورسول الحرية، يصرخ في وجه الظلم، ويعمل لهدم الاستعمار البغيض منادياً بكلمة التوحيد وتوحيد الكلمة. وعندما حددت سوريا يوماً دعته يوم فلسطين بعد نكبتها لجمع التبرعات، وقف السيد بحماسة أبوّته معلناً نداءه الشهير بالدعوة إلى التضامن العربي والإسلامي، واستنفار معنى العروبة ومعنى الإخاء في الدين والوطن قائلاً فيما أذاعته المنابر والصحف: «أيها العرب، أيها المسلمون! إنّ إخوانكم في فلسطين قد أقضّ مضاجعهم ما هم فيه من محنة وبلاء، ففي كل ناحية دم وقتل وهدم وتدمير وخوف وذعر، فلا تضنوا عليهم ببذل التافه،

وقد بذلوا الجليل العظيم، فوالله لا يستسيغ الغمض من بات وأخوه مفترش القتاد، ولا تطيب الحياة لحُرّ يُضام أهله وذووه». وقد عايش الأمين مشاكل عصره وتطوراته، يقود حركة الوحدة والإصلاح والتجديد من منزله في دمشق، حيث كان يغصّ بكبار الساسة والقادة الوطنيين، وكان يحثّهم على الممانعة والمقاومة في سبيل الله والوطن فيقول: «لا يصعب على المرء أن يضحي بدمه في سبيل المصلحة العامّة، ولكنه لا يضحّي بكرامته».

وكان رضوان الله عليه يفلسف جوهرة الانتماء لعقيدة الإسلام بألا تطغى على المسلم نزعة الأنانية؛ فتنفصل شخصيته الذاتية عن شخصيته كمواطن، فكان يرفض التعصب البغيض ويبشّر بالود والتعاون والتراحم في علاقات الطوائف السورية مع بعضها؛ ويحمل على الجهل والتخلف وتزييف الدين باسم الدين، وما كان يضيق صدره إلا من أئمة التكفير. كتب مؤلفه الضخم (كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب)، وعمد إلى تصفية التراث الإسلامي من شوائب البدع الدخيلة والمعتقدات الخرافية، فكتب: (التنزيه لأعمال الشبيه)، ودعا إلى تصحيح مجالس ذكرى الحسين عليه السلام، معتبراً أن هذه الشعائر من شعائر الله، فلا يجوز لها أن تلتبس بإغواء الناس وتضليلهم، بحملهم على أن يدخلوا فيها البدع والمنكرات. وبرأيه أنّ ما يفعله جملة من الناس من جرح أنفسهم بالسيوف، أو اللطم المؤدي إلى إيذاء البدن، ما هو إلا من سوء الأعمال التي تغضب الإمام الحسين، ولا ترضي الأئمة الأطهار.

وكان يلاحظ قصور المسلمين في امتلاك أسباب القوة المعاصرة، ويلاحظ حالة الضعف فيهم؛ فعبّر عن رؤية لوجوب تعلّم علوم الصناعات. فعلى المسلمين أن يجاروا باقي الأمم في تعلم الصناعات التي تتوقف عليها حياتهم، فلا يكونوا عالة على سواهم.

يومها كان جبل عامل رازحاً تحت فظاظة السيطرة التركية على بلاد الشام، فشهد السيد في بواكير عمره من غلظة الأتراك. ولقد ذُعر ذُعراً شديداً من حادثة الخيام التي وقعت بين الدروز والشيعة (1894م)، التي تحولت إلى فتنة دامية على مقربة من مسقط رأسه في شقراء. ولم يكن أحد في الجبل يجادل في تغذية الأتراك لهذه الفتنة ومثيلاتها؛ حتى إذا تولى حزب الاتحاد والترقّي مقاليد الحكم،

بـرزت منـازع القوميـة التركيـة كأشـد مـا تكـون العصـبيات القوميـة، الـتي حرّكت في الضـمير العربـي حـس المطالبـة بحقـوق العـرب السياسـيّة أمـام سياسـة التتريـك وسياسـات الغـزو الفرنسـي؛ فارتفعـت أصـوات المنـاداة بالوحـدة الإسـلامية لمغالبـة الأطماع الفرنسية، كما ارتفعت بموازاتها أصوات المنـاداة بالوحدة الوطنيـة للتحـرر من ردّة الأتراك عن قيم الإسلام وتعاليمها السمحاء، فلا تكاد تذكر الثورة العربيـة الأولى بقيادة الأمير فيصل /1916/ إلا ويذكر اسم سماحة الإمام السيد محسن الأمـين كواحـد مـن أشـهر المطـالبين بتحقيـق الوحـدة الوطنيـة والوحـدة الإسـلامية، صـابراً علـى ترّهـات مـن يلقـاه مـن خَطَـل دعـاة الفرقـة والتمـزق. ولقـد شـهد لـه الباحثون والعلماء على جميل صبره على أشواك التطرف باسـم الـدين؛ فكتب عنه علي الوردي: « يعجبني مـن المصلحين في هـذا العصـر رجـلان همـا: الشـيخ محمد عبده في مصر، والسيد محسن الأمين في الشـام؛ فالشـيخ محمـد عبـده قـد نـال في بدء دعوته الإصلاحية من الشتيمة قسطاً كبيراً حتى اعتبروه (الدجال) الذي يظهر في آخر الزمان، ولكنه الآن خالد، وإنـي لا أزال أذكـر تلك الضـجّة الـتي أُثيرت حـول الدعوة الإصلاحية التي قام بها السيد محسـن الأمـين، ولكنـه صـمد فلـم يَلِـن، ولم يـتردد». وطالمـا اسـتذكر لطفـي الحفـار رئـيس الـوزراء السـوري أيـام النضـال ضـد الفرنسيين، حين قال: «كنـا نسـتمد قـوة روحيـة ورعايـة واسـعة ودعـوة صـالحة مـن الإمام المجتهد السيد محسن الأمين».

ويـنـزل إلى حلبـات الفقـه، فيغالـب مـن سـلفه ومـن عاصـره مـن الفقهـاء، مـن منطلق أن حداثة الفقيه واجتهاده يجب أن يلتـزم باتّبـاع مـدلول الـدليل بحسـب مـا يفهمه هو، لا بتقليد غيره من الفقهاء، فيحرص علـى أن يُنشـئ رأيـه الخـاصّ، فـإذا اكتشـف أن الآخـرين توصـلوا إلـى نفـس الـرّأي يكونـون هـم الـذين وافقـوه ولـيس هـو الذي وافقهم. اتّسم جهاده بحيوية تربط بين مضمون النص وبين الواقـع الحـي، في زمن كان الاجتهاد عالقاً بتلك الثنائية المغلقة الجامدة على الفقيـه والـنص؛ فانتقد وبشدة التجريد الكلامي والتجريد الفلسفي الذي أفـرط فيـه علمـاء أصـول الفقـه؛ ولم يؤسـس علـم الأصـول إلا لخدمـة علـم الفقـه. انتقـد فوضـى التعلـيم في النجـف الأشـرف، لافتـاً فيمـا اسـتوحي مـن بعـض إشـاراته إلى ضـرورة التأسـيس المنـهجي لجميع ما يدرّس من علوم، لكي لا يقع التعليم الفقهي في أسـر الاجـترار والجمـود..

لم يكن يقدس طريقة القدامى في تفكيرهم ومناهجهم، فيقول لتلامذته: «لماذا تحذون حذو الأقدمين، هم رجال، ونحن رجال». وكان السيد يرى أنّ من كان ذا معرفة لا يتحرّى إلا الصحيح. فلم تمنعه خصومةٌ مع أحد العلماء من الاستشهاد به بوصفه شاعراً كبيراً من شعراء الشام؛ ويقول عن عالم آخر« أمّا موقفه ضد الحركة الإصلاحية وضدي أنا فله تفاسير أخرى، لا يجوز أن تصدنا عن قول الحقيقة». الحقيقة كانت مطلبه بمعزل عن أيّ مؤثر خارجي، والأسماء كما يقول لا تغيّر حقائق الأشياء، والعادات لا تكون دليلاً للأحكام، وكأنه بهذا يعيد قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام«اعرف الحق تعرف أهله»، وتحرّي الصحيح وطلب الحقيقة جعلاه يرتضي النقد البنّاء، وذلك كما يقول: «لأن من ردني عن غلط يجب أن يكون له منة عليّ لا أن أغضب منه، فهو كمن يرى ثوبي ملطخاً، وينبّهني إليه، وما تكبّر امرؤ إلا لنقص في نفسه». ونلحظ في هذا القول ميزة وهي الإصغاء إلى الآخر المحق في حوار مثمر، ويتطور هذا الإصغاء إلى القبول برأي الآخر المحق، والعدول عن رأيه إن كان فيه غلط، وتلك فضيلة العلماء المهمومين بهواجس الإصلاح والتجديد.

إن علوم الإسلام من فقه وعلم أصول وعلم كلام أصبحت تكراراً لأخبار وروايات وأحاديث دخلها التزوير؛ فأضاف إليها ألواناً من البدع والخرافة والأسطورة، وأصبح الخبر الديني مزيجاً من وقائع تاريخية ومن صور، ابتدعتها المخيلة السلطانية وأجهزتها الفقهية من أجل التعبئة السيكولوجية لدى عامة المسلمين، كما حصل أيام الحكم الصفوي في إيران، أو لجأت إليها المخيلة الشعبية من أجل الانتماء والتعويض النفسي عن الحرمان أو القهر أو المرض الذي تعانيه، في حين أنّ الغرب كان قد أنجز ثورته الصناعية التي بدت أنها ارتكزت إلى الثورة العلمية والفكرية، التي عمت القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. كما تبيّن أنّ قوة الاستعمار لا تكمن في السياسة والحرب فحسب، بل أيضاً في المعرفة والتخطيط واستخدام العلوم.. كل هذا شكّل تحدياً للعقل الإسلامي عند السيد الأمين؛ فرأى أنّ ما ينعتُ به الغرب من صفات تهوين أو تهويل، لا يصيب الحقيقة لأن هذا الغرب ليس ملاكاً يُحتذى ولا شيطاناً يُرجم؛ ولكن ثمة ما هو مفيد ينبغي تعلّمه من الغرب وفقاً لمصالح الشعوب العربية والإسلامية.

ويتّجه السيد بمعظم جهده، باذلاً كدّه وكدحه وعناءه، لتعليم نفسه وتهذيب سلوكه بالورع والزهد والتسامح، وفي حلم عينيه الخاشعتين أبداً بذكر الله أن يقتدي بأئمة الصفوة من آل البيت؛ فلم يغره منصب في دنيا ولا ثراء في مال. ويذكر أنّ شاه إيران عابه في مظهره عندما التقاه في رحلته إلى طهران، فكان جوابه للملك بجرأة الواعظ الذي لا يخشى في الله لومة لائم: «نحن ننظف قلوبنا وأنتم تنظّفون ثيابكم». كان يأخذ بلبّ محدّثه بأخلاقه وتواضعه وحديثه العذب، لا يعرف بعنهجية ولا يتمسك بكبر، وكان عفّ اللسان، لم يسمع منه لأحد شتيمة، ولو كان عدواً على حدّ تعبير الشيخ أحمد رضا في وصفه للأمين، ولك أن تقرأ من كتابه: (معادن الجواهر ونزهة الخاطر) أنّ المفتاح الذهبي للتعبير هو في العلم والتعلّم وترجمة العلم إلى برامج للإصلاح والتنوير.

اهتم السيد محسن الأمين منذ أن حل في دمشق بإنشاء المدارس، ورعاية الناشئة، وتربية الأجيال، لافتاً أنّ على العالم الاشتغال بالعلم قراءة وتعليماً وتأليفاً، اقتداء بوصية الرسول (ص): «العلم الذي لا يعمل به، كالكنز الذي لا ينفق منه، أتعب صاحبه نفسه في جمعه، ولم يصل إلى نفعه». وما فتئ يذكر قسوة معلمه في الكتاتيب، فأنشأ المدرسة العلوية المعروفة بالثانوية المحسنية في حي الأمين التي نُسبت إلى اسمه وسيرته وذكراه، وقد كان يعرف من قبل بحي الخراب. ثم أنشأ مدرسة خاصة بالبنات تعنى بتعليمهن وتربيتهن هي المدرسة اليوسفية، ولا تزال المحسنية واليوسفية حتى الراهن المعاصر من لوامع المدارس الدمشقية التي تحتفظ في مناهجها بمآثره المزاوجة بين التعليم والأخلاق. وفي مدرسته كان كما يذكر الأستاذ عبد اللطيف الخشن: يفتش عن معلمين للمدرسة يحسنون التدريس من دون النظر إلى الطائفة التي ينتمون إليها، إذ كان يفتش عن الإنتاج الفكري والنضوج العقلي والوعي والأخلاق في الأستاذ، من دون أن يسأل عن طائفته؛ ولم يكن يرى في برامج التعليم أنها صنعة خاصة أو ميزة لفريق دون آخر من التلامذة.

والسيد يغنينا عن محاولة إيجاز توجّهاته في الإصلاح، إذ يوجزها بنفسه في سيرته المطبوعة بقلمه في موسوعة أعيان الشيعة، فيقول: «وردنا دمشق أواخر

شعبان من سنة 1319هـ، في أواخر الخريف، فوجدنا أمامنا أموراً هي علّة العلل ولا بدّ في إصلاح المجتمع من النظر في إصلاحها:

1- الأمية والجهل المطبق، فقد وجدنا معظم الأطفال يبقون أمّيين بدون تعليم، وبعضهم يتعلمون القراءة والكتابة في بعض الكتاتيب على الطراز القديم.

2- وجدنا إخواننا في دمشق متشاكسين منقسمين إلى حزبين بل إلى أحزاب، وقد أخذت منهم هذه الحزبية مأخذها».

وقد يبدو هذا الكلام – اليوم – بسيطاً، ولكن من الضروري أن نضعه في سياقه الزمني لندرك أهميته وجدّته، فتذكر كما يحدثنا ظافر القاسمي، اعتماداً على يوميات والده الشيخ جمال الدين، الذي عاصر السيد الأمين أنّ بعض حلقات دمشق من فقهاء الحشوية والمعممين الجامدين كانوا وما زال بعضهم يتذاكرون في مسائل من مثل: «هل تعليم الجغرافيا والكيمياء أو الفيزياء حلال أم حرام؟».

والإمام الأمين، الذي عاصر تاريخياً وسياسياً مرحلة الاحتلال المباشر للعالم العربي، قدّم في ممارساته ونصوصه صورة مكثّفة لأنموذج الفقيه المستوعب للتحولات ومقتضياتها العملية والفكرية، فشرع في التأسيس لإصلاح مناهج التعليم الديني في إيران والعراق ومصر؛ وقد عكست رحلاته ذلك بكثير من الدّقّة. ويمكن مراجعة تعليقه على تفاصيل المناهج العلمية في النجف الأشرف، وفي الأزهر الشريف شارحاً أثر التعصب المذهبي على جمود تلك المناهج؛ فيقول رداً على أحد المصريين الذين التقاهم في رحلته من القاهرة إلى السويس: «فانظر إلى ما يفعله الجهل والتعصب، وما يبثّه المفسدون مما يفرّق كلمة المسلمين، ويحملهم على عداوة إخوانهم في الدين»، ويتّسق هذا الموقف مع كلمته الشهيرة عند خروجه من بيروت إثر قصّة عُرضَت له بقوله: «وهذه حال المسلمين في تعصبهم الأعمى الذي أدّى إلى ضعفهم وصيرورتهم غرباء في أوطانهم»، ما يكشف عن وجود رؤية شاملة لدى الأمين، مؤسسة على فهم عميق لحقيقة المخاطر التي تحيط بالعالم الإسلامي، حيث انتهى التناحر المذهبي بين المسلمين إلى تعبيد الطريق أمام الجيوش الغربية لاحتلال المنطقة؛ فأدّى سقوط الخلافة العثمانية واحتلال الفرنسيين والإنكليز لأرضنا على أثر الحرب العالمية الأولى، إلى صعوبة تحديد خيارات المواجهة وفق معطيات الواقع وتحدياته؛ ذلك أنّ مسألة ترميم الكيان

السياسي الإسلامي كانت في غاية التعقيد، فلم يبق أمامه إلا الخيار الأقل ضرراً، في مقابل الرهان الخاسر على العثمانيين الأتراك الذين خسروا كل شيء، حتى تأييد المسلمين والرأي العام الشامي تحديداً. فلجأ رضوان الله عليه إلى موقف الضرورة السياسية الذي كان يفترض دعم حكومة فيصل بالرغم من كل سلبياتها؛ وهو موقف أجمع عليه أعيان جبل عامل يوم ذاك. فتوجه الإمام الأمين لتهنئة فيصل بالمنصب الجديد على رأس الحكومة السورية؛ واستمرّ على خياره هذا حتى سقوط حكومة فيصل. عندها كان لا بد من تبني الموقف الذي أجمعت عليه الأمة والفقهاء، وهو خيار مقاومة الاحتلال. وأستحضر في هذا السياق ما قاله رئيس تحرير مجلة الجيل الذي اختصر مسيرة جهاد الإمام الأمين فقال بأنه: «حمل رسالة التطور في أمور الدين، يجتهد في وسائله وطرقه وأساليبه، ليحقق مراميه السامية ومغازيه الرفيعة، واضعاً حداً لكل ما هو دخيل على الدين، مما يقيّد العقل ويفسح المجال لسيل الخرافات والبدع، فكان القمة الشامخة في تفهم الدين على حقيقته وجوهره لرقيّ المجتمع وتحسين سعادته».

ولقد اتسمت ثقافة المقاومة عنده في فتح قضايا المسلمين على بعضها، في زمن كان يعمد فيه الاحتلال إلى تجزئة تلك القضايا بإغلاق منافذ الاتصال والتواصل بين مختلف النخب الدينية والثقافية والاجتماعية. من هنا كانت رحلات الإمام الأمين تنقلاً من مدينة إلى أخرى؛ يقصد مكتباتها وعلمائها دارساً وباحثاً؛ فتنقل بين سورية والحجاز والأردن والعراق وفلسطين ومصر، منادياً بتوحيد المسلمين على كلمة الإصلاح والتجديد والنهضة، حتى اجتمع له من ذلك كله (كتاب الرحلات)، طبع ضمن بعض كتبه، واشتمل على الرحلة العراقية المنظّمة، والرحلة الحجازية الأولى والثانية، والرحلة العراقية الإيرانية. ومن نماذج أدب هذه الرحلات، كتب عن زيارته للقدس الشريف قبل احتلالها بقلمه:

«وفي هذه السنة أي سنة 1321هـ، ذهبنا من دمشق لزيارة بيت المقدس ومشاهد الأنبياء فيه، على نبينا وآله وعليهم أفضل الصلاة والسلام، ونزلنا في تكية داود (ع)، وهذه التكية أنشأها السلطان سليم العثماني، ووقف لها أوقافاً ينزلها الزائرون، ويؤتى بالطعام، وزارنا فيها الشيخ حسن متولي التكية، ومعه رجل من أهل يافا، قيل لنا إن عنده (14) بيارة لزرع البرتقال والليمون والحمضيات وغيرها. وفي

يافا من عنده بيارة واحدة يُعُد غنياً، ودعانا اليافي إلى ضيافته عند الرجوع، لكنا لم نتمكن من ذلك، وقال لنا الشيخ حسن في حديثه: إنني ذهبت مرة لدمشق، فاستخرت اللّه أن أنزل عند فلان أو فلان، وعدّد أشخاصاً، فلم تكن الاستخارة جيدة، فاستخرت اللّه أن أنزل عند الشيخ عطا الكسم، فجاءت جيدة فنزلت عنده، وأمر الشيخ حسن ابن أخته الشاب الشيخ أحمد أن يصحبنا طيلة إقامتنا في القدس؛ ونزلنا إلى أسفلها، رأينا عمودين صغيرين فوقهما قوس صغير مقرنص؛ فسألنا الخادم عنه، فقال إنّا نقول للعامة هذا لسان الصخرة الذي كلمت به النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، أما أنتم من أهل المعرفة فلا نقول لكم هذا.

ثم ذهبنا لزيارة المشهد المنسوب إلى موسى (ع)، وهذا المشهد المنسوب إليه غير محق، واليهود لا يزورونه بل ينكرون أن يكون قبره هناك، ويقولون إنه توفي في التيه، ومحل قبره غير معلوم على التعيين، إنما المعلوم أنه في التيه (أقول) وإنما ظهر هذا القبر في عهد صلاح الدين الأيوبي، فجعل المسلمون يزورونه في يوم عيد الصليب، فلا يفتح في السنة إلا مرة واحدة. ويوم زرناه كان مقفلاً. وذهبنا إليه في العربة، وكانت الطريق معبدة من القدس إلى الشريعة في مكان ما يقولون أن فيه غُسِل عيسى (ع) حين ولادته، فشق فرع للطريق من محاذاة مشهد النبي موسى، ورأينا النصارى يلثمون الصخور في الطريق الذي يقولون أنه مرّ فيها بعيسى حين وُلد، وذلك قرب القدس، وبعد الزيارة سألنا الشيخ هل بقي مزار غير هذا؟ فقال: نعم مزار الشيخ حسن الرّاعي، فقلنا: ومن هو الشيخ حسن الراعي؟ فقال هو راعي سيدتنا عائشة. فذهبنا وزرناه، مع علمنا بأن السيدة عائشة لم تأت فلسطين، ولم يكن لها راع يسمى الشيخ حسن».

ولم يغب الإمام الأمين يوماً عن دمشق، إلا واجتاشت خوالج نفسه بالحنين إليها وإلى أهلها؛ فهو متيّم بحبهم، وما زال قلبه مشدوداً إلى عتباتهم، يتأجج بالشوق، يبثّ لواعجه لذكرى دمشق فينشد لها:

يا نازلين بجلّق أعَلمْتُمُ ما ذاق بعدكم المحبّ وما لقي

وقد تناول الدكتور عاطف عبد الحميد عواد أهم الاتجاهات الشعرية في أدب الأمين في كتاب عن حياته وشعره، مستلهماً دراسته القيمة من ديوان السيد

في الرحيق المختوم؛ فيقول: يُحيِّ الأمين معاهد جلّقه بغزير التحيات، ويتساءل: هل قاسيون ما زال كما عهده؟ وهل ما زال بردى يصفّق بمياهه ويحن إلى الربوة التي تشفي العليل بنسيمها ومائها، ويتذكر أمسياتها الحلوة التي قضاها بنعيم وصفوة بها؟ وأنّ الماء والخضرة زيناها وجعلاها تتراءى للناس مشرقة، وأنّ الأزهار البيضاء وسط خضرة السهول تلمع كالنجوم في السماء؟

كذلك كان الأمين يحنّ إلى روابي جبل عامل، وعاطفتُه في حنينه كانت تفيض بمشاعر صادقة، ملؤها الوفاء والحنان والإخلاص لهذه الشام التي كانت ملء عينيه وملء خافقه، تجري في عروق دمه فلا نجد في شعره وقفة على الأطلال لغلبة الحكمة والمنطق في جميع شعره الذي ختم به حياته الحافلة بالجهاد فيما يحكيه نجله العلاّمة حسن الأمين، الذي ارتبط اسمه برباط لا ينفصم؛ فلا يذكر السيد محسن إلا ويذكر السيد حسن معه مؤرّخاً لحظات عمره الأخيرة؛ ليقف منه على وصيته. ففي مرضه الذي توفي به وبالتّحديد قبل أسبوعين من وفاته، دخل عليه أحد أصحابه ممن كانوا يعنون بموسوعته – أعيان الشيعة – وكانوا يتابعونها فصلاً بعد فصل. يقول السيد حسن رحمه الله: فلما رآه الوالد، وكان مسجّى على الفراش، ذرفت عيناه وبكى، فراح الرجل يهوّن عليه ويسليه؛ ولكن كان هو في شغلٍ عن هذا التهوين وهذه التسلية. كان تفكيره فيما هو أبعد مما ظن الرجل. فلما مضى طلب إليّ أن أحضر له قلماً وورقة. وكان الطبيب قد نهاه نهياً قطعياً عن كل قراءة وكتابة؛ فتلطفت كل التلطف في عدم تلبية طلبه فتضجّر ضجراً لا أنساه أبداً، فأخذني آخذ من الرقة والحنان لا يقاوم، فأسرعت إليه بما طلب، وتركته وحده، ومضيت خارج الغرفة ثم عدت إليه بعد حوالي الساعة تاركاً له خلالها التفكير فيما يريد أن يسجله، فلما دخلت عليه ناولني الورقة وقد كتب فيها هذه الأبيات من الشعر:

بكيت وما بكيت لفقد دنيا أفارقها ولا خلٌ أليفِ
ولكني بكيت على كتاب تصنّفه يداي إلى صنوفِ
سيمضي بعد فقداني ضياعاً كما يمضي شتاءٌ بالخريفِ

فلما قرأتها عدت إليه وقلت له: أسأل الله أن تكمل أنت كتابك بنفسك، ولكن إذا جاء أمر الله الذي لا رادّ له، فإني أعاهدك بأن كتابك لن يمضي ضياعاً، وسأقف حياتي كلها عليه... ولقد صدق السيد حسن ووفى بعهده ووعده، وشهدته متعطّفاً إلى هذا العهد وهذا الوفاء الذي غيّر مجرى مستقبل أيامه، ليعكف على وصية أبيه الراحل رضوان الله عليه.. فلم يضع شيئاً من كتبه، ولم يمضِ الشتاء بالخريف. وبعد عمر حافل بالعطاء وجهاد مستمر في شتّى الميادين يترجّل الفارس عن صهوته، وينتقل إلى جوار ربه في الثلاثين من آذار سنة 1952م، ويدفن في جوار السيدة زينب عليها السلام، بعد تشييع رسمي وشعبي حاشد، ويصدر رئيس الدولة السورية مرسوماً يمنح بموجبه الإمام الفقيه المجتهد الأكبر المغفور له محسن الأمين الحسيني العاملي وسام الاستحقاق من الدرجة الممتازة، تخليداً لأعماله المجيدة ومواقفه الوطنية وخدماته الجليلة التي أدّاها لكتّاب الوطن.

ما يزال قلم الأمين وما تزال محبرته شاهدان على شاهدة قبره داخل المقام الزينبي الشريف.

الشيخ حسين أحمد شحاده

مؤلفاته

1-أعيان الشيعة.
2-خطط جبل عامل.
3-الرحيق المختوم في المنثور والمنظوم 2/1.
4-رحلات السيد محسن الأمين.
5-سيرته تعلمه وأقلام الآخرين.
6-رسالة التنزيه.
7-المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية.
8-معادن الجواهر ونزهة الخواطر.
9-مفتاح الجنات في الأدعية والأعمال والصلوات والزيارات.
10-البحر الزخار في شرح الأئمة الأطهار.
11-شرح التبصرة.
12-رسالة الردود والنقود.
13-امتناع اللائم على إقامة المآتم.
14-الحصون المنيعة في رد ما كتبه صاحب المنار في حق الشيعة.
15-عين اليقين في التأليف بين المسلمين.
16-كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب.
17-مناظرة أتباع المسيح القادياني.
18-عجائب أحكام أمير المؤمنين.
19-الشيعة والمنار، ردود وعقائد
20-حواشي أمالي المرتضى.
21-إرشاد الجهال.
22-الدر المنظم في حكم تقليد الأعلم.
23-أساس الشريعة في الفقه بطريق الاستدلال.
24-أرجوزة في النكاح.

25-جناح الناهض إلى تعلم الفرائض.

26-كشف الغامض في أحكام الفرائض

27-سفينة الخائض في أحكام الفرائض.

28-حواشي العروة الوثقى.

29-الروض الأريض في أحكام تصرفات المريض.

30-شرح العقود في حكم زوجة الغائب والمفقود.

31-الدر الثمين في أهم ما يجب معرفته على المسلمين.

32-أحكام الأموات.

33-الدرة البهية في تطبيق الموازين الشرعية على العرفية.

34-ضياء العقول في حكم المهور.

35-كاشفة القناع في أحكام الرضاع.

36-الأوائل والأواخر.

37-منظومة في الصوم.

38-مناسك الحج وأعمال المدينة المنورة

39-القول السديد في الاجتهاد والتقليد.

40-الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد.

41-البرهان على وجود صاحب الزمان

42-حاشية الصحيفة السجادية.

43-قصة المولد النبوي الشريف.

44-حواشي المعالم في علم الأصول.

45-حذف النضول عن علم الأصول.

46-تحفة الأحباب.

47-الدرياق في تهذيب الأخلاق.

48-صفوة الصفو في علم النحو.

49-المنيف في علم التصريف.

50-أدب المناظرات.

51-المفاخرات.

52-ديوان أمير المؤمنين

53-شرح إيساغوجي في المنطق.

54-القول الصادق في رد ما جاء في مجلة الحقائق.

55-الدروس الدينية.

56-جوابات المسائل الدمشقية.

57-جوابات المسائل الصافيتية

58-جوابات المسائل العراقية.

إبراهيم هنانو

الطير الحرّ

(1869- 1935)

في أواخر عام 1932 عرّج إبراهيم هنانو على مدينة حماه، وهو في طريقه إلى دمشق، حيث استقبله وفد من شباب حماه، من بينهم أكرم الحوراني الذي يتذكر هذا اللقاء بعد مرور زمن طويل في مذكراته، حيث يقول: «كانت المرة الأولى التي أرى فيها إبراهيم هنانو وأجتمع به. كان رجلاً نحيلاً طويل القامة بوجه عربي وعينين كعيني الصقر، يلمع فيهما بريقٌ من الذكاء والعزم، وأنف كمخلب الجوارح، ونفس كريمة متواضعة شعبية.

لم يكن هنانو رجلاً عبقرياً، ولكنه كان رجلاً ثائراً، يحمل في نفسه الكبيرة كلّ هموم التحرير، وكان القائد الثوريّ الوحيد بين رجال الرعيل الأول من الكتلة الوطنية. توفي ولم يُبقِ شيئاً من ثروته وأملاكه وقراه... كان حديث هنانو في ذلك الاجتماع يدور حول فضح عملاء الاستعمار الفرنسي وشعاراتهم كشعار: «خذ وطالب» الذي أطلقوه تبريراً لتعاونهم مع الفرنسيين، وستراً لخيانتهم للبلاد. وقد خَبِر هنانو، بنضاله وتجاربه الثورية، نفسية هذا الشعب، والأساليب التي يمكن أن توجهه، وأن تقنعه وتمدّه بالعزيمة والصبر، وقد خرجنا جميعاً من هذه المقابلة، ونحن نقول: «هذا هو الثائر والزعيم الحقيقي للبلاد».

وُلِدَ إبراهيم هنانو في قصبة كفر تخاريم، من أعمال قضاء حارم، في محافظة إدلب. والده سليمان بن محمد هنانو، ووالدته كريمة «الحاج علي الصرما» من أعيان كفر تخاريم. تلقّى دراسته الابتدائية في بلدته، وتابع المرحلة الثانوية في حلب. ولما بلغ سن العشرين، التحق بالجيش العثماني، ليقضي خدمته العسكرية؛ لكنه لم يُمضِ فيها سوى ثلاثة أشهر، إذ سُمح له أن يتمّ دراسته. وقد تأخر عن السفر، حتى وضعت والدته شقيقه محمد؛ ثم تُوفيت بعد خمسة عشر يوماً من الولادة؛ وبقي بعد وفاتها مدة أربعة شهور، إذ لم يكن والده

يحبّذ فكرة سفره إلى الآستانة لإتمام علومه، لاعتقاده بأن الوظائف لا تليق بمنزلتهم، وهم في غنى عنها، باعتبارهم من طبقة كبار الملاكين الريفيين. وقيل إنه غادر البلاد، دون علم والده.

وصل إبراهيم هنانو إلى عاصمة الدولة العثمانية؛ حيث تعرّف على المحامي الحلبي «حسن رضا الدركزنلي» الذي ساعده على تعلّم اللغة التركية؛ فأجادها بعد فترةٍ وجيزة، وتقدّم بطلب لدخول المدرسة الملكية، فَرُفضَ طلبه لكبر سنّه، فذهب إلى وزير المعارف، وكان إذ ذاك من أسرة «آل قُدّسيّ» الحلبية، فأبدى له رغبته في الدراسة، فكان أن قُبِلَ طلبه ودخل المدرسة حيث انتسب هناك إلى «حزب الاتحاد والترقي»؛ وكان الحزب سرّياً إذ ذاك، فَسُجِن مرتين، وهرب في المرّة الثانية بثياب أحد الفحامين الذين كانوا يجلبون الفحم إلى السجن.

قضى إبراهيم هنانو، في المرّة الأولى، أربع سنوات قبل أن يعود إلى كفر تخاريم. وفي أثناء غيابه في الآستانة (استانبول/ القسطنطينية) ليجد والده قد تزوّج بالسيدة فاطمة بنت الحاج مصطفى الكيّالي من كفر تخاريم، وأنجب ولداً منها أسماه (عقيل). عاد إبراهيم هنانو إلى الآستانة، بعد قضاء عطلة الصيف في بلدته، وقد حاول أخذ شقيقته (زكيّة) لمرافقته، وإدخالها في المدارس، وأزمعت على الهرب معه، إلا أن والدهما كشف الأمر فمانع سفرها، حيث سافر إبراهيم وحيداً إلى الآستانة ليبقى فيها ثلاث سنوات، ليعود كل صيفٍ إلى كفر تخاريم.

أنهى دراسته الجامعية من معهد الحقوق، ولم يُعْطَ الشهادة لأن من شروط نيلها أن يصبح مديراً لمدرسة زهاء سنة؛ فكان أن عُيِّن في حلب مديراً لمدرسة، ليُعَيَّن بعدها مديراً لناحية في ضواحي الآستانة لمدة ثلاث سنوات، وخلالَ هذه الفترة، تزوّج من فتاةٍ من مهاجري أرضروم في بورسة، ثم أصبح قائمقاماً بنواحي أرضروم، وبقي فيها أربع سنوات، وقد وُلِدَت ابنته (نباهت) هناك؛ ثم عاد إلى كفر تخاريم بعدما عُيِّن مستنطقاً، وبقي فيها ثلاث سنوات قبل أن يُنْتَخب عضواً في مجلس حلب الإداري. عُيِّن بعدها رئيساً لديوان ولاية حلب، ومن ثم أُنْتُخِبَ مندوباً عن قضاء حارم في المؤتمر السوري الذي التأم في دمشق في (الأول من كانون الأول 1919). بعد ولادة ابنته (نباهت) باثنتي عشرة سنة، وُلِدَ ابنه طارق. تُوفي والده، وتوفيت زوجته بعد ولادة ابنها طارق بأسبوعين.

في العاشر من تشرين الأول 1918 هاجم الفرنسيون المرافئ السورية - اللبنانية؛ ولم ينته عام 1918 حتى كان الفرنسيون قد احتلّوا جميع هذه الموانئ من طرابلس حتى اسكندرون. أما بيروت فكانت ما تزال تحت الاحتلال الإنكليزي. وفي منتصف عام 1919 تقدّم إبراهيم هنانو- وكان يومئذ رئيساً لديوان ولاية حلب- إلى والي حلب السيد رشيد طليع، بطلب تشكيل فرَقٍ صغيرة تمارس حرباً هي أشبه بالحروب التي صارت تُسَمّى فيما بعد بحروب الأنصار، أو حروب العصابات، تعمل في كل مكانٍ، وتتنقل بسرعة، وتضرب العدو ضربات موجعة. وأخذ إبراهيم هنانو يذكي نار الثورة بمن يتصلّ بهم من إخوانه في كفر تخاريم أولاً؛ فتألفت قيادة مؤقتة برئاسته، بالإضافة إلى تشكيل محكمة ثورية ولجنة مكلّفة بجمع التبرعات المالية لتمويل الثورة. وراح الزعيم هنانو ينظّم الثوّار في مجموعات صغيرة، عَيَّن على رأسها نقباء عُرِفُوا بالشجاعة والإخلاص، كما عُيِّنَ السيد إبراهيم الشغوري، وكان ضابطاً في الجيش العثماني شارك في معارك الحرب العالمية الأولى في جهات أزمير. ولما أمَدَّت السلطات الفيصلية الأهلين بالسلاح، وأطلقت أيديهم بالأعمال الحربية ومقارعة الفرنسيين، رأت ضرورة وجود اتصال بينها وبين رجال الثورة، فانتدبت الضابط الشغوري للعمل مع هنانو الذي توسّم به خيراً ومنحه ثقته، فكان مرافقه الخاص. وكانت قيادة الثورة قد درّبت عدداً كبيراً من الشبان على حرب العصابات، كما دَرَّبَتْهم على الانضباط الثوري في أرفع مستوياته.

في ليلة 18- 19 نيسان 1920 قام فصيلٌ من الثوار بالهجوم على حارم، بقيادة إبراهيم هنانو، واستعادوها من الجيش الفرنسي الذي انطلق من منطقة اسكندرون. تكبّد العدو اثنين وثلاثين قتيلاً إضافةً للأسرى، وقد هرب قائدهم الفرنسي الكابتن «لُوِرَوَا» من ميدان المعركة، ليتحصّن مع باقي رجاله بقلعتها؛ وكان عدد رجال إبراهيم هنانو حوالي أربعمئة رجل.

وكانت قد نشبت في سورية الشمالية أولى الثورات ضد الفرنسيين، الذين بدأوا باحتلال الساحل السوري؛ أي المنطقة الغربية، قبل التوسع باتجاه الشرق والشمال، ولم تتوقف الثورات باستيلاء الفرنسيين على جميع المدن السورية؛ بل ازدادت شدّةً مع مرور الزمن، وما يهمّنا هو الموجة الأولى لهذه الثورات، التي قامت

بين 1918 وصيف عام 1921؛ حيث أصيبت بضربة كبيرة في أعقاب اتفاقية الهدنة التي وُقِّعَت في لندن (11 آذار 1921) بين الفرنسيين والأتراك، أوقف الأتراك بموجبها دعمهم للثوار السوريين.

تلت ذلك الاتفاقية الفرنسية التركية في 20 تشرين الأول 1921 التي انسحبت بموجبها القوات الفرنسية من كيليكيا، مما مَكَّنَ الفرنسيين من تركيز وتكثيف قواتهم ضد الثائرين السوريين. وتبرز في هذا المجال ثلاث ثورات شغلت منطقة الساحل بدءاً من بانياس جنوباً وحتى الإسكندرونة شمالاً بما في ذلك الجبال المحاذية لها؛ ثم المنطقة الشمالية بين حارم وكفرتخاريم وإدلب شمالاً؛ وجبل الزاوية وجسر الشغور جنوباً، وقضاء صهيون في منطقة اللاذقية غرباً، ثم معرّة النعمان وأطراف حماة شرقاً. وكان أقلّ الثائرين شأناً - من الناحية العسكرية - صبحي بركات الذي ثار في منطقة الإسكندرونة - أنطاكية، وكان على اتصالٍ مع الأتراك. وأكبر الثائرين شأناً في هذه المناطق الزعيمان: إبراهيم هنانو قائد ثورات المنطقة الشمالية، والشيخ صالح العلي قائد ثورة الساحل الشمالي وجبال العلويين. وقد ترأس هنانو أربع ثورات في المنطقة الشمالية:

الأولى: في منطقة أنطاكية المعروفة بالقصير بقيادة يوسف السعدون في أعقاب مصالحة صبحي بركات مع الفرنسيين. وتمتد منطقة نفوذه من العمق إلى دركوش وحدود جسر الشغور، فَكَسَبُ شمالاً، ولما انتهت ثورة الشمال نزح إلى تركية مع عائلته، وأقام في عينتاب (عين طاب)، وكان الفرنسيون قد حكموا عليه بالإعدام غيابياً، وصادروا أملاكه. ثم عاد مع القائد الشهير السيد نجيب عُوَيِّد من تركية بعد صدور العفو عنه في أول عام 1937 بعد غربةٍ دامت ست عشرة سنة؛ لتفرض عليه السلطات الفرنسية الإقامة الجبرية في حلب حتى سنة 1940. وفي أيام العدوان الفرنسي سنة 1945 ثار على الفرنسيين في منطقته، واحتل جسر الشغور، واشترك في عمليات المقاومة ضد الفرنسيين، في كفر تخاريم وسلقين وإدلب.

الثانية: في منطقة صهيون، ومركزها الحفّة، حيث قاد عمليات المقاومة عمر البيطار، فزجّ الفرنسيون على إثرها فريقاً من زعماء آل البيطار وغيرهم في السجن؛ مما ألهب حماس هذه العشيرة، فبرز للقيادة المجاهد عمر البيطار يساعده نخبة من الثوار، منهم الشيخ أحمد إدريس وصبحي حليمة وحسن

سعدية، واشتبك رجال المقاومة مع القوات الفرنسية بقيادة المقدم (سَيَار)، فنشبت الاشتباكات وكانت أشد المعارك ضراوةً تلك التي دارت رحاها في منطقة الرستن و(خان عطا الله) حيث مُني الفرنسيون بخسائر جسيمة؛ وظلّ رجال المقاومة يَصدُون القوات الفرنسية، فكانت معارك (الصمنديل) و(بابنا) و(العليقة) و(جسر الشغور)... الخ ولما انتهت ثورة إبراهيم هنانو ظلّ عمر البيطار ورفاقه يقاتلون الفرنسيين مع من تبقى من قوات هنانو، إلى أن انسحبوا سنة 1922 إلى تركية وأقاموا فيها حتى صدور العفو العام سنة 1937.

الثالثة: في جبل الزاوية وتزعمها مصطفى الحاج حسين (1881 - 1952)؛ وأعلنت الثورة رسمياً في جبل الزاوية منطقة إدلب أوائل آذار 1921؛ فضغط الفرنسيون على السلطات المحلية المتواطئة مع سلطات الانتداب؛ لإرسال قوة من الدَرَك إلى جبل الزاوية، وفي العاشر من آذار وصلت الحملة إلى (أورم الجوز)، فبرز لها فجأة رجال المقاومة الوطنية، وقبل إطلاق النار على رجال الدرك أنذروهم، وطلبوا منهم العودة من حيث أتوا أو الاستسلام، ولم يُجد تحذير الثوار لرجال الدرك نفعاً، فدارت معركة ضارية. وكان رجال المقاومة يتّقون إصابة رجال الدرك في المقاتل ما وسعهم ذلك، واحتدم القتال، وسقط قائد الدرك صريعاً، فاستسلم رجاله، ورموا سلاحهم وتمّ أسرهم، بعدما صُرِعَ منهم أربعون دركياً، فأرسل الفرنسيون حملة من جنودهم، في عدادها جنودٌ مغاربة، وعندما دخلت الحملة الفرنسية إلى جبل الأربعين (الزاوية) انسحب رجال المقاومة، وتركوا رجال الحملة يتوغلون في الجبل إلى المواقع والشعاب التي قرّروا منازلتهم فيها؛ فانقضّوا عليهم واستمر القتال إلى أن حلّ المساء، حيث اضطر رجال الحملة إلى التراجع تاركين وراءهم أكثر من مئة قتيل؛ وقد استشهد عددٌ من الثوار، وعلى رأسهم القائد المغوار (أبو عدلا) الذي كان اسمه وحده يلقي الفزع في قلوب الأعداء؛ وكانت أخت (أبو عدلا) في مقدمة النساء اللواتي كنّ يساعدن رجال المقاومة؛ ويحملن إليهم الذخيرة والزاد والماء، ولعلّ أروع ما يُروى عن هذه المعركة أن الفرنسيين عندما انسحبوا لمَا لحق بهم من الخسائر، أخذ الجنود المغاربة يطمرون الذخيرة في التراب، ويتركون شارات تدلّ رجال المقاومة على مكان هذه الذخيرة المطمورة.

الرابعة: بقيادة ابن كفر تخاريم وساعد إبراهيم هنانو الأيمن السيد نجيب عُوَيِّد الذي وُلد عام 1870، أي بسنة واحدة بعد هنانو، وكان الفرنسيون قد دخلوا كفر تخاريم في 30 تشرين الثاني 1920؛ فنكّلوا بمن وجدوه فيها من الشيوخ والأطفال؛ وكان رجال المقاومة قد انسحبوا إلى الجبل الغربي (الدويلة) لجمع شملهم استعداداً للمعارك القادمة. وندب إبراهيم هنانو معاونه نجيب عُوَيِّد لاسترجاع كفر تخاريم من أيدي الفرنسيين، فكانت معركة ضارية وصفها نجيب عُوَيِّد بالقول: «عند دخول العدو كفر تخاريم تفرّق أهل المدينة أو كثير منهم بالجبال والأودية؛ وكنتَ ترى منظراً يفتِّت الأكباد، وتنفطر له المرائر من صراخ النساء وبكاء الأطفال؛ ولا ماء لهم ولا زاد، فلما أمسى المساء ازداد بكاء الأطفال من شدّة البرد؛ فلما رأيت هذا المشهد المؤلم ناديت بملء صوتي في الثوار... فلبُّوني مسرعين... وفي أواخر الليل وصلنا أطراف كفر تخاريم، فأحصيت من معي فإذا هم ثلاثون ثائراً، فجعلتهم في ثلاث فرق: فرقة تأتي العدو من الشرق وعليها (محمد ممو ومصطفى أبو درويش)، وفرقة من الجنوب وعليها (الحاج ضرغام الدُرَّة)، والفرقة الثالثة قدتها بنفسي يعاونني (عقيل السقاطي)، وتم الاتفاق بيننا على إطلاق النار عندما يسمعون صوت المؤذن يتعالى بالآذان، وتوجَّهت كل فرقة إلى المكان المعيّن لها، وعندما تعالى الآذان كنت تسمع صوت كل من بقي في كفر تخاريم يعلو بالتهليل والتكبير؛ وعند ذلك باشرنا بإطلاق النار وقذف القنابل اليدوية على الخيام التي فيها العدو، فتراكض الجند مذعورين... والتهليل والتكبير يصمّ آذانهم، وحركات الثوار من جهاتٍ ثلاث تهدم بنيانه...» وجاءت النجدات للثوار من القرى المجاورة، ليلحقوا بالفرنسيين هزيمة نكراء، حيث اضطروا للانسحاب من كفر تخاريم تاركين وراءهم الكثير من عتادهم الحربي و(130 قتيلاً) في شتّى أطراف كفر تخاريم، بينما استشهد من الثوار اثنا عشر شهيداً مع عددٍ من الجرحى...

لاحق الثوار فلول الفرنسيين المنسحبين عبر حارم باتجاه حلب التي وصلوها في (7 كانون الأول 1920) بعد هزيمةٍ ماحقة، وقد خسروا خلال عشرة أيامٍ حوالي ألف قتيل تقريباً.

لقد خاض رجال هذه الثورات الأربع عشرات المعارك ضد القوات الفرنسية، وكان إبراهيم هنانو القائد الأعلى لهذه الثورات التي عُرِفت بمجموعها بـ(الثورة الهنانية).

وكان هناك اتصال وثيق بين قيادات هذه الثورات والحكومة العربية برئاسة فيصل، وبعد أن قضى الفرنسيون على حكومة فيصل العربية واحتلّوا المدن الرئيسية في سورية، شعرت (الثورة الهنانية) شأنها شأن ثورة الشيخ صالح العلي بحاجتها للعتاد والدعم لمواصلة المقاومة؛ فسافر هنانو على رأس وفدٍ من الثوار إلى تركية في 17 آب 1920؛ وقابل في مرعش صلاح الدين عادل بك قائد الفيلق الثاني الكمالي التركي؛ وَوُقِّعَت اتفاقية بين الطرفين في 17 أيلول 1920. وكما يروي إبراهيم الشغوري، عضو الوفد ومرافق هنانو، أنه تم الاتفاق على أنّ ما يقوم به هنانو من أعمال حربية هو باسم الحكومة العربية السورية؛ أي أنّ تركية اعتبرت هنانو استمراراً للحكومة العربية، ويضيف يوسف السعدون زعيم الثورة في منطقة القصير في مذكراته: «أن تقدّم تركية الخرطوش ومدفعاً واحداً أو أكثر حسب اللزوم؛ وأن لا تُحَدَّد الحدود بين سورية وتركية إلا بعد جلاء العدو عن أراضيهما؛ وحصولهما على الاستقلال التام، فعندئذٍ تُعيِّن الحدود لجنة مشتركة، كما تقدم الحكومة التركية بعض الجنود المدربين على المدفعية لتدريب الثوار السوريين».

وقد وجّه هنانو في أعقاب عودته من تركية في 12 أيلول 1920 بياناً إلى الشعب بدأه بعبارة: «من العرب إلى العرب»، يحرّض فيه الشعب السوري على المقاومة، ويهاجم المتعاونين مع سلطات الاحتلال الفرنسية.

وفي نيسان 1921، سوف يحدث تبدّل هامّ في موقف تركية من الثوار السوريين، بعدما توصلت فرنسة وتركية إلى اتفاقية هدنة وُقِّعت بينهما في لندن في 11 آذار، توقفت بموجبها العمليات العسكرية بين الطرفين: الفرنسي والتركي، كما توقفت تركية عن تقديم العون العسكري للثوار السوريين: إبراهيم هنانو وجماعته والشيخ صالح العلي ورجاله، بل وسحبت قواتها التي كانت قد أرسلتها لدعم هؤلاء الثوار. ويؤكد تقريرٌ للمخابرات البريطانية بتاريخ 27 نيسان 1921 أنّ الاتفاقية الفرنسية - التركية أتاحت للفرنسيين استخدام أعداد كبيرة من الجنود ضد الثائرين.

وقد ذكر إبراهيم الشغوري أنّ نجدات فرنسية تزيد على (50 ألف جندي) جُلِبَت من كيليكية إلى سورية في أعقاب الاتفاقية.

وبسـبب هـذه التطـورات أصـبح موقـف الثّـوار صـعباً، ولجـأت السـلطات الفرنسية إلى أسلوب المناورة، فأعلنت العفو العام عن كل مـن يستسلم إليهـا، وهنـا أَمَرَ هنانو بعقد مجلس ثوري عامّ وفيه تمّ تبادل الرأي في أفضل الطرق التي يمكن سلوكها؛ وذلك بعد فشل (مـؤتمر كورين، 17 نيسـان 1921) بـين هنـانو والجنـرال الفرنسـي (غوبو)؛ لحل النـزاع بالمفاوضـات، واسـتقرّ الـرأي علـى أن تتجه فئـة مـن الثـوار إلى الأردن وعلـى رأسـها إبـراهيم هنـانو، وفئـة تتجّـه إلى تركيـة تحـت قيـادة نجيب عُوَيِّد بناءً على دعوة مـن الحـاج فـاتح المرعشـلي الـداعم الأكبر لثورة هنـانو؛ والآخـرون لهـم الخيـار فيمـا يفعلونـه، فـإن شـاؤوا استسـلموا اسـتجابةً لوعـد الفرنسيين بالعفو العام؛ وإن شاؤوا مارسـوا حـرب العصـابات في نطـاقٍ ضـيق، كمـا يحلو لهم، وحسب الظروف المؤاتية.

ويجـب القـول أنـه في غضـون الصـراع الفرنسـي البريطـاني علـى بعـض قضـايا المنطقة (الموصل تحديداً) ساعد الهاشميون الثوار السـوريين قبـل أن يتفـّق الطرفـان؛ مما جعل البريطانيين يضغطون على الهاشميين الذين قطعوا المساعدات بدورهم.

وبعد عدّة أيام، انطلق إبـراهيم هنـانو نحـو الأردن يرافقـه أربعـون رجـلاً مـن معاونيه والثوار؛ منهم إبراهيم الشغوري وعمـر زكـي الأفيـوني والمقـدم الـركن خالـد ومظهر السباعي وصبحي اللاذقاني، والضـابط البلغاري (خريستو) مع عشـرة مـن جنوده البلغاريين والنمساويين الذين هربوا من الفرقة الأجنبية الفرنسية واشـتركوا في جميـع المعـارك الـتي خاضـها الثـوار ضـد الفرنسـيين؛ ويـرافقهم كـدليلٍ الثـائر المقدام هزّاع أيوب.

وصل إبراهيم هنانو إلى معرة النعمان فحمـاه، ومـن هنـاك اتجـه نحـو الباديـة ليضـلّل السـلطة الفرنسـية الـتي كانـت في طلبـه، وفي 14 تمـوز 1921 داهمـه بعـض الأعـراب في موقـع اسمـه (مكسـر الحصـان) قـرب جبـل البلعـاس؛ ونشـبت بينـهما معركـة داميـة وضـارية، وسـدّ الأعـراب الطـرق علـى هنـانو وجماعتـه، وكثـر عـدد القتلى من الطرفين، وقيل إنّ الفرنسيين أوحوا للبدو أن هنـانو يحمـل أمـوالاً طائلـة معـه؛ ومـا علـيهم إلاّ أن يهـاجموه ويقضـوا عليـه وعلـى مرافقيـه، ولهـم أن يأخـذوا لأنفسهم كل ما يحصلون عليه منهم، وكانت معركـة ضـارية قاسـية، قُتـل فيهـا عـددٌ كبير مـن مرافقـي هنـانو وفي عـدادهم الضـابط البلغَـاري (خريسـتو) ورفاقـه؛ وكـان

هنانو يعتمد على خبرته في المعارك أكبر اعتماد، وقد أبلى مع رفاقه أعظم البلاء في المعارك والشؤون العسكرية؛ ولم يبقَ مع هنانو بعد هذه المجزرة سوى خيرو اللاذقاني وهزّاع أيوب.

وصل هنانو إلى عمّان انطلاقاً من حمص مروراً بدمشق وجبل العرب، ومن عمّان انتقل إلى القدس في 14 آب 1921، وكعادتهم مع العرب، غدر به البريطانيون فاعتقلوه بطلبٍ من الجنرال (غورو)، وسلموه إلى سلطات الانتداب الفرنسية.

بعد إلقاء القبض على هنانو. نُقل من القدس إلى حلب، وأُودِع السجن العسكري في (خان استنبول) في حي السويقة. ويقول الأستاذ (فتح الله الصقال) وكيل هنانو، بعد أن درس ملف الدعوى: «أنه لا يمكن اعتبار هنانو مجرماً عادياً، ولا حتى مجرماً سياسياً، للأسباب التالية:

1 ـ أن حرباً أصولية دارت بين الجيش الفرنسي من جهة، وبين هنانو ورجاله من جهة أخرى.

2 ـ أن هنانو قابل الجنرال (غوبو) قائد الحملة الفرنسية ضد الثورة السورية ليتفق على شروط الهدنة.

3 ـ أن هدنة عُقدت بين الطرفين لمرتين متواليتين.

4 ـ أن الفريقين تبادلا الأسرى.

وبعد أخذ وردّ بين الادعاء والدفاع حول «الجرائم» المنسوبة إلى هنانو؛ رفض الجنرال (غورو) إيقاف سير الدعوى للأسباب الأربعة المشار إليها، وكان أن بدأت محاكمة هنانو في 15 أيار 1922، في دار الحكومة (السراي القديمة). في الغرفة المعدَّة لمحكمة الجنايات الأهلية.

ومنذ فجر اليوم المُعَيَّن للمحاكمة اصطفّ الجنود الفرنسيون والسنغاليون على جانبي الطريق (الخندق) الممتد بين بناية البريد (حالياً مخفر باب الفرج) إلى مدخل (السراي القديمة)؛ وقد غصَّت جميع الطرق المؤدية إلى مكان المحاكمة بعشرات الألوف من السوريين؛ وكانت الهيئة الحاكمة مؤلفة من خمسة أعضاء فرنسيين برئاسة عقيد، وبعضوية مقدم، ورئيس وملازم أول وملازم ثان، ويمثل النيابة العامة ضابط فرنسي برتبة رئيس.

ولما جلس القضاة العسكريون على مقاعدهم ـ والكلام هنا لمحامي الدفاع الأستاذ فتح الله صَقَّال ـ ولأول مرة في تاريخ القضاء في حلب ارتدينا لباس المحامين الخاصّ؛ وهو مأخوذ من اللباس الذي يرتديه المحامون الفرنسيون، فأصبحنا عرضة لأنظار الجمهور المحتشد في قاعة المحكمة.

وما لبث رئيس المحكمة أن كلّفنا بإلقاء الدفاع الأول، فنهضنا وارتجلنا دفاعاً استمر ساعة كاملة، استهللنا دفاعنا ببعض الفقرات، وخلاصة ما قلناه:

«في هذه الساعة الخطيرة التي تتأرجح فيها حياة رجل يجب أن يتلاشى في هذا المكان كلَّ ميلٍ وهوى؛ لأنكم بجلوسكم منذ هنيهة على هذه المنصة، فقد فقدتم صفتكم العسكرية الفرنسية، ولم تحتفظوا إلا بصفة القضاة الحياديين، فالقضاة لا يمثلون بلادهم فحسب، ولكنهم يمثلون المجتمع بأسره؛ ذلك المجتمع الذي منحهم سلطة رهيبة تخولهم حق التصرف بحياة الغير. عليكم أن تسكتوا جميع الأصوات، ما عدا صوت الضمير، ذلك الصوت يجب أن يسود هنا، لأنه وحده يستطيع أن يحكم بدون حقدٍ ولا وجل. إن الرجل الماثل أمامكم ليس بالرجل الذي وصفه النائب العام، لأن من يناضل من أجل حرية بلاده، ومن يسعى إلى هدفٍ سامٍ دون أن يخشى التضحية بحياته وأمواله ليقينه أنه على حق وسداد، هذا الرجل نفسه لا يستحق أن يُلْقَى به على هذا المقعد ...».

وبعد أخذٍ وردٍّ حول صلاحية المحكمة للنظر في قضية إبراهيم هنانو، وحول عدم قانونية إخراج هنانو من فلسطين لتسليمه إلى السلطات الفرنسية في سورية؛ وحول كون هنانو مجرماً أم مقاوماً وطنياً، وبعد استماع شهود الاتهام وشهود الدفاع. وفي اليوم السابع من المحاكمة التي كانت تجري في الصباح وبعد الظهر؛ طلب رئيس المحكمة إلى النائب العام أن يبدأ مطالعته، فنهض وراح يتكلم بقوةٍ وحماسةٍ من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة الثانية عشرة ظهراً؛ وختم النائب العام مطالعته بقوله: «لو كان لإبراهيم هنانو سبعة رؤوس بعدد جرائمه السبعة لطلبت قطع رؤوسه السبعة؛ ولكنه لا يملك إلا رأساً واحداً، ويؤسفني أن أطلب إعدامه ليكون عبرةً لغيره، أطلب ذلك على الرغم مما يحويه رأس هنانو من دراية واتزان».

ولما طلب رئيس المحكمة من محامي الدفاع أن يلقي دفاعه؛ راح يُفَنِّد التهم الموجهة إلى هنانو الواحدة تلو الأخرى. وقد ارتكزت جميع التهم على التهمة الأساسية الأولى، وهي تشكيل عصابة من الأشقياء؛ أي أنّ هنانو لم يكن قائداً لثورة. وبعد انتهاء محامي الدفاع مطالعته، وتعقيب المتهم هنانو بثقته بعدالة المحكمة على الرغم من الخصومة بين رجال الثورة السوريين والسلطات الفرنسية؛ أعلن رئيس المحكمة ختام المحاكمة، ثم دخل ورفاقه القضاة إلى غرفة المذاكرة للتداول ولإعلان القرار النهائي.

وكانت التهم المنسوبة إلى هنانو سبعة جرائم تفرّعت ظروفها إلى (90 سؤالاً) طرحت على كلٍ من أعضاء المحكمة الخمسة، وبعد انقضاء ساعتين في غرفة المذاكرة، حيث جرى التصويت بشكل سرّي، عادت الهيئة الحاكمة إلى منصة القضاء لتلفظ حكمها؛ فنهض المستمعون نهضة واحدة، وظلّ القضاة واقفين، والأنظار متجهة إلى الرئيس الذي راح في جوٍ من الرهبة يتلو الأسئلة والإجابة عليها بكلمتي (نعم) أو (لا).

وكان السؤال الأول الأساسي: هل هنانو مذنب بتشكيل عصابة من الأشقياء للنهب والسلب؟ فإذا كان الجواب (نعم) كانت أجوبة التسعين سؤالاً (نعم)، وإذا كان الجواب (لا) كانت الأجوبة كلها (لا). وما كاد الرئيس يجيب على السؤال الأول بكلمة (لا) حتى علمتُ - والكلام لمحامي الدفاع الأستاذ الصقال - أنّ البراءة تشمل جميع التهم المنسوبة إلى إبراهيم هنانو.

بعد إطلاق سراح هنانو لبست حلب الشهباء حلل الزينة، وكانت أيّاماً مشهودة نعمت خلالها عاصمة الشمال بالأفراح؛ وهرعت إليها من كل أطراف بلاد الشام جموع المهنئين!

وحين حلّت ذكرى المولد النبوي الشريف في 29 تموز 1932، أُقيمت حفلة قراءة المولد في (حيّ الجَلُوم) في جامع البرهمية في حلب، حضره الزعيم هنانو وبعض إخوانه من رجال الكتلة الوطنية، وبعد قراءة المولد خطب الزعيم هنانو، فتناول اجتماع المجلس النيابي (7 حزيران 1932)، ذلك المجلس الذي لم يعترف به الشعب السوري، لِمَا جرى في أثناء عمليات انتخاب أعضائه من مخالفاتٍ وتزوير، ومما قاله هنانو: « ... إن هذا الشكل الحاضر الذي أرادوا إتحافنا به من مجلسٍ نيابي وتوليد حكومة، فأنا أعلم وأنتم تعلمون أن هذا المجلس ليس له صفة تمثّلنا،

والعهد ليس ببعيد حيث سُفكت دماء الشباب والطلاب. إشارةً إلى القتلى الذين سقطوا قبل أسبوعين في حلب برصاص الفرنسيين وعملائهم من قوى الأمن. أقول هذا المجلس لا يمثّل غير القوّة التي أنتجته.

نحن الآن نعترف أن الوضع الحاضر في هذه البلاد هو غير شرعي والمجلس يجب تهديمه. فإن كنتم تحترمون كرامة أنفسكم وحقوقكم، يجب أن لا ترضخوا لمن اعتدى عليكم وعلى كرامتكم، وألا تقبلوا بمجلس لا يمثلكم، ونحن ساعون لتهديم هذا المجلس النيابي المزيف مهما كلفنا الأمر».

ثم توجّه هنانو إلى الشباب الموجودين في عداد الحاضرين: «... إليكم أيها الشباب أوجّه كلامي، وأنتم رجال المستقبل، الوطن اليوم يستصرخكم ويستنجد بكم، وأنتم عُزَّل من السلاح، فبأي شيء يمكنكم أن تُخَلِّصُوا هذا الوطن؟ إنه شيء واحد أقوله لكم، ألا وهو التمَرد... أيّها الشباب إذا طأطأتم رؤوسكم أمام الظلم تكونون أنتم المسؤولين عن أعمال الظالم... ونحن نريد من كل هذا النضال والتضحية تأسيس حالة عادلة في هذه البلاد؛ وإيجاد دور تُحْتَرم فيه القوانين. أنا لا أريد أن أحرّضكم على التمرّد على القانون إذا كان لكم رأيٌ في سَنّه، ولكن الأمم ليست مكلّفة باحترام قوانين ليس لها فيها رأيٌ أو قول... ما هو معنى الوطنية أيّها الشباب؟! إن الوطنية هي الكرامة، وثمن الوطنية هو التضحية. أيها الشباب افتكروا بكرامتكم، وثقوا واعتَدُّوا بأنفسكم، لا تقولوا بأنكم ضعفاء، فأنتم أقوياء بإيمانكم وإخلاصكم، وأنا أحرّضكم على التمرّد أمام الظالم، نعم أحرّضكم... وإلى الأمام...»».

قاتل إبراهيم هنانو قتال الأبطال الشرفاء، وصبر وصابر، صبر على جور الاستعمار وكافح مكائده، وتصدّى لعملائه، قاد الثورة بإخلاص الأتقياء ووفاء الأصفياء وصبر الأنبياء، زهد في المال وبذل كل ما يملكه في سبيل الثورة ورجالاتها على النقيض ممن ادّعوا الوطنية، وعرفناهم في كل زمانٍ ومكان أولئك الذين اغتصبوا السلطة وسرقوا أموال الشعب... ومن هنا كان انتقاله السابق لأوانه إلى جوار ربّه فاجعة ونكبة للشعب السوري وللأمة العربية؛ وهو الذي كرّر القول: «... إن على الشباب العربي أن يفخر بعروبته وبعث عزته، وبقومه مبعث فخره... إن على الشباب العربي أن ينصر الحقّ ويكون عوناً له، وأيّ جورٍ أعظم من جور الوطن على بنيه! لا تخشوا التضحية، فإنه لا يخشاها غير الجبان الرعديد،

فالتضحية هي الدليل على أنكم أحياء، وهي برهان الشجاعة وقوّة النفس وسحرها، إنها الدليل على أنكم سادة تأنفون الرقّ؛ أباة تحرصون على كرامة الحياة، فالتضحية ليست الموت ولكنها الحياة...

أيها الشباب العرب! هذه رسالتي إليكم، فاحفظوها وحافظوا عليها، ورَدِّدُوها صباحاً مساءً».

في 21 تشرين الثاني من عام 1935، وبعد معاناة طويلة مع مرض السلّ توفي إبراهيم هنانو! وقرّر الأطباء أن المرض كان من عقابيل التعب والأهوال التي لاقاها وعاناها خلال أعوام الثورة، وفي 23 تشرين الثاني 1935، شيّعت حلب الشهباء الزعيم هنانو إلى مثواه الأخير بموكبٍ عظيم مهيب؛ لم تشهد البلاد له مثيلاً، شاركت فيه الجماهير الحلبية مع وفود المحافظات وعديدٍ من البلدان العربية المجاورة، ويقوم ضريحهُ اليوم في منطقة الملعب البلدي (الفيضِ قديماً).

وبمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة الزعيم هنانو، أقيم احتفال وطني كبير في مدرج الجامعة السورية، فشهدته جماهير غفيرة من الأقطار العربية كافة... وبعد تلاوة آيات من الذكر الحكيم، ألقى الرئيس هاشم الأتاسي الكلمة الأولى وقد أنهاها قائلاً: « ... إن لفي كلّ صفحةٍ من صفحات إبراهيم هنانو مثالاً يدلّ على نفسٍ وثابة وروح كبيرة وإخلاص متناهٍ، يجدر بكل سوري أن يقتدي به، فخسارة الوطن به أكبر من أن تُقَدَّر، ولكن إن ماتَ إبراهيم فالوطن حيّ لا يموت».

ورثاه الشاعر عمر أبو ريشة:

هتف الشعب بالزعيم المُفَدَّى ومشى خلفه بطرف بصيرِ

وكان الختام في كلمة الشيخ محسن الأمين إذ قال: «لم يكن إبراهيم هنانو ملكاً ولا حاكماً، ولكنه كان عظيماً بنفسه، سامياً بروحه، كبيراً بإخلاصه، مفادياً بكل ما لديه في سبيل القضية التي وقف حياته عليها؛ وهكذا يُكتب الخلود للعاملين، فرحم الله تلك الروح الكبيرة، وعوّض الأمّة بزعمائها خيراً».

بعد وفاة إبراهيم هنانو، قامت حملة وطنية لجمع التبرعات لإيفاء ديون الزعيم الكبير، وإعانة ابنه طارق على مرضه..

د. محمد محفل

شكيب أرسلان

أمير الجهاد والبيان

(1869 - 1946)

لم يكن شكيب أرسلان أميراً بالوراثة فقط، كان أميراً في الأدب والشعر والسياسة أيضاً، ولم يكن أقل من هذا في صداقاته، غير أن هناك جوانب أخرى لا يمكن إغفالها في شخصيته الثرة؛ فقد كان المؤرخ والمحقق والكاتب والناقد والخطيب والصحافي. انشغل منذ بدايات تشكل وعيه بقضايا أمته ووطنه، في حقبة بالغة الاضطراب والتحول والخطورة. كان داعية للإسلام والعروبة، مجاهداً في سبيلهما، ومناضلاً في سبيل ما اعتقده صحيحاً وحقاً مشروعاً. وإذا كان قد أخطأ في بعض آرائه، فهي حال السياسة، إذ مهما أصاب السياسي، يبقى في معتركها الأكثر تعرضاً للخطأ، لكن يغفر للأمير شكيب أنه كان على الدوام مخلصاً وأميناً وصادقاً في حياته، كما في أفكاره وسلوكه وممارساته.

❖ ❖ ❖

ولد شكيب أرسلان في 5 كانون الأول 1869م، المصادف أول ليلة من رمضان 1286هـ، في لبنان بلدة الشويفات في بيت عريق من بيوت الإمارة اللبنانية في الغرب، يعود نسبها إلى الملك المنذر بن النعمان من أشهر ملوك الحيرة، والمعروف بأبي قابوس. والده الأمير حمود كان محباً للأدب والأدباء، تجتمع إليه الشخصيات الفذة في البلدة، كما كان مديراً لناحية الشويفات، تزوج من امرأة شركسية الأصل أنجبت له خمسة أولاد، أخذ بيدهم إلى العلم والثقافة، كان منهم الأمير شكيب.

تعلم مبادئ القراءة والكتابة والقرآن على شيخ من أهل قريته، ثم دخل مدرسة الأمريكان في حارة العمروسية، وأخذ الحساب والجغرافيا ومبادئ اللغة الإنجليزية، ثم انتقل إلى بيروت عام 1879، وتلقى دروسه في مدرسة الحكمة المارونية بإدارة المطران يوسف الدبس المؤرخ والعالم اللاهوتي. وكانت المدرسة معروفة بتعليم أصول اللغة العربية والفرنسية، تعلم فيها النحو والأدب على يد إمام اللغة الشيخ عبد الله

البستاني، والذي شهد بأنه أنبغ تلامذته، ونال شهادتها سنة 1886. انتقل إلى المدرسة السلطانية لتعلم اللغة التركية والفقه، واتصل بالإمام الشيخ محمد عبده، وكان أستاذاً فيها مدة نفيه من مصر عقب الثورة العرابية، وحضر لديه درس مجلة الأحكام العدلية، ولازمه في مجالسه الخاصة. كان للإمام عبده أثر كبير في حياته وتكوينه وتوجيهه، وقد أعجب شكيب به كثيراً واتخذه مثلاً أعلى له، ورأى في أدبه وسيرته ودعوته للإصلاح خير طريق يسلكها المسلمون، حتى غدا يقلده في خطاباته ومقالاته. يكتب عن طبيعة علاقته بالإمام: «أنا لست فقيهاً، ولا قرأت في الأزهر، ولا دارت العمامة برأسي في يوم من الأيام، وما طالعت من الفقه إلا المبادئ الكلية، ولكني سمعت من أستاذي الشيخ محمد عبده، رحمه الله، أن الشرع لا يأمر بالعبث، ولا يجيز الضرر من أي جهة كان». نظم الشعر وهو في منتصف العقد الثاني من عمره، ونشره في جريدة (الجنة)، لكن كتابة المقالات غطت على شعره. راسل جريدة الأهرام المصرية بتوقيع (ش) وظل على ذلك سنين، فاستفاضت شهرته. في عام 1887 نشر كتابه الشعري الأول وأسماه (ديوان الباكورة). قال الأديب اللبناني الكبير مارون عبود: «لو أن شكيباً لم ينصرف إلى خوض غمار السياسة، التي تتطلب الترسل أكثر من النظم، لكان أمير الشعراء».

سافر إلى مصر عام 1890، وعمره إحدى وعشرون سنة، واجتمع من جديد بأستاذه محمد عبده، وتعرف من خلاله إلى أهم شخصيات مصر في عصره، وتضم مجموعة من طلائع النهضة العربية منهم: سعد زغلول، والشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد، وأحمد زكي باشا شيخ العروبة. وتعرف إلى كثير من الشعراء والأدباء والساسة، وكان لهذه البيئة أثر كبير في حياته، أفاد منها ثقافياً وسياسياً، زادته يقيناً برسالته التي تحددت بالدعوة إلى الإسلام والدفاع عن الخلافة والعرب ضد الهجمة الغربية.

سافر إلى باريس، وهناك تعرف على الشاعر الكبير أحمد شوقي، كما تعرف على جمال الدين الأفغاني في الآستانة، والذي قال له: «أنا أهنئ أرض الإسلام التي أنبتتك». واتصل بالشيخ محمد رشيد رضا، وامتدت صداقتهما طوال العمر.

عاد إلى بيروت في أواخر عام 1892، وانخرط في العمل السياسي، وأيد العثمانيين في سياستهم خلاف الكثيرين من أبناء وطنه. انطلق موقفه هذا على

اعتبار أن العثمانيين هم القائمون بأمر الخلافة الإسلامية، وأن جسم الإمبراطورية العظيم لا تترابط أجزاؤه أو تقوى إلا من خلال جامعة الخلافة. لم يكن مطلب الاستقلال الوطني وارداً بقوة أو بوضوح، وإنما كانت الدعوات إلى طلب الحماية الغربية هي المطروحة، وهو ما رفضه الأمير، مثلما رفضه الإمام محمد عبده والأفغاني. لكن ولاءه للخلافة لم يمنع من نشوب الخلافات بينه وبين الولاة العثمانيين، وحدوث أكثر من مواجهة معهم.

في تلك الفترة غاص الأمير شكيب في الصراعات الحزبية الجبلية الضيقة في السنوات 1892 ـ 1908، وقام بعدة مأموريات عام 1902 في جبل حوران لإقناع الثوار الدروز بالرجوع إلى طاعة الدولة العثمانية، وكان حاسماً في موقفه من ضرورة وحدة الدروز والتفافهم حول الدولة في تلك المرحلة، التي تميزت على حد وصف جميع المراقبين والباحثين بضعف الدروز. وقام بجهود جبارة في توحيد القوى لإدراج جبل الدروز ضمن إطار الدولة، والتحالف بين العائلات الدرزية والعائلات اللبنانية، أدى إلى ما دعي بالـ (المظاهرة الكبرى)؛ حيث توجه وجهاء هذه العائلات على رأس وفود من أعيان البلاد من جميع الأقضية والطوائف إلى بيت الدين، مطالبين بشمول الدستور لمنطقتهم، ثم تحولت هذه المظاهرة إلى حركة عصيان جماهيري، أرغمت المتصرف المسيحي على إعلان الدستور في جبل الدروز. وكان من النتائج المباشرة لهذه الحركة، عزل كبار المأمورين الذين كان المتصرف يعتمد عليهم، وتعيين مكانهم أشخاصاً من التحالف أو الحزب المؤيد للأمير شكيب، ومن جملتهم تعيين الأمير نفسه قائمقام لمنطقة الشوف عام 1908. كذلك اختير نائباً عن حوران في مجلس المبعوثان.

كان الأمير نشطاً في مناصبه التي تولاها، ولم يكن بعيداً عن مجريات ما يحدث في وطنه العربي، وتعداه إلى سلوك عملي. فعندما بلغه خبر الغزو الايطالي لليبيا سنة 1911 وكان في مصيف صوفر في أعالي جبل لبنان، كاتب أصحابه بمصر ومنهم الشيخ علي يوسف لإعانة السنوسيين بالأموال من أجل المقاومة؛ وبيَّن كيفية مساعدتهم دون التعويل على إمكانات الدولة العثمانية، وقد ارتأى أن الطريق البري هو الممر الوحيد الذي يمكن استخدامه لنجدة المقاتلين في طرابلس وبرقة والصحراء، واقترح استنهاض الشعوب الإسلامية لنجدة القلة المقاتلة في

ليبيا. وبلغ موقفه الذروة في الدعوة إلى تشكيل قوة من المتطوعة المجاهدين، اجتمعت من نواح مختلفة من جبل لبنان وجبل العرب. انطلق بهم من بلدة صوفر قاصداً بنغازي بطريق فلسطين فمصر، إلا أن قسماً من القوة هلك في الصحراء بين وادي الأردن وبئر سبع، وحال الإنجليز دون بلوغ الباقين غايتهم، لكنه تمكن مع زمرة من رجاله من دخول الأراضي الليبية تحت مظلة الهلال الأحمر، وهناك عُين مفتشاً لجمعية الهلال العثماني، ومثلما عمل على إنقاذ الجرحى والمصابين، وقف في خطوط القتال وحارب الطليان إلى جانب أنور باشا ومصطفى كمال وعزيز المصري وذلك لمدة ثمانية أشهر. كتب عنها: «وكان من مقاومة الليبيين أن استمرت الحرب بينهم وبين ايطاليا عشرين سنة تامة بدلاً من ثلاثة أشهر(التي توقعها الطليان)، لم تنقطع إلا بعد أسر الشهيد عمر المختار».

بعد معارك طرابلس وبنغازي، وشهوده للمجازر التي ارتكبها الطليان بحجة تمدين ليبيا «المتوحشة» بالمبادئ الإنسانية؛ خرج بقناعة راسخة هي أن سقوط حلقة في عقد البلاد العربية والإسلامية سيقود لا محالة إلى سقوط باقي العقد: «إن لم نقدر على أن نحفظ صحارى طرابلس، لن نقدر أن نحافظ على جنان الشام». واعتبر أوربا كلها مسؤولة عما جرى، ولم يغفر لها جريمتها قط. احتفظ بموقف بالغ العداء للاستعمار الأوربي أياً كان شكله وصاية أم انتداباً أو احتلالاً. وهذا ما يفسر تأييده العلني الصريح للتآخي العربي العثماني. كان مقتنعاً بأن التعاون بين العرب والترك يُبقي للأمة كلمتها موحدة، ويشد من عضدها في وجه المطامع الأوربية. فوقف في وجه التعاون مع الغرب - خاصة مع فرنسا وإنجلترا - ضد الدولة العثمانية، واعتبره الخطر الأكبر على الإسلام والعرب، ودعم الخلافة العثمانية في مقالاته في جريدة (الشرق) ودعا إلى نصرة الإسلام ضد الغرب المستعمر، والعمل على تضامن المسلمين والإبقاء على سمعة الخلافة العثمانية وقوتها وسيطرتها، كما كانت في عهد الأمويين والراشدين. مما جعله أحد أكثر قادة الإخاء العثماني العربي نشاطاً.

تجسد اتجاه شكيب هذا في «حزب الأحرار» داخل مجلس المبعوثان. لم يكن مع تركيا، بل مع الاتحاد الإسلامي «الذي كان فيه المنعة للدولة لأن فيه أماناً لكل الشعوب المنضوية تحت رايتها». كما تفرد بموقف واضح، فهو لم يمل مع سياسات

الدولة كما شاءت، وحافظ على أفكاره، لاسيما حين أخذ السفاح جمال باشا بتنفيذ سياساته المتعسفة في سورية ولبنان، وبث الذعر والإرهاب بين الناس، واضطهاد الوطنيين وإرسالهم إلى المشانق، فاعترض على أعماله، واستخدم حظوته في إنقاذ الكثيرين من اللبنانيين والسوريين كالشيخ خليل الخوري والسياسي فارس الخوري. ولم يسلم الأمير من عداوته لكن السفاح كان أعجز من أن ينال منه لأنه يدرك موقع الأمير في الآستانة، وانتهى الأمر إلى توتر العلاقات بينهما، وهدده جمال باشا مراراً بعدم التدخل، كما نصح الكثيرون الأمير بعدم التمادي حرصاً على حياته. وأصبح عاجزاً عن إنقاذ الكثيرين من الشبان، مما أصابه باليأس والإحباط، ويقول عن تلك الفترة المؤلمة: « ... وقد أعدم أفراداً كانوا من أعز إخواني وبعضهم كأولادي مثل صالح حيدر وجرجي الحداد وأحمد طبارة وعبد الغني العريسي وسليم عبد الهادي، وكم تحرقت على عمل شيء...لكن عجزت عن ردع جمال عن طغيانه». بل وحاول أن يناله بتهمة تودي به إلى الإعدام، ومعروف ما قاله جمال باشا: «حاولت أن أطوق رقبة شكيب بحبال المشنقة، فلم أجد منها ما يحيط بعنقه».

هاجر من سورية إلى استانبول سنة 1917، وقرر ألا يعود طالما الأمور على حالها. في الآستانة سعى لدى أنور باشا وغيره من القادة، لإخراج الطاغية من سورية ولبنان، منتقداً بشدة تصرفاته التي تخلق الفوارق بين المسيحيين والمسلمين وما تقود إليه من فتنة، مما يدعو إلى سوء الظن بسياسة الدولة العثمانية. في العام نفسه دعته الحكومة الألمانية لزيارة مدنها، فلبى الدعوة، ووفق إلى إقناع الألمان ومن قبلهم ساسة الترك، فضيقوا على جمال واضطروه إلى العودة إلى الآستانة. وبهذا خدم شكيب أبناء قومه وأنقذ البقية الباقية من الزعماء السوريين من حبل المشنقة، كما خدم بلاده في إعادة منفيي سورية. وقد كتب الأستاذ عز الدين التنوخي عن تلك الفترة الملتبسة: «كان الأمير شكيب من أشرف من كان حول جمال باشا من رجال العرب، دفع الله به كثيراً من الشر والأذى، وما كان يدافع عن الدولة العثمانية إلا دفاعاً عن العروبة الإسلام وخوفاً عليهما من الانتداب والحماية والاستعمار». وفيما بعد حين اتُهم من قبل المفوض الفرنسي «جوفينيل» بأنه قاد الكثير من المتطوعة تحت إمرة جمال باشا، كان رده عليه في «الاومانتيته»

حاداً وبليغاً: «...أما قوله أنني كنت على رأس المتطوعين اللبنانيين لمقاومة الدول التي اقتسمت بلادنا سراً فيما بينها، فهذا ما أفخر به، ولست بنادم عليه، ولكن وجودي تحت إمرته وهو قائد الفيلق الرابع، لا يوجب أن أكون من أخصائه».

اعتقد شكيب بأن الثورة العربية إذا نجحت بالقضاء على الخلافة الإسلامية، فلن تقود إلى استقلال العرب، بل إلى استبدال العثمانيين بمستعمرين أوربيين بدأوا بالتسرب إلى المنطقة. وكان طبيعياً أن يصطدم موقفه هذا بكثير من المعارضة وسوء الفهم، ولم يرض الشبان العرب عن هذه السياسة الشكيبية، وهي إسلامية محضة، وكانوا يعدونها انتصاراً للترك على العرب، على أن الأمر في حقيقته كان تعبيراً عن مدرستين في العمل السياسي تستهدفان القضية الواحدة والغاية نفسها، وإذا كان موقفه قد بدا آنئذ غير مقنع، فإن الكثير من معارضيه رأوا رأيه حين جاءت النتائج بغير ما توقعوا أو اعتقدوا. ويوضح شكيب رأيه مدافعاً عنه: «لم يمنعنا من الاشتراك في الثورة العربية سوى اعتقادنا أن هذه البلاد العربية ستصبح نهباً مقسماً بين انجلترا وفرنسا، وتكون فلسطين وطناً قومياً لليهود، وهذا التكهن كان عندنا مجزوماً به، حتى أني كنت أقول قبل الحرب، لو ارتفع الغطاء ما ازددت إلا يقيناً. ثم انتهت الحرب، وانتصر الحلفاء، وارتفع الغطاء، فما حصل بالفعل شيء غير ما كنا نقول». كان شكيب مشفقاً على العروبة من الاستعمار.

لما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها بإخفاق الألمان والأتراك، ودخول فرنسا لبنان وسورية، اختار المنفى وغادر إلى تركيا، أقام بداية في بلدة «مرسين» على مقربة من الحدود السورية يحاول وصل ما انقطع من عرى التحالف بين الأتراك والعرب مشكلاً لجاناً لمقاومة الفرنسيين، لكن إقامته لم تطل، كانت الهزيمة التي منيت بها تركيا قد ضربت كيان الدولة، أعقبها صعود مصطفى كمال واختياره العلمنة، وانتشار التيار الأتاتوركي الساعي إلى التتريك الصرف، وقطع الأواصر بالإسلام والشرق والتحول نحو أوربا. مما دعاه إلى الذهاب إلى برلين حيث أقام فيها وأسس العديد من الجمعيات وانتخب رئيساً لـ (النادي الشرقي)، منتهجاً سياسة جديدة؛ فبعدما وقف من الثورة العربية أول الأمر موقف المخالف لأنها كانت ضد الخلافة العثمانية، التحق بها بعد انتصارها وتعيين فيصل ملكاً، فشد من أزره ووقف معه ضد دسائس المستعمرين

الأوربيين: «عند تأسيس الحكومة المستقلة في دمشق، أعلنتُ وجوب تأييد فيصل والانضواء تحت لوائه». كان رأيه أنه متى صارت المسألة بين العرب وبين الأجانب فلا سبيل للتردد في الانتصار للعرب.

عرف الملك فيصل إخلاص شكيب للعروبة، وآمن بخدمته لها، ورأى أنه كان يعمل للعرب تحت ظل الخلافة الإسلامية ضد الاستعمار. فلما دخل الفرنسيون سوريا ظهر صدق آرائه إزاء الغرب، وقد وجه له الملك فيصل بعد سقوط عرشه رسالة خاطبه فيها قائلاً: «أشهد بأنك أول عربي تكلم معي في قضية الوحدة العربية». وكان يطريه ويثني عليه إذا ذكر أمامه ويقول: «ليس لمجاهد عربي فضل إلا وله مثله عليه. لئن جاهدنا بسيوفنا فقد جاهد بقلمه بما لا يقل تأثيراً عن فعل تلك السيوف».

تغلبت على مبادئ الأمير شكيب الصبغة السياسية لأنه كان يرى أن إصلاح السياسة يصلح كل شيء. وقد انحصر الإصلاح في السياسة عنده منذ بدأ مساهمته في الدعوة للجامعة الإسلامية حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى أي مدة ربع قرن في نقطتين الأولى: إصلاح الحكم الاستبدادي في الدولة العثمانية وفي سائر الدول الإسلامية الأخرى، وتقويم المعوج في شؤونها الداخلية. الثانية، تخليص الشعوب الإسلامية الواقعة تحت الحكم الأجنبي. وقد ظلت هذه النقطة الثانية مدار عمله في هذا الميدان حتى النفس الأخير من حياته.

في برلين، وعى الأمير الكثير من الدروس التي استخلصها من سقوط العثمانيين، فقد سقطت أيضاً مبادئ وبديهيات ومسلمات كثيرة، مثل فكرة الخلافة والجامعة الإسلامية والتآخي بين القوميات المنضوية تحت راية الخلافة. ورداً على التحديات التي طرحها الاحتلال الأوربي للأقطار العربية تبلورت لديه وبصورة جلية فكرة نهوض العرب ووحدتهم، وتحول إلى داعية لاتحاد العرب وللقضية العربية، معلناً بأنه جندي من جنود الأمة العربية. وفيما بعد سيحدد ثلاثة أهداف جليلة أولها: الاتحاد، وثانيها: التحرر، وثالثهما: السير في موكب النهضة والعلم. ولن يطول الوقت أكثر من عقدين عندما سيعرب عن ثقته في مستقبل العرب والجامعة العربية، وسوف يرى أن ستين مليوناً يستطيعون أن يجندوا حوالي مليون جندي على الأقل لحماية جامعتهم العربية.

❖ ❖ ❖

اجتمع في سنة 1922 في القاهرة عدد من قادة العمل في سورية وفلسطين في مؤتمر اختار مطلب الاستقلال نقطة استقطاب لجهود الشعبين ونضالهما، وتشكل على أثر ذلك «اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني» التي قررت بدورها، وكواحد من جملة أشكال تحركها، تأليف وفد للدفاع عن مطالب الاستقلال أمام عصبة الأمم المتحدة في جنيف، ويبسط للرأي العام العالمي موضوع الاحتلال الفرنسي الإنجليزي للبلدين والعمل على تحقيق الجلاء عن أراضيهما. لم يشترك شكيب في المؤتمر، فقد كان في منفاه، فتم تكليفه مع رفاق له بتولي المهمة، فأرسلوا إليه في برلين أمر تعيينه سكرتيراً أول، وطلبوا منه تأليف الوفد.

انتقل الأمير عام 1925 إلى سويسرا وجعل منها مقر عمله، وأقام في لوزان أولاً حتى عام 1930 قبل انتقاله إلى جنيف. سجل وفد المؤتمر السوري الفلسطيني نجاحاً في إفهام القضية السورية الفلسطينية، وأثارها في العواصم الأوروبية، ونبه أنظار الأمم إلى جرائم فرنسا في البلاد العربية، ودعا إلى مراقبة أعمالها، والتحذير من مغبة فسادها، فنقل بذلك أصوات السوريين إلى جمعية الأمم. كان أسلوب أداء الأمير لسفارته نموذجاً فريداً برز فيه عمله الدائب وتصميمه العنيد وإمكانياته الثقافية والسياسية الواسعة، وظفت كلها في خدمة القضية العربية الاستقلالية. لم يترك خلالها باباً في الدبلوماسية إلا وطرقه، ولا ترك جسراً إلا وتوسله ككاتب مجيد ومحدث مقنع.

كانت نداءات الأمير وبياناته ومقالاته تفضح دون مواربة الطابع الاحتلالي للوجود الإنجليزي والفرنسي في فلسطين وسورية والبلدان العربية عموماً. وشن حملاته على السياسيين الذين يهادنون فرنسا ويجاملونها: «يقول جميل مردم، إن الخلاف بيننا وبين فرنسا هو خلاف عائلي، نحله فيما بيننا ولا مدخل للغريب فيه؛ ولم نعلم متى كانت فرنسا ابنة عمنا من الرضاعة. ويقول لطفي الحفار، إن فرنسا هي التي أسست حقوق الإنسان في العالم ويكرر ذلك، وينسى أنه بقوله هذا جعل السوريين وعرب المغرب أحط من بني الإنسان، لأن فرنسا أكلت حقوقهم فعلاً، فلو كانوا من بني الإنسان لما كانت تعاملهم هذه المعاملة».

إزاء النجاح الدعائي الذي أحرزه، انبرى الفرنسيون يشككون في مصداقية تمثيله لمطالب الشعوب العربية، فكان أن ورده أكثر من عشرين توكيل رسمي من جمعيات وحركات استقلالية عربية، كان من بينها واحدة بعث بها سلطان باشا الأطرش قائد الثورة السورية، نشرتها جريدة الشورى بتاريخ 15 آب 1926:

«عطوفة الأمير شكيب أرسلان الأفخم:

باسم حكومة سكان جبل الدروز الذين اعتدت عليهم السلطة الفرنسوية بالضغط والاستبداد وضرب الطيارات، وانكسرت حقوقهم التي كانت اعترفت بها قبلاً، قد وكلنا عطوفتكم بمخابرة جمعية الأمم التي هي مسؤولة عن أعمال الدولة المنتدبة في سورية وتفهيمها أننا حملنا السلاح ودافعنا عن أطفالنا وعيالنا مضطرين... وأن توضحوا لجمعية الأمم أنها أيضاً مسؤولة عن دمائنا المسفوكة ظلماً وكذلك أن تعلنوا أن الله نصرنا على المظلومين».

في 14 شباط 1926 سافر شكيب إلى روما مترئساً الوفد السوري إلى «لجنة الانتداب» بعدما نجح في جعلها تعقد جلساتها في روما التي لم تكن على وفاق مع انجلترا وفرنسا. وقد أبلى في مهمته بلاء حسناً، إذ نشر بياناً مؤثراً في الصحافة عن همجية الاحتلال في البلاد العربية، انعكس في أعمال اللجنة وفي موقفها من مطالب الوفد السوري الاستقلالية، لكن ما بذله من جهد بلغ طريقاً مسدوداً وضاعت ثماره في متاهات الألاعيب الاستعمارية، وكتب عن تجربته المريرة: «وقد بلونا في هذه السنوات الخمس من معاملات الدول العرف والنكر، وذقنا الحلو والمر، ورأينا الهزء والجد، وعرفنا الجزر والمد، ولم يبق وجه يمكن أن تنحل به عقدة سورية إلا فكرنا فيه، وأجلنا النظر في ظواهره وخوافيه، فلم نجد لنا نجاة إلا بالاستقلال التام والدخول في جمعية الأمم والتوفر على إصلاح داخليتنا والمبادرة إلى تأسيس جيش نذب به عن حوض وطننا ونتقي الغارات التي لم يوجد سبيلها إلينا إلا كوننا عزلاً».

ذاع صيت شكيب في العالم العربي من مشرقه إلى مغربه، وأصبح موضع ثقة العرب جميعاً ومحل احترامهم وإكبارهم، وزال عنه كثير من التهم التي كانت تلصق به في العهد العثماني بسبب وقوفه في وجه العرب المعادين للخلافة العثمانية، كما انتخب في تموز 1926 في لجنة رئاسة مؤتمر الخلافة، وكانت حركة مؤتمر

الخلافة حركة إسلامية عارمة ثارت بعد قرار كمال أتاتورك إلغاء الخلافة في آذار 1924 وقطع روابط تركيا بالعرب والمسلمين. ودعاه عرب المهجر في أمريكا الشمالية إلى ترؤس مؤتمرهم المنعقد في (ديترويت) فلبى الدعوة عام 1927، وطاف في روسيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا، وأخذ يغذي الصحف العربية بمقالاته في كل مكان، وراح ينشر مذكراته في جريدة (مرآة الغرب) بنيويورك.

في سنة 1929 ترك شكيب سويسرا ليحج إلى بيت الله الحرام، وقد سبقته سمعته العريضة، ولقي من الملك عبد العزيز بن سعود كل ترحاب، وقد تعرف الملك إلى أفكاره ومشاريعه وخبر معه تجربته الغنية مع الأتراك والأوربيين، وأراد تقليده أي منصب أو سفارة يريدها، فاعتذر لكنه وعده بخدمة القضية العربية بما شاء جلالته إلا في الوظائف الرسمية. نال الجنسية الحجازية، وسره أكثر ما سره أنه لم ير طوال رحلته في أرض الحجاز علماً مرتفعاً سوى العلم العربي، وشكلت رحلته مادة لواحد من أجمل كتبه وهو «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف». في سنة 1930 قام برحلة إلى أسبانيا، فجاس خلالها مدنها وقراها، وصافحت عيناه آيات الحضارة الإسلامية في الأندلس، فنقلها صوراً بارعة ورسوماً باكية ضاحكة إلى كتابه (الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية).

كما وأنشأ في هذه السنة مجلة باللغة الفرنسية سماها (الأمة العربية) قصد من إصدارها خدمة القضية الاستقلالية، مؤكداً من خلال اسمها بالذات إلى ثبات المنحى الجديد الذي تمسك به بعد الحرب الأولى، وأيضاً عدم اكتفائه بالاتصال بحكومات أوربا وقادتها، وإنما أراد لجريدته أن تكون الصوت المدوي في وعي الأوربيين وضمائرهم. بإصراره على مخاطبة الرأي العام الغربي مباشرة، لأنه لم يعتبر شعوب أوربا مسؤولة بالضرورة عن وحشية الاحتلال الاستعماري للشعوب الأخرى.

غدا شكيب بفعل هذا النشاط الاستقلالي المكثف كثير الصداقات والعداوات، وقد أهلته صداقاته في محو كثير من أسباب سوء التفاهم الذي ينشأ أحياناً بين ملوك العرب أو بين أمرائهم أو سائر رجالاتهم، وغالباً ما تكللت مساعيه بالنجاح بفضل ما كان يتمتع به عندهم من نفوذ وإكرام. فاختير سنة 1934 في الوفد الذي شكلته لجنة المؤتمر الإسلامي في القدس لحل الخلاف بين عاهل السعودية ابن

سعود والإمام يحيى، فكان له يد فضلى في جمع شمل العرب وأصبح اسمه مرادفاً لكل نضال استقلالي في المغرب والمشرق، فلم يترك مناسبة إلا وأثار فيها مطلب الاستقلال وجلاء جيوش الاحتلال. وكان من أوائل الذين سبقوا في العصر الحديث إلى تصور الوطن العربي على حقيقته، ممتداً من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي: «إن هذا العالم العربي كله ذو منزع واحد، وغاية واحدة، ولهذا فالطبيعة ستسير به قهراً وقسراً إلى الوحدة، وهذه الممالك التي قد مزقها الأوربيون المستعمرون أجزاء، من السنغال إلى الموصل ستعود مملكة واحدة كما كانت في عهد الخلافة العباسية».

كان الفرنسيون هم الأشد عداء لشكيب، فلاحقوا أنصاره ومؤيديه في البلدان التي كانوا قد احتلوها، وصادروا كتبه في سورية ولبنان والمغرب العربي، وأخرجوه من طنجة حين زارها، ولم يوفروا تهمة إلا والصقوها به. فقالوا بأنه يعمل مع الألمان بدليل إقامته في برلين، وكان ذلك بين 1920 - 1925 في ألمانيا المهزومة الدولة الأوربية الوحيدة التي لم يكن لها آنذاك أية مطامع استعمارية. وأثاروا الشكوك حول تمويل نشاطاته السياسية ومجلته وحاجاته الشخصية، ولم تكن المبالغ المرسلة إليه تبرعات وطنية أو حتى مساعدات، وإنما كانت غلة قريته «المقروصة» في وادي العجم، وقد قضته حاجته فيما بعد والديون المتراكمة إلى بيعها.

عاش شكيب منفياً سنوات طويلة، وحيل بينه وبين قومه وعشيرته ووطنه، وكان محظراً عليه العودة إلى أي من البلاد العربية، الواقعة تحت الاستعمار الفرنسي والإنجليزي والإيطالي. ويروي رشيد رضا في «المنار»، بأن الحكومة المصرية سمحت لشكيب أثناء ذهابه للحج، أن يعرج على السويس لمدة نهار واحد للانتقال من باخرة إلى أخرى، وما سماحها له إلا استجابة لإلحاح أصدقائه في مصر، بدعوى أن عرقلة الحج منكر دينياً ويستتبع عواقب هي بغنى عنها. ولم يرض العودة إلى موطنه بشروط فرنسية، وارتضى منفاه على المساومة في القضية التي منحها حياته. لكن في عام 1937 شهدت علاقاته مع الفرنسيين انفراجاً بعد توقيع معاهدة 1936 بين الحكومة السورية وحكومة الانتداب، فسمح له الفرنسيون بالعودة إلى سورية، فأتيح له لقاء أبناء وطنه. وكان استقباله في ميناء بيروت صباحاً مشهوداً، إذ تقاطر إلى المرفأ وفود من أنحاء سورية كافة ومن لبنان

وفلسطين وغصت الشوارع القريبة من الميناء بالآلاف يرقصون ويهزجون. وأقيم له حفل تكريم شعبي بداره في صوفر تحول إلى مهرجان خطابي كبير. وجال في ربوع وطنه يلقي المحاضرات والخطب، وترأس لفترة قصيرة المجمع العلمي العربي في دمشق، وكان قد انتخب، وهو في منفاه رئيساً له، تقديراً لكثير عطائه وعظيم نضاله. لكن المقام لم يطل به في وطنه، بعد أن نكثت فرنسا بوعودها وتعهداتها، فغادر إلى مصر في طريقه إلى أوربا، وأرسل له رئيس الوزراء السوري حسن الحكيم كتاباً يطلب من العودة إلى دمشق ليتقلد منصبه في رياسة المجمع العلمي العربي، فأجابه بأنه لا يقبل العمل في حكومة سورية تقوم على أسنة الرماح الفرنسة، رافضاً أية وظيفة رسمية. واضطر للعودة إلى جنيف في فترة الحرب العالمية الثانية، حيث نسج شبكة علاقات واسعة مع السوريين في أمريكا اللاتينية، فراسلهم وكتب المقالات في مجلاتهم ووجه خطواتهم في عقد المؤتمرات وتشكيل الجمعيات، كما شارك في الخطوات السياسية للزعماء العرب المعادين لفرنسا وبريطانيا والساعين لاستقلال ووحدة البلاد العربية، وأبرزهم الحاج محمد أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني وعلال الفاسي ومصالي الحاج الزعيم الجزائري، وغيرهم في المشرق والمغرب على السواء.

❖ ❖ ❖

منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى قلما جاء وفد عربي إلى باريس أو لندن أو جنيف أو غيرها من العواصم ليطالب بحقوق العرب ولم يكن الأمير شكيب من أبرز أعضائه أو كبار مستشاريه، كما ندر أن عقد مؤتمر عربي عام وكان بعيداً عنه، لم يهتم شكيب أرسلان فقط بتحرير الشام ودول المشرق العربي الأخرى، إنما كان يؤمن إيماناً راسخاً أن المغرب العربي جزء لا يتجزأ من العالم العربي والإسلامي إذا تعرض قسم منه للاستعمار والتخلف صار واجباً على المسلمين أن ينقذوه قبل أن يغرق الكل في التخلف ويقع الجميع فريسة للاستعمار الغربي ولم تكن هذه الفكرة مجرد شعار عنده، بل ممارسة وتجسيداً على أرض الواقع فقد جعل قلمه وتجربته وسيلة لتوجيه الساسة والإصلاحيين المغاربة ومناصرة الحركات التحررية والوطنية المغاربية واتخذ من مكتبه بجنيف منبراً لتوعية الرأي العام الأوروبي بقضايا المسلمين والضغط على أصحاب القرار لوضع حد للمد الاستعماري في العالم

الإسلامي وتحرير أراضيه المحتلة. ولم تقم ثورة في قطر عربي إلا وكان المدافع عن القائمين بها ناشراً الدعوة لها وكاشفاً الستار عن أعمال المستعمرين. وقد توزع جهاده وتنقل بين دوائر ثلاث: شرقية وإسلامية وعربية، كان داعية للجامعة الشرقية بصفة عامة، لكي تقف هذه الجامعة أمام طغيان الغرب وعدوانه، ودعا إلى الجامعة الإسلامية بصفة خاصة، لكي تكون هذه الجامعة قوة إنسانية أخلاقية تبشر بين الناس بمبادئ الحق والعدل والمحبة، ودعا إلى الجامعة العربية بوجه أخص ليكون العرب أحراراً في بلادهم ومتحدين في وطنهم الكبير. وكان فرحاً بقيام الجامعة العربية واعتبرها الخطوة الأولى في سبيل الوحدة الكبرى.

❖ ❖ ❖

عاد شكيب أرسلان إلى بيروت في 30 تشرين أول 1946، كانت أمنيته أن يعود إلى وطنه ويراه حراً، وتحققت أمنيته أخيراً بلبنان وسورية بلدين مستقلين، والتقى بعائلته وأصدقائه وأنصاره، عاد مثقلاً بسبعة وسبعين عاماً، قضى أغلبها في التجوال والمنافي، قضاها منافحاً دون كلل عن الإسلام والعروبة، طارحاً قضايا الأمة العربية في المحافل الدولية، مؤرقاً بسؤال كان عنوان كتابه المشهور «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟».

في بلده لم تطل مقاومته لأمراض تراكمت عبر الزمن، فقد تحالف عليه مرض تصلب الشرايين والنقرس والرمل في الكليتين، ولفظ أنفاسه الأخيرة ليلة الاثنين في 9 كانون أول 1946. بعد أقل من أربعين يوماً على رجوعه.

قبل أيام من مفارقته الحياة قال: «إني مريض وأشعر بدنو أجلي، وأنا أحمد الله عز وجل الذي سهل لي أن أفارق الحياة على أرض هذا الوطن، بعد أن أتم الله نعمته عليه، فشهدته سيداً حراً عزيزاً. أنا سعيد أن ألاقي وجه ربي الكريم، فأعيد هذه الأمانة إلى بارئها، بعد أن تحققت أحلام طفولتي في هذه الجامعة العربية، حرسها الله وسأخبر رفاقي في الجهاد أن تضحياتهم لم تكن عبثاً».

كتبه وآثاره

المطبوعات والمنشورات:

باكورة «ديوان شعر» - الدرة اليتيمة «تحقيق وتعليق» - رواية آخر بني سراج «ترجمة» - المختار من رسائل الصابي «تحقيق وتعليق» - إلى العرب، بيان للأمة العربية عن حزب اللامركزية - أعمال الوفد السوري الفلسطيني - حاضر العالم الإسلامي «تعليقات» - أناتول فرانس في مباذله «ترجمة» - لائحتي إلى المسيو جوفينيل - مجلة الأمة العربية بالفرنسية - لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ - الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف - محاسن المساعي في مناقب الإمام أبى عمرو الأوزاعي «تحقيق وتعليق» - تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط - روض الشقيق في الجزل الرقيق «تحقيق وتعليق» - ديوان الأمير شكيب أرسلان - شوقي أو صداقة أربعين سنة - تاريخ ابن خلدون «تحقيق وتعليق» - الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية - السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة - الوحدة العربية - النهضة العربية في العصر الحاضر - عروة الاتحاد بين أهل الجهاد - رسالة البلاشفة، أو رسالة روسية - رسالة رحلة ألمانيا - رسالة عن ضرب الفرنسيين لدمشق - مقالات شكيب.

المخطوطات:

بيوتات العرب في لبنان - البيان عما شهدت بالعيان - تاريخ بلاد الجزائر - ما لم يرد في متون اللغة - حياة شكيب أرسلان بقلمه - بحث عن طرابلس وبرقة - الحلة السنية في الرحلة البوسنية - اختلاف العلم والدين «ترجمة» - مدنية العرب - الجيش المعبا من تاريخ أوربا - قضيتنا مع سمو الخديوي - تاريخ لبنان - إصلاح العامية - التعريف بمناقب سيدي أحمد الشريف (السنوسي).

عز الدين القسَّام

رجل المعادلات الصعبة!

(1871 . 1935)

منذ البداية اعتقد القسَّام بأن العرب إذا كانوا عرباً فلا سبيل لهم إلاّ السلاح؛ والثورة بمفهومه هي الثورة التي تأكل الأخضر واليابس؛ وأما رأيه في الأحزاب السياسية فهو أنها عبث وألاعيب إذا لم تكن قائمة على الإيمان الصحيح؛ وأمّا نظرته إلى المراكز والجاه فهي نظرة البغضاء المطلقة؛ وقد وصفه صديق له بالقول: «هذا الرجل كانت عنده النعم نعم، واللا لديه لا».

تضيء شهادة القسَّام الكثير من ملامح شخصيته التي يمكن تلخيصها: بالحزم والاستقامة والتواضع والجذرية على صعيد المواقف السياسية والنضالية والإنسانية التي كان يؤمن بصحتها مع كرهه الشديد لألاعيب السياسيين ومناوراتهم؛ لكن تلك الصفات الشخصية والمواقف السياسية والأخلاقية التي تدلل على رؤية القسَّام للقضايا السائدة آنذاك . على أهميتها . لا تعطي تفسيراً كافياً ومقنعاً لأسباب الإجماع الذي حظي به؛ وأضفى عليه بعداً طقوسياً، إذ ثمة زعماء فلسطينيون وعرب كثر ساهموا في النضال ضد الأطماع الاستعمارية البريطانية والفرنسية التي كانت تتعرض لها سورية الطبيعية آنذاك دون تمييز بين الحدود الجغرافية لأقاليمها.

❖ ❖ ❖

ولد عز الدين القسام في بلدة جبلة القريبة من اللاذقية على الساحل السوري سنة 1871؛ وكان منذ صغره يميل إلى العزلة والتفكير؛ وفي شبابه رحل إلى مصر ودرس في الأزهر؛ وكان من عداد تلاميذ الشيخ محمد عبده؛ وهذا الأمر يلقي ضوءاً على البعد التنويري المبكر في شخصية القسام الذي تأثر بالشيخ محمد عبده ودعاويه التحديثية التي شقت طريقها الفكري المستنير في مطلع القرن العشرين. عندما عاد القسام إلى سورية عمل مدرّساً في جامع السلطان

إبراهيم بجبلة؛ وفي سنة 1920 حينما اشتعلت الثورة السورية ضد الفرنسيين شارك فيها إلى جانب المجاهد صالح العلي؛ وحاولت السلطة العسكرية الفرنسية آنذاك شراءه بإكرامه وتوليته على القضاء؛ فرفض ذلك، فكان جزاؤه أن حكم عليه الديوان العرفي بالإعدام.

استطاع القسام الإفلات من السلطات العسكرية الفرنسية؛ واللجوء إلى مدينة حيفا في 5 شباط (فبراير) 1922؛ ولجأ معه من رفاق الجهاد الشيخ محمد الحنفي والشيخ علي الحاج عبيد؛ وفي هذا السياق يتحدث رشيد الحاج إبراهيم في مذكراته عن علاقته بالقسام بالقول: «كان القسام أقرب العلماء المسلمين إليّ في حيفا» ويضيف: «وعُيِّن أستاذاً للديانة الإسلامية في مدرسة البرج الإسلامية بحيفا؛ ثم إماماً وخطيباً لجامع الاستقلال، وذلك في أواخر العام 1925.... وكان مورد الشيخ عز الدين من عمله كإمام وخطيب لجامع الاستقلال لا يسد نفقاته؛ لذلك عين مأذوناً لعقود الأنكحة في قضاء حيفا».

من القضايا اللافتة التي يمكن أن تلقي بعض الضوء على بدايات الحركة القسامية؛ هي بدايات تشكيل جمعيات الشبان المسلمين التي مهدت الطريق لنشوء الحركة القسامية؛ فقد شهدت مصر في أواخر العشرينات حركة لتأسيس جمعية الشبان المسلمين على غرار جمعية الشبان المسيحية العالمية؛ وقاد هذه الحركة عبد الحميد سعيد زميل مصطفى كامل زعيم الحزب الوطني المصري؛ وزار عبد الحميد سعيد فلسطين مراراً داعياً إلى الاقتداء بحركته؛ وفعلاً لاقت الفكرة تجاوباً كبيراً، وعقد المؤتمر التأسيسي في نيسان (إبريل) 1928؛ وانتشرت فروع الجمعية في مدن البلاد الرئيسية؛ وأدى رشيد الحاج إبراهيم والقسام دوراً بارزاً في تأسيس فرع حيفا الذي ما لبث رشيد أن انتخب رئيساً له؛ وساهم الاثنان في تأسيس فروع للجمعية في القرى المحيطة بحيفا؛ وازداد الإقبال على الانتساب إلى الجمعية في أثر تصاعد الأطماع الصهيونية في البراق (حائط المبكى) الذي انفجر في ثورة 1929 التي عرفت بثورة البراق؛ ويجزم رشيد أنّ حركة الثورة القسامية انبثقت لاحقاً من جمعيات الشبان المسلمين؛ إذ وجد الشيخ عز الدين القسام في التوجيه الوطني الديني الذي تولته جمعيات الشبان المسلمين في البلاد ما ساعد على نشر مبادئه؛ وتنفيذ سياسته، فالتف حوله من أعضائها من الشباب من أنس

فيهم الغيرة والحمية؛ ويضيف رشيد: «وكانت أعمال الشيخ وتنظيماته سراً لا يطّلع عليه إلا المنضمون للحركة؛ وواصل الشيخ في الوقت نفسه خطبه النارية ضد المستعمرين من الإنكليز والسماسرة؛ ورغم كل ما كان يحيط بالشيخ عز الدين من عداوات؛ فقد كانت صداقتنا له والتصاقنا به يزدادان قوة ومتانة».

ظل رشيد رئيساً لجمعية الشبان المسلمين في حيفا حتى سنة 1932؛ وخلفه القسام الذي استمر في الرئاسة حتى استشهاده سنة 1935؛ وقد تعاون معهما في تنظيم فروع الجمعية تعاوناً وثيقاً معين الماضي وصبحي الخضراء لاسيما في تنظيم فروع للجمعية في الجليل؛ وعلى ضوء ذلك اتهمت السلطات البريطانية (الخضراء) بالتحريض على ثورة البراق؛ وفرضت عليه الإقامة الجبرية.

على ضوء ذلك يمكننا الاستنتاج أن هناك عملاً تحضيرياً دؤوباً قام به القسّام على مدار سنوات قبل انطلاق حركته الفعلية؛ وذلك على صعيد الدعاية والتعبئة والتحريض وبناء القواعد التنظيمية لعصبته السرية؛ وقد وجد حاضنة أساسية وبيئةً مناسبة لهذا العمل التمهيدي في جمعية الشبان المسلمين؛ إضافةً إلى موقعه كإمام لجامع الاستقلال في حيفا؛ مما أتاح له الوقت لاختيار واختبار عناصر عصبته قبل أن ينتقل إلى ممارسة العمل المسلّح؛ كذلك تبيّن شهادة الحاج إبراهيم أن هناك (من أقطاب الحركة الوطنية ورموزها) من كان على صداقة وتفاهم مع القسام؛ ولكن هناك أيضاً من كان على خلاف وعداوة معه؛ مما يعني أن ظروف العمل النضالي كانت تواجهها تعقيدات وصعوبات؛ بل وأفخاخ كثيرة غيرت من مسار الأحداث وحولتها في وجهة أخرى.

وبعد أن تغزو فرنسا سوريا من لبنان، وتدخل جيوشها دمشق بعد معركة ميسلون في تموز (يوليو) 1920؛ وتقضي على العهد الفيصلي، يلجأ الملك وأعوانه إلى فلسطين ماراً بحيفا في طريقه إلى أوروبا؛ وفي حيفا يلتقي عدداً من الشخصيات السياسية؛ ويجري الاتفاق على عقد مؤتمر سوري استثنائي في حيفا؛ لكن السلطات البريطانية تحول دون ذلك، فيستبدل المؤتمر السوري بمؤتمر فلسطيني يشجب اجتياح فرنسا لسورية؛ وفعلاً ينعقد المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث في كانون الأول (ديسمبر 1920)؛ وتتمثل فيه معظم زعامات البلاد في يافا والقدس ونابلس وحيفا؛ إضافة إلى زعماء وأقطاب الحركة الوطنية في سوريا

ولبنان...، ويلقى المؤتمر الدعم من الحاج أمين الحسيني؛ ويرسل المؤتمر برقية إلى عصبة الأمم يناشد دولها الوقوف دون عبث الحلفاء بالعهود التي قطعوها للعرب إشارة إلى اجتياح فرنسا لسورية؛ كما يرفع المؤتمر مذكرة إلى المندوب السامي البريطاني يطالب فيها بـ «المبادرة إلى تأليف حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي ينتخب أعضاءه الشعب المتكلم اللغة العربية القاطن في فلسطين حتى أول الحرب» إشارة إلى الاحتجاج على تدفق المهاجرين اليهود وفقاً لوعد بلفور.

مرةً أخرى يبيّن لنا انعقاد المؤتمر السوري في فلسطين بتسمية أخرى (المؤتمر العربي الفلسطيني) حجم الحراك السياسي الكبير الذي كان سائداً آنذاك؛ ومن ثم خيبة الأمل التي سيطرت على رموز وأقطاب الحركة السياسية الوطنية في سورية وفلسطين؛ وسورية الطبيعية عموماً من الاستعمارَيْن الفرنسي والبريطاني؛ والخوف من تنامي الهجرة الاستيطانية الصهيونية، وهذا ما خلق الإرهاصات الأولى لحركة تشكّل الجمعيات والأحزاب السياسية التي أفرزت الكثير من الشخصيات الوطنية التي ستلعب فيما بعد أدواراً مختلفة؛ لكن وعلى الرغم من كثرة هذه الشخصيات سوف تبرز شخصية القسام كشخصية متميزة؛ وهذا ما يبقي السؤال: (لماذا حظي القسام دون غيره من الزعامات على هذا الإجماع؟) سؤالاً مشروعاً لاسيّما وأن بعض الوثائق تذكر أنه حتى سنة 1935 (لحظة استشهاده) لم يكن سكان حيفا يعرفون عنه أكثر من أنه واعظ ديني؛ ومرشد؛ ورئيس لجمعية الشبان المسلمين في المدينة، إضافة إلى أنه شيخ محمود السيرة في تقواه وصدقه ووطنيته، كما كانت منطقة الشمال تعرفه إماماً وخطيباً بارعاً ومأذوناً شرعياً.

ولكن إذا كانت هذه هي حدود معرفة الناس به في حيفا فكيف إذن حظي بهذا الإجماع الذي تحدثنا عنه؟

وثمة سؤال آخر في غاية الأهمية يطرحه إلياس صنبر؛ وليس بإمكاننا القفز عنه: «هل طبيعة الإجماع الذي انعقد حول القسام خلال حياته في مجتمع معين، وفي مرحلة زمنية محددة، مطابق في طبيعته للإجماع الجاري التعبير عنه اليوم؟» بمعنى آخر: «هل إجماع الأمس مطابق لإجماع اليوم؟».

إذا عدنا إلى «مانشيتات» الصحف التي صدرت في اليوم الثاني لاستشهاد القسام مع بعض رفاقه في أحراش يَعبُدْ، وبيانات الأحزاب، ومن ثم الطريق الشعبية التي شُيّع بها مع رفاقه نجد أنها تباشر الإجابة على تلك الأسئلة كما يقول صنبر:

«إذ مع رحيله خرج القسام من نضاله السرّي إلى العلن، وإذا السؤال الذي حُرِّم طرحه لدى الجمهور العريض، يجوب فلسطين طولاً وعرضاً: من هو عز الدين القسام؟» هذا السؤال لا يعني أن الرجل لم يكن معروفاً، لأن نشاطاته العامة الكثيفة على مستوى فلسطين كانت معروفة لدى الناس الذين يتداولون أخباره، ويتابعونها عن كثب رغم جهلهم بالآليات التنظيمية الداخلية لحركته السرية؛ كذلك فإن تنوّع الجماعات والشخصيات التي حاولت الإجابة على السؤال تؤكد أن ذاك السؤال كان مسموعاً جيداً من قبل الناس «بدليل تنوّع مضمون كلمات التأبين والخطابات التي أُلقيت في إحياء الذكرى الأربعين للقسام التي لم تكن تتساءل عن هوية القسّام بل كانت تتساءل: لمن هو القسّام؟.»!

الجواب الذي يصل إليه صنبر هو: «أن فلسطين العام 1935 شهدت إجماعاً وطنياً؛ لا تتعرّف الناس فيه على ذاتها في شخص القسام بقدر ما تتعرف على ذاتها فيه وهي تتنازعه».

ولعل ممارسة القسام لمستويين من النضال: أحدهما علني كداعية إسلامي وخطيب جامع كانت خطاباته تحض الناس على الجهاد؛ وتلهب مشاعرهم الوطنية، بالإضافة إلى عمله السرّي الذي تُوّج في حسم خياراته السياسية، ومواقفه تجاه ضرورة النضال المسلّح، وإشعال الثورة في كل فلسطين ضد دولة الانتداب الاستعمارية (التي هي أصل البلاء ورأس الأفعى)، وضد عصابات الاستيطان الصهيونية في آنٍ معاً؛ هو الفعل الذي كان يستجيب على نحوٍ عميق للمزاج الشعبي المحتقن آنذاك.

لقد كان القسام في موقفه ذاك وفي ممارسته العملية له سبّاقاً لكل الأحزاب والقوى الفلسطينية الناشطة في حينه؛ إذ في خروجه من حيفا إلى القرى الفلسطينية وأحراش جنين مع نفرٍ من عصبته؛ وبدء عملياته المسلّحة، ومن ثم حصاره في أحراش يعبد التي شهدت معركة دامية، كان نتيجتها استشهاده مع

بعض رفاقه المحاصرين، هو ما أثار في مجتمعه آنذاك «الإجماع على تنازعه»، وهذا ما يؤكد أنه جرى اعتباره قدوةً، والأهم أنه يؤكد أن الرجل قد جسّد - في لحظة تاريخية معينة - طموحات مجتمع بأكمله دونما إغفال لتناقضاته الداخلية؛ فالإجماع الذي استدعاه القسام هو إجماع الوصل بين تطلعات جماعات متحالفة أحياناً؛ ولكنها غالباً ما تكون متعارضة، ومن هنا أهمية التمييز بين فكرة الإجماع هذه وبين فكرة الوحدة الوطنية؛ فهذه الأخيرة على الرغم من كونها ذات صلة حميمة بالإجماع من حيث المظهر، إلا أنها تنجم عن تجميع لشعب معين حول رؤية للعالم هي رؤية مكوّن واحد من مكونات ذاك الشعب.

إن فكرة الإجماع بهذا المعنى لا توازي القول: أن حركة القسام قد وحدت الفلسطينيين في مواجهة أعدائهم الصهاينة والبريطانيين؛ لأن هذه الوحدة كانت متحققة أصلاً حول هذا الهدف الذي يرمي إلى ضرورة التخلّص من الانتداب البريطاني؛ ومواجهة تهديد المشروع الصهيوني للأرض والهوية الوطنية؛ ومع ذلك جرى ويجري الكثير من الخلط في التاريخ الفلسطيني بين مفهوم الوحدة الوطنية ومفهوم الإجماع الذي أتينا على ذكره؛ ويصبح هذا الخلط أكثر تشوشاً حين تجري مثلاً مقارنات بين شخصية القسّام وشخصية المفتي الحاج أمين الحسيني بوصف الأخير قائداً عاماً للنضال الفلسطيني في تلك الفترة؛ إذ تؤكد كافة الوقائع التاريخية أن شعوراً حاداً بالانتماء الوطني وبحقهم في وطنهم كان يستحوذ على الفلسطينيين مطلع القرن العشرين؛ وقد وصل هذا الشعور بالحق والوحدة الوطنية من حوله إلى ذروته في ظل قيادة الحاج أمين الحسيني. إذن ما الذي فعله القسام حتى ينعقد الإجماع من حوله بحيث باتت الجماعات والأحزاب والقوى السياسية الفاعلة في المجتمع الفلسطيني آنذاك تتخاطفه؛ وتتنازع على انتسابه إليها، فيما يعلن أحفاده اليوم تماهيهم مع حركته؟!.

قبل محاولة الإجابة على السؤال السابق لابدّ أن نلقي الضوء على طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين القسام والجماعات والأحزاب السياسية الناشطة في المجتمع الفلسطيني آنذاك؛ ليس من أجل استحضار الوقائع التاريخية كما كانت عليه؛ وإنما من أجل التدقيق في طبيعة الأطروحات والتوجهات الفكرية والسياسية التي كانت تتحكم بحركة تلك القوى والأحزاب؛ والظروف التاريخية المحيطة بعملها،

والعناصر الموحّدة أو النابذة للحالة المجتمعية ونبض الشارع الشعبي وصولاً إلى تحديد طبيعة اللحظة التاريخية المكثفة والنادرة التي تجعل من تلك اللحظة إمكانية قابلة لتحقيق الإجماع حول رؤية واحدة؛ وبرنامج واحد، يحملها ممثلو فئة اجتماعية واحدة رغم الاحتفاظ بعناصر الاختلاف القائمة في قلب ذاك المجتمع.

❖ ❖ ❖

يمكن أن نقارب بدقة أكثر فكرة (الإجماع) التي حظي بها القسام؛ إذا ما علمنا أن معظم الأحزاب والجماعات السياسية في فلسطين ظلت تعيش حالة من النوسان وعدم حسم أولوياتها نتيجة وضع موضوعي مزدوج وبالغ الخصوصية؛ يتكون من الشعور بالتهديد (تهديد الهوية والثقافة والأرض) من قبل قوتين عدوتين كولونياليتين متحالفتين هما: الاستعمار البريطاني والمستوطنين الصهاينة؛ ورغم أن مشروعهما هو مشروع شامل للسيطرة؛ إلاّ أنه يحوي مشروعين اثنين متمايزين. هذا الأمر خلق صعوبات هائلة أمام القيادة الوطنية الفلسطينية التي كانت مضطرة إلى ممارسة سياسات تكتيكية معقدة؛ توزع من خلالها جهودها على عدو مشترك واحد وموحد ومتعدّد في آن. وفي إطار الحسابات التكتيكية كانت تلك القوى والأحزاب تختلف فيما بينها حول الأساليب النضالية التي يجب اتباعها؛ وذلك حسب درجة الخطر الذي يشكلّه كلٌ من العدوين. أمام هذا المأزق كانت التيارات الوطنية الفلسطينية مضطرة إلى إيجاد أرض تفاوضية مع الاستعمار البريطاني؛ على أمل التخلّص من العدو الآخر الأكثر خطراً المتمثل بتنامي الهجرة اليهودية تمهيداً لإقامة وطن قومي لهم في فلسطين؛ لذلك انصبت جهود الحركة الوطنية الفلسطينية على النضال؛ لوقف حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والضغط على الحكومة البريطانية والمندوب السامي البريطاني؛ للتعامل بجدّية مع المطالب الفلسطينية المشروعة التي تعاملت معها بريطانيا بالتسويف والمماطلة والتمييع؛ وكمثال على ذلك نقضها للكتاب الأبيض قبل أن يجف حبره؛ واستبدالها المندوب السامي البريطاني بآخر أشد عداءً للفلسطينيين؛ وأكثر تعاطفاً مع المستوطنين الصهاينة، فعلى إثر ثورة البراق بدا لفترة وجيزة أن بريطانيا تتردد بعض الشيء في تنفيذ سياسة الوطن القومي اليهودي؛ وفعلاً أصدرت في تشرين الأول (أكتوبر) 1930 «كتاباً أبيض» يعكس هذا التردد؛ وذلك في

أعقاب تقارير للجان كانت أوفدتها إلى البلاد للتحقيق في أسباب ثورة البراق؛ فقامت قيامة الصهيونية في لندن بقيادة الزعيم الصهيوني المخضرم حاييم وايزمن ولم تقعد؛ فما كان من رئيس الوزراء رمزي مكدونالد، إلا أن أرسل في شباط (فبراير) 1931 رسالة إلى وايزمن تنسخ نسخاً ما ورد في كتابه الأبيض؛ فسارع العرب في فلسطين إلى إطلاق تسمية (الكتاب الأسود) عليها.

وأردفت بريطانيا هذا الفعل بتعيين مندوب سامي جديد هو الجنرال السير آرثر واكهوب المفتون بالصهيونية؛ وزودته بتعليمات لتسريع وتيرة بناء الوطن القومي؛ لم تلبث أن تجلت في فتح أبواب فلسطين أمام المهاجرين اليهود، حيث قفز عدد المهاجرين السنوي من 4075 سنة 1931، إلى 9553 سنة 1932، وإلى 30.327 سنة 1933، وإلى 42.359 سنة 1934، وإلى 61.854 سنة 1935، ونتج من هذا الازدياد الهائل أن تضاعف مجمل عدد يهود فلسطين ما بين سنة 1930 وسنة 1935 من 164.796 يهودياً إلى 355.157 يهودياً، ورافق هذه التحولات الديمغرافية لليهود تثبيت الوجود البريطاني من خلال تنمية البنية التحتية (توسيع مرفأ حيفا لاستقبال السفن الضخمة، ومد خط أنبوب شركة نفط العراق «IPC» الإنكليزية الذي بدأ الضخ فيه سنة 1934).

هذا النوسان والتدقيق بين أي من العدوين هو أكثر خطراً الذي عاشت مأزقه القيادات الوطنية الفلسطينية وأحزابها؛ لم يكن يقابله نفس النوسان على مستوى القاعدة الشعبية الفلسطينية التي كانت ترى في العدوين عدواً واحداً بنفس المستوى من الخطورة؛ بل إن هذه القاعدة الشعبية لم تكن مشغولة بهذا التمييز الذي جعل قياداتها مترددة في توزيع قواها بين هذا العدو وذاك.

السؤال الهام الذي يطرحه صنبر أيضاً في هذا السياق: «هل كانت توجد رؤية أخرى قادرة على أن تصالح بين ما كان يقال في فلسطين وبين ما كان يُرى فيها؟ أليس منهاج الإجماع هو تحديداً المنهاج القادر على السيطرة على (النظرة المزدوجة)؛ وتمكين الذين يمارسونها من أن يبلوروا ممارسة مميزة تلائم الحالة غير النموذجية التي يمثلها الثنائي: استعمار بريطاني حركة صهيونية ؟ فلو أن القسّام كان في وضع آخر أقل خروجاً عن المألوف؛ أما كان تحوّل إلى مجرد قائد وطني شبيه بسواه من القادة الوطنيين؟

هنا تكمن استثنائية القسام في التقاطه لتلك اللحظة؛ وذلك من خلال حركيته الدائبة بين العمل العلني والتنظيم السري، بين انفتاحه على كل القوى السياسية والحوار معها وبين انتقائه الصارم والدقيق لأعضاء عصبته السرية؛ بين ممارسته للعمل السياسي والدعاوي وبين تفهمه لنبض الشارع؛ بل الأهم من كل ذلك ريادته في ردم الفجوة بين المزاج الشعبي والقيادات المترددة؛ حيث جسدت مبادراته المبكرّة للعمل المسلّح ضد الاستعمار البريطاني والمستوطنين الصهاينة على حد سواء تلك السيطرة على (النظرة المزدوجة) التي خلقت الإجماع من حولها؛ وربما أيضاً ليس من قبيل التفصيل العرضي أن يختار القسام معظم قيادات عصبته من الفلاحين الفقراء؛ وعمال التراحيل في حيفا، والمهمشين المستعدين للتضحية بأرواحهم؛ وبذلك خرج عن مألوف العمل السياسي ونمطيته دون أن يقطع مع رجالات السياسة والمثقفين؛ فكل الوثائق تؤكد أنه كان على علاقة مع الحاج أمين الحسيني؛ لكنه لم ينضوِ تحت إمرته، وتؤكد أيضاً أنه كان على علاقة مع حزب الاستقلال دون أن ينتمي إلى صفوفه؛ ولعل هذه العلاقات الملتبسة هي ما جعلت كل فريق يدعي فيما بعد أن القسّام ينتمي إلى صفوفه؛ لكنها من جهة أخرى تفسر سبب جذرية القسام وانسجام قاعدته مع قيادته؛ وبهذا المعنى كان الرجل يؤسس لمشروع سياسي نضالي بعيد المدى.

إن أول من ادعى عضوية القسام في حزب الاستقلال هما حمدي الحسيني وهاشم السبع اللذان كتبا مقالاً في الجامعة الإسلامية بعد استشهاد القسام يرثيانه فيه؛ يقولان: إنه كان رئيساً لجمعية الشبان المسلمين بحيفا، وإماماً لجامعها، وعضواً في فرع حزب الاستقلال فيها.

وذكر عزة دروزة في كتابه (القضية الفلسطينية في مراحلها المختلفة) أنه كان عضواً في حزب الاستقلال، وتبنى الدكتور عبد الوهاب الكيالي هذا القول في كتابه (تاريخ فلسطين الحديث) بيد أن (عجاج نويهض) قد نفى عضوية القسام في الحزب في كتابه (رجال من فلسطين)، وقال إن القسام لم يكن تابعاً لأي حزب أو جماعة، وأنه كان يعمل بشكل مستقل تماماً، ويتضح هذا الأمر على نحو أكثر دقة في (يوميات أكرم زعيتر) فيما يتعلق بعلاقة القساميين بالاستقلاليين؛ إذ يقول: إن أتباع الشيخ القسام عملوا خلال الثورة على أنهم طرف مستقل؛ لم

تربطهم علاقات سابقة بأي حزب فلسطيني؛ كما أن أطروحة الحزب القومية وقربه منها أكثر من وجود الصبغة الدينية فيه؛ يجعل من الصعب التسليم بانتماء القسام للحزب، ويرى أن الالتباس ربما جرى بانتمائه للاستقلال بسبب علاقته القوية برشيد الحاج إبراهيم وبالشيخ كامل القصاب (سوري) وصبحي الخضراء.

من المفيد هنا الإشارة إلى أن أطروحات حزب الاستقلال، إذا ما نظرنا إليها نظرة تحليلية، فسوف نستنتج أن القسام لا يتقاطع معها تقاطعاً كاملاً تدفعه إلى الانتماء إلى صفوف الحزب؛ إذ رغم أن حزب الاستقلال رأى ضرَورة إعلان المعاداة للبريطانيين والنضال ضدهم، إلا أنه لم يمارس أي نضال فعلي، باستثناء المهرجانات والمؤتمرات الوطنية الخطابية التي كانت مظهراً احتجاجياً فقط على الانتداب والصهيونية؛ بالإضافة إلى المقالات التحريضية التي نشرت على صفحات جريدة العرب بأقلام زعماء الحزب؛ وبإدارة أحد المؤسسين (عجاج نويهض)، ومن ثمّ إذا لم يكن للحزب أي برنامج عسكري ضد الإنجليز؛ يمكن أن نستنتج ببساطة أن من الصعب أن يكون القسام (الذي ينظر إلى الأمور من زاوية أكثر جذرية) على تقاطع مع هذا الحزب، أو ملتزماً ببرنامجه وخطته وقانونه؟

أما علاقة القسام بالحاج أمين الحسيني والحزب العربي فهي علاقة قديمة؛ إذ كان القسّام أحد الموقعين على العريضة التي رُفعت إلى المندوب السامي البريطاني من أجل تعيين الحاج أمين مفتياً للقدس في الفترة التي كان التنافس فيها على هذا المنصب على أشده بين عائلتي الحسني والنشاشيبي؛ وقد عززت تلبية الحاج أمين دعوة مدرسة البرج الإسلامية (التي كان القسام أحد أساتذتها) لحضور حفلتها السنوية العلاقة بين الرجلين.

وخلال فترة تولي الحاج أمين لمنصب الإفتاء ورئاسة المجلس الإسلامي الأعلى كانت تحصل بالطبع لقاءات ونقاشات دائمة بين الرجلين؛ فمن جهة - (وهذا ما تؤكده وثائق المخابرات البريطانية) - كان القسام يحرص على الإفادة من كافة الزعامات والعناصر النشيطة؛ لدعم الجهاد ضد الأعداء، أما من جهة الحاج أمين فقد كان يرى أنه زعيم البلاد؛ وممثّلٌ لعلمائها وقياداتها، ومن ثم لابد له من إقامة الجسور بينه وبينهم، وتأتي علاقته بالقسام في هذا السياق لكن أن يكون

القسام على علاقة شخصية جيدة مع الحاج أمين شيء؛ وأن يكون على علاقة حزبية معه شيء آخر تماماً.

تقول رواية إميل الغوري بأن الحاج أمين الحسيني كان متعاوناً ومتفاهماً ومتفقاً مع القسام على بدء تنظيم حركته؛ وأنه أمدّه بالمال باستمرار عن طريق الشيخ كامل القصاب تسهيلاً لمهمته؛ ولم يقدم القسام على ثورته عام 1935 إلا بعد الاتفاق والتفاهم مع الحاج أمين، وحسب الغوري أيضاً فإن الحاج أمين قطع شوطاً في الإعداد للثورة والتهيئة لها قبل أن يتم الاتفاق بينه وبين الشيخ القسام على تأسيس حركة سرّية.

وزعم الغوري أن المفتي قال لأعضاء التنظيم السري الذي تأسس في القدس برئاسة عبد القادر الحسيني أثناء اجتماعه بهم في 1935/7/25: «إن الوقت قد حان للاصطدام المباشر مع البريطانيين». وأوضح أنه المسؤول عن كل الأعمال الفدائية التي حصلت ما بين 1931 ـ 1935، (بما فيها عمليات القساميين في الشمال)؛ وأنه قد أسس عصابات في صفد، وحيفا، والناصرة، وبيسان، وكانت هي المنفذة للعمليات ضد الإنجليز واليهود في تلك الفترة، ثم ذكر الغوري أن القسام انضم للحزب العربي بعد تأسيسه.

هناك الكثير من المغالطات في ادعاءات الغوري السابقة التي لم تدعمها أي من الوثائق التاريخية؛ باستثناء نشرة فلسطين التي كانت تصدرها الهيئة العربية العليا التي كان الحاج أمين رئيسها؛ والغوري مسؤولاً فيها ومحرراً في نشرتها؛ وما جاء في النشرة هو رد على كتاب صبحي ياسين (الثورة العربية الكبرى في فلسطين)؛ حيث ذكر المؤلف: «أن القسام أرسل عام 1935 أحد إخوانه (محمود سالم) إلى الحاج أمين؛ ليعلمه عن عزمه القيام بثورة في فلسطين. وتم الاتصال بواسطة الشيخ (موسى العزراوي) أحد أعوان المفتي؛ وأعلمه عن رغبة القسام في أن يشرع الحاج أمين في الإعداد للثورة في جنوب فلسطين حيث يعد هو العدة في شمالها. فأجاب الحاج أمين بواسطة «العزراوي» أن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل؛ وأن الجهود السياسية التي تبذل تكفي لحصول عرب فلسطين على حقوقهم».

ويمكن الاستنتاج بأنه لا شك بوجود علاقة جيدة إلى حد ما بين الرجلين؛ ولاشك أن المفتي قدم مساعدات للقسام وحركته؛ لكنها لم تصل إلى حدود الاتفاق

على بدء العمل المسلح؛ ولابد من الإشارة إلى أن القسام قد وجه انتقادات للمجلس الإسلامي الأعلى بسبب إنشاء فندق للأوقاف؛ وصرفه الأموال في تزيين المساجد، لأنه كان يجد أن إعداد الشعب للجهاد وتسليحه لخوض المعركة أفضل من الاهتمام بالمسائل الشكلية؛ ومن المفيد كذلك الإشارة إلى الاختلاف في زاوية النظر بين الرجلين تجاه الكثير من المواقف الحساسة.. وكمثال على ذلك أن ردة فعل الحاج أمين وبقية الأحزاب المؤتلفة لم تكن مشابهة لردة فعل القسام حيال اكتشاف حادث تهريب الأسلحة في ميناء يافا للمستوطنين الصهاينة بالتواطؤ مع البريطانيين؛ ففيما قرر القسام إعلان الثورة، اكتفت الأحزاب بالاجتمَاع مع المندوب السامي، والطلب إليه السماح بالإضراب العام، وعندما لم يوافق المندوب على الإضراب، وقرر بعض أعضاء حزب الاستقلال الذي كان خارج الائتلاف تنظيم إضراب عام في فلسطين؛ عارضت الأحزاب هذا ولم تؤيده.

إن ذكر هذه الحقائق التاريخية لا تعني التقليل من شأن المفتي الحاج أمين الذي كان خاضعاً بحكم زعامته الدينية والسياسية لاعتبارات وحسابات وتوازنات سياسية معقدة، جعلته يرفض تبنّي مبادرة القسام في حينها (لأن الوقت لم يحن برأيه بعد لمثل هذا العمل)، بينما كان القسام في تلك اللحظة يلتقط نبض المزاج الشعبي، ويعبر عن تطلعاته.

❖ ❖ ❖

إن المقاربات التي اعتمدها المؤرخون لشخصية القسام جعلته حبيس نظرتين كلاهما مبتسرة وجزئية وغير وافية.

النظرة الأولى هي: نظرة المؤرخين الإسرائيليين التي تتبنّى الرؤية البريطانية المبنية على تقارير الاستخبارات، وهي تصنّف القسام في عداد «قطاع الطرق» وتصفه بـ «زعيم العصابة»، والديني المتزمت ذي الأخلاق المشبوهة الذي يأخذه الفلسطينيون قدوةً لهم».

ليس من المهم أن نتوقف عند وجهة النظر المزوّرة تلك؛ إذ من الطبيعي أن يشوّه المؤرخون الإسرائيليون الحقائق التاريخية؛ ولو كانت مثبتة، وذلك في سياق الدفاع عن دولتهم الاستيطانية، ومحاولة إضفاء صفة الشرعية عليها، وذلك عبر نفي المطالب المشروعة للفلسطينيين في وطنهم، والنيل من رموزهم، وفي هذا

الإطار تأتي روايتهم المزوّرة عن القسّام التي ردّ عليها في حينه أكرم زعيتر وغيره من الكتّاب والمناضلين الفلسطينيين الرد الكافي.

أما النظرة الثانية التي يتوجب الوقوف عندها، فهي نظرة المؤلفين العرب والفلسطينيين التي ركزّت بالدرجة الأولى على شخصية القسّام وخصاله الحميدة ومناقبه؛ وعلى الرغم من أهمية هذه المسألة إلاّ أنها لا تفي التحليل حقه؛ ولا تلقي الضوء بشكل معمّق على الحركة القسامية، والظروف المعقدة التي نشأت في غمارها، ومن ثم لا ترصد مدى تأثيراتها البالغة على الحركة الوطنية الفلسطينية؛ سواء خلال فترة الانتداب البريطاني، أو فيما بعد على التنظيمات السياسية والعسكرية التي تأسست بعد النكبة؛ إذ ليس من باب المصادفة أن يجري كل هذا التشوش بين مفاتيح قراءة الحركة القسامية مع الأسباب الراهنة لشعبيتها؛ كما يقول إلياس صنبر: «إذ رغم توافر مادة تاريخية ضخمة عن تلك الفترة، فإن الحوليات وشهادات العديد من الشهود الذين عايشوا القسّام ومذكرات رجال القسام؛ إضافة إلى صحافة تلك الفترة، وإلى تقارير الشرطة وأجهزة الاستخبارات، وإلى الوثائق الخاصة لبعض موظفي الإدارة الاستعمارية في فلسطين.. الخ. كل هذه المسائل تشكّل مادة أولية لم يُحسن استغلالها بالشكل الكافي إلى الآن؛ وقليلاً ما حظيت بالتفاتة في أعمال المؤلفين».

هذه المعطيات تعيدنا مرة أخرى إلى طرح السؤال: «طالما أنّ المادة التاريخية متوفرة، لماذا لم تُقرأ تجربة القسام والحركة القسامية قراءة أعمق تتجاوز مسألة التركيز على شخصيته (رغم استثنائية هذه الشخصية وخصالها الفريدة) مع الأخذ بعين الاعتبار السياق الزمني، وتشابك الظروف الموضوعية والتاريخية لبنية مجتمعية محددة أنتجت مناخاً ملائماً لهذا الإجماع الذي حاز عليه القسام في لحظة تاريخية مكثفة هي لحظة استشهاده؟!.

تقول الفرضية التي يقترحها صنبر جواباً على هذه التساؤلات: «إن القسام كان يتجول في فلسطين في نقطة تقاطع علاقات القوى الداخلية بين القيادة الوطنية الفلسطينية وبين قاعدتها الشعبية الواسعة؛ وهذا ما يضفي معنىً خاصاً كل الخصوصية على صفته التمثيلية، فهو ليس مندوب فئة اجتماعية معينة، ولا الناطق بلسانها، بقدر ما كان صاحب ممارسة تتقاطع عندها وفيها التطلعات.

وبهذا الشكل كان القسام يقدّم نفسه لا لحقبة تاريخية ملائمة وحسب: وإنما كان يقدم نفسه أيضاً لمجتمع يعيش هو نفسه في حقبة خاصة؛ وهو ـ القسام ـ لن يجسّد مطالب مجتمع بأسره، بقدر ما سوف يجسّد الطريقة التي يفكر بها ذاك المجتمع؛ ويصوغ خلاصة فهمه لـ «السياسي»، وهذا هو مصدر تمايز القسام، وهو السبب الذي سوف يمكنه من أن يعبر عن كل امتحانات القوة بين استعمار معين وشعب معين؛ دون أن يتغافل للحظة واحدة عن التنوع الداخلي لذاك الشعب ولا عن تعقيداته الداخلية.

وما الإجماع حول القسام إلا التعبير عن الحاجة الحيوية إلى الاستقلال وإلى غد أفضل من غيرما تجاهل لخصوصيات الفئات الاجتماعية.

لقد كانت الحالة القسامية لحظة خاطفة، وحالة توقف، حالة تكثف للزمن التاريخي، تُمهد السبيل أمام انطلاقة دينامية جديدة. وفي فلسطين كانت تلك الدينامية الجديدة هي ثورتها خلال الأعوام 1936 ـ 1939، وما سمح للقسام بأن يلعب هذا الدور ـ المثال دون سواه من القادة أنه كان رجل الخارج؛ أي لا ينتمي إلى أي عشيرة أو فئة اجتماعية محددة في نظر الفلسطينيين؛ ومن ثمّ فهو لا يعبر عن المصالح الفئوية الضيقة لهذه العشيرة أو تلك في الحالة المجتمعية الفلسطينية آنذاك؛ وهو غير محكوم بالعلاقات المعقدة الناظمة لمصالح العشائر والجماعات والعوامل الناظمة لتحالفاتها؛ لكنه في الوقت نفسه كان رجل (الداخل) أيضاً.

على هذا النحو يمكن القول: أن الصفات الشخصية للقسام وتاريخه الفردي البالغ الخصوصية، كان يتفاعل مع مجموعة ظروف في الوضع الفلسطيني، هي أيضاً شديدة التعقيد، وبالغة الخصوصية، فهو قائد فلسطيني يطالب بشعار: «فلسطين للفلسطينيين»، لكنه سوري الأصل؛ أي جسّد في شخصيته البعد النضالي القومي العربي الذي يتجاوز النزعات القطرية والإقليمية الضيقة؛ وهو رجل دين تقليدي بالتأكيد، لكنه في الوقت نفسه تلميذ للشيخ محمد عبده المصلح التحديثي المصري الكبير. صاحب وجاهة في مراتب السلطة الدينية، لكنه تجاوز قواعد تلك السلطة بتوجهه إلى الفئات المهمشة والمحرومة في القاع الشعبي الفلسطيني الأكثر فقراً؛ ليجعل منهم المراكز القيادية الأساسية في تنظيمه.

لقد جسدت الملامح المهيبة للشيخ الشاب القادم من بلدة صغيرة في شمال سورية تلك الحالة الاستثنائية البالغة الخصوصية التي عرفتها فلسطين في منتصف ثلاثينات القرن الماضي؛ وهذا ما جعله يحتل تلك المكانة المتميزة في الذاكرة الفلسطينية والسورية على حدٍ سواء؛ كذلك فإن الحالة النادرة التي مثّلها القسام، وما تثيره من تساؤلات جدّية، تدفع إلى ضرورة التفكير بإعادة النظرة المنهجية تجاه قراءة تجربته؛ وتجاه قراءة الكثير من المفاصل الهامة في تاريخنا.

❖ ❖ ❖

ثمة مسألة أخرى حساسة تتعلق برواية استشهاد القسام، ينبغي التوقف عندها؛ لأنها أثارت وما تزال تثير الكثير من الأسئلة حول قراءة فعل الاستشهاد والشهادة؛ وفي أي سياق جاء استشهاد القسام كقائد وطني تحول إلى رمز وأسطورة؛ إذ على ضوء هذا الفعل ترتب قضايا عملية، وُظّفت بشكل أو بآخر في مسار الكفاح الفلسطيني والعربي المسلح فيما مضى وراهناً؛ وفقاً لطبيعة تأويل رواية استشهاد القسام، ومن أي زاوية قُرئت.

يمكن أن نعثر في مجرى التدقيق والتمحيص على أكثر من زاوية حول استشهاده تم تداولها في حينه؛ كذلك يمكن أن نعثر على أكثر من تأويل لهذه الرواية؛ ولكن ينبغي قبل التسليم بصحة هذه الرواية أو تلك أن نخضعها لمنهجية تحليلية لا تحكم على الرواية على ضوء نتائجها (المابعدية) فحسب؛ وإنما علينا التدقيق في الظروف والحيثيات والمقدمات التي وُلدت فيها حركة القسام وصولاً إلى لحظة استشهاده؛ أي علينا أن نحكم على رواية استشهاده في سياق مناخات وظروف الحركة القسامية والحركة الوطنية عموماً؛ وظروف الصراعات التي كانت تعصف بالمنطقة العربية ككل آنذاك؛ وليس خارج هذه السياقات أو بمعزل عنها، حتى نخلص إلى استنتاجات هي أقرب ما تكون إلى الصواب.

إن المفكر الفلسطيني إلياس صنبر هو أفضل من قدم مقاربة تحمل رؤية تحليلية عميقة ومتكاملة حول هذه المسألة، ألقت الضوء على تفاصيل في غاية الأهمية، غالباً ما يستبعدها المؤرخون لأسباب عديدة، منها قصور التحليل عند البعض، ومنها الاستغراق في سرد الأحداث التاريخية دون التدقيق في خلفياتها عند البعض الآخر؛ ومنها تحميل الحدث دلالات لا يحتملها.

يقول صنبر: «ثمة روايتان ممكنتان للحدث، نبدأ من الرواية المستحوذة على أذهان الفلسطينيين، والتي ظهرت في فلسطين ذاتها بعيد موت القسام، ولم تظهر بعد تقادم الزمن على الحدث.

يمكن صياغة الأمر على النحو الآتي: بعد عدة سنوات من النشاط والنضال وبناء الشبكات السرية والأعمال الرائعة لصالح المحرومين البائسين؛ ارتأى عز الدين القسام أنه قد بات يتعين عليه - إزاء الخطر المتنامي الزاحف على فلسطين - أن يكون قدوة للأمة بأسرها؛ فقرر الخروج من السرية، وإعلان الشهادة على الملأ، فغادر منزله بحيفا، وسلك درب الكفاح المسلح مع قبضة من رجاله في منطقة جنين الجبلية.

هناك أخذ يغير على القوات الاستعمارية، إلى أن سقط برصاص البريطانيين، وسلاحه في يده؛ ليعلن الشهادة التي كانت حياته كلها تمهيداً لها.

تستدعي هذه الرواية ملاحظات عدة، أولها: أن فكرة الرجل الذي يقرر افتتاح نشاطه ببذل التضحية الأسمى والشهادة أمام شعبه إنما تعبر عن منظومة من المعطيات الأيديولوجية والممارسات التاريخية القديمة المعتبرة أنموذجية؛ والتي يمكن تسميتها بتوحد الشهادة عند العرب، لكن ليس هذا كل ما في الأمر. فانطلاقاً من المآل الذي انتهى إليه نشاط القسام؛ أي شهادته، سوف تُنسج الروايات صورةً لتلك الشهادة، بحيث تصير أشبه بخاتمة شبه مبرمجة، وبنهاية جرى اختيارها سلفاً لحياة الرجل بأسرها، والذي تؤكده الرواية بشكل سافر هو الآتي: إذا كان القسام قد سقط على النحو الذي سقط عليه؛ وإذا كان قد استفزّ على رأس قبضة من رفاقه المناضلين قوات تفوقهم عدداً وعدّة؛ فإنه اختار مواجهة الخطر الداهم بواسطة الشهادة؛ وبناءً عليه يبدو كل ما سبق فعل الاستشهاد مختلطاً أيما اختلاط بمسار التحضير لتلك الشهادة.

على الرغم من سموّ فكرة الشهادة وفكرة أن يضحي رجل بنفسه في سبيل وطنه، فإن كل حيثيات الحياة النضالية الزاخرة للقسام وحركته لا تؤكد أن الرجل ذهب إلى ما ذهب إليه؛ لكي يصل إلى هذه النتيجة بشكل مبرمج مسبقاً؛ وإلا لماذا انشغل طوال سنوات بالتحضير لبناء القواعد السرية لعصبته؟ ولماذا انشغل بتدريب الرجال وتعبئتهم، والبحث عن المال والسلاح تمهيداً لانطلاقة حركته

المسلحة؟! إذ طالما أن الرجل هو صاحب مشروع نضالي بعيد المدى؛ فليس من المعقول أن يذهب إلى ما ذهب إليه بإرادة مخططة مسبقاً؛ لاسيما وأن الوقائع التاريخية تنفي ذلك، وإلا فكيف يمكننا أن نعطي أي معنى لممارسته السياسة على امتداد حياته بأسرها؟!

وكذلك كيف لنا أن نفسر أنه، أثناء الثورة ضد الانتداب الفرنسي في العشرينات في وطنه الأصلي سورية إلى جانب الشيخ صالح العلي؛ قرّر حين انكشف أمره، وصدر بحقه الحكم بالإعدام، أن يلجأ إلى فلسطين من أجل استئناف النضال، بدلاً من أن يقرر الاستشهاد والشهادة أمام الشعب السوري. وأخيراً ليس بالإمكان التغاضي عن رواية الاستخبارات البريطانية، والسلطات العسكرية البريطانية للحدث التي أعطت - ولو بصورة غير مباشرة - معلومة (تقنية) لكنها مفيدة جداً في استجلاء طبيعة ما حدث، إذ تقول: «إن القسام كان مطوقاً من قبل القوات الاستعمارية، وأنه سقط وهو يقاتل لفك الطوق».

يقول صنبر: «بهذا المعنى تنقلب كافة الأمور، فإذا المآل الذي آل إليه نشاط القسام وحياته ذاتها يمسي قابلاً للإدراك، ومتحداً مع كل ما سبق، وإذا العناصر المتفرقة للرواية التاريخية تحتل مواقعها المناسبة، وتتمفصل فيما بينها بتناغم».

على ضوء ذلك يمكن أن نجزم أن الهدف الأساسي والبعيد الذي كان القسام يعمل على تحقيقه هو إشعال نيران الكفاح المسلح في فلسطين كلها؛ لأنه كان يريد خوض النضال الشامل حتى تحقيق النصر.

إن استشهاد القسام في تلك اللحظة لا ينتقص بشيء من بطولته؛ بل على العكس يزيدها توهجاً، لكنه شكّل بالتأكيد خسارة فادحة للحركة القسامية خصوصاً، وللحركة الوطنية الفلسطينية على وجه العموم، لأنه كسر السياق الذي كانت تتنامى في مناخاته حركته؛ ولو قُيّض له الاستمرار في الحياة على رأس تلك الحركة، لربما تغير الكثير من مسار تلك الحركة وتحولاتها، إذ على الرغم من أن رفاقه تابعوا النضال فيما بعد على إثر اندلاع ثورة 1936 - 1939؛ وكانوا بين أغلبية قادة الكفاح المسلح الذي اشتعل في فلسطين من أقصاها إلى أقصاها، فإنهم لم يستطيعوا التعويض - على مستوى الممارسة الاجتماعية والسياسية - عن الفراغ الذي تركه رحيل القسام على إثر الضربة القاسمة التي تعرضت لها حركته

بشكل مبكر؛ لقد كان هذا الأمر أكبر من أن يعوض، ففي الوقت الذي تحول فيه القسام بعد استشهاده إلى شخصية أسطورية كان هذا التحول إيذاناً بتفكيك عصبته وأفول مرحلة؛ وبداية لانفتاح الباب أمام مسار مرحلة جديدة مختلفة كلياً؛ هذا لم يمنع أن ينخرط رجاله وأنصاره المؤمنون برسالته في الحركة العامة؛ حيث جرى استيعابهم «في نظرة أخرى للأمور، وبنية سلطوية أخرى، وفكرة أخرى للتناصر داخل المجتمع، ترتبط كلها بقيادة من الوجهاء، تمارس نظرتها الخاصة لطبيعة العدو وكيفية محاربته».

لقد انضوى رجال القسام بين استشهاده في إطار الوحدة الوطنية التي تبلورت بصيغ تحالفية جمعت الكثير من القوى والتيارات والمجموعات المختلفة والمتناقضة في المجتمع الفلسطيني؛ وذلك بقيادة الحاج أمين الحسيني، وعلى الرغم من أنهم في البداية عملوا كمجموعة مستقلة داخل الحركة الوطنية العامة؛ فإنهم انصهروا شيئاً فشيئاً في بوتقتها، لكنهم مع ألوف الجماهير الفلسطينية التي شيعت القسام بقلوب يملؤها الحزن والشعور بفداحة الخسران؛ لكأنهم أرادوا (باندفاعاتهم الشعبية الهيجانية) أن يؤخّروا - ما أمكن - لحظة وداع الإجماع الذي حظي به القسام؛ وكأنهم بفعلهم هذا يقرّون في أعماق دواخلهم أن هذا الإجماع سوف يغيب مع غياب القائد الذي جسد مبدأ النضال في خصاله الفريدة، وخصوصية تكوينه، وسياق تطور تجربته، وقدرته على التقاط نبض الشارع وتطلعاته العريضة، واندغامه بها.

بهذا المعنى كانت لحظة الإجماع تلك هي لحظة القطيعة في آن معاً مع حقبة تاريخية مضت، تنبئ بتحولات مسار الحركة التي انتظرت دخولها في إطار بنية جديدة، وبرامج وأدوات كفاحية مختلفة، وتحت راية سلطة أخرى وعقلية مختلفة تحتاج ربما من الدراسات التاريخية قراءة جديدة؛ لكي تضع مجمل التجربة الوطنية والقومية الفلسطينية والعربية في سياقها الصحيح.

علي الكردي

عبد الحميد الزهراوي

تصور الحرية

(1871 – 1916)

ولد عبد الحميد الزهراوي سنة 1871، في مدينة حمص، وإن كان هناك من يرى أن ولادته كانت في سنة 1855، وتنتسب عائلة عبد الحميد إلى الإمام الحسين بن علي، وبالتالي إلى السيدة فاطمة الزهراء، ومن هنا جاء اسم (الزهراوي).

لا تتوافر معلومات عن دراسته كما هي الحال عن طفولته، ولكن ما تذكره المصادر، يؤكد أن والده أرسله إلى المكتب، بعد إتمام السنة السادسة من عمره، لتعلم القراءة والكتابة والحساب واللغة التركية على يد الشيخ مصطفى الترك، ثم نقله والده إلى المكتب الرشدي أو المدرسة الرشدية؛ وهناك من يشير إلى أنه انتقل بعد ذلك إلى مدرسة المعارف. وكان الزهراوي طالباً متفوقاً، فاق أقرانه، وتقدّم رفاقه وأترابه. وحين تخرج، وأنهى تحصيله المدرسي، قرر أن يواصل تعليمه على الأساتذة المبرزين في أيامه. فدرس العربية على بعض شيوخها الأفاضل، والفقه الحنفي على أستاذه الشيخ حسن الخوجة، والحديث والتفسير والعقائد على محدث زمانه الشيخ عبد الستار الأتاسي. وقرأ الأصول والكلام المعقول على الشيخ عبد الباقي الأفغاني. ولكنه لم يكتف بذلك، فأجهد نفسه في القراءة والدرس، حتى بلغ شأواً قصّر عنه رفاقه.

كان الزهراوي، منذ تخرجه، حريصاً على أن يلعب دوراً ثقافياً فعالاً. فما أن شعر أنه حصّل في حمص ما يستطيع تحصيله، حتى شدَّ الركاب إلى الأستانة سنة (1890)، ولم يقم فيها إلا مدة وجيزة، ومنها انتقل إلى القاهرة، التي كانت في ذلك الحين محط العلماء، وهناك نزل في دار نقيب الأشراف توفيق البكري، والتقى بخيرة الأدباء ورجال العلم والسياسة، واشترك معهم في المطارحات الفكرية والأدبية. وما لبث أن عاد إلى حمص، حيث بدأ تجربته الثقافية الأولى بإصدار صحيفة (المنير)، التي كان يطبعها بنفسه ويوزعها مجاناً باليد وعبر البريد. وكان

ينشر فيها مقالات عن الإمامة وشروطها، وينتقد أعمال الحكومة الجائرة. وكانت هذه الصحيفة تمثل وجهة نظر جماعة الاتحاد والترقي، التي كان الزهراوي أحد أعضائها في ذلك الحين.

ويبدو أن السلطات وقفت على أمر الصحيفة، فأوعزت إلى مراكز البريد بمنع توزيعها. ولم تستقر به الحال في حمص، فعاد إلى الأستانة، سنة 1895، وقرر أن يعمل في التجارة فلم يلائمه العمل، لذلك فقد انصرف إلى القراءة في المكتبات العامة. وفي هذا الوقت، اتصل به طاهر بك، صاحب جريدة (معلومات)، ليحرر القسم العربي، فوافق، وأخذ يعمل بجد ونشاط وينشر المقالات الإصلاحية، التي لم يكن يتجرأ أحد في البلاد العثمانية على نشر مثلها؛ الأمر الذي أدى إلى زيادة مراقبته، ومن ثم اتخاذ قرار بفرض الإقامة الجبرية عليه مدة أربعة أشهر. وقد عرض عليه أن يعيَّن قاضياً لأحد الألوية، فلم يقبل. اتُخذ قرار بنفيه إلى دمشق، ليبقى تحت الإقامة الجبرية. وهناك من يرى أن غضب السلطات عليه، يعود إلى التحاقه بوفد شارك فيه إسماعيل كمال بك الألباني، الذي زار السفارة البريطانية، مهنئاً بالانتصار البريطاني على البوير.

وهكذا عاد الزهراوي إلى دمشق منفياً، بعد حوالي أربع سنوات قضاها في الأستانة. ولم يهدأ الزهراوي خلال إقامته في دمشق. وفي هذه الفترة كتب رسائله في الفقه والتصوف نشرها في (المنار). وكتب مقالته المعنونة (أجوبة عن المسائل الشرعية في الخلافة). ويبدو أنه كتب رسائل أخرى في النحو والمنطق والطلاق، أثارت السلطات كما أثارت أتباع السلطة والمقلدين، الأمر الذي عرّضه لمواجهة حملات منظمة أكثر من مرة. فواجه خصومه وأحبط مساعيهم بحججه، فلفقت له تهم سياسية، أدت إلى نفيه إلى الأستانة. ظل في الأستانة ستة أشهر، ثم أعيد إلى حمص (مأمور إقامة)، ولم يلبث، سنة 1902، أن فرَّ إلى مصر.

في مصر تفاعل الزهراوي، من خلال اندماجه بالعمل الصحافي، مع الحركة الثقافية والسياسية، فعمل مع الشيخ علي يوسف في إدارة تحرير جريدة (المؤيد). وكان يقود حركة التجديد الديني، في ذلك الحين، الشيخ محمد عبدو. وكان رشيد رضا قد أصدر (المنار). وفي العام الذي وصل فيه الزهراوي مصر، مات عبد الرحمن الكواكبي. وكانت مصر تغلي باتجاهات وتيارات متعددة، من محاربة

الاحتلال البريطاني إلى تأييد العثمانيين، ومن بروز الوطنية المصرية إلى بروز اتجاه عربي في مواجهة التتريك والتغريب. وقد وطد الزهراوي علاقاته مع جماعة الشيخ محمد رشيد رضا، الذي كان يعتبره من العاملين القادرين على أداء المهمات الجسام، لذلك فقد قرر إرساله إلى المغرب عوضاً عن نفسه، لإقناع مولاي عبد العزيز، بإدخال الإصلاحات في الغرب. ورغم أن الزهراوي لم يذهب، إذ لم يتيسر إرساله، فإن اتخاذ مثل هذا القرار يدل على رفعة مكانته عند رشيد رضا، الذي ظل على علاقة وطيدة معه كل أيامه التالية، حتى استشهاده.

وكان من أبرز ما كتبه الزهراوي في فترة مكوثه في مصر، رسالته التي سماها (نظام الحب والبغض)، التي نشرت في (المنار) ما بين (1903-1904) في إحدى عشر حلقة، وقد اعتبرها (رسالة في علم النفس وفلسفة الأخلاق). وبقي الزهراوي في مصر، حتى إعلان الدستور، سنة 1908، فعاد إلى سورية.

في العام ذاته 1908، في تشرين الثاني، انتخب الزهراوي نائباً عن حماة في مجلس المبعوثان، وغادر إلى الأستانة، في الشهر عينه. ومنذ ذلك الحين وهو يتنقل بين عاصمة الخلافة وحمص وبيروت والقاهرة وباريس. وقد أحرز الزهراوي دوراً بارزاً في مجلس المبعوثان. وكان همه في المجلس منصباً على توحيد القوى للدفاع عن الدستور، وتكريس الحياة الدستورية، والوقوف في وجه حزب الاتحاد والترقي، والدفاع عن وحدة السلطنة ومشروع الإصلاح العام وحقوق العرب في السلطنة العثمانية. وكان الزهراوي من الذين ذهبوا إلى المجلس رغم معرفتهم بوجود عصيان، وظلوا في المجلس محاصرين. وقد خرج بشكل طبيعي، وسط الحصار وإطلاق الرصاص، في ظل حماية الجيش لفرض احترام الدستور. وقد قاده خلافه مع حزب الاتحاد والترقي، في مجلس النواب وخارجه، على قضايا أساسية مثل طبيعة السلطة وعلاقات القوميات التي تتكون منها السلطنة، إلى بروز فكرة إنشاء حزب معارض؛ وقد تم تأسيس هذا الحزب، رغم أن مؤسسيه من العرب، فإنهم قرروا إنشاء حزب عثماني، وهكذا كان. ومن أهم أهداف هذا الحزب: المساواة في حقوق الشعوب المشاركة في السلطنة على أساس العدد، وضرورة الاعتناء باللغات المحلية، والتقريب بين أبناء القوميات المختلفة المشاركة والسلطنة. وقد تطرق

الزهـراوي إلى أعمـال الحـزب، فأشـار إلى أن الحـزب: «لم يـألُ جهـداً في المناقشـة والانتصار إلى ما يراه حقاً، ومقاومة ما يراه خطأ». وعدَّد هنا القضايا التالية:

1- قضايا النفـوس، وثبـات الحـزب علـى رفـض سياسـة انتقـال أي مـواطن متـى شاء إلى أية ولاية، حيث يقول: «لا يخفى أن هذا قد يحدث تشويشاً أيام الانتخابات».

2- مطالبة الحزب عند مناقشـة المادة الثانيـة، مـن قـانون المحاكم الصـلحية، أن يزاد في أوصاف الحاكم معرفة اللغـة المحليـة، وأن هـذه المطالبـة أدت إلى تأجيـل النظر في القانون كله.

3- ثبات الحزب في كشف «قضية فتح المكاتيب»، مما اضطر المجلس لتقريـر الاستيضـاح. ويشـير الزهـراوي إلى أن المعارضـين للأكثريـة قـد بـذلوا غايـة الجهـد، ونهاية المسـتطاع في تقـويم الأولاد، ولكنـهم لم ينجحـوا. وقـد ظـل هـؤلاء المعارضـون يتعـارفون ويتعاهـدون علـى التعاضـد، ويتـذاكرون في المنـاهج الـتي ينـبني السـلوك عليها، حتى أتموا كل شيء، من مقدمات تأليف حزب جديد. ويذكر الزهـراوي أن المؤسسين الرسميين كانوا:

1- صادق بك أميرالاي، متقاعد وأكبر أبطال الدستور.
2- فريد باشا، من الأعيان وأحد أصهار البيت السلطاني.
3- أمير اللواء إسماعيل حقي باشا، مبعوث أماسية.
4- عبد الحميد الزهراوي، مبعوث حمص وحماة.
5- مصطفى صبري أفندي، مبعوث قوقاد.
6- حسن بك، مبعوث برشتنة.
7- داغاربان أفندي، مبعوث سيوس.
8- وفيق بك والي قونية سابقاً.
9- سليمان باشا، فريق متقاعد.

ثم انضم إليهم:

10- حسين حسني أفندي، شيخ الإسلام السابق.

وحين أُعلن الحزب، لم يفِ الـروم والأرمـن والبلغـار بوعـدهم بالانضـمام إلى الحزب، فاختصر على أناس من الترك والأرناؤوط والكرد، إلى جانب العرب. ولما كان قمع الاتحاديين يشتد، وهزائم السلطنة تتوالى، صار ممكناً أواخر (1911) أن

ينشأ حزب (الحرية والائتلاف). وقد قدم برنامجه إلى وزارة الداخلية في (1911/11/22)، وانتخب أعضاء للمركز العمومي ثلاثة عشر عضواً، كان من بينهم شكري العسلي وعبد الحميد الزهراوي. عند ذلك شعر الاتحاديون بأن المجلس بدأ يفلت من أيديهم، فأجروا انتخابات، أسقطوا فيها أبرز قيادات حزب الحرية والائتلاف، وكان من بينهم الزهراوي والعسلي. وخلال فترة إقامته الأخيرة في الأستانة، أصدر الزهراوي جريدة (الحضارة) الأسبوعية، وكان كل عدد يحمل افتتاحية يكتبها الزهراوي، ثم مقالاً للشهيد رفيق رزق سلوم، ثم ملخص محاضر مجلس المبعوثان. وكانت خطة الصحيفة، كما يقول الزهراوي: «قُل ما تعتقده الحق، وما تظنه الأصلح من الآراء، والأصدق من الأنباء» وأن الصحيفة لم ينشئها حزب من الأحزاب، بل أنشأها صاحبها. وكان الزهراوي يرى أن للصحفي مهمة جليلة، ولذلك قال: «أوصي نفسي وسائر إخواني الصحافيين بشيء من الإخلاص مع المهارة، لنصنع نصرنا، وما هو أنفع للأمة، بعد أن نبذل الوسع بالاستطلاع والتفحص، لا على حسب ما يبدو لأحدنا. ولهذا أود لنفسي ولإخواني الأناة والروية وأكره العجلة والبادرة».

وقد التزم بذلك في صحيفته؛ فهي صحيفة تربوية رزينة، حاولت أن تقدم لقارئها دروساً في السياسة، تناقش المفاهيم الأساسية: كالاتحاد والتعدد والروح العمومية، والانتخابات والزعامة والصحافة، والاختلافات وعلاجها. كما حاولت أن تُعرِّف هؤلاء القراء بالمبعوثان والأعيان والأنظار (الوزراء) والولاة، وأن تلقي أضواء على الصراع الدولي، والصراعات الداخلية، وأن تبين كيفية المحافظة على الدستور وتعديل القوانين. وكانت الصحيفة في اتجاهها العام نقدية للسلطة، لأن الزهراوي كان يرى بأن حق المراقبة على الحكومة، وهو من أكبر ما ينتظر من فوائد المجالس النيابية، لا يتم إلا بوجود حزب مبتعد جهد إمكانه عن منافذ التملق للحكومة، وأن للصحافة دورها في هذه المراقبة. ولذلك حرص على أن تكون صحيفة نقدية. وكان ينشر على صفحاتها نقداً بعيداً عن الإثارة، لكنه واضح رزين. وكانت الصحيفة تشدد على المبادئ والقضايا المبدئية، مثل: الدفاع عن حقوق الأمة العربية، ومساواة الأمم في الوطن العثماني، وضرورة احترام الدستور. وكانت (الحضارة) لا تنسى فلسطين، ولا ما يتعلق بالصهيونية، ولا

اليمن ولا ليبيا ومراكش والجزائر، في الوقت الذي تناقش فيه قضايا الاقتصاد والسياسة العثمانية والسياسة الدولية. لكن الحضارة توقفت بعد خروج الزهراوي من المجلس وفقده لحصانته البرلمانية.

وقد قاد توقف (الحضارة) وخروجه من البرلمان إلى انتقال نشاط الزهراوي إلى حلبة السياسة خارج المبعوثان. وهو ما أدى إلى تطورات في موقف الزهراوي، وإلى تطوير شبكة علاقاته مع المنفيين العثمانيين في القاهرة وباريس، الأمر الذي أدى في النهاية إلى ترشيحه لرئاسة المؤتمر العربي الأول في باريس.

استطاع الزهراوي أن يحقق أمرين في هذا المؤتمر: الأول: قيادة المؤتمر كله، عن طريق اتخاذ قرارات جماعية معتدلة، تطالب بالإصلاحات، ولكنها تربط العرب كلهم بالسلطنة. فليس في القرارات ما يشير إلى الانفصال أو يمكن أن يعتبر تطرفاً ودفعاً باتجاه التوتر والتأزم، ويمكن القول: إن المطالب اقتصرت على ما يلي:

1- إن الإصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية، فيجب أن تنفذ بسرعة. وقد أشير إلى لائحة بيروت الإصلاحية، التي كانت الجمعية الإصلاحية في بيروت قد أقرتها وطالب المؤتمر بتحقيقها.
2- يجب أن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة لامركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها.
3- من المهم أن يكون مضموناً للعرب التمتع بحقوقهم السياسية، وذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً.
4- اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية.
5- تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية، إلا في الظروف والأحيان التي تدعو للاستثناء الأقصى.

الثاني: إعطاء فكرة جيدة للعرب أنفسهم، الذين تعودوا أن تضرب الخلافات بينهم كل عمل، وللأتراك جميعاً وعلى رأسهم الاتحاديون الذين لم يتعودوا أن يواجهوا موقفاً عربياً موحداً، ولا ألفوا من العرب مثل هذا الموقف العملي، وللفرنسيين خاصة وللأوروبيين عامة الذين لم يكونوا يتوقعون أن تجمع القيادات العربية، شباباً وشيباً، مسلمين ونصارى، على هذا الموقف الذي يدعو إلى الإصلاح والتمسك بالسلطنة.

ورغم أن قرارات المؤتمر أسقطت أية مراهنة فرنسية أو غير فرنسية، فإن الزهراوي حرص على أن يبلغ ذلك للمسؤولين الفرنسيين، خلال اللقاء الذي جرى بين وزير الخارجية الفرنسي بيشون وكل من الزهراوي وسليم سلام والشيخ أحمد حسن طبارة ومحمد جميل بيهم. وقد كان أثر الزهراوي واضحاً في إنجاح هذا المؤتمر، واعتبر نجاحه، في إقناع جماعة العربية الفتاة والعهد، وجماعة جمعية بيروت الإصلاحية، وبعض المغتربين بمطالب المؤتمر، نجاحاً كبيراً. ولقد حاول الزهراوي، في سبيل إنجاح المؤتمرات، أن يشدد على ما يلي:

أولاً: إن الأخطار المحيطة بالسلطنة العثمانية، بعد ما حدث في ولايات الدولة العثمانية بأوروبا من الحوادث الخطيرة، هو الذي دعا إلى التفكير وإمعان النظر في الحالة الجديدة واتخاذ الوسائل الضرورية لاتقاء نتائجها، فالموضوع بالتالي هو موضوع الإمبراطورية العثمانية وإصلاحها والحرص عليها، وليس موضوع شقها. ومطالب المؤتمر لا تقول بالانفصال، بل تؤول إلى تحسين وضع الدولة والعنصر العربي معاً.

ثانياً: إن العرب في السلطنة يؤلفون عنصراً مهماً بعدده، وإن خصائص هذا الشعب أوجبت له حقوقاً كانت مهملة. ولما كانت كلمة عرب وكلمة قومية تشملان العرب من كل أديانهم ومذاهبهم، فإن هذا التأكيد على العروبة والقومية كان يشدّ جناحي المؤتمر من جهة، والتشديد على المطالب العثمانية يشدّ العرب المتمسكين بالسلطنة من جهة ثانية، ويخفف من مخاوف الأتراك الحريصين على السلطة.

ثالثاً: إن المؤتمر يعنى فقط بالعرب العثمانيين المقيمين في الولايات العربية العثمانية، والاهتمام بموضوع الولايات العثمانية لا يطرح قضية العرب كلها، فيخفف خشية السلطة العثمانية من انفصال قومي، ويخفف خشية الدول الأوروبية من قيام إمبراطورية عربية.

رابعاً: إن المؤتمر ليس له صفة دينية، فكل أعماله تنحصر في الدائرة المحددة له من البحث في الشؤون الاجتماعية والسياسية؛ ولهذا فإن عدد المسيحيين والمسلمين متساو. وزاد الزهراوي حاجة للرجوع إلى التاريخ في ذلك، لأن الشواهد الحاضرة تكفي. وضرب الزهراوي مثلاً على غياب الرابطة الإسلامية، أن العاطفة الإسلامية لم تقدر مرة من المرات أن تحمل أميراً مسلماً على التنازل عن

حقوقه لأمير آخر من المتدينين بدينه. ووجهة نظر الزهراوي هذه تعبر عن مواقفه وقناعاته في أن ادعاءات التمسك بالدين الإسلامي لم تثبت أنها حقيقية عند أمراء المسلمين، وأن ما يسعى إليه سياسي اجتماعي مدني وليس دينياً.

خامساً: عقد المؤتمر في باريس، يهدف إلى إسماع أوروبا بمطالب العرب وإفهامها رأيهم. ويرى الزهراوي أن الإقامة بين الفرنسيين والاحتكاك الضروري بهم، يؤدي إلى إزالة الأوهام وسوء التفاهم العظيم، ويمكن أن يضع أساساً للتفاهم بين الشرق والغرب.

وعندما أدركت حكومة الآستانة فشلها في منع هذا المؤتمر من الانعقاد، قررت إرسال وفد للتفاوض، ضمَّ وزير الداخلية عادل بك، الذي لم يذهب بحجة المرض كما زعم، والأمين العام لحزب الاتحاد والترقي. وقد تم اختيار الزهراوي لتمثيل المؤتمر في التفاوض مع السلطة الاتحادية لتحقيق مطالب العرب. وفي الرابع من كانون الثاني 1914، صدرت الإرادة السنية بتعيين الزهراوي وخمسة من العرب في مجلس الأعيان. وفي السادس من أيار سنة 1916، كان الزهراوي واحداً من بين الشهداء الذين أمر جمال باشا السفاح بإعدامهم في عالية ودمشق.

أما فيما يتصل بفكر الزهراوي، فقد عبر عنه من خلال بسط مواقفه تجاه العديد من القضايا الحاضرة في عصره، مطلع القرن العشرين، ولعل من اللافت فيما كتب انبثاث المناهج العلمية فيه، وخاصة محاولاته في المقالات المخصصة لعلم النفس والأخلاق، فنراه يتناول الإنسان كحيوان من مملكة الحيوان، تميز عنهم بالإدراك وحبه للتكمل وشابههم باحتياجاته البيولوجية.

وفي شروحاته وحججه نلحظ تأثره بعلم الأحياء وتجاوزه لهالات التقديس المحمل بها إنسان ذلك العصر، وتأكيده على تناول الموضوعات من زوايا تاريخية، وعدم الأخذ بها بصيغتها الناجزة، مع ضرورة الانتباه إلى ما يقدمه التاريخ لنا. فالتاريخ لديه كتاب العالم، والعالم كتاب التاريخ، وبالتاريخ نعرف صدق بعض أحوال العالم وكذب بعضها. فهو يقول: «إننا محتاجون في العلوم إلى قراءة التاريخ. فأحاديث التاريخ مع ما يؤيدها من كتاب العالم تغني معرفتنا لقواعد الاقتصاد السياسي، ومناهج الاجتماع البشري. والوازن في التصديق والتكذيب هو العقل».

وحذر الناس من فقدان هذه الملكة، فيكون تصديقهم وتكذيبهم في الأمور على حسب ما يلقنهم ملقن.

وقد ألقت روح الانفتاح هذه بظلالها على مجمل فكر الزهراوي، حتى إنها لم تستثن الإسلام والمعتقدات الدينية. فعلى الرغم من أن الزهراوي ينطلق في تفكيره من القرآن ويعده أمراً غير قابل للنقاش، سواء تعلق الأمر بتفسير الظواهر الكونية أم الحياة الشخصية، فإنه مع ذلك قد وسع مفهوم الإسلام، بحيث لم يعد الدين يشير إلى مجرد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطعام المسكين، بل يشير لديه إلى ضرورة التقدم العلمي والعدالة الاجتماعية والحياة السياسية المدنية، التي هيأت للفرد أن يكون له وجود حقيقي خارجها، مهما أتى من أفعال العبادة والتقرب. وهكذا فقد تناول الزهراوي الفكر الإسلامي بروح الناقد، محاولاً استبعاد كل ما يتنافى مع العقل، والوقوف على ما ثبته البرهان. ومن أهم إسهاماته في هذا المجال، ما كتبه في أصول الفقه والتصوف؛ إذ تلحظ لديه نهجاً دقيقاً لإثبات رأيه بالحجة والبرهان أولاً، والاستشهاد بالأمثلة ثانياً، فهو يقول عن أصول الفقه:

«من يسمع هذا الاسم «أصول الفقه»، يخال أنه عبارة عن قواعد كلية منقحة محكمة تتفرع عنها الحوادث والنوازل ويستند إليها في الفتاوى والأقضية، كلا ولكنه عبارة عن اصطلاحات وطرائق للأخذ من القرآن والحديث والإجماع والقياس».

وهو يرى أن الحجة في القياس صحيحة، أما الإجماع فهو في الغالب لم يقع، ولذلك لا جدوى من تقريره، فمتى رؤي أنهم سئلوا عن المسائل التي يزعم الناس فيها الإجماع أجابوا بما وافق كلام الجمهور، ولئن قال قائل بإجماع المجتهدين، نراه يتساءل: متى أحطتم خبراً بكل مجتهد؟ ووقفتم على مذاهب الجميع؟ وهل اكتفاؤكم باتفاق ثلاثة أو أربعة أو خمسة، يقيم حجة في إثبات تلك الدعوى العظيمة؟

أما عن السنة، فهو يرى أنها من أصعب العلوم مراساً، وأعزها منالاً لما هو معلوم من تفرق الناس شيعاً. ويأخذ في هذا المجال على كبار العلماء ومشاهير الثقات نقلهم للأحاديث الغثّ منها والسمين، فيرى أن الغزالي حجة المسلمين في العلوم الإلهية قد أكثر في كتابه «الإحياء» من أحاديث انتقدها عليه فيه جماعة

جرحهم بعض المتقدمين كعكرمة وإسماعيل بن أبي أويس وعاصم بن علي وعمر بن مرزوق وغيرهم.

ويقول: «إذا رجعت إلى كتب هذا العلم تر شأناً عجيباً، فتجد ما يعدله هذا يجرحه ذاك، حتى تكاد لا تجد سالماً من جرح. ثم قبل أن يتم اندهاشك من هذا تجد التعارض قائماً والتباين رائجاً. ثم تأتيك شبهات النسّاخ، فقد كانوا لا يعجمون الحروف، فتشتبه الباء مثلاً بالتاء والثاء، والنون بالياء، والجيم بالحاء والخاء، والدال بالذال، والراء بالزين».

أما عن الاجتهاد، فقد دافع أشد الدفاع عن ضرورته، بل عن وجوبه، وقد تجلت نزعته التجديدية بشكل جلي فيما كتبه «نبذة في الاجتهاد»، إذ قال إن البحث في هذه المسألة الدينية من أنفع المباحث في الإصلاح الديني، فقد تبين أن العلم الذي هو في حقيقته نظام للأمة قد شوهته الأيام، ولم يبق منه مع الزمان إلا حروفه في الكتب، وبقية في المحاكم الشرعية. ويرى الزهراوي أن السبيل إلى استعادة الشرع الحقيقي متوقف على العودة إلى الاجتهاد واستعمال سليم الفهم. ولذلك فإن الزهراوي يؤكد أن معرفة الحق لا تكون بالرجال، حتى وإن كانوا من العلماء المتقدمين، وهو بذلك يرد على من يقول: «هؤلاء علماؤنا من قبل، وإنا وجدنا آباءنا لهم متبعين، فمن هذا الذي يزعم أنه عالم بالدين ويجترئ على رد كلامٍ للمتقدمين؟ فما نحن بتاركي علمائنا لعلمه، بل نحن بعلمه جاحدون».

وفي مقابل ذلك، يذهب الزهراوي إلى القول: «قل هذا دين الله خاطب به المؤمنين وكلف به العاقلين. فمن ذا الذي يحصر الفهم بالمتقدمين، ثم يحصره في الأربعة المشهورين؟ قل اصنعوا بأنفسكم ما تريدون، أما نحن فمجتهدون».

ويستكمل الزهراوي دفاعه عن الاجتهاد وعن حق عقول المسلمين، في العودة إليه وممارسته من جديد، بتوجيه ألذع النقد للتقليد والمقلدين. ويتعجب كيف يعرف المسلمون أن المجتهدين من الصحابة كانوا يعرفون من هو المشرع بقطعه. وهكذا فإننا نجده يتساءل متعجباً عن سبب تمسك الناس بالتفاسير والشروح دون القرآن، فهو لا يرى فيما كتبوا في هذا الباب ميزة زائدة على ما يعرفه كل من عرف أساليب البيان والخطاب. فما بال هؤلاء يوجبون على الناس أن يضاهوهم

ويقلدوهم؟ وما بال فريق منهم جعلوا لكتبهم من الاعتبار أكثر من القرآن؟ إذ قالوا إن مفاهيم الكتب حجة عندنا دون مفهوم القرآن.

وإذا كان نقد الزهراوي السابق، ينطبق على الأصول، فإنه يتخذ موقفاً نقدياً أيضاً لا يقل صرامة عن سابقه من مسألة الفروع، التي أفرط كثير من الفقهاء في تعريفها وتكثيرها، لكونهم اكتفوا بموقف التقليد والمقلد من مسألة الأصول الشرعية. ولذلك فإننا نجده قد مضى إلى أن الفروع: مجموع تزايد عددها بتداول الأيام، بعضها مستند إلى الكتاب والسنة وكثير منها مستند إلى الظن والتخمين والفرض والتقدير، وبعضها ما يجوز وقوعه، وبعضها مما لا يقع. وقد رأى الزهراوي في كثيرها من التمحلات العجيبة، والتخيلات الغريبة، ومخالفة العقل والنقل، ما يقف معه حائراً مندهش الذهن.

ولكثرة ما نال التصوف من الاهتمام والتقدير في عصره، حرر الزهراوي مقالتين نقديتين عن هذا الموضوع، أولاهما بعنوان (ما هو التصوف؟) والمقالة الثانية بعنوان (كيف تميز الصادقين من الكاذبين؟).

وقد عرّف التصوف بأنه: «لفظ ينتحله اسماً لمعارفهم ناس خلطوا، إذ بحثوا في الفلسفة الإلهية بين إيراد كل الفلاسفة الإلهيين من القدماء وبين الشواهد القرآنية وأمثالها من الكلم النبوية، واخترعوا اصطلاحات، صرفوا بها الألفاظ اللغوية عما وضعت له، صرفاً لم يراعوا فيه العلاقة القريبة والقرائن الدالة. وبعد أن دوِّن في الكتب غلا فيه أهله وأغرقوا في التأويل وصرف الألفاظ، فعبثوا بالدين والفلسفة معاً».

ويأخذ الزهراوي على المتصوفة اقتداءهم بأهل الصفة ورفضهم الاقتداء بالصحابة والملوك والقضاة الصالحين. ويخلص إلى القول إن الغاية التي يرمي إليها المتصوفون، إنما هي البطالة والتعيش من مال الناس وكثر الاستشهاد بحال أهل الصفة التي يظهر للملأ أنه ليس إلا ضرباً من السفسطة والتمويه.

ومع أن الزهراوي لا ينكر وجود متصوفة صادقين، فإنه يشبههم برهبان النصارى، آخذاً عليهم سلكهم هذا الطريق، قائلاً إن الرسول كان يكره الرهبانية، وقد تزوج ببضعة عشر امرأة، وقد كان تاجراً قبل النبوة، وصار بعدها محارباً سياسياً، يسعى وراء الأسباب ويحث على الاعتدال. ومن البيّن أن نقد الزهراوي

للمتصوفة كان نقداً خارجياً، لم ينصبّ على الخبرة الصوفية ذاتها، ولا على التجارب الروحية المنتجة لها، ذلك لأن نقده كان مدفوعاً بدوافع تاريخية عملية، جعلته يعتقد أن تعيّش بعض الناس والبطالة التي يمارسونها باسم التصوف، هو التصوف ذاته. والحقيقة أن انشغال الزهراوي بالتقدم ونهوض الأمة، قد حتم عليه اتخاذ هذا الموقف من التصوف، لما رأى من سلبية المنقطعين للتصوف وعجزهم عن ممارسة أي تأثير ذي قيمة، يكون من شأنه أن يدفع بالواقع إلى الأمام، وأن يخرج الأمة من وهدة التخلف والتجزئة واستبداد المستبدين. ومن العلامات البارزة في نقد الزهراوي لعصره، وعيه الواضح بالقيمة الذاتية للفرد، وبالأهمية المؤكدة للشخص، بدلاً من النظر إلى الجماعة، على أنها المركز الوحيد للحياة والفاعلية والتأثير. وهو إذ يكتشف أهمية الفرد في مطلع القرن العشرين، فإنه يحاول أن يدلل على هذه القيمة الاستثنائية، استناداً إلى مجموعة من المفاهيم الجنينية المبكرة التي يمكن لمجموعها أن تشكل نوعاً من علم النفس الأولي، الذي حاول الزهراوي من خلاله أن يقارب مسألة الفرد في ذلك الوضع التاريخي الذي عاش في إهابه، وحاول أن يحلل مكوناته مستخدماً الأدوات والأساليب التي كانت تقليدية في جملتها.

غير أن لجوء الزهراوي إلى ما يسميه بعلم النفس، قد شكل تقدماً مرموقاً على معاصريه في تناوله لكثير من مشكلات العصر ومعضلاته. فقد حاول الزهراوي أن يقارب الطبيعة البشرية بقصد تفهمها ورسم صورة صادقة لها في الحدود الممكنة لتلك الأطر النفسية العامة التي تصور أنها قادرة على استكناه الطبيعة البشرية واستكشاف ماهيتها. وهكذا ذهب الزهراوي إلى أن الفطرة التي فطر عليها الناس، تقتضي أن يكون للمرء ما يلائم وجوده وما يؤلمه وينافره وأن يكون قاصداً لجلب ما يلائمه ودافعاً لما يؤلمه وإن قيل إن هناك إنساناً سالماً مما ينافره، وخالياً مما يلائمه، وهو ما يزال حياً، أو إنساناً لا يقصد جلب ما يلائمه ودفع ما ينافره وهو خال من الجنون القوي، أو إنساناً يعيش مستغنياً عن غيره طوال حياته، فلا يجب تصديق ذلك؛ وإن هذه الحالات الثلاث تجسم أمامنا شيئين مهمين: الذاتية والغيرية.

ومن الواضح هنا أن مفهوم الفطرة الإنسانية - وهو مفهوم قرآني أصيل - يشكل حجر الزاوية في تحليلات الزهراوي النفسية للفرد والجماعة. وما يحمد للزهراوي وصفه الواضح والمتميز لهذين المفهومين الأساسيين وهما هنا «الذاتية والغيرية»، اللذين وسع الزهراوي معانيهما إلى الحد الذي جعل منهما مفهومين محوريين يرتكز إليهما كثير من مظاهر الحضارة والعمران البشري، بدلاً من ذلك المعنى الضيق الذي كان أسلاف الزهراوي ومعاصروه يخلعونه على هذين المفهومين. إذ لم تكن الذاتية عند هؤلاء، لتزيد عن كونها «منفعة الذات»، بينما لم تكن الغيرية تشير إلا إلى منفعة الغير. أما الزهراوي فإنه يخلع على هذين المفهومين دلالات حضارية جديدة، فضلاً عن أنه ينوط بهما مهمات أساسية متعلقة بالحضارة والعمران والمصير البشري، الفردي والجماعي، داخل التاريخ الإنساني، فهو يعرف الذاتية بأنها استحقاق كل ذات حيزاً ونصيباً من المجتمع. وأما الغيرية فهي تقديم الغير على الذات، وفي هذا تقديم للذات العاجلة على الذات الآجلة، وبهذا لا يكون المرء مبغضاً لذاته. وعلى ذلك فليس للذاتية عند الزهراوي ذلك المعنى الضيق الذي يحيل إلى نوع من الوجود الأناني أو الكيان المعزول، الذي يحبس الذات ضمن ذاتها فقط، بل هو يقيم وشائج وطيدة بين الذاتية والمجتمع، عندما ينظر إلى الذاتية على أنها نوع من الاستحقاق الذي لا بد للفرد أن يتمتع به في صميم المجتمع. كذلك فإن الغيرية لم تعد تشير لديه إلى المعنى المجرد لتقديم الآخر على الذات وتفضيله عليها، وإنما هي قد أصبحت تشير لديه إلى حرص الذات على ذاتها وإيمانها بأن وجودها ليس منحصراً في الوجود المباشر والخاص أو الجزئي لهذه الذات، بل الوجود الحق إنما هو قائم في احترام وجود الغير ومصالحه، إلى الحد الذي يلزم الآخر باحترام الذات ومصالحها في المقابل.

غير أن الزهراوي لا يقف عند هذا الحد في تعريفه للذاتية والغيرية، ذلك لأنهما يتحولان لديه إلى مقولتين شارحتين للوجود الإنساني، ومن ثم لا يسعنا أن نصف جهوده الذهنية في استخلاص العناصر التي ينطوي عليها هذان المفهومان، إلا بأنها جهود خلاقة وإبداعية، بكل تأكيد، فهو يقرر صراحة:

«إن الذاتية هي دولاب بقاء النوع، ويدخل تحتها بحث الحرية. والغيرية دولاب ارتقاء النوع، ويدخل تحتهما بحث الإخاء الإنساني والديني والجنسي والسياسي. ومن الذاتية والغيرية تتفرع المساواة، وهي دولاب العمران».

الزهراوي هنا يستنبط ثلاثة مفاهيم جوهرية، ليست واضحة كل الوضوح في هذين المفهومين «الذاتية والغيرية»، فبضرب من المقاومة التي لا تخلو من ابتكار وإبداع، يقيم نوعاً من الارتباط أو الاعتماد المتبادل بين الذاتية وبقاء النوع، فيحطم بذلك الجدران الضيقة لمفهوم الذاتية من حيث أن دلالتها ترتبط أشد الارتباط بمفهوم الأنانية الضيقة. فحفظ الذات هنا يتحول إلى الأساس الذي لا بد منه لتقدم النوع الإنساني. فالغيرية هنا قد أصبحت تدلُ على كل الذوات في تضامنها وتكافلها وتناصرها في تحقيق كل ما من شأنه أن يرتقي بحياة النوع وأن يحقق لهذه الحياة كل التقدم الممكن. غير أن الزهراوي لا يتوقف في تحليله للذاتية والغيرية عند هذا الحد، بل يمضي ليستنبط من هذين المفهومين مفاهيم جديدة، تشكل في حقيقتها جزءاً لا يتجزأ من الماهية الإنسانية، أو هي تكشف عن مناطق أعمق في الطبيعة البشرية، استطاع الزهراوي أن يصل إليها، نتيجة لتحليلاته الدقيقة، التي تكشف عن بصيرة ووعي عميقين بالحياة الإنسانية.

وهكذا يبين لنا أن الذاتية ليست مجرد محور لبقاء النوع الإنساني فحسب، بل إن الذاتية هي محور للحرية وقاعدة لها، أو أن الحرية هي في الحقيقة نوع من الاستمرار والتواصل للذاتية، التي هي في نظر الزهراوي مرادف للفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، والزهراوي يوضح كل ذلك بقوله:

«والحرية هي المناسبة لهذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وإذا كان كل فرد حراً، كان من الواجب أن يعلم كل أحد أن معنى حريته، هو استطاعته أن يعمل ما يلائمه، ويدفع ما يؤلمه، بشرط ألا يكون في عمله اعتداء على حقوق غيره، والحقوق فيها ما هو ظاهر لا يقع فيه خلاف، ومنها ما يختلف فيه، فتتعين بالقوانين. وعلى كل تكون الحرية عبارة عن امتلاك الإنسان حق التصرف على الوجه الذي يبدو له، ما لم يمنعه مانع من التعارف المتفق عليه أو القانون».

واضح هنا أن الزهراوي لا يكتفي بالنظر إلى الحرية على أنها فطرة الإنسان وطبيعته الأصلية، ولكنه يعمق مفهوم الحرية هذا، بحيث يتحول لديه إلى مفهوم

مدني حقوقي، يوحِّد بين حقِّ الفرد في الدفاع عن وجوده ومصالحه، وبين ضرورة التزام الفرد نفسه بعدم الاعتداء على حقوق الآخرين. ولئن كانت الحقوق في نظر الزهراوي ظاهرة لا خلاف فيها، ومنها ما قد يقع الخلاف فيه، فيتعين بالقانون، فهذا يعني أن الحق أو القانون قد أصبح جزءاً لا يتجزأ من ماهية الحرية. وعلى ذلك، فلم تعد الحرية لديه مجرد إحساس ذاتي بفاعلية الإرادة، بل أصبحت الإرادة ذاتها متعينة بمضمون موضوعي لا يتحدد إلا داخل القانون، باعتباره جزءاً لا يتجزأ من ماهية الحرية ذاتها.

ومن ناحية أخرى، فالغيرية في نظر الزهراوي، لا تعني أن الفطرة البشرية ذاتها تنطوي على ما يدفع الإنسان لكراهية أخيه الإنسان لكونه غيراً، وإنما الكراهية لا تزيد عن كونها مرضاً اجتماعياً وأخلاقياً، يمكن التصدي له ببعض الإجراءات التي من شأنها أن تلطف الحياة الاجتماعية وتجعلها محتملة ومقبولة فيما بين البشر. وعندما يشفى المجتمع من الكراهية المتبادلة فيما بين أفراده، فإن الغيرية ذاتها تصبح قادرة على أن تلعب دوراً بناءً أو إيجابياً في حياة الفرد والمجتمع، وذلك لأن الزهراوي يستنبط من الغيرية في صورتها الجديدة مفهومين جوهريين لا استواء للحياة الاجتماعية دونهما؛ وهما العدل والإحسان. وهكذا يقرر الزهراوي أن العدل هو الحد الذي تقيمه الغيرية للنفوس على أيدي المقننين والحاكمين. والإحسان هو الحد الذي تقيمه لها على أيدي المفكرين.

ومن البيِّن هنا أن العدل هو الحد الفاصل الذي يأخذ بمقتضاه كل ذي حق حقه. وهذه مقولة تقتضي توزيع القوة بالتساوي على أفراد المجتمع. ولما لم يكن الجميع متساوين في القوة، فقد لزم للغيرية أن تتخذ صورة أخرى في التعبير عن نفسها، هي صورة الإحسان، الذي بمقتضاه يتعين على المجتمع رعاية أولئك الأفراد الذين لا تؤهلهم قواهم الخاصة - لسبب أو لآخر - لأن يكونوا على قدم المساواة مع غيرهم من أفراد المجتمع.

ويفاجئنا الزهراوي عندما يوحد بين الذاتية والغيرية، ليشتق منهما مقولة أشمل من سائر المقولات السابقة، ألا وهي مقولة المساواة. فبقاء النوع والحرية المشتقتان من الذاتية، والعدالة والإحسان المشتقان من الغيرية، يعيد الزهراوي توحيدهما جميعاً في مفهوم أعمّ منها هو مفهوم المساواة.

فالذاتية والغيرية في صورهما المختلفة، لا تستهدفان إلا أمراً واحداً في نهاية المطاف، هو تمكين البشر من الوجود على قدم المساواة، ومن التصرف على نحو يسمح للجميع بأن يكونوا فاعلين ومؤثرين في حدود الحرية التي يضبطها القانون. ونحن لا نجد تصوراً يرقى إلى مثل هذا التصور للحرية ولارتباطها بالقانون لدى أي مفكر نهضوي آخر باستثناء عبد الحميد الزهراوي.

ومع ذلك، فإن الزهراوي لا يغيب عن باله التفاوت فيما بين البشر من حيث الملكات العقلية والقدرات النفسية، والمواهب الفردية. فينتبه إلى أن من واجب المجتمع أن يترك حيزاً للمفاضلة فيما بين أفراده، استناداً إلى المواهب وترجمة الأفراد عنها في أفعال نافعة للمجتمع.

غير أن الزهراوي يلحُ على أن هذا التفاضل، الذي يمكن أن يمتاز به بعض أفراد المجتمع، هو تفاضل في المظهر فحسب. ولذلك يقول في توضيح ذلك:

«إن الموجود في صفات بعض الأشخاص من زيادة عقل أو خبر أو حنكة مثلاً، يدعو المجتمع إلى تفضيل بعض أعضائه على بعض في المظهر. فمحاولة مساواة الناس كلهم في المظاهر، ليست من العدل في شيء. إنما المساواة في حدود الحقوق وفي احترام حسِّ الذاتية ومقتضاها من الحرية. وبهذا فإن التفاضل متعلق بالمظهر لا بالمخبر، أي أن الماهية الإنسانية متكافئة في الحقوق ومتساوية بين جميع البشر، في حين أن التمايز لا ينبغي إلا أن يكون أمراً متعلقاً بمظهر الماهية البشرية دون مخبرها».

وكما أن للأفراد ذاتية، يقرر الزهراوي بالمثل أن للأمم أيضاً ذاتيتها التي تخصها. فكما أن الأفراد يختلف منهم الواحد عن الآخر، بحسب ذواتهم المميزة لكل منهم، كذلك هو الأمر بالنسبة إلى الأمم، يكون التفارق فيما بينها بالقياس إلى الذاتية التي تميز كل منها عن غيرها من الأمم.

غير أن الزهراوي مع ذلك، يميز بين ذاتية الأفراد وذاتية الأمم. فبينما يرى أن ذاتية الأفراد طبيعية قد منحتها الطبيعة للأفراد حتى تحدث الفروق فيما بينهم، فإن ذاتية الأمم تمتزج فيها الطبيعة أو العنصر الطبيعي بالعنصر الصناعي الذي يرده آخر الأمر، إلى ما تبذله الأمم من جهود ومساع لتقويم حياتها، وتعديل شروط العيش الذي يكون سائداً في حقبة معينة من تاريخ هذه الأمة أو تلك.

ويعرف الزهراوي الأمة بأنها: «جماعة من الناس يجمع بينها سبب من الأسباب حتى تصير كالشخص الواحد باعتبارات كثيرة». ومن هذا التعريف يتضح أن الزهراوي يأخذ بوجهة نظر أقرب ما تكون إلى وجهة النظر العلمية في تعريفه للأمة، حتى منذ ذلك الوقت المبكر الذي عاش فيه في مطلع القرن العشرين. فما يجمع بين أفراد الأمة، في نظر الزهراوي، لا بد أن يكون سبباً أو علة. فلا تجمع ينتج أمة إلا وثمة سبب يعين طريقة اجتماع هذه الأمة. لذلك فقد ميز الزهراوي، بحسب الأسباب، بين ثلاثة أنواع من التجمعات البشرية، أو ثلاثة أنواع من الأمم الإنسانية، وهي: الأمة الجنسية، الأمة الدينية، والأمة السياسية.

ويرى أنه لو كان تكوّن الأمم طبيعياً، لكان كل جنس من الأجناس أمة وحدها. على أن البحث يكشف عن أثر الصناعة أيضاً. ولكن لا بقي الناس على الجامعة الجنسية، ولا بقيت الأجناس كلها مجتمعة بالجامعة الجنسية. وهذا ما أدى إلى القول إن ذاتية كل صنف من هذه الصنوف تكون قوتها وضعفها على مقدار عمل العاملين فيها. وهكذا يرى أنه إذا كانت ذاتية الأفراد دولاب بقاء النوع، فالذاتية في الأمم دولاب بقائها أيضاً.

ولو أننا دققنا في الأفكار المبعثرة هنا وهناك، والتي تركها لنا الزهراوي في الكثير من كتبه ومقالاته، لوجدناه يذهب إلى أن نشأة الأمة العربية ليست مقترنة بالإسلام، ولا هي ترتد إلى بضعة عقود أو قرون قبل الإسلام. فالعرب أمة في نظر الزهراوي، ضاربة بجذورها في حقب التاريخ القديمة، فيما يزيد عن سبعة آلاف عام. الأمر الذي جعله ينظر بأفق واسع وذهن منفتح إلى العناصر التي تتكون منها الأمة العربية، وهو لا يقيم تطابقاً بين العرب والإسلام، فالعربي يمكن أن يكون مسلماً ويمكن أن يكون نصرانياً أو غير ذلك. ومن ثم اتسمت نظرة الزهراوي إلى الأمة العربية بالواقعية المستندة إلى التاريخ نفسه. فقبل أن يكون العرب مسلمين، كانوا وثنيين ونصرانيين، وغير ذلك. وبعد أن تديَّن بعض العرب بالإسلام، ظلَّ من لم يتدين منهم بهذا الدين عربياً، وبما أن نظرة الزهراوي إلى الإسلام قد اتسمت بالقدر نفسه من الانفتاح والاعتدال، فهو في حديثه عن المسلمين لا يفاضل بينهم استناداً إلى أساس طائفي، ومن ثم فهو يرفض الحديث

عن السنة والشيعة والعلويين والإسماعيليين والدروز.. إلخ؛ فهؤلاء جميعاً في نظره مسلمون ينتسبون إلى أمة واحدة هي الأمة العربية.

وبصدد الجامعة الإسلامية، أبدى الزهراوي تحفظاً شديداً حيال هذه الفكرة، وقد مضى على اعتبارها فكرة غير واقعية، وذلك لسببين:

أولهما: تعلل القوى الغربية بالأخطار الناجمة عن هذه الفكرة، حتى تظل تلك القوى تبسط سلطانها على المسلمين وتسلبهم خيراتهم وحقوقهم، من غير أن يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم أمام تلك القوى.

وثانيهما: أن في نفوس المسلمين استعداداً لقبول هذه الفكرة، في حين أن حال المسلمين حال تفرق وتمزق، الأمر الذي جعله ينظر إلى فكرة الجامعة الإسلامية على أنها نافلة لا نفع فيها. وعلى الرغم من أنها فكرة يرغب فيها معظم المسلمين، إلا أن الرغبة لا تكفي لجعل الأشياء قابلة للتحقق.

ويبدو لنا أن الزهراوي لم يكن يستشعر أي تناقض بين كونه عربياً وكونه عثمانياً، وذلك راجع، على الأرجح، إلى مخاوفه من أن انفراط عقد السلطنة العثمانية، سيؤدي إلى وقوع البلدان العربية تحت السيطرة الغربية، وهو ما حدث بالفعل. ولذلك كان الزهراوي ميالاً إلى المحافظة على كيان السلطنة، في دولة موحدة، تضم العرب والترك وغيرهما من الشعوب، على أسس من التكافؤ الجنسي اللغوي، بحيث يكون كل شعب قادراً على أن يحكم نفسه، من غير أن يخل هذا الوضع بالمصلحة العليا، التي كانت تتمثل في ذلك الوقت بالولاء للسلطنة. ويرى الزهراوي أنه من الممكن للوطن العثماني أن يكون وطناً للجميع من غير تمييز. ولعل هذا الاتجاه المعتدل، هو ما دفع الزهراوي إلى قيادة المؤتمر العربي إلى باريس، للتفاهم مع الاتحاديين، وإقناعهم بالتراجع عن مواقفهم السلبية تجاه العرب، التي تجلت في توجههم الصارم نحو مزيد من تتريك الدولة، على حساب الشعوب الأخرى.

لو أنا نظرنا إلى مواقف الزهراوي من المسألة السياسية بعامة، ومن مسألة الديمقراطية بصفة خاصة، لوجدناه ينحو نحو التوفيق والتركيب بين هوية الأمة وخصوصيتها، وبين ضرورة الانفتاح على الثقافات الأخرى، والتقاليد المتنوعة، التي أبدعتها أمم مختلفة عنا في العرق والدين. فالقرآن يظل القاعدة التي يحاول

أن يستخرج منها أسس الحياة السياسية، ولكنه مع ذلك لا يرى مانعاً من الانفتاح على التجارب الأخرى ودراستها والانتفاع بها. فهو لا يغمط الآخرين حقوقهم، ولا يعتقد أن العرب المسلمين قد خلقوا على غير منوال، بحيث لا ينبغي لهم إلا أن يتبعوا أنفسهم ويقلدوها.

وتمتد نظرة الزهراوي لتشمل حقوق الفرد والجماعة من ناحية، والاعتراف بحقوق الأمم الأخرى من ناحية أخرى، وتميزها إن كانت كذلك، ولذلك نظر إلى الغرب نظرة إعجاب.

وإنا لنلحظ إعجاباً بعلم الغرب قلّ نظيره، وخاصة في مقالته «الشرق والغرب» متى يصحو الغرب من نشوته والشرق من رقدته، إذ رأى أن العلم وليدٌ منَّ الله به على الغرب وهو قائم يصلي في المحراب، وأن الله فتح بهذا الوليد أعيناً عمياء وقلوباً غلفاً. وفتح الله ما أغلق من كنوز الخواص المودعة في الأجسام الظاهرة والأرواح السارية وفتح به ما استعصى من المجهولات في قنن المعضلات، لكن هذا الغرب سَكِرَ بالماديات واستسهل في سبيلها كل شيء، ولئن كان الشرق قد سبقه بهذه السكرة، فليس هذا يدفع عن الغرب وصمة السكر لأنه لا يغفر إجرام المرء أن يكون أخوه مجرماً مثله. والحال هكذا يكون الشرق في رقدة والغرب نشوان. ولا نجد استشعاراً للدونية في ما كتب الزهراوي عن الغرب، بل إنه يدافع عن الإمكانات المتواجدة بالقوة في الشرق الآن وعن حضورها فعلاً في الماضي. وقال إن المستقبل من علم الغيب، قد يتيح للفقير بغيته، وقد يجد فيه الغني خيبته ومهاويه، وما يعنينا نحن صحوة النشوان المعتلي وإفاقة النائم المنشغل، لأن كل استعدادنا الطبيعي ذاهب اليوم سدى بهذه الرقدة وتلك السكرة. ولذلك يسخر منا النشوان ويسخرنا لأمره، مهما كثر عددنا، وكثرت أموالنا. ولو صحا السكران لحلت رحمته لهذا النائم محل السخر منه والاستهزاء به وتسخيره لأمره. ولو أفاق هذا النائم، لمثل وثبت أمام ذلك الجسد الهائل جسداً هائلاً مثله.

وهكذا لم يغب عن ذهن الزهراوي أننا الطرف الأضعف في العلاقة مع الغرب، ولكنه مع ذلك، رامَ لهذه العلاقة أن تكون علاقة تنافس تسمح لنا بالتقدم وتجنبنا في الوقت نفسه سوء العاقبة، التي يمكن أن تترتب على قيام علاقة تناحرية أو تطاحنية بيننا وبين الغرب.

وقد نظر الزهراوي إلى العلاقات الممكنة بين الأمم، وهو بصدد تفسيره لأوجه العلاقة المحتملة مع الغرب، على أنها علاقات تقدم على التضاد، أي التباين الجنسي الذي يميز أمة عن أخرى، والصراع الذي يفتح الباب واسعاً أمام المواجهة بين البشر وهو القوة والضعف. وقد أفرد الزهراوي لنقاش مفهوم القوة والضعف العديد من المقالات، وقد قام في سبيل ذلك، بربط مفهوم القوة بالحق، وناقش كل منهما بإسهاب لما كان لهذه القضية في ذاك الوقت.

وقد عرف الحق: بأنه المعنى الجليل الذي تصبو إليه النفوس. ولأجله صنعت الشرائع وأرسلت الرسل وكتبت الحكمة واجتمعت الأقوام وتآلفت القوة.

ويرى الزهراوي أنه لو كان الحق شيئاً محسوساً، لما كان للأفراد أو للأقوام مناص من الاختلاف في رؤيته لتعدد المجالي التي يتجلى فيها، ولاختلاف درجات أبصارهم، وتباين مواقع أشخاصهم بالنسبة إلى مواقع ظهوره، فكيف والحق شيء غير محسوس وإنما تحوم حوله المدارك مستعينة بالتجارب واستقراء النتائج التي تؤدي إليها الأحوال واختلاف المدارك ودرجات الاستقراء، لذلك فالاختلاف أمر واقع ليس له مرد.

ومن هنا، فإن دعوة الزهراوي إلى الوفاق، هي دعوة الحقيقة. وقد نبه الزهراوي إلى أن الاختلاف أمر طبيعي، لا يحسن بنا أن نشمئز منه، بل يجب علينا أن نسلك فيه أفضل السبل، ويجب أن نعرف أيضاً، أن له درجات، وأن بعض درجاته يمكن إزالته سريعاً، بحسن التفاهم وتقارب الرغائب، وهو الذي نسميه وفاقاً ووئاماً. وبعض درجاته يمكن تخفيفها بحسن التدبير، وهو الذي نسميه سياسة.

يقول هنا إن الكلمة الجامعة لعلاج الخلاف هي القوة. وتختلف كل نفس عن الأخرى بمقدار قوتها، ومن أجل هذا، وجب الاجتماع والتمدن، كيلا يكون الحكم للتوازن الذي بين فرد وفرد.

وله رأي رائد في نقاش مقولات الشعب المغلوب في القوة. إذ جرت العادة أن ينسب المغلوبون إلى الغالبين الظلم في أكثر الأحيان، فيتأفف المغلوبون من القوة التي تجعل الغلبة لأولئك الظالمين. وعند الزهراوي أن المغلوبين، إذا نسبوا الظلم إلى أنفسهم، يكونون أقرب إلى الصواب. فانتصار الآخرين في نظره، ناتج عن

تفكك عرى اجتماع الضعفاء وفساد أجزائه، وفقدهم للقوة اللازمة لحماية الحق فلا يكونوا بهذا أهلاً لأن يبقى مجتمعهم كما يشتهون.

وبصدد القوة والضعف، فإنه يطلق مجموعة هامة من الأسئلة، تكشف عن ميله إلى لوم الضعيف على ضعفه، أكثر من لومه القوي على ظلمه. ويطلق تساؤلاته: «لماذا أيتها الأمم الضعيفة، تظني أن القوة هي التي تخاصمك، وأن حقك غصبته القوة؟ ما هي القوة؟ وهل أنت فاقدة لها؟ ولماذا فقدتها؟ وهل عددك قليل؟ وهل القوة بكثرة العدد فقط؟ وكيف صبرت على فقد القوة؟ لماذا أيتها الأمم الضعيفة تسبين القوية وتصفينها بالظلم؟ ألا يظلم بعضك بعضاً، إذا تركتك القوية وشأنك؟ ما هو ظلمها لك؟ وما هو الحق الذي ابتعدت هي عنه؟ هل تعرفينه يقيناً، أم توحي إليك بصورته شهواتك؟

إن القوة في الحقيقة، هي نصيرة الحق، ولا ينتصر بها كاره الحق أحياناً، إلا على قوم لم يعطوا الحق حقه من نفوسهم».

وفي ضوء ما تقدم، يمكن النظر إلى الزهراوي، على أنه واحد من أعظم مفكري الأمة في مطلع القرن العشرين، ولكن يد الإهمال قد اختصته بالكثير من التجاهل، فضلاً عن الجهل الذي ما زالت الأمة تعاني منه، بصدد الأهمية التي يمكن نسبتها لهذا المفكر أو ذاك. فالزهراوي بأفكاره الإصلاحية وتصوراته شبه العلمية وتحليلاته السياسية، بالإضافة إلى مواقفه الدينية المعتدلة والعقلانية، يمكن النظر إليه على أنه يقف في صف واحد مع الكواكبي وكرد علي، هذا إذا لم يبزهم في كثير من المجالات والميادين التي كتب فيها فأجاد، وحلل فأتقن. الأمر الذي يدفعنا إلى أن نقترح على كل المشتغلين بالفكر العربي الحديث، أن يشرعوا في قراءة جديدة للزهراوي، لأن في فكره، فيما نعتقد، أكثر بكثير مما قيل عنه حتى الآن.

د. يوسف سلامة

أحمد جمال باشا

السّفاح

(1872 - 1922)

على الرغم من تردد تركيا في دخول الحرب العالمية الأولى في آب 1914 إلى جانب ألمانيا والنمسا؛ لم تستطع البقاء على الحياد أكثر من ثلاثة أشهر، كانت الانتصارات التي حققها الألمان ضدّ الفرنسيين والإنجليز في الميدان الغربي، وضدّ الروس في الميدان الشرقي، قد أسهمت بإقناع الاتحاديين بتفوق ألمانيا العسكري، فعمدوا في 9 أيلول 1914 قبل إشهار تحالفهم مع الألمان إلى إلغاء الامتيازات الأجنبية في البلاد؛ في حين كان وجود الألمان وتأثيرهم قد بدأ يستفحل في الجيش التركي؛ مما جعل أنور باشا وزير الحربية يسمح لسوخون أمير البحر الألماني بالتجول بالطرادين الألمانيّين في البحر الأسود؛ فاغتنم الأميرال الفرصة وهاجم الأسطول الروسي والموانئ الروسية، ليسرع في دخول تركيا الحرب، كان من جرائها إعلان روسيا الحرب على تركيا، وانضمت إليها فرنسا وإنجلترا.

لم يكد نبأ إعلان السلطان الجهاد ضدّ دول الحلفاء يصل إلى سورية حوالي منتصف تشرين الثاني 1914؛ حتى خرجت المظاهرات وسارت في الشوارع تخفق فوقها الأعلام، والمتظاهرون يرددون الأناشيد الحربية، بينما أيّد القوميون العرب من جمعيتي (العربية الفتاة) و (العهد) الدولة العثمانية في الأزمة الدولية الحاصلة، ولم يفكروا في استبدال الحكم التركي بحكم أجنبي، بل وأجلوا نشاطاتهم المطالبة بالإصلاح، وأوقفوا جرائدهم عن الخوض فيها، ولبى شبانهم نداء التعبئة العامة، وحتى الذين لم يتنازل أحدٌ منهم عن الاستقلال التام اتخذوا موقف الحذر والتحفظ؛ لإدراكهم أطماع الدول الأجنبية، في حين ارتأى فريق من اللبنانيين ذوي الثقافة الأجنبية اللاتينية الانضواء تحت علم دولة أوربية، والانضمام إلى الحلفاء، ومساعدتهم في حربهم ضد الأتراك، لكن دون جدوى فعلية، على أنّ إعلان الجهاد لم يحجب تساؤل أغلب علماء المسلمين: أيّ جهاد هذا الذي تساند فيه دولة إسلامية دولاً

مسيحية على دول مسيحية أخرى؟! برأيهم كانت الحرب بين المسيحيين، ولم يكن للمسلمين دور فيها، سوى أن يكونوا بعض وقودها.

وضع القادة العسكريون الألمان والأتراك خطة لحملة عبور قناة السويس في اجتماع عقد بين الجانبَين في مكتب أنور باشا وزير الحربية التركي؛ وحازت الخطة على أرجحية الأصوات. كانت تحقق للجانب الألماني تخفيف الضغط على الجبهة الغربية بإرغام الإنجليز على تجميد قسم كبير من جيوشهم في مصر، بدلاً من إرسالها إلى الجبهة، وحرمان إنجلترا من الممر المائي، الذي تنقل بواسطته جيوشها إلى مستعمراتها. وفيما يتعلّق بالجانب التركي، تمنع الحلفاء من الهجوم على المضائق والقلاع التركية، وفي حال نجاح الحملة ستتمكن تركيا من إلحاق مصر بحكم السلطنة إلحاقاً تاماً، وجرى تكليف أحمد جمال باشا بقيادة الحملة إلى السويس، مع احتفاظه بوزارة البحرية.

غادرت الحملة محطة الآستانة في (4) كانون أول /1914/ باحتفال مهيب، حضره الوزراء وكبار رجال الدولة وجماهير غفيرة؛ وألقى جمال باشا خطاباً قال فيه: «أقدر خطورة المهمة الملقاة على عاتقي، وجسامة المصاعب التي تنتظرني، فإن لم أدرك الغاية المرتجاة، وسقطت ومن معي جثثاً هامدة على صفحة القناة، فإنّ على من يقفون وراءنا من أبناء الوطن المخلصين أن يجعلوا من أجسامنا جسوراً يعبرون عليها لتحرير مصر - وديعة الإسلام - من أيدي غاصبيها».

توجهت الحملة صوب دمشق وسط مظاهر الحفاوة والابتهاج، وأُستقبلت في كل محطة بحشود من مختلف الطبقات، ضمّت العلماء والوجهاء، ورجال الإدارات الملكية والعسكرية، وطلاب المدارس والعامة، وأُلقيت أمام جمال باشا الخطبُ، فيما كانت الرايات العثمانية ترفرف فوق الهامات، وترتفع الأصوات بالدعاء، وأُنشدت أناشيد الانتقام للروملي بصوت شجي، يستدر العبرات ويثير الخواطر الحزينة، اشترك في إنشادها بنات يتّمتهنّ حروب البلقان.

بلغ ما لقيته الحملة من مظاهر الحماس في المدن السورية حلب وحماة وحمص؛ ما فاق كل مكان حلت فيه، بلغت ذروتها في دمشق، حيث تراكض الألوف إلى موقف القطار، وتبارى الخطباء في إلقاء القصائد، وذُبحت الأضاحي، وتوالت المظاهرات، ولقب جمال باشا بـ (فاتح مصر)، وكان الناس يتجمّعون حول الجامع

الكبير عندما كان الفاتح المقبل يؤمّه للصلاة، فتتعالى هتافاتهم: «يا الله النصر، يا الله النصر... جمال باشا افتح مصر» «يا والي الشام يا والي.. نحن علينا العرض غالي» يستثيرون حميته لإنقاذ المصريين من جور الإنجليز .حتى تناقل الناس عبارات شاعت بينهم: «إن الله جميل يحب جمال».

تحت قيادته في (15) كانون الثاني /1915/، بدأ زحف الجيش الرابع العثماني نحو مصر؛ كانت الخطة هي الإسراع بالوصول إلى القناة لشن هجوم مفاجئ على الإنجليز، لكن دون أن تسبقه أية تحضيرات، سواء بشق طرق للسيارات أو تأمين خطوط حديدية، كانت طرق سورية وفلسطين قد بلغت حداً من السوء أنّ المركبات التي تجرها الخيول لم تستطع السير، وكانت مفاوز صحراء سيناء بلا مسالك، ومع ذلك برهنت روح الجندية العثمانية والمجندين العرب على قيامها بمعجزات تغلبت على العوائق، إلى أن نجحت بشكل عسير جداً في نقل الجنود والمعدات من سورية إلى السويس؛ وقام الضابط الألماني فون كريس بحفر آبار على طول الطريق في الصحراء؛ وبذلك تمكن جنود الحملة من البقاء على قيد الحياة خلال مسيرتهم، لكن ما إن وصل الجيش الرابع إلى ضفاف القناة حتى اكتشف جمال باشا أنّ معظم الجنود لا يستطيعون استخدام الجسور العائمة للعبور إلى الضفة الأخرى، لكنه تمسك بخطته تحت وهم أنه بمجرد ظهور الجنود العثمانيين على ضفة القناة، ستندلع ثورة الشعب المصري في طول البلاد وعرضها، فيصبح الإنجليز بين عدوّين الأول داخلي والثاني خارجي، وتساعد الثورة الداخلية الأتراك على طرد الإنجليز والاستيلاء على مصر.

في وقت مبكر من صباح 3 شباط قبل بزوغ الفجر بدأ الهجوم، واستيقظ البريطانيون وراء استحكاماتهم ليباغَتوا بوجود جيش عثماني على الضفة المقابلة، ففتحوا النار عليه من أسلحتهم المتفوقة، واشتركت الطائرات والمدرعات بالقصف، وقامت مدفعية السفن الإنجليزية بنسف الجسور .وانتهى اليوم بتخطي خسائر الجيش العثماني ألفي جندي (أي عشرة بالمئة من القوات المهاجمة)، عدا الجنود الذين وقعوا في الأسر.

لم يكن هناك يوم ثان، ولا مزيد من القتال، جمال باشا لم يعاود الهجوم، ليسقط مع الذين سقطوا، ليعبر الآخرون فوق جثثهم، ولم يحرر مصر وديعة

الإسلام، زعم أنّ الجيش عاجز عن الصمود أو حتى البقاء على ضفة القناة، أصدر أمره بالتراجع، ولم تتوقف القوات عن التراجع، حتى وصلت سورية.

❖ ❖ ❖

قبل أن يصبح أحمد جمال باشا واحداً من الثلاثي المشهور :أنور وجمال وطلعت، الذي سيحكم الإمبراطورية العثمانية، كان قومنداناً في الجيش ومنتسباً سراً إلى جمعية الاتحاد والترقي. وسوف يقومُ بأدوارٍ رئيسة في إجبار السلطان عبد الحميد الثاني على إعادة الدستور والحياة النيابية عام 1908؛ ثم خلْعُه عام 1909. بعدها سيعيّن والياً على أضنة، ثم على بغداد، وفي إستانبول سيتسلّم الحكم رفاقه من الاتحاديين.

إثر اندلاع الثورة الألبانية عام 1912، ستسقط حكومة الاتحاديين، وتنتقل السلطة إلى حزب (الحرية والائتلاف)، الذي يتبنى فكرة اللامركزية، لكن وزارة الائتلافيين لم تعمّر طويلاً، إذ قدم أحمد جمال استقالته من ولاية بغداد وذهب إلى الآستانة بهدف القيام بانقلاب مع رفيقه الضابط أنور، الذي قاد غارة هوجاء واقتحم الباب العالي، كانت نتيجتها قتل وزير الحربية ناظم باشا، وإسقاط الوزارة.

تسلّم الاتحاديون زمام الحكم ثانية، وشكّلوا الوزارة برئاسة محمود شوكت باشا، استولى فيها أنور على وزارة الحربية، وطلعت بك على وزارة الداخلية، وأحمد جمال سيتولى منصب محافظ الآستانة. في كانون الثاني /1914/، وكان أنور في الحادية والثلاثين من عمره، تزوج ابنة أخت السلطان، واكتسب لقب باشا، وبالمقابل حصل جمال وطلعت على الباشوية، وأصبح الرفاق الثلاثة مركز الاهتمام في السياسة التركية، ومثلوا القوة الوحيدة التي سيطرت على السلطنة، عشية الحرب العالمية الأولى.

انتقم الائتلافيون لمقتل ناظم باشا باغتيال رئيس الوزراء شوكت باشا، فتبدّت مهارات جمال باشا في ملاحقة المتآمرين والقبض عليهم، كما اهتبلها فرصةً للتنكيل أيضاً بأقارب السلطان. واستغل الحادثة نفسها لسحق المعارضين الليبراليين، فجرى اعتقال البارزين منهم وعُدّوا مسؤولين عن اغتيال الصدر الأعظم، وحوكموا أمام محاكم عسكرية، وتمّ نفي 350 شخصاً، وإعدام 12

شخصاً في إستانبول، التي باتت خاضعة لولاية جمال باشا العسكرية. أدت الإعدامات إلى استئصال المعارضة الليبرالية من العاصمة، وشكلت نذيراً بآلية مستقبلية من الإجراءات العنيفة، ستمارس في الأناضول وسورية من خلال ابتكار اتّهامات مزورة وعقوبات تتراوح بين إعدامات سريعة وعمليات ترحيل جماعية؛ بعدها عُين وزيراً للأشغال العامة، وأوكلت إليه وزارة البحرية.

منذ تسلم الاتحاديون السلطة بدأ تنكرهم لدعاواهم في المساواة بين العناصر التي تضمها الإمبراطورية، وانقلبوا على حلفائهم العرب بعدما استجابوا لمطالبهم بدولة ثنائية القومية؛ لاسيما والعرب يشكلون 60 ٪ من رعايا الإمبراطورية بعد خسارتها ولاياتها الأوروبية؛ كما وحادوا عن النهج الدستوري، وحلوا محل السلطان في السيطرة على الدولة، وتعسفوا في تسييرها، مما أدى إلى وضع حد لانقسام الحركة السياسية التركية بين جماعة تبنت فكرة العثمانية الجامعة لشعوب السلطنة؛ بمنحها غير الأتراك نوعاً من الحكم الذاتي، تحصنهم من القيام بحركات مناوئة للدولة؛ وجماعة الاتحاديين التي أخذت بالمركزية الصارمة، وارتأت أنّ الحل الوحيد هو صهر العناصر كلها في البوتقة الطورانية، بإجبارهم على استعمال اللغة التركية، ومع الإعلان عن شوفينيتهم التركية، مارسوا التمييز ضد العرب والأرمن واليونانيين وغيرهم.

أما عن شوفينية الاتحاديين، فقد كان التركي (ضيا غوك آلب) من أقوى المعبرين عنها، بإصراره على أنّ بقاء الدولة لن يتحقق إلا بقيام أمّة واحدة هي الأمة التركية؛ أنّ عصر تنوع الأجناس داخل الإمبراطورية قد ولّى، وطالب بـ «تحرير اللغة التركية من الفساد الذي أدخلته عليها العناصر غير التركية، واصطناع الشدة في تصفيتها» كما طالب بتحرير اقتصاد الدولة من سيطرة اليونانيين والأرمن واليهود.

كانت قوة الاتحاديين ناشئة عن مقاومتهم للمصالح الأجنبية كافة، كما أكسبهم عداؤهم للأوربيين تأييداً شعبياً واسعاً.

اتّضح لرجالات العرب أنّ التعاون مع الاتحاديين مستحيل، فأسسوا جمعيات علنية وسرّية تجمع شملهم، فما كان من الحكومة الاتحادية إلا أن اتّخذت بحقهم أقصى العقوبات، مع الاحتياطات التعسفية، فأقصت الضباط العرب المقيمين في

الآستانة 490 ضابطاً إلى المناطق التركية، مثل تراقية والأناضول. أما الضباط المتواجدون في المناطق العربية، فأبعدتهم عن القيادة؛ وسارعت إلى العمل على التتريك، ومقاومة الحركات الإصلاحية في بيروت وباريس، وأمرت بإلغاء الأحزاب العربية كافة، وتعزيز نفوذ حزب الاتحاد والترقي في البلاد العربية، على أنّ هذا التضييق والقمع كانا يشتدان أو يخفتان بمقدار الحاجة إلى العرب.

الخطأ الذي ارتكبه الاتحاديون هو توريط تركيا في الحرب ضد الحلفاء، وكي يدافعوا عن توجهاتهم نشروا دعايتهم القائلة بأنّ كسب ألمانيا للحرب الدائرة في أوربا أمرٌ مفروغ منه، وأنّ الضامن الوحيد لسلامة الدولة العثمانية هو التحالف مع ألمانيا والنمسا، لتتقي خطر الروس على البلاد، وأكدوا بأن انتصارهم في الحرب سيعيد القطر المصري إلى الإمبراطورية العثمانية، ويجذب الهند الواقعة تحت الاستعمار الإنجليزي، لتسير في ركاب السلطان، لتعزيز قوة الجامعة الإسلامية. كانوا يأملون أن تخرج تركيا من الحرب أعظم دولة في الشرق، وحليفتها ألمانيا أعظم دولة في الغرب. وهكذا يتحقق للدولتين فرض إرادتهما على العالم.

استفاد الحلفاء من دخول تركيا الحرب، إذ امتلكت الإمبراطورية البريطانية من جراء هذه الخطوة ذريعة قوية للإجهاز على الإمبراطورية المريضة، ومنحتها حرية تقطيع أوصالها، وبات مع إعلان الحرب باستطاعة بريطانيا إغراء الدول المترددة بالتلويح لها ببعض المكاسب الإقليمية؛ فاجتذبت إيطاليا وبلدان البلقان إلى جانبها، وسوف تستفيد أيضاً بعد انتهاء الحرب، وتعرض أجزاء من الأراضي المحتلة على البلدان المتحالفة معها عند تسوية الصلح، بعد اقتطاع حصتها.

❖ ❖ ❖

جاء تعيين جمال باشا والياً على سورية مدعوماً بمجمل الصلاحيات في مختلف الشؤون العسكرية والمدنية، فمنحه القانون المؤقت سلطات استثنائية في أيار 1915، مثل إخضاع جميع المراسيم الوزارية ذات العلاقة بسورية لموافقته.

استعداداً لحملة السويس، وبمجرد وصوله إلى دمشق تقرب من الإصلاحيين العرب، وسعى لاستمالتهم إليه، فاتخذ من الدكتور عبد الرحمن الشهبندر طبيباً خاصاً له، واتصل بالشبان العرب ولاسيّما عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي، الذي أوعز الاتحاديون إليه مغادرة استنبول والذهاب إلى سورية؛ ليحض

الناس على تعضيد الحكومة في سياساتها. أصبح الخليل مقرباً من جمال باشا، لاسيما بعدما أخذ يجمع المتطوعين للدفاع عن السواحل السورية، كما أخذت جريدة (المقتبس) لصاحبها محمد كرد علي، وجريدة (المفيد) لصاحبها عبد الغني العريسي، تدعوان المواطنين إلى تعضيد الحكومة ومؤازرتها.

في أوائل شهر كانون الثاني 1915، قبل الانطلاق إلى السويس ألقى جمال باشا خطاباً في حفلة حضرها عدد كبير من رجالات العرب؛ قال فيها مخاطباً الشبان: «اعملوا على ترقية العرب والعروبة... جددوا مدنيتكم.. إنّ البرنامج الذي عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه لإصلاح حالة العرب لأوسع كثيراً مما يخطر ببالكم. ولست أتوجس شراً من بقاء العرب والترك متحدين وخاضعين لخليفة واحد، بل من انفصال أحدهم عن الآخر كشعبين مستقلين..

واليوم أراني قادراً على أن أؤكد لكم أن الأماني التركية والأماني العربية لا تتعارضان مطلقاً؛ فالترك والعرب ليسوا سوى أخوان في غايتهم الوطنية، وربما أكمل بعضهم مجهود بعض. إنّ غرض رجال تركيا الفتاة هو إيقاظ الشعور الوطني في الأمة التركية..».

وفي الليلة ذاتها أصدر أمراً بتفريق مجموعة من ثمانين شاباً عربياً كانوا يتلقون تدريباً عسكرياً يؤهلهم ليكونوا ضبّاطاً، سمعهم ينشدون النشيد الوطني العربي:

نحن جند الله شبان البلاد   نكره الذل ونأبى الاضطهاد

وأرسلهم إلى ميادين القتال البعيدة في الدردنيل والقفقاس، مع توصية بأن يوضعوا في خطوط النار الأولى، بعد انتهاء الحرب لم يعد منهم سوى أفراد قلائل.

أحدث خطاب جمال باشا تأثيراً كبيراً في النفوس، وقابله الإصلاحيون بالارتياح التام، وجاءه أعيان دمشق جماعات جماعات، وأقسموا بالقرآن على الولاء التام للحكومة، وبذل كل ما في وسعهم من مساعدة دفاعاً عن حقوق الإسلام ضد الإنجليز والفرنسيين، وقد اعترف جمال باشا في مذكراته بإخلاص الجنود العرب خلال حرب السويس: «ساد بين رجال الحملة (لا فرق بين الأتراك والعرب) شعور العطف الأخوي، ولم يكن بينهم من يضن بحياته دفاعاً عن إخوانه،

والواقع أنّ الحملة الأولى على القناة كانت برهاناً ساطعاً على أنّ غالبية العرب الساحقة انضموا إلى الخلافة بقلوبهم وجوارحهم.. ولم تحدث حادثة خيانة واحدة، أو فرار بين عرب سورية وفلسطين..».

بعد هزيمته في السويس عاد إلى دمشق، وحاول التمويه على تراجع الجيش بتزيين دمشق بالرايات والأنوار الكهربائية؛ وقام باستعراض وحدات منه، ثم ابتدأ بتثبيت حكمه في سورية من خلال مشروعين هما : الأول، إلغاء امتيازات متصرفية جبل لبنان، وإخضاع سكانها للسيادة العثمانية المباشرة. والثاني، القضاء على الفكرة العربية بتتريك العرب. ومن أجل تحقيقهما تحول من سياسة التعاون والثقة بالعرب إلى سياسة البطش والقتل والتشريد مستغلاً ضرورات زمن الحرب والكوارث الطبيعية التي أصابت المنطقة خلال هذه السنوات؛ بالإضافة إلى الغلاء والمجاعة التي ضربت لبنان، لانقطاع التحويلات المالية التي كان المهاجرون اللبنانيون يرسلونها إلى ذويهم، عملاً بقانون أصدرته الدولة حرمت به التعامل بالحوالات المالية المسحوبة على مصارف لندن؛ وحظر إرسال الحبوب من حوران إلى لبنان وفلسطين، وصودرت مع الجمال لصالح الجيش.

وصلت المجاعة في لبنان إلى حد بات فيه الناس يموتون جوعاً، وأخذوا يبيعون أولادهم، ويأكلون ثمر البلوط والخرنوب وجذور النباتات والأعشاب، والقطط والجرذان والهررة، ويبحثون عن الطعام في القمامة؛ وانتشرت الأوبئة والأمراض، وعمّ النهب والسلب والتعدي على الباعة، وتشكلت عصابات تغتصب الأرزاق والأطعمة والأموال، لم تقتصر المجاعة على لبنان، بل امتدت إلى سورية والعراق وفلسطين، وعندما توجه وفد من وجهاء البلاد وراجعوا جمال باشا بشأن المواد الغذائية وخاصة الخبز؛ سألهم: هل أكلت الأم أولادها؟ ولمّا أجابوه بالنفي. قال: إذن لا مجاعة في البلاد .

كانت السلطات العثمانية بعد قطعها لعلاقاتها مع فرنسا قد قامت باحتلال القنصليتين الفرنسيتين في بيروت ودمشق، فوضعت يدها على أوراق كشفت عن قيام بعض الزعماء الإصلاحيين والشبان العرب بالاتصال بالفرنسيين؛ وهناك أوراق أخرى صادرتها سلطات الرقابة، وهي عبارة عن رسائل بعث بها حقي العظم سكرتير حزب اللامركزية من مصر إلى محمود حمصاني في بيروت بعد إعلان

الحرب، وقد اطّلع جمال باشا على هذه الوثائق يوم وصوله إلى دمشق، وخشي من إثارة الأمر قبل الحملة حتى لا يثير مسلمي مصر والهند والجزائر والمغرب ضد تركيا؛ فأرجأ النظر فيها، ولم يتخذ إجراءات ضدهم، لكن إخفاقه الصاعق والمبكر في السويس جعله يستغل هذه القضية، بعد أن عثر على حجة للتنكيل بالإصلاحيين، فأشاع جواً من الإرهاب، بدأه باعتقالهم وإحالتهم للمحاكمة أمام محكمة عسكرية في بلدة عاليه في لبنان. جرت المحاكمات بصورة سرّية، ولم يطّلع أحد على ما دار فيها، وما وجه خلالها من تهم. وقد توقع الناس أن يُطلق سراحهم، لاعتقادهم بأن ما فعلوه لا يستوجب الإدانة، ولأن بعض المتهمين كانوا من أصدقاء جمال باشا.

بموجب الأوراق والمراسلات التي عثر عليها في القنصلية، أُسندت إليهم تهمة «التحريض على الثورة المسلحة بمساعدة الأعداء»، لكن أسباب الحكم عليهم بالعقوبة القصوى، لم تتضمن إشارة إلى العصيان المزعوم، ولم تتجاوز التهمة الانتساب إلى حزب اللامركزية، فلم يصدّق الناس نبأ تنفيذ الإعدام شنقاً في ساحة البرج في بيروت بأحدَ عشر شخصاً صباح 21 آب 1915 بتهمة الخيانة العظمى، بقرار صادر عن المحكمة العسكرية، ومصادق عليه من جمال باشا، وكانت هذه قافلة الشهداء الأولى:

1- عبد الكريم الخليل: من الشياح قرب بيروت، رئيس المنتدى الأدبي في إستانبول، عضو في جمعية اللامركزية.

2- محمد المحمصاني: من بيروت، خرّيج مدرسة الحقوق بباريس، وأحد مؤسسي جريدة المفيد.

3- محمود المحمصاني: من بيروت، أخو محمد محمصاني، من دعاة اللامركزية السريين.

4- عبد القادر الخرسا: أصله من دمشق ومقيم في لبنان، ومن وجهاء بيروت.

5- نور الدين القاضي: من بيروت.

6- سليم أحمد عبد الهادي: وهو من عائلة كبيرة، من قرية عرّابة قرب جنين بفلسطين، عضو مجلس إدارة المنطقة، ومعتمد الحزب في جنين.

7- محمود نجا العجم: من بيروت.

8- الشيخ محمد مسلّم عابدين: مأمور أوقاف اللاذقيّة من دمشق.

9- نايف تللو: من دمشق، معتمد جمعية اللامركزية في البقاع.

10- صالح حيدر: من أهالي بعلبك، رئيس بلدية بعلبك.

11- علي الأرمنازي: صاحب جريدة العاصي في حماة.

وحكم بالإعدام أيضاً على حافظ السعيد (نائب يافا في مجلس المبعوثان)، والشيخ (سعيد الكرمي) مفتي قضاء طولكرم، وخفض الحكم عليهما إلى السجن المؤبد لتقدمهما في السن، وقد مات حافظ السعيد في السجن، ومن المصادفات أنّ حسن حماد كان في طريقه إلى المثول أمام المحكمة بسبب تأخر وصول إشعار المحكمة بطلبه؛ فقرأ اسمه في الصحف بين من صدر الحكم بإعدامهم، فتوارى عن الأنظار حتى انتهت الحرب.

كذلك حكمت المحكمة العسكرية بالإعدام غيابياً على أكثر من سبعين شخصاً من أبناء سورية ولبنان وفلسطين؛ يقيم أغلبهم في مصر، أمثال :رفيق العظم، حقي العظم، رشيد رضا، عزيز المصري، شكري غانم، عزت العابد، داود بركات، فارس نمر، شبلي شميل، خليل مطران، نجيب عازوري...وكثير غيرهم.

استقر جمال باشا في دمشق، وأخذ يعمل على استرضاء أولي الأمر من الناس، فاستقبل الأغنياء ومنحهم وثائق بكميات من القمح ليتاجروا بها. وقرّب المشايخ إليه، وكرّمهم لإدراكه قوة نفوذهم على الشعب، واعتمد على القبضايات، وكان يصرف عليهم ما ينوف على خمسمئة ليرة ذهبية شهرياً، وفي الوقت نفسه استمر بإبعاد الضباط العرب من دمشق بإرسالهم إلى جبهة غاليبولي، حيث كانت الإصابات مرتفعة. كان إرسال المشتبه بهم إلى خطوط الجبهة ليقتلوا هناك، سياسة متعمدة لسحق مشروع أيّ تمرد في المستقبل، وأخذ يصرّ على أنور باشا وطلعت باشا، ويسألهم بإلحاح تخويله محاكمة جميع الذين وردت أسماؤهم في الأوراق المصادرة من القنصلية الفرنسية؛ وعندما ماطلا، أخذ يهّول من خطر نشوب ثورة عارمة تهدد سلامة كيان الدولة، حتى أذنا له بما طلبه من صلاحيات، فاغتنم الفرصة لاعتقالات جديدة لكل من يُشتبه في ميوله الوطنية.

في خريف 1915، تناقل الناس أخباراً مروّعة عن موجة من الاعتقالات للرجال الوطنيين؛ يجري التحقيق معهم في عاليه، فساد الذعر في البلاد، وتمت الإجراءات تحت إشراف جمال باشا، وفُصِّلت التهم والأحكام على من أراد التخلص منهم، ولم ينج منها إلا من جاء بوساطات كبيرة شهدت عليه بالبله، أو أنكر نسبه العربي، أو قدم هدايا ثمينة، بحيث عُدّل الحكم أربع مرات بأمر منه؛ إلى أن صدرت الأحكام النهائية في 5 أيار، ونُفّذت في اليوم التالي في السادس من أيار عام 1916، وكانت هذه قافلة الشهداء الثانية وتألفت من مجموعتين:

رجال المجموعة الأولى، وجرى إعدامهم في ساحة المرجة بمدينة دمشق:

1 - شفيق بك مؤيد العظم: من دمشق، عضو مجلس المبعوثان سابقاً.

2 - الشيخ عبد الحميد الزهراوي: من حمص، عضو مجلس الأعيان، ورئيس مؤتمر باريس العربي.

3 - الأمير عمر الجزائري: حفيد الأمير عبد القادر الجزائري من دمشق.

4 - شكري بك العسلي: من دمشق، عضو مجلس المبعوثان سابقاً.

5- عبد الوهاب الإنكليزي: من دمشق، أحد كبار الموظفين العثمانيين، مفتش في أنحاء الأناضول.

6- رفيق رزق سلّوم: من حمص، كاتب وشاعر وعضو العربية الفتاة.

7- رشدي الشمعة: من دمشق، عضو مجلس المبعوثان سابقاً.

رجال المجموعة الثانية، وجرى إعدامهم في اليوم نفسه، في بيروت ساحة البرج:

1- عمر حمد: من بيروت، أديب وشاعر.

2- عبد الغني العريسي: من بيروت، صاحب جريدة المفيد.

3- الشيخ أحمد طبارة: إمام جامع النوفرة في بيروت، صاحب جريدة الاتحاد العثماني.

4- محمد الشنطي اليافي: من يافا بفلسطين.

5- توفيق البساط: من صيدا.

6- باترو باولي: من التابعية اليونانيّة، مقيم في بيروت.

7- جرجي الحداد : من لبنان.

8- سعيد فاضل عقل: من الدامور بلبنان، رئيس تحرير جريدة النصير.

9- سيف الدين الخطيب: من دمشق،عضو محكمة.

10- علي بن عمر النشاشيبي: من القدس.

11- محمود جلال البخاري: من دمشق.

12- سليم الجزائري: من دمشق، ضابط في أركان حرب الجيش العثماني.

13- أمين لطفي الحافظ: من دمشق.

وقد أمر جمال باشا بإعدام عبد الحميد الزهراوي دون محاكمة، إذ لم تكن تجوز محاكمته إلا بأمر من السلطان لعضويته في مجلس الأعيان؛ واقتيد إلى المشنقة دون أن يعرف التهمة الموجهة إليه، وأُسقط اسمه من البلاغ المنشور يوم 7 أيار 1916 بأسماء الشهداء وأسباب إعدامهم.

اقترنت الأحكام السابقة بأحكام نفي وإبعاد، شملت حوالي 300 أسرة من أسر سورية الطبيعية؛ أُرسلوا إلى مدن الأناضول بعد مصادرة أملاكهم .كانوا من العائلات المعروفة مثل :آل المؤيد العظم، والأمير عبد القادر الجزائري، وآل الكيلاني، والشمعة والعسلي وعبد الهادي والحسيني والمطران وحيدر ...

عزا جمال باشا في كتابه (إيضاحات) تهماً مختلفة إلى الشهداء، منها الانتماء إلى جمعيات عربية، أهمها حزب اللامركزية، وزعم أنهم يهدفون إلى تأسيس خلافة في مصر تحت حماية الإنجليز، وجعل سورية تحت حماية فرنسا وإنجلترا، وتنصيب أمير مسلم مستقل في سورية، لكن الأحكام التي اعتمدت على ما وجد من أوراق ورسائل ومعها اعترافات المتهمين، لا تستدعي حتى في حال ثبوتها حكم الإعدام، لأنّ أحداً منهم لم يقم بعمل مادي ضد الحكومة، ولم يتجاوزوا نطاق التفكير إلى الفعل، كما لم يرد في وثائق القنصليتين سوى أسماء شفيق المؤيد وشكري العسلي والأمير عمر الجزائري، وما جاء فيها لا يبرر إطلاق تهمة الخيانة عليهم .كذلك لم ينشر الأتراك دفاع المتهمين عن أنفسهم، أمّا الاعترافات فقد أُخذت تحت التعذيب، وفي حال جواز الحكم عليهم بالإعدام، فهو لا يصيب سوى هؤلاء الثلاثة فقط، أما التهمة الرئيسة وهي انتماء المحكوم عليهم إلى جمعية اللامركزية: «غايتها سلخ

سورية وفلسطين والعراق عن راية السلطنة العثمانية؛ وجعلها إمارة مستقل»، فلا تُناقض برنامج اللامركزيين المعروف لدى السلطات التركية، الداعي إلى الإصلاح والحكم اللامركزي، وليس إلى الانفصال، علماً بأنّ حزب اللامركزية كان معروفاً من قبل الدولة، ولم يكن في برنامجه ما يوجب أيّة مسؤولية.

ومع أن جمال باشا أعلن حل المحكمة العسكرية، إلا أنه لم يلبث أن اعتقل في شهر حزيران أمير اللواء شكري الأيوبي (وكان موظفاً مدنياً يومذاك)، وشكري القوتلي (رئيس جمهورية سورية فيما بعد)، وفارس الخوري (نائب دمشق يومذاك ورئيس وزراء ورئيس البرلمان السوري فيما بعد)، وأمير اللواء عبد الحميد القلطقجي، وأشخاصاً آخرين بتهمة التآمر لإشعال ثورة عربية، وأحيلوا إلى محكمة عسكرية، فبرّأتهم، لكنه رمى بقرار المحكمة في وجه القاضي وقال له: «أريد حكماً بالعقوبة لا بالبراءة»، فأعيدت المحاكمة ليُحكم بالإعدام على شكري الأيوبي واثنين آخرين، لكن الحكومة المركزية في العاصمة، تدخلت وأمرت بحد سلطات جمال باشا وإرسال جميع قرارات الأحكام في القضايا السياسية إلى ديوان التمييز العسكري، فنقضها الديوان لعدم خروج الجرم المنسوب إلى حيز التنفيذ، ورغم ذلك أصر جمال باشا على بقائهم رهن الاعتقال، فظلوا في السجن إلى ما بعد مغادرته سورية.

إلى جانب شهداء القافلتين الأولى والثانية الذين أُعدموا بشكل جماعي، هناك أفراد آخرون حكم عليهم الديوان العُرفي بتهم مماثلة، وتمّ إعدامهم في مدن مختلف، وفي تواريخ متفرقة:

1- الخوري يوسف الحايك: من سن الفيل قرب بيروت، أُعدم في دمشق 22 آذار 1915.
2- نخلة باشا المطران: من أهالي بعلبك، اغتاله حارسه بعد قرار إبعاده قرب أُورفه بالأناضول في 17تشرين الأول 1915.
3- الشقيقان فيليب وفريد الخازن: من جونية بلبنان، أُعدما ببيروت يوم 2 أيار 1916.
4- عبد الله الظاهر: من عكّار، أُعدم ببيروت يوم الأول من آذار 1916.
5- يوسف الهاني: من بيروت، أُعدم ببيروت في نيسان 1916.

6- محمد الملحم: شيخ عشيرة الحسنة، أُعدم بدمشق أوائل 1917.
7- فجر المحمود: من عشيرة الموالي، أُعدم بدمشق أوائل 1917.
8- شاهر بن رحيل العلي: من عشيرة التركي، أُعدم بدمشق على أثر إعلان الثورة العربيّة.
9- الشيخ أحمد عارف، مفتي غزة وولده: من مدينة غزة أُعدما في القدس الشريف 1917.
10- الشقيقان أنطوان وتوفيق زريق، من طرابلس، أُعدما بدمشق سنة 1916.
11- يوسف سعيد بيضون، من بيروت، أُعدم بعاليه بلبنان يوم العاشر من شهر آذار 1916.

زعم جمال باشا بأنه لم يوافق على هذه الأحكام إلا بعد استئناسه بالمحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني؛ ليفتي له، هل يجوز إعدامهم أم لا؟ ويدّعي بأنه سأله: «ما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله، ويسعون في الأرض فساداً، ويلقون الفتنة بين المسلمين، فيقتل بعضهم بعضاً؟». فأجابه الشيخ الحسني: «إنما جزاؤهم أن يقتلوا أو يصلبوا، وتقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض». إذا كان هذا هو السؤال، فالجواب صحيح؛ إذ الفتوى على قدر النص، وبافتراض أنّ الحادثة حقيقية، فلن يكون الحصول على الفتوى سوى تدجيل صارخ من جمال باشا، استغل من خلاله الدين في القتل العمد.

❖ ❖ ❖

لم يقف الرجال المحكوم عليهم بالإعدام أمام المشنقة وقفة اليائس ولا الخائف؛ لم تضعف جرأتهم، ولم يهتز صمودهم، وضربوا بجسارتهم في مواجهة الموت أمثولات نادرة؛ كانوا في هزئهم واحتقارهم لجلاديهم، وشجاعتهم المفرطة في التحدي أشبه بأسطورة من خيال سامق مغرق في الفداء، كان إيمانهم بعروبتهم، ونشدانهم الاستقلال، قد منحهم صلابة استهانت بالموت، وجعلتهم يهزمون جبروت الظلم والظالم، ويبين وصف ما حدث في اللحظات الأخيرة لرجال القافلتين الأولى والثانية تلك الرسالة الوطنية التي ودّ هؤلاء الرجال توجيهها إلى شعبهم والأجيال

القادمة؛ وهم يتقدمون مرفوعي الرأس برباطة جأش نحو حتفهم، شهادات أثبتها المؤرخون الأتراك ومنهم يوسف حكمت بايور، تدلل على صدق قضيتهم وإخلاصهم لها؛ وفي وصف فالح رفقي آتاي مدير مكتب جمال باشا الخاص في كتابه (جبل الزيتون)، المنشور في تركيا 1935 لإعدام رفيق رزق سلوم في دمشق، إخلاص حازم وحاسم ونهائي للحرية لم ينل منها الخوف من الموت:

كان رفيق سلوم آخر من سيقَ إلى المشنقة، ستة أشخاص كانوا قد صاروا قبله جثثاً هامدة تتدلى من بين أعواد ستة من المشانق؛ عندما وصل إلى رأس الميدان، ورأى المشنقة الفارغة، قال مبتسماً:

«يظهر أنّ موقفي هنا».

وأخذ يسير نحوها، لكنه عندما اقترب من المشانق، ورأى جثة عبد الحميد الزهراوي المتدلية من المشنقة الأولى أخذ طوراً جدياً، وسلَّم عليها صائحاً:

«مرحباً، يا أبا الحرية».

وعندما صعد على كرسي المشنقة لمح بين الحاضرين شاباً تركياً كان زميله في كلية الحقوق في إستانبول، فوجه إليه عبارة وداع، ثم قال:

«حقاً إن السير نحو الموت دون حقد ودون أسى، لهو من أصعب الأمور».

واستناداً إلى مذكرات فائز الخوري الذي قضى فترة في سجن عاليه موقوفاً، كتب يصف فجر 6 أيار عندما طرق العسكر باب مهجع المعتقلين ونودي بصوت أجش :عبد الغني العريسي، البس ثيابك، فنظر الجميع إلى عبد الغني، فإذا هو عالي الجبين يبتسم، لا تشوبه شائبة خوف، كانت سنّه الذهبية تلمع من خلال ابتسامته، أما عمر حمد، فأخذ يلبس ملابسه لأنه يعلم بأن مصيره مقرون بمصير صديقه، وخرج وهو ينشد:

نحن أبناء الأُلى شادوا مجداً وعُلا
نسل قحطان الأبي جدُّ كل عربي

ولم يكن بين الشهداء من هو أشجع منه.

في ساحة الإعدام، عندما حضر الطبيب لفحص أجسادهم، غضب بترو باولي وصرخ بالموظفين الترك: «عجلوا بتنفيذ حكمكم، وخلصونا من وجوهكم

القبيحة، كان الأولى بكم بدلاً من أن تفحصوا أجسامنا بدقة أن تحاكمونا بعدل؛ تأكدوا أننا لا نخاف الموت ولا نهاب المشنقة، خلصونا عجلوا»، وخفّ مسرعاً إلى المشنقة وصعد إليها، ووضع الحبل في عنقه، ورفس الكرسي برجله.

ولما جاء دور عمر حمد، تقدم نحو المشنقة، وهو ينشد ثلاثة أبيات حماسية من الشعر نظمها قبل قليل، ثم وقف وخاطب رضا باشا ومدير البوليس بالفرنسية:

«إني أخاطبكما بالفرنسية، لأنكما لا تعرفان العربية، بلّغا حكومتكما التركية الظالمة أن العمل الذي يقوم به رجالها الآن سيكون سبباً لخرابها وتقويض أركانها».

ثم التفت إلى الحاضرين وقال باللغة العربية:

«إنني أموت غير خائف ولا وجل، أموت فداء الأمة العربية، خَسِفتَ يا هلال، وشُلّت يداك يا جمال، فليسقط الأتراك الخونة، وليحيا العرب».

وهنا هجم عليه الضابط المشرف على عملية الإعدام، ورفس الكرسي من تحته، ولم يكن الحبل قد وضع في عنقه، فهوى على الأرض بين حي وميت، فوخزه الضابط بالسيف، ثم رُفع إلى المنصة والدم يسيل من جرح بليغ في رأسه، فتدخل عبد الغني العريسي، وكان قد أخذ مكانه على المنصة المجاورة لمأموري الحكومة، وقال لهم:

«عار عليكم أن تعذبوا المحكوم عليه إلى هذه الدرجة، إنّ الإنسانية ستنتقم منكم على هذه الأعمال».

وعندما حاول الشرطي أن يسرع بوضع الحبل حول عنقه، نهره باشمئزاز:

«دعنا نتكلم يا هذا، واحترم إرادة رجل يموت».

والتفت إلى الناس وقال بصوت جهوري :

«بلغوا جمال باشا أنّ الملتقى قريب، وأنّ أبناء الرجال الذين قتلوا اليوم سيقطعون في المستقبل بسيوفهم أعناق الترك، إنّ الدول لا تبنى على غير الجماجم، إنّ جماجمنا ستكون أساساً لاستقلال بلادنا».

ولما شاهد توفيق البساط ذلك المشهد المؤثر، وكان قد سبقه عشرة شهداء، صاح مخاطباً المشنقة:

«مرحباً بأرجوحة الشرف، مرحباً بأرجوحة الأبطال، مرحباً بالعمد التي تستند إليها الشعوب في استقلالها، مرحباً بالموت في سبيل الوطن الحر».

كان يتكلم وهو يمضي إلى المشنقة بسرعة الطير، وما أنجز كلامه حتى اعتلى المنصة، ووضع الحبل حول عنقه، وبسرعة البرق رفس الكرسي برجله، وفاضت روحه إلى جانب رفاقه.

كان في مقدمة الشهداء شفيق المؤيد العظم، الذي كان أكبرهم سناً، ألقى كلمة بليغة مختصرة، نوه فيها عن موته في سبيل الغاية الشريفة التي يسعى أحرار العرب إلى تحقيقها والإصلاح السياسي الذي ينشدونه، وختمها بقراءة الفاتحة، وتكلم رشدي الشمعة منددا بالدولة، وختم بالآية الكريمة ﴿ولا تحسبن الله بغافل عما يعمل الظالمون﴾. أما شكري العسلي فختم كلامه بـ «إن الله بالمرصاد، وسينتقم من الكفرة الظالمين».

بعد الأحداث السابقة، عدلت الحكومة العثمانية الجديدة برئاسة طلعت باشا عن سياساتها؛ وتبنت تجاه العرب سياسة تقارب ومصالحة، وبات النظام في العاصمة التركية مقتنعاً بأنّ استبقاء المناطق العربية ضروري إذا كانت الإمبراطورية العثمانية ستبقى «قوة عظمى». غير أنّ إمكانية الاطمئنان إلى تكليف جمال باشا بتطبيق هذه السياسة في سورية، كانت موضع شك. ولم يعد مرغوباً حتى من الحكومة التركية ببقائه في دمشق، فما لبث أن أقدم في كانون الأول /1917/ على تقديم استقالته والعودة إلى وزارته.

❖ ❖ ❖

لقب السوريون جمال باشا بالسفاح، هذا اللقب منحته إياه المأساة السورية ومن قبلها الأرمنية. كانت ممارساته الإرهابية في سورية شبيهة من حيث الطبيعة، إنْ لم يكن من حيث المدى، بسياسته الدموية في التعامل مع الأرمن في الأناضول الشرقية.

لما قامت الحرب أصدرت الحكومة التركية أوامرها بإبادة الأرمن سواء بالقتل أو التهجير، وادّعوا أن أعمال التخريب الروسية خلف الخطوط العثمانية كانت تتم عبر الحدود بالتعاون مع الأرمن في شمال شرقي الأناضول؛ المنطقة المحاذية

لأرمينيا الروسية، وفي الواقع عندما أعلنت الحرب، آثر الأرمن المسيحيون القضية الروسية على القضية التركية، إذ لم يكن هناك شيء من تاريخ الحكم العثماني لبلادهم، يحفزهم إلى البقاء على الولاء للقسطنطينية، فالمجازر التي تعرضوا لها على أيدي الأتراك لم تحصل فقط مع بدايات الحرب العالمية؛ وإنما توالت في الأعوام /1894،1895، 1896، 1909/ . وكانت ذكرياتها ماثلة في أذهانهم .وقد أرسل أنور باشا إلى أرمينيا في الحملة ضدهم أعداءهم الألداء من الأكراد، ضمن الوحدات العسكرية العثمانية للتنكيل بهم، فأشعل من جديد خصومات قديمة؛ وهيّأ لخصومات جديدة، وقد ادعى بصفته وزيراً للحربية، كذلك طلعت باشا بصفته وزيراً للداخلية في أوائل عام 1915، أنّ الأرمن يؤيدون روسيا علناً وإنهم لجأوا إلى العنف والسلاح بتحريض من روسيا القيصرية وبدعم منها، وسعوا إلى إقامة دولة أرمنية في منطقة كانت غالبيتها تركية، وقاموا بمجازر ضد السكان المسلمين في مدينة (فان) واشتركوا في هجمات خاطفة على الجيش التركي؛ وانتقاماً منهم، أمر بترحيل السكان الأرمن جميعهم من الولايات الشرقية إلى مواقع خارج الأناضول بعمليات ترحيل ضخمة، نظمها طلعت وزير الداخلية، ارتكبت خلالها الكثير من الفظائع، فقد كان اغتصاب النساء والقتل والضرب أموراً شائعة، والذين لم يقتلوا في الحال شُردوا عبر الجبال والصحارى دون طعام أو شراب أو مأوى. وخلال هذا التهجير الجماعي انهار وقتل ومات مئات الألوف من الأرمن. وأطلق عليها المؤرخون وصف المجازر الأرمنية لعام 1915.

ومهما كان الخلاف حول عدد الضحايا هل هو مليون ونصف أم أقل، فلا خلاف على أنه قد جرى تدمير أرمينيا التركية وأهلك نصف شعبها. ولم تستطع ألمانيا حليفة تركيا تجاهل أعمال القتل والنفي بحق الأرمن، بل ونبهت رجال الدولة إبانها إلى ما يمكن أن ينجم عن أعمالهم من عواقب سلبية. وإزاء إنكار الأتراك، اضطر السفير الألماني إلى إبلاغ مستشار ألمانيا بأنه لم يعد هناك شك في أنّ الباب العالي يحاول إبادة العرق الأرمني في الإمبراطورية التركية، وبالمقابل استغل الإنجليز والفرنسيون المجازر الأرمنية كمادة دعائية مؤثرة في الحرب الدائرة، والأسوأ أنها عززت الحجة القائلة أنه لا يمكن ائتمان الإمبراطورية العثمانية الإسلامية على

سكان غير مسلمين، فيما كان الأمر الصحيح هو أنه في ذلك الوقت، لم يكن من الممكن ائتمانها أيضاً على سكان مسلمين غير أتراك.

وكان جمال باشا قد أسهم عندما كان والياً على أضنة، بتدبير مجزرة فتكت بثلاثين ألفاً منهم، بعد أن تظاهر حسب المعتاد باسترضائهم والتعاطف مع مطالبهم. وعندما كان في سورية شجع على نفيهم من أراضيهم، ثم اتبع الأسلوب نفسه، الإعدام والترحيل، في البلاد السورية، وقد فسّر البعض ممارساته بأنها كانت نابعة من الخوف من احتمال قيام انتفاضة قومية بتشجيع قوى معادية؛ غير أنّ التهديد كان وهماً أكثر منه واقعاً، وبالعكس جعل السوريين يصرون على الاستقلال التام.

هل كان جمال باشا سفاحاً فعلاً؟ لا أحد يستطيع الجزم بذلك، إذ كثيراً ما التبس المجرم بالثائر، وتداخلت الغايات الوطنية والمبدئية وحتى الشريفة منها بالغايات النفعية، وعادة ما يصبح الثوار والمجرمون عندما يستعينون بالمبادئ أكثر قدرة على القمع والقتل؛ لكننا نستطيع الجزم بأن جمال باشا لم يراع في تلك المحاكمات الحقيقة ولا العدالة؛ ولم تكن تعني بالنسبة إليه سوى إرهاب كل من يفكر بالخروج على السلطنة، فمثّل الطغيانَ بأحطِّ صوره، مع الاستعلاء والحقد والاستهانة بالحياة الإنسانية.

يروي الجنرال علي فؤاد رئيس الأركان التركي في دمشق :

في شهر نيسان 1916، جاء المقدم شكري بك رئيس ديوان الحرب بعاليه، إلى مقر أركان الجيش في فندق فكتوريا بدمشق، وقال :إنّ محاكمة المتهمين انتهت، وكونت هيئة الديوان فكرة صريحة عن حقيقة القضايا، واقتنعت بأن عدد الذين يمكن الحكم عليهم بالإعدام لا يتجاوز الثلاثة أو الأربعة على أكثر تقدير؛ وقد ارتأت الهيئة عرض الأمر على جمال باشا قبل أن تكتب قرارها النهائي في هذا الشأن؛ فحضر ومعه قائمة بأسماء المتهمين، مكتوب جوار كل اسم رأي هيئة الديوان في الحكم الذي يجب أن يصدر في حقه.

وبما أنّ الجنرال علي فؤاد كان يعرف اتجاهات أفكار جمال باشا، ولا يجهل روح العنف والقسوة التي يتصف بها، فقد قال لشكري بك:

«عندما تُعرض عليه القائمة، تَضرعْ إليه لكي لا يتشدد في الأحكام، وإذا اقتضى الأمر قل له: أرجوك يا باشا، فكّر في التاريخ».

وذهب شكري بك إلى غرفة جمال باشا، وعاد مصفرّ الوجه بعد خمس دقائق فقط، وحكى ما حدث، فقد قال له: «إنّ ديوان الحرب أنهى المحاكمات، ودوَّن رأيه في هذه القائمة، وأنا جئت للعرض والاستئذان»، وقدم إليه القائمة، تناولها منه، ودون أن يقرأ ما هو مكتوب فيها، أخذ يكتب جوار كل اسم :إعدام، إعدام، إعدام... عندئذ رأى رئيس المحكمة أن يعمل بتوصية علي فؤاد، فقال:

«يا باشا، أرجوك فكر في التاريخ».

فصاح جمال باشا في وجهه:

«التاريخ؟ فليتحطم على رأسك».

في الحقيقة، لم يغفل جمال باشا عن التاريخ، ولم يرمه وراء ظهره، وحاول تبرير أعماله في سورية، في كتابه (الإيضاحات) وفي مذكراته أيضاً، لكن التاريخ لا يُخدع بهذه السهولة، فأصدر حكمه عليه، بالمصادقة على اللقب الذي أطلقه عليه العرب: السفاح.

ولن يطول الوقت، عندما سيدرك بأنه لم يقض على بوادر الثورة في سورية، وإنّما أيقظها، وأنّ ما ارتكبه من بطش وتنكيل لم يفضيا إلى ما رمى إليه، فالثورة العربية التي ستندلع في الحجاز، انطلقت شرارتها الوطنية من سورية، عندما شجعت الجمعيات السرية المنتشرة في دمشق الشريف حسين على قيادتها؛ ووعدت بالانضمام إلى جيشه، وسوف تدين الثورة العربية، في أوّل بيان لها الإعدامات في سورية.

❖ ❖ ❖

في تشرين الثاني 1918، بعدما وضعت الحرب أوزارها بهزيمة ألمانيا وتركيا، هرب الثلاثي أنور وجمال وطلعت من حطام الإمبراطورية العثمانية بمساعدة الألمان المتقهقرين حاملين معهم الملايين من الليرات الذهبية؛ وفرّوا عبر البحر الأسود إلى أوديسا، وتمكن أنور وطلعت من الوصول إلى برلين، أمّا جمال فتابع

إلى سويسرا، وبعدها ذهب إلى أفغانستان ليعمل مفتشاً عسكرياً عاماً، ويدرّب الجيش الأفغاني على أساليب الحرب الحديثة.

لم ينس الأرمن فعلة الاتحاديين، وسوف يتخذ (الاتحاد الثوري الأرمني) قراراً بالاقتصاص من جميع الاتحاديين المسؤولين عن المذابح الأرمنية، فاغتالوا في عام 1921طلعت باشا في مدينة برلين، وجيفانشير في مدينة إستانبول والصدر الأعظم سعيد حليم باشا في مدينة روما بإيطاليا، كذلك بهاء الدين شاكر وجمال عزمي، أمّا جمال باشا فسوف يترصدونه لدى مروره بتفليس، قادماً من كابول، ويتتبعه اثنان من الشبان الأرمن في شارع كانوفسكايا حيث كانت السفارة التركية، ويتوليان أمره في شارع صولاك الجانبي على مقربة من شارع بطرس الكبير وساحة يريفان؛ كانت الساعة العاشرة ليلاً عندما استوقفاه مع مرافقيه، وصرخ أحدهما في وجهه بغضب: «يا باشا...يا باشا! تذكر أورفه واستغاثة نساء الأرمن، تذكر دير الزور...» وأطلقوا النار عليه وعلى مرافقيه وأردوهم قتلى.

❖ ❖ ❖

حكم جمال باشا سورية مدة ثلاث سنوات، كانت من أقسى الفترات وأشدها مرارة في تاريخها الحديث، وخسائرها أكبر من أن تحصى، فقد فقدت خلالها مجموعة من أقدر رجالاتها وأعلاهم شأناً ومنزلة، من ذوي الرأي الحر والفكر المتنور، ومن أكثر المؤمنين بالرابطة العثمانية على أساس اللامركزية؛ وقُضي على زهرة شبانها المثقفين وأكثرهم نبوغاً، كانوا أمل الشعب، ورجاء الأمة، وعماد نهضتها القادمة وحلمها في الازدهار والتقدم، لم تكن قوميتهم متناقضة مع النزعة العثمانية، كانت رؤيتهم مخلصة في بناء الدولة على أسس سليمة. وللأسف عقد رجال مثل الزهراوي والعسلي آمالاً كبيرة وصادقة على المصالحة العثمانية؛ لكن التزام الاتحاديين بالمطالب العربية لم يكن إلا خداعاً.

ونستطيع القول دونما افتئات بأن مجزرة المثقفين تلك، كانت مجزرة للعقول المفكرة الرائدة في نهضة سورية القادمة، والتي أصيبت بصدع مبكر، وسوف تفقد النهضة في بلاد الشام زخمها، بسبب الهجرات السورية المتتالية للمثقفين الشوام، وتجيرها لحساب النهضة في مصر.

لم يحاول جمال باشا ورفاقه تصحيح الأخطاء قدر ما كرسوها بأخرى؛ وأضاعوا فرصاً تاريخية في التعاضد بين الشعبين في مرحلة شكلت خطراً عليهما معاً؛ إذ لم يخفِ الإنجليز والفرنسيون مطامعهم الدائمة في تقاسم المنطقة؛ بحيث بات التصدي لهما بالنسبة للعرب في ذلك الوقت لا يعني سوى استمرار الظلم والإرهاب الواقع عليهم؛ ومن سوء الحظ بقي هذا الالتباس بينهما، فزعم الأتراك بأن العرب خانوهم في الحرب، وادّعى العرب بأنهم تخلصوا من النير العثماني بعد أربعة قرون من الظلام الدامس.

ابتليت الإمبراطورية العثمانية في العقد الأخير من وجودها بنابليونات صغار ذوي رؤى ضيقة ومتعسفة وأفعال جائرة وخسيسة؛ أوردوا البلاد الدمار باستعداء العرب، وأسلموا بطغيانهم بلاد الشام لقمة سائغة إلى الغرب بدلاً من التفاهم معهم على نهج يعيد صياغة العلاقة بينهما ويبث الروح من جديد في الأواصر التاريخية والجغرافية العربية التركية. وريثما ندرك أننا كلانا كنا ضحية لجور السلاطين ومطامع الدول الكبرى، ولرجال مغامرين قصيري النظر من أمثال أنور وجمال وطلعت؛ علينا التخلي عن الأحقاد ونزعات الكراهية والتحلي برؤية نقدية لا تغفل الماضي وهي تتطلع إلى المستقبل.

هاشم الأتاسي

الشيخ الجليل

(1873 - 1960)

إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى، كانت حصيلة الثورة العربية الكبرى في سبيل الاستقلال مريرة؛ ففي مؤتمر الصلح الذي انعقد في باريس كانون الثاني 1919، تمسكت فرنسا بسورية ولبنان؛ حصتها من غنائم الحرب، وأظهر محترفو السياسة الفرنسية الاستعمارية استغرابهم من مطالبة فيصل بسورية: «بالرغم من أوجه الشبه في اللغة والدين بين السوريين والعرب، فالسوريون ليسوا عرباً، وهم جديرون ببلد يخصّهم تحت توجيه فرنسا». أما بريطانيا صديقة العرب، فأعلنت صراحة: لن نخاصم فرنسا حول سورية، قالها لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني للأمير فيصل: «يا أميرُ، فرنسا جارتنا، يفصلنا عنها زقاق ضيّق، امتزجت دماء أبنائنا على أرض المعركة، لن نحارب جارتنا لأجل سورية».

لن تؤخذ أماني العرب ولا دماؤهم بالحسبان، كانت اتفاقية سايكس - بيكو التي وُقّعت سراً بين الدولتين في التاسع من أيار 1916؛ تنظم تقاسمهما للتركة العثمانية من بلاد الشام. وتنكر البريطانيون لوعودهم بالاستقلال التي استمالوا بها العرب لمساعدتهم في حربهم ضد ألمانيا وتركيا؛ وخانوا بصفقات تعهداتهم التي قطعوها على أنفسهم للشريف حسين. وخانوا أيضاً المثل العليا التي يفترض أن الحرب كانت من أجلها.

بعد العودة الخائبة للأمير فيصل من مؤتمر الصلح، دعا لتشكيل مؤتمر سوري عام منتخب، يشمل لبنان والساحل وسورية الداخلية والأردن وفلسطين؛ لإظهار البلاد الشامية بمظهر الدولة القادرة على حكم نفسها بنفسها؛ وأنها أمة مجمعة على الاستقلال. فحضر حسب إحدى التقديرات حوالي 120 منتدباً من عموم بلاد الشام والعراق؛ وانتُخب هاشم الأتاسي رئيساً للمؤتمر، وفي الدورة الأولى منه، أُعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية على أساس نظام برلماني

دستوري، ونُصِّبَ فيصل ملكاً، وشُكلت لجنة مهمتها صياغة مسودة الدستور، أنجزته خلال عشرة أسابيع على نمط ديمقراطي.

بيد أن مصير سورية كان قد تقرر، وبدأ يظهر للعلن، ففي 15 أيلول 1919 سيوافق البريطانيون في مؤتمر فرساي على إطلاق يد فرنسا في سورية الداخلية مقابل تنازلها عن عدم المطالبة بولاية الموصل لقاء حصة من نفط العراق؛ وفي مؤتمر سان ريمو 25 نيسان 1920، سيصدر المجلس الأعلى للحلفاء قراراً بانتداب إنكلترا لفلسطين وشرق الأردن مع تنفيذ وعد بلفور، وانتداب فرنسا لسورية ولبنان ومقاطعة كليكيا، فيما كانت الفيالق الفرنسية تواصل تدفقها على لبنان والساحل السوري.

وجّه الجنرال غورو في 14 تموز إنذاره إلى الملك فيصل بقبول الانتداب الفرنسي؛ فاستقالت الحكومة، وشُكلت وزارة حرب برئاسة هاشم الأتاسي، كان هذا هو الظهور الثاني والعاصف لهاشم الأتاسي على ساحة ادلهمت بنذر الحرب؛ الجيش الفرنسي على الأبواب، وسوف يحاول الأتاسي إنقاذ ما لا يمكن إنقاذه، لكن الجنرال غورو لن يأخذ بجميع الذرائع؛ لا بديل عن الانتداب. كان القرار جاهزاً وهو أن يخسر السوريون أي أمل لهم في الاستقلال؛ وحققت فرنسا بالقوة طموحها بإضافة سوريا ولبنان إلى ممتلكاتها الإمبراطورية؛ بعد أن اختلقت لنفسها مبررات معنوية وسياسية واقتصادية، على رأسها ادعاءاتها القديمة بفرض الحماية الدينية على المسيحيين.

❖ ❖ ❖

تعكس حياة هاشم الأتاسي العامة، الحياة السياسية لسورية طوال أربعين سنة، تغطي سنوات الانتداب الفرنسي إلى سنوات ما بعد الاستقلال. لم يكن الأتاسي رجل حرب، وإنما رجل إنقاذ وسلام ودبلوماسية ومفاوضات؛ دمث الخلق، عفيف ومتسامح، ذو سلوك يتميز بالهدوء والرقة، بعيد عن التهور، مستقل، لم ينضم إلى أي حزب، ولم يجمع من حوله الأعوان والمريدين، كان رجل عقل وعلم وعمل، يشار إليه على الدوام بالشيخ الجليل والوقور، كل هذه الصفات وأكثر يضاف إليها التواضع مع استقامة لا يُستهان بها.

لم يغب الأتاسي طوال سنوات عمله السياسي عن المفاصل الرئيسية للأحداث الكبرى. كان أحد الفاعلين والمؤثرين فيها. ودونما مبالغة؛ لولا وجوده على رأس الحركة الوطنية، لابتليت سورية بالمزيد من المساومات الرخيصة والشطط الحماسي؛ كان رجلاً لين العريكة، لكنه لعب أدواراً في منتهى التصلب، كان أحد الرجال الذين قادوا سورية على درب الاستقلال، دون أن يهادن في وحدتها.

وبلا ريب كان لنشأة الأتاسي دور في تركيب شخصيته الثرّة، فقد كان سليل طبقة من علماء الدين والعلم، توارثوا الفتوى أباً عن جدّ، أخذ من الدين التسامح والزهد، ومن العلم رجاحة الرأي وسداد الحكم، أمضى حياته في الخدمة العامة، وتقلّد مناصب لا تعبأ بهذه السجايا كثيراً، وسوف يحقق مكانة قليلاً ما حصل عليها أحد بنزاهة، ويحصد سمعة حسنة لن يماري فيها أصدقاؤه وخصومه ولا حتى أعداؤه؛ ويُجمع عليه السوريون الذين اشتهر عنهم أنهم قلّما أجمعوا على شيء؛ ويتوافقون عليه بطبقاتهم وأحزابهم ومختلف اتجاهاتهم. فالإجماع الذي حصل عليه باختيارهم له لرئاسة المؤتمر السوري؛ سيتكرر برئاسة الكتلة الوطنية والوزارات، وترؤُس وفود المفاوضات ورئاسة الجمهورية أكثر من مرّة. ويلجؤون إليه في الظروف الصعبة، وكلما دب الخلاف بين زعماء الأحزاب إيماناً منهم بسلامة رأيه ونبل مقاصده.

ولد هاشم الأتاسي عام 1873، كان أبوه نائباً في مجلس المبعوثان، تلقى في طفولته تعليماً دينياً، وقضى دراسته الابتدائية في مدينته حمص، أرسله أبوه وهو في سنّ الحادية عشرة إلى بيروت للدراسة الثانوية في معهد الحكمة، بعدها إلى إستنبول للدراسة في المدرسة العليا للإدارة، ولم يكن قد تجاوز السادسةَ عشرةَ. أنهى دراسته عام 1894، عاد إلى حمص وتزوج ابنة عمه، في العام نفسه عُيّن في بيروت في أول وظيفة إدارية: (بمعية والي بيروت)؛ أي مدير مكتبه، بعدها تنقل في أنحاء بلاد الشام: قائمّقام لقضاء بانياس والحفة، ثم صفد في فلسطين، وصور وجبل عامل في لبنان، وقضاء السلط قبل أن تُحدث مملكة شرق الأردن، وشغل أيضاً منصب متصرف الكرك بالوكالة، وقضاء جبلة وعجلون، ومدينة بعلبك لقضاء البقاع والهرمل ويافا. رُقي في عام 1913 إلى منصب متصرف لواء (محافظ) وعُيِّن متصرفاً على لواء حماه وحمص، بعدها لواء عكا، ثم في جبل

بركات بالأناضول الجنوبي، ومتصرفاً على لواء بوردو في الأناضول الغربي الأوسط حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى.

خدم الدولة العثمانية بكلّ أمانة، وكانت لديه انتقادات على الإدارة العثمانية، لكنها لم تبلغ حدّ الثورة، كان يؤمن بالإصلاح التدريجيّ، فلم يشارك بالثورة العربية، وإن تعاطف معها، لم يتحالف مع الغرب، لعدم ثقته به، ولإدراكه لمطامعه.

هذا التجوال في بلاد الشام والأناضول الذي قارب ربع قرن بين أهالي المدن السورية واللبنانية والفلسطينية والأردنية؛ أكسبه معارف وصداقات قوية، وخبرات بالظروف السياسية المتغيرة، ومعرفة بالحياة الاجتماعية، استطاع فيها التواصل مع الناس بمختلف مشاربهم وطبقاتهم وأديانهم وأعراقهم.

❖ ❖ ❖

بعد دخول الجيش الفرنسي إلى سورية، وإسقاط الحكومة، ومغادرة الملك فيصل، سيترك هاشم الأتاسي العمل السياسي، لكنه سيبقى على اتصال دائم بالوطنيين، وحين طلب الفرنسيون منه التعاون معهم، رفض، وفيما بعد سيقول الجنرال كاترو عنه: «كانت معارضته للانتداب نهائية لا يمكن احتواؤها، لكنها لم تكن صارخة» ويضيف: «هاشم بك لا يحبّذ العنف... كان ينتظر عدالة الله لكي ينال وطنه استقلاله». ويبدو أن كاترو فهم الدين الإسلامي على أنه دين التوكل والتواكل، هاشم بك لم ينتظر، وحسب الآية الكريمة: «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم»، لن يتخلف عن العمل الوطني. سبقت دخول الفرنسيين ثورات الساحل السوري 1918 ـ 1920 (ثورة الدنادشة، ثورة الشيخ صالح العلي، حوادث الشوف والحولة)؛ ثم أعقبتها ثورات سورية الداخلية 1920 ـ 1925 (ثورة حوران، القنيطرة، اضطرابات دمشق وحمص وحماه)؛ كذلك ثورات الشمال (إبراهيم هنانو، الشيخ صالح العلي).

أقام الفرنسيون جهازاً إدارياً فصل لبنان عن سورية، ومن ثم قسموا سورية إلى وحدات منفصلة على أسس عرقية ـ دينية مناطقية: (دولة دمشق، دولة حلب، دولة العلويين، دولة جبل الدروز، سنجق اسكندرون) وركزوا السلطة بين أيديهم، واتخذوا تدابير أدت إلى حدوث استياء عارم في معظم أنحاء البلاد، تميزت هذه المرحلة بمجابهة بين الفرنسيين والزعامة الوطنية، وتمكن الوطنيون من تحويل

الانتفاضة المحلية التي نشبت في جبل الدروز سنة 1925 إلى ثورة سوريّة كبرى، على المستوى الوطني، دامت عامين؛ تم سحقها في نهاية المطاف.

أدرك الفرنسيون الحاجة إلى بعض التنازلات بشأن طموح السوريين إلى حكم ذاتي؛ لكن المفوض السامي بونسو اقتفى أسلوب المفوض السابق ديجوفنل، فأطلق وعوداً، وشق الحركة الوطنية، وبعثرها، فتمزق حزب الشعب، وهرب قائده الدكتور عبد الرحمن الشهبندر مع أنصاره، وطورد الموالون له، ودعا بونسو إلى تشكيل حكومة مؤقتة مهمتها الإشراف على انتخابات اللجنة التأسيسية التي ستضع الدستور الدائم للبلاد.

كان إخفاق الثورة قد أدى بالزعامة الوطنية إلى الاقتناع بالتخلي عن المواجهة المسلحة، وتبنّي أسلوب متدرج بغية الحصول على الاعتراف الفرنسي بها، على أن الفراغ السياسي الحاصل لم يساعد، مما سيدفع هاشم الأتاسي وحزب الاستقلال وبقايا حزب الشعب وفلول رجالات العهد الفيصلي إلى التفكير في تأليف كتلة سياسية تقود الحركة الوطنية.

في 25 تشرين أول 1927، عُقد مؤتمر في بيروت برئاسة هاشم الأتاسي، قُرر فيه خوض الانتخابات باسم الكتلة الوطنية. وفي تموز 1928، سيفوز مرشحوها فوزاً ساحقاً في الانتخابات، ويُنتخب هاشم الأتاسي رئيساً للجمعية التأسيسية التي وضعت مسودة الدستور الدائم، متجاهلة وجود الانتداب، فنصت على أن سورية تشمل شرق الأردن وفلسطين ولبنان، وهي بلد واحد غير قابل للتجزئة، وأن للحكومة سلطة تنظيم الجيش، وللرئيس سلطة عقد المعاهدات، ومنح العفو، وتعيين السفراء، وإعلان القانون العرفي.

اعترض المندوب السامي على الموادّ الستّة، واعتبرها بأنها وقف على الدولة المنتدبة، وتتجاهل واقع الانتداب، وأصدر بياناً عطّل فيه الدستور، وعلّق جلسات الجمعية مدة 3 أشهر، ثم أصدر قراراً بتأجيل انعقادها إلى أجل غير محدد، فعمت المظاهرات الشعبية البلاد احتجاجاً على تعطيل الحياة النيابية.

بذل هاشم الأتاسي جهوداً كبيرة مع المفوض السامي بونسو؛ لإطلاعه على وجهات نظر الكتلة، وثابر على عرضها مراراً، مع الإصرار على المطالبة بمعاهدة فرنسية - سورية، تشكل في النهاية التعبير الوحيد المقبول عن الانتداب، بالمقابل كان

بونسو يرد بالتشكيك على إمكانية عقد معاهدة مع طرف يرغب في نفي الانتداب نفسه، وهكذا لم تسفر اجتماعاتهما عن اتفاق ولا عن انفراج، وبدا واضحاً في كانون الثاني 1930 أن أحوال البلاد تسير نحو التدهور. في 14 أيار، أصدر بونسو قراراً بنشر الدستور مع إضافة مادّة تستثني تطبيق المواد الست السيادية على أن يبدأ العمل به بعد إجراء انتخابات جديدة. أثار الدستور احتجاجاً واسعاً، وأدانته الصحافة لأنه مفروض وتعسفي، و«مجهول الوالدين»، وأبرق هاشم الأتاسي باسم الوطنيين إلى عصبة الأمم محتجاً باسم الشعب السوري.

ستوالي الكتلة برئاسة الأتاسي عقد اجتماعاتها، وتُقرّ القانون الأساسي باعتبارها هيئة سياسية غايتها تحرير البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية من كل سلطة أجنبية؛ وإيصالها إلى الاستقلال التام، وتوحيد أراضيها المجزأة في دولة واحدة ذات حكومة واحدة. لم تطرح الكتلة نفسها كحزب سياسي ولا جبهة أحزاب، ولم تشترط انتماء طبقياً، كانت حشداً جماهيرياً، متاح الانتساب إليه للأفراد، لهذا اعتبرت تشكيل الأحزاب السياسية مخالفاً لجهودها.

❖ ❖ ❖

في أواسط تشرين الثاني 1931، بعد مرور البلاد بهدوء سياسي ظاهري، رافقه كساد اقتصادي عنيف، أصدرت سلطات الانتداب مرسوماً يتعلق بالانتخابات المقبلة، كان إشارة لانطلاق النشاط السياسيّ. اتسم رد الفعل الوطني بالتردد حيال هذه الدعوة، ومالت الأغلبية إلى الاستجابة مع التحفظ، على أن الانتخابات ستُظهر مدى التحيز الفرنسي ضد المرشحين الوطنيين بتلاعبها بحدود المناطق الانتخابية، وتعديل نسب التمثيل، بالإضافة إلى عمليات غش وتزوير مورست بكثافة في دمشق وحلب، مما أضعف تمثيلهم في المجلس، أما قائمة هاشم الأتاسي فسوف تفوز كاملة، ما جعل المسيو شوفيل يعترف بعدم جدوى وسائلهم في حمص في تقريره إلى الخارجية الفرنسية: «إن شعبية الأتاسي قوية ومتجذّرة، ولا يمكن بالواقع تحجيمها، أو الحدّ منها».

عندما سافر بونسو إلى جنيف، سُئل في عصبة الأمم عن مصير دويلتي جبل العلويين وجبل الدروز، فأجاب بأنه من المبكر البحث بمستقبل هاتين الدولتين اللتين ستبقيان إلى أجل غير محدد تحت الانتداب؛ حتى لو تم الاتّفاق على إنهاء

الانتداب على دولة سورية المصغرة. وصلت الأخبار إلى دمشق، تمسك الوطنيون بعدم إبرام معاهدة لا تحقق الاستقلال والوحدة؛ ورفضوا استقلال سورية مصغرة، واستقال وزراؤهم من الحكومة، فشُكِّلت وزارة أخرى دون مشاركة الكتلة.

بعد إخفاق بونسو سترسل فرنسا الكونت دو مارْتِل مندوباً إلى سورية بمهمة أساسية: عقد معاهدة بين فرنسا وسورية، فاجتمع مع هاشم الأتاسي الذي لم يقبل مباشرة المفاوضات قبل الاتفاق على وحدة سورية واستقلالها الكامل؛ حاول دو مارْتِل استرضاء النواب في البرلمان، لكن الوطنيين رغم أنهم أقلية أفشلوا خطته، فأصدر أمراً بتعطيل جلسات المجلس، وهدد بحله إذا أصروا على عقد جلسة استثنائية.

سارع الأتاسي إلى عقد اجتماع للكتلة في حمص؛ ودعا إلى ميثاق وطني، أكد فيه على الحقوق السورية، وأضاف إلى طلباته القديمة ضم طرابلس الشام والأقضية الأربعة إلى سورية؛ مما أزعج دو مارْتِل؛ فقاطع الكتلة الوطنية ورد على تصاعد مطالب الأتاسي بتشكيل حكومة جديدة برئاسة الشيخ تاج الدين الحسني.

تصاعدت المقاومة الشعبية للانتداب، وتبنت الكتلة مقاطعة الشعب لشركة الكهرباء والتراموای؛ وتحولت المقاطعة إلى مظاهرات شعبية عمّت البلاد لم تفتر المقاومة واتخذت أشكالاً كثيرة، أحدها: أنه في اليوم الأول من عيد الفطر احتل الوطنيون أماكن صلاة رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وبقية المسؤولين في الجامع الأموي؛ فاضطروا للذهاب إلى جامع آخر قريب للصلاة.

في صباح الخميس 21 تشرين الثاني، توفي الوطني الكبير إبراهيم هنانو؛ وكانت مناسبة لمظاهرات كبيرة وعارمة، وقد أقيمت عدة مآتم في حلب والشمال ودمشق، وفي ذكرى الأربعين أقيم احتفال مهيب، تُلي فيه نص الميثاق الوطني، بعد أسبوع واحد تفاقمت الأوضاع، واندلعت الاضطرابات في سوريا بأسرها تقريباً، ولمدة خمسين يوماً، كانت بدايتها مظاهرة انطلقت بعد صلاة تذكارية على روح هنانو؛ تبعها مداهمة الشرطة للمقر الرئيسي للكتلة واعتقال فخري البارودي، أعقبها إعلان الإضراب العام: أُغلقت المتاجر وأصيبت الأسواق بالركود التام؛ وهجر الطلبة المدارس، وتظاهرت النساء، وظهرت الدبابات والجنود في الشوارع، وازداد القمع وأُزهقت أرواح، وسارت جنازات تشييع عاطفية حاشدة، وارتفع عدد

المعتقلين إلى المئات، واضطرت المحاكم إلى التوقف عن العمل، وتم إيقاف عدد كبير من الجرائد، وترددت أصداء الإضراب العام في لبنان، فأُغلقت المتاجر في بيروت، وسارت المظاهرات في طرابلس وصيدا. أظهر رد الفعل القوي والمنظم من جانب الكتلة الوطنية أنها عززت وحدتها وانضباطها، وأحرزت شعبية كبيرة.

استقالت وزارة الشيخ تاج، وتشكلت حكومة جديدة معتدلة برئاسة عطا الأيوبي؛ نشرت برنامجاً يتضمن تهدئة الأوضاع، وقيام مرحلة انتقالية تمهد للعودة إلى الحياة البرلمانية؛ لكن الأتاسي أكد على موقفه بإعادة نشر الميثاق الوطني، وأعلن أن وعود المفوض السامي غامضة وغير مرضية؛ مما اضطر دو مارتِل إلى الحصول على تفويض جديد بحرية التصرف من الخارجية الفرنسية. بعد محادثات مع زعماء الكتلة والوزراء الجدد أمكن التوصل إلى اتفاق بإرسال وفد سوري إلى باريس لسن معاهدة تضمن للبلاد وحدتها واستقلالها. تشكّل الوفد برئاسة هاشم الأتاسي، سافر إلى باريس في 21 آذار وسط مشاهد حماسية منقطعة النظير. أخيراً، ثمة في الأفق شيء جدّي!!

لكن بعد أقلّ من شهرين بدا أن المفاوضات وصلت إلى طريق مسدود؛ كان واضحاً أن المقترحات الفرنسية غير مقبولة، فتعمد هاشم الأتاسي تأخير الرد عليها أسبوعين انتظاراً لنتيجة الانتخابات العامة الفرنسية؛ كان فوز الجبهة الشعبية، وتأليف وزارة برئاسة ليون بلوم ذي النزعة اليسارية، واستبدال فلاندان بدلبوس وزيراً للخارجية، قد أتاح للمفاوضات أن تتم وسط أجواء جديدة، وعقدت المعاهدة بعد ستة أشهر: «في الساعة الثامنة عشرة والدقيقة الأربعين، وقّع الرئيس هاشم الأتاسي المعاهدة باسم سورية كما وقعها فينو باسم فرنسا». كان عرساً لم تشهده سورية من قبل، جماهير الكتلة تهيأت لاستقبال الوفد، البشر احتشدت في محطة حلب والمحطات التي سيمر فيها القطار، الزينات واللافتات تمجد الاستقلال وتبارك مساعي الوفد التي تكللت بالنجاح، وُصفت المعاهدة بـ (معجزة القرن العشرين)، (عروس الشرق)، ورافقتها تصريحات متفائلة جداً: «لم يبق على فرنسا إلا أن تعطينا مارسيليا». أما هاشم الأتاسي فسوف يدعو المفوض السامي بـ (حضرة السفير). وتم الاتفاق على عدم سريان أحكام المعاهدة إلا بعد

ثلاثة أعوام؛ على أن تكون هذه الفترة الزمنية بمثابة فترة انتقالية، يُسمح فيها للكتلة بممارسة الحكم، وتقاسم السلطة مع المندوب السامي.

فاز رجالات الكتلة فوزاً ساحقاً في الانتخابات النيابية وأُنتخب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية، وصدق المجلس النيابي على معاهدة الصداقة والتّحالف، لكن عبد الرحمن الشهبندر الذي عاد للبلاد بعد العفو الذي أصدره الكونت دو مارتل؛ سيعارض المعاهدة، ويدعو الناس لقراءة نصوصها المعجزة وتفسيرها، ويهاجمها: «لقد كبّلت المعاهدة سورية بالقيود عندما أعطت فرنسا حقاً مزعوماً بحماية الأقليات، وحق سن القوانين المتعلقة بأحوالها الشخصية» فيما بادرت عصبة العمل القومي تؤكد: «إن المعاهدة ما هي إلا ثمن ابتلاع لواء اسكندرون، دفعته فرنسا من أرض سوريةَ لإرضاء الأتراك». ومع هذا كان الفرنسيون يماطلون في التوقيع على المعاهدة، بالرغم من سفر رئيس الوزراء جميل مردم بك إلى باريس لإقناع الجمعية الوطنية دون جدوى؛ كان السقوط السريع لـ (الجبهة الشعبية) في فرنسا قد أوصل إلى الحكم سياسيين لم يؤمنوا قط بالمعاهدة مع السوريين ولا بأهلية سوريا للحكم الذاتي؛ كما أن الوضع الدولي حسب دعواهم يقتضي عدم إضعاف سلطة الانتداب. تزايدت شكوك الوطنيين في النوايا الفرنسية، وبدا أن البرلمان الفرنسي لن يصادق على المعاهدة، فاتسع الانقسام الوطني، في حين اشتد الصراع على السلطة، بينما كانت الكتلة قد تحولت وهي في الحكم إلى أداة لتوزيع المناصب والمقاعد النيابية؛ فانتشرت المحسوبية والرشاوى. وسوف يقضي على المعاهدة نشر نصوص المعاهدة الفرنسية التركية التي نصت على التنازل عن لواء اسكندرون للأتراك؛ فاندلعت المظاهرات، وازدادت الاضطرابات، واستبدل دو مارتل بالجنرال بيو الذي أعلن عن عدول فرنسا عن سياسة التعاقد؛ والعودة في حكم البلاد إلى صك الانتداب؛ فاستقال الأتاسي من رئاسة الجمهورية، كما استقالت حكومة الكتلة الوطنية عشية الحرب العالمية الثانية.

بعد هزيمة فرنسا أمام الألمان أعلن المفوض بيو ولاءه لحكومة فيشي، التي هادنت ألمانيا النازية؛ وعينت الجنرال دانتز مندوباً سامياً في سورية؛ كُلف خالد العظم بتأليف حكومة جديدة، لكن العظم إزاء الهجوم الذي شنته الكتلة عليه

سيأخذ قبل تشكيل الوزارة موافقة هاشم الأتاسي؛ ويقنعه بأن حكومة قريبة للكتلة أفضل من حكومة بعيدة عنها؛ ولا ينبغي أن يتخذ الوطنيون منه موقفاً عدائياً؛ فهو ليس خصماً للقضية الوطنية، فأشار الأتاسي على الكتلة عدم معارضة العظم.

قررت بريطانيا وفرنسا الحرة الهجوم على سورية ولبنان لطرد السلطات الفيشية منها؛ فحاولتا استرضاء السوريين والقوى الوطنية، فأذاع الجنرال كاترو، 8 حزيران 1941، بياناً وعد فيه بإعلان الاستقلال واستبدال الانتداب بمعاهدة توضح العلاقات المتبادلة بينهما؛ وأعلنت الحكومة البريطانية على لسان الجنرال سبيرس ضمانتها لتصريح كاترو؛ والاعتراف باستقلال سورية ولبنان.

بعد نجاح القوات البريطانية الفرنسية المشتركة بالسيطرة على سورية؛ حاولت فرنسا استبدال وعودها بالاستقلال الناجز باستقلال صوري؛ وسوف يعقد الجنرال كاترو أربعة اجتماعات مع هاشم الأتاسي؛ وكان هو وديغول يحملان له الكثير من الاحترام والتقدير بما يمثله: «كان مُوَحداً للشعب أكثر من أية شخصية أخرى»، ويسأله العودة إلى رئاسة الجمهورية؛ لِما تحمله عودته من تفسير رمزي ذي فائدة كبيرة لمصلحة فرنسا. طلب الأتاسي استشارة رفاقه في الكتلة، لكن كاترو سيفاجئ الأوساط الوطنية بقرار تعيين الشيخ تاج الدين الحسني رئيساً للجمهورية، فجوبه بالمظاهرات والاحتجاجات، وحتى عندما حاولت حكومة حسن الحكيم الدخول في مفاوضات مع الجانب الفرنسي لاستلام صلاحيات سلطة الانتداب؛ رفضت السلطات الفرنسية التخلي عن أي من صلاحياتها؛ ما اضطر الوزارة إلى الاستقالة.

استمر كاترو في وضع العراقيل، بيد أن الجنرال الإنجليزي سبيرس سيشجع على الاضطرابات والمطالبة بتحقيق الاستقلال الناجز؛ ويواصل تدخله في الشؤون السورية اللبنانية، فعطل أعمال مكتب القمح، وحاول السيطرة على مصفاة طرابلس، وفرض رقابته على الميزانية، ما اضطر الجنرال ديغول لزيارة سورية ولبنان 12 آب 1942، ويبرق إلى تشرشل محتجاً على التدخلات البريطانية بما يتنافى مع نظام الانتداب، فأجابه تشرشل: «نحن نهتم بضمانتنا لبلاغ الجنرال كاترو الذي صرح باستقلال الدولتين، ونسهر على أن يتم تنفيذ هذا التصريح تنفيذاً واقعياً». لكن ديغول سيقرر عدم التخلي عن حق فرنسا في سورية ولبنان،

بعدها لن تتوقف الاضطرابات والمظاهرات، ولا محاولات الجنرال سبيرس في التدخل والحد من نفوذ فرنسا، ولا الخلافات بين أطراف الدولة. خلال زيارة الجنرال ديغول لسورية سيزور هاشم الأتاسي مع الجنرال كاترو في منزله بحمص؛ ويعرضا عليه استعداد فرنسا لإعلان عودة الدستور الشرعي؛ واستعادة حقه في ممارسة صلاحياته كرئيس للجمهورية؛ وتأليف حكومة تجري انتخابات لمجلس تشريعي، كما أبديا استعدادهما لإبرام معاهدة تدخل حيز التنفيذ فوراً. فأجاب هاشم الأتاسي، بأن معاهدة 1936 لم تعد صالحة بنظر الشعب السوري لتكون أساساً لعلاقات مقبلة بين البلدين؛ كذلك بما أن الضرورات الحربية انتهت، لابد من تعديل الوضع باتجاه استقلال سورية التام، ووعده الجنرال كاترو بأنه في حال قبول الوطنيين استلام الحكم فسيصدر بياناً بذلك.

استمهله هاشم الأتاسي ريثما يشاور رفاقه من رجال الكتلة، فوافقوا بالإجماع؛ فأعلم كاترو الذي أرسل إليه صورة البيان المزمع إعلانه. لدى دراسة الأتاسي للبيان وجد أنه لا يستطيع العودة إلى الحكم ببيان صادر عن سلطة أجنبية؛ كما أن بعض التحفظات المذكورة كانت غامضة، فأبلغ كاترو بأنه من المستحسن الدعوة إلى انتخابات عامة ينبثق عنها مجلس نواب، ثم انتخاب رئيس للجمهورية.

كلف الجنرال كاترو عطا الأيوبي بتأليف حكومة انتقالية. بعد الانتخابات التي فاز بها الوطنيون. حضر وفد من دمشق - يضم بعض رجال الكتلة - إلى حمص لزيارة الأتاسي، والتمسوا منه الموافقة على ترشيح شكري القوتلي لرئاسة الجمهورية إذا لم يكن لديه مانع؛ وذلك لأن القوتلي غير مرتبط مع كاترو بأية محادثات تلزمه بشيء؛ فوافق الأتاسي ولم يعترض، فشكره القوتلي لموافقته على ترشيحه.

أخذت الحكومة على عاتقها السعي لنقل صلاحيات الانتداب إليها، فدخلت بمفاوضات رسمية مع الفرنسيين، وذلك بالتواقت أيضاً مع الحكومة اللبنانية، وعلى الرغم من أن المفاوضات شهدت تقدماً جيداً، ماطل الجانب الفرنسي في تسليم الجيش، فأصدرت الحكومة مذكرة احتجاج لاسيما وقد طلبت فرنسا منحها قواعد بحرية في لبنان؛ وقواعد جوية في سورية، وضمان مصالحها المعنوية باتفاقيات من النواحي الثقافية والاقتصادية

والاستراتيجية؛ فرفضت الحكومتان السورية واللبنانية، وطلبت انسحاب القوات الفرنسية من أراضيهما.

لم تخرج فرنسا إلا بعد قيامها باستفزازات عسكرية حربية في حمص وحماه وحلب؛ تُوِّجت في دمشق بقصف المجلس النيابي، ومن ثم تدخل الجيش البريطاني. رفعت سورية شكوى إلى مجلس الأمن، وتم جلاء القوات الفرنسية والبريطانية عن أراضيها يوم 17 نيسان 1946. بعد الاستقلال اعتزل هاشم الأتاسي الحياة العامة.

❖ ❖ ❖

في العام التالي قام المجلس النيابي بتعديل الدستور من أجل إعادة انتخاب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية؛ فخرجت المظاهرات في دمشق والمحافظات تحتج على التعديل؛ ونزلت قوات الجيش إلى الشوارع لتضع حداً لها، لكن الحالة لم تهدأ، بل تأزمت أكثر، ولم يفلح القوتلي في تكليف عدة شخصيات بتأليف حكومة، فطلب من بعض السياسيين - وعلى الأخص عدنان الأتاسي ابن هاشم الأتاسي - التوسط لدى والده ترؤُس الوزارة، وعلى الرغم من نيته عدم العودة إلى العمل السياسي، أصرّوا عليه الرجوع عن قراره للقيام بمهمة إنقاذية وطنية. أراد الأتاسي حكومة وحدة تضم الحزب الوطني وحزب الشعب والعناصر المستقلة؛ لكن سيتعذّر عليه تأليفها. كانت الأوضاع قد بلغت درجة من السوء؛ أنه لم تمض فترة وجيزة حتى شهدت سورية أول انقلاب عسكري قام به قائد الجيش حسني الزعيم.

في الانقلاب الثاني الذي قام به سامي الحناوي بهدف إعادة الحياة الدستورية إلى البلاد؛ سيجتمع قادة الجيش مع الزعماء السياسيين وتتفق كلمتهم على دعوة الأتاسي لتشكيل الحكومة؛ فارتأى عليهم الأتاسي عودة المجلس النيابي القديم للاجتماع؛ وعودة شكري القوتلي إلى الرئاسة، لكن الأغلبية المدنية والعسكرية لم توافق؛ فشكل وزارة وحدة وطنية ضمّت لأول مرة وزراء يمثلون حزب البعث والحزب الاشتراكي؛ وجرت انتخابات نيابية كانت نزيهة، أُنتخب الأتاسي على أثرها رئيساً انتقالياً للدولة إلى حين وضع الدستور الجديد.

بعد أشهر حدث الانقلاب الثالث بقيادة العقيد أديب الشيشكلي؛ وعلى الرغم من بقاء الصراع محصوراً بين الضباط؛ سيضغط الشيشكلي على الوزارة الجديدة، ويضطرها إلى الاستقالة، فقدم الأتاسي استقالته من رئاسة الدولة، لكن المجلس التأسيسي سيرفضها بالإجماع، فاضطر إلى العودة عنها. وفي 7 أيلول 1950، ستتحول الجمعية التأسيسية إلى مجلس نيابي ويقوم بانتخاب رئيس الدولة هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية السورية.

بسط العسكر على الرغم من المظاهر الدستورية سلطتهم على الحياة السياسية؛ وأخذوا يتدخلون في الشاردة والواردة، وبات السياسيون يستقوون بالضباط في منازعاتهم، وفيما كان الرئيس الأتاسي يطفو فوق خلافات الأحزاب والضباط، كانت البلاد تعاني من الازدواجية. أصبح الجيش يتدخل في تشكيل الوزارات وصلاحيات الوزراء؛ بل وتمادى الضباط في تصرفاتهم، حتى أن الشيشكلي سافر وقابل الملك عبد العزيز آل سعود من دون إذن أو تكليف من الوزارة.

أراد الرئيس الأتاسي حسم الازدواجية في الحكم، فقرر تكليف معروف الدواليبي بتشكيل وزارة جديدة، دونما تدخل من العسكر، فاستدعى العقيد الشيشكلي، وطلب منه التزام السكينة وعدم القيام بأي عمل طائش، على أن الشيشكلي سيحسم هذه الازدواجية بعد ساعات قليلة في صباح 29 تشرين الثاني 1951؛ ويقوم بانقلاب رابع، يعتقل الدواليبي ومعظم أعضاء وزارته، ويستلم مقاليد السلطة من غير منازع. حاول الرئيس الأتاسي الخروج من الأزمة، لكنه لم يوفق، كان الانقلاب ماض إلى الأمام، فقدم استقالته. بعد أن استتبت الأمور للشيشكلي، أعرض عن الأحزاب، ثم منعها من العمل، وأسس حركة التحرير العربي، فاتفقت الأحزاب الثلاثة الشعب والوطني والبعث والمستقلون على المعارضة.

هذه المرة لم يتقاعد الأتاسي رغم بلوغه الثمانين من عمره؛ وإنما تزعم المعارضة وتمت تحت إشرافه الاتصالات بين الأحزاب؛ واتفقوا على إنهاء الحكم العسكري وإعادة الدستور وإجراء انتخابات حرّة. وعندما أعلن الشيشكلي عن عزمه على ترشيح نفسه للرئاسة، تنادى السياسيون إلى عقد مؤتمر في حمص،

وأصدروا بياناً نددوا فيه بافتقاد الحريات وحلّ الأحزاب، وطالبوا بإقامة ديمقراطية دستورية.

في صباح 25 شباط 1954، انطلق الانقلاب الخامس من حلب، وطالب قادته الشيشكلي التخلي عن الحكم ومغادرة البلاد؛ وفي مأثرة نادرة في تاريخ الانقلابات سيستقيل الشيشكلي ويغادر البلاد منعاً لانقسام الجيش وحقناً لدماء أبناء الوطن؛ بينما عاد هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية. وعندما اقترب موعد انتهاء فترة رئاسته، طلب منه الكثيرون ترشيح نفسه ثانية؛ ليوفر على البلد خضات انتخابية، ولتنعم بمزيد من الاستقرار. لكنه رفض بشكل قاطع. وقرر التقاعد أخيراً بعد واحد وستين عاماً قضاها في خدمة سورية.

في 6 أيلول 1955، سيجري بشكل دستوري وطبقاً للمراسم الرسمية لأول مرة في تاريخ سورية والعالم العربي؛ حدث انتقال الرئاسة، ويسلم رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي تقاليد الحكم إلى رئيس منتخب بشكل ديمقراطي حرّ، كان شكري القوتلي.

يبدو هاشم الأتاسي بين الزعماء السياسيين زعيماً غير سياسي مع أنه كان أبرزهم على الإطلاق بحكم أنه أكبرهم سناً؛ إضافة إلى خدماته ومزاياه. كانت السياسة عند الكثيرين غيره، مساومةً وانتهاز فرص وتلاعباً بالقانون وتجاوزاً على الدستور، وكأن السياسة لا تطيق النزاهة والأمانة. أما عند الأتاسي فكانت وسيلةً لإقرار مبدأ لا يغيب عنه الجهد والإخلاص. كان عادلاً في خصوماته، فعندما علم بأن سعد الله الجابري أمر بإلقاء القبض على عبد الرحمن الشهبندر، ونفاه إلى الزبداني تحت الإقامة الجبرية، طلب على الرغم من خلافه مع الشهبندر بإطلاق سراحه فوراً، وإلا ذهب إليه بسيارة الرئاسة وعليها علم البلاد، وأطلق سراحه جهاراً.

وإذا كان قد اتُّهم بمسايرة الفرنسيين في عهد الانتداب، فقد مشى معهم على الجمر، واستطاع انتزاع حقوق لسورية، كان من الصعب انتزاعها في وقت كانت فيه فرنسا متمسكة بمناطق نفوذها عبر البحار. وإذا أُتهم بممالأة العسكر في فترة ما بعد الاستقلال، فقد مشى معهم فوق حقل من الألغام حفاظاً على البلد، صحيح أنه لم يصطدم معهم، لكنّه وقف في وجههم، ومن المعروف أنه عندما

قَدَّمَ إليه وفد من الضباط مطالب تتجاوز دستورياً صلاحياتهم؛ غضب ورفع عصاه في وجه رئيسهم أديب الشيشكلي؛ عنفه قائلاً له: «لا أقبل منك ومن زملائك هذا التجاوز. انصرف من وجهي حالاً».

وما اتهامه بالبخل والتقتير إلا من فرط حرصه على مال الأمة؛ حتى أنه ضمَّن ثمار أشجار فواكه حديقة القصر الجمهوري، وأدخل محصول الضمان إلى الخزينة كإيراد للدولة، كما كان يوزع مخصصاته كرئيس للجمهورية، فيصرفها على صغار موظفيه.

كان رجلاً معتدلاً وعادلاً، لا يستبد برأي ولا يستفرد بقرار، مع أن استشارته للآخرين أحياناً قد عادت عليه بنتائج سيئة، كما عندما قبل برئاسة الوزراء من قائد الانقلاب الثاني سامي الحناوي، كان من المفروض ألا يقبل، وأن يصر على عودة الحكم السابق بدستوره ورئيسه ووزرائه، لكن ناصحيه في ذلك الوقت لم يخلصوا له النصيحة، مما عرّضه للكثير من الانتقادات.

آمن هاشم الأتاسي بسورية موحّدة، وبحكم القانون والدستور، على الرغم من الرياح التي عاكسته من الخارج ومن الداخل، تجنبها باعتزاله تارة، واستقالاته تارة أخرى، كان على الرغم من وجوده بعيداً عن دمشق أكثر السياسيين نفوذاً.

وينبغي عدم التهوين من جهوده في إحلال قدر كبير من العقلانية في السياسات السورية، خلال مقارعته للانتداب، ومفاوضاته مع الفرنسيين، وفي ضبطه أيضاً جماح رفاقه الوطنيين، وتصدّيه لمستثمري السياسة وللضباط محترفي الانقلابات.

محمد كرد علي

الدعوة إلى الديمقراطية

(1876 - 1953)

ينتسب محمد كرد علي إلى أسرة عراقية، من أصل كردي، وهي تنتسب إلى الأكراد الأيوبية. قَدِمَ جده محمد إلى دمشق، واستقر فيها، وعمل بالتجارة؛ ومن ثم رحل إلى الحجاز متجراً، وأصاب هناك نجاحاً وثروة. ولكن محافظ الحج، غصبه الأرض التي امتلكها، فسافر إلى الآستانة شاكياً إلى السلطان العثماني ظلامته. ولكن السلطان بدلاً من أن يردّ له حقوقه (وخاصة الأراضي التي غصبت منه)، اقترح عليه أن يمنحه بعض الأراضي في الشام، له ولأبنائه ولأحفاده من بعده، فاعتذر عن قبول هذا العرض، لأنه، على حد قوله، ذهب إلى السلطان شاكياً لا مستعطياً. وبعد العودة إلى دمشق، لم تطل أيامه، فقضى قهراً وغماً.

أما والده، عبد الرزاق، فكان الابن الوحيد لجده، نشأ بعد والده في فقر ويتم، ومارس مهناً بسيطة كالخياطة، ولم يلبث أن تحول إلى التجارة، وابتاع من ثم مزرعة صغيرة في «جسرين»، وهي قرية واقعة في غوطة دمشق، أمضى فيها حياته، هو وأولاده من بعده.

والدته شركسية قوقازية. غير أنه لم يشعر في أي يوم من أيام حياته بفظاظة ناجمة عن أي دماء آرية تسري في عروقه. ويقينه أنه هو الذي يقرر الهوية التي يكون، وليست الدماء التي ورثها عن الآباء والأجداد.

ولد محمد كرد علي في دمشق، في عام 1876، ولما بلغ السادسة من عمره، دفع به أهله إلى مدرسة «كافل سيباي الأميرية»، حيث تلقى فيها مبادئ العلوم الإسلامية والطبيعيات والحساب، ونال شهادة هذه المدرسة من الدرجة الأولى، ثم أدخل المكتب الرشدي العسكري. درس التركية ومبادئ الفرنسية، التي لم يستكمل دراستها إلا على يد مدرسٍ مخصوص، أحضر له إلى المنزل لمدة ثلاث سنوات.

وعندما أتمَّ دراسته الثانوية في المدرسة الرشدية، وحصل على شهادتها المتوسطة، عُيّن موظفاً في قلم الأمور الأجنبية، عام 1892م، ولمدة ست سنوات، أخذ خلالها يدرس الآداب التركية، حتى أتقنها، وشرع ينشئ فيها كما ينشئ بالفرنسية. أخذ يتردد في هذه المرحلة ولمدة عامين كاملين، على مدرسة العازاريين للاضطلاع بالآداب الفرنسية، ودرس الطبيعيات والكيمياء بالفرنسية، ليزداد تمكناً منها.

في تلك المرحلة، أكبَّ على القراءة والمطالعة بإفراط، فضعف بصره، ولم يذعن لنصائح المقربين والأصدقاء، رغبة منه في الاستزادة من العلم والمعرفة.

كان لأساتذته دور كبير في هذا النهم المعرفي الكبير وصقله وتوجيهه، كما كان لهم تأثير واضح في تربيته وبناء شخصيته العلمية، فقد أخذ عنهم علوم الشريعة واللغة والأدب والاجتماع والفلسفة، كما اكتسب منهم التجارب والفوائد الإصلاحية وتشرَّب حبَّ التراث والاعتزاز بتاريخ الأجداد وحضارة الأمة.

ومن أبرز هؤلاء الأساتذة: الشيخ طاهر الجزائري، مؤسس دار الكتب الظاهرية بدمشق عام 1878، الذي تأثر محمد كرد علي به كثيراً، فتتلمذ على يديه، ونهل من علومه، كما لازمه مدة طويلة، امتدت حتى وفاته عام 1929.

ومنهم أيضاً الشيخ سليم البخاري، من علماء الشريعة واللغة والأدب، والشيخ محمد المبارك، الذي قام بتوجيه اهتمامات كرد علي الثقافية نحو علوم معينة، دون غيرها. وقد جعله يتقن اللغة والإنشاء، ونهاه عن تعاطي الشعر بعد أن كان والده قد نهاه عن الموسيقى.

تزوج محمد كرد علي من عائشة مصطفى غنّام الدمشقية المولد والوفاة، فأنجبت له أربع بنات وولدين.

بعد ذلك بدأ محمد كرد علي حياته العلمية، وشارك في الحياة العامة بجوانبها المتعددة: السياسية والاجتماعية والعلمية، ثم عمل في ميدان الصحافة محرراً عام 1897. وحرَّر في هذه المرحلة أول جريدة ظهرت في دمشق، واستمرت مدة واسمها «جريدة الشام»، كانت تصدر أسبوعية لصاحبها مصطفى أفندي واصف الشقللي. واستمر يحرر في هذه الجريدة حتى بلغ الخامسة والعشرين من

عمره، حيث خطا خطوة ثانية بالكتابة إلى مجلة «المقتطف»، كبرى الصحف المصرية آنذاك. وكانت أولى مقالاته التي أرسلها إليها هي «أصل الوهابية»، فامتدت شهرته من بلاد الشام إلى مصر.

في عام 1901 قصد محمد كرد علي مصر، وكان في السادسة والعشرين من عمره، ناظراً إلى مصر في بداية الأمر، على أنها محطة عبور إلى باريس. وما إن وطأت قدماه أرض مصر، والتقى بالكثير من المثقفين والساسة وعلى رأسهم محمد رشيد رضا، حتى قَبِلَ عرضاً بالعمل في جريدة «الرائد» التي كانت تصدر مرتين في الأسبوع، لصاحبها نقولا شحادة. وقد أتاحت له الإقامة في مصر أن يلتقي بأكابر المصريين وعظمائهم وعلمائهم، أمثال: الشيخ محمد عبده، وحافظ إبراهيم، ومحرر جريدة «مصابيح الشرق» محمد المويلحي وابنه إبراهيم، وغيرهم. وكان محمد يطمح، في هذه المرحلة من حياته، إلى التعرف على رواد النهضة والحركة العلمية في مصر، وقد تحقق له ما أراد.

وما هي إلا أشهر عشر، قضاها في مصر، حتى غزاها وباء اضطره أن يعود إلى دمشق. وسرعان ما اتهمته الحكومة، بسبب بعض الواشين، بتوزيع مناشير ضد السلطنة العثمانية، فجدّت الحكومة في طلبه، مما اضطره للاختفاء في الغوطة. وبعد تفتيش بيته ثبتت براءته.

عاد كرد علي إلى الديار المصرية ثانية، في عام 1905، فتولى تحرير جريدة «الظاهر» اليومية، لصاحبها محمد أبو شادي، ولم يلبث أن صار رئيساً لتحريرها، ثم عمل مع إدارتها على إصدار مجلة «المقتبس» الشهرية. وبعد عام من ذلك، أصبح أمين سر تحرير جريدة «المؤيد». وفي عام 1908، رجع كرد علي إلى دمشق، فأصدر جريدة «المقتبس» اليومية السياسية، ولم تلبث السلطات العثمانية، أن ضيَّقت على المقتبس، بالإغلاق أحياناً، والتهديد أحياناً إلى أن أغلقت نهائياً، وأصبح صاحبها مطلوباً.

في عام 1909، وإثر إغلاق الجريدة المذكورة، لم يجد بداً من الهرب إلى لبنان، ومنها إلى باريس، التي وصل إليها وهو في الرابعة والثلاثين من العمر. وبعد أن تعرف على المدينة وزار معالمها التاريخية، اهتدى إلى فكرة تأسيس المجمّع العلمي العربي، اقتداء بالمجمع العلمي الفرنسي.

عاد كرد علي إلى دمشق عام 1910. وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى، عام 1914، كلفه جمال باشا مع نفر من صحبه بالسفر إلى الآستانة، كوفد للدعاية للدولة العثمانية، ومن ثم تأليف كتاب عن هذه الرحلة؛ كما طلب أنور باشا نائب جمال باشا في سوريا من كرد علي تأليف كتاب عن رحلة هذا الأخير إلى الحجاز، ففعل ذلك على كره منه.

في عام 1919، حاول محمد كرد علي إصدار «المقتبس» من جديد في دمشق، التي سقطت بأيدي الحلفاء؛ إلا أن الحاكم العسكري صرفه عن ذلك، وعينه موظفاً في ديوان المعارف. وفي حزيران من العام نفسه، 1919، طلب كرد علي من الحاكم العسكري رضا باشا الركابي الموافقة على تأسيس المجمع العلمي العربي في دمشق، لخدمة العربية والحفاظ على تراث الأمة. وافق الركابي على الطلب وانقلب ديوان المعارف برئيسه وأعضائه الثمانية، إلى مجمع علمي، علاقته المباشرة بالحاكم العسكري.

لم يمض على تعيين كرد علي، رئيساً للمجمع العلمي العربي، سوى بضعة أشهر، حتى صدر إليه وإلى سائر أعضاء المجمع أمر بإعفائهم من مناصبهم، إلا عضوين عُهد إليهما بالإشراف على داري الكتب والآثار، وكان ذلك بدعوى الضيق المالي. واستمر كرد علي على هذه الحال معزولاً في داره إلى أن عهد إليه بوزارة المعارف، في السابع من أيلول عام 1920.

قاد، في تلك الفترة، بعثة علمية حكومية إلى فرنسا، تضم نخبة من المثقفين والأساتذة في عصره، كالأستاذ جميل صليبا، الذي درس الفلسفة، فكان من أعلامها، والأستاذ الأمير جعفر الحسني، الذي درس الآثار واهتم بصيانتها والتنقيب عنها.

أسس كرد علي داراً للآثار في المجمع، كانت نواة لدار الآثار العامرة الحالية. وظل هذا المتحف الذي يحتوي على عشرات التماثيل الحجرية والآثار الصغيرة التي جمعها الأستاذ الرئيس بشتى الوسائل، جزءاً من المجمع العلمي العربي عدة سنين. وأشرف عليه الأمير جعفر الحسني، بعد عودته من الدراسة وبعد انفصاله عن المجمع.

اعتنى كرد علي، أشد العناية، باقتناء الكتب النفيسة، من مطبوعة ومخطوطة، منها ما خصّ بها المكتبة الظاهرية، ومنها ما جعله خاصاً بمكتبة المجمع.

لم يستقر كرد علي في منصبه الوزاري، فسرعان ما استقال منه، عندما علم أن أحد أعوان الجنرال غورو، قد نسب إليه ثناء مكتوباً، يمتدح فيه الجنرال والانتداب الفرنسي، ولكنه مع ذلك آثر الاحتفاظ بمنصبه رئيساً للمجمع العلمي العربي.

في عام 1924، عُهد إليه تدريس الآداب العربية، في معهد الحقوق بدمشق، لكنه ما لبث أن ترك التدريس أيضاً، نتيجة للدسائس التي حاكها ضده بعض المدرسين في الجامعة، وبدعم من رئيس الجامعة، ورئيس الحكومة صبحي بركات.

في عام 1926، التقى محمد كرد علي بالملك فؤاد الأول، ودعاه إلى تبني فكرة إنشاء مجمع لغوي رسمي يحقق ما هدفت إليه المجامع الأهلية، وقد أراد الملك أن يفيد من تجربة دمشق السابقة، فقدم له كرد علي صوراً صادقة عن تلك التجربة. وبذلك يعدّ ممن مهدوا لولادة مجمع القاهرة اللغوي.

في 15 شباط عام 1928، عاد كرد علي وزيراً للمعارف، في حكومة تاج الدين الحسني، وبقي في إدارة المجمع مع الوزارة. وفي تلك الفترة، كان قد انتخبه مجمع اللغة العربية في مصر عضواً فيه، فكان يرحل في الخريف من كل عام إلى القاهرة ليشارك في اجتماعات مجمعها السنوي، مدة عشرين عاماً. وكان حريصاً كل الحرص على أن يشترك في أدوار انعقاده تلك، ولم يتخلف عنها إلا لضرورة قاهرة.

استمر على هذه الحال حتى منعه أطباؤه من السفر إثر علة قلبية ألمت به، وقد ناهز السبعين، ومع ذلك لم تَلِنْ عزيمته، فاستمر في رسالته العلمية، يعمل في التأليف ونشر الكتب المطبوعة والمخطوطة، حتى وافته المنية في الثاني من نيسان عام 1953، وقد بلغ السابعة والسبعين.

دفن في مقبرة الباب الصغير، بجوار قبر معاوية بن أبي سفيان، في دمشق، تلك المدينة التي أحبها وعمل لها، فرفع منارتها عالياً.

❖ ❖ ❖

اتسم الأستاذ الرئيس محمد كرد علي، بسمات شخصية وثقافية متعددة الجوانب؛ فقد كان واسع الثقافة غزير العلم، صاحب طموح، واهتمام مميز بالمطالعة والدرس والمعرفة.

ومن تلك الجوانب الثقافية، كانت الثقافة الإسلامية التي أولاها اهتماماً خاصاً، بأن قرأ الشريعة من أصفى مصادرها. كما تشعبت قراءاته في كتب الغزالي وابن حزم، وابن قيّم الجوزية؛ ولكنه آثر، ولأغراض عملية أن يتوجه شطر العلوم المدنية لاعتقاده بنفعها في إنهاض الأمة.

وكان كرد علي قد بدأ ثقافته الأدبية، بدراسة الآداب العربية، وهو في ريعان الشباب، واستمر كذلك إلى آخر حياته. كان يقرأ تراث الأمة الأدبي، بدءاً بالفترة الجاهلية وحتى أيامه. اطلع على مقامات الحريري ورسائل الخوارزمي والصابي وتاريخ اليمني والعتيبي والزمخشري والأصفهاني، بالإضافة إلى ما كتبه الجاحظ وابن المقفع، وعبد الحميد الكاتب، وسهل بن هارون، وأبي حيان التوحيدي.

لم يكتف كرد علي بذلك، بل اطلع على كل ما وسعه من كتب اللغة والأدب والبيان والاجتماع والتاريخ والفقه والتفسير والفلسفة.

كتب كرد علي منذ عام 1921، حتى عام 1946، زهاء أربعمائة محاضرة، وأربعين مقالاً، وقد ألقاها في المواسم الثقافية في قاعة محاضرات المجمع، ثم أعاد نشرها على التوالي في مجلة المجمع الشهرية. وقد تنوعت تلك المقالات في مجال التاريخ والاقتصاد والأدب واللغة والبلاغة وعلم الاجتماع والتربية وتاريخ الحضارات والعقائد وغير ذلك.

أما بالنسبة لثقافته باللغات، فقد ذكرنا أنه تعلم التركية والفرنسية، اللتين فتح إتقانهما أمامه آفاقاً واسعة، نفذ من خلالهما إلى عمق الثقافتين التركية والفرنسية. وزادت رحلاته المتعددة إلى البلدان الأوروبية، بدءاً من فرنسا وإنكلترا وإيطاليا وألمانيا وسويسرا والنمسا والمجر، وانتهاء بالصرب وبلغاريا واليونان وبلجيكا وهولندا وإسبانيا، زادت في عمق اطلاعه على طرق التفكير والحياة في الغرب، أضف إلى ذلك، أنه كان يقرأ ويكتب ويؤلف بكلتا اللغتين، ويفيد من الكتب والمخطوطات المؤلفة فيهما.

يقول كرد علي إنه قرأ بالفرنسية أهمّ ما كتبه كلاً من فولتير وروسو ومونتسكيو وبنتام وسبنسر وفولتير وتين ورينان وسيمون وبوتمي ولافيس وهانوتو وبوتر ولوبون وبرونتير، وبتي دي جلفيل وسانت بون، ودرس المجلات الفلسفية والاجتماعية والتاريخية والأدبية، بتلك اللغة.

وعلى سبيل المثال، فإنه قبل أن يكتب مؤلفه الشهير «خطط الشام»، الذي يدرس فيه تاريخ هذه المنطقة، قرأ زهاء ألف ومئتي مجلد باللغات الثلاث: العربية والتركية والفرنسية، مدة ثلاثين عاماً، قضاها في الاستعداد لتأليف هذا الكتاب.

وأما عن إنتاج محمد كرد علي الضخم والغزير، من مؤلفات وتحقيقات وترجمات، فنذكر أن أول ما نشره كان ترجمة لرواية «قبعة اليهودي» نشرها باسم «يتيمة الزمان في قبعة ليفمان» عام 1894، وقد وضعها سهلة بسيطة، كما عرَّب بعض الفصول من ثلاثة كتب في الحرية، هي: «حرية الوجدان» و«الحرية المدنية» و«الحرية السياسية»، ونشرت بعض تلك الفصول في جريدة «المؤيد» من كتاب الحرية السياسية لجول سيمون.

❖ ❖ ❖

ينطلق الأساس الأول لمنهج كرد علي الإصلاحي، من وصف الواقع السيء، الذي مرت به الأمة في مراحل تاريخها، وكانت خلالها في تراجع وانحسار إلى أن وصلت إلى أدنى درك من دركات الانحدار الحضاري.

ويذهب كرد علي إلى أن الضعف العلمي في أرض المسلمين قد تلا الضعف السياسي، وكان أحد نتائجه، فأخذت العلوم الدينية تميل بعد القرن الخامس الهجري إلى الفتور، وهبطت العلوم المادية هبوطاً عظيماً في القرن السادس والسابع، وتراجعت العلوم الحضارية والمدنية، على إثر ذلك أيضاً، وظلت مدونة في الكتب، عاجزة عن التأثير في الواقع وتغييره، فأدى ذلك إلى «سقوط الأمة بسقوط الهمم والعزائم وفساد الأخلاق والتربية وضعف الوازع والسلطان».

وقد كانت هذه المقدرة على المواجهة مع النفس ومع الماضي بكل ماله وما عليه، نقطة انطلاق جوهرية طبعت بطابعها منهج كرد علي الإصلاحي في كثير من نقاطه وتفاصيله.

أما الأساس الثاني الذي اعتمد عليه هذا المنهج، فهو الموازنة بين القديم والحديث، إذ كان مولعاً بالتجديد، لكن دون أن يمس ذلك أصلاً من الأصول المقدسة. فهو يقول: «ليس من الحكمة القضاء على الأوضاع القديمة، والمعقول هو إدخال الإصلاح عليها فلا جديد بلا قديم يسبقه».

وقد كان مقتنعاً بأن «كل عاقل عرف تاريخ الأمة، يرى الخير كل الخير في احتفاظها بقديمها، وضم كل ما ينفع من الجديد، على أن تكون للدين والعلم حريتهما، فتكون المعتقدات بمأمن من طعن الطاعنين بها، كما تجري المدنية على الشوط الذي تراه».

غير أن كرد علي يتنبه إلى ما كان في التاريخ الإسلامي من أمر النزاع بين العلم والفلسفة من ناحية، وبين الدين من ناحية أخرى، أو بين العقل والنقل بالمصطلح الإسلامي التقليدي؛ فينبه بصورة ضمنية، إلى أن هذا النزاع قد ينبعث في أية لحظة، بل ربما كان ما يزال قائماً بالفعل؛ ولذا يقرر: «أنه إذا ما رأى بعضهم في بعض المعتقدات ما لا ينطبق على روح الحضارة والعلوم العصرية، فالأولى أن يطبقوا العقل على النقل، كما هو رأي كبار علماء المسلمين منذ القديم، وإذا عجزت عقولهم عن ذلك، فالأجدر بهم أن يأخذوا بعض القضايا بالتسليم ويتركوا العالِم حراً يسير وحده دون أن يعوقه عائق، وما نخال كل عاقل إلا ويعتقد أن صحيح النقل لا يخالف صريح العقل».

ونتبيَّن هنا أن كرد علي يعلم علم اليقين بأنه إنما يبسط الأمور تبسيطاً شديداً ليقرب النقل من العقل. ولكن فطنته وذكاءه يحولان بينه وبين الاعتقاد بصحة هذا الأمر دون تقييده، الأمر الذي يضطره إلى أن يدعو إلى أخذ بعض الأمور، التي قد لا يستقيم فيها تحقيق توافق بين العقل والنقل، مأخذ الإيمان والتسليم. ولئن دلت دعوته هذه على شيء، فهي تدل على أنه قد كان شخصية إصلاحية نموذجية بالفعل، فمن خصائص المصلح الإسلامي في تلك الفترة انحيازه إلى النقل والتراث والإيمان عند بروز أول علامة تدل على أن العقل والنقل ميدانان ينبغي أن يفصل بينهما في حقلين متمايزين كل التمايز. غير أن كرد علي وكل المصلحين الإسلاميين الذين على شاكلته يؤثرون السلامة، بأن

يدعوا قارئهم إلى أن يستثني بعض الأمور من البحث العقلي الحر والاكتفاء بأخذها مأخذ الإيمان والتسليم.

والأساس الثالث الذي بنى عليه كرد علي منهجه الإصلاحي، محاربة التواكل؛ فهو يندد بكل أشكال التقاعس والكسل، كما يرى أن أبشع مظهر من مظاهر الاتكال تخلي الشعوب عن القيام بواجبها في إصلاح أحوالها، وإلقاء التبعات في ذلك على الحكومات تخلصاً من المسؤولية، وهروباً من تحمل الأمانة المنوطة بها، ويقول في ذلك: «إن المسلمين كانوا يبنون، بدافع ديني، الجوامع والمدارس والرباطات والقناطر والحصون والسبلان وغير ذلك، وروح الاستقلال تتجلى فيها أكثر من الاتكال. ولكن لما بدأ الانحطاط، أصبحت الأعمال النافعة لا تقوم إلا بضغط الحكومات وتدبيرها على الأغلب». ويضرب مثلاً لذلك مصر، التي تنازلت عن الجامعة الأهلية الحرة، التي أنشأها ذوو اليسار من المصريين المستنيرين في مطلع القرن العشرين إلى الحكومة بكل ما للجامعة من أملاك لتثبت أننا قوم اتكاليون في كل شيء.

وعلى الرغم من الأهمية العظمى لنقد كرد علي لقضية التواكل والاتكال، فإن تحليله لهذه المسألة، يظل تحليلاً سطحياً، لأنه لا يتجاوز المستوى الاجتماعي إلى المستوى اللاهوتي الذي اضطلع بصياغة الإنسان المتواكل سليب الإرادة والمبادرة. فقد كان أحرى بكرد علي أن ينبه إلى أن عقيدة (القضاء والقدر) هي التي أدت إلى شيوع عقيدة الجبر الذي لا يثمر إلا تواكلاً وسلبية ومحواً للإرادة والحرية، حيث يصبح العالم من صنع قوى لا نعرفها بدقة. غير أن الأمر الذي نعرفه بيقين تام هو أن هذا العالم ليس من صنع البشر، على الرغم من أنه من صنعهم، سواء كان ذلك بمبادرتهم الإيجابية أو بتواكلهم السلبي.

والأساس الرابع لمنهجه الإصلاحي، هو اعتماده على العقل واهتمامه بالأمور العلمية، فقد كان داعية لإحياء العلوم العقلية، والنظر إلى العقل السليم والتفكير العلمي على أنه ركن هام من أركان الإصلاح وإعادة البناء الحضاري للأمة.

ومن أكثر مظاهر الانحطاط، في نظره، بروزاً، هو الزهد في المعقولات، والغلو في التعلق بالخيالات «فقد أوقد علماء السوء نيران الفتن بين فرق الإسلام، ولم

يكفوا عن مكافحة العلوم العقلية ومنتحليها، يسلطون عليهم العامة والسلاطين، فهلك بذلك عدد من أهل العقول المستنيرة، في كل عصر».

والجاحظ في نظر كرد علي نموذج للنزعة العقلية في الإسلام، وينظر إلى مذهبه في الدين كمذهبه في العلم، «مذهب العقل وصدق الحس لا يُحكم بسواهما».

ورد إعجابه بالمنهج العقلي، إلى كونه السبيل الموصل للنهضة، ولذلك كان من المفتونين بالحضارة الغربية، لأنها أولت الحقائق العلمية والمادية اهتماماً كبيراً، ونبغت في التقدم المادي المعتمد على العقل والعلم، والماديات في نظره هي السلّم الموصل إلى بلوغ القوة، وأي معنويات لمن تجرد من المادة.

لذلك رفض أفكار المتصوفة الأقرب إلى التخيلات، والتي، في نظره، لا تسمن ولا تغني من جوع، وهو يرى ضرورة الإفادة من العلوم العقلية المادية التي أوجبت الشريعة الإسلامية تحصيلها، مع الإعراض عن كل ما يتنافى وروح الدين الإسلامي ومقاصده.

في هذا الإطار النقدي العقلي، ينتقد كرد علي بعض المشتغلين بالفلسفة من رجال الجامعات العربية، الذين انصرفوا إلى نشر كتب بعض قدماء الفلاسفة والمتصوفة، متخيلين أن فيها أسراراً، لو ظهرت، لكشفت عن نواميس الطبيعة، مع أن تلك الأسفار في حلتها الجديدة، ليست سوى عبث لا طائل تحته، وضعه عشاق الغرائب والمولعون بالمجهولات من الأمور.

ولو شئنا أن نستخلص ماهية هذه الأسس جميعاً، التي أقام عليها كرد علي تصوره للإسلام، لقلنا إن النقد هو نقطة الابتداء ونقطة الانتهاء في هذا المنهج الإصلاحي. وهذا الروح النقدي الذي لا يخفى عند كرد علي، متشوف بقوة إلى تفجير الواقع وتغييره، على الرغم من صور التردد والخوف التي تبدو في كتاباته، وتجعله في كثير من الأحيان ينكص على عقبيه، حتى ليكاد يصبح واحداً من كبار المحافظين الذين يودون إلحاق العقل بالنقل. ومع ذلك تظل هذه الأسس الإصلاحية محتفظة بقيمتها إذا ما انتبهنا إلى الأهمية الاستثنائية التي خلعها كرد علي طوال حياته على الوجهة النقدية التي امتاز بها هو شخصياً بوصفه مصلحاً إسلامياً.

أما وظيفة النقد وماهيته، فيعبر عنها كرد علي بقوله: «بالنقد تسير المجتمعات نحو الكمال، ونقد الناس بعضهم بعضا مظهر صحي في المجتمع، يسهم

في زيادة تماسكه ويسير به نحو الكمال». وهذا ما أراده كرد علي ودعا إليه وبيَّن فائدته في توثيق الأواصر وتمتين الروابط، وهو المقصد الجوهري للإصلاح.

❖ ❖ ❖

ساد في مطلع القرن العشرين، نوع من الدعوة إلى الإصلاح الديني، تحت تأثير الأفغاني ومحمد عبده. وقد عمَّ هذا الميل الإصلاحي كثيراً من المفكرين، الذين اشتركوا في الدعوة إلى مجموعة من الأفكار التي تتلخص في العودة إلى الإسلام، إلى ينابيعه الصافية، والتحرر من البدع والخرافات، والاقتداء من جديد، بصورة أو بأخرى، بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين. وقد كان من بين أشهر من اتخذوا هذه الوجهة في التفكير، كل من محمد كرد علي وطاهر الجزائري ومحمد رشيد رضا وغيرهم.

كان كرد علي، في ذلك الحين، قد نشر مقالة عن الوهابية في مجلة المقتطف القاهرية، بعنوان «أصل الوهابية»، ألقى فيها الضوء على تلك الحركة ومبادئها ومؤسسها. وبسبب من هذه المقالة، التي طار صيتها في ذلك الوقت، نسب البعض كرد علي إلى الوهابية، مع أن الرجل لا يمكن وصفه بالوهابية بأي معنى من المعاني. فلئن كان يشترك مع الوهابية بالدعوة إلى العودة إلى الأصول والينابيع، فليس هذا هو كل ما أراده للإسلام في ذلك الوقت.

لقد كان يتطلع إلى أن يتم إغناء الإسلام بنظرة منفتحة على العصر، بحيث يتحقق نوع من التوافق بين روح الإسلام والعصر، وإن كان هذا لا يمنع من وصف كرد علي بأنه ظلَّ أقرب إلى المحافظة منه إلى الانفتاح الواسع على روح العصر ومنجزاته غير المسبوقة.

ومن أوجه النقد المميزة لفكر كرد علي الإصلاحي، اقتناعه بأن تخلف المسلمين عبر القرون، قد ترك آثاره الواضحة في الجوانب الدينية والفكرية والعلمية وكان من نتيجة ذلك أن تخلف العلم وساد التقليد، فسيطر الجمود على عقول المسلمين، الأمر الذي دعا كرد علي إلى أن يقرر «أن المسلمين لا ينجون مما يرمون به من الانحطاط إلا إذا رجعوا، في دراسة دينهم إلى أصوله، على ما كان يعلّم في القرون الوسطى الإسلامية، وأن يتعلموا علوم الحضارة، كما تُعلّم في جامعات الغرب لعهدنا».

ومن الجوانب الإصلاحية المتعلقة بالإسلام في فكر كرد علي أيضاً ما أخذه على المسلمين من الفصل بين الإيمان اللساني والقلبي، وبين التطبيق العملي والالتزام السلوكي، وهو يقدم أمثلة مبسطة تدل في نظره على قدرة الالتزام بالإسلام عقيدة وسلوكاً على حل مشكلات المسلمين في ذلك الوقت. فهو يقول: «لو عمل المسلم بشريعته، فأخرج الزكاة مثلاً، لما رأيت اليوم فقيراً ولا جائعاً ولا عرياناً».

وقد اتخذ الإصلاح الديني عند كرد علي في بعض الأحيان، صورة نقد لرجال الدين الإسلامي، الذين كان يعاصرهم. وهذا النقد، في الحقيقة، يخلع على فكر كرد علي الإصلاحي نوعاً من المعاصرة والحيوية، لأن كثيراً من ملاحظاته التي أدلى بها بهذا الصدد ما تزال تنطوي على قدر كبير من الحقيقة حتى في عصرنا الراهن.

ولقد صنف كرد علي رجال الدين الذين سماهم «أعداء الإصلاح» في ثلاث فئات أساسية، هي: 1- من يبيعون دينهم بدنياهم، 2- من يبيعون دينهم بدنيا غيرهم، 3- المتصدرون للفتوى والإفتاء بغير علم. والصنف الأول (من باعوا دينهم بدنياهم) هم ممن قصروا في حمل المسؤولية وتخلفوا عن أداء الرسالة التي يؤتمنون عليها، وهي هداية الناس إلى طريق الاستقامة. وهؤلاء المشايخ لا يشتغلون إلا بأمر أنفسهم، كما يجرون وراء مطامعهم على حساب كرامتهم ورسالتهم الجليلة. وينكر كرد علي ما بدا من جشعهم، ولا يناسب دعواهم ودعوتهم.

والصنف الثاني (من باعوا دينهم بدنيا غيرهم): وهم المشايخ، الذين يتزلفون للحكام وينافقون لهم، يبتغون عرضاً من الدنيا زائلاً، ولا يدرون أنهم بفعلهم يسقطون من أعين أنفسهم ابتداء، ومن أعين الناس، وينالون غضب الله. كما يعتبر هؤلاء المشايخ مطايا للحكام، لمحاربة كل مصلح وداعية غيور على الإسلام، وفي الوقت ذاته يستخدمهم الحكام للتسلق على أكتافهم، لتحقيق أغراضهم المشبوهة. وهؤلاء المشايخ، فيما يرى كرد علي، يحرّفون الكلم عن مواضعه، لإرضاء الحكام، من أجل تزيين باطلهم وإضفاء طابع الصحة والصواب عليه، وما هو إلا زيف وضلال.

والصنف الثالث (المتصدرون للفتوى والإفتاء بغير علم): وهم المتحذلقون والمتنطحون بالقول، وأفعالهم تجاي أقوالهم؛ وقد حرص كرد علي على كشف زيف خزعبلاتهم، وتدني مستواهم الذي لا يرتقي عن اللهاث وراء المصلحة والكسب الشخصي والتكسب باسم التدين، والدين بصفائه براء منهم، وما هم إلا عالة عليه. ويصفهم قائلاً: «حملة أهواء لا حملة شريعة، وجعاب لغو وحشو لا قوّام على ما يقوم العقل، وهم يجحدون على ما يعرفون، ويفتون ولا يعلمون، يجتهدون ويخطئون، ويعدون علوم البشر ليس أكثر من ذرة من معارفهم».

ويطلق كرد علي على الفئات الثلاث السابقة اسم «أعداء الإصلاح»، لأنهم وقفوا حجر عثرة في وجه مسيرة الإصلاح، ويقدمون الإسلام للناس بشكل باهت، لا روح فيه ولا حياة ومن هنا تأتي خطورتهم في الإساءة للإسلام.

بينما يُعدّ كرد علي، بصفة عامة، ناقداً للمشايخ التقليديين، وبهذا يعد ناقداً للسلفية بمعنى ما، فإننا نجده يلتقي مع هذه الفئة التي ينقدها إلى حد كبير، عندما يتوجه بنقده الحاد إلى متصوفة زمانه. فالمتصوفة، في نظره، يلبسون حقائق الإسلام لباساً يغير مضمونه، وينأى به عن المضامين التي تحتملها معانيه. ولذلك، فقد حرفوا ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منهما إلى الإفهام فائدة، كدأب الباطنية في التأويلات، مما توصلوا به إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم، فجلبوا بذلك الشرور والمخاطر على الأمة الإسلامية من تأويلاتهم البعيدة عن روح التشريع الإسلامي، فما يستهدفه كرد علي في هذا النقد هو التمسك بالقرآن الكريم، وتفسيره التفسير المنسجم مع ما يحتمله لفظه الظاهري، من معنى بدون تكلف، ودون البحث عن معان مبطنة، تخالف منطوق النصوص الشرعية.

ثمة فئة أخيرة من العلماء، الذين يجلهم كرد علي، ويصفهم بالعاملين المخلصين وذوي الأيدي البيضاء على العمل الإصلاحي، والذين يؤدون واجبهم بأمانة وإخلاص.

ومن أمثلة هؤلاء الرجال، محمد بخيت المطيعي، من علماء مصر، وعبد الله المنجد شيخ القراء بدمشق، والعلامة سعيد الأسطواني قاضي دمشق في زمانه، الذي رفض منصب الإفتاء، لأن في ذلك إهداراً للكرامة وإذلالاً للنفس.

وأخيراً، يتخذ من شيخه طاهر الجزائري إماماً وقدوة في هذا المجال، فهو يسوق آراءه الإصلاحية ويتبناها على أنها ذات أثر إيجابي في الإصلاح، ويقتبس منه قوله: «إن أفضل الطرق في إنهاض شعب بتثقيفه بثقافة العصر وثقافة الدين، وهذه طريق طويلة، ولكنها أمينة، لا تخرج عن طريق النشوء الطبيعي».

ومن أوجه الإصلاح الأخرى التي اهتم بها كرد علي، الإصلاح العقلي؛ فقد لاحظ أن مستوى التعليم في مطلع القرن العشرين في ظل الدولة العثمانية وضعاً سيئاً. فمستواه منخفض، والمعلمون غير مؤهلين، والمناهج عتيقة لا تلبي حاجة العصر. وكان التعليم فوق ذلك كله باللغة التركية. ولم يكن الولاة العثمانيون يفون بوعودهم للمطالبين من العرب بجعل التعليم باللغة العربية في الولايات العربية داخل الدولة العثمانية. والحقيقة إن مستوى التعليم لا يشهد أي تحسن فعلي في المنطقة إلا بعد سقوط الدولة العثمانية، إذ شرع رجال الإصلاح في ذلك العهد، بالقيام بمهمة التخطيط للتعليم بأنفسهم. وقد كان كرد علي واحداً من أهمهم بكل تأكيد.

تصور كرد علي، أن أولى المهمات التي ينبغي للمجتمع أن يصرف انتباهه نحوها، تتمثل بالنهوض بمرحلة التعليم الأساسي أو الابتدائي، لأنها ركيزة التعليم في كل المراحل المقبلة. وعندما تولى كرد علي وزارة المعارف للمرة الثانية عام 1928، أولى العملية التعليمية في الريف أهمية استثنائية. فقد كان يعتقد أن المدن قد أخذت حظها من المدارس والمعلمين، ومن ثم فقد آن الأوان لمنح الريف ما يستحقه من الاهتمام. وقد نجح كرد علي في افتتاح عدد كبير من المدارس في القرى والأرياف البعيدة، وعين فيها صفوة من المعلمين الأكفاء.

ولما كانت طليعة المتعلمين قد تخرجت من المدارس الأهلية أو الخاصة، ومن ثم فقد كان التعليم حكراً على أبناء الأغنياء، فإن كرد علي قد ارتأى ضرورة تعميم التعليم ونشره بين أبناء الطبقات الشعبية وغير الميسورة. ولذا فقد اتجهت جهوده، في هذا المجال، إلى تأسيس أكبر عدد ممكن من المدارس العامة، أملاً منه بنشر التنوير والفهم الصحيح لحقائق العصر ووقائعه بين المتعلمين بقصد الارتقاء بالمجتمع والأمة، نحو تحقيق مزيد من الوعي والثقافة بين أفراد المجتمع.

كان كرد علي على وعي بالوظيفة السياسية للمدارس التي أنشأتها الإرساليات التبشيرية في المنطقة. فما أن ينتهي الانتداب ويخرج الاستعمار، حتى

يسهل على الإنكليز والفرنسيين الاستمرار في السيطرة على البلاد نظراً لكون المتخرجين من تلك المدارس سيشغلون المناصب العليا في الدولة. غير أن نظرته هنا نظرة أحادية الجانب، فقد لعب عدد كبير من خريجي تلك المدارس أدواراً وطنية هامة في السياسة بعامة، وفي مقاومة الاحتلال التركي بخاصة، وذلك من خلال جهودهم في إحياء اللغة العربية وبعث جوانب كثيرة من التراث، فضلاً عن تأسيس المجلات وتحرير الموسوعات.

ومن مزايا الإصلاح العقلي عند كرد علي، أنه ربط ربطاً عضوياً بين التعليم والتربية. والتربية هنا تشير إلى الأخلاق الحميدة. لذلك لم ير نفعاً من تعليم لا يصلح أخلاق المتعلم.

ولكرد علي أيضاً مواقف من التعليم، لا تفسر إلا بالعودة إلى نشأته الاجتماعية وبرحابة الأفق التي اكتسبها عبر الخبرة والدربة. من ذلك مثلاً رأيه في أن أبناء الفقراء أصلح للتعليم وأحرص عليه من أبناء الأغنياء، كما نسب إليهم ملكات عقلية وخلقية ونفسية أكثر من سواهم. ووعياً منه بالدور الخطير الذي يلعبه المعلمون، طالب الحكومة برفع رواتب المعلمين، وجعلها متكافئة مع رواتب كبار المسؤولين في الدولة. ولكنه في المقابل، لم يتردد في أن يفصل من الخدمة فئة من المعلمين لم تكن تتوفر لديهم الكفاءة المطلوبة، وعين بدلاً منهم مجموعة من ذوي الطاقات المبدعة من خريجي دور المعلمين، حرصاً منه على تطهير الجهاز التعليمي من الفاسدين، وسداً لثغراته ورفعاً لمستواه.

ومن الخطوات العملية في مجال التعليم، التي قام بها كرد علي، توسيع دائرة التعليم حتى يشمل التعليم المهني في وزارة المعارف، إلى اعتماد التعليم المهني في مدارس الدولة الابتدائية، في المجالات التجارية والزراعية والصناعية، وأدخل في برنامج التعليم الابتدائي ما ينفذ هذا الأمر.

ومن أفكاره المبتكرة في مجال التربية والتعليم، والتي لم يتمكن المجتمع من تنفيذها حتى الآن، إلا بصورة جزئية، دعوته إلى إحلال المعلمات محل المعلمين في المرحلة الابتدائية، لأنهن في نظره أقدر من المعلمين في التعامل مع الأطفال، لما يتمتعن به من الصبر والأناة والحنان، مما يجعلهن أقرب إلى فهم طباع الأطفال والتأثير فيهم.

ومما يذكر لكرد علي أخيراً، في إصلاح التعليم، خدماته الكبيرة في تدعيم الجامعة السورية، التي شكلت النواة لكل ميادين التعليم العالي اللاحقة لتلك الفترة في البلاد السورية. فقد هيأ الأسباب لافتتاح كلية الإلهيات (الشريعة)، فأصبحت الجامعة السورية مكونة من أربع شعب أساسية. ولم يدخر جهداً لتدعيم الجامعة السورية والارتقاء بمستواها العلمي، حتى أصبحت موضع إعجاب زوارها من العلماء الأجانب.

وفي باب الإصلاح الاجتماعي، فقد أولى كرد علي هذا الجانب اهتماماً كبيراً، يشهد على فهمه العميق لأسباب التخلف الاجتماعي الذي تعيشه البلاد وكيفية معالجة تلك الأسباب والخروج من دائرة التخلف للحاق بركب الأمم المتقدمة. وينطلق في الإصلاح الاجتماعي ابتداء من الفرد، الذي يعتبر الأساس لكل إصلاح، وهو يدعو الأفراد لالتزام الأخلاق الحميدة أولاً، والتمسك بأمهات الفضائل من صدق وأمانة وحسن معاملة، ليكونوا البنية المتينة لتماسك بنية المجتمع ثانياً.

وهو يعلق آمالاً كبيرة على أصحاب الرأي الراجح والحكمة والعقل المتزن (أي النخبة) في الأخذ بيد المجتمع للسير نحو تطبيق تلك الفضائل. ولكنه، وفي الوقت نفسه، يأسف لكون بعض أفراد النخبة يترفعون عن المشكلات التي يعانيها مجتمعهم ويتعاملون بازدراء وبشيء من الاشمئزاز مع سخيف العادات وساذجها، ويأخذ عليهم إعجابهم بالقشور من عادات الإفرنج وولعهم بها على اختلاف ضروبها.

ومما يدل على وعي كرد علي، بالمعنى العميق للإصلاح الاجتماعي، وقوفه في كتاباته مطولاً عند الشباب وقضاياهم. وقد توجه بالنصائح التي من شأنها أن تدفع بهم إلى الخير والرشاد. ومن أوجه الخير تلك، لفت أنظار الشباب إلى أهمية القراءة والمطالعة، ودراسة الكتب العلمية، والاجتماعية والتاريخية الجادة، والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يكون منافياً للفضيلة والخلق.

وقد انتبه كرد علي، في معرض دراسته للإصلاح الاجتماعي، إلى بعض الآفات الاجتماعية التي يتعين على المجتمع أن يبرأ منها، إذا ما كان له أن يسير على طريق الفضيلة والرشاد والاستقرار الاجتماعي والنفسي لجميع أفراده. وفي طليعة تلك الآفات التي نبه كرد إلى خطرها، آفة الكذب، التي تعد من خصائص الشخصية المضطربة غير المتوازنة.

ومن هذه الآفات أيضاً، آفة الإسراف في المأكل والمشرب، على ملأ من أولئك الذين يتضورون جوعاً ويعانون من مختلف الأمراض النفسية والجسدية.

وعلى وجه العموم، فقد أعلى كرد علي من فضيلة الاحترام المتبادل بين جميع أفراد المجتمع، وعدها شرطاً ضرورياً لاستقرار المجتمع وتجنب الترهات الناجمة عن الغمز واللمز الذي كثيراً ما يسيطر على حياة المجتمع، فيطبعها بطابع سيء، كما يكون عنصراً هداماً يفت من عضد الحياة الاجتماعية بصفة عامة.

إن أحوال المرأة المتردية، كما شهدها كرد علي في مطلع القرن العشرين، ما كان لها أن تنفصل في فكره عن موقفه العام من الإصلاح الاجتماعي. وانطلاقاً من موقف كرد علي المحافظ أو المتوازن من الشريعة، فقد جاءت معظم أفكاره المتعلقة بإصلاح وضع المرأة لا تبتعد إلا قليلاً عن التصور التقليدي، الذي أنتجه المسلمون لأنفسهم عن صورة المرأة، سواء تعلق الأمر بحياتهم الفعلية أو بتصورهم عن موقف النص المقدس من المرأة الذي صاغوه لأنفسهم. فهو يدعو إلى إعطاء المرأة كامل حقوقها ورفع الظلم والحيف الذي لحق بها من متراكمات عصور التخلف والانحطاط.

ويرى كرد علي أن أحد أسباب الانحطاط الاجتماعي هو تجاهل حقوق المرأة التي أعطاها إياها الشرع الإسلامي، ولكن المسلم المنحط إلى درك التخلف حاول أن يجردها من حقها الشرعي، فاضطهدها وامتهنها متغافلاً عما كان لها من الكرامة في العصور الإسلامية الأولى. وكان من نتيجة إبقاء الرجل للمرأة في جهل مطبق، أن يأتي أولادها ضعاف الجسم والعقل لا خير فيهم لأنفسهم ولا لمن حولهم.

أولى حقوق المرأة حقها في التعليم، الذي لا ينبغي أن يكون فيه تمييز بين ذكر وأنثى، في الريف وفي المدينة على حد سواء، لكونه حقاً طبيعياً لا محل للنقاش فيه. فليست الأنثى بأقل حاجة إلى التعليم من حاجة الذكر. فالتعليم الأساسي واحد من الشروط الضرورية لتحقيق حياة عائلية سعيدة واستقرار زوجي دائم.

ولا ينسى كرد علي أن يهاجم واحدة من أسوأ العادات الاجتماعية الموروثة المتمثلة في تعدي الرجال على حقوق النساء في الإرث، حتى لقد أصبح هذا

الأمر عرفاً لا يكاد يقبل المناقشة. ويذهب كرد علي إلى أن الإسلام قد أنصف المرأة، عندما نصَّ صراحة على حقها المشروع في الإرث. غير أن العادات الجاهلية كانت أقوى من الشريعة، وظلت مستحكمة بعقول الرجال، حتى أصبحت عادة أشبه بالقانون منها بالعرف، وقد انتقل هذا التقليد الرديء من البداوة والريف، حتى غزا المدن المتحضرة، وصار حقيقة واقعة تتحكم بسلوك الرجال في تلك المدن والحواضر. ولا سبيل إلى القضاء على هذه العادة والعودة إلى الوضع الطبيعي، إلا بانتشار العلم والوعي وتطبيق المبادئ الإسلامية المتعلقة بهذا الأمر، على ما يرى كرد علي.

دعا كرد علي إلى تحقيق مبدأ الكفاءة والتكافؤ فيما يتصل بزواج المرأة. ولذلك دعا إلى عدم تزويج الفتيات إلا من أكفائهن من الرجال في السنِّ والحرفة والحرية والنسب والإسلام والديانة والمال، فضلاً عن أمور أخرى، اعتقد كرد علي ضرورتها إذا ما كنا راغبين في إنصاف المرأة ومنحها كامل حقوقها ضمن المجتمع والأسرة على حد سواء.

إلا أن هذا الاهتمام الذي أبداه كرد علي بحقوق المرأة، لا يؤهله لثناء عظيم، حتى وإن وضعنا في اهتمامنا الحدود التاريخية لمبدأ الواقع الذي عاش في ظله مفكرنا الإصلاحي. فقد كان خصماً صريحاً لفكرة حرية المرأة التي يرى أن عدواها قد انتقلت إلينا من الحياة الغربية. ولذلك فهو يدين المدافعين عن هذه الفكرة الذين لا يزيدون في نظر كرد علي عن كونهم مقلدين لا مبدعين. كما أنه يطعن بصورة صريحة، في الفكرة التي يأخذ بها الغرب، والمتعلقة بمساواة المرأة والرجل. وهو يدين ترك الغربيين المرأة تخرج إلى ميدان العمل خارج المنزل، دون تمييز بين ما يلائم طبعها وما لا يلائمه. والخلاصة: لقد كانت تجربة الغربيين الخاصة بالمرأة تجربة مخفقة، لم تسفر إلا عن اضطراب وفوضى.

والنتيجة التي ينتهي إليها كرد علي، ارتداده على الأفكار التي أدلى بها، فيما يتعلق بحقوق المرأة ومنزلتها في المجتمع. وهكذا فإنه يرتدّ إلى الثنائيات الشرقية التقليدية، التي تقرر انفراد الرجل بالذكاء والمرأة بالشعور، وانفراد الرجل بالتقدير والتفكير، بينما حسب المرأة الإحساس والعاطفة. وهو يدين أولئك الذين يدعون

إلى مساواة المرأة بالرجل، مع ثبوت الاختلاف بينهما في التركيب العقلي والنفسي والجسمي، وهو اختلاف يناسب كلاً منهما.

والأعجب من ذلك، أن كرد علي لا ينظر إلى حق الانتخاب، الذي منحه الغرب للمرأة في وقت مبكر، إلا كنوع من الإرضاء لفريق من المطالبات بهذا الحق الموهوم، الذي ما زاد من مكانة المرأة. وليس مما يتناسب وطبيعة المرأة - على حد ما يذهب إليه كرد علي - أن تعمل في الشرطة والدرك والقضاء والإدارة، ولا أن تمارس ركوب الطائرات والغواصات وتقود الكتائب وتعبئ الصفوف. ويقترح كرد علي، بدلاً من ذلك كله، أن تهتم المرأة بتربية الأطفال وتنشئتهم تنشئة صحيحة، والقيام فقط ببعض الأعمال العلمية والعملية كطب الأمراض النسائية والكيمياء العملية وتمريض المرضى وغير ذلك.

واستكمالاً لتصورات كرد علي الإصلاحية في شتى الميادين التي ذكرناها، يجدر بنا الإشارة إلى موقفه من صحافة عصره من ناحية، ومن الصحافة كما يجب أن تكون من ناحية أخرى. ومن المعروف أن كرد علي كان عاشقاً للصحافة ومغرماً بها منذ حداثة سنه، وهو ميل أو هوى لم يزايله حتى أخريات أيامه، الأمر الذي يكشف عن وعيه العميق بالدور الخطير الذي تلعبه الصحافة دون غيرها من الوسائل والأدوات التي ابتكرها المجتمع للتعبير عن نفسه، ونقد أوضاعه بقصد الاقتراب مما يريده لهذا المجتمع أو ذاك أن يكون عليه.

لقد كان كرد علي قادراً على أن يتبين، منذ مطلع القرن العشرين، أن الصحافة وسيلة إصلاح بقدر ما تكون هي قادرة على إصلاح نفسها. فمن كان أمره فاسداً، هيهات له أن يصلح أمر غيره. ولقد عبر عن هذه المعاني بصورة واضحة جداً، وعلى نحو لا يخلو من استباق، وكأنه يتحدث عن مجتمعنا وعن صحافتنا المعاصرة، حين مضى إلى القول: «الصحافة هي مرآة الأمم، يتجلى فيها عملها وعلمها، ومليحها وقبيحها، وقوتها وضعفها، فإذا كانت فقيرة بمادياتها أو معنوياتها أو بكليهما معاً، وجدت الحكومات والأحزاب والشركات سبيلاً إلى إفسادها، تعطيها قليلاً لتفسدها كثيراً، فيضيع الغرض الأسمى منها».

لو شئنا أن نعبر بإيجاز وتكثيف عما يستهدف كرد علي من الأفكار السابقة، لقلنا: إن استقلال الصحافة عن شتى المؤثرات، السياسية

والاقتصادية، وغيرها، هو الشرط الوحيد الذي من شأنه أن يخلع على الصحافة هذه الصفة باستحقاق وجدارة.

ولقد جهد كرد علي في تشخيص أحوال الصحافة في عصره، قاصداً إلى إصلاح شأنها، بعد تحديد عيوبها ونقاط ضعفها. فهو يرى أن كثيراً من المشتغلين بالصحافة ليسوا أهلاً للعمل بها، وذلك لأنهم يصدرون في رغبتهم في العمل الصحفي، إما عن فراغ نفسي أو عوز مادي.

ولا يفوته هنا أن يدين حكومات زمانه، التي كانت تمنح الامتيازات الصحفية لمن لا يستحقونها. فمهنة الصحفي في نظر كرد علي لها من الخطر مثلما لمهنة الطبيب تماماً. ولذلك يقول: «إن ما يحدثه الصحفي الجاهل في العقول، ليس أقل مما ينجم عن يد الطبيب الدجال في الأجسام».

وقد حرص كرد علي كل الحرص على دعوة الصحافة والمشتغلين بها إلى الحفاظ على الاستقلال السياسي لها عن كل الاتجاهات والأيديولوجيات؛ فليس ثمة ما يفسد الأمة وعقولها مثل إفساد الصحافة المأجورة سياسياً لهذا الحزب أو ذاك، ولذا فهو يرى: «أن الأمة تضللها جرائدها، كما يضعفها تناحر أحزابها وتلاعب ساستها وقادتها».

وفساد الصحافة ليس بالضرورة أن يأتيها من تبعيتها للأهواء السياسية فقط، بل قد يأتيها من العجز الإداري للقائمين على إدارتها. وهذا العيب في الإدارة ناجم عن فردية القائمين على الصحافة، وإهمالهم للروح الجماعية، التي ظل كرد علي مؤمناً بأنها تجعل الإدارة تسير في طريق أقوم من ذلك الطريق الذي يفرضه الاستئثار الفردي بإدارة الصحافة أو غيرها من المرافق الحيوية للأمة؛ فعمل الجماعة، بنظر كرد علي «أدعى إلى الثقة والاستمرار من عمل الفرد».

يتضح من كل ما تقدم، أن محمد كرد علي كان نصيراً للإصلاح على طريقته الخاصة. فهو ابن الزمان والمكان اللذين عاش فيهما. ولكنه مع ذلك، نجح في أن يمد بصره، ويرسل بصيرته فيما وراء اللحظة التي تعينت فيها أفكاره وتحددت فيها أحلامه وتطلعاته. وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يقال عن الأضداد أو التناقضات التي ينطوي عليها فكره، فبوسعنا مع ذلك، أن نقول: إنه

كان أقرب إلى دعوة الأمة وحكامها إلى تبني صورة من صور الديمقراطية منهجاً وأسلوباً وطريقاً في الحياة.

د. يوسف سلامة

مؤلفاته

1- غرائب الغرب: صدر هذا الكتاب في جزأين، جمع فيه وصف رحلاته إلى أوروبا، وبلغ عدد صفحاته 640، ونشر في مصر عام 1923.
2- القديم والحديث: صدر عام 1925، وهو في الأصل مجموعة مقالات نشرها في المقتطف والمقتبس والمؤيد والظاهر
3- البعثة العلمية إلى دار الخلافة الإسلامية، عام 1916: وهو الكتاب الذي ألفه مع محمد باقر وحسين الحبال وعبد الباسط الأنسي، تحت طلب جمال باشا وهو عبارة عن تقرير عن رحلتهم إلى عاصمة الخلافة. طبع هذا الكتاب في بيروت، عام 1916، وعدد صفحاته 296.
4- الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية: وهو كتاب دعاية للدولة العثمانية كتبه تمشياً مع رغبة الوالي.
5- غابر الأندلس وحاضرها: وهو كتاب يتحدث فيه عن الأندلس، فتحها وحضارتها وعمرانها ومدينتها وآثارها الباقية.
6- أقوالنا وأفعالنا: كتاب عن الأخلاق والعادات التي يتطبع بها مجتمعنا ويطرح بعض الحلول الممكنة للمشكلات العالقة، وقد نشر في دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة عام 1946.
7- كتاب «تاريخ الحضارة في القرون الوسطى والحديثة: ويتحدث عن أصول الحضارة قديماً وحديثاً». طبعته المكتبة المحمودية التجارية بمصر، وبلغ عدد صفحاته 85 صفحة.

8- الإسلام والحضارة العربية: وفيه يدافع عن الإسلام ضد دعاوى المستشرقين ويبرز حقائق الإسلام وفضله على المدنية الغربية. والكتاب جزآن عدد صفحاته 970 صفحة.

9- الإدارة العربية في عزّ العرب: وهو في الأصل جزء من الكتاب السابق، لكنه استخرجه منه وطبعه في مصر على نفقة السيدة قوت القلوب الدمرداشية.

10- أمراء البيان: ويدور حول عشرة من أمراء البيان، وهم: عبد الحميد الكاتب، وعبد الله بن المقفع، وسهل بن هارون، وعمر بن مسعدة، وإبراهيم الصولي، وأحمد بن يوسف الكاتب، ومحمد عبد الملك الزيات، والجاحظ، والتوحيدي، وابن العميد. نُشر هذا الكتاب في مصر عام 1937 في جزأين ويقع في 780 صفحة.

11- كنوز الأجداد: وهو كتاب يتحدث فيه عن الأعلام الذين أثروا في الحضارة الإسلامية بعلمهم وثقافتهم قديماً وحديثاً، كالأشعري والأصفهاني والبلوي والتنوخي والبيروني والماوردي والجرجاني، والغزالي، والحريري، وغيرهم. وصدر هذا الكتاب بترجمة مطوله لشيخه وأستاذه طاهر الجزائري، وأهدي له. وقد طبع في عام 1950، بمصر وعدد صفحاته 436 صفحة.

12- كتاب «غوطة دمشق» وهو كتاب يعبر فيه أصدق تعبير عن علاقته بمكان مولده وأهل ذاك المكان.

13- خطط الشام: وهو كتاب من ست مجلدات، صرف في تأليفه ثلاثين عاماً كما يقول.

14- ترجمة ابن تيمية: وهو كتاب يعرض فيه سيرة العلامة الفقيه أحمد بن عبد الحليم الحراني المعروف بابن تيمية، وقد طبع في دمشق وعدد صفحاته 440 صفحة.

15- المذكرات: وقد وضعها في أربعة أجزاء، كما عرض فيها خبرته في الأشخاص والدول والحكومات بأسلوب صريح وجريء، وتدور مادتها الفكرية بين مجالات الأدب والسياسة والاجتماع والتاريخ وقد ضمنها آراءه الشخصية ومواقفه.

أما تحقيقاته للكتب والمخطوطات، فتلك أيضاً كانت من مساهماته الميزة، منها :

1- رسائل البلغاء: وهي رسائل تبحث في أدب عدد من البلغاء العرب وقد نشرها في المقتبس، ثم جمعها وطبعها عدة طبعات في مصر تحت إشراف بعض المستشرقين عام 1908، 1913، 1946.

2- سيرة أحمد بن طولون: وهي سيرة كاتبها أبو محمد عبد الله البلوي، وقد اتسمت بالقدم وصعوبة القراءة، فعمل كرد علي على توضيحها وتسهيل الصعب فيها بعد جد وتعب. وطبع الكتاب في 400 صفحة.

3- تاريخ حكماء الإسلام: مؤلف هذا الكتاب الإمام ظهير الدين البيهقي من علماء القرن السادس الهجري، ويحتوي على أخبار ثلة من الحكماء والأطباء المشهورين، وقد حققه كرد علي عن نسخة الأصل المخطوطة الموجودة في برلين، ثم نشره المجمع العلمي العربي في 284 صفحة.

4- كتاب البيزرة: وهو كتاب طريف يتحدث عن أنواع الحيوانات، وعن الصيد ووسائله وأدواته، وينسب هذا الكتاب إلى بازيار العزيز بالله الفاطمي، دققه كرد علي وحققه وكتب له مقدمة محكمة، وطبع بعد وفاته عام 1953.

5- كتاب الأشربة: وهو من تأليف عبد الله بن مسلم المشهور بابن قتيبة، ويحتوي على مادة أدبية وفقهية، وقد سبق أن طبعه المستشرق أرتوركي عام 1907، إلا أن كرد علي أعاد طباعته وحققه على ثلاث نسخ مخطوطة، وأخرج بثوب علمي جديد لينتفع منه القراء.

رضا سعيد

رجل العلم الأول

(1876 - 1945)

أصابته حالة قلق مفاجئة، وهو يعدُّ نفسه للعودة إلى الوطن. كان يجهز حقائب السفر، ويغرق في بحر من الحنين لرؤية دمشق، بعد سنتين من الغربة. كثيراً ما كان يعلق عينيه في الأفق، حيث الحد السديمي الفاصل بين السماء والأرض، كان يغريه بالعودة إلى الجنوب، إلى بلاده التي ما زالت تئن تحت وطأة الاحتلال العثماني.

نعم، فرنسا جميلة، وهي بلاد العلم والجمال، ولكن حانت لحظة العودة، حيث يجب أن يعمل ويقدم خبرته وعلمه لخدمة سورية. لقد تغيرت رؤيته، خلال سنتين من الدراسة والبحث، وتوسعت دائرة الحكمة.

وصل رضا سعيد من باريس مع زوجته الفرنسية، حاملاً معه مشروعاً علمياً كبيراً. كثيراً ما كان يحدِّث نفسه، ويفكر بهذا الوطن الجميل، الذي قدم للبشرية الحضارة واللغة. وكثيراً ما كان يسأل نفسه عن الطرق التي يجب أن يتبعها، ليساهم في إنقاذ بلاده من الجهل والاحتلال. وكان جوابه الوحيد: ليس هناك من وسيلة سوى العلم. وانطلق د. رضا سعيد، يكافح ويجاهد، حتى أجبر الجميع على الاعتراف به رجل العلم الأول.

بدأت الرحلة المضنية بعد عودته إلى دمشق، في العام 1911، حيث كان عندها في الخامسة والثلاثين من عمره، وقد حمل شهادة دكتور في طب العيون من باريس.

❖ ❖ ❖

دمشق، هي المدينة التي ولد فيها رضا سعيد، وكانت ما تزال، في ذلك العام 1876، تحت الاحتلال العثماني. وفي هذا الربع الأخير من القرن التاسع عشر،

كانت أفكار النهضة العربية، قد بدأت تطفو على السطح، وبرزت الأفكار الليبرالية والراديكالية والإصلاحية، في مقابل الأفكار الرجعية المدافعة عن الرابطة العثمانية. وفي هذه الفترة أيضاً، بدأ المثقفون العرب يتأثرون بفكرة الدولة القومية، التي ظهرت في أوروبا في القرن التاسع عشر، نتيجة لصعود الرأسمالية.

في هذا الجو الصاخب والمتوتر، عاش رضا سعيد طفولته. درس في الكتَّاب، ثم في القسم الابتدائي من المدرسة الرشدية العسكرية، وانتقل بعد ذلك إلى استانبول؛ حيث دخل القسم الإعدادي التابع للمدرسة الطبية العسكرية. وتخرج من هذه المدرسة في عام 1902، وعُيِّن برتبة مساعد للسريريات العينية في المدرسة الطبية العسكرية، وسُمي معاوناً لأستاذ أمراض العين الفريق التركي أسعد باشا. وبعد إعلان الدستور العثماني، في عام 1908، تم إيفاده إلى باريس عام 1909، للاختصاص بالأمراض العينية، حيث واظب على مستشفى (أوتيل ديو) مدة سنتين، نال خلالها شهادة اختصاص في أمراض العين من جامعة باريس، ولقب (مونيتور) أي طبيب يقوم بالبحث العلمي، وتوكل إليه مهام تعليمية بإشراف أستاذه. وواظب مدة ستة أشهر على معهد باستور، حيث درس فن الجراثيم. وبعد عودته من باريس إلى استانبول، عُين كحالاً (طبيب عيون) في المستشفى العسكري المركزي في دمشق، في عام 1913. وفي عام 1914، عُيِّن رئيساً لأطباء الخط الحديدي الحجازي، الذي وصل دمشق بالمدينة المنورة، وتم إنشاؤه بين عامي 1901 و1909. ومن ثم عين رئيساً للخطوط الحديدية السورية

❖ ❖ ❖

لأن الحروب لا تأتي إلا بالدمار والأمراض، فقد جلبت الحرب العالمية الأولى معها إلى سورية القحط وشح الأغذية والأوبئة، وعمت المجاعة، وحصدت عشرات الآلاف من أبناء الوطن. في هذه الأثناء، في عام 1917، وجد العثمانيون في د. رضا سعيد، رجلاً مناسباً لتوليته منصب رئيس بلدية دمشق، حيث بذل جهوداً كبيرة في تأمين إعاشة المدينة، في الوقت الذي عمت فيه المجاعة لبنان والدول المجاورة، بسبب حصار الحلفاء للشواطئ السورية ومصادرة الدولة العثمانية للمؤن وحيوانات النقل. وكان لا بد للدكتور رضا من أن يقوم بواجبه على أكمل وجه. فقد أرقته آلام الناس وهم يشدون على بطونهم، ووجد أن عليه أن يستخدم الحكمة في

تأمين الحد الأقصى من المؤن والمواد الغذائية، لإيقاف هذا السيل الجارف من الأرواح التي تزهق من الجوع. كان متفانياً في خدمة الناس، واستطاع أن يخفف من وطأة الجوع المفترس، كوحش أعمى.

وفي الفترة التي عمل فيها رضا رئيساً لبلدية دمشق، قام بأعمال جيدة من أجل تجميل مدينته عمرانياً.

بعد انتهاء الحرب، نادى السوريون بالأمير فيصل ملكاً على سورية، وتألفت حكومة عربية لأول مرة. عندها، كان لا بد للوطنيين من أن يبدؤوا مسيرة العمل من أجل إصلاح ما يمكن إصلاحه، وتغيير ما يمكن أن يدفع بالبلد إلى الأمام. فقام الدكتور رضا سعيد، ونادى بإعادة افتتاح المعاهد العليا المغلقة في سورية، واستطاع بمعاونة بعض الغيورين من الأطباء على التعليم الطبي، بتأسيس مدرسة لتعليم الطب باللغة العربية، ودعيت «مدرسة الطب العربية»، إلا أن هذه التسمية لم تدم طويلاً، واتخذت فيما بعد اسم (المعهد الطبي العربي). وقد تألفت مدرسة الطب العربية من خمسة من كبار الأطباء، هم: الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، والدكتور رضا سعيد، والدكتور أحمد منيف عثمان العائدي، والدكتور محمود حمودة، والدكتور عبد القادر الزهراء. وأخذت اللجنة تدعو الأطباء المهرة للانضمام إلى هيئة التدريس، فضمت فيما بعد أقدر الأطباء، وأشدهم غيرة على مصلحة الوطن وعلو شأنه ورفعته.

أقيم حفل افتتاح المعهد الطبي العربي في بداية عام 1919، وبوشر بالتدريس، بعد أن تمت تسمية الأساتذة. وكان قد انسحب الدكتور عبد الرحمن الشهبندر لتسميته وزيراً للخارجية في الحكومة الفيصلية، كما انسحب الدكتور محمود حمدي حمودة، إذ دُعي لتنظيم الشؤون الصحية في المملكة العربية السعودية، وانسحب الدكتور عبد القادر الزهراء ليكون طبيباً عسكرياً في الجيش العربي. ثم توالى انسحاب عدد غير قليل من الذين انضموا إلى هيئة التأسيس في بادئ الأمر، لضعف في لغتهم العربية، وعجزهم عن التدريس بها، وقد كان معظمهم من الذين درسوا الطب باللغة التركية. وأخيراً، بقي الأساتذة القادرون على التدريس باللغة العربية، فكان منهم د. رضا سعيد، الذي انتخب عميداً للمعهد الطبي العربي، وأسند إليه تدريس أمراض العين وجراحتها، وقد كان مساعداً لأستاذها في كلية

الطب في إستانبول. وكلف بتدريس الطب الجراحي والأشعة الدكتور طاهر الجزائري، الذي سمي نائباً لعميد المعهد الطبي العربي، وأسند تدريس التشريح وأمراض الأذن والأنف والحنجرة إلى الأستاذ عبد القادر سري، وتدريس التشريح الوصفي والنسج إلى الأستاذ مصطفى شوقي، وأسند تدريس الفيزيولوجيا للأستاذ أحمد منيف عثمان العائدي.

عمل د. رضا على الارتقاء بالمعهد الطبي العربي، وجاهد لكي يكون التدريس فيه باللغة العربية، وكافح لتوفير الجهد والمال والوقت على الطلاب الذين يريدون الانتساب إلى الكليات الأجنبية.

باشر عمله، رغم العقبات السياسية التي واجهته. حاولت سلطة الانتداب الفرنسي إغلاق المعهد، ومن ثم وافقت على بقائه بفضل جهود الدكتور رضا في إقناعهم بذلك. واستطاع أن يوفر للمعهد الازدهار والنمو. وتمكن من الحفاظ على اللغة العربية لغة التدريس فيه. كذلك، فقد وضع برنامجاً موسعاً لإيفاد أساتذته إلى فرنسا، كي يطلعوا على جديد الطب هناك. وقام بتزويد المعهد بالكتب الطبية الحديثة وبالمجلات العلمية والطبية.

شجع الدكتور رضا الأطباء على تعريب المصطلحات العلمية والطبية، ونقلها إلى اللغة العربية. وفي عام 1920، أصدر كتابه «مبحث في أمراض العيون للمتمرنين»، وهو كتاب ترجمه عن الفرنسية. كان الكتاب صغير الحجم كبير الفائدة، وكان مؤلفه الدكتور الفرنسي (آ. كانتونه) طبيب ذائع الصيت في العالم أجمع، وقد ترجمت مؤلفاته، ولا سيما هذا الكتاب، إلى عدة لغات أوروبية.

خطَّ د. رضا سعيد مقدمة لهذا الكتاب، تحدث فيها عن فائدة ترجمته إلى اللغة العربية، وقال: «إن ارتداء هذا الكتيب حلة إيطالية وإسبانية، وكندية ويونانية وهولندية، أكبر دليل على ما فيه من الفوائد الجليلة، على صغر حجمه. فهو مجموعة، إذا وعتها ذاكرة الطبيب الممارس، كانت كافية وافية، وذكرى للطبيب الاختصاصي، يرى فيها مصغراً، ما نقشه فيه مكبراً، فكيف نضنُ عليه بالحلة العربية، الرائعة الجمال، بعد أن تنوعت عليه الحلل؟ وكيف لا نتحف به الناطقين بالضاد، ونحن أحوج الناس إلى هذه المؤلفات، الصغيرة الحجم، الكبيرة الفائدة، إلى هذا المختصر الذي كان قبلةً مؤلفة».

لم يكن تأسيس المعهد الطبي العربي، سوى بداية لرحلة عمل طويلة وشاقة، كان على مؤسسه القيام بها. سعى رضا جاهداً لجلب أفضل الأساتذة إلى المعهد، وقام باستقدام وضع أفضل البرامج والمواد التدريسية. إضافة إلى ذلك، فقد جاهد لتأسيس فروع للمعهد، هي الصيدلة وطب الأسنان والتمريض والقبالة. وكاد هذا الجهد الجبار أن يُهدَر، حين أعلنت السلطة الفرنسية أنها ستعمل على إلغاء المعهد الطبي العربي، وكانت حجتها وجود معهدين لتعليم الطب في بيروت، وهما الجامعة الأمريكية وكلية الطب الفرنسية (اليسوعية).

أرسلت السلطة قرارها بإغلاق المعهد إلى رئيسه، الذي دهش وفوجئ بهذا الطلب الجائر، فما كان منه إلا أن وقف مع زملائه بحزم وشجاعة في وجه سلطة الانتداب التي تدعي التنوير. وأمام هذا الموقف العنيد والصلب، تراجعت السلطة الفرنسية عن قرارها، وعرفت بأن هذا الأمر سيضر بسمعتها ودعواها لنشر العلم. إلا أنها أوعزت بأن تضم هيئة التدريس في المعهد، بعض الأساتذة الفرنسيين المختصين. لم يعارض أحد هذا الطلب، بل كان مُرحَّباً به وحضر إلى التدريس في المعهد ثلاثة أساتذة فرنسيين: أولهما، وهو (لو سركل) لتدريس الأمراض والعمليات الجراحية، وثانيهما هو الدكتور (ترابو) لتدريس سريريات الأمراض الباطنية، والثالث هو الدكتور (جود) لتدريس الأمراض العقلية والعصبية.

من بين الأساتذة الفرنسيين، تميز الدكتور (لوسركل) الذي أدخل على تدريس الجراحة والعمليات أفضل الطرق الحديثة، وكان له الفضل في تدريب كل الذين كانوا يعملون في قسم الأمراض الجراحية من الأساتذة والمساعدين. وفي كل عام، عندما كان (لوسركل) يعود من عطلته من باريس إلى دمشق، كان يحمل آخر ما استجد من الأبحاث والعمليات الجراحية في الفروع المختلفة.

بدا واضحاً، أن الدكتور رضا سعيد، كان يحمل مشروعاً تنويرياً وطنياً كبيراً، وذلك عندما ترأس مبادرة تأسيس الجامعة السورية، التي كان المعهد الطبي العربي نواتها الأولى. وعمل بجدٍ، لإصدار قرار بذلك. فما كان من السلطة المنتدبة، إلا أن وافقت على المقترح في حزيران 1923، ووضعت الدكتور رضا رئيساً للجامعة السورية، إضافة إلى بقائه عميداً للمعهد الطبي العربي.

اتصف عهد الدكتور رضا في رئاسة الجامعة السورية بترسيخ قواعد التعليم العالي في سورية، وتنظيم الجامعة واستقرارها، والعمل الدؤوب للاعتراف بشهاداتها في وجه ظروف سياسية صعبة، تميزت بالمنافسة العلنية والخفية بين الانتدابين الفرنسي والإنكليزي. فعلى نطاق التنظيم، تمَّ فصل المجمع العلمي العربي والمتحف عن الجامعة، بعد أن ألحقا بها في حزيران 1923، وتم الفصل بموجب قرار صدر في آذار عام 1926. وبذلك انصرفت كل مؤسسة إلى تطوير أنظمتها وميادين عملها، وأصبح لها استقلالها الذاتي، واستبعدت المنافسة شكلياً على الأقل بين رؤسائها.

عُيِّن الدكتور رضا سعيد وزيراً للمعارف في الحكومة التي شكلها صبحي بركات رئيس الدولة السورية في كانون الأول 1924. وكان لهذه الوزارة أهميتها الخاصة، لأنها أول وزارة تشكل في الدولة السورية في عهد الانتداب الفرنسي، بعد أن توحدت دولتا دمشق وحلب في دولة واحدة. وكان الفرنسيون قد مزقوا سورية إلى أربع دويلات: دمشق وحلب، ومنطقتي العلويين وجبل الدروز. واشتدت آنذاك الحركة الوطنية الناقمة على الفرنسيين، وبلغت أوجها بزيارة اللورد بلفور إلى دمشق في نيسان 1925، واضطر للمغادرة قبل إتمام مدة زيارته.

كانت هذه الاضطرابات مربكة للحكومة ولوزير المعارف رضا سعيد، بسبب التشدد الذي جابه به الفرنسيون المتظاهرين، والذي أفضى إلى قيام الثورة السورية الكبرى. لذا كانت الفترة التي أمضاها رضا سعيد في وزارة المعارف قصيرة، وانتهت باستقالة حكومة صبحي بركات، في أواخر عام 1925.

الوطن يغلي والاضطرابات تتواصل، مطالبة بإنهاء الانتداب ورحيل الفرنسيين عن أرض سورية. اندلعت الثورة السورية الكبرى، ولم يجلس الطلاب في الجامعة السورية، ويكتفون بالدفاع عن مصالحهم في التعليم وتخفيض الرسوم الجامعية، بل برز الوطن في مقدمة اهتماماتهم وهمومهم. أضربوا عند مجيء بلفور إلى دمشق وأجبروه على المغادرة خلال ساعات، ولم يرتعدوا من تهديد حكومة الانتداب بطردهم من الجامعة. شاركوا بدعم الثورة السورية، وجمعوا المؤن وأرسلوها إلى الثوار. وما أن انتهت الثورة، حتى أصبح الطلاب في مواجهة مقاومة

الانتداب الفرنسي، وقاموا بإضراب دفع الحكومة إلى فصل بعض الطلاب، ثم أعادتهم إلى الجامعة مرغمة.

عاد د. رضا سعيد رئيساً للجامعة، بعد استقالة حكومة صبحي بركات، وعمل على إصدار قرار يقضي بوضع النظام الداخلي للجامعة السورية. وإلى جانب القرارات الناظمة للجامعة، قام بتطوير أنظمة المعهد الطبي والمعهد الحقوقي، لرفع مستواهما العلمي من ناحية، وللحصول على الاعتراف بالجامعة السورية وشهاداتها في وجه منافسة قوية من معهدي الطب الفرنسي والأمريكي في بيروت، من ناحية أخرى. وقد ألغى الدكتور رضا بالتدريج ما سببته الأنظمة المختلفة للمدارس من الشروط المتعددة التي اعتمدتها الجامعة في قبول الطلاب، وذلك باعتماد البكالوريا السورية المعادلة للبكالوريا الفرنسية، شرطاً رئيساً في قبول الطلاب، بدءاً من العالم 1929.

إنه احتلال، ولا بد من أجل مقاومته ودحره، أن تكون هناك ثقافة مغايرة، لا تعتمد لغة المحتل الفرنسي. فبعد فشل مشروع التتريك العثماني، كان لا بد من العمل لمنع فَرْنَسَة اللغة الذي اعتمدته دولة الانتداب.

فكر د. رضا بإحباط مشروع الفَرْنَسَة للجامعة السورية لغة وإدارة، وشرع بتطبيق التدريس فيها باللغة العربية، استمراراً لماضي سوريا العريق، وتلبية لاحتياجات الناشئة العربية التي أمَّت الجامعة السورية بسبب ذلك. وكان هذا المشروع، يحتاج إلى رجال وطنيين يقومون به، فنشط د. رضا مع زملائه في هيئة التدريس في الترجمة والتأليف بالعربية، مع المحافظة على الاتصال بأحدث العلوم الطبية العالمية. وكان تعيين عدد من الأساتذة الأطباء الفرنسيين في هيئة التدريس، مفيداً لتعويد الطلاب على الإلمام باللغة الفرنسية، التي كانت حينها اللغة الأساسية في العلوم الطبية.

تُرجمت المحاضرات التي تلقى بالفرنسية مباشرة إلى اللغة العربية، سواء في معهد الطب أو الحقوق. وهكذا، نجحت الهيئة التدريسية، وبخاصة في معهد الطب، في ترسيخ التعليم بالعربية، وحقق الخريجون نجاحات عالمية.

اشتهرت الجامعة السورية، بفضلها في صهر عقول أبناء الأمة العربية في بوتقة واحدة، وتوحيد ثقافتهم وميولهم. وكذلك، فقد اعترف الجميع بفضلها في

إحياء اللغة العربية وجعلها لغة عالمية متماشية مع اللغات الحية الأخرى. إنها الجامعة الوحيدة في العالم، التي كانت تدرِّس بالعربية، والتي ناضل رئيسها لبقائها وثباتها في وجه كل المصاعب التي اعترضته، واستطاع أن يثبت مقدرة اللغة العربية في استيعاب العلوم الدقيقة والمصطلحات العلمية والطبية. لم تمضِ سنوات على هذه الخطوة الرائدة، حتى ارتفع شأن اللغة العربية، واحتلت موقعاً مميزاً بين لغات العالم. فخطفت التجربة السورية أبصار عدد من رؤساء الكليات والجامعات العربية، وأشادوا بريادة الجامعة السورية في هذا الميدان.

وقعت البلاد في ضائقة مالية، إبان الأزمة النقدية العالمية، في نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات. رغم ذلك، فقد سعى د. رضا سعيد إلى بناء دار الجامعة ومدرجها الكبير عام 1929، وإلى الإشراف على ترميم الأبنية في التكية لاستقبال المخابر وشعبة طب الأسنان. واستطاع بصبره وقدرته على الإقناع، إشادة أبنية في حديقة المشفى العام، لاستيعاب القابلات والعيادات الخارجية

افتقدت الجامعة السورية لمنبر يسطِّر فيه أبناؤها نشاطاتهم العلمية وبحوثهم تأليفاً وترجمة، فما كان من د. رضا إلا أن أسس مجلة (المعهد الطبي العربي)، وأسند رئاسة تحريرها إلى الدكتور مرشد خاطر، أستاذ أمراض السريريات الجراحية في المعهد. وخرجت المجلة إلى النور، لتعطي مثالاً حياً على دورها الهام في تنمية الوعي البحثي في الجامعة وخارجها. ولم تمضِ سنوات، حتى أنشأ د. رضا مطبعة خاصة بالجامعة السورية عام 1931، طبعت فيها مؤلفات الأساتذة وكذلك مجلة المعهد الطبي العربي.

بادر د. رضا إلى تأسيس الجمعية الطبية الجراحية بدمشق، ووجه الدعوة إلى نخبة من الأطباء، فقرروا وضع نظام داخلي للجمعية، وطلبوا من الحكومة السماح لهم بتأسيسها، لأن غايتها رفع سوية الطب في دمشق، ونشر العلوم الطبية. وافقت الحكومة على تأسيسها، في حزيران 1934، وكان مؤسسو الجمعية 31 طبيباً، منهم عشرة فرنسيين. وتألفت من أعضاء عاملين عددهم (50)، وأعضاء فخريين غير محددين، وأعضاء مراسلين غير محددين أيضاً. وعقدت الجمعية جلستها الأولى، وانتخب د. رضا رئيساً لها.

نجح د. رضا كرئيس للجامعة، ونال احترام المسؤولين الفرنسيين والعرب. وقد شهدت رسائله إلى المندوبين الفرنسيين على حكمة وطول أناة ودبلوماسية، مما أعطى لمنصب رئيس الجامعة احتراماً كبيراً محلياً وخارجياً. وشرع الفرنسيون يحرصون على إبقاء الصبغة المحلية والعربية للجامعة السورية، لشعورهم أنها تستقطب اهتمام العالمين العربي والإسلامي، ولا يمكن أن تنجح النماذج الفرنسية السائدة في بيروت والجزائر، في دمشق المعروفة بعراقتها.

بلغ احترام د. رضا مدى كبيراً في كل الأوساط العلمية والحكومية، وفي المحافل الدولية والعربية. وفي عام 1931، تمت دعوة المعهد الطبي العربي بدمشق، من قبل (معهد فرنسا) في باريس، للمشاركة في احتفالها السنوي الرابع، فاختار مجلس المعهد الدكتور رضا سعيد ليمثل الجامعة في الاحتفال، وليطلع في الوقت نفسه، على ما استحدث في معاهد الطب الفرنسية من أمور إدارية وفنية.

في الجانب السياسي، أثبت د. رضا موضوعيته وحياديته، ولم يسعَ إلى تسييس الجامعة، ولم ينتصر لفريق دون آخر، رغم تسلل الحزبية إلى صفوف الطلاب، وانتشار الخلايا على مستوى الجامعة كلها. ورغم هذا، فقد وجهت إليه الاتهامات بعدم الإنصاف بين أعضاء الأحزاب. ولكنه، ولسعة صدره، وترفعه عن الدخول في مهاترات لا طائل منها فقد أحجم عن الرد على أولئك الذين حاولوا تشويه صورته أمام المجتمع بأكمله، وترك للرأي العام البتَّ في هذه الاتهامات المغرضة، التي حاولت النيل من مصداقيته ونزاهته في إدارة الجامعة.

❖ ❖ ❖

لم تكن حياة هذا الرجل، متوقفة عند تأسيس الجامعة وإرساء قواعدها وحمايتها من الأخطار، بل لقد عاش حياة اجتماعية أسرية طبيعية، وإن سلبت منها الجامعة بعض الوقت. تزوج مرتين، كانت زوجته الأولى فرنسية، وهي ابنة صيدلاني معروف. وقد أنجبت له ولدين هما: عدنان ورفيق. أما الثانية، فهي من اللاذقية من عائلة ماميش، وقد أنجبت له ثلاث بنات وولداً وحيداً.

نال د. رضا سعيد خلال حياته، عدداً من الأوسمة، منها: وسام الاستحقاق العثماني، الوسام المجيدي، وسام الحرب العثمانية، وسام التاج الحديدي من حكومة

النمسا، وسام باريس في جوقة الشرف الفرنسي، وسام كوماندور، وسام المعارف المصري، وسام الصليب الأحمر، وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة.

بعد أن اطمأن د. رضا سعيد إلى استقرار وضع الجامعة السورية، طلب إحالته على التقاعد عام 1936، وقد وصل إلى سن الستين. فصدر مرسوم عن رئيس الجمهورية محمد علي العابد، ورئيس الوزراء الشيخ تاج الدين الحسني، ووزير المعارف حسني البرازي، بإحالته على التقاعد. وأخيراً تفرغ لأسرته الصغيرة، حين تأكد بأن أسرته الكبيرة قد بدأت تسير في الطريق الصحيح، وعلا شأنها في الوطن العربي والعالم.

رحل د. رضا في 28 تشرين الأول 1945، تاركاً وراءه فضلاً لا ينسى، وصرحاً عظيماً، ما يزال تمثاله قائماً في مدخله، شاهداً على تاريخه العلمي المجيد، وعلى ريادته في تاريخ الجامعات السورية والعربية.

وفي حفل تأبينه، ذكر فضله كعميد للجامعة السورية منذ أن ولدت، حتى شبت، وذكرت صفاته الفريدة التي تحلى بها، هذا الربان الحاذق، الذي أوصل سفينته إلى ميناء الأمان، على الرغم من العواصف والأنواء. وأخيراً جلس على الشاطئ، ونظر إلى البحر، وقال بهدوء حكيم: «آنَ لي أنْ أستريح».

عقبة زيدان

فـــارس الخـــوري

المحامي والسياسي والشاعر

(1877 - 1962)

بعد تحقيقات واسعة، توصلت لجنة التحقيق الأميركية «كينغ كرين»، وكان ذلك في عام 1919، إلى أن أكثرية السوريين يرفضون رفضاً قاطعاً فكرة الانتداب الفرنسي، أو أي شكل آخر للوجود الفرنسي في سورية، وأشار تقرير اللجنة النهائي إلى إصرار النخبة السياسية السورية على الاستقلال الكامل، لكن سيجري تجاهل التقرير من قبل الدول الكبرى في واشنطن وبين صانعي السلام في فرساي.

في نيسان عام 1922، وللمرة الثانية، زار سورية تشارلز كرين، وهو أحد رؤساء اللجنة الأمريكية، واجتمع مع الوطنيين السوريين وعلى رأسهم عبد الرحمن الشهبندر، وأظهر تعاطفه الشديد معهم، على الرغم من أن السلطات الفرنسية وضعته تحت المراقبة الشديدة، خلال اجتماعاته مع الوطنيين. وفي يوم مغادرته لسورية، خطب أمام حشد كبير في منزل أحد الوجهاء البارزين، وقام الدكتور الشهبندر بترجمة خطابه، محولاً كلامه غير الاستفزازي إجمالاً إلى تحفة من القدح المعادي بشدة للفرنسيين، فأثار مشاعر الحضور، ودعوا إلى التظاهر. تفجرت على إثرها احتجاجات عنيفة، شملت دمشق عدة أيام، قبض خلالها على الشهبندر ورفاقه، تلتها محاكمات قصيرة وسريعة. تولى عدد من المحامين الدفاع عن المعتقلين، وكان من ألمعهم فارس الخوري المحامي الأكثر احتراماً في دمشق. وقد عبر في المحاكمة، وببلاغة نادرة، عن مظالم الشعب في سورية من الحكم الفرنسي؛ لكن طلاقته وحججه لم تجديا نفعاً، فقد كان المطلوب القضاء على الحركة الوطنية. حكم بعدها على الشهبندر بالسجن لمدة 20 عاماً، وجرى نقله مع غيره من الوطنيين إلى سجن جزيرة أرواد. بعد 17 شهراً نفاه الجنرال ويغان خارج البلاد، فذهب إلى باريس، ومنها إلى لندن. فيما بعد سمح له الفرنسيون بالعودة إلى سورية عام 1924، والتقى مجدداً بالمحامي فارس الخوري، ليعملا معاً

على تأسيس حزب الشعب، ومن ثم دشنا أعماله، بتنظيم مظاهرات ضخمة ضد الزيارة القصيرة للورد بلفور، الذي مهر بتوقيعه إعلان بريطانيا المشؤوم عام 1917 بأنها تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، فسارع بلفور للسفر إلى بيروت، تحت حماية قوات وطائرات فرنسية.

ضمت قيادة الحزب، بالإضافة إلى الشهبندر والخوري، عشرة آخرين من سكان دمشق البارزين، كانوا جميعهم من النشطاء المعروفين في صفوف الحركة القومية العربية، ويعتبرهم الجمهور وطنيين ملتزمين، بسبب سمعتهم النضالية، وما أصابهم من سجن وتشريد جراء نشاطاتهم ومعتقداتهم السياسية.

كان الشهبندر، وفارس الخوري، وفوزي الغزي، وجميل مردم بك، وإحسان الشريف، من بين الأعضاء الأكثر بروزاً في النخبة المثقفة السورية، والمعترف بهم على أنهم الناطقون الطبيعيون بلسان المجتمع السوري والمعبرون عنه. كما كان برنامج الحزب أكثر واقعية من الألفاظ النارية التي يطلقها قادته، فقد دعت المادة الأولى إلى تحقيق السيادة الوطنية السورية، والوحدة في إطار الحدود الطبيعية لسورية (سورية الكبرى)، والحريات الشخصية بمختلف أشكالها، وتثقيف الشعب من أجل حكم اجتماعي وديمقراطي ومدني، وحماية الصناعات الوطنية السورية، وتنمية موارد البلاد الطبيعية واستغلالها، وتوحيد النظام التعليمي، بما في ذلك التعليم الابتدائي الإلزامي والشامل. وما ميز قيادة الحزب عن المجموعات الأخرى السياسية، هو توجهها العلماني القوي. واللافت هو تأييد المؤسسة الدينية الإسلامية في سورية لحزب الشعب، على الرغم من علمانيته، مع أن أياً من القادة الدينيين المعروفين، لم يكن عضواً في لجنته المركزية.

كان الافتتاح الرسمي للحزب في 5 حزيران، في دار الأوبرا في دمشق، حيث احتشد أكثر من 1000 شخص في القاعة، ليستمعوا إلى زعمائهم، وهم يعبرون عن إرادتهم، بصورة حرة وقانونية لأول مرة، منذ المؤتمر السوري سنة 1920. وقد استهل فارس الخوري، نائب رئيس الحزب، الحفلة بالدعوة إلى حكومة دستورية تدعم السيادة الوطنية. وأكد الخوري، والذي كان يعتبر صلة وصل رئيسة بين الوطنيين والأقلية المسيحية في دمشق، أنه لن يكون في سورية الحرة والمستقلة أي

تمييـز ديـني أو طبقـي وأن الاقتصـاد لـن يظـل تحـت سـيطرة الأجانـب. ثـم قـدم الخوري صديقه الحميم وزميله خريج الكلية البروتستانتية عبد الرحمن الشهبندر.

❖ ❖ ❖

ولـد فـارس الخـوري في قريـة الكفير، التابعـة لقضـاء حاصـبيا في لبنـان، في 20 تشرين ثاني 1877. والده يعقوب بن جبور الخوري، مسـيحي بروتسـتانتي، كان نجاراً ويمتلك بعـض الأمـلاك الزراعيـة. والدتـه حمـدة بنـت عقيـل الفاخوري، ابنـة رجـل قضـى في مذبحـة عـام 1860 بـين الـدروز والمسـيحيين. جـده جبـور يعقـوب الخـوري، أول مـن اعتنـق المذهب الإنجيلـي في سـورية، وكـان يحلـم بحفيـده مبشـراً إنجيلياً، بعدما أنهى تعلمه في مدرسة القرية. فيما كان هـدف والـده ألا يكمـل ابنـه الدراسة، ليبقى إلى جانبه فلاحاً مزارعاً. لكن أمه حمدة، لم تقبل بما أعده له أبوه وجده. كانت تعتقد أنه من الظلم أن يترك ولد مثل فارس، «شعلة ذكاء»، مـن غير تعليم، وأرادته أن يكون «غير شكل». نفذت ما أرادت، وسافرت مع ابنها خلسـة مـن الكفير، وأوصلته إلى مدرسة صيدا، وكان كما شاءت أن يكون.

تلقى فارس علومه الابتدائية في مدرسة القرية، ثم في المدرسـة الأمريكيـة في صيدا. ولأنه كان متفوقاً على أقرانه من الطلاب، عينه المرسلون الأمريكان معلماً في مدرستهم الابتدائية في زحلة. ثم نجح في الدخول إلى الكلية الإنجيلية السورية، والتي سميت بعد ذلك (الجامعة الأمريكية) ببيروت. درس فيها بضعة أعوام، ولكـن المرسـلين الأمـريكيين لم يمكنـوه مـن الاسـتمرار، وعينـوه مـن جديـد في مدرسـتهم بقرية مجدل شمس عام 1892، ثم نقلوه إلى صيدا. وفي عام 1894 عـاد للدراسـة في الجامعة الأمريكية، وحصل على شهادة بكالوريوس في العلوم عام 1897، وكانت هـذه الشـهادة في ذلـك الحـين شـهادة ثقافيـة عامـة، لـيس فيهـا اختصـاص في أحـد فـروع العلـوم والآداب. وقـد دعـاه رئـيس الجامعـة للتـدريس في القسـم الإعـدادي، كمعلم للرياضيات واللغة العربيـة. في السـنة الثالثـة، اسـتقال مـن الجامعـة، وذهـب إلى مصر، إجابة لدعوة الدكتور يعقوب صروف صاحب مجلة «المقتطف»، واتخـذه مسـاعداً لـه في تحريـر المجلـة. وعنـدما عـاد إلى دمشـق، في صـيف عـام 1899، لتصفية قضية حكومية، ظهر الطاعون في مصر، وأقيمت الحـواجز الصـحية، فلـم يتمكن من العودة إلى مصر.

في دمشق دعاه البطريرك ملاتيوس دوماني، لإدارة المدارس الأرثوذكسية، فوافق على الوظيفة، وأخذ يعطي أيضاً بعض الدروس في مدرسة تجهيز عنبر. إلى أن عُين ترجماناً للقنصلية البريطانية (1902 ـ 1907) إلى جانب التدريس، وقد أكسبته وظيفته الجديدة نوعاً من الحماية ضد استبداد الحكم العثماني. في سنة 1904 انفك عن التدريس، وعمل في شركة أجنبية للتأمين «غريشام لضمانة الحياة»، فتزايد مدخوله. وكان من جراء تحسن حالته المالية، أن استطاع الإنفاق على إخوته في المدارس، وإكمال تعليمهم.

لم يترك فارس الخوري الدرس والتحصيل، بل ظل منكباً على التعلم والمطالعة، فدرس اللغات الفرنسية والتركية والألمانية وحده، دون معلم، وبرع فيها، كما أخذ يطالع كتب الحقوق لنفسه. في عام 1908 انتسب لجمعية الاتحاد والترقي، فكان هذا أول عهده بالسياسة. وفي العام نفسه عمل محامياً. ولم تكن ممارسة مهنة المحاماة تحتاج إلى شهادة. غير أنه تابع دراستها، بعد نجاحه سنة 1914 بأكثرية كبيرة، وانتخابه نائباً مسيحياً عن دمشق في الانتخابات إلى النيابة في مجلس المبعوثان العثماني. وفي المجلس نطق فارس الخوري باسم العرب جميعاً، في عهد ظهر فيه سوء نية الأتراك نحو العرب، واتضحت سياستهم في محاولة تتريك سائر العناصر غير التركية في الإمبراطورية.

أوشك في استانبول أن يظفر بشهادة الحقوق، لكن عندما نشبت الحرب العالمية الأولى، اتهمه الأتراك بالتواطؤ مع القوميين في سورية، واعتقلته السلطات في عام 1916، وعطلت متابعته دراسته الجامعية. لم يحصل على شهادة رسمية في الحقوق، ولم يكن خريج أي معهد حقوقي. وقد مَثُلَ أمام المحكمة العسكرية في عاليه (لبنان) بتهمة التآمر على الدولة العثمانية، واعتقل وأوقف في السجن، وشهد فواجع تعذيب الوطنيين في خان الباشا، وما أصاب شهداء القافلة الثالثة أمام ديوان الحرب. بعد التحقيق معه، بُرئ، وحكم عليه بالخروج من منطقة الجيش الرابع، فاختار الآستانة منفى له.

خرج من دمشق في 10 أيلول 1917، وظل في الآستانة، إلى أن حصل على إذن بالعودة لأخذ عائلته. كانت جيوش الحلفاء وقوات الثورة العربية قد اقتربت من دمشق، بعد اختراقها الجبهة في فلسطين. فبقي في المدينة ليشترك مع الرفاق في

30 أيلول، بإعلان الاستقلال، ورفع العلم العربي، وتأليف الحكومة المؤقتة، إلى أن وصل الأمير فيصل في 3 تشرين الأول، واستلم الإمارة السورية.

اقترح فارس الخوري على الأمير فيصل تأسيس مجلس الشورى في عام 1919، فأخذ فيصل باقتراحه، وعينه عضواً فيه. كما سعى مع عدد من رفاقه إلى تأسيس معهد الحقوق العربي، واشترك في تأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق.

تولى وزارة المالية في الوزارات الثلاث، التي تألفت خلال العهد الفيصلي. لكنه، وعلى أثر احتلال الفرنسيين لسوريا عام 1920، انصرف إلى العمل الحر كمحام، وانتخب نقيباً للمحامين، وبقي يشغل هذا المنصب حتى سنة 1926. كما عُين حقوقياً لبلدية دمشق، وأستاذاً في معهد الحقوق العربي، الذي افتتح أبوابه يوم 15 تشرين الأول 1919، وظل أستاذاً فيه حتى عام 1940، وله ثلاث مؤلفات في القانون هي: (أصول المحاكمات الحقوقية) و(موجز في علم المالية) و(صك الجزاء). درّس في المعهد مادتي أصول المالية وأصول المحاكمات الحقوقية. وكان من تلامذته: خالد العظم، وسعيد الغزي، وعلي الطنطاوي، وبهجت التلهوني، وظافر القاسمي، والكثير من الشبان الذين تسنموا بعد بضع سنوات أرفع المناصب السياسية والإدارية والقضائية في سورية.

أسس، مع عبد الرحمن الشهبندر وعدد من الوطنيين في سوريا، حزب الشعب، وعندما اندلعت الثورة السورية الكبرى عام 1925، قامت سلطات الانتداب الفرنسية باعتقاله مع آخرين، ونفوا إلى معتقل أرواد. في عام 1926 قبل فارس الخوري بتسلم وزارة المعارف في حكومة الداماد أحمد نامي بك مع اثنين غيره من الوزراء الوطنيين: لطفي الحفار وزيراً للأشغال، وحسني البرازي وزيراً للداخلية.

كانت مشاركة الخوري بالوزارة، على أساس الحال التي آلت إليها الثورة السورية، والتي تدهور وضعها العسكري في أنحاء سورية. كان بحكم صلاته بالأقليات وعلاقاته الوثيقة مع الهيئات التجارية، يحظى برؤية واقعية، مكنته من تقويم الحالة العامة للبلاد، وكان مقتنعاً بأن استمرار الثورة، قد يؤدي بالثوار إلى هزيمة مذلة، وإلى كارثة على الحركة الاستقلالية، إذ كانت التعزيزات العسكرية الفرنسية تتدفق على سورية بالآلاف، بينما خسائر الثوار في ازدياد، ولهذا السبب حظي دخوله إلى الوزارة بدعم القادة الوطنيين.

في محاولة لإنهاء الثورة، طلب المفوض الفرنسي دوجوفنل من الداماد أحمد نامي، وضع مسودة إعلان موجه إلى الثوار، يدعوهم فيه إلى إلقاء السلاح. وتضمن الإعلان أيضاً أن يقبل الوطنيون المسؤولية الحصرية عن استمرار الأعمال العدائية، فرفض الوزراء الثلاثة التوقيع على الإعلان، فاعتقلوا بتهمة إقامة علاقة وثيقة بقوات الثورة، وأُلحقوا بزملائهم الوطنيين في سجون الحسكة.

بعد انتهاء الثورة وعودته من المنفى، عقب العفو الصادر عنه، شارك فارس الخوري في تأسيس الكتلة الوطنية، التي تشكلت نواتها في عام 1927، وانضم إليها في وقت مبكر في آذار 1928، ومعه العديد من الذين عادوا إلى سورية، مما أسهم في توسيع القاعدة السياسية للكتلة. في هذه الفترة، قام عدد من الملاك والتجار الوطنيين، على رأسهم فارس الخوري، بتأسيس شركة الاسمنت الوطنية، شركة مساهمة برأسمال قدره 144000 ليرة تركية ذهبية، موزعة على 24000 سهم، وكان مدير الشركة خالد العظم. وفي سنة 1934، وهي أول سنة كاملة من العمل، أنتج المعمل نحو 30000 طن من الإسمنت. وبحلول عام 1938، أنتج أكبر كمية، وبلغت 63500 طن. وخلال وقت سريع، أصبحت سورية تنتج نحو 60٪ من حاجاتها المحلية.

لم تتضح البنية التنظيمية للكتلة، إلا في عام 1932، في مؤتمرها الذي عقدته في حمص، بعد إنشاء المكتب الدائم، المكون من سبعة أعضاء منتخبين، هم: هاشم الأتاسي (رئيساً)، إبراهيم هنانو (زعيماً)، سعد الله الجابري (نائباً للرئيس)، فارس الخوري (عميداً)، بالإضافة إلى جميل مردم، وشكري القوتلي، وعبد الرحمن الكيالي. كان هؤلاء الرجال يديرون الشؤون اليومية للكتلة، ويؤلفون قيادتها الفعلية، وكانوا المسؤولين عن تنفيذ القرارات وإصدار البيانات واستقبال الشكاوى وتسوية الخلافات، وعقد «مجلس الكتلة الوطنية» في أوقات منتظمة. وكان عميدها فارس الخوري، يضع القرارات ويكتب المنشورات. أصبحت الكتلة من أكثر الهيئات السياسية ديناميكية على الإطلاق، وسوف تقود حركة المعارضة والمقاومة السياسية ضد الفرنسيين، وتوصل البلاد إلى الاستقلال التام.

في 20 كانون الثاني، مع الإضراب الستيني الذي بدأه الطلاب من عصبة العمل القومي وزعماء الأحياء، سارعت الكتلة إلى قيادته، ودعت إلى استمراره،

لكي تعيد المندوبية الحياة الدستورية إلى سورية. حاولت السلطة الفرنسية تشتيت رجالات الكتلة بالاعتقال والسجن والنفي، وكان نصيب فارس الخوري أن أرغم على الاستقالة من كلية الحقوق، حيث كان يعمل محاضراً فيها. كل هذا لم يُجدِ في تهدئة الأوضاع أو إيقاف تدهورها، فاضطرت سلطات الانتداب إلى الاتفاق مع قيادة الكتلة على عقد معاهدة بين سوريا وفرنسا، على أن يذهب وفد منها إلى باريس للمفاوضة مع السلطات الفرنسية.

تصدر الوفد المفاوض أربعة من قادة الكتلة: هاشم الأتاسي، وجميل مردم، وسعد الله الجابري، وفارس الخوري. بعد إنجاز المعاهدة، وعودة الوفد إلى سورية، ألقى فارس الخوري محاضرة في قاعة الجامعة السورية، فصَّل فيها بنود المعاهدة، وأشاد بها كانتصار ساحق أحرزته سورية على الانتداب، حتى أنه وصفها بمعجزة القرن العشرين. وخرجت الجماهير بعد المحاضرة وقد أتعبها التصفيق وتيقنت من الاستقلال القريب. لكن المعاهدة أخفقت، ونكثت فرنسا بوعودها، على الرغم من التنازلات السورية الكبيرة، مما جرَّ انتقاداً على فارس الخوري الذي دافع عنها. وكان رده عليهم بأنهم كانوا في باريس مخيرين «بين قبول النصوص كما هي أو العودة إلى سورية بدون تفاهم، وكان في ظنهم أنها خطوة يمكن الانتقال منها إلى ما هو أحسن في المستقبل». لكن حتى هذه الخطوة لم تتحقق.

انتخب الخوري رئيساً للمجلس النيابي السوري عام 1936، ومرة أخرى عام 1943 و1947، وكان دائماً ذلك البرلماني المجرب، الذي يقوم بواجباته بقدر كبير من الكفاية والكياسة معاً. وقد بلغت سنوات رئاسته للمجلس عشر سنوات. وكما لاحظ القنصل البريطاني: كان فارس بك مؤهلاً لترؤس أية جمعية تشريعية.

تولى الخوري رئاسة مجلس الوزراء السوري، ووزارة المعارف والداخلية في تشرين أول عام 1944. وقد أعاد تشكيل وزارته ثلاث مرات، في ظل تولي شكري القوتلي رئاسة الجمهورية السورية. وكان دونما منازع، كما قيل عنه تماماً: أشهر رئيس وزراء في سوريا. وكان لتوليه رئاسة السلطة التنفيذية في البلد السوري المسلم، وهو رجل مسيحي، صدى عظيم، أشادت به الصحف مراراً في ذلك الوقت، وقالت بأن مجيئه إلى رئاسة الوزراء وهو مسيحي بروتستانتي، يشكل

سابقة مضيئة في تاريخ سورية الحديث، بإسناد السلطة التنفيذية إلى رجل غير مسلم، ويؤكد على ما بلغته سورية من النضج القومي، كما أنه يدل على ما اتصف به رئيس الدولة من حكمة وجدارة في اختياره.

❖ ❖ ❖

في عام 1945، ترأس الخوري الوفد السوري، وكُلّف ببحث قضية جلاء الفرنسيين عن سوريا أمام منظمة الأمم المتحدة، التي تم تأسيسها في العام نفسه، واشترك بتوقيع ميثاق الأمم المتحدة نيابة عن سورية كعضو مؤسس. وألقى خطبة في المؤتمر المنعقد في دورته الأولى، نالت تقدير الوفود الدولية؛ أبدى فيها استعداد سورية وشقيقاتها العربيات لتلبية نداء البشرية من أجل تفاهم متبادل أتم، وتعاون أوثق، كما تحدث عن خطورة المهمة الملقاة على عاتق المؤتمر، وأظهر تفاؤله في إمكانية تحقيق الفكرة السامية، التي تهدف إليها المنظمة العالمية. وقد منحته جامعة كاليفورنيا الدكتوراه الفخرية بناء على إنجازاته في الخدمة الخارجية واعترافاً بجهوده في حقل العلاقات الدولية.

في الأعوام (1947 . 1948) انتخب عضواً في مجلس الأمن الدولي، وقد أصبح رئيساً له في آب 1947، واهتم بالقضية الفلسطينية اهتماماً كبيراً، وأكد رفض الدول العربية إقامة دولة لليهود فيها. كما شرح القضية المصرية، وحثَّ على جلاء الإنجليز عن أراضيها، وأكد على السلام العالمي، وطالب بإنهاء تنافس الدول الكبرى، وحذر من وقوع حرب ذرية مدمرة. ولطالما ضجت هيئة الأمم بخطبه ومناقشاته باللغة الإنجليزية، مثلما ضجت من طرائفه وإحداها جلوسه في مقعد المندوب الفرنسي في عصبة الأمم، عند مناقشة موضوع الانتداب الفرنسي على سورية، مما أثار حفيظة المندوب، وطلب منه غاضباً مغادرته، فرد عليه الخوري بصوت أراد أن يسمعه كل المندوبين، قائلاً: «أيها السادة، لم يحتمل السفير الفرنسي أن أجلس في مقعده خمس دقائق، فماذا نقول نحن السوريين الذين تجثم فرنسا على صدورنا منذ أعوام وأعوام طويلة». وحدث مرة في أحد فترات الاستراحة بين الجلسات، وكان جالساً يداعب، كما اعتاد، حبات سبحته، أن سأله وزير خارجية بريطانيا أرنست بيفن: «ماذا تقول يا مستر خوري وأنت تداعب حبات سبحتك؟»، فأجابه مبتسماً: «أردد، اللهم ألهِمْ مستر بيفن الحق». وشاعت

الظروف أن يكون الكلام في جلسة اليوم التالي للمستر بيفن، وقبل أن يبدأ كلامه، حانت منه نظرة إلى فارس الخوري، فرآه يمد يده إلى جيبه ويخرج سبحته، فصاح به على الفور، وهو يهز رأسه: «مستر خوري، فهمت عليك، فهمت عليك».

عقب انتهاء عضوية سورية في مجلس الأمن الدولي، عاد فارس الخوري إلى البلاد، لينتخب رئيساً للمجلس النيابي لعام 1947. لكن المجلس حُلَّ دون أن يكمل مدته القانونية، عقب الانقلاب الذي قام به حسني الزعيم في آذار 1949. وقد وجهت على أثره إلى فارس الخوري انتقادات شديدة، لأنه لم يعلن أي احتجاج ضد هذا العمل الديكتاتوري، ولم يُبدِ الحزم المطلوب إزاء قائد الانقلاب الأول الذي اعتقل رئيس البلاد شكري القوتلي، ورئيس الوزراء خالد العظم وبعض النواب والموظفين العامين، وأودعهم سجن المزة، ولم يدافع عن حرمة المجلس النيابي الذي كان هو رئيسه. وقيل بأنه كان مجتمعاً مع حسني الزعيم، بينما كانت قوات الجيش تطوق مبنى البرلمان وتمنع النواب من الدخول إليه، ولم يحذره خلال الاجتماع من مغبة ما أقدم عليه، وإنما شجعه على السير قدماً إلى الأمام، بحجة الحفاظ على وحدة البلاد. بل وامتدح حسني الزعيم بعد نجاح الانقلاب بتصريحات صحفية. ثم تعاون معه على الرغم من سحقه للدستور، وذلك بموافقته على تمثيل الحكومة السورية في اجتماعات هيئة الأمم المتحدة، فأعطى الانقلاب الشرعية التي كان يفتقد إليها. ولم يستطع الخوري الرد على هذه الانتقادات، إذ لم يكن تأييده للزعيم إلا لأسباب شخصية، بسبب الخلافات المستحكمة بينه وبين الرئيس شكري القوتلي آنذاك.

ثابر الخوري على عمله في الحقل الدولي، وترأس الوفود السورية إلى هيئة الأمم، وتابع تمثيل سورية في الأمم المتحدة حتى عام 1952. في عام 1954 طلب رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي منه تشكيل الحكومة. في ذلك الوقت، لم يتآزر حزب الشعب والحزب الوطني على تكليفه بالوزارة، إلا احتماءً بشخصه ومكانته السياسية. كان هدفهم التمهيد لدخول سورية في حلف أو معاهدة أو اتفاقية مع العراق أو دول غربية. وكانوا واثقين من قدرة الخوري على إقناع المعارضين بالموافقة، مما جعل النواب المستقلين، ومعهم نواب حزب البعث الشبان، يوجهون إليه النقد اللاذع، فعرضوا بشيخوخته وضعفه وعجزه، وكان في السابعة والسبعين

من عمره. لكن الشيخ فارس الخوري، انقلب على سياسيي حزبي الشعب والوطني، ووعد وعداً قاطعاً بعدم قبول البحث في أي حلف أو معاهدة، ولو طلب إليه المجلس ذلك، وأعلن عن استعداده للاستقالة من رئاسة الوزارة، إذا كان رأيه غير مقبول. فلم تستمر وزارته سوى أشهر معدودات.

خلال هذه الفترة الوجيزة من توليه وزارته الرابعة، قام بأعمال تحسب له، من أهمها على المستوى العربي، تدخله لدى القاهرة للتخفيف من الأحكام القاسية ضد الإخوان المسلمين في مصر، بعدما أحدثت صدى قوياً في المجلس النيابي وبين الناس. وقد عرض وساطته الشخصية، بالإضافة إلى وساطة حكومته والشعب السوري، ممثلاً برئيس الجمهورية والمجلس النيابي بما فيه من فئات وأحزاب، واضعاً كرامته الشخصية كرجل يحفظ له المصريون أطيب الذكريات، لقاء تخفيف هذه الأحكام، فلم يُجدِ ذلك نفعاً. ونفذت أحكام الإعدام في ست من أقطاب الدعوة الإسلامية.

اعتكف فارس الخوري في منزله، يذهب مرة كل عام إلى جنيف ليشترك في جلسات لجنة القانون الدولي التي كان عضواً فيها. وعندما أقيمت الوحدة بين سورية ومصر، أعلن تأييده لها، دون أن يكون له رأي بقيامها أو بانهيارها. كان على الدوام مؤيداً لأية خطوات وحدوية بين البلدان العربية. وقد أدلى مبكراً بتصريحات في هذا المنحى، منها تصريحه عام 1954، عندما وصل إلى القاهرة لحضور اجتماعات الجامعة العربية لمقاومة حلف بغداد، وفيه نادى بوجوب جعل الوحدة العربية حقيقة واقعة. وفي فترة الوحدة، منحه الرئيس جمال عبد الناصر، بناء على توصية المجلس الأعلى للعلوم والفنون، جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية.

في 22 شباط 1960، أصيب بكسر في عنق فخذه الأيسر، بالإضافة إلى معاناته من آلام أمراض الشيخوخة، وظل يصارعها فترة طويلة. وكانت وفاته مساء الثلاثاء 2 كانون الثاني 1962. وعند تشييعه منح اعتبار رئيس الجمهورية، فلُفّ بالعلم السوري، وحمل على مدفع، ومشى في جنازته رئيس سوريا آنذاك تلميذه في كلية الحقوق ناظم القدسي، ورئيس الجمهورية الأسبق رفيقه في درب النضال والاستقلال شكري القوتلي.

لم يتخلف فارس الخوري عن معركة في سبيل الاستقلال السوري، فقد تعرض أواخر العهد العثماني إلى الاضطهاد، وكاد أن يحكم بالإعدام. كان من الرعيل الأول الذي ناضل ضد الانتداب الفرنسي، ولم يوفر تضحية ولا جهداً. كما كان أستاذاً قديراً، شهد له تلامذته ورفاقه وخصومه بسعة علمه ورجاحة عقله. ترقى في الوظائف الحكومية بعصامية وكفاءة. واستطاع أن يُحصِّل العلم والمعرفة واللغات بجهده الخاص، ونال أعلى المناصب بقدراته الشخصية. ولقد قيل في مديح عبقريته الكثير، ومن ذلك أنه لو لم يكن مسيحياً ونافسه أحد على رئاسة الجمهورية، لزلزلت الأرض من تحته.

حظي الخوري بتقدير السياسيين ورجالات الدولة، ووصفوه، بحكم معرفتهم به، بأنه كان متجرداً في أحكامه، عميقاً في تفكيره، صائباً في نظراته، بالإضافة إلى خصاله الشخصية في ذلك التسامح والتواضع اللذين حبباه إلى الناس، مع ما تمتع به من لطف، وقدرة على استمالة حتى معارضيه إلى صفه، بحجته القوية وسداد رأيه وبراعته في الدفاع عن أية قضية يتبناها.

لكنه مع تقدمه في العمر، ظهرت طباعه الأكثر التصاقاً به، طيبة القلب، وتلك الطبيعة التي لا تحب المصادمة والأخذ والرد، فأصبح أقل تصلباً مما عرف عنه في القضايا المؤثرة. وقد وصف بعض السياسيين مرونته (ومنهم خالد العظم) بضعف الإرادة والعزيمة، وفسرها بأنه «لا يدافع عن رأيه إلا كما يدافع المحامي الذي يخضع في النهاية لما تقرره المحكمة، لكن السياسة ليست محاماة، بل هي عراك واندفاع وعمل متواصل ومتفان في سبيل فكرة أو مبدأ. إن السياسي لا ينحني أمام الأكثرية المعارضة لرأيه، وإنما يدأب على العمل لإنجاح فكرته وجعلها هي السائدة. فلم يعد يتمسك برأي يبديه أو شخص يسانده، إذا ما بدت ضد ذلك الرأي أو الشخص معارضة».

إن اتهام رجل مثل فارس الخوري بضعف الإرادة والعزيمة، لا يخلو من غبن شديد. ولو صح هذا، لم يكن ليصل إلى ما وصل إليه. وتشهد له القضايا التي عمل عليها بتفان نادر، مقدار إصراره ودأبه على ما يعتقده صواباً. ومن الممكن القول بأن المحامي فيه تغلب على السياسي، وربما في كلمته التي توارد عنه تكرارها، عندما يعرض عليه أمر يقع بين احتمالين: «هيك بيصير... وهيك

بيصير»، أي سيان لديه هذا الأمر أو ذاك، هذه الخطة أو تلك؛ وتشير إلى قدرته على أخذ هذا الجانب أو غيره. ومثلما لا تخلو من الملل، لا تخلو أيضاً من الزهد في الصراعات السياسية المجانية.

كان شجاعاً أيضاً، لم يخش من إعلان نظراته الجريئة في الدين الإسلامي، فوصفه بأنه دين يحقق العدالة الاجتماعية بين بني البشر. وقال فيه: «هذا هو إيماني. أنا مؤمن بالإسلام وبصلاحه لتنظيم أحوال المجتمع العربي وقوته في الوقوف بوجه كل المبادئ والنظريات الأجنبية، مهما بلغ من اعتداد القائمين عليها. لقد قلت وما زلت أقول، لا يمكن مكافحة الشيوعية والاشتراكية مكافحة جدية إلا بالإسلام، والإسلام وحده هو القادر على هدمها ودحرها». ولم تكن أقواله الكثيرة حول إعجابه بالإسلام من قبيل المجاملة أو التقية. ففي أحاديثه، كان كثيراً ما يستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية. ويروي مجايلوه ورفاقه ومعارفه ممن عاشروه عن حبه للإسلام وتعلقه به عقيدة وشريعة. وكثيراً ما أسرَّ باعتقاده هذا إلى زائريه ومخلصيه. كما كانت علاقته جيدة مع حزب الإخوان المسلمين، وقد أرسل ابنتيه للقيام بالدعاية الانتخابية لزعيمهم في سورية الشيخ مصطفى السباعي، عندما ترشح للانتخابات التكميلية عام 1957، ضد رياض المالكي، مرشح حزب البعث في ذلك الوقت.

وبلا ريب، كان لرقة طباعه دور في تلك الليونة التي أظهرها في بعض مراحل حياته، وكانت أشبه بانبثاقات تبدو محيرة من سياسي مخضرم، طويل الباع قوي الحجة، ويعتمد على المنطق!! بيد أنهم لو تذكروا ما نسوه فعلاً، وهو أن فارس الخوري كان أديباً، ولمع في مطلع حياته كشاعر «رقيق فحل، ذو كعب عال في دنيا القوافي»، ملأت منظوماته الشعرية وكتاباته الصحف السورية والمصرية، وله ديوان شعري ضخم ما زال مخطوطاً؛ أغلب شعره وطني تناول فيه القضايا العربية. لكن انشغاله، جعله لا يقوله إلا في المناسبات.

أولع فارس بالشعر صبياً، ونظمه مبكراً. ألقى وهو طالب، عندما أخذ شهادة القسم الاستعدادي في الاحتفال السنوي، قصيدة من نظمه، تجاوزت مئة بيت، موضوعها «حالة الأنام بعد مئة عام»، وكان بين الحاضرين الشيخ إبراهيم اليازجي، الذي أثنى عليه ثناء طيباً. كما ألقى في حفلة الكلية الأمريكية قصيدة طويلة عنوانها «الآمال» سنة 1892، وكان عمره لا يزيد عن خمسة عشر عاماً:

أخي اصطبر إن كنت صاحب مأرب   فدرب العلى صعب ومركبه وعر
وكن ذا أمانيٍ سَميٍّ طلابها   ولا يَثْنِك الخدُّ المورد والخصر

وقال في رثاء الزعيم الوطني فوزي الغزي في أواخر العشرينيات:

إن مات فوزي فما ماتت قضيتنا   ردى المطالب لا يردى به الطلب
قد عودتنا البلايا خوض لجتها   إلى الحناجر إما غاصت الركب

وكتب في الغزل، عندما كان منفياً في استنبول، بعدما كتبت إليه زوجته أسما رسالة غاضبة تعاتبه فيها بشدة، لأنها أبصرته في نومها يتسلى هناك مع بنات تركيا، وكان ذلك في فترة اقتراب أعياد الميلاد ورأس السنة.

للّه درك ما أحلى مزاياك   وما أعزك في نفسي «وأسماكِ»
لقد تعلمت منك الحب أجمعه   حتى تعلم قلبي كيف يهواك
عندي من الشوق نيران مضرمة   وليس يطفئها في الناس إلاك

إلى أن يختمها:

منِّي عليكِ تحيات مطيبة   بالحب لولا النوى بَلَّغْتُها فَاكِ

لكن شخصية السياسي الأريب والخطيب المفوه والاقتصادي الحازم والحقوقي اللامع والعلامة الفاضل، طغت على شخصيته المرهفة، وصرفته عن الشعر. ويحق القول بأن ما خسره الشعر، كسبته السياسة والوطن معاً.

عبد الرحمن الشهبندر

الشهيد الحي

(1879 – 1940)

في يوم 6 تموز من عام 1940 كان الزعيم شهبندر يداوي في عيادته أحد مرضاه؛ عندما دخل عيادته ثلاثة أشخاص، وقد تظاهر أحدهم أنه من فلاحي الغوطة؛ فوضع على رأسه (طاقية)، والآخر ارتدى كوفية، وكانت سلة تفاح بيد أحدهم. جلسوا في غرفة الانتظار ريثما ينتهي الدكتور من معاينة مريضه. عندما انتهى من فحصه وغادر المريض العيادة دخل الثلاثة غرفة الزعيم، فاستقبلهم وآنسهم. وعندما أخذ بفحص قلب أحدهم وعلى أذنيه سماعة الطبيب، عاجله الشخص الذي على يمينه بطلقة واحدة من مسدسه، اخترقت حلمة أذنه اليمنى، وخرجت من صدغه الأيسر متجهة نحو الحائط، وعندها نهض الزعيم لهول المفاجأة، ولكنه هوى إلى الأرض فاقداً رُشْدَه؛ وعندما أدرك الجناة أنهم بلغوا غايتهم، غادروا المكان، وكان الجاني الرابع يرصد أول الدرج، بينما الجاني الخامس ينتظر في السيارة التي كانت واقفة عند منعطف شارع الفرنسيسكان..

لقد كان أشهر اغتيال سياسي في تاريخ سورية الحديث، وقد نَعتْهُ الهيئة الشعبية بالقول: «مات الرجل الذي سجّل في تاريخ سورية أمجد الصفحات؛ وبذل في سبيل تحرير العرب أكرم التضحيات؛ فليغمر الحزن عليه كل قلب، ولتخلد ذكراه في كل نفس...!»

❖ ❖ ❖

ولد عبد الرحمن بن صالح الشهبندر في دمشق – حي القيمرية، في 6 تشرين الثاني عام 1879، في أسرة متواضعة؛ فوالده صالح كان تاجر سجاد، أي لم تكن أسرته ثرية كباقي أسر الملاكين الزراعيين الذي لعبوا دوراً ملحوظاً في تلك الحقبة.

كان عمر عبد الرحمن ست سنوات عندما توفي والده، فرعاه التاجر حسن القتلان، وهو قريب العائلة، حيث تلقى علومه الابتدائية في مدارس الحكومة، ثم

دخل الجامعة الأمريكية في بيروت، ونال شهادتها العالمية عام 1901، وكان الخطيب السنوي للجمعية العلمية العربية.

عاد عبد الرحمن إلى دمشق، وانضم إلى الحلقة الإصلاحية التي كان يرأسها الشيخ طاهر الجزائري، وبسبب الحوادث التي كانت قائمة يومذاك، قدم إلى المحاكمة بتهمة الاشتراك في تأليف رسالة موضوعها (الفقه والتصوف)، وبأنه أحد الذين كتبوا في جريدة (المقطم) المصرية، حول خلافة السلطان عبد الحميد الثاني، غير أن صغر سنه آنذاك أنقذه من السجن.

في عام 1902 عاد إلى الجامعة الأمريكية، وعكف على دراسة الطب مدة أربع سنوات، وكان من المتفوقين فيها، حيث تخرج بامتياز، واختارته الجامعة أستاذاً فيها وطبيباً لطلابها.

في عام 1908، عاد الشهبندر إلى دمشق، ليعمل كطبيبٍ للأمراض الداخلية؛ فذاع صيته كنطاسيٍ بارع، وإنسانٍ كريم الأخلاق، مما جعله مقبولاً في جميع الأوساط: الشعبية منها والأرستقراطية؛ ولا نستغرب أن تقبله عائلة العظم صهراً لها، وهي ذات الحسب والنسب، فاقترن بِسَارَّة ابنة تقي الدين المؤيد العظم في عام 1910. كان عبد الرحمن الشهبندر وحيداً لوالديه من جهة الذكور؛ وهو أصغر أخواته الأربع: فاطمة ووسيلة وحسيبة ونجلى اللواتي تزوجن بالتعاقب من عائلات: بيازيد والمحايري والمرابط والبيلاني. وكانت عصبية عبد الرحمن من جهة والده ووالدته محدودة؛ مما كان له الأثر السلبي الواضح في حياته السياسية؛ لاسيّما بعد اغتياله وطيّ ملَفّ قضيته القضائية (الجنائية) بسرعةٍ مذهلة؛ على الرغم من جهود عائلة زوجته لاسيّما شقيقها نزيه المؤيد العظم المولود في عام 1890، الذي كانت تربطه علاقات وطيدة مع صهره عبد الرحمن؛ ودرس مثله في الجامعة الأمريكية، حيث نال شهادة «بكالوريوس» في الآداب، وأتقن اللغة الإنكليزية، وكان ضليعاً في علم التاريخ. ولما نشبت الثورة السورية الكبرى، كان في عداد أبطالها، والساعدَ الأيمن والسند الأساسي للشهبندر في تلك الثورة وما بعدها، حيث رافق صهره في جبل العرب والأزرق (شرق الأردن) ومصر.

في عام 1908، وإثر عودته إلى دمشق، اتصل بعبد الحميد الزهراوي، وبأحرار العرب، إثر حدوث الانقلاب العثماني في تموز من تلك السنة، وكان عاملاً مهماً في تأسيس الجمعيات العربية الحرة، بهدف الانفصال عن الدولة العثمانية.

أما عن سيرة عبد الرحمن الشهبندر قبل نشوب الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين، فيمكننا الاستشهاد بمذكرات عدوّه (جمال باشا) الذي أرسلته الحكومة العثمانية في الآستانة إلى بلاد الشام بصفته قائداً عاماً للجيش الرابع، وبصلاحيات واسعة، فيسجل في مذكراته منذ يوم وصوله، إذ يقول: «أخبرني خلوصي بك حاكم سورية العام؛ بأن لديه أموراً خطيرة الشأن يريد محادثتي فيها؛ فاجتمعنا في مساء اليوم نفسه في دار الحكومة؛ فسلّمني عدّة وثائق مهمة ضُبِطَت في القنصلية الفرنسيّة قائلاً: «إنها تدين عدداً من كبار الموظفين المسلمين في بيروت ودمشق ومدن أخرى أكثر نفوذاً... أمّا هذه الوثائق فتدل دلالة واضحة على أن الثوار العرب كانوا يعملون تحت حماية فرنسا؛ لا بل بإرشاد الحكومة الفرنسية ولمصلحتها؛ وبالرغم من تلك الأدلّة كنت موقناً بأنهم سيدركون (المقصود الزعماء العرب) في النهاية أن الحرب العامة ليست إلا مسألة حياة أو موت للعالم الإسلامي؛ وأنهم سيقلعون يوماً ما عن غيّهم ويكفرون عن أعمالهم الجنائية؛ وعلى هذا الاعتقاد قرّرتُ بنية خالصة ألاّ أتخذ إجراءات ما ضدّهم... أرسلت في طلب عبد الكريم الخليل، واجتمعت بواسطته ببعض زعماء الثورة؛ وأخص منهم بالذكر الدكتور عبد الرحمن الشهبندر أكثرهم تحمّساً، وصاحب جريدة (المفيد)، وعبد الغني العريسي أحد كبار مؤسسي المؤتمر العربي في باريس، ومهوند كيفيد علي صاحب جريدة القبس الشهيرة، وبسّطت لهم خطة الحكومة وأكّدت لهم أن تحرير العالم الإسلامي من النير الأجنبي ممكن تحقيقه لو عقد النصر بألويتنا. فآمنوا جميعاً بلا استثناء على أقوالي وأقسموا بالله جهد أيْمانهم وبشرفهم: أن يظل عرب سورية وفلسطين موالين للحكومة ما دامت الحرب؛ وألاّ يقيموا العراقيل في طريقها، وأن ينفذوا أقوالهم هذه بالفعل. وفي الوقت نفسه شرع أولئك الذين يُدعَون بالثوريين وفي مقدمتهم عبد الكريم الخليل يقصّون قصص حزنهم مبدين أنهم في حاجة قصوى إلى المال. فغمرتُ عبد الكريم المذكور ومحمد كرد علي وعبد الغني العريسي بالأموال الطائلة وأصبحوا من ذلك الحين فصاعداً خدماً مطيعين

لأوامري... وبعد وصولي إلى دمشق مباشرة شرعت في إعداد معدات الحملة على القناة، وحولت جهدي لإيجاد جو مملوء بالحماس الديني والغيرة الوطنية في جميع البلاد العربية؛ فأقمت حفلة أدبية بواسطة زعماء الثورة العربية؛ مثل عبد القادر الخليل والدكتور عبد الرحمن الشهبندر وغيرهما ممن كانوا يسمّون (بالمصلحين)».

ونستشف من حديث جمال باشا أمرين:

1 ـ بروز الشهبندر منذ عام 1915 كزعيم ثوري كبير؛ بل من كبار المتحمّسين للقضية العربية.

2 ـ لم يخضع ـ ولو ظاهرياً ـ لجمال باشا، ولم يستجده حين غمر البعض «بالأموال الطائلة.».

وقد أحسّ الشهبندر بسوء نية جمال باشا، بعد محاكمة (عاليه) الصورية؛ وإعدام الشهداء (6 أيار 1916)، فأعدّ خطة هربٍ عبر بادية الشام، وبعد حوالي شهرٍ من الصعاب وشتّى أنواع العذاب تمكّن من الوصول إلى ميناء البصرة؛ حيث سافر بحراً إلى مصر عبر الهند؛ واستقرّ في القاهرة حتى نهاية الحرب الكونية الأولى. ولما علم جمال باشا بفرار الشهبندر استحوذ عليه الغضب؛ وأصدر على الزعيم العربي حكماً غيابياً بالإعدام، على الرغم من براءة الشهبندر من التهم الموجهة إلى غيره في المجلس العرفي في عاليه). تابع الشهبندر في القاهرة مع إخوانه من بلاد الشام نشاطه؛ وعلى إثر نشر البلاشفة عام 1917 بنود اتّفاقيّة سايكس ـ بيكو السرّية القاضية بتقسيم بلاد الشام والعراق بين فرنسة وبريطانية؛ بادر مع ستّة من رفاقه وهم: رفيق العظم، مختار الصلح، فوزي البكري، الشيخ كامل القصّاب، خالد الحكيم، حسن حمادة إلى تقديم كتابٍ إلى وزير الحربيّة البريطانيّ؛ طرحوا فيه عدة أسئلة تتعلق بحدود البلاد العربية؛ ومواقف بريطانية من استقلال العرب؛ وأهابوا بها أن تحقّق الأهداف العربية؛ وأن تفي بوعودها التي قطعتها للشريف حسين؛ ورغم ما في هذا الكتاب من روح الثقة الاتكالية بالبريطانيين؛ فإنه أثمر تصريحاً هو التصريح المعروف بـ «العهد البريطاني للسوريين السبعة» الصادر في (6 حزيران 1918) وقد تسلّمه الشهبندر من مدير المكتب العربي البريطاني في القاهرة في (22 حزيران 1918)؛ وهو يحوي أربع موادّ تنص على تأييد بريطانية مجدداً للأماني العربية بالاستقلال

والتحرّر. ويصف جورج أنطونيوس في كتابه بأنه أخطر بيان أصدرته بريطانية لتوضيح سياستها نحو الثورة العربية؛ وتعود قيمته إلى أنّ تعهدات بريطانية القديمة للعرب فاقت كل ما نُشرَ في السابق؛ وأنه يعطي إيضاحاً رسمياً للمبادئ التي ارتكزت عليها تلك التعهدات؛ وبخلاف (اتفاقيات حسين ـ مكماهون) يمتاز بأنه كان مجرداً من التحفظات الإقليمية وبعلانيته، ولاسيّما أنه جاء بعد اتفاقيات «سايكس ـ بيكو» ووعد بلفور.

بعد الحصول على هذه الوثيقة اجتمع عددٌ كبيرٌ من السوريين في مصر؛ وأسفرت مداولاتهم عن تأليف حزبٍ أطلقوا عليه اسم (حزب الاتحاد السوري)، يمثل جميع الهيئات السياسية المطالبة بحقوق الوطن العامة؛ مع المحافظة على مبادئ كل حزب، ووضعوا برنامجاً من أربع عشرة مادة تهدف إلى تكوين دولة سورية؛ بوحدتها القومية من طوروس شمالاً إلى العقبة جنوباً؛ ومن الفرات والصحراء شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً؛ على أن تكون مستقلة استقلالاً تاماً بضمانة عصبة الأمم؛ تحكمها حكومة ديمقراطية على مبدأ اللامركزية بقوانين مدنيّة ما عدا ما يتعلّق منها بأحكام الأحوال الشخصية؛ فإنها تبقى على ما هي عليه، ونصّ على حماية حقوق الأقلّيات، وتعَيَّن مقرّ الحكومة الاتحادية في دمشق صيفاً وبيروت شتاءً؛ كما نصّت على وجوب توحيد برامج التعليم؛ وقبول الانضمام إلى الوحدة العربية عند قيامها؛ مع المحافظة على «كيان البلاد القومي».

وتمّ اختيار الأمير ميِّشِل لطف الله اللبناني لرئاسة الحزب؛ ورشيد رضا وكيلاً، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر وسليم سركيس سكرتيرين؛ وقد تابع هذا الحزب نشاطه في القاهرة، وبعد عودة الدكتور الشهبندر إلى دمشق عام 1919 أسّس له فرعاً في عاصمة الأمويين؛ وقد خطب الشهبندر في (النادي العربي) الدمشقي قائلاً: «الشعب لا يريد الوصاية أو الحماية أو أيّ صكٍ يُكْتَب أو اتفاقية تُعْقَد».

❖ ❖ ❖

أعلن الأمير فيصل بن الحسين قيام الدولة العربية في دمشق في (الخامس من تشرين الأول 1918) بالنيابة عن والده الشريف حسين بن علي؛ غير أن المستعمرين لم يمهلوه، فعمدوا إلى تنفيذ اتفاقية (سايكس ـ بيكو) السرّية. وأمام

هذا الموقف أوفد الشريف حسين ابنه فيصلاً إلى باريس ليحضر نيابةً عنه مؤتمر الصلح؛ فلما وصل إلى مرسيلية استقبله ضابطان فرنسيان؛ رحّبا به باسم الحكومة الفرنسية كزائرٍ لفرنسة وليس كممثلٍ ذي صفة رسمية؛ ولم يستطع فيصل أن يحضر مؤتمر الصلح المنعقد في باريس؛ فغادر فرنسة إلى لندن، وبعد وساطة بريطانية سمحت له فرنسة بالذهاب إلى باريس ليمثّل الحجاز كدولة حليفة في مؤتمر الصلح؛ ورغم جهود فيصل قرّر المؤتمر فرض الانتداب قبل أن يوافق على إرسال لجنة دولية لمعرفة رغائب أهل البلد الحقيقية؛ فكان تأليف لجنة كينغ ـ كراين التي وصلت إلى دمشق في (2 تموز 1919) قابلها كبار رجال الدولة السوريون؛ وعلى رأسهم عبد الرحمن الشهبندر، وقد طالب الجميع بالاستقلال التام الناجز للبلاد بحدودها الطبيعية من جبال طوروس شمالاً إلى العقبة جنوباً؛ والبحر المتوسط غرباً ومدينة البوكمال شرقاً، وبدون حماية ولا وصاية. وكما نعلم، طُوي تقرير (لجنة كنغ ـ كراين) ولم يرَ النور بضغطٍ من الحكومتين الفرنسية والبريطانية؛ وفي تلك الفترة ساهم الشهبندر المساهمة الأكبر في حشد وتنظيم صفوف القوى الوطنية المطالبة بالمقاومة وعدم الرضوخ للضغوط الفرنسية، وكانت فرنسة قد احتلّت منذ أواخر عام 1918 الساحل السوري، في حين بسطت بريطانية سيطرتها على فلسطين.

في 7 آذار 1920، اجتمع المؤتمر السوري في دمشق، وقرّر إعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية والمناداة بفيصل ملكاً دستورياً عليها؛ وتألفت الوزارة الأولى برئاسة رضا باشا الركابي؛ وختم المؤتمر السوري بيانه بإعلان استقلال العراق على أن يكون بين القطرين اتّحاد سياسي واقتصادي. إن كان إعلان الاستقلال قد قُوِبلَ في جميع البلاد العربية بارتياح عظيم؛ فإنه أُستُقبِلَ في المحافل الغربية بسخطٍ وغضبٍ شديدين؛ وأُعتُبِرَ عصياناً على القيادتين البريطانية والفرنسية، واستباقاً لمقررات مؤتمر الصلح، وخروجاً عن صلاحياته... وسارع الحلفاء إلى عقد مؤتمر (سان ريمو) في إيطالية في 25 نيسان 1920 وإعلان مقرراته في اليوم التالي وهي كما يلي:

1 ـ وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور.

2 ـ وضع سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي.

3 ـ وضع العراق تحت الانتداب البريطاني.

أمام هذا الوضع الخطير اضطرت وزارة الركابي المسالمة إلى الاستقالة؛ وتألفت في (3 أيار 1920) وزارة دفاعية برئاسة هاشم الأتاسي؛ ومن أعضائها البارزين الدكتور عبد الرحمن الشهبندر للخارجية، ويوسف العظمة للدفاع، وفارس الخوري للمالية، وساطع الحصري للمعارف... الخ وبدأت الوزارة الجديدة بتطبيق التجنيد الإجباري؛ وبتشجيع الثورات القائمة ضد فرنسة (إبراهيم هنانو وصالح العلي)... وردّت فرنسة باستقدام مئة ألف جندي؛ وبتعيين الجنرال غورو مندوباً سامياً في سورية ولبنان مزوداً بالأموال وبمئات الدبابات والمدافع والطائرات...؛ ثم كان إنذار غورو ويوم ميسلون (24 تموز 1920)؛ واحتلال دمشق والحكم بالسجن أو الإعدام على عددٍ من الوطنيين ومنهم الدكتور الشهبندر الذي اضطر لمغادرة البلاد؛ والالتجاء مرة ثانية إلى مصر قبل عودته إلى دمشق في (تموز 1931) بعد صدور العفو العامّ. وقد اغتنم عبد الرحمن الشهبندر عودة المستر كراين إلى سورية للقيام بحملةٍ مناهضة للانتداب الفرنسي؛ فنظّم عدّة لقاءات في الأحياء الشعبية؛ حضر بعضاً منها المستر كراين ليستمع إلى الناس والأعيان الذين أجمعوا على طلب الاستقلال ورفض الانتداب؛ وشاركت النساء وفي مقدمتهنّ (سَأَرَّة المؤيد العظم)، مما دفع الفرنسيين إلى فرض منع التجوّل. وفي (6 نيسان 1922) ألقت السلطات الفرنسية القبض على عددٍ من رجالات البلاد، وعلى رأسهم الشهبندر، حيث مثلوا في الديوان العرفي - بناية العابد، وصدرت بحقهم أحكامٌ مختلفة، وسيقوا إلى سجن جزيرة أرواد، حيث ظلّوا حتى (12 تشرين الأول 1923) بعد أن أمضوا في سجن أرواد حوالي تسعة عشر شهراً.

وفي أثناء اعتقاله في سجن أرواد، عمل الشهبندر على ترجمة كتاب (دليزل بورنس) في السياسة الدولية؛ ومما قاله الشهبندر في مقدّمة الكتاب: « ... ومن الدواعي الجوهرية التي دعتني إلى ترجمة هذا الكتاب أنّ صاحبه يقول بسياسة التعاون بين الأمم؛ لا إنسانيةً وعطفاً وتَنَزُّلاً، بل سعياً وراء المنفعة التي يجنيها الجميع من العمل المشترك؛ وعنده أن تكثير الحرية والعدالة بين الآخرين هو مثل تكثير السلع المادية يزيد في الرفاهية والسعادة... ثم إن من قرأ فصل (البلاد

المهملة) وما انطوى عليه الكلام من النقد لحملة عروش المولين؛ ولا يلبث أن يُعجب بالموقف الشريف المعتدل الذي وقفه المستر بورنس».

يقول الدكتور (عبد الله حنا): «وقصارى القول فإن فكر الشهبندر في مقدمة «حلقة الزندان» المكتوبة عام 1924 تُبين ما يلي:

- تأييد الاشتراكية الديمقراطية في أوروبا.
- إعجاب بالولايات المتحدة قبل أن تنكشف مطامعها الاستعمارية فيما بعد.
- التأكيد على «أن الأسباب الاقتصادية تحدث الثورات الاجتماعية».
- المظالم القومية والمنافسات الاقتصادية هي التي تسبّب الحروب.
- الإشارة إلى عصبة الأمم المؤسسة من الدول الاستعمارية في أعقاب الحرب العالمية الأولى؛ وهي عصبة الفاتحين والمولين لا عصبة الشعوب.
- الدعوة إلى الثورة الاجتماعية بدون عنف وإراقة دماء.
- تجاهل الحديث عن ثورة أكتوبر والبلاشفة؛ والابتعاد عن أي تقييم سلبي أو إيجابي لدولة البلاشفة، مع إشارات غير مباشرة إلى عدائه للعنف».

يقول الدكتور عبد الرحمن الشهبندر حول تأسيس (حزب الشعب) - وهو أول حزب سياسي تمّ إنشاؤه في سورية بعد الاحتلال الفرنسي - أنّ القصد من تأليفه هو جمع الصفوف الوطنية في هيئة سياسية تنطق باسمها؛ أما مؤسسوه فهم سبعة من رجال دمشق بينهم: عبد الرحمن الشهبندر وفخري البارودي وإحسان الشريف ونزيه المؤيد العظم.

في اليوم الخامس من حزيران 1925، أُفْتتح الحزب رسمياً في (دار الأوبرا بالعباسية) بدمشق في جمع ضم ما يزيد عن ألف شخص (أكثرهم من المؤيدين)؛ إذ أن أعضاء الحزب المسجّلين لم يكونوا يومئذٍ أكثر من مئتيّ عضو. وكان أعضاء الهيئة الإدارية على الشكل الآتي: الدكتور عبد الرحمن الشهبندر رئيساً، وفارس الخوري نائباً للرئيس، والدكتور إحسان الشريف أميناً للسر، ومن أعضاء الهيئة الإدارية: سعيد حيدر، لطفي الحفار، فوزي الغزي، جميل مردم، وحسن الحكيم، وكان للحزب فروعٌ في حمص وحماة وحلب واللاذقية، وغدا له أنصارٌ في صفوف الفئات الليبرالية (أطباء، محامون، أساتذة الخ). وساندته بعض النقابات الحرفية. ويتلخص برنامج الحزب في العمل لتأمين استقلال سورية ووحدتها؛ وانتخاب

مجلس تأسيسي لسن دستور البلاد؛ وقيام حكومة دستورية تعمل في سبيل الإصلاح الاجتماعي وتشجيع الصناعة الوطنية... ووسائل الحزب ليست انقلابية بل قانونية مشروعة. ومن أول مظاهر نشاط الحزب هو المظاهرة التي نظّمها عند مجيء اللورد بلفور إلى سورية عام 1925؛ حتى كاد المتظاهرون أن يفتكوا به؛ مع أنه لم يكن من منهاج (حزب الشعب) الثورة المسلحة، فإن عدداً من كبار المسؤولين فيه اشترك في الاجتماعات الأولى الممهّدة في دمشق؛ وعمل الشهبندر ورفاقه في «جبل العرب» على توسيعها وتوجيهها، ويذكر الشهبندر في مذكراته أنه كان لموفدي الحزب يدٌ في استمرار (الثورة السورية الكبرى)؛ والحؤول دون عقد الصلح بعد (معركة المزرعة)؛ مما جعل السلطات الفرنسية تلقي على عاتق عبد الرحمن الشهبندر وسلطان الأطرش مسؤولية العمل على اختلاق حادث يفضي إلى الثورة السورية الكبرى (1925 ـ 1927). يقول الشهبندر أنه عُقدت عدة اجتماعات في دمشق أوائل شهر أيار استهدفت العمل لأجل الوحدة والاستقلال؛ والإعداد للثورة، وعلى إثر نشوب الثورة عُقد اجتماع سري في دمشق (25 تموز 1925) تقرّر فيه الاشتراك في الثورة المسلحة ومساندتها ... وما إن شعر الفرنسيون بالأمر، وأدركوا قيام أركان حزب الشعب بالاجتماعات حتى صدر أمرٌ بحلّ الحزب وملاحقة رجاله؛ فقُبض على بعضهم كفوزي الغزي وفارس الخوري وإحسان الشريف؛ ونجح آخرون بالالتحاق برجال سلطان الأطرش ومنهم الشهبندر وحسن الحكيم وجميل مردم وسعيد حيدر... واستمرّت الثورة بعد أن أخفقت مساعي الفرنسيين لحمل قيادة الثورة على الصلح؛ وأمام تدهور الأوضاع وتفاقم خطورتها، عيّنت باريس في (8 تشرين الثاني 1925) «دو جُوفْنل» عضو مجلس الشيوخ؛ الذي صرّح أنه سيعالج الحالة في سورية سياسياً لا عسكرياً؛ ومع ذلك أبى (دُو جُوفْنل) الإقدام على أيّ حلٍ قبل «إحلال السلام»؛ أي استسلام الثوار بلا قيدٍ أو شرط، وأعلن شعاره الشهير: «الحرب لمن يريد الحرب، والسلم لمن يريد السلم»... ولما لم يجد (دو جُوفْنل) من يقبل تحمّل مسؤولية الحكم دون برنامجٍ يرضي قيادة الثورة الوطنية السورية، أصدر في (9 شباط 1926) قراراً بتعيين المندوب الفرنسي (بيير ألب) حاكماً على سورية؛ والجنرال الفرنسي (أنْدريا) حاكماً عسكرياً لدمشق... وأخذ الفرنسيون يعملون على تفريق الصفوف باتّهامهم سلطان الأطرش بأنه

يطالب باستقلال سورية؛ مهملاً الاهتمام بشؤون «جبل الدروز» مهيبين برجال بني معروف، ثوار جبل العرب، بالتخلص من هاويةٍ يريد رجالٌ وعلى رأسهم عبد الرحمن الشهبندر إلقاءهم بها؛ ولكنهم لم يجدوا آذاناً صاغية، بل ازداد تمسّك الثوار بالوحدة والاستقلال؛ واشتدّ ضغط قوات الانتداب على الثورة؛ فأصدر المندوب السامي الفرنسي أحكام الإعدام على كبار زعمائها في أيار عام 1926؛ ورحل بعضهم إلى منطقة الأزرق في بادية شرقي الأردن وراح الشهبندر يتنقل بين (جبل العرب) وشرقي الأردن لتأمين الاتصال بين الثورة والعالم الخارجي؛ ولأسبابٍ موضوعية وذاتية، لم يتمكّن الشهبندر من تأجيج نيران الثورة الوطنية الكبرى من جديد؛ وراح الفرنسيون يسيطرون تدريجياً على الموقف بتوجيه ضرباتٍ متتالية لمواقع الثوار ومراكز تجمعهم؛ ولم يبقَ أمام الشهبندر إلا طريق اللجوء السياسي إلى إحدى الدول العربية؛ بعد أن أصدر الفرنسيون بحقّه حكماً بالإعدام. فغادر مناطق الثورة إلى العراق عبر بادية الشام، ومن بغداد انتقل جواً إلى القاهرة، حيث ظلّ حوالي عشر سنوات، قبل أن يعود إلى دمشق؛ بعد صدور قرار العفو عنه وعن إخوانه المشاركين في الثورة العربية الكبرى.

بعد عودة الشهبندر إلى دمشق في (15 أيار 1937) رحّبت به وبرفاقه المبعدين مختلف الصحف السورية؛ وكانت الجماهير الشعبية والوفود الرسمية قد هرعت إلى القنيطرة لاستقبالهم. وعندما وصل الموكب إلى أبواب دمشق الجنوبية استقلّ الشهبندر وصحبه سياراتٍ مكشوفة مخترقاً حيّ الميدان فمقبرة «باب الصغير»؛ حيث ترجّل ورفاقه لتلاوة سورة الفاتحة على أرواح الشهداء، ثم واصل الركب سيره إلى الدرويشية فالسنجقدار فساحة الشهداء (المرجة)؛ حيث كان رجال الحكومة في مقدمة المستقبلين أمام دار البلدية؛ ورحّب بالقادمين (توفيق الحياتي) محافظ مدينة دمشق، ثم لطفي الحفّار رئيس لجنة الاستقبال، ومع أن لطفي الحفّار كان فيما مضى من قادة حزب الشعب فقد انضم لاحقاً إلى صفوف قيادة الكتلة الوطنية، ولذلك كان ترحيبه بالشهبندر فاتراً - ويمكن القول إن بعض قادة الكتلة الوطنية لم يرغبوا بعودة الشهبندر؛ بل كانوا يحبذّون بقاءه بعيداً عن دمشق؛ لينفردوا بزعامة الحركة الوطنية - ثم ارتجل الشهبندر خطاباً استهلّه بتحية دمشق قاعدة العروبة؛ ومجّدَ فيه الشهداء الأبرار واختتمه قائلاً: «عدنا

إليكم لندرس القضية مع إخواننا العاملين درساً موضوعياً لا شائبة للحزبية فيه، فَجَنَّةُ الوطن هي جنّةٌ واسعةٌ مفتوحة الأبواب لكل رجلٍ يعمل للوطن بإخلاصٍ وذمة... جئت لجمع الشمل ولمّ الشعث، وخير وألف خير أن نخفق ونحن مُتَّحِدون، من أن ننجح ونحن متفرّقون».

قضى الشهبندر حوالي الشهر في دمشق؛ حيث تتابعت حفلات تكريمه، وقد ألقى عشرات الخطب لشرح سياسته هو وأنصاره؛ ثم عاد إلى القاهرة في أواخر حزيران 1937؛ حيث كان أولاده يتلقّون العلم في معاهد القاهرة ومدارسها منذ أن أقام فيها عام 1927... فخلا الجو لجماعة الكتلة الوطنية، وراح أنصارها يضايقون أتباع الشهبندر الذين شرعوا يلحّون على الشهبندر بالعودة إلى دمشق، وكان الشهبندر قد نشر بياناً في القاهرة في أواخر عام 1937؛ اتهم فيه رئيس الحكومة جميل مردم بالتساهل مع الفرنسيين في البنود السرية الملحقة بالمعاهدة؛ وفي قضية (سنجق اسكندرون)، مما أدّى إلى تفاقم الخلاف بعد اعتقال بعض أعوان الشهبندر... وأمام خطورة الوضع عاد إلى دمشق في 27 تموز 1938؛ وأقام في بلودان لدى أهل زوجته، ليصدر جميل مردم - رئيس الوزراء - أمراً إدارياً بحجز حرّيته؛ ومنعه من مغادرة منزل حميه تقي الدين مؤيد العظم؛ وهنا ثارت ثائرة أنصار الشهبندر.

في عام 1939 جرت في مجلس النواب محاولات لتأليف لجنة للتوفيق بين جميل مردم والشهنبدر؛ لكنها باءت بالفشل، واستمرت المظاهرات في دمشق ضد حكومة الكتلة الوطنية من جهة والفرنسيين من جهةٍ ثانية؛ وقد تضخّمت كتلة الشهبندر العددية بانضمام كلّ مَنْ هو خصم للكتلة الوطنية، من مختلف الاتجاهات والمشارب.

في 16 كانون الثاني 1939 خطب منير العجلاني النائب في البرلمان باسم المعارضة مؤكّداً: «أنّ المعارضة لم تعد هزيلة وهي تعلن بملء فيها: إننا معارضون ولكننا وطنيون مثلكم ومستعدّون للتضحية في كلّ وقت والمعارضون يطلبون الاعتراف بوجودهم رسمياً، ويرغبون أن يُسْمَح لهم ولصحفهم ولمجالسهم أن تعبّر عن آرائهم في أيّ وقتٍ كان؛ والمعارضة تريد الحرية، وتريد أن تكون الوظائف على أساس الكفاءات»

كان النشاط السياسي للكتلة الوطنية في الفترة الواقعة بين عامي 1933 - 1939 مبذولاً لعقد معاهدةٍ مع فرنسة، وكانت الغلبة لها منذ عام 1935 بعدما أفادت من التأييد الذي نالته في أوساطٍ شعبية؛ للسعي لعقد معاهدة 1936، وكان الشهبندر في تلك الفترة مبعداً مع رفاقه عن الساحة. لم تحترم الكتلة الوطنية بأغلبية قيادييها الرّأي العامّ، بل اتّخذته واسطة فقط، ولم تصارحه بالحقائق، فكان أن خدعها رجال الإدارة الفرنسيون؛ واستغلّوا تساهلها الرخيص، لعقد اتفاقيات إضافية تفرض صكوك امتيازاتهم على السوريين... وظلّت الدوائر الاستعمارية الفرنسية تماطل إلى أن اختارت الوقت المناسب لرفض التوقيع على المعاهدة.

في (7 تموز 1939) استقال رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي؛ وفي (10 تموز 1939) صدر قرار من المفوض السامي الجديد (بيُو) بتأليف حكومة من المديرين برئاسة السيد بهيج الخطيب؛ كما صدر قرارٌ بتعليق الدستور وتعطيل الحياة النيابية؛ وعاد التسلّط الفرنسي إلى أسوأ مما كان عليه؛ وفقدت الكتلة الوطنية بعد ذلك شعبيتها وأفقدها تمسّكها بالحكم واتباعها سياسة التسكين والتهدئة طابعها النضالي ومكانتها الشعبية؛ أما المعارضة البرلمانية والشعبوية فقد اختلطت فيها الخصومات الخاصة بالخلافات السياسية؛ ولم ينجح الشهبندر أحياناً في اختيار معاونيه لإدارتها؛ فقد كان بينهم بعض ذوي الأغراض والنفوس الضعيفة.

فوجئ الناس في (6 تموز 1940) بحادث اغتيال عبد الرحمن الشهبندر، وهو أول حادث اغتيال سياسي في سورية؛ واعتبرت الرواية الرسمية الأولى مقتل الشهبندر مدبَّراً من بعض قياديّي الكتلة الوطنية؛ بسبب الخصومة السياسية، وانتقاماً لها ممن كان العامل الأول في تراجع نفوذها؛ وقد اتّهم النائب العام لدى المجلس العدلي العسكري الذي انعقد في بناء المجلس النيابي للنظر في القضية في قرار الاتهام الصادر في (26 تشرين الأول 1940) أقطابَ الكتلة الوطنية: جميل مردم ولطفي الحفّار وسعد الله الجابري لكونهم «حرّضوا على ارتكاب الجريمة بواسطة مبلغٍ من المال والوعود والدسائس والحيل؛ وبذلك اشتركوا في جريمة القتل عمداً» وجاء في القرار نفسه «إن المتهمين لم تكن غايتهم الوحيدة

مقتل الدكتور الشهبندر فحسب؛ بل كانوا يرمون من وراء ذلك إلى إيقاد نار الفتنة بين الأحزاب ليتمكنوا بعدئذٍ من الوصول إلى بغيتهم وهي نشوب اضطرابات تؤدي إلى حرب أهلية».

وقد اضطر رجال الكتلة الوطنية للفرار إلى العراق؛ واتخذت المحاكمة شكل مخاصمة حزبية؛ فتولّى محامو أنصار الشهبندر وأسرته الادعاء الشخصي، وكلّف الكتلويون أشهر محامي لبنان للدفاع عن قادتهم؛ وشُغلت البلاد والصحافة والرأي العامّ بمتابعة القضية؛ وانقسم الناس إلى فريقين، ووقعت الاصطدامات بين أنصار الطرفين؛ واتهم محامو الدفاع رئيس مجلس المديرين بهيج الخطيب بتلفيق التهمة على موكليهم؛ بهدف القضاء على الكتلة الوطنية؛ وعلى الوعي الشعبي حتى تضمحل الأحزاب؛ ويعتري البلاد الوهن، ويبقى هو على رأس الحكم، ثم طرأت على المحاكمة تبدلاّت مفاجئة ومذهلة قلبت الموقف رأساً على عقب؛ عندما اعترف مرتكب الجريمة (أحمد عصاصة) بأنه هو القاتل، وأنه أُرْغِمَ على توقيع إفادات باتهام رجال الكتلة الوطنية؛ مما اضطر النائب العام إلى تلاوة مرافعة ثانية في (5 كانون الثاني 1941) مؤكداً أن الجريمة كانت نتيجة نظرة دينية متزمتة؛ ورُفِعَ الاتهام عن أقطاب الكتلة الوطنية، فعادوا من العراق في (18 كانون الثاني 1941)... ونُفِّذ حكم الإعدام شنقاً في (4 شباط 1941) في ساحة الشهبندر (المرجة) في كلٍ من أحمد عصاصة وأحمد الطرابيشي وصالح معتوق.

من الذي اغتال الشهبندر؟ ومن هم المدبّرون والمخططون الحقيقيون؟ وما هو دور الدوائر الرسمية لسلطة الانتداب الفرنسي في كلّ ذلك؟

جاء في رسالة فيصل عبد الرحمن الشهبندر المرسلة إلى د. عبد الله حنا بتاريخ 1989/1/21 حول الدقائق التي سبقت إعدام المجرم أحمد عصاصة ما يلي: «وزيادةً لمستزيد أحيطك علماً بأن خالنا المرحوم نزيه بك المؤيد العظم حضر بنفسه تنفيذ حكم الإعدام في عصاصة ورفيقيه؛ فهل علمت بالعبارات الأخيرة التي نطق بها عصاصة قبل أن يُشْنَق؟ نقل إلينا نزيه بك تلك العبارات حرفياً حيث جاءت «الله يخرب بيتك يا اللي خربت بيتي... الله يخرب بيتك يا جميل مردم... فين عدلك يا فرنسا... يعيش هتلر.... ولما سمع الكولونيل كوتيو وهو المنوط به تنفيذ الحكم عبارة يعيش هتلر» انتفض وأمر بأن ينفذ الحكم فوراً؛ ولما تقدّم

الجلاد من عصاصة أخذ يقاوم ووقع أرضاً؛ وهنا أمر كوتيو بأن يوضع الحبل في عنقه وهو مستلقٍ على الأرض وأن يُجَرَّ جراً إلى أعلى وقد كان ذلك...».

تضاربت الآراء حول دوافع اغتيال الشهبندر، من الإيديولوجية إلى السياسية وغيرها ... ويجب القول أنّ أقرباء الشهبندر ومريديه مازالوا يجزمون حتى اليوم أنّ دم الشهبندر في رقبة رجال الكتلة الوطنية؛ لاسيما في رقبة جميل مردم.

❖ ❖ ❖

شُيّع جثمان المرحوم عبد الرحمن الشهبندر بعد ظهر الأحد (7 تموز 1940) من دار (الهيئة الشعبية) في محلّة عرنوس؛ واجتاز الموكب شوارع دمشق وصولاً إلى المسجد الأموي؛ وبعد أداء الصلاة على روحه ألقيت كلمات التأبين في صحن الجامع؛ ثم دُفِن في جوار مقام السلطان العادل صلاح الدين الأيوبي... وأقيمت حفلة تأبين الفقيد في مدرج جامعة دمشق بمناسبة (الأربعين) في 2 أيلول 1940.

كان للشهبندر شخصياً مكانة شعبية في دمشق وسورية عامةً؛ ولكن لم يكن له حزبٌ سياسي فعّال يعكس طموحات الزعيم وتطلعاته؛ فقد تفكّك (حزب الشعب) الذي أسسه عام 1925 بعد الثورة؛ ولم تكن (الهيئة الشعبية) التي جاءت بعده قويةً إلى درجةٍ يُعْتَمدَ عليها ... كان الشهبندر أحد أبرز رجالات حركة التحرير الوطني بين الحربين: الأولى والثانية. وأحد المعبّرين الرئيسيين عن فكر البرجوازية الصغيرة في سورية: من طلاب جامعات وأساتذة ومحامين وحرفيين وفنانين الخ... ولم يتردد في المجاهرة ببعض الآراء الاجتماعية الجريئة؛ فحمل على استغلال الدين والطائفية الدينية وعلى حجاب المرأة... ويُعَدُ كتابه (القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي) الذي صدر في القاهرة في أوائل عام 1936 خيرُ معبرٍ عن هذا الاتجاه. وإذا كان هذا الكتاب يعترف بأرجحية النظام الرأسمالي للدول العربية؛ فإنه يعترف من ناحيةٍ أخرى بأهمية العلاقات الاقتصادية - الاجتماعية ودور القوى المنتجة؛ وأنماط الإنتاج في عملية التطور السياسي والاجتماعي للشعوب؛ وعلى الرغم من أنه لم يتعرّض لنوع المجتمع المنشود؛ فقد شدّد على الأهمية القصوى لتحرير البلدان العربية من الاستعمار؛ إلى جانب القيام بإصلاحات اجتماعية جذرية تتناول الدين والأسرة والأخلاق والسياسة والعلم والاقتصاد. وكان الشهبندر قد ألقى في (5 حزيران 1925) في أول اجتماع

جماهيري عقده (حزب الشعب) في بهو دار أوبرا العباسية في دمشق خطاباً ظهر فيه تأثره المبكر بالفكر الماركسي؛ حيث أعطى العامل الاقتصادي الأهمية الأولى في تحليل التاريخ الإنساني؛ وهاجم الطبيعة الاستعمارية للحرب العالمية الأولى؛ وأشار إلى ضرورة التعاون بين الحركة العمّالية العالمية وحركة التحرر الوطني؛ لطرد المستعمرين وإنهاء استغلالهم للشعوب المغلوبة على أمرها وثرواتها ... إنها المرّة الأولى التي يتجرّأ فيها رجل سياسي أو مفكر بورجوازي عربي على الإشارة صراحةً إلى ضرورة التعاون بين الحركة العمّالية العالمية وحركات التحرّر الوطني؛ في وقت كانت سورية كغيرها من الأقطار العربية ترزح تحت نير الاستعمار.

كان عبد الرحمن الشهبندر رجلاً طليعياً نهضوياً سبق عصره، وقد يكون لذلك نصيبٌ في اغتياله.

د. محمد محفل

ساطع الحصري

رائد الفكر القومي

(1880 - 1968)

أمام كل المستجدات العالمية، ونهوض الدول الأوروبية، وجدت الإمبراطورية العثمانية نفسها تجنح مرغمة إلى لاستبداد والانغلاق، فاستخدمت كل الوسائل لإخماد الحركات المناهضة لسياستها، واستطاعت أن تجهض حركة محمد علي، وثورة أحمد عرابي. استخدمت القمع والأحكام التعسفية، وكذلك قامت باغتيالات رموز الإصلاح. كانت الإمبراطورية المتهالكة تشعر بعجزها، لذلك أصرت على تطبيق النمط الشمولي في إدارة الولايات العربية التابعة لها. ورغم ذلك، فقد أفاد العقل العربي من أفكار التنوير القادمة من الدول الأوروبية، والتي بفضلها نشأت الفكرة القومية، وبدأت الولايات العربية تتطلع إلى الخلاص من الاستبداد العثماني.

في هذه الأثناء، ولد مصطفى ساطع الحصري، في العام 1880، لأسرة حلبية. وكان الابن الثالث للقاضي محمد هلال الحصري. كانت أسرة الحصري تعود بنسبها العربي الأصيل إلى منطقة الحجاز، وقد انتقلت إلى حلب على يد الشريف أحمد بن إدريس الحسيني، حين جاء إلى حلب في القرن الخامس عشر الميلادي.

تلقى والد ساطع أفضل تعليم في تلك الفترة، فدرس اللغة العربية والشريعة في المدرسة الإسماعيلية في حلب. وقضى شطراً من شبابه في مصر، يدرس في الجامع الأزهر علوم الشريعة والعربية. وحين عاد إلى حلب، عمل قاضياً في مختلف مدن الولاية، وأصبح فيما بعد رئيساً لمحكمة الاستئناف في صنعاء.

وبسبب عمل والده، تنقل ساطع في أرجاء الإمبراطورية العثمانية، وقدر له خلال الاثنتي عشرة سنة الأولى من حياته أن يزور كثيراً من المدن، منها: صنعاء وطرابلس الغرب، وأضنة واستنبول. وكان خلال هذه الفترة يستكمل تعليمه على أيدي إخوته الكبار، فقد تعلم القراءة والكتابة باللغتين التركية والفرنسية، إضافة إلى اللغة العربية التي أولاها اهتماماً خاصاً فيما بعد. ثم التحق بالقسم الداخلي

في المدرسة الملكية في استنبول، وهي مدرسة متخصصة في التدريب الحديث للإدارة العثمانية، وقضى فيها سبع سنوات، أسس خلالها معارفه الفكرية، لأنها كانت تقوم على أفكار الفلسفة الوضعية الفرنسية والقومية الأوروبية.

توجه اهتمام ساطع الحصري إلى العلوم الطبيعية والرياضية، وبرع في حل المسائل الرياضية العويصة، لدرجة أن رفاقه في المدرسة كانوا يلقبونه بأرخميدس. وبالتوازي مع ذلك فقد توسع في مواضيع العلوم الطبيعية، وشرع بإجراء التجارب الزراعية، وبتحنيط الحيوانات وتشريحها. هذا الجهد الكبير والاهتمام المميز، جعله يتخرج في عام 1900، بدرجة امتياز، مما أهله لتدريس مادة العلوم الطبيعية في المدارس الثانوية والإعدادية، وقد أمضى خمس سنوات مدرساً لهذه المادة في إعدادية يانينا، التابعة لليونان الآن. وقد برز شغفه في هذا المجال، فأصدر خمسة كتب، اعتمدها في تدريس تلاميذه، ولاحقاً اعتمدتها وزارة المعارف كمقررات في مدارس الإمبراطورية. وقد تنوعت هذه الكتب فحملت عناوين: (التطبيقات الزراعية)، (علم الحيوان)، (علم النبات)، (معلومات زراعية)، (دروس الأحياء).

لم يستطع هذا الباحث العالم من تحقيق طموحاته الكبرى، بسبب الضغط الكبير الذي طبقته الرقابة العثمانية على الكتب والمجلات والمطبوعات، وذلك في عهد السلطان عبد الحميد، حتى إن وزير المعارف في ذلك الحين هاشم باشا تمنى ألا تكون هناك مدارس تشرف عليها الوزارة.

أدرك ساطع الحصري المخاطر التي تعصف بالإمبراطورية العثمانية، جراء الفساد المستشري في بنية الدولة ومؤسساتها، وسوء معالجة الأوضاع، إضافة إلى أطماع الدول الكبرى. تعرف عن قرب، خلال السنوات التي أمضاها في أقصى الغرب من الإمبراطورية، على تلك النزاعات الدامية ودوافعها وأغراضها. رأى أن المساهمة النشطة في القيام بإصلاحات لتحديث البلاد والحفاظ على الجامعة العثمانية، هما الأداة الوحيدة لدرء خطر الدول الكبرى الطامعة في البلاد.

ورغم كل الصعوبات والضغوطات التي خضعت لها الإمبراطورية، فإنه لم يفقد الرغبة والأمل بالإصلاح، فما كان منه إلا أن قدم طلباً إلى وزارة الداخلية، أبدى فيه رغبته بالعمل في إحدى الولايات، فعين قائمقاماً في المنطقة الإيطالية في المنطقة النمساوية التي تقع ضمن الإشراف الدولي. واستمر في عمله هذا مدة

سنتين، حاول خلالهما القيام بالعديد من الأعمال الإصلاحية، التي دفعت القائمين على هذه المنطقة لترفيعه وتسليمه قضاء فلورينا في المنطقة الإيطالية من الإشراف الدولي.

وبعين باحث حصيف راقب الحصري شعوب البلقان، وهي تتقاتل فيما بينها حول قضايا قومية، وتتصارع بقوة أكبر من صراعها مع الأتراك، فوجد أن فوارق اللغة والثقافة أعمق بين الأمم من فوارق الدين. عندها تبلور وعيه بعمق الفكرة القومية في النفوس، القادرة المحركة في التاريخ، بعد ثماني سنوات قضاها في البلقان، ساهمت في نمو وعيه السياسي والفكري. في هذه الأثناء حدثت ثورة 1908، التي قامت بها جمعية (تركيا الفتاة) و(جمعية الاتحاد والترقي). وكان ساطع الحصري معجباً بآراء مدحت باشا الدستورية، وبشعارات التنوير التي أطلقتها الحركة، ظناً منه أنها الحل الأمثل للإصلاح والنهوض وتحقيق فكرة الجامعة العثمانية التي تقف في وجه الأطماع الدولية.

عاد إلى استنبول، وتولى التعليم في عدة معاهد عالية، وشرع في التأليف في مجالات التربية وعلم الاجتماع. تسلم إدارة مدرسة (دار المعلمين) في القسطنطينية، فأعاد بناءها على أسس جديدة تتفق مع آخر إنجازات العلوم التربوية. وراح يبث بين التلاميذ أفكاراً جديدة، ومبادئ الجدية في العمل، ورفع شعار (العمل بدون فتور)، الذي صار أشبه بأنشودة تترنم بها شفاه كل تركي متعلم.

كان من الطبيعي أن يشترك الحصري في الصراعات الفكرية والأيديولوجية التي كانت سائدة آنذاك. ويختار الانحياز إلى دعوات الدول العلمانية التي كان التعبير عنها عبر الدعوة إلى النزعة العقلانية أو الرابطة العثمانية التي كانت تتناقض مع الرابطة الدينية الإسلامية عند الحصري. وهذا العثماني الجنسية العربي القومية، يدخل الصراع الفكري مسلحاً بثقافة أوروبية، وليس سوى الرابطة العثمانية تحقق له وعيه الأوروبي بالعالم. ذلك أن الرابطة العثمانية رابطة دولة تحقق المساواة بين جميع مواطني الدولة المنتمين بالأصل إلى أقوام متعددة، في رابطة الجنسية العثمانية يتساوى فيها التركي والعربي والبلغاري والمسلم والمسيحي واليهودي.

في هذه المرحلة من تاريخ الحصري تحول إلى داعية تربوي متأثراً بأفكار سبنسر وريتان. تقوم فلسفته التربوية على الدعوة للحرية ولبروز الفردية والولاء للدولة.

أما من حيث وعيه القومي العثماني، فإنه راح يؤسس له عبر فكرة المشيئة الحرة مستعيراً إياها من رينان. فالرابطة المعنوية بين الأفراد أحد أهم مقومات الأمة، دون أن يغفل عن وحدة الأرض والدين. ولأن الرابطة العثمانية هي رابطة بين أقوام مختلفي اللغات، لم يرَ في اللغة - في هذا المرحلة من وعيه - مقوماً من مقومات الأمة.

أراد أن يطلع على منجزات العلم والمعرفة والفكر في البلدان الأوربية، فقام بجولة زار فيها جنيف ولوزان وزيورخ وباريس ولندن وبروكسل وميونخ وبرلين، ورأى عن قرب نظم التعليم والتربية في معاهد تلك الدول ومدارسها. وحين عاد إلى استنبول، فوجئ بسياسة التتريك التي جعلته يبدأ اتصالاته مع العناصر العربية، بعد تقديم استقالته من منصب مدير دار المعلمين. وأخيراً حسم جمال باشا السفاح الأمر بتعليق الوطنيين على أعواد المشانق، فما كان من الحصري إلا أن غادر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أراضي السلطنة العثمانية، لينضم إلى الركب القومي العربي رافضاً كل النداءات والإغراءات لبقائه في تركيا. وحينما رفض كل النداءات لأجل بقائه، وغادر دون اكتراث، كتب أحد الأتراك «اليوم شعرنا بانفصال سوريا عنا»، وكأن سورية كانت هي الحصري فقط، أو أن فكر سورية موجود في هذا الرجل دون غيره.

حين عاد ساطع الحصري إلى دمشق كان في التاسعة والثلاثين من العمر، وكانت دمشق عندها تعيش أفراح قيام الدولة العربية بقيادة الأمير فيصل بن الحسين. ولم يكن اسم الحصري وشهرته غائبين عن الوطن، وكان له شعبية كبيرة بين الناس العاديين والمفكرين، وحتى بين السياسيين. استقبله الأمير فيصل قائلاً: «كلما كنت أقرأ لك وأسمع عنك، كنت أتخيلك شيخاً متقدماً في السن، ولقد سررت جداً من مشاهدتك هكذا. من حسن حظ الأمة العربية، سيكون أمامك مجال واسع لتخدمها في حياتها الجديدة».

تسلم الحصري منصب مدير عام للمعارف، ولم يكن أمامه سوى الإسراع في عملية تعريب التعليم، الذي عملت السلطنة على تتريكه. وكان لا بد من جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية التي يجب التعامل بها بشكل رسمي في المدارس والدوائر والدواوين. وتم ذلك التحول بسرعة، بعد أن أحدثت الحكومة العربية دورات خاصة للموظفين يتعلمون من خلالها الكتابة بالأسلوب العربي، وألفت لجاناً مهمتها البحث في أمهات الكتب العربية ووثائق الحكومة المصرية لتثبيت مصطلحات عربية خالصة، كما تم إنشاء شعبة للترجمة والتأليف تتولى ترسيخ اللغة العربية ونقل العلوم الهامة من الثقافات الأخرى.

بدأ الحصري بجدية وحماس العمل على إصلاح التربية وبناء مؤسساتها، وأصدر مجلة باسم (التربية والتعليم)، نشر فيها المقالات التربوية والتعليمية والوطنية. وسع أعمال ديوان المعارف، وأحدث المجمع العلمي العربي، وألحقه بديوان المعارف.

أصبح الحصري وزيراً للمعارف، ثم غادر يوم احتل الفرنسيون سوريا، وأمروا الملك فيصل بمغادرة البلاد، فاصطحب معه وزيره ساطع الحصري، الذي رافقه في رحلاته بين العواصم الأوروبية.

توجه فيصل إلى لندن بدعوة من البريطانيين، وكان الحصري قد غادره وتوجه إلى مصر. وبما أن مصر سبقت البلدان العربية في مجالات التعليم باللغة العربية التي يعتبرها الحصري ركناً هاماً من أركان دعوته؛ فقد انصرف إلى دراسة النظم التربوية فيها، فتكشف له خلل اعتبره خطيراً، وهو إهمال تدريس مادة التاريخ في المدارس الابتدائية، وهو بنظره الركن الثاني من الأهمية في تكوين شخصية الأمة، وكذلك إهمال العلوم الطبيعية، التي يعتبرها من العلوم التي تساعد على تفتح المدارك العقلية وتنمية القدرات. وقد علل ذلك في مذكراته: «لأننا نحن الشرقيين ميالون إلى الخيالات والكلاميات بعوامل عديدة، أثرت - ولا تزال تؤثر- في تربيتنا منذ قرون، وهذا ما يجعلنا أشد افتقاراً من سوانا إلى العلوم التي تعدل هذا الميل فينا». وقد آثر - حرصاً على مصلحة مصر وحبها- أن يقدم للمسؤولين المصريين فيها اقتراحاته بخصوص ما يراه واجباً من إصلاحات.

وفي العام 1921 لبى ساطع الحصري دعوة الملك فيصل بعد أن عين ملكاً على العراق، فتوجه إلى بغداد ليعمل معاوناً لوزير المعارف. وبما أنه كان يترقب هذه الدعوة، فقد عمد إلى دراسة تاريخ العراق، وقابل العديد من الثوار العراقيين في القاهرة، كعادته في الدراسة والاستكشاف قبل المبادرة. وحينما وصل إلى العراق، ظل ستة أشهر يدرس ويستكشف ويقوم بجولات في العراق. وحدد بدقة واقع البلاد، والمشاكل التي تحتاج إلى حلول جذرية للنهوض في مجتمع سكوني يتحرك العالم خارجه باطراد. كما تصور الحلول الممكنة والعقبات التي تواجهها.

عمد البريطانيون، كعادتهم، إلى تمزيق المجتمع العراقي. وبالإضافة إلى هذا كان وزير التعليم العراقي يعارض تعليم البنات، وكان المستشار البريطاني لوزارة المعارف العراقية جامد الفكر متعجرف الطبع، وقد عارض تعيين الحصري معاوناً لوزير المعارف، لعلمه أنه سينتهج خطة في التعليم تتعارض مع النظام التعليمي الذي وضعته الإدارة البريطانية. ورفض الحصري تولي منصبه إلا بعد إبعاد المستشار البريطاني إلى فلسطين، فتدخل فيصل لدى المندوب السامي البريطاني الذي أمر بنقل المستشار البريطاني إلى فلسطين، غير أن المستشار البريطاني لوزارة المالية ووزيرها «صاصون حسقيل» تآمر على الحصري، وأقنع مجلس الوزراء بإلغاء وظيفة معاون الوزير بحجة توفير النفقات، وإحلال وظيفة مدير المعارف العام محلها على ألا يشغلها إلا عراقي. إلا أن الملك اعتبر الحصري عراقياً، وعينه في هذا المنصب. عندها دأب الحصري على رفع مستوى التعليم بهمة لا تعرف الفتور، فوحَّد التربية والتعليم في مدارس الحكومة والمدارس الأجنبية والطائفية، ووجه التعليم وجهة وطنية قومية، ووضع العديد من الكتب من تأليفه بين يدي الطلاب، كما ألف كتاب (أصول التدريس) وفق أحدث النظريات التربوية وطرائق التعليم. وليس هذا فحسب، بل قام باستقدام المعلمين العرب من خارج العراق.

أثارت إصلاحات الحصري العديد من الناقمين المتضررين، إضافة إلى الدوائر البريطانية، فقرر الانصراف إلى التعليم في دار المعلمين العالية. وكان يهدف رفع كفاءة الخريجين منها، وهو الذي بادر بتأسيسها من قبل لتأهيل المعلمين. لكن البريطانيين رأوا في دار المعلمين بؤرة الاختمار الوطني، فألحوا على إغلاقها حتى تم لهم ذلك. بعدها تولى رئاسة كلية الحقوق وبدأ العمل على

تطويرها، غير أن وفاة الملك فيصل حدت من نشاطه، وأفسحت المجال أمام الناقمين عليه، فتم تعيينه مديراً للآثار القديمة، بقصد إبعاده عن النشاط التربوي، كما بدأ الخلاف بينه وبين نوري السعيد وعبد الإله، المتواطئين مع البريطانيين. وبعد ثورة رشيد عالي الكيلاني وإخفاقه، انصبت عليه النقمة، فاقتيد إلى قطار متوجه إلى حلب، فوصلها مجرداً من حقوق التعاقد والمعاش.

أمضى الحصري عشرين عاماً في العراق، بعد أن درس قواعد النهضة التعليمية والثقافية وفجر النزوع القومي في أجياله، وقد سجل تجربته في كتابه الضخم بمجلديه والبالغ ألفاً ومئتين وخمسين صفحة. وكانت المناصب التي تسلمها في العراق:

- معاون وزير المعارف.
- مدير المعارف العام.
- أستاذ علم التربية في دار المعلمين العالية في بغداد.
- مراقب التعليم العام.
- عميد كلية الحقوق ومدير الآثار القديمة.

استقر ساطع الحصري في بيروت، مخلفاً وراءه في العراق مكتبته الخاصة، على غناها ووفرة مصادرها ومراجعها التي يحتاج إليها، والتي وصفت بأنها من أغنى المكتبات. كان يشعر بالمرارة لفقدها، خاصة بعد أن قرر إعادة الاعتبار لعالم الاجتماع العربي «ابن خلدون» الذي كان من أحب الشخصيات التاريخية إليه، وكان ابن خلدون قد تعرض لحملة ظالمة من الدارسين الغربيين والعرب على السواء، ففي خطبة ألقاها وزير المعارف العراقية على المعلمين العراقيين، دعا فيها «إلى نبش قبره وإحراق كتبه»، لأنه نعت العرب بأوصاف تحقر من شأنهم. وقد كتب الحصري يومها عدة مقالات نشرها في العراق ولبنان، نفى هذه التهمة عن العلامة العربي الذي هاجمه لصوص البادية وقطاع الطرق في أسفاره. وذكر هذه الحوادث في مقدمته، وبين الحصري أن أوصاف العرب في المقدمة إنما تعني هؤلاء الأعراب الذين أثرت فيهم قسوة البادية ولم يعرفوا الحياة الحضرية، أما الغربيون ومن خلال تمركزهم ونكرانهم لجهود الآخرين الحضارية وتعاليهم على علوم

الأقوام الأخرى فقد كانوا يقللون من شأن ابن خلدون كمؤسس لعلم الاجتماع، متهمينه بالجبرية، وقد فند الحصري هذه المزاعم الظالمة.

ويعتبر الحصري أن العرب المعاصرين مقصرون في حق ابن خلدون، الذي يعتبر من أعظم المفكرين، لذلك انكب على دراسة مقدمته دراسة مستفيضة ورائدة، أثمرت كتاباً من جزأين تحت عنوان (دراسات عن مقدمة ابن خلدون) وصفه أحد المفكرين بأنه قد أدى خدمة لذكرى مؤلفها العظيم، وأنه أثبت أن ابن خلدون هو مؤسس فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع معاً، وأنه جاء قبل عصره بأجيال، وأنه أول من عالج القضايا الاجتماعية بأسلوب علمي، وأول من تكلم عن أثر الحياة الاقتصادية في تطور التاريخ، وأول من قال بخضوع الحوادث الاجتماعية لروابط طبيعية ضرورية، وأول من تكلم عن الرابط الاجتماعي، وأوضح تكوُن الجماعات والدول، وبحث عن طبائع الأمم وسجاياها. وبلغ من تقدير الحصري لابن خلدون أن سمى نجله باسمه، وكان من أحب الأسماء إليه ويشعر بالغبطة عندما ينادونه «أبو خلدون».

وقد أسهب في الحديث البليغ عن مكانة ابن خلدون في فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع وقارنه بأعلام فلاسفة الاجتماع، كما قارن مقدمته بـ (روح القوانين) لمونتسكيو، ولا يتردد قارئ ذلك الكتاب الأنفس، في الحكم بأن ابن خلدون أحق من أي مفكر وفيلسوف بلقب مؤسس علم الاجتماع.

لم يلبث أبو خلدون أن عاد إلى دمشق عام 1944، بدعوة من الحكومة. تسلم وظيفة مستشار لوزير المعارف. ومن ثم انهمك في دراسة كافة الشؤون المتعلقة بالتربية والتعليم والثقافة العامة والآثار، واتفق مع رئيس الوزراء آنئذ على توثيق وتنظيم العلاقات الثقافية ما بين سوريا والبلاد العربية لتحقيق الوحدة الثقافية، التي كان يراها إحدى الخطوات نحو الوحدة الشاملة، وتعريب النظام التربوي تعريباً كاملاً، واجتثاث ما علق به من شوائب الانتداب الفرنسي.

أجرى مشاورات عامة مع كافة العاملين والمهتمين بالتربية والشؤون الثقافية، وانتهى إلى أن قدم ستة عشر تقريراً في إصلاح التعليم، وصفت بأنها أحدثت دوياً في أرجاء الوطن العربي، وظل لمدة ثلاث سنوات استكمل فيها مشروعه التعليمي، كان له أعظم النتائج وأعمق الآثار في تطوير سورية وتقدمها الثقافي. إلا أن

الفرنسيين الذين ناصبوه العداء من قبل، أثاروا ضده المتغربين والناقمين، وخرجت مظاهرات طلابية ترفع شعارات العداء لإصلاحاته. عندها قرر الاستقالة من منصبه، وغادر البلاد نحو بيروت، ومن ثم القاهرة، التي وصلها في الخامس والعشرين من شهر شباط 1947.

حين وصل الحصري إلى القاهرة كان قد أصبح اسماً لامعاً في عالم الثقافة العربية، وصار ينظر إليه بوصفه فيلسوف القومية العربية. عمل في التدريس وأسس معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، والذي ما زال يعمل حتى الآن.

تركزت جهود ساطع الحصري في القاهرة على استكمال منظومته الفكرية في القومية العربية، حيث ألف أهم كتبه، وألقى محاضرات هامة في هذا الموضوع، وعمل في الرد على دعاة الإقليمية والانعزالية والنزعة الفرعونية، وغيرها من الحركات. كل هذا إلى جانب أعماله الوظيفية في الجامعة العربية ولجانها، وإدارته لمعهد البحوث والدراسات العربية العالية الذي أنشئ بمساعيه.

عمل أبو خلدون على إصدار حوليات الثقافة العربية، التي جاءت في ستة مجلدات ضخمة، كل منها أكثر من خمسمائة صفحة، وهي شبه موسوعة تضم مجموعة من المعلومات والوثائق الأساسية عن أوضاع التعليم والاتجاهات الثقافية في مختلف أقطار الوطن العربي. وكان هدفه من هذه الحوليات، إزالة الفوارق الثقافية بين البلاد العربية، لأن الوحدة الثقافية والتربوية عنده مقدمة لا بد منها للوحدة العربية. كما كان يؤلمه، أن الثقافة في الوطن العربي متنوعة تنوعاً شاذاً، وبصورة خاصة تلك الأقطار التي كانت ترزح تحت نير الاحتلال، الذي بحكم هيمنته كان يوجه الثقافة والتربية وجهة تخدم مصالحه على حساب المصلحة العليا للأمة العربية، وبالتالي فإن نظم التعليم واتجاهات الثقافة في تلك الأقطار، لم تكن نتاج طبيعة البلاد الأصلية، إنما كانت من نتاج السياسات الأجنبية المسيطرة. ورأى أن المصلحة العربية تقتضي إزالة كافة الفوارق الثقافية والتعليمية، وأن نهوض الثقافة وتوحيد النظم التربوية المنتجة للثقافة، سيؤدي بالضرورة إلى توحيد الأمة.

ساهم الحصري في إنشاء متحف الثقافة العربية، ومهمة المتحف عنده: إظهار الفروق القائمة بين نظم التعليم ومنهاج الدراسة في مختلف البلاد العربية، للسعي من أجل إزالة تلك الفروق. لتستفيد الدول العربية من تجارب بعضها في هذه الميادين.

رغم كل الدراسات التي قام بها الحصري، ورغم كل جهوده في تنمية عمل معهد البحوث والدراسات، فإن أمله خاب بهذا المعهد الذي نهشته البيروقراطية. فقدم استقالته وتفرغ للكتابة والتفكير، مقيماً في غرفة متواضعة في فندق لافينواز بالقاهرة، يعيش حياة الكفاف، رافضاً أية مساعدة مادية من أحد.

في مصر، البلد الذي أحبه، يؤلف الحصري أهم مؤلفاته القومية (محاضرات في نشوء الفكرة القومية)، (آراء وأحاديث في القومية العربية)، (العروبة بين دعاتها ومعارضيها)، (العروبة أولاً)، (ما هي القومية)، (الإقليمية بذورها وجذورها)، ولكن جميع هذه الكتب التي ألفها في مصر قد نشرها في بيروت.

قيض للحصري أن يعود مرة أخرى إلى بغداد ويلتحق بابنته، وهناك في بلاد الرافدين يبدأ بتدوين مذكراته، وكأنه أحس أن الأجل يعاجله، فيصدر (مذكراتي في العراق) ويشرع بكتابة مذكراته في الدولة العثمانية وسوريا ومصر، ولكن المنية عاجلته، فلفظ أنفاسه الأخيرة في الرابع والعشرين من كانون الأول 1968.

رحل الحصري، وقد شهد الطعنات تترى في جسد آماله: احتلال الفرنسيين لدمشق، احتلال فلسطين وقيام دولة إسرائيل، انفصال الوحدة السورية - المصرية، هزيمة حزيران.

آمن الحصري بأن العرب أمة واحدة. وهو لكي يدلل على إيمانه هذا، راح يؤسس له نظرياً. فالأمة كائن حي يقوم على اللغة والتاريخ. فاللغة حياة الأمة، وإذا فقدت الأمة تاريخها فقدت شعورها.

ما الذي جعل الحصري يؤكد ضرورة توافق اللغة والتاريخ بوصفهما مقومين أساسيين حتى تتحقق الأمة؟ ذلك أنه كان يفكر بالأمة عموماً، وعينه على أمته. فالعرب يتوافرون على هذين المقومين: اللغة العربية، والتاريخ الموصول. أي وسيلة التواصل- اللغة، والذكريات المشتركة - التاريخ.

ولهذا رفض الحصري مقومات الأمة غير المتوفرة عند العرب، كالعامل الاقتصادي عند ستالين والشيوعية عموماً. ومن المعروف أن تفسير نشوء الأمم بالعامل الاقتصادي كان شائعاً آنذاك، وما زال يمتلك قيمة معرفية. ذلك أن وحدة السوق قد كونت وحدة الأمم.

ولما كان العرب في حال غياب السوق، ولما كان القول بغياب الأمة بغياب العامل الاقتصادي فيجب إذاً إلغاء هذا العامل من مقومات الأمة.

ولما كان الحصري علمانياً بامتياز أي يؤمن بفصل الدين عن الدولة، فإنه كان يتردد كثيراً في اعتبار الدين عاملاً من عوامل الأمة. ونحن إذ نعرف أن الحصري هو ابن بلاد الشام التي تنطوي على تنوع ديني وطائفي، فإنه لم يجعل من الإسلام عامل أمة، إلا بوصفه ثقافة من الثقافات السائدة في الوطن العربي.

إنه داعية لرابطة قومية، يعتبرها هي الأقوى والأبقى، ذلك أن هذه الرابطة توحد جميع أبناء الأمة بمعزل عن انتماءاتهم الدينية والطائفية، لا سيما أن الإسلام دين أممي كما هو الدين المسيحي، تعتنقه أقوام متعددة وقوميات مختلفة.

والمثقف القومي هو مثقف علماني بالأصل، مثقف يريد للأمة أن تتجاوز عصبياتها التقليدية لقاء عصبية واحدة هي القومية. ولقد كان الحصري بهذا الجانب، استمراراً لمفكري مؤتمر باريس، كعبد الغني العريسي، وأحمد طيارة، وعبد الحميد الزهراوي وندرة بك...إلخ. وهو عبر إيمانه بالفكرة القومية، يؤمن بالوحدة العربية أي بدولة الأمة الواحدة، ولهذا وقف ضد كل النزعات الإقليمية سواء كانت النزعة القومية السورية، أو النزعة المتوسطية التي أطلقها طه حسين.

والحق أن الحصري رغم كل علميته، كان ينطوي على شيء من الرومانسية إذ حسب المرء أن يؤمن بالقومية العربية، وبالوحدة العربية حتى تتحقق دولة الأمة. وهو في هذا لم يختلف عن ميشيل عفلق الذي أسس البعث من أجل الوحدة العربية. لكن الحصري وقد أدرك الدور الخطير الذي قام به العدو الخارجي وعاصر التجزئة وكيفية حصولها، فقد طرح ضرورة مقاومة العدو الخارجي، والقضاء على كل آثاره وخاصة التجزئة السياسية والقوى ذات المصلحة فيها.

لقد صدر الحصري في وعيه القومي وفي نشاطه العملي عن آمال لم تنقطع أبداً رغم كل ما شاهده من مآس وطنية وقومية تبعث على اليأس والقنوط، بل قل إن الحصري هو أعظم المتفائلين في تاريخ الحركة القومية العربية. فقبل أن يرحل قال لإحدى الصحف: «ستتحقق الوحدة العربية الشاملة في يوم من الأيام، لا شك في هذا. إنها الضمان الوحيد لحياة هذا المجتمع العظيم المنقسم إلى دول ودويلات بينها حدود مزيفة، رسمتها مساومات الاستعمار ومناوراته ومصالحه ومعاهداته. إن الاستعمار سينسحب وستفنى كل مخلفاته حتماً، كل ما أتمنى على الله أن أعيش حتى أرى ذلك اليوم».

وفي المستوى الأخلاقي، كان الحصري صادقاً، متفانياً من أجل أهداف كبرى، مخلصاً إخلاصاً مطلقاً لما يعمل من أجله: التنوير والوحدة والتقدم، متعففاً متحرراً من الأنانية، أو أية مصالح فردية ضيقة، ولهذا كانت لديه وحدة القول والفعل.

لنستمع إليه يقول: «إن أهم وأعم الميول النفسية التي تعارض الوطنية وتعاديها بهذه الصورة الفاقعة، هي الأنانية لأنها تدفع النفوس نحو المصالح والملذات الذاتية، في حين أن الوطنية على عكس ذلك، تدعو إلى الإيثار والتضحية في سبيل الوطن والقومية. إنها تطلب من كل شخص أن يحب وطنه ويخدم أمته بكل ما أوتي من قوة، وأن يضحي بشيء كثير من راحته وهنائه في هذا السبيل، حتى إنها تطلب منه أن يوصل هذه التضحية إلى درجة بذل النفس والحياة عند اللزوم».

إن إدراك الحصري للجانب الأخلاقي من المسألة الوطنية إدراك لمعنى أن يكون المناضل الوطني أنموذجاً أمام البشر، يعني أن تكون الهيبة الأخلاقية دافعاً للناس للسير على طريق الكفاح. في حين أن من يستخدم المسألة الوطنية لمآرب ذاتية طمعاً بالمال والجاه وما شابه ذلك، فإنه لا يطعن نفسه أمام الآخرين فحسب، وإنما يطعن المسألة الوطنية ذاتها، لأن البشر إذ ذاك سيكفرون بالمسألة التي تحولت إلى تحقيق للأنانية والمصالح الفردية.

ولهذا وضع الحصري أمله في تحقيق ما يدعو إليه في النخب الوطنية الأخلاقية، في حركة المقاومة الوطنية والقومية. ولأنه رأى في عبد الناصر ذلك

البطل القومي المقاوم ورافع شعار الحرية والاستقلال والوحدة، رأى في مصر قائدة للكفاح الوطني.

مات الحصري، ولم يشهد موت البطل التراجيدي وهو في معمعان الكفاح والمقاومة لمحو هزيمة حزيران. أجل مات عبد الناصر، هذا البطل التراجيدي، وماتت معه تراجيديا الكفاح القومي. فهل يشهد التاريخ مرة أخرى ولادة فيلسوف قومي جديد وبطل تراجيدي آخر؟ لنتمثل التفاؤل الذي كان يطبع الحصري ولنحلم بالآتي، فأي حياة هذه إذا كنا نعيشها بلا أحلام؟!

كان ساطع الحصري مؤمناً بمستقبل الأمة العربية ووحدتها، التي يرى أنها محتومة، ورغم أن نكسة حزيران قد حركت فيه الآلام والمواجع على الأمة المشتتة والمهزومة، لكنها لم تستطع أن توصله إلى حافة اليأس، لذلك كانت سنوات عمره الأخيرة أكثر خصوبة وعطاء، حيث انعزل فيها للبحث والتأليف، وأصدر العديد من الكتب التي تتناول قضية أمته ومستقبلها بحب غامر، وإيمان عظيم. وبرحيله فقدت الأمة العربية واحداً من أخلص أبنائها، أمضى عمره المديد في خدمة قضاياها بعزيمة لا تلين، ولا تعرف الكلل واليأس. رجل امتاز بفكر ثاقب وعقل مستنير، وتمثَّل ثقافة عصره وعلومه، وكانت حياته جهاداً واجتهاداً ومقاومة عنيدة لقوى الهيمنة الاستعمارية البريطانية والفرنسية، وواجه الدعوات الانعزالية والإقليمية، ورسخ مفهوم الثقافة لتحقيق شخصية الأمة وهويتها. كان ينظر إلى المستقبل العربي نظرة من يريد أن يكون هذا المستقبل خالياً من الفقر والقهر والتخلف، وانتهى إلى نتيجة أن قوة العرب في وحدتهم؛ فالوحدة هي الطريق الوحيد للنهوض بهذه الأمة ذات الإمكانات الهائلة، وبغيرها لن تكون هذه الأمة قوية. فالأمة العربية تشترك في اللغة والتاريخ.

إن منظومته الفكرية تخلو من أي حديث مباشر عن الديمقراطية والعدالة الاجتماعية من وجهة نظر أيديولوجية، وتشكل هذه القضية أضعف حلقة في منظومته الفكرية، غير أننا لو نظرنا إليه من خلال مرحلته الزمنية وحساسيته من الانتماءات السياسية والحزبية الضيقة التي تسيرها الأيديولوجيات، فسنجد أنه كان يشيد البنى الأساسية للفكر القومي العربي، للحاق بالركب الحضاري من خلال حرق المراحل وشيوع التعليم، ورفع الظلم والحيف الاجتماعي.

إنه مفكرٌ حرٌ، تطلع أبداً نحو المصلحة العليا لأمته العربية ونهضتها، وتأسيس حداثتها بالقول والفعل، وانشغاله العميق بالثقافة والتربية والعلوم الإنسانية. وقد قال الحصري مرة: «إن كل من يتكلم العربية هو عربي، وكل من ينتسب إلى هذا الشعب، بشكل أو بآخر، هو عربي. إن كان لا يعرف ذلك، أو كان لا يعتز بعروبته، توجبت علينا دراسة الأسباب التي أدت إلى تلك الحالة. قد يكون ذلك ناتجاً عن جهله - عندها علينا أن نعلمه الحق. قد يكون ذلك ناتجاً عن عدم وعيه أو عن كونه مخدوعاً - عندها علينا أن ننبهه ونثبته. قد يكون ذلك ناتجاً عن أنانيته - عندها علينا أن نعمل للحدٍّ من تلك الأنانية». والحصري ليس مجرد مفكر قومي يطرح آراءه على الآخرين كي يترجموها إلى واقع، بل هو مفكر واقعي وعملي.

د. أحمد برقاوي

بعض مؤلفاته

- آراء وأحاديث في الوطنية القومية.
- محاضرات في نشوء الفكرة القومية.
- العروبة بين دعاتها ومعارضيها.
- العروبة أولاً.
- الإقليمية بذورها وجذورها.
- التطبيقات الزراعية.
- علم الحيوان.
- علم النبات.
- معلومات زراعية.
- دروس الأحياء.
- أصول التدريس.
- دراسات عن مقدمة ابن خلدون.
- ما هي القومية؟
- مذكراتي في العراق.

علـي الـدرويـش

شيخ الموسيقا العربية

(1884 - 1952)

يصنّف الشيخ علي الدرويش كواحد من أكبر الموسيقيين والباحثين في الموسيقا العربية؛ إذْ له فضل لا يُنسى في تطوير الموسيقا العربية، وحفظ تراثها من الضياع، من خلال الجهود الكبيرة التي بذلها لجمع هذا التراث وتدوينه؛ إضافة إلى العلوم الموسيقية الواسعة التي كانت محفوظة في الصدور، ومن ثمَّ كانت مهددة بالضياع بوفاة حاملها؛ فقام هو بجمعها في كتاب كبير.

ولد عام 1884 في حلب، وتعود جذوره إلى مدينة المنوفية بمصر، حيث جاء جده علي إلى سورية ضمن حملة إبراهيم باشا التي استمرت ما بين عامي (1831 . 1840)؛ وفي حلب تزوج واختار الإقامة فيها. وأنجب ولده إبراهيم الذي أنجب بدوره الشيخ علي الدرويش؛ وكان إبراهيم منتسباً إلى دراويش الطريقة المولوية، ومن هنا جاء لقب الأسرة بالدرويش.

منذ صغره تعرف علي الدرويش على الإنشاد الديني في حلقات الذكر ضمن التكية المولوية بحلب؛ فكان يرافق والده لحضور الأذكار كل يوم جمعة، حيث كان يستمع إلى الأناشيد الصوفية والإفرادية التي كانت ترافقها بعض الآلات الموسيقية أحياناً، فشغف بها، ولكن آلة الناي وحدها سحرت لُبَّهُ وأسرتْهُ. وأنس فيه شيخ التكية (عامل جلبي أفندي) صوتاً جميلاً، فعهد إليه بالآذان يوم الجمعة، ثم أداء الأذان في رمضان، بينما علّمه والده الألحان والأناشيد التي تؤدى في التكية؛ وكان في حلب وقتها (عثمان بك) مؤذن السلطان عبد العزيز الذي نفاه السلطان عبد الحميد إلى حلب بعدما تولى الحكم؛ وقد لمس عثمان بك عند علي تعلقه بالناي، فعلّمه العزف عليه، كما لقنه مبادئ الموسيقا وقواعدها الأولية، والمقامات الموسيقية والأبعاد الصوتية، بعد ذلك تابع علي دراسته على يد الموسيقي اليوناني مهران السلانيكي؛ فأخذ عنه النوتة والصولفيج، وفي تلك الأثناء زار حلب

موسيقي تركي مشهور هو (شرف الدين بك)، الذي لاحظ شغف الفتى بالناي؛ فعلّمه أصول العزف عليه حتى أجاده؛ كما درس فن الغناء والإيقاع على يد كبار موسيقيي حلب أمثال أحمد الشعار وأحمد جنيد.

إضافة إلى دراسته الموسيقية، تابع علي الدرويش دراسته في المدرسة الأشرفية الابتدائية؛ وانتسب بعدها إلى المدرسة العثمانية المتوسطة لعلوم الفقه الإسلامي، ليتخرج منها بعد أربع سنوات، لقب بعدها بالشيخ نتيجة لدراسته الدينية.

بعد أن اكتملت المعارف الموسيقية لعلي الدرويش، عينه (عامل جلبي أفندي) رئيساً لجماعة الموسيقيين في (المطّرب)، والمطرَب هو المكان الذي تجلس فيه جماعة العازفين أثناء حلقات الذكر. وفي الوقت نفسه بدأ رحلة البحث والتنقيب عن أصول الموسيقا العربية؛ فدرس الموسيقا الشرقية بصورة عامة والعربية والتركية بصورة خاصة؛ وبحث عن الموشحات القديمة والأغاني المندثرة من عهد الأمويين والعباسيين والأندلسيين؛ واستقصى بدعة عن جميع الأوزان الموسيقية الشرقية؛ كما بحث عن الأغاني الشعبية والقدود الحلبية وفاصل (اسقِ العطاش)؛ ودرس رقص السماح، كما درس بشكل خاص موشحات الموسيقي السوري الكبير أبي خليل القباني.

وأتيحت له فرصة كبيرة للقيام بالمزيد من البحث والتقصي في الموسيقا الشرقية حين دعاه الأمير خزعل أمير المحمرة (عربستان)، فاصطحب الدرويش معه فرقة كبيرة للموسيقا والإنشاد، كان بينها عمر البطش، وكانت هذه أول رحلة لعلي الدرويش خارج حلب، وفي إمارة المحمرة كان من عادة الأمير خزعل أن يستضيف فرقاً موسيقية كثيرة من أنحاء الشرق؛ كان بينها فرقة موسيقية من مدينة شيراز الفارسية برئاسة الموسيقي (بليخان)، أشهر موسيقيي بلاد فارس؛ فاتصل الدرويش به حيث درس أصول الموسيقا الفارسية؛ وأخذ عنه ألحانها حتى أتقنها.

وقد بقي علي الدرويش في ضيافة الأمير خزعل سنة ونصف السنة؛ تولى خلالها رئاسة الفرقة الموسيقية للأمير، وكانت فرقة عسكرية تستخدم آلات النفخ النحاسية؛ حيث كان يعمل على تلحين مقاطع من أشعار الأمير خزعل لتقدمها الفرقة؛ وقد استغل وجوده في المحمرة فزار طهران وبومباي. واطلع بشكل واسع

على الموسيقا الفارسية والهندية؛ وفي طريق عودته إلى حلب، زار بغداد والبصرة للإطلاع على الموسيقا العربية.

أوائل عام 1914، سافر علي الدرويش إلى الآستانة بصحبة عامل جلبي أفندي شيخ التكية المولوية في حلب؛ حيث عُين عامل جلبي رئيساً للمولوية في مدينة قسطموني؛ أما علي الدرويش فدخل مسابقة أقامتها وزارة المعارف التركية لاختيار مدرسين للموسيقا؛ فتم تعيينه مدرساً للموسيقا في المكاتب السلطانية بمدينة قسطموني التي تعادل المدارس الثانوية؛ واستغل وجوده في تركيا، فانتسب إلى معهد دار الألحان، حيث تابع دراسته الموسيقية إضافة إلى علمه في التدريس. وفي المعهد درس علم الرياضيات الموسيقية والتاريخ على يد (رؤوف بكتابك)؛ وأكمل علومه في أصول العزف على الناي عند الموسيقي (عزيز ددّه)، ونال الشهادة العليا للمعهد. واستمرت إقامته في مدينة قسطموني تسع سنوات، تزوج فيها وأنجب أولاده: نديم وإبراهيم ومصطفى؛ والثلاثة ساروا على خطى والدهم في الموسيقا؛ وأبرزهم نديم. وأتقن علي الدرويش اللغة التركية التي أفادته في الإطلاع على الكتب والكنوز الموسيقية التركية، التي حمل بعضاً منها معه عند عودته إلى حلب؛ وبعد تسع سنوات تمّ تعيينه في مكتب السلطان عثمان باشا، وبقي فيه مدة سنتين، عاد بعدها إلى حلب.

في حلب ساهم علي الدرويش بتأسيس عدد من الأندية الموسيقية منها (نادي الصنائع النفسية)؛ وقام بتشكيل فرقة للموسيقا والغناء تولى قيادتها؛ وتألفت من كبار العازفين في حلب، وهم: نوري ملاح (عود)، أنطوان حجار وسامي صندوق (قانون)، عزيز حجار وأنطوان حكيم (كمان)، محمد طيفور وعبده عبود (إيقاع)، إضافة إلى عدد من المرددين، وعملت الفرقة على مسارح حلب، كما قدمت حفلاتها في دمشق واللاذقية؛ وسافرت إلى إستانبول، حيث أقامت عدداً من الحفلات، شارك في بعضها الموسيقي التركي (جميل بك طنبور) على عوده.

خلال إقامته في حلب، قام الدرويش بتدوين الألحان الشائعة التي كانت ترددها جماعات المولوية في سورية والعراق وإيران وتركيا؛ وخلال الفترة ما بين (1925 - 1927) ـ وهي الفترة التي قامت خلالها الثورة السورية الكبرى ضد

الاستعمار الفرنسي - وضع ألحان بعض الأناشيد الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي؛ منها نشيد (الزعيم) المهدى إلى إبراهيم هنانو.

وفي عام 1927، تلقى الشيخ علي الدرويش دعوة لزيارة القاهرة بدعوة من مصطفى بك رضا، مدير النادي الموسيقي الشرقي؛ ليقوم فيه بتدريس العلوم الموسيقية وأصول العزف على الناي؛ وهذا النادي أصبح يعرف فيما بعد بمعهد فؤاد الأول؛ وقد تخرج على يديه كبار الموسيقيين المصريين أمثال محمد عبد الوهاب ومحمد القصبجي ورياض السنباطي؛ أما أم كلثوم فلم تدرس في المعهد دراسة منتظمة، وإنما تلقت بعض الدروس على يديه خارج المعهد؛ كما اشترت منه إدارة النادي كتابه: (النظريات الحقيقية في علم القراءة الموسيقية) من أجل طباعته. ولأسباب غير معروفة لم يتم طبع الكتاب حتى الآن! وخلال وجوده في القاهرة، قام بتدوين الكثير من الموشحات والأدوار المصرية القديمة.

استمر علي الدرويش بالتدريس في النادي الذي تحول إلى معهد فؤاد الأول حتى عام 1931؛ عندما التقى المستشرق الإنكليزي البارون رودولف دير لينجيه الذي شغف بالموسيقا العربية؛ فعمل على دراستها، وجمع تراثها، بعدما اتخذ من مدينة سيدي سعيد التونسية مقراً له؛ حيث اتصل بمعظم الموسيقيين والباحثين العرب. وقد استحوذ علي الدرويش على إعجاب البارون دير لينجيه، لإحاطته الواسعة بالموسيقا العربية وعلومها؛ فدعاه للعمل معه في تونس، واستصدر له إذناً خاصاً من الملك فؤاد الأول، يسمح له بترك عمله في المعهد والسفر معه.

في ذلك العام (1931)، بدأت مرحلة جديدة لعلي الدرويش مع البارون لينجيه؛ استمرت مدة سبع سنوات، انتهت بوفاة البارون لينجيه عام 1938، وفي قصر الزهراء مقر إقامة المستشرق الإنكليزي بمدينة سيدي سعيد بتونس أمضى علي الدرويش معظم وقته مع المكتبة الضخمة التي جمعها لينجيه التي حفلت بالمخطوطات الموسيقية العربية والشرقية التي جمعها البارون من مختلف أنحاء العالم؛ حيث قام الدرويش بالإطلاع عليها جميعها. كما أجرى أبحاثاً موسيقية مهمة، وقام بنسخ كتاب الموسيقى الكبير بخط يده؛ وحمله معه إلى حلب حين عودته.

وفي تونس قام علي الدرويش بتدريس النظريات الموسيقية وآلة الناي في المعهد الرشيدي؛ كما تعاون مع كبار الموسيقيين التونسيين مثل محمد التريكي وخميس الترنان؛ وأقام العديد من الحفلات على آلة الناي، منها حفلته المشهورة التي رافقه فيها عازف الكمان السوري الكبير سامي الشوا في قصر الزهراء بمدينة سيدي سعيد عام 1933. وخلال وجوده في تونس اطلع على المالوف التونسي؛ وقام بزيارات إلى الجزائر والمغرب، حيث جمع ودون بقايا الألحان الأندلسية التي وصلت إلى شمالي إفريقيا، ومنها النوبات الأندلسية؛ فأرّخ الأربع عشرة نوبة أندلسية من أصل أربع وعشرين نوبة هو عددها الكامل؛ وأحضرها معه إلى حلب، ومازالت موجودة في المكتبة الوطنية بحلب، وعندما توفي البارون لينجيه عام 1938، شارك علي الدرويش في تشييعه؛ وألقى كلمة مؤثرة أمام ضريحه، تحدث فيها عن جهوده في خدمة الموسيقا العربية؛ ليعود في نفس العام إلى حلب حاملاً معه كنوزاً موسيقية هامة، وقبيل عودته أقيم له في تونس حفل تكريم منحه فيه باي تونس وساماً رفيعاً تقديراً للخدمات الجليلة التي قدمها للموسيقا العربية. قبل ذلك وفي عام 1932، شهدت القاهرة انعقاد أول مؤتمر للموسيقا العربية؛ وقام بالإعداد له وإدارته البارون دير لينجيه برعاية الملك فؤاد الأول؛ وشكلت الحكومة السورية آنذاك الوفد السوري إلى المؤتمر برئاسة علي الدرويش، وضمّ في عضويته أحمد الأوبري وشفيق شبيب، إضافة إلى فرقة للموسيقا والغناء ضمت بين أفرادها عازف الكمان توفيق الصباغ والمطرب صالح الحايك؛ لكن السلطات الفرنسية رفضت مشاركة علي الدرويش ضمن الوفد السوري بسبب مواقفه المناهضة لها؛ وقيامه بتلحين مجموعة من الأناشيد الوطنية المناهضة للمستعمر؛ وكلفت برئاسة الوفد بدلاً عنه الأب (كولا نجيت) من جامعة سان جوزيف ببيروت.

وعندما حان موعد المؤتمر، رفض المشاركون افتتاحه، وبدء أعماله؛ ما لم يشارك فيه علي الدرويش، الأمر الذي اضطر الديوان الملكي المصري إلى إرسال دعوة شخصية له لحضور المؤتمر. وعندما حضر الشيخ إلى المؤتمر، قوبل بحفاوة بالغة من المشاركين، وتم انتخابه عضواً في لجنتي المقامات والإيقاعات الموسيقية؛ وخلال جلسات المؤتمر قدم علي الدرويش عدداً من الملاحظات الفنية؛ اعتبرها

المؤتمر جزءاً من قراراته لأهميتها، وبعد انتهاء المؤتمر عاد علي الدرويش إلى تونس برفقة البارون دير لينجيه؛ ليتابع الأعمال التي سافر قبل ذلك من أجلها.

بعد رحيل البارون رودولف دير لينجيه، عاد علي الدرويش - كما أسلفنا - إلى حلب، ليبدأ مرحلة جديدة من سيرته الموسيقية، فساهم في تأسيس نادي حلب الموسيقي مع عدد من الموسيقيين؛ منهم: ممدوح الجابري ومجدي العقيلي وعمر أبو ريشة وجميل جوخدار وأحمد الأوبري. وكتب مجموعة من المقالات الموسيقية في جريدة (الدستور) الحلبية التي كانت تصدر حينها. وفي عام 1942، عُين عميداً ومدرساً في القسم الشرقي للمعهد الموسيقي بدمشق؛ واستمر في عمله عاماً كاملاً، حيث أغلق المعهد أبوابه لأسباب مالية. وفي عام 1944، توجه إلى القدس بدعوة من إذاعتها، حيث سجل لها مجموعة من الموشحات القديمة؛ ورافقه في زيارته تلك المطرب أحمد الفقش.

ثم تلقى دعوة من العراق عام 1945، للتدريس في معهد الفنون الجميلة ببغداد؛ حيث بقي هناك حتى عام 1951. وتتلمذ على يديه عدد من كبار الفنانين العراقيّين منهم: جميل ومنير بشير والمطرب ناظم الغزالي؛ كما شكل في المعهد فرقة للموشحات، كان من بين أعضائها المطرب الغزالي. وبعد عودته إلى حلب من بغداد عمل مع الدكتور فؤاد رجائي في معهد حلب للموسيقا؛ لكن عمله لم يستمر طويلاً، فقد داهمه المرض ليرحل إلى رحمة ربه في داره بحي أقيول يوم الخميس /26/ تشرين ثاني من عام 1952، عن ثمانية وستين عاماً؛ أمضاها في كفاح متواصل لخدمة الموسيقا العربية.

وضع الشيخ علي الدرويش الكثير من الدراسات والأبحاث الموسيقية، جمعها في كتاب ضخم عنوانه (النظريات الحقيقية في علم القراءة الموسيقية)، ولا زال مخطوطاً كما أسلفنا.

ويتألف الكتاب من سبعة أقسام: القسم الأول والثاني خصصهما لنظريات علم النوتة الغربية؛ والقسم الثالث يبحث في تطبيق الموسيقا الغربية على الموسيقا الشرقية، وشرح المقامات المستعملة في الشرق وتركيبها وطريقة سيرها وسلمها وكتابتها الموسيقية؛ أما القسم الرابع فيتناول الأوزان الموسيقية المستعملة في الشرق، مكتوبة ومقيدة بعلامات ومسافات النوتة الغربية؛ وفي القسم الخامس

دراسة عن الآلات الموسيقية المستخدمة في الشرق وآداب استعمالها؛ وتناول القسم السادس الموشحات القديمة وأنواعها وأقسامها؛ وأورد نماذج منها بالكلمة والنوتة، والقسم السابع والأخير تفرع إلى جزأين: في الأول تمرينات على القسمين الأول والثاني، وفي الجزء الثاني تمرينات على القسم الثالث من الكتاب.

وفي التأليف الموسيقي والتلحين وضع مجموعة من البشارف والسماعيات من مختلف المقامات الموسيقية؛ وصل عددها إلى الستين، كما لحن الكثير من الموشحات باللغتين العربية والتركية من مقامات متعددة، طُبع بعضها في الآستانة، والبعض الآخر في حلب، وقسم ثالث لم يُطبع، ويتضمن كتاب (من كنوزنا) للدكتور فؤاد رجائي عدداً من سماعيات وموشحات علي الدرويش بالكلمة والنوتة؛ وقد سجلت له شركة بيضافون عدداً من البشارف والسماعيات على أسطوانات. وخلال وجوده في القدس سجل بعضاً منها لإذاعتها؛ وسجل لإذاعة حلب عدداً من النوبات الأندلسية التي جلبها معه من المغرب العربي. وتحتفظ إذاعة دمشق حتى الآن بنسخة منها.

أحمد بوبس

صالح العلي

الرحلة الشاقة من الجمر إلى الرماد

(1885 - 1950)

كان يمكن أن يكون مروره في الدنيا عابراً؛ ولا يذكره اليوم أحد، وكان يمكن أن يقضي حياته يقرأ القرآن؛ ويكتب الشعر التقليدي، ويراجع المخطوطات القديمة التي تركها له أجداده؛ بالإضافة طبعاً إلى عنايته بأهله وأملاكه الواسعة التي كانت ستكفل له رغد العيش؛ وكان يمكن أيضاً أن تكون كبرى مآثره التحول إلى وجيه اجتماعي أو مرجع ديني محاط بمجموعة من الشبان المريدين؛ لولا أن الأقدار وضعته في عين العاصفة؛ ليدخل التاريخ من بابه العريض، بوصفه مفجر أول ثورة في وجه الاحتلال الفرنسي؛ ولكونه نجح في مقارعة هذا المحتل طيلة ثلاث سنوات ونصف؛ وكبّده خسائر هائلة في الأرواح تعد بالآلاف؛ ونجح في حشد جيش شعبي ثائر، وصل عديده إلى اثني عشر ألف مقاتل في بعض الأحيان؛ وانتصر في معارك عسكرية كبيرة نجح في التخطيط لها ببراعة، تفوقت أحياناً على براعة عدوه؛ خرّيج الأكاديميات العسكرية الفرنسية الشهيرة...

إنه الشيخ صالح العلي.

❖ ❖ ❖

ولد صالح العلي في قرية (المريقب) التابعة لمدينة الشيخ بدر في محافظة طرطوس؛ وكانت ولادته ـ حسب بطاقته الشخصية ـ في عام 1885 ميلادي؛ لعائلة عريقة في نسبها العربي الذي يعود إلى الأمير (محمد معز الدولة)، أحد أمراء الأسرة الفاطمية التي كانت تحكم مصر؛ إلى حين دخول صلاح الدين الأيوبي مصر وإسقاطه للخلافة الفاطمية؛ ومن ثم خرجت تلك الأسرة من السلطة؛ وتوزعت بين أرجاء مصر وسوريا والمغرب؛ وفي سوريا سكن أجداد الشيخ في جبال الساحل بين صافيتا وجبلة؛ وتتحدث بعض المصادر عن مواجهات دامية بينهم وبين الصليبيين، ولاسيّما في جوار قلعة الحصن؛ ذلك أن أجداد الشيخ من

عشيرة (المحارزة)، الذين استولوا على قلعة الكيمة الواقعة شرق صافيتا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري؛ وأن جده الكبير (الشيخ حامد الكيمة المحرزي)، قارع الصليبيين لمدة سبع سنوات كاملة في بداية القرن الخامس الهجري متحصناً بالقلعة إيّاها؛ في حين تحصّن الصليبيون في قلعة صافيتا المواجهة، على بعد 17 كم تقريباً.

والده هو الشيخ علي سليمان الذي كان مرجعاً دينياً واجتماعياً؛ يبت في المنازعات، ويقضي بين الناس وفقاً للأعراف السائدة، كما كان شاعراً كلاسيكياً له مدائح وإخوانيات ومساجلات محفوظة؛ كما امتاز بشعر غزلي رقيق.

وكان المؤرخ عبد اللطيف اليونس الذي عاصر الشيخ صالح طويلاً ولازمه؛ وأرخ لثورته في كتابه (ثورة الشيخ صالح العلي)، وقد روى الكثير من مناقب الأب: الشيخ علي سلمان، ومنها قصة بليغة منقولة عن الرئيس السوري هاشم الأتاسي؛ وتعود إلى بداية القرن العشرين، حينما كان الأتاسي يعمل قائمقام مدينة بانياس، فقام بزيارة قرية (المريقب)، حيث استقبله الشيخ علي ودعاه إلى مائدته مقدماً له التوضيح التالي:

- إنني لم أتغدَّ في حياتي كلها مع رجل موظف خشية أن يكون قد ظلم أحداً من الناس؛ ولكن بلغني أنّك رجل منصف وعادل وتقي، وتصوم وتصلي، وتتقي الله، ولهذا فإني سآكل معك.

ويعلق الرئيس الأتاسي قائلاً:

- تأثرت جداً بكلمات ذلك الشيخ الجليل الوقور؛ لقد كان مهيباً متصوفاً، وله مكانة كبيرة في محيطه.

أما والدة الشيخ صالح فهي (حبابة علي عيد) من قرية بشراغي في منطقة جبلة؛ ويبدو أن عائلة الأم كانت ذات مكانة رفيعة، لدرجة أنها كانت أشبه بالخزان الذي يضخ المال والرجال لمؤازرة الشيخ صالح في ثورته؛ وحتى بعد انطفاء مشروعه التحرري، وفي مرحلة التخفي، سيلجأ الشيخ صالح إلى أخواله في منطقة جبلة، كما سنرى لاحقاً.

أنجب الشيخ علي أربعة ذكور، وكان صالح الثاني في الترتيب، ومن المؤشرات الهامة على المواصفات القيادية المبكرة في شخصية صالح أنه كان في العشرين

من عمره حينما توفي والده؛ فتمّت مبايعته بزعامة العائلة والعشيرة معاً، رغم أنه لم يكن الابن البكر!

وتثقف الشاب الطموح بثقافة بيئته، وكانت دينية في الأغلب الأعم، فحفظ القرآن، وقرأ سيرة الرسول ونهج البلاغة وسيرة الأئمة..، وباختصار فإنه تسلّح بالثقافة التقليدية التي كانت سائدة آنذاك في بيئته ومحيطه؛ وينبغي هنا أن نضيف لما سبق كتابته للشعر وإرثه الذي يفيض رقة وعذوبة؛ وقد برع الشيخ في كتابة القصائد الوجدانية مثلما برع في المراسلات الإخوانية؛ ويبدو أن كتابة الشعر كانت عنصراً أساسياً ومكملاً لتلك الثقافة.

وتتحدث المصادر عن رجل صوفي زاهد، يدعى الشيخ حمدان محمود الخطيب، كان أستاذاً لصالح العلي، ومرشداً دينياً ولغوياً، وقد بلغ من مكانة الشيخ، أنه بات الرجل الوحيد الذي يملك على صالح العلي حق الطاعة.

ثم اتسعت دائرة معارف الشاب الطموح، فاهتم كثيراً بالتاريخ، وكان يحفظ تاريخ العرب وأنسابهم ووقائعهم، ويعتدّ كثيراً بعراقة نسبه الفاطمي (وهو النسب الذي سيلعب دوراً كبيراً في التقريب بينه وبين الأمير فيصل إبان حكم الأخير لسوريا؛ حيث سيعمل فيصل على مؤازرة ثورة الشيخ من بلاطه في دمشق). وبالتدريج باتت للشيخ صالح مكانة رفيعة في محيطه، بما يكفي لجعل الناس تتوافد إلى مجلسه؛ كما يقول المحامي يوسف غالة في كتابه: (الشيخ صالح العلي وكفاحه ضد المستعمرين الفرنسيين) حيث يذكر: «كان الناس يتوافدون إلى مجالسه، يستمعون إلى أحاديثه، ولم يُعرف عنه أنه تلفظ بكلمة نابية، أو نال من إنسان، كما أنه لم يكن يسمح لأحد بالنيل من إنسان في مجلسه».

وبالمحصلة، فإن مجمل المؤثرات السابقة ستخلق روحاً شفافة رقيقة للغاية، مرهفة الإحساس والشعور، تمتلك سريرة صافية، وكبرياء عنيداً، وإحساساً عالياً بالكرامة الشخصية.

ولكن ماذا لو انتقلنا إلى الشكل الخارجي؟ هنا سنصادف مفارقة ما؛ إذ يُجمع عارفو الشيخ صالح ودارسوه على أنه امتلك بنية جسدية قوية للغاية؛ وأنه كان طويل القامة، عريض المنكبين، موفور الصحة، قوي البنية، يتحدث بقوة وجرأة وصوت جهوري، وأن تربيته الدينية الصوفية، التي كانت تحضه على أن يخشوشن

(لأن النعم لا تدوم)؛ أفادته كثيراً إبان مقاومته الثورية، فحينما لا يجد ما يسد رمقه إبان المعارك الطاحنة؛ كان يصوم يومين متتاليين - وربّما ثلاثة - عن الطعام دون أن يؤثر ذلك على معنوياته وقيادته وحسن إدارته لدفة المعارك؛ فما إن يحل الظلام، وتخلد قوات الجانبَيْن إلى الراحة، حتى يلتحف السماء، ويفترش أوراق الشجر، مفكراً بما سيقوم به غداً، واضعاً تحت رأسه بندقيته ومنظاره ومسدسه.

إذن، فنحن أمام مفارقة حقيقية: بين تلك الروح الشفافة والشاعرية المتصوفة والزاهدة؛ وبين بنية جسدية قوية وصلبة إلى درجة استثنائية؛ ولا يمكن فهم هذه المفارقة بدون العودة إلى البيئة الطبيعية التي نشأ وترعرع فيها، فنحن نتحدث عن منطقة الساحل السوري التي تتجاور فيها الجبال الشاهقة مع الوديان السحيقة، وما بينهما من منحدرات وممرات وعرة.

بين جمال الطبيعة وسحرها من جهة، وقسوتها البالغة من جهة أخرى، حيث يمكن أن تستمتع رقرقة الماء العذب وهو ينسال بين الصخور؛ ويمكن أن تقضي أياماً متواصلة تحت رحمة الأمطار الغزيرة والثلوج المتهاطلة! يمكن أن تتأمل الغابات الخضراء البكر المحيطة بك من كل صوب، دون أن تجد ما تأكله، لأن كل تلك الأشجار برية جرداء.

إننا نتحدث عن بدايات القرن العشرين؛ أي حينما كان الإنسان مايزال أضعف بكثير من الطبيعة، بل إنه تحت رحمتها تماماً.

باعتقادنا أن في ذلك ما يفسر - جزئياً على الأقل - تلك المفارقة التي تحدثنا عنها آنفاً؛ فالإنسان هنا يقف وجهاً لوجه أمام هيبة الطبيعة وجبروتها وجمالها وسحرها في آن معاً؛ ولذلك فهو يحمل روحاً شفافة ومرهفة، تتذوق كل هذا الجمال الآسر الذي يحيط به من كل صوب (وتفكّر في الغيبيات والماورائيات كثيراً)؛ ولكنه يحتاج أيضاً إلى قوة جسدية (تكاد تكون بدائية)، تمكنه من مواجهة قسوة الطبيعة وجبروتها.

وهذا ما يلخّص شخصية صالح العلي، ومما له دلالة في هذا الصدد أنّ الشيخ كان يعرف كل أنواع الأعشاب البرية وأسماءها وفوائدها في علاج الأمراض؛ ويصفها للمرضى الذين يقصدونه، وكانت له معرفة واسعة بطب الأعشاب. وهو أمر تلقاه عن والدته حبابة علي عيد، وكان له لاحقاً دور كبير في علاج المجاهدين،

أثناء الثورة. وكان يقوم بتربية دودة القز وتربية الماعز وزراعة التبغ، كما كان يفلح أرضه بنفسه قبل الثورة وأثناءها وبعدها.

إلى هذه الدرجة كانت علاقة صالح العلي بالطبيعة ومعرفته بأسرارها؛ بالإضافة إلى معرفته الدقيقة بكل عناصر البيئة الجغرافية المحيطة به التي تستعصي على أي غريب وافد؛ وهي المعرفة التي ستكون عنصراً هائلاً لصالحه، خلال مقارعته للمشروع الاستعماري القادم من الغرب.

❖ ❖ ❖

في الواقع، فإن بروز اسم الشيخ صالح العلي كقائد عسكري للجبال الساحلية، لا يعود إلى وقوفه بوجه الزحف الفرنسي إلى المشرق العربي، بل إلى نهاية المرحلة العثمانية؛ ومن المؤسف أن هذه المرحلة تفتقد إلى التوثيق الدقيق؛ وإن كانت لا تخلو من إجماع المصادر المختلفة على تفاصيل بعينها.

والرواية الأكثر تردداً في هذا الصدد التي تُجمع عليها المصادر المختلفة، أنه ما إن أعلن الشريف حسين الثورة العربية الكبرى في العام 1916، حتى راحت رسله تجوب مختلف الأصقاع العربية؛ تبث فيها روح الثورة والتمرد على السلطة العثمانية؛ ومن البديهي أن تلاقي تلك الدعوة استجابة كبيرة في تلك المنطقة بالذات، التي عانت الويلات على امتداد الحقبة العثمانية؛ أي طوال أربعة قرون، ولأسباب يعرفها الجميع.

وأعلن الشيخ صالح العلي تبنيه دعوة الشريف حسين إلى الثورة العربية، وراح يشارك في بث الدعوة بين زوّاره وجلسائه. ويذهب حامد حسن إلى أن رسل الشريف حسين اتصلوا بصالح العلي؛ ووصلت الأخبار إلى السلطة عن طريق مخبريها؛ قامت بمداهمة أملاكه في قرية (كاف الجاع) المجاورة لمدينة القدموس؛ وأحرقت داره هناك، وفي طريقها أحرقت ودمرت وخرّبت القرية بأسرها؛ وما إن وصلت الأخبار إلى الشيخ حتى تناول بندقيته، وامتطى فرسه، وسارع إلى قريته المنكوبة برفقة خادمه الوحيد (سليم شاويش)؛ وهناك لاحق آخر دورية تركية منسحبة، فقتل ثلاثة من أفرادها، وهرب الباقون، وغنم الشيخ سلاح القتلى، وأعاد ما نهبوه إلى أصحاب المنهوبات.

تلك الحادثة ستكون الشرارة الأولى التي ستعلن اسم صالح العلي بوصفه ثائراً ومتمرداً؛ وستجمع حوله الرجال، بوصفه منقذاً وقائداً لحلمهم؛ وبالمقابل فإنها ستؤجّج غضب السلطة العثمانية عليه.

بعدها عمل على قطع الطريق الرئيسية التي تصل طرطوس بحماة بحكم سيطرته على إحدى عقد الطريق الهامة؛ وهي مدينة الشيخ بدر حيث مقره، غير أن أول صدام حقيقي بينه وبين الأتراك كان في قرية (النيحا) القريبة من مدينة الشيخ بدر؛ حيث أغار على قافلة للجيش العثماني، فقتل عدداً من الجنود (غير معروف بدقة)، وغنم كمية كبيرة من الأسلحة والمعدات، واضطر الأتراك إلى البحث عن طرق أخرى ينقلون عبرها رجالهم ومعداتهم؛ وكانت تلك المواجهة في ربيع العام 1918.

ويذهب الباحث (أيمن شعبان) إلى أن صالح العلي بدأ يخطّط لتوسيع رقعة المواجهة؛ فاتجه إلى جبل لبنان ليلتقي هناك الزعيم البارز (شكيب أرسلان)؛ ومن ثم ليتدبر أمر شراء الأسلحة والذخائر التي تكفل له القدرة على المواجهة. وبعد أربعين يوماً على المناوشات السابقة؛ ستحدث بين الطرفين المواجهة الحقيقية التي يمكن أن نطلق عليها اسم (معركة)؛ وهي معركة (وادي العيون) الحاسمة.

ورغم عدم وجود الكثير من التفاصيل حول تلك المعركة؛ إلا أن الثابت أن قافلة عسكرية تركية ضخمة مجهزة بالسلاح والعتاد؛ كانت تعبر الجبال الساحلية باتجاه الشمال عندما اصطدم بها ثوار الشيخ صالح العلي في بلدة (وادي العيون)؛ ودارت بين الطرفين مواجهة ضخمة أسفرت عن ثمانين قتيلاً بين الأتراك (وفق حامد حسن) أو تسعين (وفق عزت دلا)؛ وسقط حوالي خمسة وعشرين ثائراً من الأهالي (بينهم عدد من النسوة والأطفال).

بعد تلك الموقعة الحاسمة، ستحدث مواجهات أقل ضخامة - وإن كانت أكثر عنفاً - في قرى متفرقة من تلك الجبال الشاهقة؛ لعل أبرزها معركة (بريصين) القريبة من وادي العيون والشيخ بدر معاً، التي انتهت لصالح الثوار، الذين أبادوا الحامية التركية عن بكرة أبيها.

وواصل الشيخ حملته لتنظيف المنطقة من الوجود التركي بالكامل؛ وبالفعل أقلع الأتراك عن محاولتهم اختراق تلك المناطق الجبلية الوعرة؛ واستعاضوا عن

طريق طرطوس ـ حماة الذي يمر عبرها بطريق طرطوس ـ حمص الآمنة أكثر؛ وعموماً بعدها اختفى كل أثر للوجود العسكري العثماني في تلك المنطقة.

وهنا سيبرز اسم صالح العلي كزعيم شعبي وقائد عسكري في آن معاً؛ وسيحدث التفاف شعبي حوله، وسيتدفق عليه الرجال للانضمام إلى قوته المسلّحة، التي كانت في بداية تشكيلها آنذاك.

❖ ❖ ❖

انتصرت الثورة العربية بدعم بريطاني ـ فرنسي حاسم؛ ودخلت قوات الثورة دمشق، وقام السوريون بتتويج الأمير فيصل ملكاً عليهم؛ وصدّق الكثيرون الوعود الغربية، وانطلت الكذبة الكبيرة على الحالمين بدولة عربية تظلّل المشرق العربي بأسره؛ وتكون دمشق ـ مدينتهم البهية ـ عاصمةً لها. وسرعان ما انكشف الوهم الكبير، وهم المراهنة على الغرب وقيمه الحضارية والإنسانية؛ وعلى وجود عدالة في هذا العالم، ووهم أنّ النصر حليفنا في النهاية حتماً، لأنّ الحق معنا! (وهو الوهم الذي سيتكرر على امتداد القرن العشرين برمته وحتى يومنا هذا؛ من سقوط الدولة العربية بدمشق إلى ضَياع فلسطين إلى سقوط بغداد 2003)!

إذن فقد بدأ التطبيق الفعلي لمعاهدة سايكس ـ بيكو المعروفة؛ وبدأ الفرنسيون من الساحل السوري، فاحتلوا مدنه الرئيسية في بداية تشرين الثاني من العام 1918؛ (أي بعد شهر واحد من إعلان الأمير فيصل قيام الدولة العربية نيابة عن والده الشريف حسين بن علي أمير مكة، توج فيصل ملكاً على سورية في 8 آذار 1920 من قبل المؤتمر العام السوري، وكان 8 آذار العيد الوطني لسورية حتى تم الجلاء الفرنسي عنها في 17نيسان 1946)؛ وتحركوا باتجاه الجبال الساحلية؛ ما إن وصلت الأخبار إلى الريف الجبلي حتى قام الشيخ بدعوة الزعماء ووجهاء المنطقة الساحلية من جميع الطوائف للاجتماع في عرينه (الشيخ بدر)؛ وخلال الاجتماع تمت مناقشة حال البلاد من مختلف الأوضاع، وأثبت الشيخ امتلاكه وعياً سياسياً متقدماً حينما ساجل الجميع، مبرهناً على أنّ الفرنسيين قادمون لاستعمار سوريا والسيطرة عليها، وليس لضمان الاستقرار فيها.

وبعد ثلاثة أيام من النقاشات، أقرَّ المجتمعون ضرورة إشعال الثورة في الجبال الساحلية؛ والسعي لطرد الفرنسيين من الساحل كلّه؛ وتم تفويض الشيخ صالح بالقيادة، وحضر الاجتماع عبد الكريم الخيّر بصفته رسولاً من حكومة دمشق العربية؛ فقام المجتمعون بتكليفه إبلاغ حكومة دمشق بقرارهم؛ لتقوم هذه الحكومة ـ بدورها ـ بمؤازرة الثورة بالسلاح والعتاد والمؤن.

فعندما وصلت أصداء مقاومة الشيخ صالح للأتراك إلى أسماع الأمير فيصل؛ سارع بإرسال وفد يمثله، ويحمل الهدايا للشيخ، ورسالة تدعوه لزيارة دمشق، والتباحث فيها بشأن الاحتلال الفرنسي للساحل. لبّى الشيخ صالح الزيارة، واجتمع بفيصل الذي منحه الدعم الضروري لإشعال نار الثورة؛ وبعدها دعا الشيخ إلى الاجتماع الذي أشرنا إليه آنفاً في مدينة الشيخ بدر؛ حيث تم الاتفاق على إعلان الثورة، وتفويض صالح العلي بقيادتها.

على أية حال، فإن أنباء الاجتماع سرعان ما وصلت إلى القيادة الفرنسية؛ فألقت القبض على بعض من حضروه، وزجّت بهم في السجن، ومنهم (أحمد المحمود ومحمد إسماعيل وإسبر زغيبي). وقام قائد حامية بانياس الفرنسية بدعوة الشيخ صالح للاجتماع به؛ ولكن الشيخ الحذر الممتلئ ريبة وشكوكاً في النوايا الفرنسية رفض تلبية الدعوة؛ وأثبتت الوقائع اللاحقة صحة شكوكه وريبته؛ فما إن عرف الفرنسيون برفضه دعوتهم حتى سارعت القيادة الفرنسية في القدموس إلى إرسال كتيبة مشاة مدعومة بالمدفعية؛ لاحتلال مدينة الشيخ بدر، واعتقال الشيخ صالح، والقضاء على فكرة الثورة في مهدها.

وصلت أخبار التحرك الفرنسي إلى الشيخ الذي فوجئ بسرعته؛ إذ لم يكن مهيئاً بعد لمواجهة مثل هذه الحملة المدجّجة؛ وكان يملك ـ بقدر ماهو ـ بضعةَ رجال، وعدداً أقل من البنادق الألمانية القديمة، وذخيرة غير كافية، ولكنه وجد ألا مناص لديه، ولا خيار سوى المواجهة، فاندفع مع رجاله القلائل لملاقاة الحملة الفرنسية قبل وصولها إلى (الشيخ بدر)؛ وبالفعل تحصن في أحراج قرية (النيحا)، التي تبعد 6 كم عن الشيخ بدر؛ وتحيط بها الجبال من جهاتها الأربع، وكان ذلك القرار موفقاً للغاية، وينم عن عقل عسكري بارع، إذ بات في إمكانه ـ من عرينه في الأحراج المرتفعة ـ مواجهةَ أيّ تحرك معادٍ في سهل القرية المنخفض، وهو ما حدث

بالفعل، حيثُ باتت الكتيبة الفرنسية تحت مرمى الثوار، وخلال وقت قصير انتهت المعركة، وأُجبِرَ الفرنسيون على التراجع مخلّفين وراءهم /35/ قتيلاً؛ أي ثلث تعداد الكتيبة، وعشرات البنادق وصناديق الذخيرة والمعدات.

وكانت تلك المواجهة الظافرة التي تفتقر إلى أي نوع من التكافؤ العسكري، بداية طيبة للشيخ الثائر الذي ستتدفق عليه أفواج المتطوعين للالتحاق بثورته، وبدأ الشيخ بتنظيم صفوف رجاله، لاسيّما بعد أن أرسلت حكومة دمشق بعض ضباط الجيش العربي كمستشارين عسكريين للثورة.

وبعد أيام قليلة، كان الفرنسيون قد أعادوا تنظيم وهيكلة قواتهم، فأعادوا الكرّة وهاجموا مدينة الشيخ بدر ثانية، ولكن الشيخ كان مهيئاً هذه المرة لملاقاتهم بما غنمه في الموقعة السابقة من أسلحتهم، وبعديد من الرجال الذين انضموا إليه مؤخراً، ودارت المعركة طيلة نهار 2 شباط 1919. وتكشفت عن هزيمة جديدة للفرنسيين الذين انسحبوا مخلفين وراءهم في أرض المعركة عشرين قتيلاً وثلاثة أسرى وكمية كبيرة من الأسلحة والذخائر.

ومن جديد أثبت الشيخ العنيد مهارته العسكرية، وموهبته القيادية الفطرية، وحسن إدارته للمعركة، مثلما أثبت صلابته وثباته في المواجهة، وساهم النصر الجديد في اتساع شعبيته أكثر فأكثر؛ وانتشار اسمه في الأصقاع، وأدرك الفرنسيون الآن أنهم يواجهون خصماً عنيداً ليس من السهل اصطياده.

وسيكون من النتائج المباشرة والسريعة لوصول أخبار المواجهات الظافرة إلى جميع أنحاء البلاد؛ أن عمد أهالي آل البيطار وثورتهم قامت في قضاء الحفة شرق اللاذقية ـ إلى عقد اجتماع مماثل في (الشيخ بدر) قبل شهرين؛ يدعو إلى مؤازرة ثورة الشيخ صالح، وطلب المعونة من رجال الحكومة العربية في حلب؛ وبدأت المناوشات بين الفرنسيين والأهالي، واشتعلت الثورة في (جبل صهيون) قرب اللاذقية.

وستشهد هذه المرحلة أول بروز لاسم الثائر الشيخ (عز الدين القسام) الذي كان قد غادر مسقط رأسه جبلة؛ ليقيم في قرية (الزنقونة) قرب الحفة، حيث شكل نواة أولى من المجاهدين ضمت (27) رجلاً؛ ووضع خطة طموحة أكثر من إمكاناته الفعلية؛ تقوم على التوجه إلى اللاذقية لاقتحام الثكنة الفرنسية فيها؛

وسيخفق الهجوم بسبب قلة عدد المهاجمين؛ ولكنه سيكون مقدمة لإشعال انتفاضة مسلّحة في تلك المنطقة، ستستمر حتى نهاية نيسان 1919. وسيضطر الفرنسيون إلى الزحف بـ (7000) جندي مدعومين بالمدفعية والطائرات إلى حامية (بابنا) لفك الحصار عنها؛ وإثر ذلك سينسحب كل من الثوار والأهالي (الفارين من مجازر الغزاة) إلى منطقة جسر الشغور؛ وبعدها سيبدأ التعاون بين ثوار جبل صهيون والشيخ صالح العلي.

❖ ❖ ❖

أدرك الفرنسيون أنهم يواجهون خصماً لا يستهان به؛ ويهدد بقلب الطاولة على مشاريعهم المطبوخة لاحتلال سوريا؛ فسارعوا للاستنجاد بحلفائهم البريطانيين، وقام الماريشال اللنبي - قائد جيوش الحلفاء في الشرق - بتوجيه رسالة إلى الشيخ صالح العلي بتاريخ 25 أيار 1919، جاء فيها: «إن الحلفاء الذين قدموا لتحرير سوريا من ظلم العثمانيين وإعطائهم الحرية والاستقلال... لا يلقون منكم التكريم والحفاوة اللائقَين، وإن موقفكم من القوات الفرنسية يدعو إلى الخيبة والعجب».

وطلب الضابطان الإنكليزيّان اللذان قاما بإيصال الرسالة من الشيخ صالح، تمكين القوة الفرنسية المتمركزة في القدموس من العبور إلى طرطوس من خلال الشيخ بدر؛ وعدم التعرض لها.

وعُقد اجتماع سوري - فرنسي - إنكليزي في مدينة الشيخ بدر، حضره الشيخ صالح وعدد من معاونيه، ومن الجانب البريطاني الكولونيل سومرست، وعن الجانب الفرنسي الكولونيل نييجر، ولجأ الشيخ الحذر إلى خطوة تكتيكية ذكية، فوافق على طلب اللنبي السماح للفرنسيين بالعبور من مدينة (الشيخ بدر)؛ والتزوّد بالماء، ولكنه اشترط بالمقابل ألا تقف القوة الفرنسية أكثر من ساعة؛ وألا تنزل حمولة ولا تنصب خيمة. واتفق مع الفرنسيين على عقد هدنة، بشرط عدم اعتقال أحد من أبناء المنطقة.

وأمر الشيخ صالح بإخلاء مدينة الشيخ بدر، ولكنه في خطوة أثبتت مهارته العسكرية وصدق حدسه في آن معاً؛ نشر رجاله على التلال المحيطة بالمدينة الصغيرة؛ وسرعان ما اتضح أنّ الخطة الفرنسية كانت ترمي أساساً إلى احتلال

الشيخ بدر عرين الثائر ومعقله؛ وجاءت الأوامر من بيروت، فسارعت القوة الفرنسية إلى إنشاء مرابض مدفعية وحفر الاستحكامات وإقامة المتاريس؛ ثم باشرت بإطلاق نار المدافع والرشاشات على مسقط رأس الشيخ وبيوته وأملاكه؛ وسارع الشيخ إلى إصدار الأمر بالهجوم لرجاله المتربصين في التلال؛ ودارت المعركة الحامية التي انتهت بسقوط /35/ قتيلاً فرنسياً؛ وغنم الثوار الكثير من الأسلحة والعتاد.

وإثر هذه المعركة، انضمّ للثورة المزيد من الرجال؛ وجاءت وفود حكومة دمشق تحمل الإمدادات، والتحق عدد من ضباط الجيش العربي بهيئة أركان حرب الثورة. وتواصل السجال بين الطرفين دماً وناراً، وهذه المرة انطلقت الحملة الفرنسية الجديدة من طرطوس؛ وبلغ تعدادها أكثر من ألفي جنديٍّ بقيادة الجنرال جان بقصد الهجوم على الشيخ بدر واحتلالها، وكان ذلك في 15 حزيران 1919 (ينبغي أن نلاحظ هنا أن الفارق بين حملة وأخرى أيام لا أكثر؛ ما يعني قلق الفرنسيين من اتساع رقعة الثورة من جهة، وإصرارهم على إخمادها من جهة ثانية)؛ ومن جديد أثبت الشيخ الجبلي العنيد مهارته العسكرية الفطرية التي تفوقت على الجنرالات الأكاديميين! فما إن ظهرت طلائع الحملة أمام أعين الثوار الكامنين في قمم الجبال على بعد عشرات الكيلومترات؛ حتّى قام بتجهيز رجاله، وتوزيعهم على الأماكن الوعرة، ونصب الكمائن والتمويه المتقن، لدرجة أن الطائرات الفرنسية فشلت فشلاً ذريعاً في اكتشاف مواقع الثوار قبل وصول الحملة الراجلة.

وأعطى الشيخ أوامره بعدم إطلاق رصاصة واحدة قبل أن تعطي القيادة الثورية الإشارة المتفق عليها؛ وهي التلويح بعلم الثورة. وهذا ما حدث. وبعد الإشارة انقض الثوار على الحملة الغازية، واستمر القتال حتّى منتصف الليل. هنا فقط نجح من بقي من الحملة بالانسحاب عن طريق أحد المنافذ الجبلية؛ بعد أن سقط من الحملة الفرنسية ما يقارب /800/ قتيل وجريح؛ كما تم أسر /16/ جندياً، وغنم الثوار أسلحة ومعدات كثيرة.

وكان أبرز شهداء هذه الموقعة من الثوار العقيد مصطفى خير بك من قرية وادي العيون؛ وابنته عزيزة التي كانت تقف إلى جانبه بجرأة وشجاعة، تمد الثوار بالماء والعتاد والطعام، كما جُرِحَ العديد من النسوة في هذه المعركة. وعموماً فإن هذه الثورة ستشهد بروز دور المرأة الساحلية جنباً إلى جنب مع الرجل، وستبرز

أسماء العديد من النسوة اللواتي استبسلن في المواجهات، أشهرهن على الإطلاق (حبابة) زوجة الشيخ صالح العلي، التي سيأتي ذكرها فيما بعد.

وكالعادة سيأتي المزيد من الرجال للالتحاق بالثورة؛ ومبايعة الشيخ صالح على الموت، ولكن المؤشر الجديد الإيجابي هو إرسال دمشق للمزيد من الضباط والخبراء العسكريين بالإضافة إلى العتاد والمؤن والسلاح؛ ليشتد ساعد الثورة أكثر فأكثر، وتبدأ باتخاذ هياكل تنظيمية حديثة للمرة الأولى. وسيرد الفرنسيون بالهجوم على قرية (الرستة) الواقعة خارج سيطرة الثورة؛ حيث يوجد منزل الشيخ صالح ومزارعه؛ وسيعمدون إلى هدم البيت والقرية بأسرها وإحراقها.

والمؤشر الإيجابي الثاني في هذه المرحلة كان اندلاع ثورة إبراهيم هنانو في الشمال السوري؛ وسيرد أول ذكر لها في الوثائق الفرنسية في 24 حزيران 1919. وعلى الجبهة الساحلية في منتصف تموز سيعمد الفرنسيون إلى تكتيك جديد يقوم على بث الرعب في نفوس الأهالي؛ حيث زحفت قوة فرنسية كبيرة من طرطوس إلى بلدة (عقر زيتي) والقرى المجاورة لها؛ وكان ذلك أشبه بحصار لميسرة الثورة، كما هاجمت قلعة الخوابي، وأحرقت بيوت الثوار من آل عدرا (الحلفاء الموثوقين للشيخ صالح)؛ وراح الجنود ينتشرون في المواقع القريبة؛ فيصطادون كل من يقع بين أيديهم من عابري السبيل من القرى الثائرة؛ حيث يعمدون إلى قتلهم ورمي جثثهم على جوانب الطرقات؛ لبث الرعب في نفوس الأهالي وجعلهم يتوقفون عن دعم الثورة المشتعلة.

ولكن رد الفعل جاء معاكساً، فاضطرمت نار الثورة أكثر فأكثر. وعمدت القيادة الثوريّة إلى الهجوم المعاكس؛ لتطهير منطقتها من الوجود الفرنسي، وملاحقة القوات الغازية. وبالفعل بعد أيام متواصلة من المعارك الدامية انسحبت القوات الفرنسية إلى طرطوس متكبدة خسائر فادحة.

وإذا كان الفرنسيون قد هاجموا قلعة الخوابي في منتصف تموز؛ فإن الثوار سيردّون التحية بأحسن منها، ولكن في قلعة المرقب الحصينة، حيث سيهاجمون هذه القلعة في 21 تموز، وينجحون في طرد الحامية الفرنسية التي انسحبت بعد أن سقط منها ستة قتلى بينهم الملازم أول تيني؛ وعشرون جريحاً بينهم ضابطان. وسيسيطر الثوّار - حتى نهاية الثورة - على تلك القلعة الاستراتيجية التي مكنتهم

مـن اكتشـاف تحـركـات الجـيش الفرنسـي علـى امتـداد عشـرات الكيلـومترات في بانيـاس والسـاحل عمومـاً. وفي تقريـره عـن المعركـة، يصـف المقـدم (جـان) قائـد الحاميـة المهـزوم لرئيسـه الجنـرال (هـاملان) قائـد القـوات الفرنسـية في الشـرق تكتيك الثوار الهجومي بالقول: «كانت مقاومة العدو غير مألوفة، فقد كانت جبهته تتسـع بشـكل نصـف دائـري وعلـى طـول عـدة كيلـومترات، وكانـت مراكـزه جيـدة الاختيـار، وكـان رماتـه المختبئـون خلـف الصـخور أو في خنـادق علـى فتحـات جيـدة البنـاء؛ يطلقـون النـار علينـا علـى المسـافات كافـة وبدقـة مذهلـة؛ وكانـت المرتفعـات حسنة الاختيار، والمسافات محكمة، وكانت حركات التقدم والتراجع تنفذ بانتظام مـدهش» وفي نهايـة تقريـره يـورد هـذا الاعـتراف الهـام: «إن البلـد صـعب جـداً، وكـل شيء فيه لصالح المدافعين عنه».

بعد هذا التحـول الخطير في سير المعـارك، سيصـدر الجنـرال هـاملان أوامـره باسـتقدام المزيـد مـن القـوات الفرنسـية مـن طـرابلس وبـيروت؛ لتعزيـز حاميـة طرطوس، كما سيسارع للاستنجاد بحليفه التقليدي الماريشال اللنبي قائد جيوش الحلفـاء في الشـرق؛ وسـيعقد مجلـس الحـرب المشـترك بـين الحليفين اجتماعـاً في بيروت بحضـور المفـوض السـامي الفرنسـي جـورج بيكـو؛ والمفـتش كوبـان، والجنـرال هـاملان، والجنـرال بـولس، واللـنبي ذاتـه. وسـيقرر المجتمعـون إرسـال بعثـة سياسـية للتفاوض مع الشيخ صالح العلي؛ وفي حال فشـل المفاوضـات، فـإن بريطانيـا سـتزج بقواتها إلى جانب فرنسا دونما تردد؛ لإخماد الثورة المشتعلة.

وإثـر ذلـك سيوجّه اللنبي إلى الشـيخ صـالح رسـالة تحذيريـة يـأمره (!) فيهـا بالتوجه إلى طرطوس لملاقاة البعثة السياسية وإجراء المباحثات معها.

وبالفعـل ستصـل البعثـة الفرنسـية - البريطانيـة إلى طرطـوس في 16 آب 1919؛ ولكنـها لـن تجـد الشـيخ الحـذر في انتظارهـا هنـاك؛ وسـتتجه إلى قلعـة الخـوابي (18 آب) الواقعـة تحـت السـيطرة الفرنسـية؛ علـى أمـل ملاقاتـه، ولكـن الشيخ صالح بقي متحصناً في قلعة المرقب؛ وستضطر اللجنـة إلى اللحـاق بـه إلى معقلـه هنـاك في مسـاء (21 آب)، وتتضـارب أخبـار ذلـك الاجتمـاع بـين المصـادر العربية والفرنسية؛ ولكن المصادر العربية تجمع على شروط ثلاثة وضعها الشيخ صـالح لإنهـاء القتـال وهـي: إعـادة ضـم السـاحل إلى الحكومـة العربيـة وجـلاء

الفرنسيين؛ وإطلاق سراح الأسرى، والتعويض على الأهالي الذين تضررت ممتلكاتهم على يد الجيش الفرنسي.

وتظاهر الفرنسيون بقبول مبدئي للشروط، وعمت هدنة مؤقتة، إلا أن الشيخ بقي على جاهزيته وحذره، وسرعان ما بدأت الأخبار ترد عن حشود عسكرية فرنسية في وادي الإسماعيلية على ميسرة المناطق الواقعة تحت سيطرة الثوار؛ وما إن بدأ الشيخ ورجاله استعداداتهم لمواجهة الزحف الجديد؛ حتى جاءت الأخبار من الجهة اليمنى هذه المرة؛ تفيد بهجوم الحامية الفرنسية في مدينة القدموس على ممتلكات الشيخ صالح في قرية (كاف الجاع)؛ وقيامها بنهب القرية وإحراقها مجدداً.

في تشرين أول 1919، وجه الشيخ وفداً إلى دمشق لمقابلة أعضاء الحكومة العربية؛ وطلب المساعدة، وتشكلت لجان لجمع التبرعات بدمشق، وبدأ المال والعتاد يصل تباعاً إلى الثوار؛ وعلى المقلب الآخر استقدم الفرنسيون عدداً من فرقهم العسكرية من إفريقية والهند الصينية، وراحوا يدربونهم على مواجهة حرب العصابات في الجبال والغابات.

وفي مطلع العام 1920، وجه الشيخ صالح صفعتين قاسيتين إلى الوجود الفرنسي في الساحل؛ لقد أعاد إثبات الدرس العسكري القديم: خير وسيلة للدفاع هي الهجوم؛ فبعد تقييم عقلاني هادئ، سرعان ما وجد أن الخطر عليه وعلى ثورته إنما يأتي من مركزين اثنين: طرطوس التي تنطلق منها الحملات المتتالية نحو الجبال؛ ومدينة القدموس الجبلية على يمين المناطق الثورية التي احتلتها فرنسا مبكراً؛ وحولتها إلى ما يشبه الجيب المدمر للثورة.

وبدأ الشيخ بمدينة طرطوس التي وجه إليها ثلاث كتائب (20 شباط 1920)؛ وكانت حاميتها الفرنسية تتكون من 61 رجلاً من سلاح الهندسة والقناصة موزعة بين الميناء والعيادة الطبية ومصلحة الإعاشة؛ واشتعلت المواجهات الدامية، ووصلت إلى حد استخدام السلاح الأبيض، وكاد الثوار يستولون على الميناء والثكنات والمدينة بأسرها؛ لولا مسارعة الأسطول الفرنسي القريب من الشواطئ إلى التدخل؛ حيث عمد إلى قصف المدينة وضرب تجمعات الثوار؛ وتمّ إنزال البحّارة من الأسطول لإنقاذ الثكنات، وخوفاً من تدمير المدينة وإحراقها انسحب

الثوار، بعد أن كبّدوا الفرنسيين خسائر فادحة حاملين معهم كميات من الأسلحة والذخائر التي استولوا عليها من مستودع عسكري فرنسي.

بعد هذا الهجوم الناجح بحوالي عشرة أيام (3 آذار 1920) ستأتي موقعة القدموس التي ستظهر وجود جيش ثوري حقيقيّ؛ إذ سينجح الشيخ صالح في حشد 4000 مقاتل للزحف على المدينة المحصنة الواقعة على قمة جبلية تحيط بها الأودية من ثلاث جهات؛ وسيعمد الشيخ إلى محاصرتها وقطع الماء عنها؛ وتوجيه إنذار إلى قائد الحامية الفرنسية بالاستسلام؛ ورفض الأخير، ولكنه بعد بضعة أيام من المناوشات اكتشف ألا خيار لديه، فاستسلم مع حاميته. وسيرد ذكر ذلك في برقية الجنرال غورو من بيروت إلى الخارجية الفرنسية بتاريخ 17 آذار 1920.

كان ذلك إنجازاً هاماً للثورة، إذ تمت حماية ميمنتها، وإخلاء المنطقة بالكامل من أي وجود فرنسي بعد القضاء على هذا الجيب.

وسيردّ الفرنسيون على هذين الاختراقين الهامين باستخدام الطرّادة المدرعة (آرنست رينان) لقصف القرى الثائرة من البحر؛ واستقدام كتائب جديدة من المستعمرات عبر لبنان؛ واعتقال كل من يطالونه من الوطنيين؛ ونفيهم إلى كاليدونيا الجديدة وجزر المارتنيك.

وفي تقرير رفعه الجنرال غورو إلى الخارجية الفرنسية في 28 آذار 1920 يقر بأن: «هدف هذه الثورة هو إبعاد الفرنسيين، وضمّ سكان الجبل المستقلين إلى فيصل» ويذكر أنّ: «الشيخ صالح قد عُيّن أميراً للجبل، انتدبه الأمير فيصل». ويبدو أن حديث غورو لم يكن بعيداً عن الحقيقة؛ إذ شهدت الأيام التالية نقلة تنظيمية نوعية للثورة إلى الأمام؛ بعد أن وصل العديد من الضباط الموفدين من حكومة دمشق العربية، وعلى رأسهم غالب الشعلان ومصطفى الملا. وفي نيسان 1920 سيتم تشكيل فوج من المتطوعين بقيادة عزيز هارون، يحمل اسم (الفوج المللي) الذي بلغ عديده (500) متطوع من جميع الطوائف والمذاهب؛ من حماة وحمص واللاذقية وجبلة وبانياس، وسيشارك هذا الفوج في القتال حتى سقوط دمشق، في 20 تموز 1920.

أما الضابط البارز جميل ماميش الذي أوفده الملك فيصل لمؤازرة الشيخ صالح؛ فسيعمد إلى تشكيل قوة خاصة، يسميها آصف شوكت في كتابه، الذي

سيرد ذكره لاحقاً: (القوة الفدائية)؛ وكانت بمثابة رأس حربة للثورة، تضم ما يقارب 150 رجلاً، وتتركز مهمتهم في حماية طُرق الثورة، ورصد تحركات العدو، وجمع المعلومات عنه.

وستكون الموقعة اللاحقة في قرية السودة (15 كم شرق طرطوس)، حيث سيحشد الفرنسيون فرقتين كاملتين مدرعتين بالدبابات والمدفعية على التلال المحيطة بالقرية؛ ووضع الشيخ صالح خطة الهجوم المعاكس بعد أن قسم جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب هجوم؛ (وعَهد بالأخير للضابط جميل ماميش ذاته)، وكان يشرف بنفسه على سير المعارك مع القائد المساعد غالب الشعلان؛ وبدأت المعركة بداية طيبة للثوار لولا ارتكاب قيادة الجناح الأيسر خطأً عسكرياً كلّف الثورة غالياً؛ إذ تصدع جناحها الأيسر وانسحب الثوار خوفاً من التطويق؛ وضغط الفرنسيون بعدها على الجناح الأيمن الذي تراجع بدوره، ثم أصدر الشيخ صالح أمره لقيادة القلب بالانسحاب خشية الإبادة؛ وانتهت المعركة لصالح الفرنسيين، وواصل الفرنسيون هجومهم في 3 نيسان 1920؛ ودارت المعركة أياماً أثبت خلالها الثوار شجاعة وبسالة عجيبتين؛ وسارع أهالي القرى المجاورة للانضمام إلى الثورة؛ فعمد الفرنسيون إلى هدم تلك القرى بالمدافع وتدميرها.

واستمر القتال شهراً أو يزيد، نجح بعدها الثوار في طرد القوات الفرنسية، واستعادة بعض القرى التي احتلتها، وترك الغزاة خلفهم كميات من الأسلحة غنمها الثوار؛ أما القرى المدمرة، فقد سارع الثوار إلى مساعدة الأهالي في إعادة إعمارها وإيواء أهلها.

وشهد شهر أيار استمرار المواجهات الدامية؛ ويصف تقرير القائد العسكري الفرنسي (لابولانجيه) كيف استطاع الشيخ صالح تنظيم قواته مجدداً؛ لتحرير قرية (بعزرائيل) بقوة قوامها /600/ مقاتل في بداية شهر أيار. وفي نهاية تقريره يعترف: «أن الثوار ظلّوا يسيطرون على الريف، وأن الشيخ صالح يُعتبر العدو الرئيسي لفرنسا الذي يتوقف عليه كل شيء».

وفي 12 أيار، سيحاول الفرنسيون مهاجمة قلعة المرقب؛ ولكن الثوار سيردونهم على أعقابهم، ومرة أخرى يلخص (لابولانجيه) الموقف بقوله: «إن كل

شيء صامد، والأمر بمجمله يعود إلى الشيخ صالح العدو الرئيسي؛ وإذا ما تم القضاء على هذا العدو فإن الهدوء سوف يعود بسرعة».

في 25 أيار 1920، هاجم الفرنسيون قرية (كوكب الهوى) وأحرقوها؛ وشن الثوار هجوماً معاكساً فأعادوا تحريرها؛ كما أغاروا على الموقع الفرنسي في قلعة الخوابي؛ وفي حزيران ستصل التعزيزات الفرنسية من بيروت؛ وتضم قناصة جزائريين وفصائل خيّالة وغيرها.

ونصل هنا في هذا السرد التاريخي للوقائع العسكرية للثورة إلى مفصل هام؛ يتمثل في وصول وزير الحربية في حكومة دمشق العربية: يوسف العظمة إلى معاقل الثورة في الجبال؛ حيث سيجتمع بالشيخ صالح العلي في قرية (السودة)؛ وفي هذا اللقاء اليتيم بين الزعيمين الوطنيين سيتعاهدان على مواصلة النضال والتنسيق الدائم؛ وسيقدم وزير الحربية الذي اطلع على ظروف الثورة عن كثب وعداً للشيخ بإمداده بكل ما يحتاجه من سلاح ومعدات!

لن يتاح للرجل الكبير وزير الحربية أن يفي بتعهداته كاملة؛ إذ سيستشهد - كما يعرف الجميع - في موقعة ميسلون بعد أقل من شهرين، مقدماً مأثرة هائلة في تاريخ النضال السوري والعربي؛ وسيبكيه الشيخ صالح بدموع حارقة.

وبالعودة إلى ثورة الساحل فقد استشرس الفرنسيون تماماً؛ وأدركوا أن هذه الثورة - إلى جانب ثورة الشمال الملتهبة الآن بقيادة إبراهيم هنانو - كفيلة بإحباط مخططاتهم بإسقاط الحكم العربي؛ والسيطرة على سوريا، وتحويلها إلى مستعمرة جديدة لهم، فواصلوا حشد قواتهم بقيادة الجنرال (نييجر) الذي وضعت تحت تصرفه كامل القوات الفرنسية في سوريا ولبنان؛ (أي ما يفوق 30.000 مقاتل) مع أسراب الطائرات والمصفحات؛ وتلقى الجنرال أمراً بإخضاع الثورة بأي ثمن؛ وأطلقت يده تماماً.

امتدت جبهة المعركة على اتساع /30/ كم. وأمام هول العدد والعدّة الفرنسيّين فضّل الشيخ صالح إنقاذ قواته من هزيمة محتومة؛ فانسحب باتجاه الجبال المحيطة ببلدة وادي العيون؛ تاركاً خلفه مراكز استطلاع وإشغال العدو؛ وسارع أهالي وادي العيون والقرى المحيطة بها إلى نجدة الثوار؛ فالتحق بهم الكثير من المتطوعين، في حين هاجمت القوات الفرنسية مدينة الشيخ بدر؛ فأحرقت

مراكز القيادة فيها، وكذلك بيوت وأملاك الشيخ صالح ذاته؛ واتجهت شرقاً متحاشية القرى المأهولة مفضلة الوديان السحيقة؛ حتى وصلت إلى وادي العيون (12 كم شرق الشيخ بدر)، فاستطاب جنودها المنطقة، وأنزلوا عتادهم وعدّتهم، ونصبوا خيامهم، وكما يتوقع القارئ فقد نجح الكمين الذي نصبه الشيخ الثائر؛ وبات العدو تحت أنظاره ورحمته تماماً في قاع الوادي من مراكزه على قمم الجبال والتلال؛ وانهال الرصاص على الجنود المسترخين الذين صعقتهم المفاجأة؛ وسارعوا للهرب بعد أن فتك الثوار بالعديد منهم؛ وانسحب الفرنسيون إلى قرية النيحا (7 كم شرق الشيخ بدر)، ولكنّ الثوار الذين كانوا أساتذة حقيقيين في جغرافية تلك المناطق الصعبة سبقوهم إلى هناك قاطعين عليهم خط العودة؛ وغيّر الفرنسيون مسارهم باتجاه القدموس؛ فكمن لهم الثوار في بلدة (برمانة المشايخ)، حيث واصلوا اصطيادهم، وقطع الطريق عليهم، ومن جديد اتجهت (بقايا) الحملة الفرنسية غرباً نحو قرية القمصية (8 كم شمال غرب الشيخ بدر) تحت وقع نيران الثورة الهاطلة عليها كالمطر؛ وأخيراً نجحت بقايا تلك الحملة في الإفلات والعودة إلى مراكزها في الساحل؛ تاركة في أرض المعركة عدداً كبيراً من القتلى؛ وكميات هائلة من العتاد والسلاح والرواحل؛ كما نجح الثوار في أسر العشرات من الجنود بينهم عدد من الضباط؛ وفي تقريره يشير الجنرال دوهاي إلى فشل الحملة بالقول: «إنّ صعوبات التضاريس فاقت كل ما يمكن للمرء تصوره» مضيفاً: كان يجب التخلي عن مشروع عمليات منطقة شرق القدموس؛ والاكتفاء بعمليات بوليسية في المنطقة المحيطة بقواعدنا في السودة وبانياس».

بعدها سيتكرر السيناريو السابق ذاته: يستنجد الفرنسيون بالإنكليز، ويوجه المارشال اللنبي رسالة إلى الشيخ صالح؛ يطلب منه فيها التفاوض مع الفرنسيين في طرطوس؛ وسيقبل الشيخ مبدأ المفاوضات، ولكنه يرفض النزول من معقله الجبلي، وسيتم الاجتماع السوري - البريطاني - الفرنسي في مدينة الشيخ بدر، ومن جديد سيلجأ الفرنسيون إلى المراوغة ومحاولة بث الفرقة بين صفوف الثوار؛ ويغضب الشيخ فينسحب من الاجتماع ليعتكف في قرية (الرستة) رافضاً أيَّ لقاء آخر مع الفرنسيين؛ ومن ثم سيوجه الجنرال البريطاني دعوة لزيارته في الرستة على ألا يرافقه أحد من الفرنسيين!

وحدّد الشيخ للجنرال البريطاني شروطه للهدنة، وهي الشروط السابقة ذاتها: (ضم الساحل والجبال إلى حكومة دمشق، وجلاء الفرنسيين عن المنطقة الساحلية بكاملها، والتعويض عن الأضرار التي لحقت بممتلكات الأهالي)، وحمل الجنرال البريطاني الشروط إلى الوفد الفرنسي المعزول في الشيخ بدر، وعاد في اليوم التالي إلى الرستة؛ لإبلاغ الشيخ بموافقة الفرنسيين كتابياً على شروطه؛ على أن ترفع إلى القيادة الفرنسية لأخذ موافقتها عليها. وأُعلنت هدنة مؤقتة، وتشكّلت اللجان الثلاثية لتقدير الأضرار والخسائر التي لحقت بالأهالي، وتبين أن الفرنسيين لم يكن هدفهم سوى كسب الوقت بانتظار مجيء نجدة من كيليكيا؛ واشتم الشيخ الحذر رائحة الخداع مجدداً، وتم خرق الهدنة عندما قام ضابط فرنسي بشتم الدين الإسلامي أمام السكان في قرية (عقر زيتي)؛ وتم إبلاغ الشيخ صالح بالأمر؛ فوجه رسولاً يحمل إنذاراً شديداً للضابط الفرنسي؛ وما كان من الضابط إلا أن قتل رسول الشيخ؛ وما كان من الشيخ إلا أن أرسل ثلة من رجاله كمنوا للضابط فقتلوه، مع كل من كان معه؛ وتأزم الموقف مجدداً.

وجاءت الأخبار من الثوار المتمركزين في قلعة المرقب أنّ الفرنسيين يحشدون قواتهم حول بانياس للهجوم على القلعة؛ وحرمان الثوار من أبرز موقع استراتيجي على امتداد الساحل؛ فسارع الشيخ صالح إلى عقد اجتماع مع أركان حربه في القدموس لتدارس الموقف؛ واتخذ القرار باستباق الفرنسيين والإغارة على تجمعاتهم في بانياس؛ وهو ما حدث ليلتي 3 ـ 4 تموز 1920، حيث حاصر الثوار المدينة بقيادة الشيخ صالح نفسه من ثلاث جهات؛ وتم الاستيلاء عليها وإحراق دار الحكومة؛ وأخلى الفرنسيون الثكنات، وانسحبوا إلى عرض البحر تحت حماية أسطولهم الذي بدأ بتوجيه حممه نحو البيوت الآمنة؛ وهنا انسحب الثوار محملين بالغنائم.

❖ ❖ ❖

في 24 تموز 1920، فجعت البلاد بنبأ استشهاد يوسف العظمة ودخول الفرنسيين إلى دمشق واحتلالهم المدن الداخلية تباعاً؛ واهتزت النفوس للخبر في مناطق الثوار في الساحل والشمال؛ وكانت المعارك السابقة، بقوتها وعنفها، قد

استنفدت احتياطيّ الذخائر والمؤن لدى الثوار، وهاهم الآن يحرمون من دعم الحكومة العربية في دمشق.

وعقد الشيخ صالح اجتماعاً مع أركان حربه لبحث الوضع الجديد؛ وتقرر الاقتصاد بالذخيرة وإرسال الوفود تجوب المدن السورية لجمع المساعدات؛ ووفق المصادر فإن المدن الرئيسية قد لبت النداء رغم الحصار الفرنسي المحكم.

ومن تقارير الجنرال غورو نعرف أن الثوار حاصروا مدينة مصياف في 5 أيلول 1920؛ وبعد أيام سيحاول الفرنسيون مجدداً احتلال الشيخ بدر عن طريق صافيتا؛ أي من الجنوب هذه المرة، حيث ستتسلل سرية فرنسية وتشق طريقها إلى جبل القليعات الشاهق؛ لتنصب مدافعها هناك وتبدأ بقصف الشيخ بدر.

كانت المفاجأة كبيرة للثوار الذين دُهشوا من وصول الفرنسيين بسلاحهم الثقيل إلى ذلك الجبل الشاهق ذي الطريق شديد الوعورة؛ ولكنهم استفادوا من خبرتهم بالطرق والممرات؛ لمباغتة الفرنسيين الذين سارعوا لإعطاب أسلحتهم الثقيلة وتركها في مكانها والفرار بسرعة!

ثم استلم الثوار المبادرة هذه المرة، فهاجموا الموقع الفرنسي في مدينة الدريكيش؛ وأسروا الحامية، واستولوا على الأسلحة.

وكانت الخطوة التالية للشيخ صالح إرساله رسولاً يدعى (أنيس أبو فرد) إلى مقر قيادة إبراهيم هنانو في الشمال؛ يعرض التنسيق والتعاون العملياتي بين الثورتين؛ ورحب هنانو بالعرض، وتم الاتفاق على أن تقوم قواته باحتلال مدينة جسر الشغور؛ كي تصبح مكاناً لتلاقي الثورتين، ومن ثمَّ يغدو بإمكان كل ثورة الاتكاء على الآخرين؛ وهو ما فعله هنانو بالضبط في حملته على جسر الشغور؛ وتحريرها في 26 تشرين الثاني 1920.

في مطلع كانون الأول 1920، خطط الفرنسيون للهجوم على الجبال الساحلية من الغرب؛ أي من حماة نحو مصياف ومن ثم باتجاه الغرب؛ وحشدوا قوات ضخمة معززة بالمدفعية والطائرات؛ وبالفعل احتلوا مناطق الأدغال القريبة من مصياف؛ وهنا هاجمهم الثوار، وضربوا مؤخرة الحملة، وفصلوها عن المقدمة، فتقهقرت عائدة إلى مصياف، أما المقدمة فوصلت إلى قرب بلدة (برمانة المشايخ)؛

لتتم محاصرتها هناك إلى أن قدمت نجدة من المصفحات فتحت لتلك القوى طريق العودة إلى مصياف؛ وهكذا فشلت هذه الحملة الجديدة.

وأدرك الشيخ صالح أن الفرنسيين يركزون تجمعاتهم في مدينة مصياف؛ فعمد إلى محاصرتها تسعة أيام كاملة، كان الفرنسيون خلالها يلوذون بالأسوار للاحتماء من نار الثورة؛ وفي اليوم العاشر، وصلت نجدة فرنسية من حماة؛ فانسحب الثوار. تلك كانت (غلطة الشاطر) إن صح التعبير؛ إذ كان التكتيك الفرنسي يقوم على إشغال الثوار في الشرق (مصياف)؛ والقيام في الوقت نفسه بالهجوم من الجنوب في حملة كبيرة نجحت في اقتحام مدينة الشيخ بدر ومحيطها؛ وانتشرت بسرعة محرقة الأرض أمامها؛ واتّخذ الفرنسيون مقراً لهم في قلب الشيخ بدر وقرية القمصية، وقاموا باعتقال بعض رموز المنطقة بتهمة تأييد الثورة، وتم إعدامهم بعد محاكمة صورية.

تلك كانت هزة عنيفة للثورة، وسارع الشيخ صالح للاجتماع بأركان قيادته في غرب مصياف مصراً على استمرار الثورة؛ وإشعالها في شمال الجبال الساحلية. ويبدو أن أنباء المجازر التي ارتكبها الفرنسيون أثرت في نفوس البعض؛ فتراجعوا خوفاً، في حين وافقه الكثيرون، وعبر الشيخ الجبال واصلاً إلى قرية (بشراغي) في جبلة؛ (وهي قرية والدته)، لينضم إليه سكانها وسكان القرى المجاورة لها. ومن جديد سيرسل الشيخ - وقد بات موقفه حرجاً الآن مع النقص الكبير في العتاد والسلاح - مبعوثيه إلى إبراهيم هنانو، الذي سيسارع لإمداده بالسلاح والضباط المحاربين.

واشتعلت المطاردة من جديد، لقد قرر الفرنسيون ضرب الشيخ صالح قبل أن يلملم أشتات قواته المبعثرة ويكمل استعداداته؛ فبادروه بحملة قوامها /5000/ جندي إلى جبلة؛ واستنفر الشيخ صالح أهالي قرية بشراغي والقرى المجاورة لها الذين لبوا النداء؛ وسارع لملاقاة الحملة في الهضاب المطلة على (وادي فتوح) الذي ستمر الحملة فيه حتماً؛ وبالفعل نجح الكمين وهرب أفراد الحملة تاركين أسلحتهم وعتادهم وجثث قتلاهم في الوادي.

ومرة أخرى عاود الفرنسيون الكرّة، ومن الغريب حقاً أنّ تكتيك الشيخ صالح نجح في إيقاعهم بالفخ مرة ثانية؛ إنما في وادي (أبو قبيس)، هذه المرة، حيث

تكدست الجثث الفرنسية في الوادي العميق؛ وغنم الثوار جميع أنواع الأسلحة والعتاد والخيم والمؤن والألبسة والمواد الطبية.

وسجلت المنازلات اللاحقة نجاحاً مطّرداً للثوار وفشلاً متلاحقاً للغزاة، واستعاد الشيخ صالح روح المبادرة، فأرسل مفارز من قواته لمعاودة تحرير القرى والمواقع التي سقطت مؤخراً، مستغلاً انشغال الفرنسيين بالجبهة الجديدة التي فتحها عليهم في أرياف جبلة واللاذقية.

وبعد هزائمهم المتتالية وخسائرهم الباهظة عمد الفرنسيون إلى سحب معظم قواتهم من الجبال؛ ليتمركزوا على طول الساحل بين جبلة وبانياس. ويشير تقرير فرنسي وُضع في نيسان 1921، إلى توجه ثوار من الجبال الساحلية نحو وادي العاصي للمشاركة مع ثوار جبل الزاوية.

وفي تقرير الجنرال نييجر في آب 1921، جاء: «إن هجمات الثوار على الساحل منذ شهر آذار أصبحت لا تحصى؛ بل هم يهددون المدن الساحلية مباشرة».

ولكن هذه المرحلة ستشهد تحولاً نوعياً لصالح الغزاة مع نجاحهم في السيطرة على جبل (قرفيص) المطل على نهر السن؛ ما ساعدهم على التحكم بالجبهة الساحلية لمنطقة الثورة؛ وسقط عدد من الشهداء بين الثوار دفاعاً عن هذا الجبل.

بعد ذلك ستبدأ الكفة بالميل لصالح الغزاة المتفوقين تقنياً بما لا يقاس على الثوار؛ وتقدم الفرنسيون شبراً شبراً، وقرية بعد قرية، وجبلاً إثرَ آخر، وأبدى الثوار مقاومة عنيفة، يشهد عليها الجنرال غورو ذاته في تقريره المرفوع بتاريخ 14 تشرين الثاني 1921؛ حيث يقول: «إن العدو ثابت العزم، جيد التسليح، معنوياته عالية»، وهاهو يتفاخر بسيطرته على الجبال (التي كانت تعتبر متعذرة البلوغ بالنسبة لقواتنا)؛ ويتباهى بأن قواته سيطرت على أعلى قمة في الجبال (التي لم يتجرأ الأتراك على الاقتراب منها مطلقاً).

ولمعرفة أسباب انهيار مواقع الثورة، لابد من التذكير بأن السبب الأول يعود إلى نفاذ ذخيرة الثوار؛ بالتلازم مع تعزيز القوات الفرنسية بمزيد من الكتائب والأرتال والفيالق؛ (الفيلق الحادي والعشرين قناصة جزائريين، الفيلق العاشر قناصة سنغاليين، الكتيبة الرابعة من الفرقة الأجنبية، الكتيبة الثانية الهندوصينية...).

والجدير بالذكر هنا أن الجالية السورية في المهاجر الأمريكية (وبالذات في الأرجنتين والبرازيل) لعبت دوراً هاماً في إمداد الثورة بالتبرعات المادية؛ حيث تشكّلت لجان جمع التبرعات في مختلف المدن والبلدات التي يتجمع فيها مهاجرون سوريون. وبعد سقوط حكومة فيصل بدمشق، ونفاذ ثروات الأغنياء من رجال الجبل، ازداد الاعتماد على تلك التبرعات القادمة من وراء البحار.

أما تحويل تلك التبرعات إلى سلاح وعتاد وذخيرة، فقد اعتمد الثوار فيها على المجاهد (محمد الأرناؤوط) الذي تخصص بشراء السلاح من فلسطين، وتهريبه إلى لبنان ومن ثم إلى الجبال الساحلية؛ ونجح في إيصال عدة دفعات إلى أن تعاقد على صفقة كبيرة؛ تجاوز ثمنها عشرة آلاف ليرة ذهبية جمعها الثوار بشق الأنفس؛ وتم ترتيب الأمر مع وسطاء لبنانيين لإيصالها إلى حدود الجبال الساحلية؛ أي نهر الكبير الجنوبي، ووصلت القافلة الأولى محملة على أربعة عشر جملاً؛ ولكن الخبر وصل للفرنسيين عن طريق مخبريهم؛ فصادروها في قرية جنوب مدينة صافيتا، كما صادروا بقية القوافل القادمة على الطريق!

كانت تلك ضربة مؤلمة للثوار! الآن فقط أدرك الشيخ صالح أن مأثرته الكبرى على وشك بلوغ نهايتها الغسقية الحزينة.

وهكذا انتهت ملحمة رائعة سطرها شيخ جبلي عنيد؛ نجح في بث روح المقاومة والتصدي للمشروع الاستعماري القادم؛ مثلما نجح بإمكانات بسيطة لا سبيل إلى مقارنتها بإمكانات خصمه؛ وبإيمان لا يتزعزع بالحق الذي يملكه في مقارعة جيش إمبراطوريّ كبير لمدة ثلاث سنوات ونصف موجهاً إليه صفعات قاسية متتالية؛ ولمعرفة تأثير الضربات الموجعة التي وجهتها ثورة الشيخ صالح العلي للفرنسيين؛ نعود إلى كتاب اللواء آصف شوكت (الثورات السورية)؛ حيث يورد في خاتمته إحصائية لضحايا الجيوش الفرنسية في سوريا، منقولة عن دراسة للجنرال (دوهاي)؛ ففي الفترة ما بين 1 تشرين الثاني 1919 وحتى 30 حزيران 1922، سقط للغزاة في سوريا ما مجموعه (5781) قتيلاً، موزعين على النحو التالي (1984 جندي فرنسي، 137 ضابط فرنسي، 2106 أفارقة شماليين، 1421 من أهالي المستعمرات، 133 من الفرقة السورية المتعاونة مع فرنسا).

وثمة ملاحظتان على هذه الإحصائية: الأولى أنها تجمل ضحايا الغزاة في مواقع الثورتين الساحلية والشمالية؛ والثانية أنها تغفل الفترة السابقة لتشرين الثاني 1919؛ وهي الفترة التي تمتد عاماً كاملاً منذ بداية ثورة الشيخ صالح.

وبذلك انتهت مرحلة الثورة المسلحة، لتبدأ مرحلة جديد ومغايرة.

بات الشيخ الثائر في موقع حرج للغاية؛ إنه الآن بين خيارين أحلاهما مر: الاستمرار في الثورة، وهو الانتحار بعينه بعد نفاذ ذخيرته وغياب مصادر التمويل؛ سواء أكان التمويل ذاتياً (من ثروته الشخصية التي أنفقها على الثورة كحال بقية رجاله وسكان القرى الواقعة ضمن مناطق الثورة)؛ أم وطنياً (بعد سقوط الدولة العربية بدمشق وتوقف لجان الدعم وجمع التبرعات في المدن السورية الأخرى التي انشغلت الآن بمواجهة الزحف الفرنسي عليها)؛ أم دولياً (بعد توقف مساعدات وتبرعات المغتربين).

لقد نجحت فرنسا في قطع الماء والهواء عن الشيخ ورجاله؛ وعاث الغزاة خراباً في مناطق الثورة التي اقتحموها؛ فدمروا وأحرقوا كل ما صادفوه في طريقهم، وقطعوا عنها كل مدد ممكن.

أما الخيار الثاني فكان الاستسلام، وهو ما تأباه روح أبية، ونفس اعتادت التمرد والمقاومة، ومن هنا فقد ابتدع الشيخ صالح خياره الثالث: التخفي.

لقد اختبأ الشيخ في مغارات ووديان وجبال وغابات تلك المنطقة عاماً كاملاً؛ ولنا أن نتخيل أية حياة سيحياها رجل فراشه الأرض ولحافه السماء؛ ملاحقاً بلا هوادة من السلطات الفرنسية التي سرعان ما أصدرت محاكمها العسكرية الحكم بإعدامه، ورصدت مئة ألف فرنك فرنسي لمن يقبض عليه أو يدل على مكانه؛ وقامت الطائرات بإلقاء المناشير الورقية التي تحمل نص الحكم فوق القرى والمدن الساحلية، محذرة الجميع من إيوائه؛ ورفض الشيخ توريط أحد في مغامرة إيوائه، كما رفض اللجوء العلني إلى أي منزل أو قرية، كيلا يتسبب بالأذى لقاطنيها.

وتتحدث المصادر عن تلك اللعبة المميتة بين الشيخ الصلب الذي عارك الحياة وعركته التجارب والمحن؛ وبين المحتل الذي ما انفك يلاحقه كغراب؛ كم مرة داهموا مغارة كان فيها قبل قليل، وكم مرة قابلوه وجهاً لوجه فظنوه فلاحاً فقيراً

أو متشرداً بائساً (لاسيّما بعد أن بليت ثيابه وتشعثت ذقنه)، وكم مرة لجأ إلى أضرحة الأولياء، وكان فيها من يؤدي الأضحية والنذور، فأطعموه كفقير متشرد! وكم مرة حضر مجلساً دينياً لرجال الدين في القرى التي عبرها، وسمع بأذنيه الدعوات لله بأن يشد أزره في محنته، وصلى معهم ثم انسحب دون أن يعرفه أحد!

وتدارس الفرنسيون الأمر مجدداً، فاكتشفوا متأخرين الحقيقة البسيطة: إن عجزهم عن اصطياده بعد سنة كاملة من خمود الثورة والملاحقة الدائبة: يعني شيئاً واحداً وهو أن خطره مازال قائماً، وأنهم لن ينجحوا في القبض عليه مطلقاً، وأن التعاطف الشعبي معه يتزايد يوماً بعد يوم، ويهدد بانفجار ثورة جديدة في كل لحظة، وقادتهم تلك الحقيقة الأولى إلى حقيقة ثانية: حتى لو نجحوا في القبض عليه، أيهما أكثر فائدة لهم: إعدامه مع خطر نشوب ثورة جديدة واشتعال روح الثأر في عموم جبال الساحل؛ أم العفو عنه، وضمان الهدوء مؤقتاً على الأقل؟.

وتوصل الفرنسيون إلى ضرورة العفو عنه، وهو ما حدث بالفعل، وعادت الطائرات تحلق فوق القرى والمدن، ملقية المناشير التي تحمل قرار العفو التام مذيلاً بتوقيع الجنرال غورو، الذي أقسم بشرفه العسكري ألا يمس الشيخ بأذىً.

وهكذا جاء قرار العفو بمثابة حلّ مُرْضٍ للطرفين. لقد جن جنون الفرنسيين في الفترة الأخيرة؛ فخربوا ودمروا وأحرقوا الكثير من القرى لمجرد ورود شائعة تفيد أن أحداً منها ألجأ الشيخ صالح؛ ويذكر أيمن شعبان في كتابه (صالح العلي: ثورة وعقيدة) أن القومندان (رساك) كان يقذف بمن يشتبه بإيوائهم للشيخ من أعلى برج صافيتا الذي يرتفع ما يقارب الخمسين متراً!

ولابد أن روح الشيخ المرهفة كانت تتعذب وهي تتابع أخبار الضحايا الكثر الذين سقطوا دون أن يبوحوا بمكانه؛ والقرى التي أحرقت مرات عدة (كقريتي بشراغي والبودي في قضاء جبلة)؛ لأنها تضم بعض أهله، أو لأنه مر بها مروراً عابراً، فاتخذ قراره الصّعب، وأرسل موفداً إلى المستشار الفرنسي في جبلة يبلغه بقراره ومكانه؛ وسارع المستشار برفقة ضباطه إلى المكان المحدد، وهو غير مصدق للخبر، ولكنه صادف الشيخ صالح أمامه، فرفع يده بالتحية العسكرية، وأحنى رأسه أمامه، ثم رافقه إلى مقر الجنرال (بيلوت) في اللاذقية الذي استقبله باحترام شديد، ولكنه لم ينس سؤاله عن سبب تأخره في الاستسلام؛ فأجابه الشيخ بهذه

العبارة البليغة: «والله لو بقي معي عشرة رجال مجهزين بالسلاح والعتاد الكافيين لمتابعة الثورة لما تركت ساحات القتال».

وفي كتاب د. حنا توفيق بشور (من ذاكرة أبي) يصف اللقاء بين الطرفين على لسان والده العقيد توفيق بشور الذي كان مترجماً بينهما؛ وكيف بدأ ودياً إلى أن اتهمه الفرنسيون بالتعاون مع الإنكليز؛ فانتفض الشيخ الغاضب قائلاً: «أنا رجل وطني، وأفضّل الموت على اتهامي بالتعامل مع الإنكليز، لا لست متعاوناً مع أية جهة أجنبية، أنا أريد مصلحة شعبي ووطني».

وعاد الجو إلى هدوئه القلق، فطلب الجنرال (بيلوت) من الشيخ البقاء إلى جانبه ومشاطرته الحكم، ولكن الشيخ رفض العرض بحزم مذكراً الجنرال بالفظائع التي ارتكبها جيشه في القرى والمدن، وهنا وقف الجنرال غاضباً. وقال: «إننا سنحترم قرارنا بالعفو عنك، ولكن عليك أن تقيم في بيتك، فلا تغادره إلا بإذن من القيادة الفرنسية».

وتمت مرافقة الشيخ إلى طرطوس، وعند مدخل الحامية الفرنسية وقف الجنود بأسلحتهم يؤدون التحية العسكرية؛ أما قائد الحامية فاشتبك معه في ملاسنة كلامية كادت تتحول إلى عراك شخصي؛ لولا أن تم تدارك الأمر من قبل مرافقي الطرفين!

ووصل موكب الشيخ إلى عرينه (الشيخ بدر) فاستقبلته الجموع الزاحفة كما يليق بالأبطال الثائرين، وبعدها بأيام جاء الوفد الفرنسي لاستلام ما بقي من السلاح، ووقف الضابط مؤدياً التحية العسكرية، ثم قال: «لقد فوضتني حكومتي أن أخيّركم في منصب سياسي، أو وظيفة محترمة براتب وفير، أو أية خدمات شخصية مهما تكن تكاليفها».

ورد عليه الشيخ رداً يلخص الكيفية التي سيقضي بها ثلث القرن الباقي من عمره، حيث أجابه شعراً:

اتركوني في قريتي لا يراني ... أحد طالباً ولا مطلوبا
أعبد الله في الجبال بعيداً ... عن حطام يجني عليّ الذنوبا

الشيخ والمرأة

امتازت المرأة الساحلية بانعتاق نسبي تفوقت فيه على المرأة الشرقية عموماً؛ وكان ذلك منذ زمن بعيد يصعب تحديده بدقة؛ ولكن يمكن الاسترشاد بكتابات شرقية أو غربية حول هذه المسألة؛ ومنها كتاب الفرنسي (كلود كاهون) الذي زار المنطقة في العام 1878، وترك لنا كتاباً أشبه بالوثيقة التاريخية.

حينما يستضيفه القرويون، وتقدم له النساء الطعام ببساطة تذهله، وهاهما امرأتان تسكبان له اللبن الرائب. يصف المشهد قائلاً: «كانت المرأتان تتحدثان دون أن يبدو عليهما أي مظهر من مظاهر الوجل أو التوجس؛ كانتا تتحدثان بتلقائية دون فضول متطفل؛ وتظهران الكثير من الحرية الحقيقية والسامية؛ وأنا لا أستطيع إطلاق هذه الصفة على النساء من المذاهب الأخرى؛ ولا حتى على المسيحيات في لبنان اللواتي كنّ يتوارين عن أنظاري».

وبالعودة إلى الشيخ صالح وثورته يمكننا أن نشيد هنا بالعطاء المتبادل بين الثورة والمرأة؛ فالثورة عملت على دفع المرأة إلى الأمام باتجاه المزيد من الانعتاق من الأسر التاريخي، والمرأة قدّمت للثورة الكثير. وتجمع المصادر على مشاركة المرأة جنباً إلى جنب مع الرجل؛ ليس فقط في تأمين الطعام والماء للثوار وتضميد جراحهم، بل في أحيان كثيرة حملن البندقية إلى جانب الرجال؛ وأصلين الفرنسيين رصاصهن بدقة ومهارة.

وأشهر نساء الثورة على الإطلاق السيدة (حبابة العلي)، زوجة الشيخ صالح التي تُروى عنها المآثر؛ وتجمع المصادر على مجاورتها لزوجها في المعارك؛ حيث كان يملك بندقيتين، يطلق النار من إحداهما بينما تقوم هي بتذخير الثانية، وحينما تجد الوقت أمامها متاحاً، أو يكون الموقف العسكري محرجاً، تقوم بإطلاق الرصاص وإعادة التذخير من جديد، كما كانت ماهرة بإثارة النخوة وروح المقاومة في نفوس المقاتلين، وتقرّع المتقاعسين منهم قائلة: «من كان متعباً أو ناعساً فليعطني بندقيته، كي أقاتل بدلاً عنه».

وبعد أن همدت الثورة، ولجأ القائد إلى التخفي، لعبت تلك المرأة مجدداً دوراً كبيراً في استمرار تخفيه؛ ونجحت بطرق مدهشة في إيصال الغذاء والمؤن إليه في المغارات التي كان يختبئ فيها، ومنها (مغارة عين الذهب) و(مغارة بستان الصوج).

وثمة امرأة أخرى تدعى (أمّون السعد)، جاءت إلى الشيخ صالح مصرّة على القتال حتى الموت؛ ولم يجد القائد بداً من منحها دوراً مناسباً؛ فكلّفها بنقل البريد بين كتائب الثورة، وبات الثوار ما إن يرونها قادمة من بعيد بين الممرات والوديان حتى يهتفون: ها قد جاء بريد الشيخ صالح.

وسقطت شهيدات كثيرات في ساحات المعارك، أبرزهن (عزيزة خير بك) من بلدة (وادي العيون) التي سقطت مع والدها (مصطفى خير بك) وهما يقاتلان ببسالة؛ ويذكر الضابط الفيصلي المعروف (جميل ماميش) موفد الأمير فيصل إلى الشيخ صالح في شهادته عن الثورة ودور المرأة ما يلي: «وقد لعبت النساء العلويات دوراً هاماً في الثورة؛ إذ كنّ يحمين الجنود، ويحملن الطعام إلى الجبهة، وكثيراً ما كانت تجلس المرأة وراء زوجها، تجهز له البندقية، وتعبئها بالطلقات».

وعلى الصعيد الشخصي تزوج الشيخ صالح أربع مرات؛ رزق بثلاثِ بناتٍ هن حفيظة وسعاد وسهام. أما أبناؤه الذكور، فقد ولد بعضهم ميتاً، وبعضهمُ الآخر تم تسميمه أو قتله بعد ولادته. ويروى أنه أثناء وجود الشيخ في قرية القمصية عند بعض أصدقائه، أخبر بولادة طفله، وعند ذهابه تحت المطر إلى حي الرستة، فوجئ بخنق الطفل قبل وصوله.

الرجل والموقف

ثمة مواقف بعينها تلخّص جوهر الرجل الكامن فينا، وتأتي لتكثيف كل رؤيتنا لمعنى الحياة والوجود؛ وكان في حياة صالح العلي الكثير من المواقف التي إذا رُصفت بجوار بعضها البعض أمكنها تشكيل لوحة متكاملة عن الرجل؛ فقد اشتهر بتسامحه ونبله الشديدين، ولا أدل على ذلك من طريقة تعامله مع أسرى العدو. ويروي الشاعر حامد حسن في كتابه قصة بليغة بهذا الصدد؛ حينما دارت إحدى جولات المفاوضات بينه وبين الفرنسيين في الشيخ بدر، إذ عرض عليه الضابط الفرنسي المغريات المعتادة من مناصب وثروات رفضها الشيخ بحزم؛ عندها سأله الضابط الفرنسي: «إذن لماذا تقاتلنا؟».

فأجابه الشيخ ساخراً: «غريب! هل أعماكم الغرور؟ هل أنا الذي أصوب رصاصي إلى صدور مواطنيك في شوارع باريس، أم أن رصاص جنودك يفتك

بمواطنيّ في جبال سوريا ومدنها وقراها؟! ولكن في أمثالنا مثل يقول: إذا لم تستح فافعل ما تشاء!».

وغضب الضابط الفرنسي، فأشارَ إلى أعوانه الذين وجهوا بنادقهم إلى صدر الشيخ ورفاقه طالبين منهم الاستسلام؛ ولكن الشيخ الهادئ أرسل بدوره إشارة إلى رجاله في الخارج، فإذا بعشرات البنادق تتوجه نحو الداخل لتحاصر الوفد الفرنسي وترغمه على إلقاء السلاح والاستسلام. وبالفعل تم أسرهم واقتيادهم إلى معسكر الثورة، حيث تم تقديم الطعام لهم، فرفضوا، ولكن تم إفهامهم أن رفض الطعام يعني الإهانة، فأكلوا. ثم جاءهم الشيخ قائلاً: «أكلتم من طعامنا فأنتم آمنون، بهذا تقضي تقاليدنا. إنني أطلق سراحكم. ومن أخلاقنا إكرام الأسير وإطلاق سراحه، وأصفح عن غدركم، والصفح من شيمنا وأخلاقنا، ولا أعاقبكم على غدركم لأنه سجية من سجاياكم، وموعدنا الساح».

وأعاد إليهم أسلحتهم وأرسل معهم من يوصلهم إلى مأمنهم!

أما عبد اللطيف اليونس فيتحدث عن معاملة الشيخ لأسراه من المغاربة والجزائريين والتوانسة؛ (وكان عددهم كبيراً - للأسف - في الجيش الفرنسي)، فعندما يأسر أحداً منهم كان يأخذ عليه العهد ألا يعود إلى ساحة القتال ضده ثانية، ثم يطلق سراحه. وبالفعل كان معظمهم يرفضون الحرب مجدداً إلى جانب الاحتلال، ولو تعرضوا لعقوبة عصيان الأوامر العسكرية؛ وكان بعضهم يفرون من جيش الاحتلال لينضموا إلى صفوف الثوار.

أما القصة الأغرب فيوردها قيس عباس؛ ومفادها أن أسيراً فرنسياً جرح في معركة (وادي ورور)؛ وأصيب في فخذه، فحاول الاختباء في دغل صغير، ولكن الثوار لاحقوه وأجبروه على الاستسلام، وأمر الشيخ صالح بمعالجته وإكرامه، فبقي بينهم حتى تم جبر ساقه وشفي من جراحه. عندها أطلق سراحه بعد تعهده بعدم معاودة القتال ضده. وبعد ثلاث سنوات، وبعد أن همدت الثورة، اجتمع البرلمان الفرنسي لمناقشة حكم الإعدام بحق الشيخ صالح. ووقف أحد أعضاء البرلمان ليقدم دفاعاً مؤثراً عن الشيخ صالح، بصفته قائداً وطنياً يدافع عن استقلال بلاده، مطالباً بالعفو عنه؛ وكان ذلك العضو والد الجندي الأسير ذاته.

ولعل كمية الإنسان في أعماق الشيخ لم تكن تقل البتة عن كمية الثائر، وثمة الكثير من القصص المؤثرة تتحدث عن البعد الإنساني في شخصه، أطرفَها تلك المتعلقة بدعوى عقارية كان قد رفعها عليه أحد وجهاء القدموس؛ ويدعى الشيخ محمود العلي، وحدث أن التقى الشيخ صالح بخصمه قبل موعد المحاكمة بيوم واحد، وسأله عن سبب تأخره عن السفر لحضور الجلسة، فأجابه الشيخ محمود بأنه لا يملك من المال ما يكفي للسفر، عندها مد الشيخ صالح يده إلى جيبه وأخرج ثلاثين ريالاً فضياً، قدمها لخصمه ليمكنّه من السفر ومتابعة الدعوى ضده! وحينما جاء المهندسون لمسح الأراضي وإجراء عملية التحديد والتحرير، رفض الشيخ صالح الحضور، وترك المزارعين يضعون الحدود كما يشاؤون برفقة المهندسين. أما عن إغاثة المحتاجين، وإرسال المعونات سراً إلى العائلات الفقيرة، فحدّث ولا حرج.

وخلال مواجهاته الحربية كلها، لم يتميز الشيخ عن مقاتليه إلا بالحذر وزيادة الحيطة، وفيما عدا ذلك فقد كان يأكل مما يأكلون، ويشرب ما يشربون، ويعيش حياة التقشف والشظف كما يعيشون. وكان يشرف بنفسه على إعداد الطعام وتوزيعه. وفي الفترات التي تخف فيها حدة المعارك، كان يدرب رجاله على الرماية الدقيقة، ويضع جوائز للفائزين، كما كان يجلب المغنين الشعبيين للترفيه عنهم.

أما المكانة الرفيعة التي حفظها في روحه فكانت للشهيد يوسف العظمة الذي التقاه مرة واحدة ـ كما أسلفنا ـ في قرية (السودة)؛ وحينما بلغه نبأ استشهاده ذرف الدمع حارقاً. ويروي مؤرخه عبد اللطيف اليونس أنه ما من مرة ذُكر فيها اسم يوسف العظمة في مجلس الشيخ صالح العلي إلا (وسبق دمعُهُ لسانَه، وارتسم الألم على محياه)!

أما عن صِلاته الخارجية، فيورد الشاعر خبراً عن رسالة وصلت للشيخ صالح من الزعيم الهندي الكبير المهاتما غاندي؛ يؤازره فيها، ويبلغه وقوفه إلى جانبه. ورغم أن الرسالة غير موجودة اليوم (بعد ضياع معظم تراثه إبان فترة التخفي والملاحقة والتدمير الفرنسي المستمر لمقارّه ودوره وممتلكاته) فإن حامد حسن يورد هذا المقطع المحفوظ منها:

«إن الغربي النهم يفغر فاه، ليلتهم الشرق أجمع؛ فمدّ يدك أبايعك على أنني في الشرق الأقصى كما أنت في الشرق الأدنى؛ لكبح جماح الغربي النهم».

كما كان الشيخ صالح يحفظ الجميل لحاكم حماة رشيد طليع، وللسياسي الحموي البارز نجيب البرازي، لدورهما الهام في مؤازرة الثورة ودعمها المستمر، حيث كانت حماة ركيزة قوية للثورة.

من الجمر إلى الرماد

تعرض الشيخ أثناء حياته للتسميم أكثر من مرة، عبر القهوة أو طعام النذور، كما تعرضت زوجاته، خصوصاً حبابة التي أسقطت جنينها بعد تسميمها، الأمر الذي أدى إلى عدم إنجابها لاحقاً. كما تعرضت ثورته لحملة من الخروقات والإشاعات، عن طريق أشخاص دخلوا كمتطوعين، تم تجنيد بعضهم لاغتيال الشيخ. ومن كثرة ما تعرض لمحاولات الاغتيال والتسميم، كان حذراً حتى يوم وفاته، فكان ينام، كما تذكر ابنته الكبرى حفيظة، متأبطاً مسدسه.

استسلم الشيخ صالح للفرنسيين في 2 حزيران 1922، حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية في (الشيخ بدر)، وبقي هناك حتى وفاته في 13 نيسان 1950.

وما بين هذين التاريخيين نجد فجوة عمرها ثمانية وعشرين عاماً، ترى كيف قضاها الشيخ الذي كان قائداً ثورياً، وبات الآن رهن الإقامة الجبرية؟!

تُجمع المصادر على أن صالح العلي اختار العزلة الشديدة التي فُرضت عليه، وزاد من فرضها على نفسه. وبات أشبه بأبطال روايات الفروسية، بل أشبه بـ (أوريليانو بونيديا) بطل رائعة ماركيز (مئة عام من العزلة).

ها هو يجلس وحيداً في منزله، يقرأ كثيراً، يكتب أشعاراً وجدانية وعاطفية ولاهوتية، يتعرض لظلم ذوي القربى، وتسوء علاقته بأقربائه يوماً بعد يوم، ينوي الهجرة ومغادرة البلاد، ويصل إلى طرابلس اللبنانية، ومنها يسافر بحراً ليصل إلى (جنوة) الإيطالية، وهناك يقفل عائداً من جديد إلى عزلته الأبدية، ولكن بين الفينة والأخرى تصله أخبار الويلات التي يتعرض لها شعبه على يد المحتل الفرنسي؛ فينتفض كأسدٍ جريح، وتحن روحه لإطلاق الثورة مجدداً! كما حدث

حينما جاءته أخبار القصف الفرنسي الوحشي للمجلس النيابي السوري في 29 أيار 1945 حيث وجه برقية نارية إلى رئيس الجمهورية جاء فيها:

«سيوف المجاهدين تتململ في الأغماد، ونفوسهم في غليان واضطراب، لا تقبل امتهان الأمة، ولا أن تحرمه حرمة الاستقلال إنا للمعتدين بالمرصاد، وسيعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون».

ورد عليه رئيس مجلس الوزراء سعد الله الجابري ببرقية جوابية نصها:

«برقيتكم هزت الضمير الوطني، وأيقظت الشعور القومي، وهيّجت في نفوس المخلصين حب الجهاد والرغبة في الاستشهاد».

في 27 نيسان 1945، وقبل وفاته بخمس سنوات، أقيمت حفلة تكريم للشيخ صالح العلي في اللاذقية، ومنحه رئيس الجمهورية وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى. طلب منه، قبل الجلاء، وعبر وفد رسمي عام 1943، اختيار الوزارة التي يريد، فرفض مكتفياً البقاء في منزله.

وتدفقت الوفود من دمشق وحلب وحمص وحماة وجبل الدروز، وكذلك من بيروت وطرابلس وجبل عامل، وضمت أسماء مثل نجيب الريس وإحسان الجابري ونجيب البرازي وعلي عبيد ومحمد عز الدين الحلبي، ومن لبنان أحمد رضا وسليمان الظاهر وعارف الزين وكامل مروة والشاعر علي منصور.

وفي كلمة الرئيس هاشم الأتاسي جاء أن: «المحتفى به أحد أولئك الذين غضبوا لهذه الأمة فما استكان ولا فتر، ولم تزده الحوادث إلا صقالاً، فكأنه عنصر الذهب الذي لا يتسرب إليه فساد، ولا يعلوه صدأ، وها هي ذي صحائف الشيخ صالح العلي تنشر للناس، فما تروي غير ما يجلب الحمد ويكسب الثناء».

وفي الشهادات المكتوبة عن الرجل التي عني بجمعها المؤرخ عبد اللطيف اليونس، نقرأ شهادة الضابط جميل ماميش التي يذكر فيها:

«كان يصرّح لنا قبيل المعركة أنه سيقتل مئة جندي فنعرف بداهة أنه يحمل مئة طلقة! وكان في المعارك التي يزداد علينا الضغط فيها ينتهرنا بشدة ويأمرنا بالثبات؛ ويظل يحارب معنا حتى آخر لحظة، فقد كان أول من يهجم وآخر من يتراجع، وأشهد أننا كنا نقتدي به، وأن المجاهدين كانوا يخجلون في المواقع العسيرة

أن يتراجعوا، وقائدهم لا يزال في الميدان، وكثيراً ما كان يعود الفضل في ربحنا المعركة إلى ثباته ونضاله العجيبين».

على أيّة حال واصل الشيخ صالح العلي عزلته الأبدية، وفي العام 1950 ظهرت عليه بوادر ضعف في القلب، وكان تقريران طبيان يعودان إلى 8 و9 آذار، من مصدرين طبيين مختلفين، قد شخصا إصابته بمرض القلب.

وها هو يستدعي الشهود ورجال القانون على عجل في 9 آذار 1950؛ ليملي عليهم وصيته التي رصد فيها القسم الأكبر من أملاكه وثروته؛ لبناء مدرسة ومسجد ومستوصف؛ وعيّن أوصياء لمتابعة تنفيذ هذه المشاريع الموجهة أساساً إلى الفقراء.

وفي 13 نيسان 1950، ضاق الجسد على تلك الروح الشاسعة، وهمد ذلك القلب المتوثب لواحد من كبار رجالات سوريا في القرن العشرين.

وفيق يوسف

فيصل الأول

سورية الفيصلية

(1883- 1933)

في صباح يوم 1 تشرين الأول 1918 دخلت طلائع القوات العربية النظامية والقوات الإنجليزية إلى دمشق، فيما كانت وحدات جيش الثورة العربية تتابع تواردها قادمة من اتجاه قرية الكسوة، حيث توقفت ليلة البارحة على الطريق، كان فلول الجنود الأتراك يسيرون منهكين وجائعين، خائفين من النهب أو الموت أو الأسر، وعندما بادرهم بعض أفراد الجيش العربي الحديث بالتركية اطمأنت قلوبهم، ولم يرغبوا في الابتعاد عنهم. عند محطة القدم كانت النيران مازالت تشتعل في المستودعات التي أحرقها الأتراك، دخل الجيش العربي دمشق من حي الميدان، كان الحي على امتداده وأطرافه يعج بالبشر رجالاً ونساء أطفالاً وشيوخاً، أمام منافذ البيوت وفوق الأسطح، الشبان ينشدون الأناشيد والنساء يزغردن، ويرمينَ العسكر بالورد، ويرششنهُم بماء الزهر.

في المرجة توقفت القوات في الساحة الجرداء، فيما انتصب العلم العربي فوق سراي الحكومة، وإلى جواره مشنقة. وجرى توزيع القوات على أنحاء العاصمة للمحافظة على أمن الأهالي؛ أحياء باب الشرقي وباب توما والقصاع، حي الميدان والشاغور، أحياء الأكراد والصالحية والمهاجرين. وأوكلت إلى سرية الرشاشات أمن مركز المدينة من باب الجابية فسوق مدحت باشا فالدرويشية فالسنجقدار فالمرجة فسوق ساروجة والعقيبة وطريق الصالحية حتى عرنوس.

في اليوم السابق قامت مظاهرة كبيرة من حي الميدان، قادها المجاهدان أحمد مريود والشيخ محمد الأشمر، رفعوا العلم العربي، فيما كان الأميران عبد القادر وسعيد الجزائري قد جمعا الوجهاء وشكلا حكومة وطنية نادت بالحسين ملكاً على العرب على مسمع ومرأى الأتراك والألمان المنسحبين، على أن لورنس المستشار الإنجليزي سيحل حكومة دمشق بصفته مندوب فيصل، خشية أن

تنافس سلطتهما سلطة فيصل، وربما خيفة من ميولهما الفرنسية، وجرت أعمال نهب وفوضى، فقامت القوات العربية بقمعها.

في اليوم التالي عادت دمشق إلى حياتها العادية، ففتحت المتاجر، ونشطت حركة المرور. ويذكر مراسل التايمز أن أول أعمال الإدارة العربية كان إعادة نظام الإضاءة الكهربائية مساء 2 تشرين الأول؛ ثم تسيير الترامويات (الحافلات الكهربائية) بعد توقفها منذ عام 1917. يزعم لورنس بأنه حكم دمشق ثلاثة أيام، قام فيها بتنظيم الأعمال المدنية وإقامة حكومة عربية ثابتة، على أن ضخامة المهمات لا يمكن أن تعزى إليه وحده، لاسيما وأن رضا الركابي حاكم دمشق قال للورنس عندما أراد التدخل: «إن تدخلك كان في الصحراء، أما هنا فنحن دولة منظمة».

أُتّخذت الترتيبات ليدخل فيصل بشكل رسمي إلى دمشق عند الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم 3 تشرين الأول، لكن موعد لقائه مع الجنرال اللنبي لم يسمح؛ بسبب مسارعته إلى موافاته في فندق فكتوريا مع لورنس. في الاجتماع شرح الجنرال اللنبي للأمير فيصل الترتيبات التي اتفقت عليها بريطانيا وفرنسا مؤكداً عزمه على تطبيقها إلى أن تُعدّل في مؤتمر الصلح وهي:

1. ستكون فرنسا دولة الحماية في سورية.
2. سيتولى فيصل بصفته ممثل والده الملك حسين الإدارة في سورية (ماعدا فلسطين وولاية لبنان) تحت توجيه فرنسا، وبدعمها المالي.
3. الحيز العربي يشمل سورية الداخلية، ولا شأن لفيصل بلبنان.
4. سيكون لدى فيصل ضابط اتصال فرنسي إلى جانب لورنس.

اعترض فيصل اعتراضاً شديداً، وقال بأنه مستعد لقبول المساعدة البريطانية، لكنه يرفضها من الفرنسيين. لقد فهم دائماً أن العرب سيحصلون على سورية بأكملها ومن ضمنها لبنان، باستثناء فلسطين.

التفت الجنرال اللنبي إلى لورنس قائلاً: «ألم تخبره أن الحماية على سورية ستكون لفرنسا؟».

فأجاب لورنس: «كلا يا سيدي، لا علم لي بأي شيء من ذلك». فقال اللنبي: «لكنك تعرف حتماً أن لا علاقة له بلبنان» رد لورنس: «كلا، يا سيدي، لا أعرف». عندئذ، قال اللنبي لفيصل: «إنه هو سير ادموند اللنبي القائد العام، وأنه هو - فيصل - لواء تحت أمرته وعليه إطاعة الأوامر، ويجب عليه قبول الوضع إلى أن تسوى الأمور كلها عند انتهاء الحرب».

تلك كانت الخطوة العملية الأولى، في تراجع بريطانيا عن وعدها، ولم تكن الترتيبات التي تليت على فيصل؛ سوى أحكام اتفاقية سايكس - بيكو نفسها التي كان الجميع مطلعين عليها، وقصد فيصل بإنكاره معرفتها، أنها لم تبلّغ إليه رسمياً، أما لورنس فكان ببساطة يكذب.

وسوف يطلب العودة إلى بريطانيا لئلا يعمل إلى جانب مستشار فرنسي، وليدافع عن قضيته لدى وزارة الخارجية.

في حين عاد فيصل بعد انسحابه من الاجتماع، ليدخل إلى دمشق دخول الفاتحين فوق ظهر حصان يرافقه أعوانه المقربين، على رأس 600 فارس وسط تهليل وحماسة وابتهاج جمهور من البشر يجهلون ما جرى قبل قليل في فندق فكتوريا. وبالنسبة لفيصل كان دخوله المنتصر قد فقد الكثير من معناه، كان انتصاراً منقوصاً، إذ خلافاً للاتفاق مع أبيه، منحه الإنجليز جزءاً من سورية، وعليه الاستعداد لمعركة ضد حلفاء الأمس.

❖ ❖ ❖

ولد فيصل بن الحسين عام 1883 في الحجاز، وهو الابن الثالث للحسين شريف مكة. درس القرآن، وتعلم في الصحراء الفروسية والشعر. عاش حتى السادسة من عمره في قرية (رحاب) ليعود بعدها إلى مكة. عندما بلغ الثانية عشرة من عمره سافر مع والده الشريف حسين الذي استدعي إلى الآستانة عام 1893 إثر تعيين السلطان عبد الحميد بديلاً عنه شريفاً على مكة، استدعاه خشيةً أن يثير له المتاعب في المستقبل، فرض الرقابة عليه... ووضعه تحت الإقامة الجبرية، ثم عينه عضواً في مجلس الشورى.

درس فيصل في الآستانة، على أيدي أساتذة خصوصيين الحسابَ والجغرافية والتاريخ الإسلامي والعثماني؛ كما تعلم مبادئ اللغة الفرنسية، وألمَّ باللغة الإنجليزية، حتى أتقنها. واختلط بالضباط العثمانيين، والتقى برجال السياسة والفكر.

اختاره أبوه الشريف حسين بعد عودته إلى الحجاز رسولاً له إلى قادة الحركة القومية في الشام؛ للتباحث وتنسيق المواقف معهم بهدف الإعداد للثورة على الحكم العثماني، عندما قامت الثورة في حزيران 1916 قاد فيصل الجيش العربي بالاتفاق مع الإنجليز ودعمهم، واستطاع طرد القوات العثمانية من الحجاز والشام، وإقامة الحكم العربي في سورية.

كان الأمير فيصل ذا شخصية مهيبة محترمة وجذابة، بهيَّ الطلعة، هادئاً، نحيل القوام، ذا عينين معبرتين. عندما كان في باريس توافد كثير من الأدباء والصحافيين والطبقة الأرستقراطية إلى زيارته؛ وعلى رأسهم الأديب الفرنسي المعروف أناتول فرانس الذي أعجب بوجهه وشبهه بـ «وجه المسيح»، ولباسه الشرقي الذي يثير شاعرية الشعراء». كان من بين أخوته الأكثر اطلاعاً على الأمور السياسية، والأكثر انفتاحاً على العالم الخارجي، وكان بشهادة الكثيرين جندياً ممتازاً وسياسياً قديراً.

❖ ❖ ❖

عين الأمير فيصل الفريق الركن رضا الركابي حاكماً عسكرياً عاماً؛ يتبعه حكام عسكريون في كل من ولايتي حلب وبيروت وكذلك بعلبك والبقاع؛ وقام بتعيين مديرين لمصالح الدولة، وبدأ كل مدير بتنظيم مصلحته وتدبير شؤونها وتعيين ما يلزمها من موظفين؛ كما شرع بتوسيع الجيش وقبول الضباط العرب العائدين من الجيش التركي؛ وكان يقبل في عداد موظفي الدولة وضباطها كل عربي دون أي تفريق بين الأقطار العربية؛ وبذلك كانت سورية أول دولة عربية قامت على أساس قومي غير إقليمي.

بدأ الاحتكاك بين القوات العربية والفرنسية بشَكّ مبكر، فقبل وصول القوات العربية رُفعت الأعلام العربية في حماة وحلب واللاذقية؛ وشُكلت حكومات وهيئات إدارية، وستأخذ حكومة بيروت الشهرة الأوسع بعدما رفعت العلم العربي

فوق دار الحكومة، لاسيما عندما بعث أعيانها يطلبون من دمشق إرسال ممثل للشريف حسين؛ فأرسل فيصل إليهم شكري الأيوبي على رأس قوة من 100 جندي؛ وصلت بيروت يوم 4 تشرين أول، فانعقد مجلس لبنان، وحلف يمين الولاء لحكومة دمشق، فيما كانت سفن الفرنسيين تدخل ميناء بيروت، وتقوم بعملية إنزال إلى البر مع احتجاج فرنسي شديد على خرق فيصل للاتفاق، أعقبه طلب الجنرال اللنبي من فيصل سحب ممثله، ولم يقبل اعتراضه بأن مبعوثه اُستدعي من قبل ممثلي بيروت. فعاد الأيوبي، وأنزلت الأعلام العربية.

بثت فرنسا دعاياتها بين المسيحيين، وأخذت بتخويفهم من المسلمين، وزعمت أن جيش الثورة جيش حجازي بدوي، وأن الحكومة التي ستؤلف ستكون حكومة دينية، وسوف تقضي على حقوق المسيحيين قضاء مبرماً، فركز الأمير فيصل في خطاباته على الوحدة الوطنية باسم القومية العربية؛ وأن: «العرب هم عرب قبل موسى وعيسى ومحمد»، وطمأن السوريين إلى أن والده قرر: «أن يجعل البلاد مناطق، يطبّق عليها قوانين خاصة بنسبة أطوار وأحوال أهلها، فالبلاد الداخلية يكون لها قوانين ملائمة لموقعها، والبلاد الساحلية يكون لها أيضاً قوانين طبق رغائب أهلها». توالت احتجاجاته على تصرفات الفرنسيين دونما استجابة من البريطانيين؛ مما دفعه إلى تهديدهم بالتخلي عن قيادة الجيش العربي؛ فأصدرت بريطانيا وفرنسا تصريحاً رسمياً مشتركاً، صيغ بعبارات غامضة عن تحرر الشعوب وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالي، كان التصريح بمثابة تأجيل للأمور المتنازع عليها، وإن كان قد بتَّ فيها.

كرس فيصل جهوده لبناء حكم عربي ممركز في دمشق مرتبط بمبدأ القومية؛ كان طموحاً وعسير التطبيق، فمن الناحية الاقتصادية كانت الحرب قد دمرت البلاد وشهد الإنتاج والتوزيع الزراعي انقطاعاً حاداً، واستمرت معاناة المجاعة خلال عهده القصير نتيجة للتخزين والاستغلال والفساد، وتناقص الإنتاج الصناعي والمحلي، كان النظام النقدي والمصرفي في حالة انهيار تام تقريباً، وهبطت - نتيجة لتخزين الذهب - قيمة الليرة التركية بنسبة 50٪ خلال الشهرين الأولين من حكمه، فاستبدلها البريطانيون بالجنيه المصري الذهب، كما انقطعت شبكة اتصالات سورية خلال الحرب، ولم تعد القطارات تعمل بشكل منتظم،

وأصيبت الطرق بقصور حادّ. كذلك هدد تقسيم سورية الكبرى إلى ثلاث مناطق: يسيطر الفرنسيون والبريطانيون على الأجزاء الساحلية منها، بخنق أراضي الدولة العربية الداخلية، مما أشعر المدن الداخلية التي تشكل العمود الفقري لإمارة فيصل (دمشق وحمص وحماة وحلب) بتزايد انقطاعها عن موانئ شرق المتوسط ولاسيّما طرابلس وبيروت وحيفا.

❖ ❖ ❖

دعت الخارجية البريطانية الشريف حسين إلى مؤتمر السلم في باريس؛ وطلبت منه إرسال ممثل عنه، واقترحت فيصلاً، أفضل من يقوم بهذه المهمة. عندما وصل إلى مارسيليا لم تعتبره فرنسا طرفاً في المؤتمر، وأبلغه المندوب الفرنسي بريمون بأن حكومته ترحب به ضيفاً عليها أثناء إقامته في فرنسا دون الاعتراف له بأي مركز ديبلوماسي؛ أو أنه يقوم بمهمة رسمية. وهيأت له برنامجاً لزيارة بعض المدن والساحات العسكرية، ومع أن الفرنسيين منحوه وسام جوقة الشرق من رتبة ضابط كبير، واستقبله رئيس الجمهورية الفرنسية، فسوف يغادر باريس إلى لندن ويصلها في 10 كانون الأول ويكتب إلى أبيه: «ستقوم الحرب السياسية بيننا وبين فرنسا لأنها تظهر لنا العداوة رغم أنها منحتني وساماً».قابل وزير الخارجية الإنجليزي بلفور الذي وعده بالتخلي عن اتفاقية سايكس بيكو في المؤتمر، لكن اتفاقاً كان قد عقد بين رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج ورئيس الوزراء الفرنسي كلمنصو، بتنازل فرنسا عن الموصل لبريطانيا مقابل الحصول على حصة من النفط، وأن تدعم انتدابها على كيليكيا وسوريا (باستثناء فلسطين).

خلال وجود فيصل في لندن اجتمع مع الزعيم الصهيوني وايزمان تحت ضغوط من الخارجية البريطانية؛ ووقع معه اتفاقاً، تنص بنوده على: «القرابة العرقية والصلات القديمة بين العرب واليهود، وعلى ضرورة التعاون في سبيل تقدم الدولة العربية وفلسطين، وإنشاء وكالات عربية ويهودية معتمدة في المنطقتين، وعلى أن يسود التفاهم بين الدولة العربية وفلسطين، وأن تقدم الضمانات لتنفيذ وعد بلفور، وتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وحرية ممارسة العقيدة الدينية». أضاف فيصل إلى مواد الاتفاقية المادة التالية بخط يده: «إذا نالت العرب استقلالها، كما طلبناه بتقريرنا المؤرخ في 4 كانون الثاني 1919 المقدم لوزارة خارجية حكومة بريطانيا العظمى، فإنني موافق على ما

ذكر بباطن هذه المواد، وإن حصل أدنى تغيير أو تبديل، فلا أكون ملزماً أو مربوطاً بأي كلمة كانت، بل تُعد هذه المقاولة كلّ شيء ولا حكم لها ولا اعتبار، ولا أُطالَبُ بأي صورة كانت». وبرّر فيصل اتفاقه مع وايزمان بأنه كان يريد من اليهود مساعدته في التخلص من الانتداب.

عُقد مؤتمر الصلح في باريس يوم 18 كانون الثاني 1919، ونجح الوفد البريطاني - رغم المعارضة الشديدة للفرنسيين - في كسب مقعدين للوفد العربي في المؤتمر ليعرض فيصل قضيته، على أن يعتبر ممثلاً لملك الحجاز فقط وليس للبلاد العربية. بدأ النظر في القضية العربية في 6 شباط، وعرض فيصل المطالب العربية على أساس مبادئ عامة: حق الشعوب الناطقة بالعربية في آسيا بالاستقلال والوحدة: «السكان عرب ينطقون لغة واحدة وينتمون إلى عنصر واحد تقريباً، ويسكنون أرضاً لها حدود طبيعية تؤكد وحدتها، كما أن منافع البلاد متحدة»؛ بالإضافة إلى أنها وُعدت من قبل الدول المتحالفة بالحرية والاستقلال نظراً لما ساهمت به أثناء الحرب، وقال إن هذه البلاد يصعب دمجها في إطار حكومي واحد لتباينها الاجتماعي والاقتصادي؛ وطلب منحها استقلالاً ذاتياً، ولابأس من الاستعانة باختصاصيين أجانب تابعين لها، على ألا يسمح لأي دولة أجنبية بالنفوذ السياسي. وانتهز الفرصة، وندد باتفاقية سايكس بيكو لتعارضها مع رغبات شعوب المنطقة، ومهما كانت صحة مطالبه أو قدرته على التأثير على سامعيه، فقد كان المسيطرون على المؤتمر قد خططوا مستقبل الشرق العربي قبل أن يستمعوا إليه، كذلك عرضت الدولتان مطالبهما من المنطقة، وبالتالي كي يوفق الرئيس الأمريكي بينهم وبين مبدأ تقرير المصير الذي طرحه؛ اقترح إرسال لجنة تحقيق من هيئة خبراء من الدول الكبرى لمعرفة رغبات السكان، وعلى أساسها يمكن إرساء العدالة وتأمين السلام. وافق المجلس الأعلى على الاقتراح رسمياً، لكن الأوضاع التي اكتسبتها الدول المحاربة أصبح من الصعب تغييرها، فتعطلت اللجنة لفترة قبل أن تباشر مهامها. ولم يتخذ مؤتمر السلم قراراً حول مستقبل البلاد العربية، وأصبح واضحاً بالنسبة لفيصل أن اعتماده على بريطانيا بلا فائدة، لأن أي مساعدة قد يأملها منها ستتعرقل خشية نزاعها مع فرنسا. والأفضل حسب نصيحتهم التفاهم مع الفرنسيين. فكانت محادثات فيصل كلمنصو؛ اتفقا في نهايتها شفهياً على: «أن يستعمل فيصل جهوده مع شعبه من أجل تأمين انتداب فرنسي على سورية مقابل

أن تعترف فرنسا باستقلال سورية». النتيجة: لم يفشل فيصل في تحقيق مطالبه فقط، بل وفي ضمان الحد الأدنى من استقلال سورية الداخلية.

توقع فيصل حلاً أفضل على يد لجنة التحقيق الدولية، وكان عليه بعد عودته إلى سورية أن يواجه القلق السياسي والحماس الوطني؛ وكانا أكثر تطرفاً مما توقعه. كما أن الشكوك أخذت تحوم حول تحفظه وأخبار مفاوضاته السرية، فكان عليه التوفيق بين المطالب القومية الملحة وميله هو إلى الاعتدال لإنقاذ جزء من هذه المطالب على الأقل، ولكي يكسب المتطرفين إلى جانبه تولى قيادة الحملة السياسية، ولم يكن ذلك بالأمر السهل على الإطلاق.

❖ ❖ ❖

كانت جمعية (العربية الفتاة) التنظيم السياسي الأكثر نفوذاً في سنوات عهده القصيرة، قد استمرت تعمل سراً، كما كانت قبل الحرب وأثناءها، وأعيد تشكيل قيادتها بعد الاستيلاء على دمشق لتضم ضبّاطاً شريفيين بارزين؛ مثل العراقي ياسين الهاشمي، وحاكم دمشق العسكري علي رضا الركابي، وشباناً مدنيين أصغر من أعضائها الأوائل؛ مثل شكري القوتلي، وجميل مردم بك، ونسيب البكري. قدمت الجمعية دعماً غير محدود لفيصل حتى نهاية 1919، ولم تكن القرارات السياسية الهامة تتخذ خلال هذه الفترة إلا بعد التشاور مع قيادتها؛ وبحكم اختيارها أن تبقى صغيرة وسرية ومتماسكة، قررت في كانون الأول 1918 تكوين تنظيم علني كبير هو (حزب الاستقلال العربي) ليكون ناطقاً باسمها، اتّخذ مقراً له في دمشق، وأنشأ فروعاً في كل أنحاء سورية متبعاً سياسة الانتماء المكشوف، وضمت قيادة الحزب الذي دافع عن تحرير كل البلاد العربية من السيطرة الأجنبية سياسيين سوريين وفلسطينيين.

وكان التنظيم السياسي الآخر الذي مارس نفوذاً ملحوظاً هو (جمعية العهد)، وهي جمعية سرية أسست على يد الضباط العثمانيين العراقيين والسوريين المستائين، كانت (العهد) تريد الاستقلال الذاتي للولايات العربية في الإمبراطورية وتشكيل ملكية مزدوجة، وبقيت العهد بعد الحرب مقتصرة على ضبّاط الجيش، لكنها انشقت على أساس جغرافي (عراقي/سوري) كانت الحصة الأكبر فيها للعنصر العراقي، وتسلموا مناصب وزارية في أيام حكم فيصل، بالإضافة إلى (النادي العربي) الذي أُنشئ بعد الحرب على أن تكون أهدافه علمية فقط، لكن

سرعان ما أصبح: «مركز الحركة والنشاط ومدرسة التربية الوطنية السياسية، تُعقد فيه الاجتماعات، وتلقى الخطب، وتنطلق المظاهرات».

سيطرت قيادات التنظيمات الثلاثة غير الحكومية على الحياة السياسية المحلية في سورية خلال عهد فيصل؛ وعلى الرغم من محافظتهم على جبهة سياسية موحدة قامت على أساس الاستقلال العربي الكامل، فإن الطموحات السياسية لكل منهم كشفت عن ميول محليّة وإقليمية، بدأت تظلل المشاعر العربية الجامعة، وكان (النادي العربي) أول التنظيمات في سحب تأييده لفيصل بعدما شعرت قيادته أن الأمير والزعماء القوميين العرب لاسيّما العراقيين في (العهد)، لم يوجهوا انتباهاً كافياً إلى المسألة الفلسطينية. أما (العربية الفتاة) وواجهتها حزب (الاستقلال) فرغم رغبتها في دعم سياسات فيصل؛ كانت متعاطفة مع توجهات قادة النادي العربي.

❖ ❖ ❖

إثر عودته تلقى فيصل دعماً من وفود أعيان سورية بتفويضه إدارة السياسة الداخلية والخارجية؛ وذلك في اجتماع كبير عقد في دار البلدية، عاهدهم فيه على الاستقلال، كما أخذ موافقتهم على تأسيس مجلس منتخب يضع القوانين، كما شجع حملة من أجل التطوع والتجنيد الاختياري.

وفي الوقت نفسه حاول أن يحتفظ بعلاقات ودية مع فرنسا. وحاول أيضاً إغراء بريطانيا بتولي الانتداب على سورية، لكن إلحاحه على طلب المساعدة البريطانية اصطدم بمعارضة (العربية الفتاة) التي رفضت أنصاف الحلول وأصرت على الاستقلال التام؛ ما سبب خلافاً في الرأي العام. وبات التوجه إلى تأسيس مجلس منتخب من كافة المناطق السورية الوسيلة الوحيدة لإقناع اللجنة الدولية بشرعية المطالب العربية.

تمنى فيصل في خطاب الافتتاح لدى أول اجتماع رسمي في مقر النادي العربي أن يوفق (المؤتمر العربي) في التعبير عن رغبات الأمة لدى وصول اللجنة؛ وأعلن المؤتمر أنه يمثل سورية كلها، واحتج على عصبة الأمم التي وضعت سورية في عداد الأمم المحتاجة إلى الانتداب، ولم يكن اعتراضهم إلا لتخوفهم من انقلاب الانتداب ليصبح ستاراً لاحتلال غير محدود، «وإذا كان لابد منه فلتكن صاحبته

الولايات المتحدة، لأنه لا مطامع استعمارية لها، وبحدود الاستعانة الفنية والاقتصادية، وإن تعذر فإنجلترا». أما الفرنسيون فمرفوضون.

عُرفت اللجنة اختصاراً تحت اسم (لجنة كرين) قضت في سورية 42 يوماً، حرصت خلالها على التعرف على جميع وجهات النظر، وإجراء مقابلات مع وفود تمثل فئات بارزة من جمعيات ونقابات وأعضاء بلديات ورؤساء طوائف؛ وقُدمت لها عرائض، طالبت غالبيتها الساحقة بسورية موحدة، وعندما وضعت اللجنة تقريرها، أوصت بوحدة سورية تحت حكم دستوري برئاسة فيصل، وأن يعهد بالانتداب لأمريكا أو بريطانيا، لكن التقرير لم يُنشر وظل أمره سرياً، واختفى في ملفات الخارجية الأمريكية حتى عام 1922، كانت الضغوط الفرنسية والبريطانية قد اعتبرت التقرير منحازاً، ولا يمكن العمل بتوصياته.

عاشت البلاد حالة قلق وعدم استقرار أخذ بالازدياد لعدم الوصول إلى تسوية، ازدادت معها مظاهرات الشوارع، وحركة التطوع في الجيش، وإلقاء المحاضرات الوطنية، وتفاقمت حوادث الحدود مع الفرنسيين، مما اضطر فيصل لإرسال رسالة إلى لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني، شرح فيها حراجة موقفه أمام الأحزاب المتطرفة، وبيَّن رغبته بالسفر إلى أوربا كي يعود منها إلى شعبه بتأكيدات جديدة تضمن وحدتهم واستقلالهم، فوجه إليه لويد جورج دعوة في أيلول 1919 للتداول بشأن القضية السورية، لكنها لم تكن دعوة للتداول، وإنما للتفاوض في وضع بات نهائياً، كانت بريطانيا قد اعتزمت على إعلان تخليها صراحة عن تعهداتها للعرب تمهيداً لسحب قواتها من سورية؛ لتحل القوات الفرنسية محلها، أما فرنسا وعلى لسان كلمنصو، فقد تعهدت بالاعتراف - ومع الكثير من التساهل - باستقلال دولة سورية الداخلية، على أن تكون الأولوية لفرنسا بإمدادها بالخبراء والمستشارين لتنظيم الإدارتين المدنية والعسكرية؛ وأن تعهد إليها بالتمثيل الدبلوماسي، وأن تعترف سورية باستقلال لبنان تحت الانتداب الفرنسي، وإقامة إدارة محلية في جبل الدروز. أذعن فيصل للعرض وعلل نفسه بأن ذلك تدبير مؤقت لن يعجز عن تبديله. لكن اختلاف مستشاريه حوله، والأخبار المنذرة بخطر حدوث ثورة في دمشق، حمله على ترك اتفاقه مع كلمنصو معلقاً إلى حين عودته.

في غيابه استمرت قيادة المؤتمر في دعمه على أمل أن يقنع القوى الأوربية بمنح الاستقلال الكامل للعرب؛ لكن الأمور ساءت مع تطويق القوات الفرنسية للدولة السورية، وعدم ظهور أية إشارة عن اتفاق يلوح في الأفق. بدأ القادة القوميون يزدادون تشاؤماً بشأن نتيجة المساومة التي يقوم بها فيصل؛ وتحول التشاؤم إلى غضب أواخر تشرين الأول عند انسحاب القوات البريطانية من الداخل السوري؛ ووصول الجنرال غورو إلى بيروت في 21 تشرين الثاني مفوضاً عاماً وقائداً أعلى للقوات الفرنسية في الشرق؛ وإعلانه بأنه قادم لتنفيذ الاتفاق الفرنسي البريطاني، وبدأت بالفعل عملية تعزيز القوات الفرنسية في الشرق، واجهتها ثورات وطنية على الحدود الغربية في جبل العلويين وجبل الزاوية وإدلب وكفر تخاريم وأنطاكية والبقاع؛ لاقت دعماً من الحكومة العربية دون التصريح عن ذلك رسمياً، وكانت دواعيها حسب قول ضابط في الجيش العربي: «بما أننا لا نستطيع أن نعلن الحرب رسمياً ضد فرنسا فلنغمر البلاد بالعصابات». كما اندلعت المظاهرات المعادية لفيصل والشريفيين في دمشق، تبعها تشكيل (لجنة الدفاع الوطني) المؤلفة من زعماء الأحياء الدمشقية والقيادة المحلية لـ (العربية الفتاة). رداً على تقارير غير مؤكدة تسربت إلى دمشق، تقول بأن فيصل قد توصل إلى تسوية غير ملائمة مع كلمنصو، واستمر تصاعد التحرك القومي ضد الأمير فيصل.

عاد فيصل في كانون الثاني 1920 ليواجه مظاهرة قادها الشيخ كامل القصاب، وهو عروبي وخريج الجامع الأزهر، انضم إلى الثورة العربية منذ ولادتها، وأسس مؤخراً (لجنة الدفاع الوطنية) بهدف التجنيد العسكري لمقاومة الفرنسيين، وخطب الشيخ قائلاً لفيصل: «إني واثق أنك لن ترضى، وحاشاك أن ترضى، أن تكون أميراً على بلاد يظللك فيها علم أجنبي». وليواجه أيضاً عداء أتباعه من القوميين، فقد رفضت اللجنة التنفيذية لـ (العربية الفتاة) اتفاق الأمير مع كلمنصو. وحاول فيصل الدفاع عن سياسته بلباقة: «إني أناضل من أجل الاستقلال الذي ترغبون... لكن الواجب يقضي بعدم التشدد في العداء، لأن بيننا وبين هذه الدول روابط لا يمكن التجرد منها».

أدرك فيصل أنه بات بلا قوة سياسية في الخارج، ولا يمتلك سوى نفوذ ضئيل في الداخل، فقرر التوجه نحو الشخصيات المحافظة لأعيان دمشق الذين أهملهم؛ ورفض التعاون معهم من قبل، وكانوا حالياً يخشون النتائج الكارثية من محاولات القوميين الاصطدام مع الفرنسيين؛ وتمكن من جعلهم يشكلون حزباً

سياسياً تحت اسم (الحزب الوطني)، عُرف بحزب الذوات الأرستقراطيين، خرج ببرنامج يطالب بالاستقلال الكامل لسورية ضمن حدودها الطبيعية (سوريا ولبنان وفلسطين)، وبملكية دستورية برئاسة فيصل. كان هدف البرنامج إزالة مخاوف القوميين وتهدئة غضبهم، واجتذاب المؤيدين أيضاً. وبما أنهم كانوا يدركون عدم قدرة سورية على مقاومة الفرنسيين، سعوا بهدوء إلى تسوية مع فرنسا على أساس اتفاق فيصل كلمنصو الذي لم يوقع؛ وإلى تقوية صلاتهم مع عملاء فرنسا السياسيين. لم يكن الحزب الوطني ملتزماً طبعاً بالاستقلال، وأكثر من هذا كان راغباً في الاعتراف بوطن قومي لليهود في فلسطين. تنبه القوميون للمعارضة السورية المحافظة، وبادروا لضبط توجهات فيصل، وإجباره على التراجع عن اتفاقه مع الفرنسيين، فعقدوا جلسة للمؤتمر السوري في مطلع آذار 1920؛ جرى فيها تصعيد قوي ضد تسوية الأمير مع كلمنصو على يد المتحمسين القوميين المتشددين؛ وطالب المؤتمر برئاسة هاشم الأتاسي بالاستقلال المطلق لسورية الكبرى، وانسحاب كل الجيوش الأجنبية، والرفض الكامل للصهيونية، ولفكرة الوطن القومي اليهودي، ثم انتخبوا فيصل ملكاً على سورية، فسحبوا البساط من تحت الحزب الوطني، وقضوا على قوة دفعه السابقة لإنشاء الملكية، وشكلوا حكومة قومية برئاسة علي رضا الركابي، تديرها من وراء الكواليس قيادة (العربية الفتاة)، وبالمقابل رفضت الحكومتان البريطانية والفرنسية الاعتراف بشرعية قرارات المؤتمر؛ واستمرت في اعتبار فيصل أميراً هاشمياً، يدير البلاد بصفته قائداً للجيوش الحليفة، ولن يعترف الحلفاء بالمملكة السورية الناشئة إلا بشرط قبولها بالانتداب، وإذا قبلت بالانتداب فعليها التخلي عن استقلالها وثلثي سكانها.

حاول الملك فيصل خلال الشهرين التاليين تأجيل انحيازه إلى جانب مؤيديه الأكثر تصلباً، لكن إعلان سان ريمو الذي صدر في نيسان مانحاً فرنسا حق الانتداب على سورية؛ كان قد أوصل الفرنسيين إلى غايتهم، وأثار غضب فيصل. رداً على هذا الإعلان، أجبر القوميون الملك المستاء على صرف رضا الركابي الذي اعتقدوا أنه غير مصمم على محاربة فرنسا. وفي 7 أيار عين الملكُ هاشمَ الأتاسي رئيساً للوزراء، فشكل حكومة من القوميين الأكثر راديكالية من المجاهرين بعدائهم لفرنسا، ومنهم عبد الرحمن الشهبندر ويوسف العظمة، وبدت المملكة العربية مستعدة للقتال حتى النهاية.

عندما علم الفرنسيون بنجاح القوميين المتطرفين في تحويل فيصل إلى وجهة نظرهم؛ استعدوا للتحرك إلى دمشق، فوجه الجنرال غورو في 14 تموز إنذاراً إلى فيصل بحل الجيش والاعتراف بالانتداب الفرنسي؛ وطرد المتطرفين من مؤيديه ومنحه مهلة أربعة أيام لقبول الإنذار. تذبذبت الحكومة بين القبول والرفض، وأوضح كبار ضباطه - ماعدا وزير الحربية يوسف العظمة - أنّ المقاومة تعني الانتحار. وعلى الرغم من التحفظات الهامة، أعطى فيصل موافقته على القبول بالإنذار من ناحية المبدأ فقط. وعُقد المؤتمر السوري ثانية في حالة من الهياج الشديد؛ لمواجهة قرار الحكومة بحله، وفيما كان حل الجيش قد بدأ.

عندما وصلت أنباء استسلام فيصل إلى عامة الشعب، نزلت الجماهير الساخطة بعنف إلى شوارع دمشق احتجاجاً، هاجمت مقر إقامته، فأمر فيصل رجال الشرطة بإعادة النظام إلى نصابه؛ فسقط في هذه العملية عددٌ كبيرٌ من القتلى والجرحى، ومما زاد في انزعاج الملك أن غورو طلب «قبولاً أكثر صراحة لشروطه» ممدداً المهلة حتى 21 تموز.

وافق فيصل على تلبية مطالب غورو قبل انتهاء المهلة بيوم واحد، بأمل أن يوفر على دمشق الاحتلال، لكن الجيش الفرنسي كان قد بدأ تقدمه فعلاً. استعد الجيش العربي واتخذ مواقعه في ميسلون، وكان مفككاً ومتنافراً، وأُستكمل على عجل بشبان من الأحياء الشعبية. وفي صباح 24 تموز اشتبك مع الجيش الفرنسي المتقدم عند خان ميسلون غرب دمشق، وانتهت المعركة بسقوط وزير الحربية شهيداً، وهزيمة القوات العربية وتفرقها في ساعة مبكرة من ظهر اليوم نفسه.

غادر فيصل دمشق إلى قرية الكسوة مساء، وهناك تلقى بعض الإشارات المشجعة من أتباعه، تقول بأنه مازال من الممكن أن يعترف الجنرال غورو به رئيساً للدولة، فعاد إلى دمشق وبذلك محاولة أخيرة لتهدئة الفرنسيين بتعيين حكومة تصريف أعمال من المحافظين برئاسة علاء الدين الدروبي العضو البارز في الحزب الوطني، والمتعاطف علناً مع الفرنسيين، فشكل حكومة تضم وجهاء على شاكلته، لكن الفرنسيين رغم عدم استيائهم من الحكومة، لم يرغبوا في التخلي عن بعض مكاسبهم لفيصل، فطلبوا منه مغادرة سورية في 27 تموز، وانتقل بالقطار إلى درعا، ومنها إلى حيفا.

وانتهت مع دخول الفرنسيين إلى دمشق فترة من تاريخ سورية الحديث، لم تدم أكثر من 22 شهراً، كانت - رغم كل ما يمكن أن يقال عنها - رمزاً لليقظة القومية، حاول رجالها إثبات جدارتهم في إقامة دولة حديثة، فأنشأوا حكومة مستقلة، وانتخبوا مجلساً نيابياً (المؤتمر السوري) ووضعوا دستوراً.

❖ ❖ ❖

في نهايات تموز 1920 لم يكن أمل فيصل بحكم سورية قد تلاشى فحسب، وإنما تلاشى أيضاً الأمل باستقلال عربي، بل وبدت الحركة القومية العربية وكأنها في مرحلة الاحتضار، فقد طورد أعوانها، وتشتت زعماؤها. وأصدرت السلطات العسكرية الفرنسية أحكاماً فورية بالموت على اثنين وثلاثين زعيماً، كان معظمهم قد هرب فعلاً إلى أماكن أمينة. منهم من هرب إلى فلسطين، أو إلى مصر والعراق ولم تكن قواعد القوميين - ومعظمهم من الدمشقيين - محظوظة هكذا، فقد اعتقل الفرنسيون المئات منهم وزجوا بهم في السجون، أو أعدموهم.

علق البريطانيون على إخفاق الحكم الفيصلي في سورية، بأن السبب هو أن الملك كان رهين مؤيديه القوميين، وخضع لضغوطهم، في الوقت الذي كان باستطاعته لولاهم الفوز بحكم سورية الداخلية، أو على الأقل إنقاذ سورية من مجزرة ميسلون.

وربما كان من الأجدى القول: أن فيصل وبالدرجة الأولى كان رهين البريطانيين أنفسهم، وأثبت رغم نواياه الحسنة والطموحة أنه لا قيام لحركة تحرر ولا بلدان متحررة تحت قيادة دولة استعمارية؛ وهو درس لم يتعلمه جيداً.

إذ بعد مرور عام كامل، في 23 آب 1921 سيعوضه البريطانيون بتتويجه ملكاً على العراق بحضور عدد كبير من أعيان العراقيين. في ذلك اليوم استعرض حرس الشرف، ثم جلس فوق منصة مرتفعة، عن يمينه المندوب السامي الإنجليزي، وعن شماله قائد القوات البريطانية.

عمر البطش

الموشح الحلبي

(1885 – 1950)

إذا كانت مدينة حلب قد عرفت بأنها وريثة الموشح الأندلسي؛ ومهد الموشح ومنطلقه في العصر الحديث؛ فإن فضل ذلك يعود إلى الموسيقي العبقري عمر البطش الذي يعتبر بحق عملاق الموشح العربي في القرن العشرين؛ حيث أبدع خلال نصف قرن من الزمان مجموعة بديعة من الموشحات؛ وأسس مدرسة حلبية في تلحين الموشح عبر تلاميذه الذين ساروا على نهجه.

ولد عمر البطش عام 1885 ميلادي في حلب؛ كان والده إبراهيم البطش يعمل في حرق الحجارة الكلسية لاستخراج الكلس منها؛ ومن ثمّ عمل ابنه عمر معه في بداية حياته المهنية، أما علامات النبوغ في الموسيقا فقد ظهرت عليه منذ طفولته؛ إذ امتلك صوتاً جميلاً، ورافق خاله بكري القصير إلى حلقات الذكر؛ حيث كان بكري منشداً ماهراً، ورئيساً لنوبة إحدى الطرق الصوفية. وقد تعلم عمر من خاله بعض الألحان التي يتم ترديدها في حلقات الذكر والمجالس الدينية، وحفظ الكثير من التواشيح الدينية.

بعد ذلك تتلمذ عمر على أيدي أقطاب الموسيقا في حلب أمثال: أحمد عقيل وأحمد مشهدي وأحمد الشعار والشيخ صالح الجذبة؛ وتعلم منهم النغمات والأوزان والإيقاعات وأوزان رقص السماح وطرائقه؛ ليصبح عبقرياً في هذين الفنين (الموشح والسماح).

في عام 1905، التحق عمر البطش بالخدمة العسكرية في الجيش التركي؛ وشفعت له معرفته الموسيقية عند والي دمشق؛ فقام بضمه إلى الفرقة الموسيقية الخاصة به عازفاً على آلة الترومبيت؛ وبعد انتهاء خدمته العسكرية عمل ضارباً للإيقاع في مسارح حلب وفرقها الموسيقية؛ وبدأ معها أولى مراحل تلحين الموشحات، وأصبح المطربون يتوافدون إليه لغناء ألحانه، وأصبح بقوة فنه وكثرة

محفوظاته من الموشحات القديمة مرجعاً لكل الموسيقيين؛ فقد كان يحفظ كلمات وألحان أكثر من ألف موشح من الموشحات القديمة؛ كما كان يحفظ جميع المقامات والأوزان والإيقاعات الخاصة بالموشحات ورقص السماح: حتى غدا حجة في هذين الفنين.

في عام 1912، سافر عمر البطش إلى العراق ضمن فرقة موسيقية ترأسها الشيخ علي الدرويش؛ وهي الرحلة الوحيدة للبطش خارج سورية، وزار (مع الفرقة) بغداد، ثم توجهوا إلى المحمرة (عربستان) بدعوة من أميرها خزعل؛ واستمرت رحلته مع الفرقة نحو سنة ونصف، ليعودوا إلى حلب عام 1914، حيث عمل البطش ثانية ضارباً للإيقاع في مسارح حلب، وتابع تلحين الموشحات، ليصبح فيما بعد مرجعاً هاماً لفن الموشح، حيث اتصل الفنان المصري الشيخ سيد درويش - أثناء زيارته لسورية مع فرقته في تلك الفترة، لتقديم بعض عروضه المسرحية - بعمر البطش، ولم يكن الشيخ سيد حتى تلك الزيارة يعرف تلحين الموشح؛ فتعلم على يد عمر البطش أساليب تلحين الموشح وأوزانه وإيقاعاته؛ واستمرت إقامته في حلب لمدة سنتين، وفي روايات أخرى أكثر من ذلك.

وبعد أن عاد سيد درويش إلى مصر، لحن مجموعة من الموشحات مثل (يا شادي الألحان)، (منيتي عَزّ اصطباري)، (يا بهجة الروح). الذي يستمع إلى هذه الموشحات يلمس لهجتها الموسيقية الحلبية التي تأثر بها سيد درويش في تلحين موشحاته؛ حتى أن كثيرين يظنون أن موشحَي (يا شادي الألحان) و(يا بهجة الروح) موشحان حلبيان، لاسيّما أن عمر البطش أضاف إلى كل منهما خانة لم تكن موجودة في الموشح الأصلي؛ وعلى سبيل المثال أضاف لموشح (يا شادي الألحان) خانة تقول: (هات يا فنان أسمعنا .. نغمة الكردان)، والكردان هو المقام الموسيقي الذي لحن سيد درويش هذا الموشح عليه.

وعبقرية عمر البطش أذهلت عمالقة الموسيقا العرب؛ ففي عام 1932 زار سورية الموسيقار محمد عبد الوهاب، ويمم صوب عاصمة الطرب حلب لإقامة بعض الحفلات، وفي حلب التقى الشيخ علي الدرويش، وكان قد تعرف عليه في القاهرة عندما كان الدرويش يقوم بتدريس الموسيقا في معهد فؤاد الأول للموسيقا العربية؛ كما التقى عمر البطش الذي سمع عبد الوهاب عن عبقريته في تلحين

الموشحات؛ وأراد الموسيقار عبد الوهاب أن يمتحن عمر البطش، فطلب منه أن يسمعه موشحاً من مقام السيكاه الصافي. وهذا المقام لا يستخدم في تلحين الموشحات، وإنما يستخدم في ذلك أحد المقامات المتفرعة عن السيكاه؛ وهو مقام الهزام، وكأن عبد الوهاب أراد بطلبه هذا إحراج عمر البطش، لكن عمر البطش ودون أن يتردد لحظة واحدة، أجاب عبد الوهاب أنه سيرتب له سهرة في ليلة اليوم التالي، ويسمعه فيها موشحات من مقام السيكاه الصافي، وبعد ذهاب عبد الوهاب، دار جدل بين علي الدرويش وعمر البطش، إذ احتج علي الدرويش على هذا الموقف الحرج الذي وضعهم فيه البطش، ورد عمر أنه سيعرف ماذا يفعل، وأمضى عمر البطش تلك الليلة في تلحين موشح من مقام السيكاه، وهو موشح (يا معير الغصن لين القد)، وفي نهار اليوم التالي، قام بتدريب تخت شرقي على عزف الموشح؛ وفي سهرة اليوم نفسه سمع عبد الوهاب الموشح بصوت البطش؛ فأعجب بمتانة ألحانه وبراعته في الإلقاء، ولو عرف عبد الوهاب أن البطش لحن الموشّح في الليلة السابقة خصيصاً له، لازداد إعجاباً به بالتأكيد، وتذكر بعض المراجع أن البطش لحن موشحين من مقام السيكاه، والموشح الثاني هو (رمى قلبي رشا أحور)، لكن هذا الموشح من مقام الهزام.

وبموشح (يا معير الغصن لين القد)، فتح عمر البطش الباب واسعاً أمام الموسيقيين العرب لتلحين الموشحات على مقام السيكاه.

ويعود لعمر البطش الفضل في نقل رقص السماح إلى دمشق؛ فرقص السماح فن حلبي خالص كما القدود، وكما فاصل (اسق العطاش). وفي الواقع، فإن الفضل يعود في ذلك أيضاً إلى الزعيم الوطني فخري البارودي الذي كان وراء النهضة الموسيقية الكبيرة التي شهدتها دمشق في الأربعينات وحتى الستينات من القرن المنصرم؛ وخلال زياراته إلى حلب شاهد رقص السماح من فرق حلبية، فافتتن به. وأضمر في نفسه أن ينقل هذا الفن الراقي إلى دمشق. وفي عام 1936، دعا فخري البارودي عمر البطش إلى دمشق؛ ليعلّم طالبات مدرسة دوحة الأدب رقص السماح؛ وبالفعل قام البطش بتشكيل فرقة من طالبات المدرسة، ودربهن على فنون رقص السماح، وقدمت طالبات دوحة الأدب لوحات رقص السماح على

ألحان الموشحات في الحفل المدرسي في نهاية العام الدراسي: وحضر الحفل رجال الدولة ووجهاء دمشق؛ وكان إعجابهم كبيراً.

وفي عام 1947 ـ عندما بدأت إذاعة دمشق إرسالها، وتم افتتاح معهد موسيقي تابع للإذاعة ـ استدعى فخري البارودي عمر البطش إلى دمشق ثانية؛ ليدرس الموشحات ورقص السماح في المعهد، وتتلمذ على يدي البطش في المعهد طلاب أصبحوا فيما بعد من أعلام تلحين الموشح في سورية، منهم: الشقيقان عدنان وزهير منيني، وسعيد فرحات، وبهجت حسان الذي استدعاه عمر البطش من حلب ليتابع دراسته في المعهد، بعد أن لمس عنده موهبة لامعة في تلحين الموشحات؛ وفي فن رقص السماح، تتلمذ على يديه عمر العقاد خبير رقص السماح؛ كما تم تشكيل فرقة لرقص السماح ضمت أربعاً وعشرين طالبة من جامعة دمشق؛ وقدمت الفرقة حفلة رائعة على مدرج جامعة دمشق عام 1949؛ لكن المعهد الموسيقي أغلق أبوابه أواخر عام 1949، بسبب الحملة التي تعرض لها من بعض المتزمتين دينياً، وانفرط عقد الفرقة، وعاد عمر البطش إلى حلب.

وللحقيقة فقد تتلمذ على يد عمر البطش الكثير من الموسيقيين في حلب أيضاً؛ فقد قام بتدريس الموشح في المعاهد الموسيقية بحلب، مثل المعهد الموسيقي الذي أنشأه وأداره الدكتور فؤاد رجائي، ومعهد حلب للموسيقا لصاحبه ومديره ماجد العمري ومن طلاب البطش في حلب إضافة إلى بهجت حسان، عبد القادر الحجار ومحمد نور عثمان من حمص.

وعندما بدأت إذاعة حلب إرسالها عام 1949 تمّ استدعاء عمر البطش؛ ليقوم بتدريب كورس الإذاعة على غناء الموشحات، وكان من أفراد الكورس صبري مدلل وصباح فخري ومصطفى ماهر... واستمر عمر البطش في عمله في إذاعة حلب، حتى رحيله في الحادي عشر من كانون أول عام 1950. فأُسدلت بذلك الستارة على مرحلة مهمة في الموشح، لكن الفنان الراحل ظل حاضراً من خلال موشحاته البديعة التي لا تزال تتردد إلى الآن عبر الفرق التراثية والأصوات الغنائية: ومن الذين غنوا موشحات عمر البطش، ولا يزال بعضهم مستمراً: صبري مدلل، صباح فخري، ياسين محمود، مصطفى ماهر، عمر سرميني، عبود بشير...

ومـن الجـدير ذكـره أن الـبطش لم يحقـق أيّ كسـب مـادي مـن إبداعاتـه الموسيقية؛ فقد كان هدفه خدمة فن الموشح الراقي، لذلك عاش حياة أقل من الكفاف، وعمل في مهن عديدة ليؤمن العيش له ولأسرته؛ فعمل في إطفاء حجارة الكلس مع والده، وفي البناء مع خاله، كما حوّل غرفة من داره إلى دكان لبيع البقالة، إلى أن توفي في مدينة حلب.

إبداعه في الموشح:

استحوذ فن الموشح على اهتمام عمر البطش، وملك عليه نفسه، فكانت جلّ ألحانه في قالب الموشح، ولم يلحن خارج قالب الموشح إلا نادراً، وبلغ عدد الموشحات التي لحنها مئة وأربعة وثلاثين موشحاً، هي من عيون الموشحات العربية.

وتقدم الموشحات عادة في الحفلات على شكل وصلات؛ كل وصلة تتألف من عدة موشحات على مقام موسيقي واحد؛ وتقدم وصلة الموشحات الواحدة متصلة دون توقف أو انقطاع؛ وقد أبدع عمر البطش وصلات كثيرة من الموشحات من مختلف المقامات والأوزان والإيقاعات؛ منها وصلة من مقام السيكاه ضمت موشحات (صاح قم للحان هيا)، (مفرد الحسن المبين)، (حسنك النشوان)، (مبرقع الجمال)، ووصلة من مقام الرصد (منيتي من رُمت قربَهْ)، (يا قاتلي بالتهديد)، (بات يدري وهو معتنقي)، (هذي المنازل)، ووصلة ثالثة من مقام النهاوند (قلت لما غاب عني)، (يا ناعس الأجفان)، (يا منى القلب)، (سبحان من صور حسنك)، (بدر حسن)، ومقام حجاز كاركرد (يا عيوناً راميات)، (يمر عجباً ويمضي)، (طال عمر الليل عندي)، (طف يا بدري بالقناني)، (في الروض يختال الجميل)، (عذبوني ما استطعتم عذبوني)، (يا ذا القوام السمهري)، ومقام النكريز (زارني تحت الغياهب)، (يا قوام البان عنك صبري باق)، (بين قاسيون وربوة) وكلمات هذا الموشح لفخري البارودي، ومن مقام الزنجران وصلة (طلعة البدر المنير)، (إذا دعانا الهوى هبينا)، (طاب يا محبوب شربي)، إضافة إلى وصلات أخرى، وموشحات مفردة في مقامات أخرى. وجميع موشحات البطش تقدم مع رقص السماح.

وكما أبدع عمر البطش في الموشحات، أبدع في رقص السماح؛ فقد ابتكر وصلات مشبكة من رقص السماح ومن مقامات الرصد والحجاز والبيات على

أوزان طويلة نسبياً مثل المخمس والمحجَّر والمدوَّر الشامي والسماعي الثقيل والدارج، ولم يسبقه أو يجارِه أحد في ابتكار مثل هذه التشكيلات البديعة.

وبعيداً عن الموشح... لحن عمر البطش في قالب الدور، والدور قالب غنائي مصري، ومعظم ملحنيه من مصر، وخاض غمار التلحين فيه عدد قليل من الموسيقيين في سورية منهم؛ بكري الكردي والموسيقي الفلسطيني يحيى السعودي الذي أمضى حياته بعد نكبة فلسطين عام 1948 في سورية حتى توفي؛ وعدنان أبو الشامات، ولحّن عمر البطش دورين هما (يا قلبي مالك والغرام) من مقام حجاز كاركرد، ودور (أنا لا أسلا حبيبي) مقام حسيني عشيرات.

وبذلك يكون عمر البطش من العبقريات الموسيقية نادرة الوجود في سورية والوطن العربي؛ ولو أتيح له السفر إلى مصر والبلدان العربية الأخرى لشاعت موشحاته؛ وترددت على كل لسان، لكنّهُ أمضى حياته في سورية، ولم يسافر خارجها إلا مرّة واحدة إلى العراق ـ كما سبق وذكرنا ـ لكن العارفين بالموسيقا في الوطن العربي يدركون قيمة البطش الموسيقية؛ ويعرفون أن معظم مبادرات الإحياء والتجديد في الموسيقى العربية ظهرت في سورية؛ ومنها انتقلت إلى مصر وسائر البلاد العربية.

أحمد بوبس

أحمد مريود

حكاية بطل

(1886 - 1926)

بعد عدّة اجتماعات عقدها أحمد مريود مع الملك فيصل ورجال السياسة العراقيين؛ قال له الملك فيصل: «لقد حُكِمَ عليك بالإعدام أكثر من مَرَّتين، ودُمِّرَ منزلك، وصودرت أموالك... فماذا بقي من تضحيات؟!... وأعلمك أن بريطانية لن تكون راضيةً عن وجودك في سورية؛ لأسباب أنت تعرفها جيداً، وهي قرارك محاربة الاستعمار الغربي الفرنسيّ والبريطانيّ في سورية والأردن وفلسطين والعراق وبلاد الكنانة ووادي النيل». فمن هو هذا الرجل الذي اجتمعت ضده دول الغرب؟

هو أحمد بن موسى بن حيدر مريود، وُلِدَ ونشأ في قرية (جباتا الخشب) عام 1886، واستشهد فيها عام 1926، وله أربعة أخوة ذكور وسبع أخوات إناث، والدته من قرية شبعا التابعة إلى العرقوب، تنتمي أسرته إلى قبيلة المهاودة (المهيدات) المسيطرة على منطقة البلقاء الأردنية، وعلى إثر المصارعة والتصادم بين قبيلة المهيدات وبين عشيرة (العَدوان) المجاورة والمنافسة التي غدرت بالعديد من أعيان (المهيدات)؛ تفرّق شمل (المهيدات)، فمنهم من توجّه إلى الأغوار، والآخر أقام في منطقة (كفر أسد)؛ ثم انتقلت القبيلة إلى عجلون، حيث أقامت ردحاً من الزمان قبل أن تتوجّه إلى الجولان عبر الحولة؛ لتصعد هضبة الجولان حيث سكنوا وأقاموا في موقعهم الرئيسي في بلدة (جبّاتا الخشب)؛ وفيها ربوع (آل مريود). وقيل أن قبيلة (ابن مهيد) في الجزيرة السورية تعود بأصولها إلى (المهيدات)، ومن أمرائها مجحم والنوري وتامر...

كان والده مدرسة نموذجية، ومن هذه المدرسة برز أحمد مريود، وعلى غرار الموسرين في تلك الفترة حرص الوالد على استدعاء الأساتذة إلى بيته لتعليم أولاده أصول الكتابة والقراءة، وحفظ التنزيل الحكيم، ومبادئ الدين القويم، وكان يكرّر على مسامعهم أنّ الدين ليس طقوساً فحسب، بل هو معاملة يومية، ونهاهم عن

التعصب، وغرس في أفراد الأسرة روح العصامية والاعتماد على الذات. بعد دراسته الابتدائية في مدارس القنيطرة انتقل أحمد إلى دمشق حيث أتمّ تحصيله الإعدادي قبل أن يلتحق بمكتب عنبر الذي تخرّج منه أغلبية شبان تلك الأيام، حتى منتصف الثلاثينات من القرن الماضي. وأثناء دراسته في دمشق وبيروت اتصّل بعددٍ من أقرانه؛ وناضل وإياهم ضد التسلّط العثماني وأدخلهم في التنظيم السرّي التابع لـ (جمعية العربية الفتاة) الذي انتسب إليه منذ بدايات عمله الوطني.

وكان أحمد مريود من المؤسسين لتلك الجمعية التي انتسب إليها فيصل بن الحسين بشكل سري؛ قبل أن تصبح علانيةً بعد دخول القوات العربية إلى دمشق في عام 1918، بعد أن رفض أحمد التقيّد بالوظيفة الحكومية، اختار العمل الصحفي، وأسّس جريدة (الجولان) الأسبوعية التي تصدر من القنيطرة؛ وإضافةً إلى كونه رئيس تحريرها، كان يكتب أغلب زواياها التاريخية والسياسية؛ لما فيها من أحداثٍ وعبر. ورغم أن أهالي الجولان كانوا متنوعي السلالات ومتعددي المشارب؛ ثابر أحمد مريود في متابعة سيرة والده في خلق روح المحبة والتفاهم بين الزعامات العائلية والعشائرية. لقد امتلك أحمد مريود كل مقوّمات الزعيم والقائد؛ ومثّل في حياته شعار الصمود في وجه المستعمرين حتى النفس الأخير؛ ولم يرضَ أن يحني رأسه للأمر الواقع، وكإبراهيم هنانو، رفض المبدأ الانتهازي الذي رفعه بعض سياسيي فترته (خُذْ وطالِب)... وقد أجمع معاصروه من أمثال: خير الدين الزركلي وأسعد داغر ومحمد عزّة دروزة وصبحي العمري وسعيد العاص... أن أحمد مريود كان عربي الهموم والمعاناة، لا يفرّق بين أهالي ربوعه والمناطق البعيدة، وكتب الزركلي، مشيراً إلى وقفة أحمد مريود مع أهالي القرى اللبنانية المجاورة، يوم تعرّضوا للمجاعة أثناء الحرب الكونية الأولى 1914 ـ 1918؛ إذ هبّ لنجدتهم في وقت منع فيه العثمانيون نقل الحبوب من سورية إلى لبنان؛ «... فكان يُحَمِّل القمح على خيله، ويمضي رجاله به خلسةً إلى القرى اللبنانية... فأنقذ بهذا عائلات كثيرة كانت معرضة للموت جوعاً».

وفي عام 1915 عندما عمد جمال باشا إلى سَوْق رجال العرب إلى منافي الأناضول؛ عمد جلال البخاري وعز الدين التنوخي إلى الفرار؛ ولجأا إلى أحمد مريود في (جباتا الخشب)، وعرف الأتراك من جواسيسهم بما حدث، وتحسباً

لكل طارئ صحب أحمد مريود مع رجاله المسلحين ضيفيه اللاجئَيْن إلى قرية (كفرسوم) (16 كم شمالي إربد)، حيث نزلوا عند الشيخ كايد المفلح العبيدات شيخ عشيرة العبيدات، وهو من أصدقاء آل مريود، وبذلك سهّل لهما الفرار من بطش السفاح جمال باشا، ولو لبعض الوقت.

في مرحلة الاستقطاب والبحث عن كبار القياديين، كان اسم أحمد مريود يتردّد في المحافل العلنية والجلسات السرية التي كانت تُعقد في القسطنطينية وباريس والمقرّات المؤقتة للجمعية (العربية الفتاة) وغيرها من الجمعيات، المناهضة للاستبداد التركي - الطوراني، مع صعود جماعات (الاتحاد والترقي) إلى قمة السلطة؛ وكان مريود كما ذكرنا من الأعضاء المؤسسّين لجمعية (العربية الفتاة).

وقد عهدت لجنة من الجمعية إليه بمهمة إيواء الفارّين من بطش جمال باشا؛ وتأمين نقلهم إلى الحجاز عبر (جباتا الخشب) فدرعا ثم (كفرسوم) في الأردن؛ ومنها إلى الحجاز... ولأسبابٍ معينة وقع أحمد مريود في قبضة جلاوزة السفاح جمال؛ فسيق إلى مخفرٍ عسكري في عالَيه (لبنان)، ولم ينقذه من حبل المشنقة إلا طالعه السعيد؛ إذ أنّ النائب العام الذي حلّ مراراً في السابق ضيفاً على آل مريود؛ ولقي منهم الضيافة، عمل على إصدار الحكم ببراءته، ومع ذلك أصرّ الجلاّدون على عدم إطلاق سراحه، فظلّ في السجن حتى شهر كانون الثاني 1916 قبل أن يُطلق سراحه. وقد سُرَّ الأمير فيصل - المنتسب حديثاً إلى جمعية (العربية الفتاة) - لخروجه من السجن؛ لأنه رأى فيه الرجل القادر على تعبئة الجماهير وتنظيمها، وعلى اتّخاذ القرارات الحاسمة في الوقت المناسب؛ وأشركه فيصل في صياغة الرسائل التي كان يبعثها إلى الحجاز التي تتضمن معلومات عن التنسيق لقيام الثورة في بلاد الشام والحجاز في وقت واحد؛ وكان لعلاقات أحمد مريود المتشعّبة الدور الأكبر في جمع المعلومات عن تفاصيل الهزائم التي لحقت الجيوش التركية في بلاد القفقاس؛ وأدت إلى سقوط (أرض روم)، ذلك الموقع الاستراتيجي المهم، وأمام الهزائم المتلاحقة للجيوش التركية، وتقدّم الروس جنوباً، أعرب الأمير فيصل عن تخوّفه من أن تتعرض بلاد الشام لخطرٍ داهم، ومن هنا جاء في إحدى الرسائل أنه من الضروري وجود قوّة عسكرية عربية حتى يتمكن العرب من الدفاع عن بلادهم؛ ثم جاءت إعدامات (6 أيار 1916)، فكان الهلع في

النفوس ثم النقمة العارمة... وبعد أيامٍ معدودة من حوادث الشنق، تلقّى الأمير فيصل الأمر من والده بالعودة إلى الحجاز؛ فغادر دمشق يوم (16 أيار 1916) بعد أن نجح في خداع جمال باشا؛ وفي (10 حزيران 1916) أُعْلِنت الثورة العربية الكبرى في مكّة والطائف وسائر مدن الحجاز، ما عدا المدينة المَنوّرة التي كانت بيد الأتراك؛ وبعد إعلان الثورة حرّر الأمير فيصل الأردن، ثم دخل سورية، فوصل في (28 أيلول 1918) إلى مدينة درعا، وفي (30 أيلول ظهراً) رفع الدمشقيون العلم العربي على قاعة المجلس البلدي؛ وفي صباح (1 تشرين الأول 1918) انطلق الشريف ناصر والزعيم أحمد مريود والشيخ محمد الأشمر مع أشخاصٍ بارزين من (محطة القدم - الميدان) إلى السرايا؛ لتسلّم إدارة المدينة المحرّرة، وكانَ للقائد أحمد مريود شرف أول من رفع علم الاستقلال في دمشق.

❖ ❖ ❖

بعد ثلاثة أيام من رفع العلم العربي على السرايا في دمشق من قِبَل القائد أحمد مريود؛ دخل الأمير فيصل دمشق وسط موجةٍ عارمة من الفرح والبهجة؛ وبعده بقليل تبعه الجنرال (اللنبي) على رأس قواته؛ وسرعان ما عُقِد بين الطرفين أول اجتماع حضره كبار القادة العرب وزعماء الحركة الوطنية؛ والقيادة العليا لجمعية (العربية الفتاة) وفي مقدمتهم الزعيم الوطني أحمد مريود؛ لدراسة الأوضاع الجديدة، بعد هزيمة القوات التركية. وقد بدأت تلوح ملامح الخديعة الفرنسية البريطانية بعد أن أمر (الجنرال اللنبي) بإنزال العلم العربي من على الدوائر الحكومية في بيروت؛ رغم أن الأمير فيصل كان قد أمر بذلك في الخامس من تشرين الأول بالنيابة عن والده. وراح حلفاء الأمس (بريطانية وفرنسة) يُمَهدّون لتنفيذ اتفاقية (سايكس بيكو)؛ فكان احتلال المرافئ السورية - اللبنانية، ولجنة كراين الطوباوية، وإعلان فيصل ملكاً على سورية، وقرار مؤتمر (سان ريمو/24 نيسان 1920) بفرض الانتداب على بلاد الشام والعراق؛ وإنذار غورو (14 تموز 1920)، ثم واقعة ميسلون (24 تموز 1920) فاحتلال دمشق وباقي المناطق السورية، أذاق فيها المستعمرون سكان البلاد أشد أنواع القهر والنكال؛ بعدما راحوا يناضلون في سبيل حريتهم... وقد تبدى هذا النضال الدامي في أسلوبين: أحدهما النضال العسكري

الـذي امتـدّ مـن عـام 1919 حتـى نهايـة عـام 1927؛ وكـان لأحمـد مريـود وسـلطان الأطرش الدور الأكبر في الجنوب السوري.

والثاني النضال السياسي الذي بدأ عقب الحرب العالمية الأولى؛ واستمر حتى الاحتفال بعيد الجلاء (17 نيسان 1946)؛ بعد أن تمّ جلاء آخر جندي فرنسي وبريطاني عن سورية في صباح (15 نيسان 1946)؛ بعد احتلالٍ دام ربع قرن.

كانت ثورة الزعيم أحمد مريود فريدة من نوعها حينئذٍ؛ فقد حاربت على جبهتين: الفرنسيين في سورية والبريطانيين في الأردن. فبعد ميسلون انتقلت عمليات المقاومة إلى الأردن؛ للانطلاق منها ضد الوجود الفرنسي - البريطاني؛ وذلك بالتنسيق مع مجاهدي جبل عامل ورجال الثورة في حوران؛ الذين استمّروا بتوفير العمق الجغرافي الاستراتيجي المطلوب لحرب المغاوير - الأنصار؛ تلك الحرب التي أعلنها أحمد مريود انطلاقاً من الأردن، وقد حرص على إشراك المجاهدين من شرقيّ الأردن وفلسطين بالثورة إلى جانب ثوار قَطَنا وقرى العرقوب وجبل عامل وحوران؛ تجسيداً لمبدأ وحدة الهدف القومي، وتحسباً واستعداداً لمجابهة أيّ عدوان بريطاني - صهيوني في المقبل من الأيام؛ بعد أن انكشف تآمر الحلف الفرنسي - البريطاني على العرب، وشناعة المؤامرة عليهم.

كانت منطقة شرقي الأردن يومذاك في وضعٍ غريبٍ؛ إذ بالرّغم من أنها تؤلف جزءاً من الدولة السورية (الفيصلية)؛ فإن الفرنسيين لم يتقدّموا لاحتلالها؛ لاتفاقهم مع الإنكليز في (مؤتمر سان ريمو، نيسان 1920) بأن تخضع هذه المنطقة (شرقي الأردن) للانتداب البريطاني؛ ولمّا لم يكن البريطانيون في وضعٍ يمكنهم من احتلال شرق الأردن احتلالاً مباشراً؛ فقد تمتّعت بحكمٍ استقلالي، ووجد الأحرار السوريون فيها وطناً وامتداداً للوطن بالداخل؛ وظلّت ربوع شرقي الأردن حوالي تسعة أشهر دون حكومة مركزية؛ وهو وضعٌ كان ذا فائدة عظيمة للثوّار بعد ميسلون وبعد مغادرة فيصل دمشق إلى العراق. وقد اختار أحمد مريود قرية كفرسوم التي وصلها في أوائل شهر آب 1920 وأُستُقْبِل عند مشارفها من قبل شيخ عشيرة العبيدات (تركي باش الكايد) وزعماء ووجهاء المنطقة؛ وكان برفقة أحمد مريود ثلاثمئة من الفرسان المغاوير؛ أشرف الشيخ تركي على تأمينهم ضيوفاً أكارم وأعلن في (11 آب 1920) - بحضور صديقه أحمد مريود وأمام حشدٍ من

وجهاء المنطقة - حالة (التآخي) بين عشيرة العبيدات وعشيرة آل مريود؛ وقال: «أنتم المهاجرون ونحن الأنصار، نقتسم وإياكم كسرة الخبز، حتى يهوّن الله أمر الجميع...» وقد أظهر مريود موهبة وخبرة تنظيمية كبيرة في العمل السياسي والجماهيري وعمليات حرب المغاوير الفدائية؛ فلم يمضِ أكثر من أسبوع على إقامته في (كفرسوم) حتى أصبح ورجاله الثوار بكامل الجاهزية القتالية؛ وكان لهم حضورهم المميّز في معركة (خربة غزالة) المعروفة، التي قُتل فيها (علاء الدين الدروبي) رئيس الحكومة السورية المتعاون مع فرنسة يوم 21 آب 1920؛ وقُتل معه أحد وزرائه (عبد الرحمن اليوسف) وبعض الجنود الفرنسيين؛ وقطع الثوار بعد ذلك خطوط المواصلات البرقية والهاتفية؛ وعطلوا سكة الحديد، حتى لُقِّب أحمد مريود بصاحب الذراع الطويلة؛ وكان أول من أطلق عليه هذا اللقب الصحافة الفلسطينية في القدس؛ لكثرة الشكاوى التي كان يتلقّاها المندوب السامي البريطاني من القنصل الفرنسي في القدس؛ وقد ذكرت إحدى صحف القدس: «إنّ الحكومة في دمشق وجّهت إلى أحمد مريود تهمة قتل جنودها في قرية المزيريب القريبة من درعا». وكانت بعض الصحف الصادرة في بيروت والخاضعة للإعلام الفرنسي؛ قد وجّهت تهماً مشابهة إلى أحمد مريود، عندما اجتازت مجموعة من الثوار الحواجز الفرنسية؛ وتوغّلت في داخل محافظة دمشق، حتى وصلت باب سريجة، وقتلت مجموعةً من الفرنسيين. وجاء في شكوى القنصل الفرنسي في القدس (1921/5/25) إلى السلطات البريطانية في فلسطين؛ أنَّ أحمد مريود يلاقي مختلف التسهيلات من بعض زعماء العشائر الأردنية؛ «وأنه يتحمّل مسؤولية الأعمال التخريبية التي تقع في جميع أنحاء حوران، وحتى التي وقعت في دمشق مؤخراً...» كانت القيادات الفرنسية في سورية تتخوّف من ظاهرة النشاط السرّي التي يديرها ويخطّط لها أحمد مريود؛ بهدف إحكام الضغط على المحتلّين وعدم تركهم يستريحون يوماً واحداً... وفي ظلّ هذا المناخ المتوتر قرّر أحمد مريود (اغتيال غورو) في أيّ مكانٍ يمكن اصطياده فيه؛ فأصدر التعليمات لبعض أعوانه برصد تحركات (غورو) ساعة بساعة؛ وبعد فترةٍ وجيزة جاء الخبر من القنيطرة بأن غورو سيتوجّه إليها سائحاً مع شقيقته وإحدى بنات عمّه؛ واتخذّت السلطات الفرنسية مختلف الاحتياطات لتأمين سلامة الموكب. ويصف الجنرال كاترو

المسؤول الأمني عند غورو العملية في مذكراته، إذ يقول: «... وكان من المستحيل الإبقاء على الزيارة سرّية، كما كنتُ آمل، وذلك لأسباب تتعلّق بأمن المفوض السامي نفسه (المقصود غورو)؛ فقد كانت حياته مهدّدة دون شك من قبَل أولئك الذين لجأوا إلى مناطق الانتداب البريطاني؛ وأقصد بذلك شرق الأردن، وقد كان الوطنيون السوريون بزعامة متطرّف يُدعى أحمد مريود؛ يلاحقون تحرّكات غورو منتظرين المناسبة لاغتياله. وهكذا أصدرت الأمر بأن يتولى الحراسة على طول الطريق رجال درك سوريون على أحصنتهم؛ يكون كل واحدٍ منهم على مرأى من الآخر... انطلق الموكب في سرعة تتقدّمه سيارة الجنرال القوية، وكانت السماء مشعة، وفي الأفق بدا جبل الشيخ طاغياً، وكان رجال الدرك كلٌّ في مكانه... وما إن تخطى الموكب الطريق السهلة، وابتدأ يتخذ طريق الجبل، حتى بدا أربعة من رجال الدرك بثياب مهلهلة وهم يحملون بنادق الموزر، وقد هرعوا إلى المكان الذي يُفْتَرض أنهم يحتلونه؛ وبعدَ أن تخطّى الموكب المنعطف الجبلي فتح الفرسان الأربعة النار؛ يدعمهم شريك خامس كان مختبئاً وراء الصخور. وفي الطلقات الأولى أُصيّبَ الكُولُونل بارنيت - الذي هبّ واقفاً - إصابة قاتلة، وسقط على الطريق، وأُصيب حقي بك العظم إصابة خفيفة... أما غورو فكانت حصته ثلاث رصاصات. ليس هناك شكٌّ في أن الذي دبّر الاعتداء هو أحمد مريود، هذا الوطني السوري المتطرّف الذي لجأ إلى إربد، وأقام على الحدود نفسها»... وفي اليوم نفسه سيّر الفرنسيّون حملة كبيرة بقيادة الكولونل (روكر)، فاجتاحت جباتا الخشب - منطقة آل مريود - وأوفاتية والشوكتلية وطرانجة حول جباتا الخشب... وغيرها؛ زاعمة أن أهلها آووا رجال المقاومة، وأذاعت السلطات الفرنسيّة بلاغاً رسمياً أعلنت فيه: «أن العدوان جرى على يد عصابة قادمة من لواء عجلون».

وترتّب على محاولة الاغتيال نتائج محلّية ودولية هامة، فقد نبّهت الرأي العامّ الدولي إلى مظالم الانتداب الفرنسي؛ ولم يعد أمام الجنرال غورو إلا أن يتّبع خطوات التراجع عن إجراءاته السابقة إرضاء لأهل البلاد في الداخل؛ ولتهدئة الضجة الدولية في الخارج، ولم يعد باستطاعة غورو أن يستمرّ طويلاً في منصبه بعد الحادث؛ وانتهز فرصة خلافه - بعد أن اهتزّت مصداقيته السياسية والعسكرية - مع حكومته في باريس حول الموازنة المخصّصة لنفقات شؤون

الانتداب؛ وتقدّم باستقالته من منصب المفوّض السامي الذي كان يُعْتَبَر أهم منصب في فرنسة فيما وراء البحار... بعد محاولة القضاء على حياة الجنرال غورو ازدادت شكاوى الفرنسيين والإنكليز ضد تواجد رجال المقاومة السوريين على الحدود السورية - الأردنية؛ ولاسيّما ضد رجال أحمد مريود، وراحت السلطات البريطانية تضغط على المسؤولين الأردنيين؛ للحدّ من نشاط رجال المقاومة، بل ولإبعادهم عن الأراضي الأردنية، ووجهت سلطات الانتداب بتاريخ 1924/8/19 إنذاراً إلى حكومة الأمير عبد الله تضمّن عدة مطالب، منها :

أ) إخراج المتهّمين بالتحريض في حوادث الحدود (المقصود هنا رجال المقاومة).

ب) قبول اتفاق تسليم (المجرمين) المعقود مع سورية.

فوافقت حكومة الأمير عبد الله، وأعلنت قبولها الإنذار يوم 1924/8/21، وطلبت إلى زعماء المقاومة السّوريين مغادرة البلاد.

وقد ضمّت القائمة الأولى التي غادرت الأردن بناءً على ضغط السلطات البريطانية: أحمد مريود، نبيه العظمة، عادل أرسلان، سامي السراج، أحمد حلمي، محمود الهندي، وغيرهم... فسافروا إلى معان، ومنها توجهوا إلى العقبة، حيث أقاموا لمدة أسبوع في منزل المجاهد محمود الهندي؛ وعقدوا عدة اجتماعات، ناقشوا فيها الوضع العربي العامّ، والسبل الكفيلة؛ لدفع حالة النهوض القومي من جديد في كافة أقطار الوطن العربي بعد الاحتلال الإنكليزي - الفرنسي للمشرق العربي؛ واستخلص المجتمعون حقيقة أولية، وهي أن سياسة الاستعمار الغربي تستهدف غرضين اثنين لا يمكن الفصل بينهما : فمن جهة، استعمار البلدان العربية من مشرقها إلى مغربها اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً وثقافياً وعقائدياً؛ ومن جهةٍ ثانية اعتبار مناطق العالم العربي كافةً كنقاط انطلاق؛ لبسط النفوذ الغربي الاستعماري على سائر أنحاء آسية وإفريقية...

وقد أوضح أحمد مريود لرفاقه المبعدين معه من الأردن؛ أن على العرب وحدهم توجيه مصائرهم، على الرغم من ضعفهم في مجالاتٍ كثيرة؛ إلا أنهم يتمتّعون بعناصر قوة، وأولها الوضع الجغرافي المميّز الذي يحتله الوطن العربي على ملتقى القارات الثلاث؛ وحدوده الشاسعة التي يمكن أن تتيح له إرساء سياسة اقتصادية شاملة؛ عدا عن أن مقومات كيان الأمة العربية تجد جذوراً لها في وحدة التاريخ واللغة والمصير،

وخلص المجتمعون إلى النتيجة الحتمية: لا استقلال بدون وحدة، ولا وحدة بدون استقلال كامل. لقد سبق أحمد مريود عصره عندما قال: «إن مشاركة جميع العرب في هذا الصراع الحاسم ضرورة مصيرية لا يمكن الاستغناء عنها؛ وإذا لم تكن القدرات العربية موظفة جميعها، لا يمكن الوصول إلى الأهداف التي نناضل من أجلها، فالتكامل العربي يعني النجاح العربي لا أكثر ولا أقلّ».

بعد ذلك توجّه أحمد مريود إلى الحجاز؛ ومنها إلى العراق، حيث تابع نشاطاته السياسية والإعلامية منطلقاً من وحي إيمانه بمبادئ وأهداف الأمّة العربية؛ ومما قاله للملك فيصل في أول لقاء بينهما منذ مغادرة فيصل بلاد الشام: «إن إسقاط الحكم في الحجاز، ونفي الشريف حسين إلى قبرص، وفرض الانتداب على سورية وفلسطين، وطرد المجاهدين من الأردن، وتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، هي نكبات وويلات في الواقع العربي؛ ولا يمكن تجاوزها أو السكوت عنها ...»، وقد وعد الملك فيصل بتقديم كافة المساعدات الممكنة للمجاهدين في سورية؛ وكذلك بتسهيل النشاطات السياسية والإعلامية للجماعات السورية المتواجدة في بلاد الرافدين... وعاود أحمد مريود نشاطاته السياسية والإعلامية، واتخذ (خانقين) ـ شمال شرق بغداد ـ مكاناً لتحركاته، والْتَفَّتْ حوله مجموعةٌ من رجال الفكر والسياسة العرب.

وفي خضَمّ لهيب الثورة السورية الكبرى 1925 ـ 1927، طلب أحمد مريود من الملك فيصل التحرّك باتجاه الرأي العامّ العالمي؛ لفضح حقيقة الإرهاب الفرنسي بحق الشعب العربي السوري؛ وفي الأسبوع الأول من شهر تشرين الأول 1925 عقد أحمد مريود اجتماعاً في منزله، شارك فيه عددٌ كبير من رجال الفكر والسياسيين العراقيين والسوريين؛ وقرّروا توجيه رسائل إلى الضباط السوريين المقيمين في مصر والأردن والحجاز؛ لترتيب أوضاعهم من أجل الرحيل إلى سورية لقيادة عمليات المقاومة ضد الفرنسيين؛ ورَفْد الثورة برجال ذوي خبرةٍ عسكرية قتالية؛ وعلى ضوء ذلك وجّه أحمد مريود رسائل شملت: شوكت العائدي حسين المدفعي، عبد الوهاب عمر باشا، شكيب وهاب، عمر شاكر، سعيد العاص، فؤاد سليم... إلخ، وقد استشهد أغلب هؤلاء في ساحة الشّرف في ذلك الصراع المرير ضد الطغيان الفرنسي!

وقد قال الزعيم أحمد مريود في كلمة الوداع لأهل العراق: «الوداع يا أهل العراق، لا تراجع عن قرار عودتي إلى سورية، إنه قراري الصريح الذي ينبع من المبادئ التي آمنت بها، وجمعنا عليها حزب الاستقلال (وريث جمعية العربية الفتاة) كلنا دون فارق... كان سفري سابقاً بقرار المستعمر الغربي وإلى منفى جديد، أما الآن فالقرار من وحي إرادة الشعب، وتلبيةً لرغبة جماهير المجاهدين في سورية، وأُذكّر المناضلين بالعبارة التي أصبحت تاريخية؛ وقالها الملك في دار البكري يوم تنفيذ الإعدام بالمجاهدين: «طاب الموت يا عرب»، فها أنا أعيدها لكل العرب «طاب الموت يا عرب»».

وبعد بضعة أيام عَبَر الحدود الأردنية من منطقة (الرويشد)، وقصد مواقع (بني صخر)، وما لبث أن تحرّك ركبه إلى (جبل العرب) برفقة مجاهدين من (الخرشان) انضموا إلى جماعة أحمد مريود؛ وفورَ وصوله إلى جبل العرب بدأ مشاوراته مع زعيم الثورة السورية سلطان باشا الأطرش وكبار الثوار في الجبل الأشم.

كان في استقبال أحمد مريود عند قرية (جدل) في (اللجاة) القائد العام للثورة السورية الكبرى سلطان باشا الأطرش؛ وذلك في 30 نيسان 1926، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، والأمير عادل أرسلان وغيرهم من وجهاء وزعماء جبل العرب؛ وفي مساء اليوم نفسه انتقل أحمد مريود ومستقبلوه إلى قرية (القريّا) بلدة سلطان الأطرش؛ حيث جرت المناقشات الكفيلة بتفعيل الثورة؛ لنشرها في مختلف المناطق السورية، وقد انضم المجاهد عز الدين الجزائري إلى اجتماعات (القريا)؛ وكان أحمد مريود يعلم أنه أمام مسؤولية كبيرة في حشد جهود كل المخلصين للتخلص من حالات اليأس والتردّد؛ ودفع مسيرة الكفاح الوطني والقومي إلى أعلى درجات النهوض والانتشار والاستمرارية؛ وكان صريحاً مع الجميع، عندما اقترح مناقشة أسباب الخلافات في كل من جبل العرب والغوطتين، وعكّار أيضاً، فجرى تقييم المرحلة الكفاحية للثورة من عام 1919 وسبب انحسارها في بعض المناطق؛ وضعف أدائها في مناطق أخرى، كما تمّت مناقشة الدور الإنكليزي في التآمر على الثورة؛ وَزَرْع حالة التيئيس عند زعامات بعض المناطق. ومن المعروف أن رجال وزعماء المقاومة السوريين اختلفوا وتنازعوا لأسبابٍ تعود إلى كيفية توزيع الإعانات المرسلة إليهم، وتشكيل لجانهم، وزاد من خلافاتهم عندما ظهرت ملامح انقسام

حزب الشعب (بزعامة الشهبندر) والاستقلال (شكري القوتلي) حول المفاوضات مع الفرنسيين التي تبنّى فكرتها (دُوّجُوّفْنل)، وهو أول مفوض سامي فرنسي مدني حلّ مكان (الجنرال ساراي) العسكري السفّاح في أوائل تشرين الثاني 1925؛ بهدف إنهاء القتال، وذلك قبل عودة أحمد مريود من العراق. استبعد أحمد مريود دمشق من أن تكون عاصمة الثورة في مراحلها الأولى؛ ولكنه رأى أن يكون للزعامات الوطنية الدمشقية الدور الأبرز في فعاليات الثورة السورية الكبرى؛ وحرص مريود أن تشمل اتصالاته معظم القوى والشخصيات الوطنية بغض النظر عن ميولهم السياسية وانتساباتهم الحزبية؛ فعن طريق شكري القوتلي اتصّل بأطراف الكتلة الوطنية (حزب الاستقلال سابقاً)؛ وعن طريق عبد الرحمن الشهبندر - رئيس حزب الشعب - اتصّل بجماعات رجال الفكر والمثقفين وبعض الجمعيات الحرفية؛ وعن طريق (علي آغا زلفو) و(آل الجزائري) اتصّل بالشخصيات الوطنية المستقلّة؛ ولعب آل الجزائري دورهم في الاتصال ببعض الرجال ذوي الأصل المغربي؛ وجاء في الروايات ذكر حوادث كثيرة تؤكد مساعدة الجنود والضباط المغاربة في الجيش الفرنسي للثوار المجاهدين السوريين؛ منها إطلاق الرصاص في الفضاء خلال الاشتباك معهم؛ وترك الذخائر لهم في أرض المعارك ليستفيدوا منها؛ وجاء ذكر العديد من أسماء أولئك الجنود المغاربة الذين انضمّوا إلى صفوف رجال الثورة السورية الكبرى 1925 ـ 1927.

كما عقد أحمد مريود عدة اجتماعات ولقاءات في قرى وبلدات الغوطتين؛ وفي كل اجتماع ولقاء كان موضع الاحترام والتقدير والقبول بقيادته؛ فوضع أهالي المليحة وجوبر وحرستا وكفر بطنا وزبدين وغيرها من القرى والبلدات أنفسهم تحت تصرّف الثورة وقائدها؛ وكان يُركّز بأحاديثه على عروبة الثورة، وأنها من حيث المبدأ والهدف يجب أن تكتسب صفة المشروع القومي؛ تبدأ بسيادة الشعب السّوريّ ووحدة سورية وتحريرها لتصل إلى الهدف القومي بتحرير الأقطار العربية الأخرى من الانتدابات الغربية. وقد تمكّن من استقطاب زعامات المناطق التي زارها وأن يذكي روح التحدّي والتعصّب لشرف الانتماء القومي؛ ثم توجّه إلى مسقط رأسه (جبّاتا الخشب)، والتقى بعد غيابٍ طويل بأرضه وأهله وأسرته؛ ولكنه كان لقاء رفقاء السلاح أكثر منه لقاء الأهل والأحبّة... وبعد اليوم الأول من

وصوله إلى (جباتا الخشب) راح قائد الثورة يتصّل بالقيادات السورية؛ يدعوهم فيها إلى رفد الثورة بالمجاهدين، وبدأت الجموع تتوافد على بيت جن وجباتا الخشب التي نجح أحمد مريود في وضعها في دائرة الضوء؛ والشيء الذي كان مفخرة لجيل الشباب من آل مريود أنه لم يَعْفِهم من حمل السلاح رغم صغر سنّهم؛ كالكبار في صفوف المجاهدين، أمثال ابنه البكر حسين وشقيقه محمود؛ وكانا طالبين بروضة المعارف في القدس؛ ولم يتجاوزا بعد سن السادسة عشرة، وقد أمرهما بتأجيل دراستهما، والانخراط الجهاد لتحرير الوطن.

❖ ❖ ❖

بعد عودة أحمد مريود إلى سورية دَبَّ القلق في أوساط سلطة الانتداب الفرنسية؛ وبعد أخذ وردٍ بين المسؤولين الفرنسيين في دمشق وبيروت، كانت الغلبة للرأي القائل بمحاولة استمالة أحمد مريود عن طريق المفاوضات؛ ضاربين عرض الحائط بقرارين أصدرتهما السلطات الفرنسية: الأول عام 1920 والثاني 1924، ويقضيان بالحكم عليه بالإعدام... ومن هنا كانت محاولة المستشار الفرنسي الذي طلب عقد لقاء خاص مع مريود في مركز المستشارية في القنيطرة؛ إلا أنّ أحمد مريود العارف بأساليب المستعمرين رفض هذا اللقاء جملةً وتفصيلاً؛ وعلّق على محاولة المستشار الفرنسي؛ كما يقول سعيد العاص: «إن هذا المأمور لا يملك صلاحية الإفراج عن سجين، ولا يستطيع فعل أكثر من تحريك دورية درك».

وقبل معركة (جباتا الخشب) التاريخية بأيامٍ معدودة قام المستشار الفرنسيُّ في القنيطرة - مجدداً، وبتكليف من المندوب السامي الإفرنسي المقيم في بيروت - بالاتصال مع زعماء الجولان؛ وأبلغهم رغبة فرنسة بالتفاهم مع أحمد مريود؛ وقد نقل زعماء الجولان رغبة المندوب السامي ومستشاره إلى مريود؛ واقترحوا تشكيل الوفد المفاوض برئاسته؛ إلا أنه رفض الفكرة من أساسها وقال لهم:

«إن في الأمر خديعة، فلا المستشار ولا المندوب السامي، ولا كل الجنرالات الفرنسية في سورية ولبنان، يريدون منح سورية الاستقلال، إنها والله خديعة وحيلة قذرة».

وكان أحمد مريود مُحِقّاً، فلم تكن المقترحات والمحاولات الفرنسية إلاّ من أجل الحدّ من حماس الجماهير والمماطلة والإفادة من الوقت لإكمال خطّة مهاجمة

(جباتا الخشب) ولمنع مباشرة الغارات والهجمات على مواقع وثكنات الجيش الفرنسي؛ وقد ثبت فيما بعد أن السلطات الفرنسية العسكرية والسياسية، كانت تخطّط للقيام بمعركة خاطفة في ظلّ المفاوضات المزعومة، وهذا ما حصل فعلاً يوم 31 أيار 1926...

راحت القوات الفرنسية تحشد جحافلها في القنيطرة استعداداً للزحف على مواقع رجال المقاومة ومركز قيادتهم في جباتا الخشب؛ وفرضت منع التجول في الأماكن القريبة من أماكن احتشاداتها؛ كما منعت الدخول والخروج من وإلى القنيطرة؛ وزرعت الأسلاك الشائكة في مختلف المواقع المحيطة بالمدينة. وفي مساء 26 أيار 1926 أوفد (عاصم محمود باغ) من أعيان القنيطرة (أحمد الخبّي) من القنيطرة المعزولة، إلى الزعيم أحمد مريود؛ بعد أن أخرجه من تحت الأسلاك الشائكة التي نصبها الجيش الفرنسي؛ ليعلمه بالهجوم على جباتا الخشب... وعلى إثر ذلك أرسل أحمد مريود بعض رجاله للاستطلاع؛ فشاهدوا على مسافة ثلاثة كيلومترات من جباتا الخشب طليعة القوات الفرنسية، عندها أمر أحمد مريود بعض رجاله وأقاربه بالتوجّه إلى المرتفعات الجنوبية؛ وتوجّه هو إلى الجهة المقابلة باتجاه خان أرنبة؛ وحرّك مجموعة أخرى باتجاه مرتفع (كرم السيد)؛ وأبقى الأمير عز الدين الجزائري مع مجموعة من الدمشقيّين في مدرسة القرية... مع إعلان أحوال الاستنفار الدائم؛ وفي ليلة الثلاثين من أيار أخذت القوى الفرنسية المرابطة في القنيطرة تزحف باتجاه جبّاتا الخشب؛ حتى باتت على أبواب البلدة، وعند الفجر انطلقت دبّابات العدو وفرسانه شطر السهل القريب منها؛ وانقض المشاة على الناحية الأخرى، فغدت جباتا الخشب مُطَوَّقة بكاملها... ومع الفجر تعالت طلقات النار في الفضاء، فأصدر أحمد مريود تعليماته للمجاهدين بالانتشار نحو المرتفعات الجنوبية والتصدّي لقوات المشاة طليعة القوات الفرنسية؛ فوقعت معركة بين الطرفين، وتمكّنت قوات الثوار من دحر قوات المشاة الفرنسية التي انسحبت إلى الخلف؛ وشاهد الأهالي قوات المشاة الفرنسية وهي تهرب من أمام رجال أحمد مريود للاحتماء بالقوات الفرنسية المحمولة... وبعد دقائق معدودة من دحر قوات المشاة الفرنسية، حَلَّقت في سماء جباتا الخشب سبع طائرات فرنسية، وتقدّمت القوات المحمولة على عشرات السيارات المصفّحة والدبّابات والمجنزرات؛ بالإضافة إلى قوات الخيّالة، وأخذت هذه القوات تهاجم من جميع الجهات؛ وتسللت الدبّابات، وأخذت - مع الطائرات - تقصف

مواقع الثوار في التلال الجنوبية والحرش وموقع المدرسة؛ حيث يقاتل الأمير عز الدين الجزائري والثوار الدمشقيين من آل العسلي؛ وكما يقول المجاهد (سعيد العاص): «تمكّن الأمير عز الدين الجزائري وحده من قتل 13 جندياً فرنسياً... كما حصد عبد اللطيف المغربي ثمانية رجال من العدو بواسطة رشاشته التي نصبها على سطح أحد المنازل... وظلّ يقاتل بشجاعة الأبطال حتى كسب الشهادة (وهذا الشهيد: من الجنود المغاربة في الجيش الفرنسي، انضم لرجال الثورة السورية كغيره من إخوانه المغاربة... وكانت ملحمة رائعة سقط فيها من آل مريود وأقاربهم في ساحة الشرف حوالي (42 شهيداً) إضافةً لباقي الشهداء من آل العسلي الدمشقيين؛ واخترق رصاص الغدر والحقد خاصرته وكتفه وذقنه... فسقط أحمد مريود الذي عاهد الله والوطن وما أخلف بوعده؛ ليطهّر تراب الجولان وجباتا الخشب ووطنه العربي بدمه الطاهر الطهور!

في حديثه عن معركة (عين ترما) بتاريخ 1926/10/24 في غوطة دمشق يقول (فوزي القاوقجي) مشيراً إلى الذي غدر بأحمد مريود (المقصود عثمان شركس): «... وكانت معركة رهيبة، فالقوى غير متكافئة، والمسافات قريبة، والشجاعة التي أبداها مجاهدونا لا توصف، كذلك أظهر الجنود المغاربة المنضمّون إلينا شجاعة فائقة؛ وقد نتج عن المعركة خسائر فادحة في الفرنسيين وفينا... وكان من بينهم عددٌ من خيرة رجالنا، منهم مظهر السباعي وعبد القادر مليشو وكثير من المغاربة، وقُتل من الفرنسيين خمسة وبعد خمسة أشهر فقط نال الخائن الذي غدر ببطلَ الأبطال أحمد مريود القصاص العادل، على يد رفاق أحمد مريود...

لم تكتف زمرة الإرهاب الفرنسي بالقتل، بل عمدت إلى نقل جثمان الشهداء وفي مقدمتهم البطل الشهيد أحمد مريود، حيث عرضت الجثث في ساحة الشهداء (المرجة)... لم يقيموا للموت حرمة... وتُركت الجثث تحت أشعة الشمس، وعندما تقرّر نقل الجثث إلى المدافن، رفض أهل دمشق وقادة الأحياء الشعبية السماح لآل مريود بنقل جثمان الشهيد إلى جباتا الخشب؛ ذلك لأنه شهيد الشعب كله، وأصرّوا على دفنه في احتفال دينيٍ وطني شعبي مهيب في مقبرة (قبر عاتكة)؛ أحد الأحياء الدمشقية العريقة، وأُقيم له ولرفاقه مأتمٌ شعبي كبير...»

د. محمد محفل

أحمد منيف العائدي

مؤسس المؤتمرات الطبية العربية

(1886 - 1962)

بعد أن شرعت أشعة الفجر الذهبية تكسر هيمنة السواد الحالك، وبعد أن تثاءبت الأعشاب والأشجار، وأعلنت عن يقظتها، خرج الشيخ إلى شرفة بيته المتربع فوق رابية، تطلَّع إلى الأفق، وقد امتزجتْ في عينيه علامات الرضا، معشّقة بالحزن. كان يعرف أن الزمن لا يمنح الخلود الجسدي لأحد، ولكنه يسمح للإنسان بخلود آخر أعظم وأجل: إنه خلود الروح.

فكّر الرجل العجوز أحمد منيف عثمان العائدي بتاريخ حياته الذي مضى. هل كان راضياً فعلاً بما قدمه؟ هل حقق كل ما يتمناه على الصعيد الشخصي والإنساني؟

شعر بالبرد، فشدَّ عباءته الصوفية على جسده، وتابع جولته بالنظر إلى سهول الزبداني الخضراء الفاتنة... تنهد، محدّثاً نفسه: «أجل، إنه خريف العمر».

كانت هذه نهاية رحلته في العلم والعمل الجاد، ولم تكن هذه النهاية مفرحة إلى الحد الذي يرحل معه سعيداً، لقد كان حالماً كبيراً، وآملاً في أن يرى العرب جميعاً قوة متراصّة، وأن يستعيدوا أمجادهم الماضية. ألم يكونوا فعلاً سادة العالم في العلم والمعرفة؟ ألم تكن دمشق وبغداد منارتي علمٍ؟ وغاص في بحر من الذكريات، وبعض دموع تنسكب على وجنتيه ببطء دون أن تضل طريقها في تجاعيد وجهه.

لقد تراءت له الدول العربية، وقد خلعت حلة القهر والاستغلال، ولبست حلتها القشيبة بعد الاستقلال، لكن الوطن ما زال غير قادر على توحيد كلمته بوجه الطامعين.

هنا في دمشق وفي ربيعها الضاجّ بالألوان وُلد الطفل أحمد منيف عثمان العائدي عام 1886، وقد سرق لون عينيه من زهور البنفسج التي تستأثر بسهول البساتين المحيطة، كان يوم مولده يوماً سعيداً بالنسبة لأبويه اللذَين كانا ينتظران مولودهما البكر، ولحسن حظه أن أبويه كانا يحبان العمل والعلم، ورَبياه تربية صالحة مثالية، ووضعا العلم في أول سلم أولوياتهما تجاهه. كان الأب (عثمان) يشغل أعلى منصب سوري في سراي دمشق. أمّا الأم (نظيرة القائد) التي تعود بأصلها إلى أسرة عريقة في ليبيا، فقد تميزت بعقلها الراجح وذكائها اللامع.

كانت سورية آنذاك ترزح تحت الاحتلال العثماني، وكان العثمانيون لا يودون أن يرقى العلم في البلاد العربية، بل ناضلوا لأجل إبقاء الناس في جهل مطبق، وتكريس اللغة والثقافة التركيتَين.

أراد الأبوان إرسال ابنهما إلى حضانة، وذلك حين أصبح في عمر الثالثة، ولكنهما لم يجدا فيها ما طمحا إليه وما يخططان له، فما كان منهما إلا أن كرسا جهدهما لتعليمه في المنزل. وعندما بلغ السادسة من عمره، دخل المدرسة الأميرية، وأخذ يتعلم الدروس. لم يطل الأمر حتى لاحظ معلموه تفوقه وذكاءه، وهنا أضافوا إلى اسمه الأول كلمة (منيف) ليدعى بعد ذلك (أحمد منيف). وتابع الطفل دراسته إلى أن أنهى الثانوية.

كبر الطفل، وبلغ سن الخامسة عشرة، وفي هذا الوقت ظهرت ميوله لدراسة الطب؛ فانتسب عام 1901 إلى مدرسة تعليم الطب بدمشق، وكانت هذه المدرسة فرعاً لمدرسة الطب في إستانبول. وبسبب نجاحه وتفوقه اختاره أستاذ الفيزيولوجيا لمساعدته في الدروس العملية، وتابع نشاطه العملي بالتردد على شعبتي الأمراض الداخلية وأمراض الأطفال في المستشفى العسكري الوطني بدمشق؛ وبدأ طموحه يكبر، فسافر إلى كلية الطب في إستانبول، وأكمل دراسته فيها، ثم حصل على شهادة الدكتوراه عام 1906، وعاد إلى دمشق ليمارس مهنته في الأمراض الداخلية وأمراض الأطفال.

لم تكن السلطات العثمانية راغبة في تعليم أبناء البلاد اللغة العربية، أو حتى اللغات الأجنبية، فقام الوطنيون بالعمل على تأسيس مدرسة أهلية وطنية، وفي عام 1907، قدَّم أحمد منيف العائدي عدداً من الآراء السديدة

حول هذا العمل الوطني؛ فأسندت إليه إدارة المدرسة التي اتخذت مركز المدينة موقعاً لها؛ ثم نقلها العائدي لضيقها إلى دار واسعة كبيرة بين قصور آل العظم بالقرب من قصر العظم، وسميت (المدرسة العلمية الوطنية). ولأنه من أسرة ميسورة جداً ومنعمة، فقد صرف من جيبه الخاص على المستلزمات الضرورية لهذه المدرسة، وجلب المدرسين إليها.

لا يمكن للعائدي أن يرضخ لهذه الشروط التركية القاسية التي ترمي إلى تجهيل العرب بتاريخهم وقتل الحاضر المرتجى؛ حوَّل ما يتمناه إلى أهداف نذر نفسه لتحقيقها.

تمتع مؤسس المدرسة العلمية الوطنية الدكتور أحمد منيف العائدي برؤية ثاقبة؛ فأدخل إلى المدرسة أنظمة التعليم الحديثة، وبدأ بتعليم اللغة العربية والفرنسية، رافضاً محاولات التتريك المستمرة، وأصبحت المدرسة تعجُ بالطلاب من دمشق والمحافظات السورية وحتى من البلاد المجاورة، وذلك لما اتصفت به من حسن تعليمها وتنظيمها وإدارتها الحازمة، وقد تولى التعليم فيها عدد من كبار الأساتذة، منهم: الشاعر الكبير خليل مردم بك الذي درَّس اللغة العربية لأكثر من عشر سنوات، وتخرج على يديه فحول التلاميذ، ومنهم الشاعر نزار قباني الذي يحكي ذكرياته عن تلك المرحلة قائلاً: «إنه لمن نعمة الله علي وعلى شعري معاً، أنّ معلمي الأول الذي تتلمذت عليه كان شاعراً من أرق وأعذب شعراء الشام، وهو الأستاذ خليل مردم بك. هذا الرجل الذي ربطني بالشعر منذ اللحظة الأولى، وكان من حسن حظي أنني كنت من التلاميذ الذي تعهدهم هذا الشاعر المفرط في حساسيته الشعرية. فقد كان له الفضل العظيم في زرع وردة الشعر تحت جلدي وفي خلاياي وأنسجتي. وأنا مدين له ما حييت».

أدخل أحمد منيف العائدي تدريس اللغات الأجنبية من فرنسية وإنكليزية، وخصص دروساً للخطابة والرياضيات والاجتماعيات، من تاريخ العرب والإسلام إلى تاريخ فرنسا وأوروبا وتاريخ العرب في إسبانيا؛ وكذلك فقد أدخل تدريس الفيزياء والكيمياء والاقتصاد والحقوق التجارية والحساب التجاري والفلسفة؛ وقد تولى تدريس الفلسفة الأستاذ جميل صليبا المتخصص بالفلسفة من باريس،

ومن بعده تولى تدريس هذه المادة الدكتور نعيم الرفاعي والأستاذ فاخر عاقل والأستاذ زكي الأرسوزي.

كان للصحة العامة مكان بين الدروس، كما أن تحسين الخط العربي كان من بين المهام التي وضعها العائدي على عاتقه، فأشرف على تدريس هذه المادة الخطاط الشهير (ممدوح الشريف) الذي كان يعتبر أكبر خطاط في الوطن العربي، وأسندت دروس القرآن وتجويده إلى الأستاذ محمد جميل الميداني، ولكن العائدي لم يتوقف عند العقلية دون البدنية، بل أدخل دروس الرياضة البدنية، وتفردت مدرسته (المدرسة العلمية الوطنية) بأنها أول مدرسة تؤسس للفرق الكشفية المدرسية، بالإضافة إلى إقامة الحفلات التمثيلية التي قدمت شخصيات وطنية تاريخية عربية.

دخلت (المدرسة العلمية الوطنية) عهداً جديداً، بعد أن توافد إليها عدد كبير من الطلاب، وأصبح فيها قسم داخلي، فما كان من لجنة المدرسة إلا أن رفعت اسم المدرسة إلى درجة (كلّية)، وعندما تزايدت ثقة الناس بها أسس الدكتور العائدي مدرسة للإناث، واختار لها أفضل المدرسين والمدرسات، واستقدم للتعليم والإدارة بعض الاختصاصيين والاختصاصيات في شؤون الإدارة والتعليم من الدول الغربية، وتهافت الأهل على إرسال بناتهم إلى هذه الكلية الجديدة التي تميزت أيضاً بافتتاح قسم داخلي للقادمات من خارج دمشق، وكانت هذه الكلية أول مؤسسة علمية تقوم بتأسيس حركة المرشدات.

رفع أحمد منيف العائدي راية العلم في عهد الظلام، ونشر الوعي والعلم والمعرفة بين من يقدرونها ويسألون عنها. وقد كتب الدكتور عبد الغني العطري عن ذكرياته في الكلية العلمية الوطنية، وذكر أسماء رفاقه في هذه الكلية، بدءاً من عدنان العائدي الابن الأكبر لأحمد منيف ومدير الكلية لاحقاً، ونزار وصباح ومعتز قباني، والدكتور بديع الكسم أستاذ الفلسفة وعضو مجمع اللغة العربية، ومراد القوتلي الوزير السابق، وعلي بوظو وزير الداخلية السابق، والدكتور صلاح الدين المنجد الأديب والكاتب المعروف. ويضيف العطري مخاطباً أحمد منيف العائدي: «فيا أيّها الرجل! حامل لواء العلم ومشعل النور والمعرفة، يا عدو الجهل والظلام،

يا أستاذنا ومربينا ومعلمنا وموجهنا الذي أنقذنا من الجهل، ونقلنا إلى عالم الحضارة! سلام عليك».

أنفق الدكتور أحمد منيف العائدي من ماله على بعض طلاّب الكلية العلمية الوطنية، وكان واحد من بين كل عشرة يدرسون على نفقته، وكان يؤمّن لهم الكتب وكل ما يتعلق بالدراسة.

دخل العثمانيون الحرب العالمية الأولى، وأستدعي أحمد منيف العائدي للخدمة العسكرية، وأُلحق طبيباً عسكرياً في الجيش التركي، وكُلّف بتدريس مادتي الفيزياء والتشريح لطلاب المدرسة الحربية. ولم يمض وقت حتى تمَّ نفيه مع أسرته إلى الأناضول رداً من السلطة العثمانية على هذه الأسرة التي فرَّ ابنها الضابط (شوكت) من الجيش التركي؛ والتحق بالجيش العربي الزاحف من الحجاز إلى دمشق لمحاربة الأتراك وطردهم من البلاد العربية؛ وكان الشرط التركي لعودتهم إلى الوطن يتمثل بتسليم الابن الفار.

أعلن شوكت العائدي (شقيق أحمد) عن نقمته على الحكم التركي الساعي إلى تتريك العرب، ووجد في الثورة العربية في الحجاز الأمل في الخلاص من الأتراك، فانضم إليها، وأصبح ضابطاً لإحدى فصائلها.

لم تكن السياسة التركية سياسة متهاودة مع الوطنيين الأحرار الذين كانوا يسعون لنيل استقلالهم؛ لذلك فقد أرسلت ذلك الرجل الأشد كرهاً وانتقاماً من الوطنيين، إنه جمال باشا السفاح، الذي افتتح حكمه بتعليق الوطنيين الأحرار على أعواد المشانق، وكانت حادثة الإعدام هذه هي السبب في التحاق شوكت بجيش الثورة العربية التي قادها الشريف حسين عام 1916. مع اندحار العثمانيين، أصبح شوكت العائدي ضابطاً في الجيش السوري برتبته نفسها، ولم يسكن (شوكت) حين احتل الفرنسيون سورية، بل ثار وتمرد، فأدى ذلك إلى خروجه من سورية مع فيصل بطلب من الفرنسيين، ثم تسلل إليها مع اندلاع الثورة السورية عام 1925، وكان من الذين شاركوا في التخطيط لها، وأصبح قائداً لإحدى فصائلها في غوطة دمشق، وذكره البطل الوطني (فوزي القاوقجي) في مذكراته، وتحدث عن قيادته وبطولته في معارك الغوطة، واستشهد (شوكت) في آخر معركة في الثورة السورية.

شاركت والدته نظيرة القائد في الثورة، ولكن ليس بالسلاح وخوض المعارك، بل بمجازفتها يومياً بالذهاب إلى مكان تمركز ابنها في الغوطة، وهي تحمل له الذخيرة وسلال الخبز والفواكه. كانت تسير مسافة طويلة بين الأحراش، لتصل إلى ابنها ورفاقه وتحثهم على مواصلة الثورة حتى النصر على الفرنسيين.

تربى الأخ الأصغر عبد الكريم العائدي على يدي أحمد منيف، وتخرج من مدرسة الكلية العلمية الوطنية، ودخل المعهد الطبي العربي، وانتسب إلى قسم طب الأسنان، وحمل شهادة دكتوراه في هذا الاختصاص. عمل عبد الكريم سراً مع الوطنيين الأحرار، وكافح الانتداب الفرنسي، اشترك في تأسيس عصبة العمل القومي، وكان أحد أعضاء مجلسها التأسيسي والقيادي، أصدر جريدة العمل القومي باسمه، وساعد أخاه في إدارة الكلية العلمية الوطنية، وبعد الاستقلال وجلاء المستعمر الفرنسي تسلم منصب قائمقام منطقة دوما، فأنشأ فيها مستشفى وأدخل الكهرباء إليها، وبعدها عُيّن مديراً للشرطة والأمن العام، ثم محافظاً لدرعا ثم محافظاً لحماة، ثم محافظاً لدير الزور، وأخيراً تسلم منصب المفوض الأول لمقاطعة إسرائيل في البلدان العربية التابعة لجامعة الدول العربية.

تأججت الروح الوطنية في أحمد منيف العائدي باكراً، رداً على الاستعباد التركي لشعب سورية والوطن العربي. وعندما تأسست الجمعيات الوطنية على أيدي الأحرار العرب الناقمين على لسلطات العثمانية، كان أحمد العائدي أحد أركانها ومؤسسيها. عمل هؤلاء الأحرار بسرية على تأسيس جمعياتهم، وبدؤوا يقاومون المحتل بنشر مبادئ العمل على نيل الحرية واستقلال الوطن. وفي دمشق تأسست جمعية الإصلاح الوطني الدمشقية، التي برز فيها الدكتور أحمد منيف العائدي كأحد أركانها الرئيسيين.

خرجت تركيا من الحرب العالمية الأولى ضعيفة جداً، فطمح السوريون بالأمير فيصل ملكاً عليهم. واستقر في دمشق عام 1919، واتخذها مقراً له. بدأ الوطنيون يتصدون للمشاكل التي واجهوها في التربية والتعليم، ووجد الأطباء أن مشكلة الخريجين الجدد من مدرسة الطب التركية يجب أن تُحلّ، فما كان منهم إلا أن طالبوا بتأسيس مدرسة لتعليم الطب باللغة العربية، ودعيت (مدرسة الطب العربية)، ثم ما لبثت أن سميت (المعهد الطبي العربي). وشُكّلتْ لجنة من كبار

الأطباء لاختبار الطلاب الخريجين من تركيا، وكان الدكتور أحمد منيف العائدي أحد أعضاء هذه اللجنة، بالإضافة إلى الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، والدكتور رضا سعيد، والدكتور محمود حمدي، والدكتور عبد القادر الزهراء.

أسرعت اللجنة باختيار الأماكن التي تصلح للدروس والمخابر، وانضم إلى هيئة التدريس عدد من الأطباء الآخرين الجيدين. إلا أن ظروف العمل اضطرت البعض إلى ترك المعهد الطبي العربي، وفي مقدمتهم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي انسحب من المعهد لتسميته وزيراً للخارجية في الحكومة الفيصلية، وكذلك انسحب الدكتور محمود حمدي، حيث ذهب إلى السعودية بدعوة خاصة لتنظيم الشؤون الصحية في المملكة، وانسحب أيضاً الدكتور عبد القادر الزهراء، ليصبح طبيباً في الجيش العربي.

تسلم الدكتور أحمد منيف العائدي منصب أستاذ الفيزيولوجيا، إضافة لإدارته للكلية العلمية الوطنية، وقيامه بتدريس أمراض الأطفال، وتنظيم برامج التدريس الأسبوعية، ثم أسندت إليه مهمة تدريس مادة الطبيعة الطبية، إضافة إلى كل ذلك. ولكنه بنفس الوقت لم يهمل عيادته الخاصة، واستمر في مداواة الناس.

بهمة عالية كان العائدي يعطي الدروس العملية في مخبر الفيزيولوجيا الذي أسسه بنفسه؛ وكان يقوم بإجراء التجارب لوحده أولاً، حتى يتأكد من نجاحها، ثم يعرضها على طلابه.

تزوج العائدي عام 1919، من فتاة كريمة من أسرة الشيشكلي الحموية، ورزق منها ستة أولاد: ثلاثة ذكور، هم: عدنان وغسان وعثمان، وثلاث إناث، هن: عائدة وأميمة ولمياء. طغى التفاهم على جو العائلة، وساد حب العلم والتربية الصالحة. كانت السيدة شهيرة الشيشكلي أمّاً صالحة وفية، ربت أولادها على المحبة والصدق والتفاني في العمل، ساعدت زوجها في توفير حياة تناسب مركزه الطبي المرموق وأحلامه الكبيرة.

ورغم كل الميّزات التي انفرد بها كطبيب، إلا أن ولعه بالعلم لم يتوقف عند هذا الحد، لذلك فقد قرر الذهاب إلى باريس لمتابعة الدروس النظرية والعملية، وقضى هناك سنة تلقى خلالها جديد الطب، وتعمق في اختصاصه في الفيزيولوجيا. عاد بعدها ليشرف على التدريس في المعهد الطبي العربي، وقد

زادته هذه الرحلة معرفة وتجربة. كان هذا عام 1920. وفي عام 1931 سافر ثانية إلى باريس مطلع العام الدراسي، وقد زادت لهفته إلى جديد الطب التجريبي الذي يتطور سريعاً في العالم الغربي.

فكر العائدي في مشروع يهدف إلى تقدم الطب العربي، فأسس في رأسه مشروعاً في تعريب الطب، ودعا إلى إقامة المؤتمرات الطبية القومية العربية، كان يرى أنه لا مستقبل لأمته، إذا لم يكن أبناؤها يتعلمون كل العلوم بلغتهم العربية. فهذه اللغة بنظره كانت قادرة على استيعاب كل المفردات العلمية الجديدة ولديها إمكانية الدخول في منافسة مع اللغات العالمية.

باعتباره أحد مؤسسي المعهد الطبي العربي، فقد أراد لهذا المعهد السوري أن يشهد له بالنجاح على مستوى الوطن العربي؛ ولاسيّما أنّ مصر كانت رائدة في هذا المجال. وهكذا فقد قام بجهود كبيرة للاتصال بالأطباء المصريين الكبار، وأقنعهم بالحضور إلى دمشق، ليستمعوا بأنفسهم إلى تعليم الطب بالعربية، كل هذا والدول العربية ترزح تحت انتداب الدول الغربية؛ واستطاع بسبب حكمته وجلده ووطنيته إقامة لقاء بين الأطباء العرب عام 1936؛ وكان أول مؤتمر عربي في التاريخ، جمع بين أبناء مصر والعراق وسورية وفلسطين، سمي (المؤتمر الطبي العربي الأول)، واعترف الجميع بجدوى تعليم الطب باللغة العربية، القادرة على التماشي مع المستجدات العلمية، وتعريبها بسهولة.

هكذا بدأت فكرة المؤتمرات العلمية الطبية العربية، وقد نجحت فعلاً، وأصبح الأطباء السوريون، بعد المؤتمر الأول، هم المقبولون في الدول العربية، التي فضلت الطبيب السوري على سواه.

لم يستطع أحمد منيف العائدي أن يخبّئ فرحته واعتزازه بالمعهد الطبي العربي؛ فألقى في افتتاح المؤتمر الأول كلمته الترحيبية قائلاً: «إن معهدنا الشاب أكبر أداة في نقل العلوم الحديثة إلى لغة الضاد، إن لم أقل الأداة الوحيدة، فلا المجامع العلمية- مع كثرتها- ولا الأفراد مع غيرتهم وافتتانهم بلغة جدودهم، بقادرين على القيام بهذه المهمة التي تستدعي جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً، ولولا الواجب الذي يدعونا إلى نقل هذه العلوم إلى تلامذتنا الذين عُهِد إلينا تثقيفهم

تثقيفاً ينطبق على أحدث البرامج في أرقى جامعات أوروبا، لما كنا نحن أيضاً نقوم بمثل هذا العمل الشاق».

برز المعهد الطبي العربي خادماً للغة الضاد، إنه يخدم العرب وينشر ثقافتهم، ويوصفه العائدي: «إن المدينة التي لا يظلل سماءها اليوم إلا معهد واحد، ستجعل من هذا المعهد العربي صرحاً يحيي الطب العربي ويرفع اسم العرب».

تسلم الدكتور أحمد منيف العائدي إدارة المعهد الطبي العربي في ثلاثينيات القرن العشرين؛ ثم أعيد انتخابه في أربعينيات القرن. ولم يتوانَ عن إيفاد المتفوقين في المعهد، وعن رفع شأن التدريس والأساتذة وتحسين حال المخابر، مع إضافة كل ما تحتاج إليه من الأجهزة والأدوات التدريسية الحديثة. كان العائدي على ثقة بأن من سيحمل لواء العلم هم أولئك الذين جدوا في نيل الشهادات العلمية الكبيرة، وهم من سيشغل المناصب العلمية فيما بعد.

لم يتوقف نشاط العائدي الوطني على ريادته في الطب، بل تعدى إلى العمل في المجال الزراعي الاقتصادي. أدرك أن هذا البلد الزراعي يحتاج إلى تنظيم القدرات الزراعية، وزجها في السوق الوطنية، واستثمار الزراعات في بنية الاقتصاد الوطني.

كان من الأوائل الذين فكروا في تطوير الصناعة المكملة للزراعات السورية، وبدأ بجد عمله في إنشاء صناعة حفظ الخضار والفواكه وتعليبها منذ عام 1934. لم تكن صناعة المعلبات عندها معروفة في دمشق إلى أن تم تشييد معمل الكونسروة والصناعات الزراعية، وقد تسلم رئاسة اللجنة التأسيسية شكري القوتلي، وبعد استقالته تسلم العائدي هذا المنصب. ولم يمض وقت قصير حتى دب النشاط في هذه الشركة، وارتفع سعر السهم الواحد من خمس ليرات إلى (165) ليرة خلال أربع سنوات، وتضاعف إنتاج الشركة، وانتقلت من كفاية السوق المحلية إلى تصدير منتجاتها إلى مختلف الدول العربية.

حقق العائدي في حقل الاقتصاد الزراعي تطوراً مهماً. وحين وجد أن الأمور في الشركة قد سارت حسناً، التفت إلى عمله في التدريس وإدارة المعهد.

عمل العائدي من أجل مجد العرب والإسلام، وقد وصف على لسان الدكتور منير العجلاني بأنه من رواد النهضة في بلاد الشام، وهو رجل نادر بين أبناء جيله، هو في صدارة من نادوا بتعريب اللغة الطبية، وأول من جمع منذ العشرينات أطباء الوطن العربي قبل استقلال الأقطار العربية، حين لم تكن الجامعة العربية أو لقاءاتها تخطر في بال أحد. ونادى لجمع الوطنيين في الثلاثينيات من أجل إقامة عدد من الصناعات المفصلية التي تنعش الاقتصاد الوطني وتقويه.

بقي أحمد منيف العائدي في ذاكرة الأجيال التي علّمها، وذكره بفخر كل الذين تتلمذوا على يديه. يروي الدكتور صباح قباني عن العائدي الذي صمم بأن تكون المدرسة الوطنية التي أسسها، كلية لا تقل مستوى عن أرقى الكليات القائمة في الغرب، قائلاً: «هذا هو إذاً، أحمد منيف العائدي الذي جعلنا كباراً قبل أن نكبر، والذي علَّم كل الذين كتب لهم قدرهم السعيد أن يتخرجوا على يديه كيف يحلمون أحلاماً مثل أحلامه، وكيف يجعلون من تلك الأحلام إنجازات يفخر بها الوطن جيلاً بعد جيل».

لم تكن المؤلفات الطبية مكتوبة بالعربية بعد، فقرر العائدي رفد المكتبة العربية بأولى المؤلفات العربية؛ وكان أول من ألف الكتب الطبية باللغة العربية، دعماً لتعليم الطب بهذه اللغة. بلغت مؤلفاته آلاف الصفحات، وقد جهد فيها باستخلاص المصطلحات من الكتب العربية القديمة، ومحاولة استقدام المصطلحات الحديثة في الغرب وتعريبها. ألّف كتاباً سماه (الغرائز)، وقع في خمسة أجزاء، وكتاباً آخر سماه (الموجز في مبادئ التشريح والغرائز البشرية)، أما كتابه الثالث فكان (مباحث في الغرائز المرضية والأمراض التجريبية)، وسمى كتابه الرابع (أمراض الأطفال).

يعد كتابه (أمراض الأطفال) الأول من نوعه في خزانة الطب العربية، بسبب تفرده بأبحاث خاصة بهذا الاختصاص، في حين كان طب الأطفال مندمجاً بين شعب الأمراض الباطنية قبله. وشرح العائدي سبب كتابته لهذا الكتاب قائلاً: «وعندها لمستُ ما يلقى الطفل في غير بلادنا من الاهتمام، وأدركت النصيب الذي تخصه به الأقوام المتمدنة من عنايتها وعطفها، وشعرت أن في بلادنا عامة

ومعهدها الطبي العربي الوحيد خاصة نقصاً لا بد من تلافيه، وفرجة لا مناص من سدها، فقررت العزم على التطوع والقيام بتلك الخدمة».

وكذلك فقد سد كتاب (الغرائز المرضية والأمراض التجريبية) ثغرة كبيرة في مكتبة الطب العربية الحديثة، وأعلن الدكتور العائدي أن هذا المنهاج الذي كتبه وقام بتدريسه، هو زبدة علم الأحياء وحلقة الوصل بين هذا الأخير وعلوم الأمراض الباطنية والجراحية.

نجح أحمد منيف العائدي في إرسال أولاده لدراسة العلوم في أفضل الجامعات العالمية، تخرج ابنه عدنان من السوربون وقد نال شهادة الدكتوراه في التربية وعلم النفس، وعندما عاد إلى سورية في عام 1945 بدأ بمساعدة والده في إدارة كليتي الذكور والإناث والتعليم فيهما، وأدخل عدنان طرقاً حديثة في التعليم، استقاها من المناهج الغربية، واختار أفضل الأساتذة، وتابع مشروع والده في الارتقاء بالتعليم في سورية، واستمر في دعم المؤسستين والنهوض بهما على الوجه الأفضل.

لم يقطف الأب ثمار تعليم ابنه الثاني غسان الذي نال شهادة الدكتوراه الدولية في العلوم الكيميائية من باريس، وذلك بسبب الحادث الذي تعرض له غسان، فأودى بحياته بعد عودته بزمن قصير إلى الوطن.

فجع الأب أحمد منيف مرتين؛ الأولى موت زوجته بمرض عضال 1945، والثانية هي موت ابنه غسان. وقد بقي مدة سنتين دون زواج إلى أن رأى ضرورة الزواج بامرأة مثالية ترعى شؤونه، فتزوج السيدة زهراء الحفار ابنة لطفي الحفار رئيس وزراء سورية السابق، عاش مع زوجته حتى عام 1962، عندما وافته المنية، وقد قدرها وأوصى بإكرامها بعد وفاته.

كتب وصيته لأولاده، وتمنى أن تهدى كتبه الدينية إلى مكتبة جامع الروضة، والكتب العلمية إلى جامعة دمشق، وقد نفذ أولاده الوصية.

عاد الابن الثالث من باريس حاملاً شهادة الدكتوراه في الهندسة من جامعة السوربون عام 1956. وفور استقراره في الوطن اختير لوظيفة مدير للشؤون الفنية للمشاريع الكبرى في سورية؛ لكنه لم يستمر في ذلك العمل، لرغبته في العمل الحر. أنجز عثمان العائدي بناء عدة سدود كسد الرستن ومحردة، وأنجز شبكة الارتباط

الكهربائية ما بين المدن السورية، إضافة إلى تدريسه للهندسة المائية والهيدروليك في كلتي الهندسة في دمشق وحلب، ومن الأعمال التي اشتهر بها سلسلة الفنادق الضخمة المسماة (الشام)، إضافة إلى ترميم مدينة أفاميا الأثرية.

هل الحياة مجرد حلم؟ أم أنها ذلك الواقع الذي لا نرضى به، فنسعى لتدجينه وفق ما نتمنى؟

ربما سمح أحمد منيف العائدي لصياغة حياة كما يرغب ويتمنى، ولكنها أسعفت الكثيرين، وأعطت الخير لمن يسعى إليه، ترك إرثاً علمياً طبياً، وعملاً ناجحاً لا يمكن أن ينساه أحد، طمح أن تستمر كليتا الذكور والإناث في التطور والنمو، ولكن التأميم لم يحقق له ذلك. أرسل الطلاب إلى الجامعات الغربية للاختصاص على نفقته الخاصة، وتبرع لكل منشأة وجد فيها الخير للوطن.

كان لا بد للدكتور أحمد منيف العائدي أن يستريح أخيراً، وأن يجلس جلسة صفاء مع ذاته، ويستعيد تاريخ حياته. غادر دمشق، واستقر في الزبداني في قصر يتربع على رابية تطل على بساتين التفاح والخوخ المترامية، حافظ على وقاره وهيبته أمام الناس، وظل الناس يحبون الاستماع إلى حديثه الجميل وحكمته البالغة، كانوا يرونه في كل صباح يجلس على شرفة قصره، متدثراً بعباءته الصوفية، وقد سرح بصره في الأفق، يسلمون عليه، فيرد سلامهم بابتسامة وود كبيرين.

ذات صباح من عام 1962 لم يكن الرجل العجوز، صاحب العباءة، يجلس في مكانه على الشرفة، ولم يعد بعدها يجلس فيه، لقد غادره إلى الأبد، ولكن اسمه بقي محفوراً في ذاكرة الناس، فأطلقوه على الشارع الذي كان يطل من قصره عليه.

عقبة زيدان

فخري البارودي

زعيم الشباب

(1887- 1966)

في مشهد غير اعتيادي، إبان اشتداد الاضطرابات في سورية تحت الانتداب الفرنسي، خرجت نساء دمشق بمظاهرة، انطلقت من مسجد الأقصاب؛ يحملن لافتة كتب عليها «نحن فتيات العرب، ليحيا الوطن، ليحيا الوطن». قُبض على 11 سيدة، وكنّ من عائلات دمشقية معروفة، سُجنَّ في دائرة الشرطة، وقُدِّمْنَ في اليوم التالي إلى المحكمة الاستثنائية بتهمة المشاغبة، وإقلاق الراحة العامة، والتحريض على الثورة، والعصيان، وتحقير رجال الشرطة بموجب قانون قمع الجرائم. عندما جاء دور الادعاء، وقف (المسيو مورغان) المدّعي العام الفرنسي، وطلب إيقاع أقصى العقوبات عليهن؛ لردعهن وردع أمثالهن. في معرض مرافعته أهان المدعي العام السوريين، ووصفهم بأنهم أنذال، يختبئون في دورهم، ويرسلون نساءهم للتظاهر في الشوارع.

تصدى فخري بك البارودي للمسيو مورغان، ووجه إليه كتاباً بصفته نائباً عن دمشق في البرلمان، قال فيه: «بما أنكم أهنتم العرب الذين لا ينامون على ضيم، والمعروف أن نساءهم يساعدْنَ الرجال في جميع مرافق الحياة لاسيّما في الحروب.... أطلب منكم سحب كلمتكم التي أهنتم بها السوريين، والاعتذار لشعبي الكريم، وإلا فإني أدعوكم إلى المبارزة بالسلاح الذي ترغبونه، وإني بانتظار الجواب، وإذا رفضتَ المبارزة، ولم تجبني على كتابي بالاعتذار مع النشر في الصحف، فإني أُعدُك جباناً».

شاع الخبر في دمشق، وقامت قيامة الفرنسيين، واجتمع كبار رجال سلطة الانتداب والقواد العسكريين ومعهم القضاة؛ تشاوروا فيما يفعلون، فلم يتفقوا على قرار. في تلك الأثناء ذهب مندوب المسيو مورغان، وحسب المعتاد سأل البارودي تعيين نوع السلاح، فقال باعتداد: «لا فرق عندي بين السيف والمسدس». فسأله

المندوب: «هل تفضل المسدس؟» فقال البارودي، بأنه لم يستعمله منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، لكنه سيتمرن إلى أن يحين وقت المواجهة. عاد الفرنسيون وتباحثوا في أمر المبارزة وما قد ينجم عنها، فوجدوا أنه إذا قُتل المدعي العام فويل لفرنسا من العار، وإذا قُتل البارودي الذي تحداه فويل لها أيضاً مما سيقع في البلاد من اضطرابات. بعد تداول الرأي قر قرارهم على أن يعتذر المدعي العام، فأعلن المسيو مورغان في بيان نشر في الصحف، أنّ الجرائد المحلية حرَّفت مطالعته في محاكمة سيدات دمشق تحريفاً سيئاً هيج الرأي العام؛ والحقيقة هي أنه لم يقل أن السوريين أنذال وجبناء، بل قال إن الرجل الذي يرسل زوجته إلى الشارع للتظاهر، ويختبئ في داره نذل وجبان. أما السوريون فهم أبطال في جميع مواقفهم، كما أنهم رجال أشراف أثبتوا للعالم رجولتهم في جميع مواقفهم، فليطمئن الشعب السوري.

تندرت سورية طويلاً بهذه الحادثة، وطار خبرها إلى بلدان المهجر، وكتب عنها صاحب جريدة (البيان) في نيويورك كلمة قال فيها: «فارس لفارس، اثنان لفارس، عشرة لفارس، ألف لفارس، فرنسا لفخري البارودي».

❖ ❖ ❖

من هو فخري البارودي؟! هل هو مالك أراضٍ ثري ومتلاف، أم هو ذاك البرجوازي الأنيق لطيف المعشر، أم الناشط السياسي والنائب الذي أشهر عداءه للانتداب الفرنسي، وفرّط بإرثه وأمواله في سبيل سورية، وانتقد الحكومات المأجورة والوطنية انتقادات جريئة، أم هاوي الموسيقى والرقص والشعر والأدب، أم الرجل المرح، والمتحدث اللبق الممتلئ بالحياة مع حس مشبع بالفكاهة، وسخرية طليقة من القيود الاجتماعية؟!

البارودي كل هذا معاً، ودونما استثناء، على أنه ثمةَ جانبان بارزان في شخصيته، الجانب الأول: وطنية لم يعتورها الوهن طوال عقود من الحكم العثماني والانتداب الفرنسي؛ ومن بعدها سنوات الاستقلال المضطربة، إلى أيام الوحدة والانفصال وبدايات حكم البعث. والجانب الثاني: المشاكسة في الحرب والسلم، في العواصف وأيام الهدوء النسبي. وإذا كان الفرنسيون قد وصفوه بالتهور، فقد وصف نفسه بالمجنون؛ بل ويدعي بأنه كان مشاغباً منذ سن

القماط. في الجزء الأول من مذكراته يتذكر عندما كان في مدرسة (مكتب عنبر) طالباً في القسم الداخلي؛ لم يكن يسمح لطلاب القسم حسب النظام المعمول به بالذهاب إلى البيت إلا يوم العطلة الأسبوعية؛ ويُحرم الطالب من الخروج إذا ارتكب مخالفة. البارودي لم يحظ طوال سبع سنوات قضاها هناك بقضاء عطلة في البيت، كان محروماً على الدوام.

وطنيته المتأججة وطرافة مشاغباته لم تغب عنها ثقافة حياتية تأخذ من التراث العربي والمؤثرات التركية والفرنسية مع إحساس فني رفيع؛ يضاف إليهما هواية لنظم الشعر، كانت حاضرة في كل مناسبة صغيرة كانت أم كبيرة.

❖ ❖ ❖

تعكس حياة البارودي 1887 ـ 1966 تاريخ سورية السياسي والاجتماعي والثقافي بعنفوان فريد قلَّ نظيره.

ولد في حي القنوات بدمشق، وكان الولد الذكر الوحيد لوالديه، فتربى في العز «على الدلع والدلال»، أُرسل في صغره إلى (الخجا نفوس) فحفظ القرآن وختمه ولمّا يتجاوز السادسة من عمره. يصف المكان الذي تلقى فيه القرآن: «كان داراً صغيرة، فيها غرفة متسعة يجلس فيها الأولاد، منهم من يأتي بطرّاحة أو جلد شاة، لا يزيد عمر أكبرهم عن السابعة، يجلسون من الصباح إلى المساء في هذه الغرفة الرطبة، وإذا تكلم أحدهم أو لعب، أكل فلقة. وكانت الخجا نفّوس كسيحة لديها عصي مختلفة الأطوال لضرب الأطفال؛ فلا يفوتها طفل قريب أو بعيد. وكانت كبيرات البنات يقمن بخدمة الدار من كنس وشطف وجلي، أما الصبيان فمنهم من يشتري حوائج الخجا، ومنهم من ترسله لجلب الزوادات من بيوت الأغنياء. بعدها انتقل إلى (الكُتَّاب) وهو شبه مدرسة أهلية يتعلم فيها الصغار مبادئ القراءة والكتابة والحساب عند شيخ يتناول أجرة أسبوعية؛ ولم يكن الكُتَّاب أحسن حالاً من الخجا، كان أشبه بزريبة رطبة لحبس الأطفال، والأستاذ الشيخ يستخدمهم للكنس والشطف وخدمته مع ضيوفه. في سنّ العاشرة سيرسله والده إلى المدرسة (العازارية)، ثم ينتقل إلى المدرسة الريحانية، فالياغوشية التي نال منها الشهادة الابتدائية.

في الثالثة عشرة من عمره، يدخل المدرسة الإعدادية: (مكتب عنبر) الذي تخرج منه كبار رجالات سورية من السياسيين والأطباء والحقوقيين والتجار كشكري القوتلي وفارس الخوري وفوزي الغزي، كان تلميذ المكتب في تلك الأيام يتمتع بمكانة عالية في المجتمع نظراً لتفشي الجهل، ومن يحرز الشهادة يعد من أرقى الشبان.

حصل على الشهادة عام 1908 في السنة التي وقع الانقلاب العثماني: «كنّا يومئذ في الصف السابع، والسنة على وشك الانتهاء، فقامت القيامة، وخرج المنادون ينادون في الأسواق بإعلان الدستور والحرية والمساواة والعدالة؛ وأقيمت الزينات، وراح الناس يهتفون مع الهاتفين دون أن يفهموا شيئاً مما جرى».

كانت حلقة الشيخ محي الدين الخطيب مع حلقة الشيخ طاهر الجزائري من أكبر الحلقات الأدبية والثقافية؛ وتدعو إلى تعلم العلوم العصرية، ودراسة تاريخ العرب وتراثهم الأدبي والعلمي، والتمسك بالأخلاق الدينية، والأخذ بالصالح من المدنية الغربية. هذه الحلقات كانت نواة لجمعيات ظاهرها الأدب والعلم وباطنها توحيد الجهود للنضال، ومنها الجمعية القحطانية وجمعية العهد الجديد وجمعية الإخاء العربي. في هذه الأجواء نشأ فخري البارودي وكان بيت والده يدعى (بيت الأمة) ملتقى الطبقة الراقية المتعلمة، كان الأب محباً للآداب والفنون، ويقتني مكتبة ضخمة حافلة بشتى الكتب والمخطوطات، ورثها ابنه فخري ومنها تعلم وتثقف.

انغمس في تيار الحركة المنبثقة عن الانقلاب العثماني، وصار يخطب في الناس، وكان للصحف المصرية (المقطم والأهرام والمؤيد) أثر كبير في تنوير الرأي العام؛ فأخذ مع زميل له بإصدار جريدة باللغة العامية، تنتقد وتعلق على أمور البلد السياسية بشكل هزلي ضاحك اسمها (حط بالخرج).

التحق بالجندية للتمرن على حمل السلاح، وأُعفي بعد ثلاثة أشهر لدفعه البدل. ثم عمل كاتباً في محكمة الاستئناف، طلب من أبيه أن يرسله إلى باريس لمواصلة دراسته، فلم يوافق وعزم على تزويجه، فتمرد عليه وهرب من البيت، استقل قطاراً إلى فلسطين، وسافر بحراً إلى فرنسا لدراسة علم الزراعة، بعد مضي سنة يقطع أبوه عنه المصروف، ويعيده من مونبلييه إلى دمشق ويزوجه.

ينضم إلى جمعية (العربية الفتاة)، ويشارك في النشاط القومي السري، يدخل مدرسة الضباط الاحتياط العثمانية بعد نشوب الحرب العالمية الأولى عام 1914، ويتخرج وكيل ضابط، ينضم إلى صفوف الجيش العثماني، وعُين ضابط إعاشة وقائداً لنقليات الفرقة التي كان يرأسها مصطفى كمال أتاتورك، يقع أسيراً في أيدي القوات الإنجليزية في معركة بئر سبع، يفرج عنه ويعود إلى دمشق، بعد فترة قصيرة يعلن الشريف حسين الثورة العربية الكبرى من الحجاز. في عام 1917 يتطوع في جيش الثورة، فيعينه الأمير فيصل - بعد مبايعته ملكاً على سورية في البلاط الملكي - مرافقاً له ونائباً لرئيس الشرطة. بعد إنذار الجنرال غورو وهزيمة ميسلون يغادر الملك فيصل سورية، وتدخل الجيوش الفرنسية إلى دمشق، يضطر البارودي للّجوء إلى شرق الأردن إلى أن يُسمح له بالعودة بعد عام بناء على عفو فرنسي؛ فينصرف إلى إدارة أراضيه في دوما.

تلوح بوادر ثورة عام 1925، وطنيو البلد ووجهاؤها يساعدون الثوار بالمال والسلاح، الفرنسيون يحاولون قمعها، فيقصفون دمشق، ويدمرون حي الميدان بشكل شبه كامل مع عمليات اكتساح ضخمة للريف، ويقبضون على الوزراء الوطنيين، وينفونهم إلى الحسكة، يبرز البارودي مجدداً، ويصبح أحد الدعاة الرئيسيين للثورة، ويعمل على التحريض ضد الفرنسيين، فيعتقل ويسجن في قلعة دمشق، وتجري محاكمته بعد تسويف، ويفرج عنه بعد مئة يوم دون أن تثبت إدانته. تنتهي الثورة، يتوارى بعيداً عن السياسة، ويعمل على إنشاء مصنع للأجبان والحليب. مع تأسيس الكتلة الوطنية عام 1928 ينضم إليها، ويسهم بسخاء - أسوة بغيره - في تمويل أعمالها.

في محاولة للتهدئة يعلن المفوض السامي دوجوفِنل عن انتخابات للجمعية التأسيسية؛ لوضع دستور للبلد، ينجح الوطنيون ومنهم البارودي، لكن السلطة الفرنسية ترفض مشروع الدستور، وتحل المجلس بعد شهرين من انتخابه.

في عام 1929 سيكون القوة الدافعة في ولادة تنظيم (الشباب الوطني) من طلبة المدارس الثانوية والجامعة، وقد أتاحت له اهتماماته الفكرية الواسعة في الأدب والفنون والموسيقى العربية أن يظل على تماس مع التيارات والأساليب الفكرية الرئيسية التي اجتذبت الشباب في فترة ما بين الحربين.

ينشط البارودي في الصحافة، ويطالب بانتخابات نيابية حرة، ومرة ثانية في عهد المفوض السامي المسيو بونسو تجري انتخابات ومجلس جديد: يُنتخب محمد علي العابد أول رئيس للجمهورية السورية عام 1932، يعقد مع المفوض السامي معاهدة صداقة وتحالف، ردّها المجلس النيابي لإساءتها لاستقلال سورية. مرة أخرى يتعطل المجلس إلى أجل غير مسمى، يفتتح (مكتب البارودي لخدمة القومية العربية) يعمل على نشر الوعي القومي والدعاية للقضايا الوطنية وأهمها: الحصول على الاستقلال التام عن فرنسا، وإلغاء المعاهدة المجحفة، وفي الوقت نفسه يضع (مشروع الفرنك)، ويروج له ويقضي بأن يدفع كل مواطن فرنكاً واحداً في الشهر، تُنفق في دعم مشاريع تعليمية مثل إقامة مدارس ليلية لتعليم الكبار العلوم الحديثة والآداب الوطنية؛ ونشر المدارس الابتدائية في الريف.

في عام 1934 يتحول مكتبه إلى (المكتب العربي القومي للدعاية والنشر)، وكان أول مؤسسة أبحاث عربية متخصصة بالنشر المنهجي للدعاية والمعلومات العربية؛ تضم لجنة استشارية من الجيل الجديد درس معظمهم في أوربا، عمل المكتب على تحقيق غايتين: الأولى خارجية، وهي الدعاية للقضية العربية، وإسماع صوت العرب للرأي العام الأجنبي، وشرح قضيتهم، وإفهام الشعوب حقيقة المظالم الاستعمارية الواقعة على الشعب السوري. والثانية داخلية، وهي بث الأفكار الوطنية، وإذكاء روح القومية، وإدماج جميع العصبيات من طائفية وإقليمية وقبلية وعائلية في العصبية القومية الجامعة، أصدر المكتب عدداً من الكراسات بشأن القضايا التي تواجه سورية والعرب مثل قضية اسكندرون وقضية فلسطين.

يشن عدة حملات في البرلمان أحدها ضد رئيس الجمهورية الشيخ تاج الدين الحسني؛ ويتهمه باختلاس الأموال العامة لأغراض شخصية. وأخرى يدعو فيها إلى مقاطعة شركة الكهرباء والترام البلجيكية، ويثبت بأنها تبيع الكهرباء بأسعار مخالفة، تستمر المقاطعة عدة أشهر، وكانت سلمية وفعّالة، إلى أن تم التوصل إلى تسوية مع الشركة.

يُصَعِّد رجال الكتلة الوطنية معركتهم ضد الانتداب؛ فيصدرون بياناً باسم الشعب السوري، يعلنون فيه ميثاق الأمة ضمنوه أماني البلاد، وحقها المشروع بالوحدة والاستقلال، تغلق السلطة الفرنسية مكاتب الكتلة الوطنية في حي القنوات، ويعتقلون ناشطي الكتلة ومنهم البارودي نائب دمشق.

على أثرها في 20 كانون الثاني 1936 اندلعت أعمال الشغب في دمشق رداً على الإجراءات. الأسواق تغلق أبوابها، تقبض سلطات الانتداب على عدد كبير من النواب والوجهاء والطلاب، وتزجهم في السجون، دمشق تعيش إضراباً لمدة ستين يوماً، عُرف بالإضراب الستيني، يفرج عن البارودي ويعود من منفاه، يخرج الناس إلى مشارف دمشق ويستقبلونه استقبالاً شعبياً حافلاً، وتسهر المدينة كلها حتى الصباح، تهزج وترقص في ساحة المرجة.

في تلك الفترة يؤسس البارودي (فرقة القمصان الحديدية) على غرار منظمات الفتوة العسكرية، يُعين مفتشاً عاماً لها، برنامجها: وحدة سورية ضمن حدودها الطبيعية، وتكريس الفرقة طليعة الكفاح في سبيل الاستقلال، شُكلت الفرقة من الشباب الكتلوي على أسس الطاعة والنظام والتضحية، وجرى تدريب أفرادها على الأساليب المستمدة من التعاليم الرياضية والعسكرية، لباس أعضائها موحد ذو لون حديدي، وكانت التحية الرسميّة: «رفع اليد إلى الأمام مع بسط الكف». مُوِّلت من تبرعات رجال الكتلة الوطنية، وأجرت تدريباتها وعروضها في ساحات دمشق وشوارعها على مرأى من الشعب؛ تُلقى خلالها الخطب الوطنية، أقام شبانها في دمشق مهرجانهم الأول في 21 أيار 1936، وحذت المدن الأخرى حذو الشباب الكتلوي الدمشقي، كانت القمصان الحديدية حلماً راود البارودي إلى تحويلها إلى جيش وطني في المستقبل.

في العام نفسه تضطر سلطات الانتداب الفرنسية إلى القبول بذهاب وفد سورية برئاسة هاشم الأتاسي وعضوية فارس الخوري وغيره لمفاوضة الحكومة الفرنسية؛ سافر الوفد إلى باريس، وعاد بمعاهدة عرفت بمعاهدة 1936، لاقت انتقادات شديدة.

في فترة مبكرة ومنذ 1923 وضع البارودي ميثاقاً وأعلنه، يدعو فيه لمقاطعة الإنتاج الأجنبي، وتشجيع المنتوجات الوطنية: «أعاهد الله والشرف على ألاّ أصرف قرشاً في حاجة صادرة عن بلاد أجنبية؛ مادام منها في وطني العربي الكبير، وأن أعزز اقتصاديات بلادي؛ وأعمل لترويجها وتصريفها بكل ما لدي من قوة، والوطن شاهدي والله حسبي ونعم الوكيل.» وفيما بعد سيطلق حملات متوالية على مستوى البلاد في هيئة أغان وأشعار تنتقد بقوة تبديد السوريين من الطبقتين العليا

والوسطى أموالهم في شراء المواد الكمالية؛ وقد ركزت حملة مشهورة له عام 1938 على عدم تشجيع العائلات الثرية على شراء ملابس الزفاف الأوربية الصنع؛ وكان متوسط كلفتها يبلغ 50 ليرة تركية ذهبية، وهو مبلغ كبير جداً، وحض على شراء ملابس زفاف محلية الصنع أرخص كثيراً. وسيسعى بعد الاستقلال إلى تأسيس ودعم كبريات الشركات الوطنية كمعمل الإسمنت والكونسروة والشركة الخماسية.

عام 1939 أعلنت الحرب العالمية الثانية، فشددت السلطات الفرنسية الحصار على الوطنيين، وضبطت أسلحة في دار البارودي في دوما، وضعها عملاء فرنسيون، فاختفى البارودي يومين في دمشق، ثم التجأ إلى شرق الأردن حيث أقام 22 شهراً. ولاحقته الديون، وعانى هناك من شظف العيش والإهمال الشديد رغم علاقاته التي توطدت مع الأمير عبد الله. كتب هناك عن حالته: «لقد تحملت في سبيل وطني من الشقاء ما تعجز عنه الجبال، ثلاثون سنة وأنا أجاهد. أقضي أيامي من سجن إلى منفى، ومن حكم إلى براءة، وأخيراً أبقى شريداً أفاقاً أهيم على وجهي».

تهدأ الأحوال ويعود إلى دمشق، فيُنتخب نائباً للمرة الثالثة عام 1943، ويتطوع في الدرك برتبة مقدّم، وكانت قوة الدرك هي الحامية الفعلية لدمشق؛ ليبرز دورها جلياً أثناء الاعتداء الفرنسي عام 1945 حين قامت القوات الفرنسية بقصف دمشق والبرلمان؛ وأصيب البارودي بشظية في رقبته أثناء الغارات الوحشية على سجن القلعة.

بعد الاستقلال يعاد انتخابه نائباً عن دوما في عام 1947، وكان قد أصبح عقيداً ومسؤولاً عن المقاومة الشعبية، يستقيل من النيابة ويعتزل العمل السياسي، وإن كان بين وقت لآخر يبدي رأيه في السياسة المحلية والعربية، ويوجه رسائل للحكام ومنهم أديب الشيشكلي قائد الانقلاب الثالث، وللمشير عبد الحكيم عامر في فترة الوحدة المصرية السورية، والرئيس جمال عبد الناصر أيام الوحدة وما بعد الانفصال.

❖ ❖ ❖

لم يعتزل البارودي السياسة اعتباطاً، ولا خشية مما سترتبه المرحلة الجديدة من أعباء، بعد الاستقلال لم تعد السياسة خسائراً وسجوناً ومنافياً، وإنّما مناصباً ومنافعاً. هل سئم من مناورات الأحزاب والسياسيين؟ ربما! فهو لم يحاول الإفادة

من سمعته ونفوذه، ولم يطمع بمنصب كبير مع أن المناصب كانت مُشْرَعَةً أمامه، كذلك لم يكن زاهداً، كان أبعد الناس عن الزهد طافحاً بالحيوية ونهماً للحياة.

اليوم بعد هذا الزمن يظهر البارودي طامحاً إلى الأكثر، ما كانت سورية تحتاجه في ذلك الوقت، ليس الكثرة من السياسيين، ولا المزيد من التدافع نحو اعتلاء سدة ما، حتى أن التدافع سيدفع العسكر إلى اغتصاب السياسة. كانت سورية بحاجة إلى بناء مؤسساتها الاجتماعية، وإعلاء شأن الثقافة، فاختار أن ينزع عنه لبوس السياسة والنيابة، ويبحر في معترك الأدب والفن الذين أحبهما.

وسوف يكون في الفن مثلما كان في معاركه الوطنية متحمساً عنيداً؛ ويشهد معاصروه على تبصره وذكائه الشديد وحسه الواقعي؛ كان يعرف ما يريد أن يعمل، ويعمل بعقل وَتَؤَدَة، وكثيراً ما كان يستشير الكبير والصغير في أموره الخاصة، فإذا كان النشاط الوطني أخذ القسط الأكبر والأوفر من فترة كانت حافلة بالتحولات السياسية المصيرية؛ فالمنحى الفني كان قد بدأ يتبلور في شخصيته منذ كان طفلاً؛ يسمع الغناء في القناق: وهي قاعة ملحقة بالبيت مخصصة لاستقبال الضيوف، فقد كانت لوالده سهراته العامرة، تحييها جوقة من أبرع الموسيقيين، يؤدون الموشحات والأدوار والقصائد، وضمت السهرات أيضاً أظرف الندماء المشهورين، فيما سمع النوادر الأدبية وقصص التاريخ العربي الإسلامي.

ينصرف البارودي إلى الموسيقى والطرب والحياة، ومع أنه كان كسولاً في الكتابة، سيترك آثاراً أدبية وسياسية متنوعة:

(ستون سنة تتكلم): مذكرات تغطي طفولته ويفاعته والأحوال الاجتماعية في عصره وسفره إلى باريس، كتب منهما جزأين فقط. بيروت 1951.

(مذكرة الشرطي): دليل لرجل الأمن في حياته وعمله. دمشق 1938.

(كتاب الطبيخ) تأليف: محمد بن الحسن بن محمد الكاتب البغدادي. أعاد نشره، وذيّله بكتاب (معجم المآكل الدمشقية). دمشق 1964.

(المعجم الموسيقي): موسوعة موسيقية ضخمة من أربعة مجلدات، جمع فيها التراث الموسيقي، وكتب في تاريخه ورواده من عرب وعجم، سهّل فيه تعلم النوتة

الموسيقية بطريقة ابتكرها، وعمل من أجلها زمناً طويلاً، لكن هذا المعجم احترق يوم احترقت داره عام 1963.

(معجم الدخيل من الكلمات): وهو معجم في اللغة العامية الشامية، حاول إنهاءه، لكن الموت لم يمهله.

كتابات سياسية: (كارثة فلسطين ـ الصلح مع إسرائيل ـ رسائله إلى الحكام والملوك العرب).

مقالاته الأدبية: (المعري والموسيقى ـ دور الأدب الشعبي في ركب القومية العربية ـ فصل الخطاب بين السفور والحجاب).

(تاريخ يتكلم): ديوان شعري ضمنه القصائد الوطنية والسياسية.

(قلب يتكلم): ديوان شعري أيضاً، احتوى على ما كتبه في المناسبات، وهو عبارة عن (صور مرحة الحركة، أصيلة اللون، صادقة التعبير).

❖ ❖ ❖

رافقه الشعر طوال عمره، وكان أول بيت نظمه في الهجاء، وهو في السادسة عشرة من عمره، وكما هجا أعداءه، هجا أصدقاءه للدعابة والمزاح. تطرق البارودي إلى مراحل حياته شعراً في الخجا والكتاتيب والمدارس والجندية والنضال والسجن والمنافي. لم يكن شاعراً كبيراً؛ ففي مقدمة ديوانه الأول يعتذر من أئمة اللغة، قائلاً بأنه تجاوز قواعد النحو حيناً وقواعد العروض أحياناً أخرى، ويعترف بأنه لا يقدم في ديوانه هذا إلى قراء العربية شعراً فذاً، طريف الخيال، فريد المعنى:

ليس قرض الشعر بيتاً صبَّ في قالب وزن قد خلت منه العيوب

إنما الشعر الذي يطربني وفؤادي من معانيه يذوب

أما في الشعر الوطني، فلن نجد طالباً في المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية، وكذلك بين الناس كبيرهم وصغيرهم، إلا ويعرف قصيدته المشهورة:

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان

ومن نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان

فـــــلا حــــــدّ يباعــــــدنا ولا ديـــــــــن يفرقنــــــــــا

لســــان الضــــاد يجمعنـــا بغســـــــان وعـــــــــدنان

وشكلت قصائده الوطنية محفوظات لأجيال من الطلبة:

أنـــــت ســـــورية بـــــلادي أنـــــت عنـــــوان الكرامـــــة

وأيضاً:

نحـــن جنـــد الله شـــبان الـــبلاد نكـــره الـــذل ونـــأبى الاضـــطهاد

نظم البارودي في مختلف الأغراض الشعرية: الوصف والشكوى والرثاء، ولم يهمل اللهو ومتع الحياة، وعبر عنها في شعره:

الخمـر والنـاي والطنبـور إن وجـدت مـــع الأحبـــة في نـــادٍ ذوي كـــرم

هـي الحيـاة، وجمـع الأهـل يطـربني ولـذة العـيش بـين الكـأس والـنغم

أهلـي كـرام، وأصـحابي لهـم شـرف وإنـــني بينـــهم نـــار علـــى علـــم

حياة مشبعة بالكرم والترف وصحبة الكاس والطاس في مجالس الصفاء والأنس والخلان؛ تتألق بالمنادمات والمسامرات الرفاقية، يضيئها الشِّعر والنغم والأصوات الجميلة. وكانت له خمريات مشهورة:

لا والـــذي خلـــق الكـــروم ونبتـــها مــــا عفتـــها، والعفـــو للغفـــار

بل وأفتى تعلقه بها:

فـــالله قـــال: تجنبـــوه لرجســـه مـــا قـــال: حرمنـــاه تحـــريم الـــدم

والله غفـــار الـــذنوب وعفـــوه مـن غـير شـك فـوق ذنـب المجـرم

وتغزل بمحاسن الوجوه الجميلة، فأشيع عنه الكثير، واختلفت فيه الأقوال، حتى أنه أُتّهم بالشذوذ، وقالوا بأن مظاهر الترف والدعة تقود بعض النابهين

ومحبي اللهو والدعابة إلى إشاعة أجواء من المجون من حولهم؛ ومنها الشذوذ وادعاء مظاهره، وهناك من أثبته باعتراف البارودي نفسه، بأنه كان ضعيفاً أمام شهواته، وهو إنسان ليس معصوماً عن الخطأ، وكان لخصومه اليد الطولى في نشر مباذله وترويجها وتضخيمها. فزعم أن ما يقوله عن سلوكه مجرد مزاح.

لكنني رغم إكثار المزاح أنا عفّ الضمير، وفسقي لا يجوز فمي

المثير أن الدمشقيين المحافظين تناقلوا قصص البارودي، وتندروا بها، وغضوا الطرف عنها. ولم يكن تخفّي المجتمع الدمشقي على تبذل البارودي سوى عرفان بالجميل على مواقفه الوطنية والإنسانية؛ وتقديراً لشخصيته الجذابة والآسرة، ولم يكن تسامحهم معه وغفرانهم لعبثه بالتقاليد إلا من فرط محبتهم له، على الرغم من أن أخطاءه وربما خطاياه كانت مرفوضة ومدانة.

❖ ❖ ❖

على أن الموسيقى ستأخذ نصيباً كبيراً من جهوده، وهو لم يأتها من الطرب وحده، كان هاوياً عظيماً لها ومولعاً بها سمّيعاً من طراز عميق، يحفظ الوزن والنغم بدقة، وكان بيته واحداً من أشهر المجالس الدمشقية يؤمه العلماء والأدباء والمطربون والموسيقيّون من جميع أنحاء البلاد العربية، وضمّ كبار الفنانين: مثل المطربة الكبيرة ماري جبران، وأمير البزق محمد عبد الكريم، وتيسير عقيل، وزكي محمد، لا يأتي ضيف إلى دمشق إلا ويرتاد مجلسه، ومنهم أمير الشعراء أحمد شوقي، وكوكب الشرق أم كلثوم، ومطرب الملوك محمد عبد الوهاب، والشيخ سيد الصفتي صاحب الأدوار الشهيرة، والمطربة منيرة المهدية، وعازف القانون محمد العقاد، والشاعر أحمد رامي، وصالح جودت، والفنان الكبير يوسف وهبي، والمؤلف الموسيقي أبو بكر خيرت، والكثير من المطربين والموسيقيين والممثلين العرب، كما رعى المطربين والمطربات السوريات، ومن الأسماء المعروفة التي رعاها: المطرب صباح فخري، وفايزة أحمد، وفتى دمشق.

لم تكن علاقته طارئة بالموسيقى، بل قديمة، وطموحاته الموسيقية كانت مشاريع ضخمة ناءت بها إدارات ومؤسسات؛ فقد أسس النادي الموسيقي عام 1928، وهو أول نادٍ للموسيقى تأسس في دمشق، ثم أسس في عام 1947 المعهد

الموسيقي لتعليم الموسيقى، ودعا إلى تطوير آلة العود، وقام بجمع الألحان لاسيّما الموشحات الأندلسية، وأعاد النظر في تلحينها وتأليفها وأدائها، يعاونه نخبة من كبار الموسيقيين والمغنّين، فأعاد عهدها، وأحيا الرقص الشعبي المعروف بالسماح بفضل الفنان عمر البطش، كان في الموسيقى التي دعا إليها محافظاً على الأصول العربية، وضد التجديد الذي أراد أن يجعل منها خليطاً تضيع فيه أصالتها، بقي مديراً للمعهد مدة سنة ونصف إلى أن ألغى المجلس النيابي مخصصاته، فأغلق المعهد أبوابه، وذهب ضحية تجاذبات الأحزاب وخلافاتها، فقد صوّت أعضاء أحزاب المعارضة ضد المعهد، وتهاون رجال الحزب الوطني في الأمر، مما سبب عدم دعمه وإدراجه في موازنة الدولة.

❖ ❖ ❖

كان واحداً من الزعماء الوطنيين الذين لم يعترفوا بالخريطة السورية لسايكس بيكو؛ في ذهنه كانت الأمة العربية، في تلك الأوقات كانت الأحلام كبيرة، فلم يرض الوطنيون بأقل من الوحدة العربية الكبرى، وكان من كبار دعاتها.

لم يكن البارودي مناضلاً متجهماً ولا باحثاً عبوساً، كان مرحاً ضاحكاً ساخراً صاحب نكتة حاضرة على الدوام؛ كانت مشاكساته وشغبه جزءاً لا يتجزأ من شخصيته العابثة، استمرّت معه طوال حياته، تجلّت بمواقف طريفة في التحرش بالأصدقاء والمعارف والسياسيين إلى تدبير المقالب؛ فمرّة كان يخطب في الناس - وعادة يخطب بالعامية - عندما جاءت مظاهرة صغيرة حيّته وهتفت له: «نحن جنودك فخري بك». وعرف أن المتظاهرين من أبناء اليهود في دمشق، فحبكت معه النكتة، وقطع خطبته، والتفت إلى من حوله قائلاً: «انتصرنا». وكانت نكتة تاريخية، ذهبت مثلاً.

هذه الطبيعة المنطلقة على سجيتها، انعكست على حياته العامة منذ كان طالب علم إلى مرحلة النضال السياسي الوطني؛ قدَّره رجال الكتلة المشهورين ومن بعدهم النّواب من الأحزاب كافة؛ وخافوا من جرأته ولسانه السليط، وقد يتهمونه في سلوكه الشخصي وأخلاقه، لكنهم لا يتهمونه في وطنيته، كانت فوق الشبهات.

وعلى اختلاف الأدوار التي لعبها على مدى أكثر من نصف قرن، مرافقاً للملك فيصل، ومناضلاً وطنياً، ومفتشاً عاماً في فرقة القمصان الحديدية، ونائباً

في البرلمان، وصاحب دعوات إلى مشاريع اجتماعية وثقافية وصناعية، وضابطاً في الدرك والجيش، وخطيباً شعبياً، وأديباً وشاعراً، وعارفاً بالموسيقى، وعليماً بالطبخ، وضليعاً بالعامية. لم يحترف البارودي السياسة، وإن وضع دمه على كفه في سبيل سوريا، ولم يكن شاعراً مجيداً، لكنه شكل وجدان أجيال وأجيال على الإيمان بالعروبة. ولا خطيباً مفوّهاً، لكنه استطاع أن يحرّض الجماهير على الثورة ويشعل المظاهرات، كان وطنياً حقيقياً، أدرك بشكل بسيط وفعال أنّ النهضة السورية لا تعتمد الكلام، وإنما العمل والإخلاص.

كان البارودي - على الرّغم من ثرائه ونشأته الموسرة - الابن البارّ للشارع السوري، ودائماً الأقرب إلى قلوب الناسِ، أحبّوه وتلمسوا روحه الشابّة، فأطلقوا عليه لقب (زعيم الشباب).

فواز حداد

ماري عجمي

صرخة في زمن الخوف

(1888 - 1965)

ربما كانت أحياء دمشق القديمة وأزقتها الضيقة، ما تزال تحتفظ بصوت عكاز ماري عجمي، وهو يطرق البلاط الحجري ببطء، ويتصادى على الجدران العتيقة، رغم أنَّ تلك الأحياء راحت تفقد ذاكرتها السّرية باطراد تحت وطأة الحداثة التي اجتاحتها بصفاقة. لكنه مشهد لا يمكن نسيانه بسهولة: صبيَّة سمراء في السادسة والعشرين من عمرها تقوم كل حين بزيارة حبيبها المعتقل في السجون العثمانية؛ وبعد ساعات من الانتظار وراء القضبان تعود دون أن تلمحه، صبية تنوء في مشيتها وهي تتعكز بسبب آلامها المفصلية الحادة. ثقل الخيبة، وأشواق دفنتها داخلها تبدو واضحة على ملامح وجهها الماضي في التعب.. مشهد لا يمكن حقاً نسيانه بسهولة.

مرات كثيرة عادت ماري أدراجها خائبة: لم يسمحوا لها برؤية خطيبها بترو باولي. بداية كان عليها السفر وعكازها إلى لبنان، حيث كان بترو مرمياً في غياهب معتقل عاليه، ومن ثم حين تم نقله مع باقي المعتقلين إلى سجن القلعة بدمشق وفّروا- من حيث لا يدرون- على ماري رحلاتها المكوكية المضنية بين لبنان وسورية.

بترو باولي كان مراسل مجلة ماري (العروس) في بيروت منذ أن صدرت في العام 1910، وكان هناك يشحذ الهمم بمقالاته الحماسية تحت توقيع: الباتر، وهو الاسم الذي طاب لماري أن تطلقه عليه، وبقي يوقّع مقالاته بهذا الاسم. كان للحدثين المترافقين وقع النبوءة من ساحرة طيبة على حياة ماري:

الحدث الأول إصدار مجلتها العروس، وهي أول مجلة تنشئها وتديرها وتحررها امرأة في الوطن العربي؛ الأمر الذي ساهم بجعل تاريخ الصحافة السورية ينصّب ماري عجمي رائدة الصحافة السورية.

والحدث الثاني ذاك الحب الذي جمع ماري والكاتب الباتر، وذاك الاندماج الفكري والنضالي الذي جعل مجلة العروس، حاضنة الحب ذاته، تحمل خبر خطوبتهما في العام 1914. لكن النبوءة لم يكتمل تحققها، وتعرضت للخيبة الأولى في مهدها، وقد حمل عنوان المجلة العريض في العدد ذاته: اندلاع الحرب العالمية الأولى. حينئذ بدأت السلطة العثمانية جبهات الحرب الداخلية في سورية ولبنان إلى جانب جبهاتها الخارجية. ضيّقت الخناق على أهل القلم والرأي بشراسة حكومات الطغاة التي تريد إغراق البلاد حين تبدأ باحتضارها. وقد أطبقت الحصار الاقتصادي، وكمّت الأفواه حين عملت على إغلاق عشرات الصحف ومنها مجلة ماري عجمي العروس، تَبِعَ تلك المواجهات العنيفة حملات الاعتقال التي استهدفت المثقفين والسياسيين والثوار، وقد غصّت بهم السجون العثمانية في لبنان وسورية، وكان من ضمن المعتقلين الكاتب الباتر.

❖ ❖ ❖

كان غريباً أن تكتب فتاة عاشقة كماري لحبيبها رسائل تنضح بحماسة الثوار لا بلواعج العشق؛ وفي أزمنة الظلام والديكتاتورية، مشعل نور في وقت عُدّ النور فيه من أفظع المحرمات، ومجرد الكتابة- الخيار الحر الذي آثرته ماري لدعواتها- هو جريمة لا تغتفر. ربما كانت كلماتها المتوثبة تكتنف عشقاً غامراً، لم تستطع ثوريتها ولا نضالها أن يحجبانه:

«أنت في سجنك أكثر حرية من ملايين البشر تحت هذه السماء...

ما أقدس ذلك الكهف الصخري تفترشه والرفاق.

لقد كثر الهمس عن مغاور تطبق بالأرض، تعيد البلاد إلى بدايات العصر الحجري. وليعلم جمال باشا السفاح أن مقركم برج شاهق لا يطول قمته إلاّ تحليق النسور...».

على ضوء القنديل طالما انكبت ماري لتدون في أوراقها لحبيبها رسائل ورسائل:

«بعد ساعة أو ساعتين سأكون عندك...

لم يحمل إليك البريد رسالة من ذويك، لذا سأعوض عنها بهذه ليكون بين يديك شيء أقدمه لك، فأكون المرسلة والرسالة والرسول..».

واستبسال ماري للدخول إلى المعتقلات العثمانية لم يكن بسبب وجود الباتر فيها فحسب، لكنها كانت لا تني تحاول طرق الأبواب الموصدة لتزور الأدباء السجناء وغيرهم؛ وقد وضعوا تحت محكمة الموت العرفي ومنها جامع المعلق الأثري القديم، وقد تكلمت ماري عن تفاصيل كل زياراتها فيما بعد على صفحات مجلتها العروس.

بربع مجيدي استطاعت ماري، في بعض الأحيان، رشوة السجان (الخفير) كي ترى المعتقلين؛ وكانت ردهات السجن في جامع المعلق، فوق أحد فروع بردى، تضم حوالي 420 سجيناً من كل الطبقات محشورين فيها كما يحشر الدجاج؛ كهوف صخرية ينزل إليها بثماني درجات، كالنازل إلى عتمات العالم السفلي، ونوافذ الزنازين ضيقة صغيرة جداً، كأنها فوهات مداخن لما احتشد فيها من الأبخرة المتعفنة، حين لم تكن ماري تستطيع رشوة السجان لرؤية المعتقلين كانت تستخدم قساطل الماء كي تحدثهم، وكانت تنادي في القناة التي توصل مياه عين الفيجة إلى ذلك السجن الأرضي؛ وقد كتبت ماري كثيراً عن تلك اللحظات الأليمة، وعن خرير المياه الذي صاحب باستمرار رسائلها السرية إلى المجاهل.

«ناديت باسم الشهيد نخلة باشا مطران وأصخت السمع فإذا أصوات جياشة وضحكات متقطعة وأنّات عميقة أشبه بعاصفة، بينها صوت ذاك الشهيد يجيب ندائي، فهلع قلبي خوفاً وحزناً، ثم استجمعت قواي، وبلّغته الرسالة بواسطة ذاك التلفون المائي على قدر ما مكنه خرير الماء من فهم ما أقول».

وكانت ماري - كما أسّرت فيما بعد - تسدّ أنفها بمنديل إذا وقفت لتكلم أحد المعتقلين؛ لنتانة الروائح التي تعج حولهم في الزنزانة دون أن يميّزوا. وتلك الجثة المتلفعة بالقماش التي لمحتها ماري والخفراء يخرجونها خلسة من السجن لن تغيب عن ذاكرتها البتة؛ وكان قد مضى عليها أكثر من أربع وعشرين ساعة ورائحتها تعج وراءها، لكن ماري -رغم كل الصعاب- استطاعت بزياراتها المتواترة إنقاذ أحد المعتقلين، وأن تكون صلة الوصل كحمام زاجل بينهم وبين أسرهم؛ وهذا ما جعلها أوّل من يفجع بالخبر الفظيع: تأكيد حكم الإعدام بحق المعتقلين في الوقت الذي لم تسمح فيه المحاكم العرفية بأيّ نوع من أنواع الدفاع عنهم.

كانت ماري تهمس بألم وإيجاز شديدين:

«نعم، لقد أنقذت بعضهم من السجن، والبعض الآخر من الإعدام، ولكني لم أسلم من الظنون، وقد خيّل للناس أني قبضت أجرة على مساعيّ، لأنَّ السواد الأعظم بيننا تعوّد أن يقتل المروءة بتصويب سهام الظنون إلى ذوي النخوة بدلاً من تشجيعهم والإعجاب بهم؛ فكيف تخور العزائم، وتنقبض الأكفّ، وتخور الهمم؟!».

من الممكن تخيل حجم الشجاعة التي كان على ماري التحلي بها كي تطرق مقر الحاكم العسكري: السفاح جمال باشا في أحد أيام أيّار من عام 1916؛ وأن تجعل العكاز نفسه الذي طالما ضجت بصدى صوته أزقة دمشق القديمة، يهوي على رؤوس الحراس في مقر الحاكم كما يهوي على البلاط الحجري العتيق؛ حملت ماري روحها على كفها ذاك اليوم حين كان الرجال هيّابين ساكنين بخنوع بعد المحاكمات الصورية التي ادعاها جمال باشا السفاح؛ وبعد أحكام الإعدام التي أصدرها زبانيته بحق أبطال أيار وبُدِئ بتنفيذها في 1916؛ لم يكن باستطاعة ماري الصمت أو الوقوف مكتوفة اليدين نائحة؛ فقد زارت الثوار في زنازينهم قبل تنفيذ العقوبات في دمشق وبيروت، واستطاعت أن تتبادل والباتر آخر الكلمات قبل إعدامه، ولم تكن هيّابة، كانت على استعداد أن تخسر حياتها من أجل تلك الكلمات التي سترافق الباتر في لحظاته الأخيرة في هذا العالم.

في ذاك اليوم المشهود الذي اقتحمت ماري عجمي فيه مقر السفاح، وسمح لها بالدخول إليه، فاوضته طويلاً لتوكيل لجنة حقيقية وشريفة للدفاع عن الثوار، أحرار الفكر الأبرياء كما وصفتهم، كما فاوضته لتحسين أوضاع السجون المتردّية، والفصل بين المعتقلين السياسيين وشراذم المجرمين في تجاويف الكهوف، وقد كانت تلك الطريقة المثلى التي اتبعها جمال باشا أسوة بباقي طغاة العالم؛ للحطّ من معنويات المعتقلين السياسيين، ولكي يصرفها عنه قابلها الحاكم بوعود كاذبة، وأقسم على تنفيذ طلباتها وبسمته على وجهه، لكن زمناً طويلاً لم يمض واكتشفت ماري الأمر ولكن كان اكتشافها متأخراً: الوعود برمتها كاذبة كاذبة.

حينئذ كتبت ماري مقالتها الشهيرة في مجلتها العروس، وقد هاجمت فيها السفاح بشدة:

«كان يلقب بالسفاح لهول ما فعل بالمناضلين في سورية ولبنان...».

وصفته كما رأته في ذلك اللقاء ببصرها وبصيرتها، وأرفقت ذلك بجملتها المعروفة، صرخة مضت بها إلى الأقاصي دون خوف:

«لابتسامة الجزار تكشيرة الذئاب

لصوته المحمل بالوعود فحيح الأفاعي

إذا تلعثم بلع ريقه، أدركت أن المنية قد بيّتت، والثعبان يبتلع سمومه...»

صرخة في وجه الطغاة والظلم، صرخة أودت بالصمت، وكادت تودي بحياة ماري عجمي وتجعلها تلحق برفاقها الأبطال، لولا الظروف الشائكة التي كانت سائدة في خضم الحرب العالمية الأولى، ونهايات زمن العثمانيين في الشام.

في السنوات اللاحقة ستربط ماري بين حوارها مع السفاح وحوار شهير آخر قامت به مع الأمير عبد الله بن الشريف حسين قائد الثورة العربية، وقد أجرته في دمشق 1918، وأضحى علامة فارقة بارزة في الحوارات التي أنجزت في القرن العشرين. وقد وضّحت الفرق من وجهة نظرها بين محتلّ حاقد وقائد وطني، لقد كانت ماري مثلما وصفها إيليا أبو ماضي يوماً:

بنت سورية التي أبكي، لها همة الليث وروح الحمل

لكن بترو باولي حبيبها الباتر كغيره من شهداء أيار أُعدم في سنة 1916، وانتهى الأمر. وكان آخر ما قام به في ساحة الشهداء ببيروت أن صرخ:

هلموا يا أخوان، إنها أرجوحة الأبطال..

وحين أحيط حبل المشنقة بعنقه، ركل الكرسي الذي تحته بقدمه، وهو يردد:

- ومن لم يمت بالسيف مات بحبل المشنقة.

لم يعد لأيٍّ رحلة إلى غياهب السجون الأرضية، وإلى مقر جمال باشا من فائدة، كان قد أسقط بيد ماري وهي ترى الباتر يتأرجح ورفاقه على مشانق ساحة الشهداء. لم يعد أمامها إلا الكلمات.. وكما صاحبت كلماتها روح شهيدها إلى الآخرة، وهي تهمسها من بين القضبان، صاحبت كلماتها البكاء المرير، ومن ثم الورق البارد الذي تلقفها، وهي تكتب حزنها الجريح عليه وعلى رفاقه الذين أعدموا كأبطال، ثم رموا أمام المشانق جثثاً هامدة:

«أما تبرحون غارقين في رقادكم أيها النائمون؟
أما تعبت أجنابكم وملّت من اللصوق بالرمال؟
قوموا فقد نمتم طويلاً
...
إنَّ نفحات الربيع مالئة الفضاء
والأطيار تتسابق على الأفنان
والجداول تناديكم: أن هيا عودوا إلينا
لقد كفى القلوب وجداً وأنيناً»

لكن السنين الطوال المقبلة لم تحمل قلب ماري عجمي على الخفقان من جديد، رغم مرور ما يقرب الخمسين عاماً بين استشهاد الباتر ووفاتها، بقيت وحيدة حتى آخر العمر، وربما كان شبح حبيبها هو الذي حاصر أوقاتها وكأنه على قيد الحياة، وكأنه عمل على جعل الفقد والحرمان الذي عانت منه بغياب رجلها وقوداً، لتعميق نشاطها السياسي والثقافي والاجتماعي الواضح فيما بعد.

❖ ❖ ❖

«متألقة الروح، وطنية، حادة البصر والبصيرة، جريئة عملاقة، وكتبت بلغة مضرجة كالفجر».

هذا ما رأته نادية خوست في ماري عجمي، لكن عيسى فتوح يضيف رأياً آخر ربما جاء في مكانه حين أورده في كتابه أديبات عربيات، وهو يرى أنَّ الحديث عن ماري عجمي كشاعرة فحسب لا يعطي لها إلا صورة نصفية، أما النصف الآخر فيكمن في كفاحها السياسي والأدبي، كفاحها من أجل الوطن أولاً والمرأة ثانياً. وربما نستطيع أن نضيف ثالثاً: كفاحها من أجل بثّ روح المواطنة، ذلك أن ماري عجمي جسّدت ظاهرة أهلية بامتياز في مجتمع مدني آيل للتبدّل، وسيبدو مضحكاً وربما محزناً أن يرتسم المشهد المدني والأهلي في أوائل القرن العشرين في سورية جلياً ومفعماً وقادراً على تعميق روح الفردية والمواطنة التي ستغيب في أواخر القرن ذاته، ذلك أن ماري عملت دوماً على تدعيم تلك الفكرة، وهي تسعى إلى تطبيق مقولتها الخاصة:

«إن أعظم ما تحتاج إليه للصعود إلى القمم شيئان هما: قلب طروب ويد راغبة في العمل».

فيما يخص يدها فقد كانت راغبة بل توّاقة حتى الأقاصي بالعمل، وهذا ما أثبتته في كل لحظة من لحظات حياتها، وأما قلبها الطروب فربما كان منشؤه الأسرة التي ولدت ماري فيها.. ذلك أن والدها عبده يوسف العجمي تزوج زواجه الثاني وهو كهل، وحين ولدت ماري بكر أولاده من زوجته الثانية زاهية جرجي يورغاكي، كان قد تجاوز الستين من عمره، وما يزال يعمل بالحياكة وتجارة الحرير. وعبده العجمي الذي كان أحد أعضاء المجلس الأرثوذكسي الأعلى، ووكيل الكنيسة الكاتدرائية، كان مصرّاً على أمر استثنائي وهو: تعليم أولاده جميعاً ذكوراً وإناثاً، وقد بلغ عددهم من الزيجتين خمسة عشر ولداً وبنتاً.

عديدة هي العوامل التي يعود الفضل إليها في جعل ذلك البيت منفتحاً في فترة ظلام وانغلاق كتلك التي ولدت ماري فيها؛ فالجد الأعلى: إليان الحموي كان قد انتقل من حماة إلى دمشق في القرن الثامن عشر، وجعلت الرحلات المكوكية التي كان جد ماري: يوسف العجمي يقوم بها بين دمشق وبلاد العجم أبواب فكره تشرع على حضارات العالم الأخرى وإنجازات الإنسان؛ وقد حمل كل ذلك إلى أسرته، فيما ساهم المزيج الاجتماعي الحضاري الذي خلقه اختلاف طائفتي ومنشأي والدها (الروم الأرثوذكس)، ووالدتها التي كان جدها يوناني الأصل، في خلق بُعد آخر للحياة خارج التعصب والانغلاق، وكمحاولة من أب كهل للتعويض لأبنائه عن غياب فعاليته مبكراً من حياتهم بسبب فارق العمر الكبير بينه وبينهم (خاصة أولاده الثمانية من الزواج الثاني) سعى إلى تعليمهم وحثّهم باستمرار على الإبداع، هذا ما وفّر لماري ما لم يتوفر لغيرها من البنات في زمانها، الدراسة في المدرستين الروسية والأيرلندية، ونالت شهادتها من الثانية في سنة 1903. إثر ذلك عملت في التعليم في زحلة، ومن ثم في بور سعيد بمصر، لتعود إلى دمشق وتتابع التعليم كمعلمة أولى في المدرسة الروسية التي درست فيها، وذلك في سنة 1906.

وسط كل تلك العوامل المؤثرة نشأت ماري والثورة على المستعمر في دمها، والحقد على تخلف المرأة الرازحة في الجهل يدفعها إلى تمزيق حجبه؛ والرغبة في فتح أبواب الروح والفكر على الجديد منارة تهديها أينما التفتت.

❖ ❖ ❖

كان لسعيد الجزائري رأياً خاصاً جاهر به مراراً، وبغض النظر عن موضوعيته فقد كان رأيه رائداً: الرائدة الأولى ماري عجمي فتاة دمشق هي صاحبة الصرخة الفكرية النسائية الأولى في العالم العربي؛ ما يدل على صحة ذلك أنَّ ماري، طيلة سنين طوال، حملت على عاتقها ولوحدها عبء مجلة العروس؛ وتأبّت على أية معونة مشترطة، كانت تحمل عبئاً ناء بحملة جماعة من الرجال- وكم هي الأمثلة كثيرة، مذّاك الوقت وحتى اليوم - على مجلات لم تستطع العيش عاماً أو بضعة أعوام، فيما قدرت العروس على الاستمرار الفعلي ما يقرب الإثنتي عشرة سنة؛ بقيت فيها منبراً أهلياً بامتياز للعديد من الأقلام الحرة مثل: جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة، إيليا أبو ماضي، جميل صدقي الزهاوي، معروف الرصافي، إسماعيل صبري، أحمد شوقي، حافظ إبراهيم، شبلي الملاط، الشاعر القروي، الأخطل الصغير، إلياس أبو شبكة، عباس محمود العقاد، المازني، فارس الخوري... إضافة إلى عدد من الأقلام النسائية التي تشير إليها مقدمة مجلة العروس في كانون الأول 1910؛ وقد كتبتها ماري باندفاع المؤمن بأحقية المرأة في الكتابة:

«عروسة نالت تنشيط الكاتبات وكثيرين من أبناء النهضة الأدبية وبناتها. وسترين بعضهن يحملن أمامها باقات أفكارهن السامية، وشموعها المضيئة، ويسرن معها في خدر الشعب...».

وكان الأستاذ هربرت ستافورد كبير أساتذة جامعة فيلاديلفيا الذي كلفته إحدى البعثات العلمية، بحسب قول ماري، بالطواف حول الأرض ودراسة أحوال البشر، قد تعهد برفد مجلة العروس بعدد من المقالات النسائية المكتوبة بأقلام كاتبات أميركا المعروفات محررات مجلة السيدات، وتحث ماري- بناء على ذلك- الكاتبات والفتيات على الإقدام لنشر أفكارهن: «لتحسن بنا ظنون الغربيات اللواتي يتمنين لنا التقدم والترقي من صميم قلوبهن».

عملت ماري على تقسيم المجلة إلى ثلاثة أقسام، حسب المواضيع التي تطرحها، أولها باب الأدب والتاريخ، وثانيها- كما عبّرت ماري- لاقتطاف ما

غزرت مواده وتعددت فوائده من الشؤون البيتية وكيفية تمريض الأطفال والعناية بهم، وثالثها للفكاهات من نوادر ومناظرات وروايات أدبية تهذيبية.

في الإطار ذاته عملت ماري على تأسيس أول رابطة ثقافية في دمشق، وذلك في آذار عام 1921 دعيت باسم: الرابطة الأدبية، استمرت ثلاث سنوات، وكانت ماري هي المرأة الوحيدة فيها، وقد وصفت الرابطة بأنها أكبر تجمع ثقافي في البلاد التي كانت تنفض غبار الجهل والتخلف العثماني عنها، وكان من أعضاء الرابطة: الشاعر خليل مردم بيك، عبد الله النجار، نجيب الريس، محمد الشريقي، أحمد شاكر الكرمي وأخوه أبو سلمى، حليم دموس، فخري البارودي، حبيب كحالة، عز الدين التنوخي، قبلان الرياش، شفيق جبري، وسليم الجندي...

وكذا أنشأت ماري عجمي، وساهمت بإنشاء العديد من الهيئات والجمعيات النسائية منها (النادي الأدبي النسائي 1920)، و(جمعية نور الفيحاء وناديها 1920)، وقد كانت إلى جانبها في إنشاء الجمعية نازك العابد التي كانت قد قدمت من منفاها منذ فترة. ومن ثم أصدرت نازك ورفيقاتها في العام نفسه مجلة: نور الفيحاء، وهي مجلة نسائية أدبية صدر منها تسعة أجزاء فقط ثم توقفت.

ساهمت ماري وإلى جانبها أيضاً نازك العابد في إنشاء مدرسة بنات الشهداء أيضاً في سنة 1920؛ حيث انطلقت ثمرة لجهودها واهتمامها بمصير بنات الشهداء اللواتي فقدن آباءهن في الثورة التي قادها الشريف حسين عام 1916؛ وقد استمرت نازك فيما بعد بالاهتمام بهن ورعاية شؤونهن، وتولت إدارة مدرسة بنات الشهداء حتى أغلقها الفرنسيون ومعها المجلة والندوات التي تعقدها.

كانت ماري عجمي تدعو المرأة السورية على الدوام للتجمع في جمعية نسائية كبيرة في كل مدينة مبدؤها العلم وغايتها المرأة؛ وتدعو أيضاً إلى تأسيس مدارس وطنية راقية كي لا نخرّج جيلاً نسائياً غريباً في وطن عثماني، وقد أُنتُخبت ماري عضواً في لجنة النقد الأدبي وذلك في العام 1921.

❖ ❖ ❖

حين توقفت الرابطة الأدبية فيما بعد بسبب الضغوط الفرنسية، لم تتوقف ماري عن نشاطاتها الأدبية، ولا عن لقاءاتها الثقافية والاجتماعية، بل راحت تفتح

بيتها الدمشقي العتيق في حي باب توما مستقبلة فيه الأدباء الذين تم ذكرهم آنفاً من أعضاء الرابطة الأدبية؛ وذلك في يومي السبت والثلاثاء من كل أسبوع، سالكة درب رفيقتها ماريانا مراش التي فتحت قبلها بسنوات في مدينة حلب أول صالون أدبي نسائي في الشرق؛ وقد أغلق في ذلك الوقت بسبب الضغوط العثمانية على أصحاب الفكر والرأي.

شهد صالون ماري عجمي مناقشات فكرية وأدبية متنوعة، كانت الأفكار تُطرح ثم تناقش، ابتداء بالنقاشات السياسية وانتهاء بقضايا الأدب والفكر. وربما كانت جملة فارس الخوري معروفة حين قال مداعباً ومسجلاً في إحدى اللقاءات إعجابه الواضح بماري:

يـــا أُهَيـــل العبقـــرية سـجلوا هـذي الشـهادة

إن مــــاري العجميــــة هـــي مـــيّ.. وزيـــادة

عُرفت ماري كمحدثة بارعة، كما كان يردد أدباء دمشق المعمرون، لكنها اتخذت لذاتها وحياتها أسلوباً على سجيتها، وهو أسلوب التهكّم الذي كانت تصيب بلمحاته الخاطفة ما لا يصيب غيرها بالنقد والملاحظة؛ فكانت ماري إذا استمعت إلى رأي لا يعجبها، عاجلته ببديهتها، وطبعته بالنكتة التي هي على طرف لسانها وطوع خاطرها، ولعل أبرز ما عُرفت به هو الصراحة، الصراحة التي جافاها من أجلها الذين يصطنعون في حياتهم المجاملة والمداورة، وانفضّ من حولها كثير ممن شاركتهم في الحياة الصحفية والأدبية، وتناسوا مجالسها الحافلة يوم كانت ريحانة دمشق، الاسم الذي أُطلق عليها، ريحانة الشعر والفن.

لكن الشفاهي لا يبقى، حكمة لم يقتنع فيها الكثيرون، لا تبقى إلا فكرة تهيم على ألسنة قاطني الشام: إن ماري عجمي التي لم تمتلك قسطاً وافراً من الجمال، كانت قادرة في يوم من الأيام على كسر تلك العقدة المرتبطة بقدرة المرأة على التأثير بثقافتها وبيانها، وليس بسحر أنوثتها، وتخطي المحاذير الاجتماعية في ذاك الزمن من اختلاطها بالرجال، وقد كسبت ماري بسبب تلك الثقة العالية بنفسها إصغاء جميع جلسائها من صفوة المجتمع الثقافي..

إذاً كانت ماري عجمي محدثة في زمن لم يكن ثمة للمرأة السورية لسان. وقد قالت عفيفة صعب شيئاً مشابهاً في تقديمها لكتاب (دوحة الذكرى):

نحن نستطيع أن نتحرى ما ذهبت الأقلام في التحري آثار ماري عجمي الكاتبة، لكن للأسف أن يتعذر تسجيل ماري عجمي المحدثة، تذكر الأوساط الأدبية حلقاتها ومجالسها.

وبما أن الكتابة وحدها تبقى سفر صاحبها، فإن ما بقي من آثار ماري عجمي الكتابية: مقالة جيّدة، نثر جميل وترجمة، وشعر لم تعطه إلا جانباً محدوداً من اهتمامها، وكان يحتل موقعاً يسيراً من نشاطاتها المختلفة. ولم تستطع ماري تحطيم القوالب الشعرية السابقة، لكن شعرها تحرر من قيود الشعر المثقل بالمحسنات اللفظية والتورية والاستعارة والتشبيه، ومن فنون البيان والبديع، وقد قام شعر ماري بنقلة كبيرة عن شعر سابقتها ماريانا مراش صاحبة أول كتاب شعري نسائي مطبوع بالعربية، إلا أنَّ ماري رغم ذلك لم تكن في أولى صفوف الشعراء، واستخدمت الشعر للتعبير عن مشاعرها التي تقدمها دون ارتباك وببوح أنثوي كان غريباً عن وقتها وبصدى رومانسية جريئة.

ففي الوقت الذي أذيع فيه نبأ وفاة أمير الشعراء أحمد شوقي، واهتز العالم العربي بالحزن والأسى لهذا النبأ الأليم، أقبل شيطان الشعر على ماري بعد انقطاعه فترة طويلة، وحملها على كتابة قصيدة في رثائه مطلعها:

هزوا الغصون لعله نائم ... سكران في عش الهوى حالم

فالخلد فوق رياضه حائم

وقد أنشدتها أمام الشاعر أمين نخلة، وصار الأخير يتمايل طرباً، وهو يستمع إليها، ثم خاطبها بلهجته اللبنانية:

دخيلك اعطيني إياها .. وخدي من شعري ما شئت.

ثم راح يردد من جديد وراءها بنشوة: هزوا الغصون لعله نائم...

وفي اليوم الذي توفيت فيه ماري عجمي قال أمين نخلة في حفل تأبينها مخاطباً جموع المستمعين:

ما لهم لا يهزون الغصون لعلها نائمة؟ ما لهم لا يرون في يومها ما رأته في يوم شوقي؟

قيل الكثير في شعر ماري في تلك المرحلة، وهي واحدة من الشاعرات القليلات جداً، وكان كافياً اعتبارها ظاهرة شعرية نسوية للتهليل لها على الدوام.

كتب خازن عبود مرة: «أبرز ما في أدب الشاعرة الصراحة التي تتجلى في كل كلمة من مقالاتها وقصائدها». فيما قالت وداد سكاكيني: «إن أدبنا المعاصر ليزهو بشعر ليلى وما ليلى إلا ماري عجمي التي أعادت إلى الخواطر ذكرى شاعراتنا العربيات في عصور الجاهلية والإسلام.. كان الفرزدق إذا سمع شعراً للخنساء قال: تلك أنثى غلبت الفحول.. وفي زماننا هذا لو يسأل فحول الأدب عن ماري عجمي، لأعادوا ما قال الفرزدق في الخنساء».

استطاعت ماري إلى جانب نشاطاتها أن تسهم في نقل عدد من المؤلفات الروائية والفكرية إلى العربية؛ ومنها كتاب (أمجد الغايات) لباثيل ماثيور، ورواية (المجدلية الحسناء). كما ساهمت في القاهرة في تحرير مجلتي (العروسة) و(الأحرار المصورة) وذلك في سنة 1931.

في العام 1944 قامت الرابطة الثقافية بإصدار كتاب ضم مجموعة مختارات من شعر ماري عجمي ونثرها، وهو الكتاب الوحيد الذي ضم قصائدها المتفرقة هنا وهناك.

❖ ❖ ❖

على الرغم من ريادة ماري عجمي الصحفية، فإن اندفاعها الشديد وحماستها، إضافة إلى المصادر الوحيدة التي دأبت على اعتمادها، والنظرة الأحادية السائدة في عموم الأوساط الثقافية، ستجعل آراءها ومن ثم مقالاتها توسم بالتطرف وأحياناً بالتناقض. الأمر الذي سيجعل مجلة العروس مثقلة بخليط عجيب فيه الإعجاب المثير للاستغراب:

تبدي ماري إعجابها الشديد مثلاً بفلهمينا ملكة هولندا كونها قامت بتعلّم الخياطة، وراحت تحيك بنفسها الألبسة لأولادها، وقيصرة روسيا التي تنهمك هي الأخرى في شؤون أطفالها، وملكة بلجيكا المتواضعة، كما تتحدث عن مدام دوستال، وماري لويز، وملكة رومانيا الرحيمة.. كانت مجلة العروس تجمع في

قوس واسع النساء المتصوفات، والبهائيات في فلسطين، وتمجّد قرة العين من أتباع بهاء الدين، وهكذا دواليك، دون أن تفكر مثلاً أنَّ وظيفة الملكة أو القيصرة ليس العناية بأولادها فحسب، بل بأطفال البلاد كلها، وأن أمام الملكة أشغال ومسؤوليات أهم وأخطر بكثير من تعلم الخياطة والحياكة. ولم يكن يبدو الفرق الشاسع بين تمرد قرة العين المدروس، وتكريس حياتها برمتها لفكرة وإيمان، وبين بعض ملكات أوروبا قبل قرون، اللواتي لم يغيرن شيئاً في ممالكهن الممتدة سوى أزياءهن الباذخة.. أمور لم تستطع العروس دوماً ملاحظتها!.

بالحماسة ذاتها ستقود رغبة ماري عجمي في انزياح ثقل التخلف الاجتماعي ورجعيته، لتنحاز للوجود الفرنسي والبريطاني في البلاد العربية؛ إذا كان هذا الوجود سيساهم في إبعاد الشبح العثماني، وهي بذلك لم تكن إلا جزءاً من تيار كبير كان يدعو للتنوير بالاستناد إلى الثقافة الغربية؛ وبالتدخل الأجنبي لمحاربة الجهل والاستبداد العثماني، وربما كان هذا حقاً السبيل الوحيد بعد كل تلك القرون المتعفنة التي انقضت على المنطقة.

بما أنَّ رجالات الاستخبارات الفرنسية لاحظوا نشاط ماري، وتمكنها من التغلغل في أوساط الناس عامة والنساء خاصة، ورأوا ما لمجلتها العروس من جمهور واسع، فقد عملوا على إرسال واحد من معارفها ليقدم لها العرض التالي: اكتبي لصالح فرنسا مقابل راتب ضخم، على أن تعدد في مقالاتها الإصلاحات التي ينوي الانتداب الفرنسي إدخالها إلى المرافق السورية المختلفة. أجابت ماري يومها:

«لتدخل فرنسا الإصلاحات أولاً، ومن ثم أتحدث دون مقابل، فلا حاجة بي إلى المال، تشترون به إخلاصي لوطني».

وبالفعل قامت ماري بنشر خبر في سنة 1919 يقول إن المنتدى النسائي ومدرسة بنات الشهداء استقبلا مندوب مصر السامي آنذاك المارشال البريطاني اللنبي وزوجته عند زيارة قصر العظم والجامع الأموي. وتمدح المجلة العروس زوجة اللنبي التي شاركت زوجها في كثير من أفكاره:

فأهلاً بالليدي اللنبي من لو جاء زوجها في العهد القديم أو لو حذفنا من اسمه أحد اللامين لكان نبياً.

وتقول ماري من ثم في مجلتها:

إن الحلفاء قد حرروا العالم، فيحق لهم المجد والفخر، لكنهم إذا حرروا الشعوب أينكرون عليهم حق الاستقلال؟ إن بريطانيا محررتي، وفرنسا مرشدتي، أما سورية فأمي، وأمي حرة فلا تقيدوها.

وهنا ستبدأ مواقف ماري عجمي بالتبدل تجاه فرنسا أسوة بعدد كبير من معاصريها؛ ولن تعود فرنسا بعد فترة قصيرة مرشدتها؛ وذلك بسبب الممارسات الاستبدادية والقمعية التي رأت ماري أن فرنسا تقابل بها شعبها وبلدها، وتحطمت آمال ماري كآمال الكثيرين غيرها التي عقدتها على الفرنسيين، لإعادة البلاد حرة إلى النور:

«من ذا الذي يقول إننا أمة لا يليق بها أن تمنح الاستقلال ولا تعرف أن تحكم ذاتها ...»

من هنا أضحت ماري تعبر كتابة أن فرنسا حمّلت سورية الديون المتراكمة والضرائب المتكاثرة، وأن الشركات الفرنسية تطرد هذا وتستبد بذاك، ما جعل السلطات الفرنسية تغلق مجلة العروس نهائياً في آذار من سنة 1926، (هناك مصادر تشير إلى إغلاق مجلة العروس في نهاية سنة 1925)، وذلك في الجزء 12 والمجلد 11 وقد صدر منها 6900 صفحة.

ثمة حقيقة لا ينبغي إغفالها، وهي أسبقية ماري عجمي في عروسها في عدد من القضايا، فقد تكلمت في ذلك الوقت عن قضية لم تكن بعد عُريت بشكل واسع، وهي قضية دعم الاقتصاد المحلي، والحثّ على استهلاك المصنوعات الوطنية، دون غيرها من المصنوعات الأجنبية التي لا تني تزيد المستعمر قوة. ودأبت ماري دوماً في مقالاتها- في العروس وفي غيرها- على الوقوف إلى جانب العامل والفلاح والجندي، وهو موقف لم يكن معتاداً في الأوساط المدينية في ذلك الوقت من تاريخ سورية.

❖ ❖ ❖

الفكرة التي كانت مهمة للغاية في خطاب ماري عجمي، التي استطاعت اختزالها فيما نشرته مجلتها للشهيدين (شكري العسلي) و(محمود المحمصاني)، هي الموقف الواضح من الصهيونية منذ البداية والكشف المبكر لمخاطرها. ونشرت العروس أيضاً في الموضوع ذاته تقريراً مطولاً في عام 1921 تحت عنوان: (مشاريع العمران في فلسطين)، فضحت فيه المؤامرة الاستعمارية الصهيونية في فلسطين،

والنشاط الصهيوني لتنفيذ وعد بلفور، بدعم من الحكومة البريطانية التي دعت في أيار عام 1918 وفداً يهودياً للمجيء إلى فلسطين، لتنظيم شؤون اليهود، وإنشاء عدد من الدوائر تهتم بقضايا الاقتصاد والتعليم وتنظيم الأعمال، وأشار التقرير أيضاً إلى شراء الأراضي وبناء المنازل وتوزيعها على اليهود المهاجرين بالتقسيط، وتحدثت المجلة من ثمّ عن الاستيلاء على مياه نهري الليطاني والأردن، والاستفادة منها في توليد الكهرباء والري، مما يساعد على هجرة وتوطين مئات الألوف من اليهود في فلسطين. وفي العام 1922، نقلت مجلة العروس صورة لبناء المستوطنات على أراضٍ عربية وبثمن بخس.

ثمة تيمة كانت تهيمن ببراعة على أداء ماري عجمي وهي: نصرة الهامشيين، ابتداء بالمرأة وعلى مختلف الصعد والمجالات، وليس انتهاء بالثوار والمجاهدين الذين قاوموا السلطة المطلقة للاحتلال والانتداب؛ لكن تلك التيمة الرائعة بهيمنتها وقالبها الحماسي جعلت ماري تغض الطرف أحياناً عن تكامل مشروعها وتناقضه في بعض الأوقات؛ ففي الوقت الذي سعت فيه بكل جوارحها لتحقيق حرية المرأة، راحت ترد على مقالات (فيلكس فارس) في مجلتها العروس، وتنصح الفتيات بصداقة الفتيان فقط لزيادة ثقافتهن، لكن ألا يستمعن إلى أقوال الحب ويغتررن به، وألا يعطين رسائل تؤخذ كمستمسكات عليهن، إلا أن امرأة استثنائية كماري عجمي متمردة مناضلة، ينبغي أن يكون لها رأي خاصّ، لاسيّما أنها كانت الرابط الأساسي بين مناضلي السجون والخارج، ومن بينهم الرجل الذي أحبته على الملأ، ولم تتزوج بعد استشهاده في سنة 1916 وظلت وحيدة حتى توفيت عجوزاً تبلغ السابعة والسبعين، في دارها الدمشقية القديمة.

في محنتها وكهولتها وبعد أن عدّى عليها الداء والعمر، تجاهلها الأصدقاء، ولم تقرع حلقة بابها النحاسية يد، كانت ماري فيلسوفة من غير أن تدري، فتحملت المحنة صامتة صابرة حتى لا تترك كلمة منها لعدو أو حقود. وقف بيدها القلم، وحال الداء بينها وبين الناس، لكن من غير ثورة أو شكوى، وكأن لسان حالها ما كتبته يوماً:

أعيـــــدي إليّ جنـــــون الصـــــبا   فلـــيس جنـــون الصـــبا بجنـــون
ولكنّـــــه الحلـــم مـــــلء الحشـــا   يمازجـــــه ســـــحر العـــــيون
وآتـــــي فنـــــون الطياشـــــة مـــا   حســـبت الطياشـــة عـــين الســـداد

بيت ماري ذو الممر الطويل والنوافذ المفتوحة على حوشَيه المليئين بالأزهار والنباتات الخضراء؛ كان معتزلها الذي بقيت فيه سنوات طويلة وأختها هيلين؛ وقد استحكمت الشيخوخة بروحها وجسدها، تمكن اليأس أخيراً من اللبوة، ودبّ في أعطافها، وباتت أسيرة الوحدة القاتلة، فيما بقي جهاز الراديو نافذة روحها على العالم، أنيسها الوحيد، وسميرها المفضل:

أنـــــا والأنغـــــام في مســـــمعي   تـــدوّي وحـــر الشـــوق في أضـــلعي
تـــــردد الأصـــــداء مخضـــــوبة   بمـــــا نـــــزا في كبـــــد موجـــــع
علـــى جنـــاح الليـــل في وحشـــة   معقـــودة الأطـــراف ليســـت تعـــي
يـــا صـــلتي بـــالكون في وحـــدتي   إذا دجـــا ليـــل النـــوى الأروع
مـــدي بهـــذا الصـــوت يـــا طالمـــا   حملـــــت إلى المـــــلأ الأرفـــــع
أكـــل مـــا يبقيـــه دهـــر لنـــا   ســـلك مـــن الفـــولاذ في المخـــدع؟

توفيت ماري عجمي وحيدةً عجوزاً، كأن التاريخ يعيد ما حدث لماريانا مراش قبلها بسنوات طويلة، وكأنه مصير حاملات مشاعل التغيير في زمن العتمة والجهل والركود.

في يوم السبت 1965/12/25، شُيّع جثمان ماري عجمي في الكاتدرائية المريمية للروم الأرثوذكس بدمشق، ودفنت في مقبرة باب شرقي، وأقام اتّحاد الجمعيات النسائية بدمشق في 1966/4/25 حفل تأبين على مدرج جامعة دمشق، وتكلم في ذاك الحفل: ريمة العظمة، سعاد نصير، وداد سكاكيني، عفيفة صعب، فؤاد الشايب، رئيف خوري، جان كميد، د. كاظم داغستاني، أمين نخلة، د. جدعون المحاسب، ونبيل الظواهرة. وقد قامت شقيقتها إيلين عجمي بجمع كل ما قيل في الحفل في كتاب أصدرته في السنة ذاتها.

ثمة فكرة قام (عبد الغني الملوحي) بإيرادها في كتابه: عبقريات شامية، فكرة مؤثرة وعميقة بعد وفاة ماري عجمي بسنوات طويلة:

لم نقم لها تمثالاً في حيّها، وهي جديرة بذلك.

ولم نطلق اسمها على شارع، وهي أهل لذلك أيضاً.

...

ولم نجمع آثارها المشتتة في مجلتها، وفي عشرات الصحف والمجلات.

ولم نحدث الجيل الصاعد في الكتب المدرسية بشيء من أخبارها، ولم نرو له صفحة من كفاحها.

لقد نسيناها كما نسينا سائر عظمائنا في الجهاد الوطني والفكري والعلمي..

روزا ياسين حسن

بيبلوغرافيا:

ولدت ماري عجمي في دمشق 14/أيار/1888 في أسرة حموية الأصل نزح جدها إلى دمشق منذ مئتي عام.

درست في المدرستين الروسية والأيرلندية، ونالت من الثانية شهادتها في عام 1903.

- عملت في التعليم في زحلة سنتي 1903-1904، وفي بور سعيد بمصر سنة 1905، وفي دمشق بالمدرسة الروسية كمعلمة أولى سنة 1906.

درست التمريض في الكلية الأميركية ببيروت، ولم تتابع بعد العام الأول بسبب حالتها الصحية المتدهورة، وذلك في سنة 1905.

قضت سنتين في مراسلة كبريات الصحف: كالمقتبس الدمشقية، والمهذب الزحلي، والإخاء الحموي، والحقوق اللبنانية، ولسان الحال والحسناء البيروتيتين.

أنشأت مجلة العروس، وهي أول مجلة نسائية في الوطن العربي في كانون الأول 1910 وحتى 1914، ثم أغلقت بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى، ثم عاودت الصدور من سنة 1918 وحتى آذار 1926، (وفي بعض المصادر حتى سنة 1925).

كتبت الشعر والمقالة وترجمت عن الإنكليزية: (المجدلية الحسناء) و(أمجد الغايات) لباثيل ماتيور في سنة 1927.

أسست النادي الأدبي النسائي 1920، وجمعية نور الفيحاء وناديها مع نازك العابد سنة 1920، والرابطة الثقافية في سنة 1921.

ساهمت في القاهرة في تحرير مجلتي (العروسة) و(الأحرار المصورة) سنة 1931.

ألقت في العراق دروساً في الأدب على طالبات المعاهد العليا (أستاذة للأدب العربي) سنة 1940.

عملت في معهد الفرنسيسكان بدمشق (دار السلام حالياً) مدة أربع سنوات.

أُنتُخبت عضواً في جمعية (الحلقة الزهراء) لسيدات ورجال الأدب سنة 1944.

فازت بجائزة الإذاعة البريطانية في المسابقة الشعرية، وذلك لسنتين على التوالي 1946 و1947.

توفيت ماري عجمي دون أن تتزوج في 1965/12/25، عن سبعة وسبعين عاماً، ودفنت في مقبرة باب شرقي للروم الأرثوذكس بدمشق.

سعيد العاص

غيفارا مبكر

(1889- 1936)

حين التقى صياح المسدي سعيد العاص، بعد فراق دام عدة سنوات، آمن فيها كلاهما أنّ الثورة لم تمت، وأنها ستفيق طالعة من رمادها، طال الزمن أم قصر.

كانا يؤمنان، إيماناً أشبه باليقين، بأن الزّمن لن يطول قبل أن تنفجر الثورة ضدّ الاحتلال الفرنسي ثانية؛ ولكنّ السنوات تنقضي، والثورة لا تندلع، والسياسيون يفضّلون سياسة (خذ وطالب)، وكانت روحاهما تتعذبان.

حين التقى صياح المسدي سعيد العاص في عمّان أصيب بالذعر، فقد كان يظنُّ أن القهر، الذي عاشه وأشاخه قبل أوانه بكثير، قد أصابه وحده؛ ولكنه حين التقى سعيد العاص صُدم بالرجل الوسيم القوي الواثق من نفسه، وقد أضعفه القهر والعزلة وإدارة الآخرين ظهورهم له، فمن يحتاج إلى رجل لا يكف عن دعوتهم إلى إقلاق راحتهم المنزلية، ومفارقة الزوجة المطيعة والبيت الوديع والسرير الدافئ.

ومن أجل ماذا؟!... من أجل حلم اتّضح لهم في ثورتهم السابقة أنّه سابق لأوانه؟ فمن هم؟ بضع العشرات أو المئات أو الآلاف، مع أسلحتهم الضعيفة الصغيرة البدائية، نادرة الذخيرة أمام فرنسا القوية الغنية، الإمبراطورية التي تبتز ثروات ثلث العالم من الهند الصينية إلى أفريقيا الشمالية وأفريقيا السوداء، بل وحتى جزر الكاريبي، التي أرسلت إليها بعضاً من أصدقائهم، ممن قبض عليهم متلبسين بالثورة.

التقيا في مقهى متواضع، اعتاد السوريون اللقاء به، وكان الأصدقاء قد دلوه عليه، قال لهم صياح المسدي: «ولكنها المرة الأولى، التي أزور فيها عمّان، فكيف سأهتدي إليه؟».

قالوا: «عمّان ما تزال مدينة صغيرة، بل ربما كانت أقرب إلى القرية من المدينة... على أية حال السوريون يملؤونها، وما عليك إلا أن تسأل أيّ رجل يلبس الشروال الأسود، أو البانطو المحكمجي، أين قهوة السوريين، وسيدلونك عليها».

ظن صياح الأمر مزحة في البدء، ولكنه حين قرأ لافتات الدكاكين والورش اكتشف أن أكثرها لمالكين دمشقيين فاطمأنّ، وسأل أحدهم، فدله على مقهى السوريين.

مضى إليها دون توهان كثير، وهناك كانت الصدمة التي زلزلته، فالزعيم الذي أرّق فرنسا، وضايق ولعن جماعة (الخذ وطالب)، والرجل الذي رفض كل عروض انخراطه في الفيلق السوري التابع لفرنسا رغم إغراءات الراتب الكبير، والرتبة المضافة، هذا الرجل نفسه كان البؤس المصور؛ فثيابه المتهدلة من حوله لنحوله الشديد الذي سببه ولا شك جوع طويل وتغذية رديئة، وهيئة الانكسار والشرود على وجهه، وقد جلس إلى طاولة صغيرة منفردة، يشرب شايه البارد على مهل.

هذا الرجل كان سعيد العاص بطل حماة، وإقليم التفاح، وجبل الدروز، وغوطة دمشق، والهارب يلتجئ إلى مدينة بائسة، لم تعرف كيف تشق طريقها إلى عالم المدن حتى الآن...

ألقى سعيد العاص بنفسه في حضن صيّاح، الذي جمع ذراعيه الضخمتين الطويلتين من حوله، واختنق حلقه ببكاء لا يريد البوح... تعانقا طويلاً، ربّت كلٌ على ظهر الآخر، تنفسا عميقاً يسترجعان هدوء أنفاسهما، ويستذكران الأيام الماضية منذ رجعا من الحرب العالمية الأولى، من جيش عثماني مهزوم، آملين بأيام عربية مع الحاكم العربي الجديد، الأمير فيصل بن الحسين؛ ولكنهما فوجئا كما فوجئ الجميع بالجيشين الأجنبيّين الفرنسي والإنكليزي، يحتلان بلاد الشام ويتقاسمانها.

تنهد صياح، فتنهد سعيد، وتناول صياح كأس الشاي الساخن من يد خادم المقهى، ورشف رشفة، ثم تجرأ أخيراً فسأله: كيف حالك هذه الأيام؟. ثم أدرك بسرعة سخف سؤاله، فقد كانت ثياب سعيد العاص المتهدلة حول جسده إشارة واضحة إلى سوء التغذية الطويل الذي عاشه الرجل؛ وكانت لحيته الطويلة لم تربَّ لزينة أو لتدين، فالرجل كان ضابطاً عثمانياً فيما مضى، وقد قضى فترة جيدة من حياته في إستانبول في دورة الأركان، حيث كان معظم المعلمين والمدربين من

الألمان، فاعتاد حلاقة الذقن على الطريقة الأوروبية، ولكنها كانت طويلة لإهمال وكسل وشعور بالخيبة واللاجدوى واضحين.

لم يجب سعيد العاص على سؤال صياح المسدي، ولم يلح صياح في السؤال، فقد وصله الجواب، شرب كأس شايه مبالغ التحلية على مهل.

كان على الطربيزة عدد من الكتيبات والظروف المعنونة قبل إرسالها، نظر إلى سعيد مستأذناً في قراءتها، فأحنى رأسه في استسلام وتسليم، تناول واحداً منها وقرأ:

«نعلن لإخواننا المجاهدين أننا أخذنا على عاتقنا إحياء جهادهم، ولكننا فيما بعد لا نستطيع سوى تأمين كليشيهات الشهداء فقط، وأما الذين يرغبون في تخليد أعمالهم من الثوار، ومن الذين خدموا القضية في المهجر أن يتكرموا بإرسال كليشيهاتهم مُرفقةٌ بسيرهم، ولا عتب علينا إذا لم نخرج للأحياء كليشيهات على حسابنا؛ لأنه لا يوجد بطرفنا محل زنكوغراف، والذين جردهم الله من الضمائر الحية اغتصبوا الرسوم المرسلة معهم أمثال سعد الدين شاتيلا باشا، ومن على شاكلته، والعبرة لمن اتعظ».

التوقيع

قائد المنطقة الشمالية في الثورة السورية

سعيد العاص

ترك صياح الكتيب يسقط من يده إلى جانب الكتب القليلة المكومة على الطربيزة، ولم يجرؤ على رفع عينيه لمواجهة قائده السابق، والمؤمل في اصطحابه إلى فلسطين، حيث الحلال بيّن والحرام بيِّن، والعدو صريح ولا مجال لسياسة (خذ وطالب)، فقد كان الإعلان الذي قرأه لتوه أكثر من جارح، فلم يكن رسالة استغاثة فقط، ولم يكن تقريعاً لمن تخلّوا عن الثورة وانصرفوا إلى متع الحياة ومفاوضاتها، بل كان إعلان أنّ تلك السنوات النارية البهيجة التي قضياها معاً في الغوطة وجبل الدروز وإقليم البلاد ... أعوذ بالله... هل أقول إنها كانت للاشيء؟!.

استأذن سعيد العاص، ونظر إليه صياح مندهشاً، ولكنه أشار بغموض أنّه ماض إلى الحمام، فأشار مذهولاً أنّ إذنه معه، ولكنه كان مذهولاً من العسكري الصارم المربى ألمانياً وعثمانياً، ما الذي طامن من شموخه، وهدأ من عنفه؟!

راقبه يبتعد بكتفيه النحيلتين المتهدلتين، وخطواته القصيرة، وظهره الذي سارع إليه انحناء ما عهده فيه... اختفى سعيد العاص. وأخذ صياح يتأمل الحارة الغبراء والدكاكين المغلقة بأبوابها الخشبية والزبائن القليلين على المقهى الفقير الذي يجلس فيه، كان فيهم درزيان عرفهما من ثيابهما وشواربهما، فتساءل: أتراهما من الجبل أم من الأزرق؟ ولكنه صرف النظر عن الأمر بسرعة، فقد كان يحس بكثير من الهم الذي ينيخ على صدره، وما كان يعتقد أنه وقد ترك الشام، والدكان والعائلة سعياً وراء الثورة المستديمة سيحس بالهم، ولكن منظر سعيد العاص والإعلان الذي قرأه لتوه - وما كان يتمنى أن يقرأه - كان لا بد أن يصيبه بالهمّ.

تأخر سعيد، وضاق صياح بالوحدة، فأخذ يعبث بالكتيبات التي تركها سعيد أمامه على الطربيزة، ولفتت نظره بينها ورقة مستقلة قرأ عنوانها: الشهيدة الخالدة.

تساءل: من هي هذه الشهيدة الخالدة، وهل استشهدت واحدة فقط في الثورة؟!... تنهد... ثم غلبه الفضول فقرأ:

«إلى شهيدة البؤس رفيقة آلامي واضطراباتي المادية والمعنوية، إلى فريسة الأمراض ومصائب الجهاد عقيلتي أم سعاد، وأخواتها من الشهيدات في سورية، هذه البائسة الراقدة الآن في سفح جبل عمّان الشرقي رقدة الخلود بعد أن قبلت طفلتها سعاد آخر قبلات الحنو: فهي بلا ريب شهيدة جهاد استمر أعواماً، وكان مفعماً بالآلام، فقد شاهدت بأمّ عينيها مصائب الدهر ونكباته، وقاست من ضروب آلام الأمراض ما لا يمكن وصفه، ذبلت عن عمر لا يتجاوز العقد الثاني من مراحل هذه الحياة القاسية، على إثر مرض فتاك انتقل إليها من مرض الروماتيزم الذي هاجم جسمها النحيف؛ عندما كنت أهاجم جيوش المستعمرين في ساحات المجد، ولم يكن لديها من يكترث بتداويها نظراً لضيق ذات اليد؛ فذبل غصن حياتها، ففي ذمة التاريخ، أيتها الشهيدة أم سعاد.

أرقدي الآن مستريحة في عالم الخلود، فأنت شهيدة جهادنا المقدس كأخواتك اللواتي استشهدن بالقنابل؛ وليكن مسكنك وإياهن دار البقاء، ورفرفي بروحك المتألمة مع أرواح الشهيدات فوق سماء سورية المتألمة: فأنت رفيقة بؤسي،

وعزائي الوحيد في نكبتي، وبالختام فإني أسأله تعالى أن يمطر جدتك وشقيقاتك من المجاهدات بوابل رحمته وغفرانه، وأن يجعل مثواكن النعيم».

رفيقك المجاهد

م. سعيد العاص

وضع الورقة من يده في انكسار، وسمع خطوات سعيد العاص المتعبة، فالتفت إليه، رآه قادماً يحمل صحني حمص وبضعة أرغفة، فأحس بالارتباك والخجل. قفز إليه معتذراً فحمل عنه الأرغفة والحمص والمخلل. تمتم في احتجاج: «ولكن.. ما كان يجدر بك فعل هذا».

«اصمت، اصمت الآن، وكل معي ننعش أيّام الخبز والملح القديم بيننا». لم يستطع صياح رفض الدعوة المتواضعة، فقد عرف مما قرأ أن ما فعله سعيد كان أكبر من كل إسراف عرفه.

غمسا لقمتيهما في الحمص، وأخذ صياح يسترجع ما ساقهما إلى هذا المصير.

كان يعرف أن سعيد العاص وُلد في حماة عام 1889، وكان أبوه قد توفي قبل ولادته، فكان قدره أن يبدأ حياته يتيماً، وكان يعرف أنه وُلد في حي الحاضر، وكيف كان له أن ينسى، وقد كانت المناكدة بين سعيد وأبي في ليالي السمر في القلمون، حين يبتعد الفرنسيون ويحصلون على ليلة بلا رصاص ولا مدفعية؛ كانت المناكدة بينهما في تفاخر سعيد بأنه من حي الحاضر، وأنه ليس كأبي هولو من حيّ السوق، كانا يقهقها ويتكركران وكأن ملاك الموت لا يحوم فوقهم، منذ أن تركوا بيوتهم سعياً وراء حلم بعيد، الثورة والنصر واستعادة البلاد من نير المستعمر الفرنسي.

وعلى الطريق من دمشق إلى عمان، كان رسول سعيد العاص إليه يحدثه عن سعيد العاص في صباه المبكر؛ وكيف كان على اليتيم أن يكون الجاد، وأن يكون المثابر، فقد كان الجميع يتوقعون من اليتيم تربيّه امرأة أن يكون الخائب، ولكنه كان مصمماً على أن يرفع رأس أمّه وأبيه المتوفى، فحصل على الشهادة الابتدائية، الحلم في حماة، فرأت أمه وخاله إرساله إلى دمشق ليدرس الإعدادية، ثم الرشدية، أو ما يساوي الثانوية، وهكذا كان لأمه أن تزغرد؛ فقد وضع سعيد حصاة ملح في عيون الحاسدين، فأخذت تستعرض معه الوظائف التي يمكن له أن

يشغلها، ولكن سعيداً كان لديه حلم آخر... الجندية – الجهادية. قال لأمّه: «أريد أن أكمل تعليمي، وأصبح ضابطاً، فما يدريك، ربما أستطيع أن أنفع بلدي نفعاً لا يستطيعه إلا الضابط المثقف».

وافقت الأم بعد تمنع، فمضى سعيد العاص إلى إسطنبول عاصمة الدنيا، ومركز الإسلام، مدينة الألف مسجد، والألف حمّام، مدينة الشرق والغرب، والمسيحية والإسلام، مدينة الحضارات والثقافات والديانات العالمية مجتمعة.

مضى سعيد العاص ابن القرية شبه البدوية المسماة مدينة حماة، بعد أن قضى صباه المبكر في مدينة لم تفارق ريفيتها بعد، فالبساتين تهاجمها من الجهات الأربع، والبداوة تغازلها حجاً وحجاجاً، وقوافل حج، وصناعات لا تخدم إلا البدو والحجاج. ترك حماة ودمشق، ليجد نفسه فجأة في مدينة هي العالم، مدينة يمكن لك فيها أن ترى كل الأعراق، الشقر روساً وشركساً وسلافاً، والسود أفريقيين وسودانيين، والسمر مصريين وهنوداً وشمال أفريقيين، والصفر، وها هم الأندونيسيون والبخاريون والتتار يملؤون الشوارع جنوداً وزواراً وجواري وسواحاً.

ولم يكن سعيد العاص فتى متفتحاً قادراً على تقبل كل المفاجآت، فلربما صدمته صعقة التحضر المفاجئ كما صدمت الإيرلنديين الذين مضوا إلى أميركا، فأصيبوا بالجنون والضياع والانتحار؛ ولكنه كان فتياً، وكان في الكلية الحربية التي لا يؤذن لهم في الخروج منها إلا في نهاية الأسبوع؛ فتعاملوا مع المدينة الكبيرة بالقطّارة، وامتصوا الحضارة بالقطّارة.

في تلك المدينة الكبيرة، شهد سعيد العاص للمرة الأولى بداية الصراعات القومية، وما كان يعرفها في حماة ودمشق. رأى إعلانات الصرب القومية على الجدران، ورأى شجارات البلغار المسلمين مع اليونان المواطنين المسيحيين، كلٌ يدّعي الوطنية ونبل القومية. رأى الألبان، ورأى الكرد، ورأى اللاظ، ورأى الأرمن. سمع عن حروب، وسمع عن مذابح قومية. رأى اليهود المتأسلمين المسمَّين بالدونمة، ورأى الدراويش، وسمع بقوميات تريد أن تنمو في تربة طال عليها السكون.

هناك لقي رجلاً اسمه عزيز المصري، وعرف أن هناك جمعيات تسعى لإبراز الهوية العربية... ولكنه كان حريصاً على التخرج ضابطاً، فكان أن تخرج ملازماً عام 1907. وفي أثناء الجدالات الطويلة مع التّرك والكرد والأرمن والصرب

والألبان والبلغار، اكتشف أنّه عربي، وأنّ له الحق في الفخر في أنه عربي، أفليس الإسلام عربياً؟ أفليست الكعبة عربية؟ أفليس الخلفاء كلهم كانوا عرباً قبل مجيء العثمانيين؟ وهكذا تشكل وعي سعيد العاص الفتى ابن الثامنة عشرة الملازم الثاني عبر الصراعات اللفظية والشعاراتية مع القوميات الأخرى، ومع الحزب القومي التركي والاتحاد والترقي.

تخرج سعيد العاص، وعاد إلى دمشق ملازماً أول، فشهد الفارق الهائل بين العاصمة المتوهجة برياح التغير والصراعات والأفكار واللغات والمدينة الخاملة المخملة، المنفية خارج حركة التاريخ، منذ سقوط آخر خليفة أموي، ووفاة نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، ثم غرق المدينة في مستنقع الخمول، مدينة تابعة للقاهرة المملوكية، ولإستانبول العثمانية، ولولا وقوعها على طريق الحج، فلربما اندثرت أو تحولت إلى قرية من قرى السكون العثماني.

رأى كل هذا وسهر مع الضباط العرب المتوثبين لاستعادة مكان خاص لهم، ينافس أو يتفوق على أولئك الاتحاديين الطورانيين. ثم أوفد إلى إستانبول بعد عام واحد، لتطوير علومه العسكرية ومعارفه القتالية في كلية الأركان. وكان عليه هذه المرة أن يحتكّ بقوة مع الاتحاديين ومع الطورانيين في الكلية، ومع القوميين الآخرين أرمناً وألباناً وبلقاناً مسلمين هاربين من الدول البلقانية المسيحية الجديدة، ينتظرون لحظة الثأر والعودة إلى بلدانهم التي طردتهم، لا لشيء إلا لاستعادة هويتهم القومية، ذات الصبغة الدينية المخالفة لهم.

في العام التالي مباشرة؛ أي في العام 1909، قام الاتحاديون أخيراً بانقلابهم على الخلافة العثمانية، وبدؤوا رحلة التتريك، وبهذا وضعوا البذرة الأولى للانشقاق بين الكتلة الأكبر في الإمبراطورية: أي العرب، وبين الترك الجدد أو الطورانيين أو الاتحاديين، وتحول الصراع النظري إلى صراع وجود مستتر. وفي تلك الأيام انضم سعيد العاص إلى واحدة من الجمعيات العربية الكثيرة التي انتشرت في أوساط المتعلمين والضباط، ورافضي فرض الطورانية على قومية فخورة بأنها صاحبة الدين الذي حضّر الترك، ولغة هي المعين الذي غذى اللغة العثمانية بنصف مفرداتها، وبأكثرية بشرية تغطي مصر والشام والعراق والجزيرة العربية وشمال أفريقية.

وتابع سعيد العاص حديثه، فقال يبدو أن سعيد العاص قد تحمس أكثر مما يجب، ففُصل من دورة الأركان، وأُلحق بكتيبة للرّماة كان عليها أن تمضي إلى البلقان لتخوض الحرب ضد رجال العصابات فيها؛ وكان ما يمكن تسميته مصائب قوم عند قوم فوائد، إذ كانت مهمّتهُ الأساسية هي القضاء على عصابات المحاربين ضد الدولة؛ وفي حربه ضدهم كان عليه أن يتقن أساليبهم في الإغارة ثم الاختباء في جموع الجماهير، وفي تنظيم كتلة الجماهير الساكنة، ليكونوا المزوِّد بالطعام والذخيرة وبالمعلومات عن الجيش النظامي المحارب، وفي تخريب الخطوط الحديدية عماد تنقلات الجيش النظامي، وفي تدمير الجسور التي عبرها ستنقل الجيوش بآلياتها لحرب العصابات الوطنية؛ هذه المعلومات سيختزنها سعيد العاص، بعد أن تعلمها من عصابات البلغار ليفيد منها في المستقبل في حربه ضد فرنسا، وهكذا كان عليه أن يستبدل الأدوار من ممثل للجيش النظامي ضد العصابات إلى محارب عصابات ضد الجيش النظامي الغازي الفرنسي هذه المرة.

نظر صياح إلى الوجه المتعب الملتحي لحية اختلط فيها الفلفل بالملح مبكراً؛ نظر إلى الفكين يعالجان اللقيمات بصعوبة، فقد سقط كثير من أضراسه قبل الأوان، أسقطها سوء التغذية والإهمال والشاي الثقيل والسكائر البلدية اللف والهم الكثير... انصرف بنظره عنه بسرعة، متظاهراً بأكل قطعة من المخلل، فقد خجل من رؤية القائد له يتفحصه، وبينما كان يمضغ ببطء، تذكر صوت رسول سعيد العاص إليه يستدعيه من دمشق وهما على الطريق إلى عمّان.

قال: نُقل سعيد العاص إلى دمشق، حيث عُيّن مأموراً للمهمات الحربية، وكان عليه أن يشرف على نقل الأسلحة والذخائر من وإلى إستانبول ودمشق وحلب والمدينة، وكان يصاحب بعض هذه التنقلات، فكانت فرصة ذهبية لمقاتل حرب العصابات المستقبل في التعرف على جغرافية البلاد التي ستصبح سورية والأردن ولبنان وفلسطين، يتعرف على الجغرافية وعلى الطرقات، وعلى السكان، وعلى القبائل والعشائر؛ أي أن يدرس حقل معاركه المستقبلية دراسة العسكري المحترف.

وربما عمد في أثناء تنقلاته الكثيرة تلك إلى بثّ دعايات الجمعية العربية التي كان قد انتمى إليها؛ وربما تسرب إلى أجهزة المخابرات العثمانية ما اعتاد على قوله لزعماء القرى والمدن والقبائل والعشائر عن الجنس العربي، والعرق العربي،

والقومية العربية، والتاريخ العربي، والرسول العربي، والفتوحات العربية... إلى آخر ما استخدم من مفردات ومصطلحات في أدبيات الصراعات القومية، التي استشرت بقوة في أثناء إعلان الجسم العثماني عن قرب تفسخه.

ما تسرب إلى أجهزة المخابرات العثمانية أدى إلى نقل سعيد العاص المفاجئ إلى (جنق قاعة)، وهو حصن قوي دافع عن إستانبول وعن الدولة العثمانية طويلاً قبل وأثناء الحرب العالمية الأولى؛ وهو الاسم الذي سيلصق اسم (جنق قلعة) بذاكرتهم أكثر من غاليبولي؛ وأكثر من الترعة، فهناك كان القتل الكثيف لكلا جانبي الصراع، وهناك كان الصمود المجيد، ثم الانهيار الذي به انهار كل شيء.

لكن سعيد العاص، وقبل دخول الدولة العثمانية إلى تلك الحرب البائسة المسماة بالسفر برلك، كان قد نضج سياسياً؛ نضج من خلال الحوارات مع الضباط والمثقفين العرب من مصر والعراق والشام؛ ومن خلال قراءة أدبيات الطورانية والطورانيين، فاستجاب حين دعي إلى أن يكون من مؤسسي جمعية العهد التي ترأسها عزيز المصري؛ وهو حزب كان يضم الضباط العرب العاملين في الجيش العثماني، وكانت النوائب والملاحقات التي طاردت الوطنيين والقوميين قد علّمتهم الالتزام بالسرية، فالتزموا، وامتنعوا على أجهزة الأمن العثمانية.

ثم اعتقلت أجهزة الأمن عزيز المصري، وأعدمت واحداً من المؤسسين وهو أمين لطفي الحافظ، واعتقلت عدداً من أعضائه كان من بينهم سعيد العاص الذي حُقق معه في عاليه، وحُكم عليه بالإعدام، ثم خُفف الحكم إلى السجن لمدة ثمانية عشر شهراً قضاها ما بين عاليه وحلب، ثم تم نفيه إلى (جوروم)، حيث قضى فترة الحرب هناك، وحتى هزيمة العثمانيين وتحرير حلب. وهكذا رجع سعيد العاص إلى سورية رجلاً ممثّلاً خلاصةً لضباط ومُتعلمي ومُعاني تلك الفترة العصيبة، قبل الولادة المتعسرة لبلاد الشام، التي سيتقاسمها المنتصران: إنكلترا وفرنسا.

وضع سعيد العاص نفسه تحت تصرف الدولة العربية الوليدة بقيادة الملك فيصل بن الحسين. في تلك الفترة القصيرة، ما بين دخول فيصل إلى دمشق وخروجه، ثم دخول غورو، كان شيء جديد يتولد، وكانت عقبات ومرارات كثيرة تجد فرصة للتعبير عن نفسها، وكانت هناك خيانات كثيرة على استعداد للتولد، فلم يكن الناس قادرين على قراءة التاريخ. فاكتفوا بفرحة سقوط العثمانيين،

وأخذ كلٌ يفكر في كيفية نهش الكتلة الكبرى من الغنيمة، وعندئذ أطلق سعيد العاص صرخته الشهيرة المتعالية على الصراعات الدينية والمذهبية والمناطقية، فقال: «الدين لله والوطن للجميع».

وضع سعيد العاص نفسه في خدمة الأمل الجديد فيصل بن الحسين، ولم يكن وعيه، ووعي معاصريه قادراً على الحلم بالشعب والبرلمانية والجمهورية؛ فاكتفوا ببهجة تغيير الحاكم من والٍ عثماني إلى ملك عربي. كان وعي سعيد العاص القومي جزءاً من وهج الفكر القومي الأوربي الذي انتقل إلى تركيا المتطورنة، وهكذا أنتج التفاخر بالجد الطوراني الفخر بالجد العربي، وبدأت رحلة سعيد العاص في سبيل تحقيق هذا الحلم، ولم تتوقف إلا بسقوطه في فلسطين مدافعاً عن الحلم العربي عام 1936 عند قرية الخضر قرب مدينة القدس.

وتابع رسول سعيد العاص يسلي صيّاح في حديثه عن سعيد العاص قائلاً: «أسندت الحكومة الفيصلية إلى سعيد رئاسة الشعبة الثالثة في دائرة الشؤون الحربية، أو المجلس الحربي الأعلى للدولة الناشئة، ثم أُسندت إليه قيادة منطقة الزبداني، وكانت الجيوش الفرنسية المنتصرة والمملوءة غلاً عبَّر عنه قائدها الجنرال غورو حين زار قبر صلاح الدين، ليقول له: ها قد عدنا يا صلاح الدين، هذه الجيوش قد احتلت السواحل اللبنانية والسورية مستعدة لاقتحام المدينة التي عرفت العاصمية لأول مرة بعد أكثر من ثمان مئة عام منذ غياب نور الدين، ثم صلاح الدين. ثم أسندوا إليه رئاسة مفتشية التجنيد العامة، وكان يستجيب لكل نقل دون اعتراض، فقد كان همّه إنجاح التجربة الفيصلية.

كان سعيد يرى الخلافات، ويرى الانشقاقات، ويرى الأنياب المشرعة للانقضاض على الغنيمة التي طُرد عنها الضبع العثماني العجوز، ولكن عزيمته وعزيمة الشبان من الضباط وعلى رأسهم يوسف العظمة كانت تعطي أملاً بأن نصراً - وإن غامضاً ربما - سينجلي في الأفق.

كان سعيد العاص، في حواراته مع الوجوه الجديدة للدولة الجديدة، يلاحظ أن معظمهم لا يعرفون ما يريدون؛ بل كانوا(في معظمهم) يعرفون ما (لا يريدون) وما لا يريدون كان الدولة الفرنجية الكافرة، وماذا بعد؟ لا جواب...

كلف سعيد العاص، كضابط يعرف جغرافياً وديمغرافياً البلد جيداً، في الدوران على البلد وعلى متنفذيها، يسألهم المشورة والعون المالي والبشري؛ وهكذا زار مناطق جسر الشغور والحفة وجبل الزاوية، وربما التقى في زياراته تلك إبراهيم هنانو، وصالح العلي.

سمع في حواراته مع المتنفذين ما كان يجب سماعه، وما لا يجب سماعه، سمع تأييدهم للدولة الفتية، وسمع عن النزعات الانفصالية، وعن الاستقواء بالفرنسيين، وحمل كل هذا إلى القيادة في دمشق، وهناك أعاد تشكيل حزب العهد مستنجداً بأصدقائه ورفاقه القدامى: أحمد شعبان ورشيد بقدونس، اللذين سيصحبانه طويلاً في الثورة السورية، ثم إلى الأردن والمنفى.

تقدّم غورو بجيوشه الجرارة، واستُشهد يوسف العظمة، وهرب فيصل، وسقط الحكم الوطني، وكان سعيد العاص حيث يجب أن يكون في ميسلون، ولكنه لم يحز الشهادة كما حازها العظيم يوسف العظمة.

وعندما وقف سعيد العاص أمام الخيار الفظيع: أن يظل ضابطاً يعمل تحت راية الفرنسيين الغزاة أو الثورة، اختار الثورة، وانضمّ إلى عمر البيطار في حربه ضد الفرنسيين الذين أخذوا في التغلغل من الساحل وحتى الداخل السوري؛ وشارك مع صالح العلي في ثورته ضد الفرنسيين، ولكنه في تلك الأثناء تعرف إلى عز الدين القسام، الذي سيمضي إلى فلسطين يحارب مع الشاميين الذين سيسمَّون فلسطينيين ضد الغزاة الجدد الإنكليز والصهاينة.

انتفض إبراهيم هنانو فقرر سعيد العاص الانضمام إليه، وفي طريقه من الساحل إلى جبل الزاوية، كان عليه أن يمرّ من حماة ليستنفر أصدقاءه هناك للانضمام إلى هنانو، ولكن الفرنسيين كانوا في انتظاره في حماة، وهناك قبضوا عليه حيث أودعوه السجن لشهرين، استطاع بعدها الفرار، وكان الرأي أن يختفي عن عيون الفرنسيين حتى يستجمع شاميّو سورية قواهم؛ فمضى مع من مضى إلى بلد كان يولد، وكان اسمه إمارة عبر الأردن، وكان في صحبته إلى الأردن رشيد بقدونس وأحمد شعبان، وهناك لقي سعيد العاص الأمير عبد الله شقيق فيصل: الحلم الهارب، وابن الحلم العربي حسين بن علي شريف مكة، ولنذكر أنّ العام كان

1921؛ أي أنّ التاريخ كان شديداً في الأحداث، وأنّ الأدمغة التي لا تملك خبرة سياسية، لم تكن قادرة في ذلك الحين على هضم كل تلك التسارعات.

أعلن عبد الله أنه يؤسس جيشاً عربياً سيهاجم به فرنسا في سورية وسيحاربها؛ فصدق الضباط المشوّشون، وقرروا الانضمام إليه، ولم لا؟ أفليس ابن الشريف حسين الحلم؟ أوليس أخاً فيصل الذي عشقه شاميّو سورية طويلاً؟ أفلم يعلن عبد الله أنّه سيعيد فيصل إلى دمشق، فيصل الذي أعلنوا الولاء له قبل سنتين وبضعة شهور؟

أسند الأمير عبد الله إلى سعيد العاص قيادة السرية الاحتياطية في الجيش الأميري الجديد؛ ثم عينه أمين السر العام للأمين العام في الإمارة، ثم قائداً للمفرزة (ك)، ثم وكيلاً لمدير التعليم العام، ثم المدير العام للشرطة في عمّان.

مسح سعيد العاص فمه بعد أن أنهى إفطاره. الغذاء المتواضع؛ وهو يشكر الله على نعمته، فمسح صياح المسدي فمه بعد أن فرغ الصحنان من الحمص والمخلل، وآخر لقمة من خبز، وجاء الخادم بكأسي شاي جديدين، فتناولاهما في سعادة.

قال سعيد: «تعال نتمشى قليلاً أعرفك على عمّان، وعلى الأصدقاء الذين بدؤوا في التجمع في عمان، قبل الالتحاق بعز الدين في فلسطين، تعال».

لم يدفع أيّ منهما ثمن الشاي للخادم، فقد رفض الخادم ترك صياح يدفع، وقال: ولو... سعيد بك معلمنا! وقال سعيد: لا تشغل بالك. أنا أحاسبه كل أسبوع مرة، تعال.

مضيا في دروب ترابية، وفي التواءات جبلية كان سعيد فيها صامتاً، ذكّر صياح طويلاً بصمت المهزومين المكابرين الذين يرفضون الاعتراف بهزيمة لم يكن لهم يد فيها؛ فالفارق بين الخصمين كان أكبر بكثير من أيّ مقارنة.

كان صياح قد اعتاد الصمت، واعتاد الحوار مع الذات واستنطاق الذكريات، فسمع ثانية صوت الرسول إليه يستدعيه، يكمل سيرة سعيد العاص قبل استدعائه صيّاح.

قال: في تلك الأثناء كان الشريف حسين بن علي يطالب الإنكليز بتنفيذ وعودهم التي أعطوها عبر ماكماهون بإقامة الدولة العربية، إنّ تعاونَ العربُ مع

الحلفاء ضد العثمانيين. لكن الإنكليز تجاهلوه، وتنكروا، وتبادلوا الأدوار بين لورنس واللنبي وماكماهون. وأخيراً أصبح الشريف حسين عبئاً، مذكراً بالإخلال بالوعود، وعدم وفاء الدين، فقرروا قتل الدَّين بقتل الدائن، وهكذا قطعوا عنه السلاح والذخيرة والتمويل بالحجاز، وتركوا خصمه عبد العزيز بن سعود يهاجمه، فاستنفر الأمير عبد الله المتطوعين العرب، فمضوا لنجدة الأمير علي بن الحسين، وكان من بين هؤلاء المتطوعين سعيد العاص، فكلفه الأمير علي بقيادة لواء النصر، ولكن الجيوش النجدية كانت مليئة بحماس أكبر وتسليح أكبر؛ فهزموا قوات الأمير علي الذي كلف سعيد العاص بقيادة خط جدة الدفاعي، فصمد أمام جيوش النجديين ومعه ألف رجل في مقابل ثلاثين ألفاً لمدة تسعة أشهر هزمهم بها أكثر من مرة؛ وفي تلك الأثناء منحه الأمير عبد الله رتبة عقيد مكافأة على صموده، ولكن النصر كان أخيراً للنجديين السعوديين، فعاد من نجد إلى عمان، وهناك عيّنه الأمير عبد الله قائداً لمنطقة العقبة ومعان، ولكنه اعتذر، فأعيد إلى عمان بعد أن امتلأ قلبه بالحزن والانكسار لما رأى من الحال العربي.

تزوج سعيد العاص امرأة لم نعرف عنها إلا كنيتها أم سعاد، وذلك في رثائها الذي سيكتبه حين يخلد لاستراحة المقاتل؛ فيكتب مذكراته التي سيسميها (صفحات من الأيام الحمراء)، وحين تنطلق الثورة السورية، سيتركها في عمان مع ابنتهما الصغيرة سعاد، ويمضي لينضم إلى الثورة.

وسيسمع صياح رسول سعيد يقرأ من ذاكرة مذكرات الأيام الحمراء قول سعيد العاص: «انصرفت لمعانقة معشوقتي البندقية، وانصرفت عن شريكة حياتي في البيت إلى شريكة حياتي في الجهاد؛ عانقت بندقيتي كما يعانق العاشق محبوبته... وودعت أم البنية وداع البطولة، وداع رجل يعتقد أنّ هذه الحياة إن هي إلا تماثيل وظلال لا يبقى فيها سوى العمل الصالح والذكر الحسن والاسم الخالد».

مضى سعيد إلى الثورة في الشام التي يسمونها سورية، ودخل معترك النار من جديد.

وسيكمل رسول سعيد العاص: كان الصراع الإنكليزي الفرنسي غير المعلن على تقاسم الكعكة الشامية، قد جاء بالأمير عبد الله إلى الأردن، مع وعد غامض

بجعله وارث فيصل في الشام؛ أو معيد فيصل إلى الشام السورية، أو على أضعف الإيمان تكبير إمارته الأردنية على حساب الشام السورية، لجعل حدودها في قرية الكسوة جنوب دمشق، ضاماً حوران وجبل الدروز. هذه الوعود جعلت الأمير عبد الله يشجع قدوم السوريين وإيواءهم في الأردن.

وعلى الجانب الآخر؛ أي الفرنسي، فإن حماقة العسكرية الفرنسية التي اعتادت على التعامل الاستعماري الفظ مع أفريقيا السوداء، ومع الهند الصينية، جعلتهم ينقلون إلى سورية أسوأ عناصرهم العسكرية والمخابراتية، بالإضافة إلى حثالة العالم المسمّين بالفرقة الأجنبية، المشكلة من القتلة والمجرمين والهاربين من حكوماتهم وأحكامهم القضائية، فتعطيهم العسكرية الفرنسية أسماء جديدة وهويات جديدة، ويتحولون إلى آلات قتل.

هذه هي القسوة التي وُوجه فيها السوريون. وكانت عصبة الأمم قد جعلت من فرنسا دولة منتدبة لتمدينهم وتعليمهم الحكم والإدارة، فتحولت لتصبح دولة استعمارية فظة، وصادف أن كان المندوبان الأولان رجلين كاثوليكيين متعصبين (أكليركيين) وهما غورو وفيغان، ثم جاء الثالث، وكان سراي الماسوني المعادي للدين، هذا الاضطراب قد تحول إلى اضطراب في العلاقة بين المندوب السامي ورجالاته من الأكليركيين؛ ثم كانت حادثة الكابيتين كاربييه وقطته الضائعة مع وجوه الدروز في الجبل، ثم إهانة المندوب السامي لوجوه الدروز في بيروت، ثم اعتقال أدهم خنجر من بيت سلطان الأطرش، وتتالت الأحداث، وانتفضت الثورة التي ستسمى بالثورة السورية الكبرى، وكان على سعيد الذي كان بانتظارها أن ينضم إليها.

استقبلت قيادة الثورة سعيد العاص، الذي كان قد جنّد أعداداً كبيرة من السوريين الهاربين إلى الأردن للانضمام إلى الثورة، بالترحاب، وعينه القائد العام للثورة سلطان الأطرش قائداً لتنظيم العمليات الحربية، ولضبط حركة العصابات ونشاطاتها، ووصلها تنظيمياً بالقيادة. وقد قام بهذه المهمة خير قيام رغم كل الفوضى القائمة بين أناس كانوا يستكشفون أولى خطواتهم لشيء يسمونه الثورة: فلا هدف واضحٌ أمام البسطاء، الذين تخلّوا عن البيت والراحة والأمن لطرد الفرنسيين، حسنٌ، هذا هو الهدف الأول، وماذا بعد؟

الحقّ لم يكن بين كل أولئك الذين قاموا بالثورة، من يعرف ما الثورة وما المراد بعد نجاح الثورة إن نجحت، ربما باستثناء الطبيب المثقف عبد الرحمن الشهبندر، وربما كان هذا هو السبب في أنه الوحيد الذي قُتل، بعد عدة أحكام بالإعدام صدرت ضده من فرنسا.

ثاروا، ولم يكن في ذهنهم إلا العودة بالبلد إلى النظام الفيصلي الذي لم يكن قد أنشأ هيكليته بعد، ولم يكن قد تغلب على العصبيات الإقليمية والمذهبية والانعزالية، إلى آخر قائمة الأمراض التي تركها حكم أجنبي امتد لقرون طويلة.

ثاروا، وما كان لثورة كهذه أن تنجح، فليس من إدارة منضبطة ضابطة، وليس من تمويل منضبط ضابط، وليس من تسليح منضبط ضابط وليس من هدف متفق عليه منضبط ضابط.

ولكن ما يعنينا من هذا التاريخ الآن هو هذا الرجل الغريب الصوفي المخلص لعروبته وقوميته ووطنيته في ذلك الزمن المبكر. حارب سعيد العاص في الغوطة، وحارب فيما سيسمى بلبنان، وحارب في حمص وحماة وجسر الشغور، والساحل... خاطب الجميع، حاول أن يتجاوز العنعنات الصغيرة المذهبية والإقليمية، وفي رسائله التي تركها في مذكراته سنرى الكثير من هذه الصوفية.

فها هو يوجّه رسالة إلى أهالي زغرتا القريبة من طرابلس قائلاً: «أمّا أنتم، فلكم ما لنا، وعليكم ما علينا إذا عدتم إلى الصراط المستقيم، وأحبطتم أعمال قُطّاع الطرق لديكم، حيث هذه الأعمال تولد ضغائن بينكم وبين جيرانكم المسلمين، ونحن نتعهد لكم طالما أنتم على الحياد ألا يمسكم سوء، فأدعوكم للتفاهم معنا والسير على خطة تتفق مع المصلحة الوطنية».

ثم ها هو يوجه بياناً إلى أهالي الضنيَّة القريبة من طرابلس أيضاً: «لي الشرف أن أعلم الجمهور أن زعماء الثورة في الضنيَّة يؤمّنون جميع السكان الذين غادروها خوفاً على أموالهم وأنفسهم، إذا عادوا إلى بيوتهم خلال أسبوع».

ثم ها هو يخاطب أهالي طرابلس: «أخوتي الأماجد! علمتم بالمتطور الجديد... بعد تلك الانتصارات الباهرة التي أحرزناها على المستعمرين، ولكن... أصابع الذهب الرنان، أو بالحري ورقة الليرة السورية التي أخذت دورها المشين، ففككت عرى

اتحاد جبل المتاولة، كما أنّ دسائس عبود عبد الرزاق فككت عرى اتحاد الضنيَّة، فقد خُدع بيت شوك، وحملهم على استسلام مشين؛ مما أدى إلى تمزيق القوى، وتفريقها، فصرت أعزل وحيداً في منطقة الضنيَّة، ولم يبق معي سوى أبو علي طاهر، وكذلك فالدعاية الهائلة التي نشّطها الفرنسيون بالمال حملت آل جعفر على الاستسلام؛ فرضوا بأن يسلموا خمسين بارودة للحكومة، وفي هذا اليوم اجتمع زعماء الجبل بالمستشار الفرنسي في الهرمل لعقد اتفاق نهائي؛ واستمال عبود عبد الرزاق كثيراً من الأسافل، وسجلهم كجنود في الجيش الفرنسي لقتالنا، ومما يوجب الأسف أنّ حسن طعان الدندش تطوع عند السلطة، وانخرط في زمرة الخونة لقاء مئة ليرة سورية يتقاضاها شهرياً، وهكذا شلت حركة المقاومة في المنطقة، وبناء على هذه الاعتبارات، وبسبب خضوع آل شوك، ونزوح معظم سكان الضنيَّة، وانخراطهم في الجندية، وإخلاء القرى، وفقد مواد الغذاء انسحبنا ...»

وتنهد رسول سعيد العاص وهو يحدث صياح قائلاً:

وأنت تعرف البقية، خبت الثورة، وهرب من هرب، وكمنَ من كمنَ، واعتُقل من اعتُقل، ونُفي من نُفي إلى جزيرة سيشل، وإلى جزيرة الشيطان، وإلى الهند الصينية، وكان من حظ سعيد العاص أن التجأ إلى عمّان.

وتنهد صياح، فقد كان من الكامنين في انتظار النداء بأن الثورة اشتعلت، وتابع الرسول: وانشغل سعيد بتذكير الناس بالأيام المجيدة (للثورة)، فأخذ يكتب مذكراته التي سماها (صفحات من الأيام الحمراء)، وينشر فيها أخبار الثوار المجيدة وصورهم لعلها تكون ذكرى للأجيال القادمة؛ ولكن الضائقة تعصّ، والفقر يطغى، ونفقات النشر تربو على قدرته المالية، فأخذ يراسل الأثرياء الجدد، والثوار السابقين، ورجال المهاجر، ولكن... لا حياة لمن تنادي. كانت الثورة في فلسطين تتأجج، فهناك الحلال بيِّن والحرام بيِّن، والعدو صريح لا يلبس ثياب الوطني، ولا يرطن بلغته، فقرر الانضمام إلى عز الدين القسّام، واستدعى كلّ من وثق فيهم من الثوار السابقين.

ابتسم صياح في مرارة وقال: ليسوا كثيرين على أيّة حال، ولكن الرسول قال في حزم: ولكنهم خميرة الأرض، أنتم من سيترك الراية خفاقة، حتى ولو سقطت...

مضى سعيد العاص مع صيّاح وحوالي عشرة من الثائرين إلى عز الدين القسام، وتابعوا معه الحرب ضد الصهاينة والإنكليز، ولكن النّهاية كانت كما تمنّاها سعيد العاص طويلاً... الشهادة.

خيري الذهبي

حسني الزعيم

بطل الانقلاب السوري

(1889 -1949)

في صباح يوم السبت 13 آب 1949، قال رئيس الجمهورية السوري حسني الزعيم لمطران الروم الكاثوليك، معبراً عن أمنية عزيزة عليه:

«أدع لي بأن أعيش خمس سنوات لأجعل سورية كسويسرا رقياً وازدهاراً»

ولقد طلب الكثير، أكثر مما يسمح له به ما تبقى من عمره. كان هذا آخر يوم في حياته، ففي صباح اليوم التالي، صدر عليه حكم بالإعدام دون تحقيق أو محاكمة، بعد انقلاب قاده العقيد سامي الحناوي قائد اللواء الأول، واقتاده ثلاثة ضباط نفذوا فيه الحكم بإطلاق الرصاص عليه زهاء خمس دقائق. كانت آخر كلماته مخاطباً الجنود الذين شهروا عليه بنادقهم ورشاشاتهم: «أنا حسني الزعيم، أنا الذي جعلت لكم كرامة، وللجيش هيبة.»

انتهى الزعيم نهاية فاجعة لم يتوقعها بهذه السرعة ولا بهذه الدموية، رحل بعد أن أرسى تقاليد انقلابية راسخة، أصبحت برسم الاستعارة، واعتُمدت آليةً للتغيير في أغلب بلدان المنطقة، وسوف يمتح العسكر في البلاد العربية من معينها طويلاً. بعد أن حدد الزعيم أسلوباً عملياً لتغيير الأوضاع السياسية وأنظمة الحكم، بدعوى تصدي الجيش لتحقيق مطالب شعبية عجزت عنها الأحزاب التقليدية، وهكذا في أقل من عشرين سنة، رزح أكثر من ثلثي البلاد العربية تحت مظلة الحكم العسكري، أو ما يشبهه.

❖ ❖ ❖

تميزت حياة الزعيم بسيرة حافلة غنية بالمتناقضات، لم يكن سجله نظيفاً ولا محموداً، وإن كان مثيراً، ما جعل أقرب المقربين إليه، ومنهم الذين خاصموه وناصبوه العداء، أو ساندوه وصدقوا تطلعاته الطموحة، لا يتّفقون في الرأي حول شخصيته، فالرجل الذي ولد عام 1889 في مدينة حلب من عائلة غنية من

التجار، كان أبوه مفتياً في الجيش العثماني، وأخوه شيخاً معروفاً. زرعت البيئة المتدينة في داخله قدراً من الإيمان البسيط والأعمى، والذي كان بوسعه تجاهله، فمثلما كان يصلي في بعض الأحيان، كان يلاحق النساء، ولم يقلع عن القمار إلا عندما أفلس، ولم يتوقف عن تناول المشروبات الكحولية إلا بعد إصابته بمرض السكر. درس في حلب ودمشق في المدارس الرّشدية وهي عسكرية الطابع، ثم التحق بالجيش العثماني، وتلقى علومه العسكرية في مدارس إستنبول وأدرنة. بعد أن أنهى تدريبه العسكري رُقّي إلى ربتة (ملازم أول) وانتقل مع وحدته التركية عام 1917 إلى المدينة المنورة في الحجاز؛ لم يطل الوقت عندما وقع أسيراً في نهاية الحرب العالمية الأولى بأيدي القوات الإنجليزية، سجن في مصر وأُطلق سراحه ليلتحق بالجيش الفيصلي، واستقال بعد فترة وجيزة من الخدمة.

بعد دخول الفرنسيين إلى سورية سنة 1920، التحق بالكلية العسكرية، تخرج منها وخدم في (القوات الخاصة)، وهي جزء من الجيش الفرنسي في المشرق مكون من أبناء الأقليات الدينية والأثنية، تحولت هذه القوات إلى نواة للجيشين السوري واللبناني بعد الاستقلال. رُقّي إلى ربتة رئيس (كابتن) سنة 1928، وإلى ربتة مقدّم سنة 1934، وإلى ربتة نائب زعيم «عقيد» سنة 1941.

في الحرب العالمية الثانية، بحكم خدمته مع القوات الفرنسية التابعة لسلطات فيشي المتعاونة مع النازيين، حارب ضدّ قوات فرنسا الحرة (الديغوليين). وعُهد إليه بمهمة تنظيم حرب عصابات ضد القوات البريطانية والفرنسية القادمة من الجنوب، ووضعوا تحت تصرفه 300 ألف ليرة سوريّة، لكن حين اضطربت الأمور وباتت قضية الفيشيين ميئوساً منها، توارى ومعه الأموال. فضح الفيشيون هربه، وكشفوه في نداء إذاعي إلى خصومهم قوات (فرنسا الحرة)، فقُبض عليه وقُدِّم للمحاكمة وحُكم عليه عام 1942 بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات. على أن الرئيس القوتلي سيطلق سراحه في أواخر الحرب. في عام 1946 تقدم بطلب للالتحاق في الجيش الوطني السوري، فترددت سلطة الاستقلال بسبب سمعته السيئة، أقام دعوى لدى مجلس الدولة، واكتسب حكماً بإعادته إلى الجيش، فاستعاد حقوقه. عُين رئيساً للمحكمة العسكرية في دير الزور. في عام 1948 وبمسعى من بعض النواب عين مديراً للشرطة والأمن العام، ثم عهد إليه في

العام نفسه إبان معركة فلسطين الأولى بالقيادة العامة للجيش والقوات المسلحة، وخاض معركة كعوش. سجله العسكري في حرب فلسطين - على الرغم من شجاعته - لم يكن متميزاً.

❖ ❖ ❖

عكس ما يشاع، لم يكن انقلاب حسني الزعيم، هو أول تدخل للعسكر في السياسة، فقد سبقه انقلاب بكر صدقي في العراق عام 1936؛ كان الأول في تاريخ البلاد العربية، وفشل في العام التالي، بعده لم يتوقف تدخل الضباط العراقيين في الحكم طوال ثلاث سنوات قادمة؛ فأقالوا وزارات وعينوا وزراء من خلال ممارسة ضغوط عسكرية قوية على القصر والسياسيين. في سورية بعد حوالي عقد من الزمن لم يكتف الزعيم بإقالة الوزارة وحل البرلمان أو إزاحة رئيس الجمهورية فحسب؛ وإنما استولى على السلطة بالكامل. ورسم لأجيال العسكريين من بعده، مشهداً رائداً غنياً بالتفاصيل، لم يهمل فيه شاردة، تبدأ بكيفية الإعداد والتحضير لانقلاب ناجح، مع تسلسل البلاغات التحريرية والتحذيرية، والتهديد بعقوبات لا تقل عن الإعدام انتهاءً بالتطمينات المناسبة للشعب والدول العربية والغربية؛ والأهم بيانات الوعود الكبيرة.

أضافت حرفة الانقلابات من بعده بعض المظاهر المبدئية مع تطلعات أكثر ثورية؛ لكنها كلها لا تزيد عن مجرد تفاصيل مخادعة، بل وتعتبر جزئيات بالقياس إلى ما قدمه الزعيم دفعة واحدة وفي فترة قصيرة.

❖ ❖ ❖

سبق انقلاب الزعيم أجواء مشبعة بالاتهامات المتبادلة بين السياسيين وضباط الجيش؛ فالجيش الذي خرج من معارك فلسطين مهزوماً، استباحته اتهامات الفساد، ونالت منه في المجلس النيابي لاسيما قائده حسني الزعيم؛ ووصلت إلى حد اتهامه بالخيانة والاتصال بدولة أجنبية، ولم توفر الجيش نفسه، فقد طالب بعض النواب بتخفيض ميزانية الدفاع؛ بيد أن فضيحة (السمنة) كانت السبب المباشر للانقلاب.

ففي سهل المزة القرية القريبة من دمشق خلال تجربة للأسلحة الجديدة؛ حضرها رئيس الجمهورية شكري القوتلي، يرافقه رئيس الوزراء خالد العظم ومرافقوهم؛ نُصبت ثلاثة مدافع ضد الطائرات، صوبت فوهاتها نحو الجبل، أوعز الضابط بالرّمي، المدفع الأول لم تخرج القذيفة منه، المدفع الثاني تكشف عن عطل ولم يطلق، أما الثالث، فلم يصب الهدف، أعيدت التجربة ثانية دون جدوى، غضب شكري بك، بينما ألقى قائد الجيش حسني الزعيم مسؤولية صفقة الأسلحة الفاسدة على مستورديها من التجار. في طريق العودة انحرفت سيارة الرئيس إلى مستودعات الجيش القريبة، وتوقفت عند أحد العنابر، نزل الرئيس من السيارة وتجول بين الأكياس والصناديق، ثم توقف عند تنكات السمنة المختومة وأمر بفتح إحداها، ثم طلب من أمين المستودع مقلاة، وضع ملعقة من السمنة وأشعل النار تحت المقلاة، فانبعثت رائحة تزكم الأنوف، تذوق الرئيس السمنة وحكم عليها برداءة النوع؛ أُرسلت منها عينات للفحص، فتبين أنها من نوعية مغشوشة غير المتفق عليها مع التاجر المورد؛ أوقف على أثرها العقيد رئيس لجنة العقود وأعضاء لجنة الاستلام.

غضب الضبّاط من المعاملة المهينة التي لقيها أحدهم، كانت اتهاماً صريحاً باللصوصية لا يمكن احتماله، ورأوا فيها تدخلاً سافراً يقوم به الساسة العجزة المرتشون في القضايا الوطنية. لم يجهل السياسيون بأنهم في حال ضغطوا على الضابط المسؤول؛ فسوف يفضح شركاءه من الضباط الكبار ومنهم حسني الزعيم، بينما كان الضابط على يقين بأن قضية السمنة، ليست أكثر من عرض مسرحي مدبر بهدف الإساءة إلى شرفهم العسكري.

كانت فضيحة السمنة رداً لابد منه على قائمة اتهامات لوح بها الضباط للسياسيين خفية وأحياناً في العلن من تزوير الانتخابات؛ وتسخير الدولة لخدمة أنصار الحكم، وإفساد الحياة النيابية بشراء ضمائر النواب، إلى تعطيل صحف المعارضة، وإغداق الأموال على الصحف الموالية. كانت قائمة الاتهامات طويلة جداً، لم توفر التلاعب بقوت الشعب والغلاء الفاحش، والاستئثار بثروة البلاد، والتقصير في حرب فلسطين، بإرسال الجيش إلى حرب لم يُعدَّ لها إعداداً كافياً. ومع (قصّة السمنة) كانت الأمور قد وصلت إلى نقطة اللاعودة بين الضباط والسياسيين.

❖ ❖ ❖

قبل طلوع صباح يوم الأربعاء 30 آذار 1949، تحركت قطعات حربية من الجبهة باتجاه دمشق؛ رابط قسم منها على مداخل العاصمة، ومنع الدخول إليها، بينما استولت مفارز من الجنود والقوات الآلية على سراي الحكومة؛ ودار البرلمان، ومحطة الإذاعة السورية، وقلعة دمشق، والوزارات، ودوائر البرق والبريد، وقطعت الاتصالات السلكية واللاسلكية مع الخارج، واعتقل ضباط من الشرطة العسكرية رئيس الجمهورية شكري القوتلي، ورئيس الوزراء خالد العظم، ومدير الشرطة والأمن العام وبعض الوزراء والنواب. أنجز الجيش مهماته، وكانت لا تزال بعض الملاهي مفتوحة، فأُغلقت وصرف زبائنها.

قبل الساعة الثالثة صباحاً كان حسني الزعيم قد سجل مأثرته الكبرى في قلب نظام حكم ما بعد الاستقلال دون إراقة نقطة دم واحدة.

صباحاً عندما نزل الناس إلى الشوارع، كانت المصفحات والدبابات ترابط حول المباني العامّة، يطل من أبراجها جنود على رؤوسهم خوذ ميدانية، وأصابعهم على الرشاشات، ولن يعرف المارة حقيقة ما جرى إلا في الساعة السابعة، عندما قطعت الإذاعة المارشات العسكرية التي افتتحت بها البث؛ وأعلن المذيع بصوت مرتجف: بلاغ رقم 1، تبعته بلاغات بمنع التجول، والتحذير من حمل السلاح، والتلاعب بالأسعار، واحتكار المواد التموينية، وترويج الإشاعات مع التهديد بأقصى العقوبات، وتُطَمْئِنُ الشعبَ إلى أنّ الجيش تسلّم زمام الحكم مؤقتاً تخلصاً من الأساليب التعسفية الملتوية التي سارت عليها الفئة الحاكمة؛ لئلا يتعرض استقلال البلاد للخطر. وتحصر مهام القيادة العامة للجيش في إنقاذ البلاد من الفوضى؛ وتهيئة حكم ديمقراطي صحيح.

هذا المشهد الافتتاحي سيتكرر، ونادراً ما سيكون أبيض نظيفاً دون دماء، على الرغم من التقيد بالبلاغ (رقم 1)، وتلك اللازمة التي تبدأ بالقضاء على الدكتاتورية، والتمسك بحقوق الشعب وبث الروح الديمقراطية؛ ولا تنتهي بالعمل على تشكيل حكومة وطنية مع برنامج إصلاحي مقتضب واسع جداً وغامض جداً.

انتهى اليوم الأول للانقلاب، ولم ينجح رئيس مجلس النواب فارس الخوري في إقناع شكري بك القوتلي بالاستقالة للتمكن من تشكيل وزارة. عقد النواب

اجتماعاً في فندق الأوريان بالاس برئاسة الأمير عادل أرسلان؛ حضره ما يزيد على سبعين نائباً، ولم تجتمع كلمتهم كذلك على انتخاب خلف للرئيس، وانتهى الاجتماع في ساعة متأخرة من الليل بعد أن أصدروا مضطبة رسمية بتأييد الانقلاب؛ وتشكيل لجنة ثلاثية مهمتها الاتصال بالزعيم للبت في أمر تأليف وزارة قوية تضم جميع الأحزاب والهيئات.

صباحاً قبل اجتماع اللجنة بالزعيم، صدر الأمر العسكري بتسلم الزعيم مهام الحاكم العسكري وكافة الصلاحيات الممنوحة لرئيس الدولة؛ وتتالت الأوامر العسكرية بإسناد صلاحيات الوزراء إلى الأمناء العامين في الوزارات؛ وتفويضهم تسيير شؤون الدولة، واقتصر منع التجول على ساعات الليل من الساعة الثامنة مساء وحتى الساعة السابعة صباحاً؛ بينما فُتحت الأسواق والمتاجر، وداوم الموظفون في دوائر الدولة المختلفة.

في الشوارع كان الانقلاب يتسارع، الجنود يتفقدون الأفران، ويرقبون توزيع الخبز على الأهالي، مظاهرات الطلبة تتقدم من ساحة الحجاز والتجهيز، يحيون الجيش، ويندّدون بالعهد السابق، يطوفون الساحات، ثم ينطلقون إلى وزارة الدفاع، يظهر الزعيم على الشرفة ويلقي خطاباً: «... الغاية من الانقلاب، إقامة العدالة، وإعطاء كل ذي حق حقه، ورفع شأن الوطن».

ألوية وأسلحة الجيش السوري تعرب عن تأييدها المطلق للقائد الزعيم؛ برقيات التأييد والتهاني تنهال من المحافظات السورية؛ العواصم العربية والغربية تتابع باهتمام بالغ أحداث الانقلاب السوري، في اليوم الثالث؛ سيمدد الزعيم المهلة للجنة الثلاثية لتشكيل الوزارة، لكنها تفشل؛ فيرسل مرسوماً إلى فارس الخوري يقضي بحل المجلس النيابي؛ يغادر النواب العاصمة إلى محافظاتهم.

كان الانقلاب قد أنهى أعماله، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي.

دام حكم الزعيم 137 يوماً جاء في مرحلة معقدة، كان صراع النفوذ على أشده في الشرق الأوسط بين بريطانية وفرنسة وأمريكا الصّاعدة؛ تحمّل الزعيم وطأة التناحر بين المحور الهاشمي العراقي الأردني؛ والمحور السعودي المصري، ووقع أسير خلافاتهما، عرض عليه رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد وحدة سورية عراقية فورية؛ مما جعل السعودية ومصر حذرتين في التعامل معه؛ لكن

الـزعيم كـان حريصـاً علـى سـلطاته أكثـر مـن حرصـه علـى الوحـدة مـع العـراق أو الأردن؛ فسـارع إلى الاتصـال بالقـاهـرة والسـعودية وطمأنتـهما، ووطـد علاقاتـه معهمـا. في السياسـة الخارجـة قادتـه صـداقته الوطيـدة مـع فرنسـا إلى معـاداة بريطانيا وأصدقائها في البلاد العربية؛ كما عقد صلة مع تركية، فدعا الضباط الأتراك لتدريب الجيش السوري وإعادة تنظيمه.

عـزز الـزعيم هيبـة الجـيش، ورفـع معنوياتـه، وحسَّـن تسـليحه، كمـا طهـر الجهاز الحكومي من خصومه ومـن الفاسدين أيضاً؛ لكنـه لم يسـتطع أن يتعاون مع السياسيين، فحزب الشعب الذي هلل للانقلاب اتّخذ موقف المعارضة حين أتّضـح عـداء الـزعيم للوحـدة مـع العـراق والحكـام الهـاشميين؛ فـزج بقادتـه في السـجن، تعـاون مـع بعـض السياسـيين مـن الحـزب الـوطني، لكنـه سيمنع الحـزب الشـيوعي مـن العمـل، ويلاحـق أعضـاءه بعـد أن رفعـوا لـواء المعارضـة، ووزعـوا منشورات تدعو إلى عودة الجيش إلى ثكناته؛ وإفساح المجال أمام الشعب لبناء حياة نيابية سليمة، وإطلاق الحريات العامة، والتشديد على أن الشعب هو الذي يبدل الأوضاع وليس الجيش وحده، ووصفته المنشورات بأنه بهلوان مـن الطراز الأوّل، وعميل أو مخدوع. وسـرعان أيضـاً مـا اصـطدم مـع حـزب البعث، واعتقـل زعيميه ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار بعد مطالبتهما أن يكون الشعب حراً في التعبير عن إرادته ورغباته؛ وأن يشارك عملياً في رسم منهاج العهد الجديد، وإجراء انتخابات حرة، ما قاد الزعيم إلى العزلة عن الأحـزاب في البلد، فخشـي مـن تـآمرهم مـع الهـاشميين علـى حياتـه، فاسـتقدم ضـباطاً ألمان لتنظيم حرسه الخاصّ، واتّخذ سلسلة من التدابير الأمنيـة، فاعتقـل مزيـداً مـن السياسـيين، ولم يـوفر الصـحافيين والكتـاب، وأكـره الموظفين علـى توقيـع صـكّ الـولاء للانقـلاب، واضطر الكثيرون إلى إعلان انسحابهم من العمل الحزبي.

عمد الزعيم في سبيل إرضاء الدول الغربية إلى تصديق اتفاقيات ما كان لها أن تمـر في ظـل الحكـم السـابق؛ كتصـفية العلاقـات الماليـة والاقتصـادية والعقاريـة المعلقـة بـين سـوريا وفرنسـا، وكانـت حكومـة العظـم الأخيرة قـد عجـزت عـن إقنـاع مجلس النواب بتصديق هذه التصفية. وأُبـرم الاتفـاق الموقـع بـين الحكومـة السـورية وشركة التابلاين الأمريكية باعتباره صاحب السلطتين التنفيذية والتشـريعية؛ علـى

الرغم من مطالبة الوزير المختص بتعديل الاتفاق، لما فيه من مس بالسيادة السورية، وإجحاف بحقوقها المالية، كذلك التصديق على الاتفاق الموقع بين سورية وشركة المصافي المحدودة البريطانية؛ بشأن المصب في بانياس لتصدير النفط العراقي، وأيضاً مع شركة خطوط أنابيب الشرق الأوسط المحدودة البريطانية لنقل النفط العراقي عبر أنابيب مارة في سورية إلى البحر الأبيض المتوسط؛ ولا يمن أن يؤخذ تصديق الزعيم لهذه الاتفاقيات، إلا على أنه انعكاس لحاجته الماسة إلى كسب أصدقاء للاعتراف بانقلابه أكثر مما هو دعم فرنسي أو أمريكي أو بريطاني للانقلاب قبل القيام به. أما اتفاقية الهدنة مع إسرائيل فلا يمكن انتقاده على توقيعها، لأنها كانت من تحضير حكومة العظم، وتم التوقيع على اتفاقيات مماثلة لها من قبل مصر ولبنان والأردن.

في الحقيقة لا ينبغي التقليل من أهمية الإصلاحات التي تمت خلال حكمه أو إغفالها وبإصرار منه بالذات، كإقرار مشروع القانون المدني، وكان فاتحة الإصلاح القضائي في البلاد، وإلغاء الأوقاف الذرية، وتعديل قانون الانتخابات، ومنح المرأة حق التصويت، والإصلاح الضريبي بفرض الضريبة التصاعدية، واستثناء ذوي الدخل المحدود، هذه الأعمال وغيرها كانت ستخضع لماطلات السياسيين ومماحكاتهم؛ وليس بمقدورهم إنجازها خلال فترة قصيرة، وإذا كانت قد أنجزت بفعل القسر والإجبار، فهي تدل ودونما جدال على تبني الزعيم النزعة الإصلاحية مع ميل جذري عارم للتغيير؛ قام بتحقيقه رغم حاجته إلى التأييد الشعبي، ولم يتوسله بأساليب رخيصة، وإن كانت عسكرية، كان يعتقد بصوابية تطلعاته، ولم يكن مفتقراً إلى الطموح الحقيقي، كان مثاله أتاتورك على مقربة منه مضيئاً وساطعاً، الرجل الذي أنقذ دولة من التفكك والدمار والطامعين الغربيين، وجعلها تقف على أقدامها، كان مثله يأمل بفصل الدين عن الدولة، وإحدى مشروعاته التي لم يرها تتحقق إصدارُ بطاقة هوية تحمل الجنسية السورية دون الانتماء الديني.

❖ ❖ ❖

في أوائل حزيران عندما رشح نفسه لرئاسة الجمهورية، كان المرشح الوحيد، انهالت عليه عشرات البرقيات ورسائل المبايعة، وتهافت الموالون والانتهازيون، ودعوا إلى مشاريع لإقامة تماثيل ونصب تذكارية للزعيم في المدن السورية؛ وفي 26

حزيران انتخب بأغلبية كانت أكثر من ساحقة، تعدت الـ 99 ٪ المستقبلية، وكانت نتيجة التصويت 116 ٪ لصالحه، بعدها كشف عن انحيازاته الدولية، وأعلن عداءه للعراق والأردن، وصداقته لفرنسا، وتمنى على الولايات المتحدة مساعدة سورية على إعادة بناء نفسها، وطالب بريطانيا باتخاذ موقف واضح، ورفض مشروع سورية الكبرى والهلال الخصيب.

في غمار سعيه لإقامة حلف مع مصر والسعودية ولبنان، سيرتكب الزعيم خطأً مميتاً، بتسليمه الحكومة اللبنانية (أنطون سعادة) زعيم الحزب القومي السوري الاجتماعي في السادس من تموز؛ مع أنه أقسم بشرفه ألا يسلّمه بعدما تعرض إلى ضغوط عديدة، رئيس وزراء لبنان رياض الصلح ألح عليه وطالبه به، وحذره السفير الفرنسي من خطر وجود سعادة في سورية، وتوالت الضغوط المصرية تنصحه بالتخلص منه، وانصاع أخيراً تحت تأثير أوهام كسب الدعم العربي والغربي، كذلك عدم قدرته على حماية سعادة.

غدر حسني الزعيم بأنطون سعادة بعدما لجأ إليه إثر هربه من لبنان، ومنحه الأمان، ربطت الزعيم بسعادة صداقة قديمة، عندما كان الزعيم منفياً في لبنان أيام الانتداب الفرنسي، وسوف تدين محكمة لبنانية عسكرية عقدت سراً أنطون سعادة بالخيانة العظمى، ويُنفذ فيه حكم الإعدام فجر الثامن من تموز؛ أي خلال أربعة وعشرين ساعة، مما أثار حفيظة الكثيرين من بطانة الزعيم ومؤيديه، وألب عليه مجموعة من العسكريين السوريين المنتسبين للحزب القومي.

❖ ❖ ❖

في صباح 14 آب، أطاح انقلابٌ بالزعيم، لم يكن مفاجئاً حتى لأنصاره والمقربين إليه، كان السخط هو السائد من تصرفاته وما أشيع عنه من مبالغات، حتى أن السفير البريطاني وصفه بالمجنون، كانت خشيتهم منه حقيقية، بعد أن صور لهم الزعيم نفسه بأنه ديكتاتور لا يتورع عن سفك الدماء؛ وأصبح خصومه يشكلون حلفاً متكاملاً من الأحزاب والسياسيين. يكاد لا يستثني أحداً؛ أما الذين ساندوا الانقلاب ضده فأكثر من أن يحصوا، وعلى رأسهم الهاشميون والبريطانيون، في حين الذين خططوه ونفذوه كانوا من الضباط الناقمين عليه؛

لغدره بأنطون سعادة، أما رأس الانقلاب فكان العقيد سامي الحناوي الصديق المقرب لحسني الزعيم، والذي لم يصل إلى مركزه إلا بفضله.

وسوف يتعلم الزعيم درساً، عندما ظهر سامي الحناوي صبيحة الانقلاب الثاني في ساحة الأركان، وأطل عليه وهو معتقل بالبيجاما وإلى جواره رئيس وزرائه محسن البرازي، وقال للضباط: خذوا هذا وهذا واقتلوهما، درساً كان بعد فوات الأوان؛ الانقلابات لا تعقد صداقات، قدر ما تعقد خيانات قاتلة.

❖ ❖ ❖

هل كان حسني الزعيم رجلاً عسكرياً، نجح في أن يكون رجل دولة قديراً، أم مجرد مغامر متهور قليل المواهب في رسم الخطط بعيدة المدى؟!

في صورة تخطيطية للضابط حسني الزعيم، عنوانها: بطل الانقلاب السوري، بعد مرور حوالي ثلاثة أشهر على انقلابه، وانتخابه رئيساً للجمهورية، بعد أن حصد عدة مناصب بالإضافة إلى منصبه، فكان قائداً أعلى للجيش والقوى المسلحة، ورئيساً للوزراء، ووزيراً للداخلية وللدفاع الوطني. تُبرز الصورة النصفية ملامحه: تقاطيع وجهه منبسطة، وجنتان عريضتان، تضفيان عليه المهابة والصلابة والوقار، وعينان يغطي اليمنى منهما مونوكل يمنح لنظرته حدة أشبه بضابط بروسي؛ أو طاغية من طغاة أمريكا اللاتينية.

توحي الازدواجية في الصورة بقدرته على أن يكون كليهما، فصرامة الضابط البروسي تكفل له إدارة الحكم بالقوة، أما ملامح الطاغية اللاتيني، فتشير إلى مغامر يتلاعب بمصير دولة. لكن يتعين علينا أيضاً ألا نغفل قسوة بعض الأوصاف الأخرى التي طالت الزعيم؛ ووصل بها الأمر إلى حد تقييمه بالمهرج، وهي ليست دقيقة، لكن لها ما يبررها.

هل من الأفضل النظر إلى الزعيم على أنه رجل قوي البنيان، قصير وسمين، طريف وفكه؟! ربما... إذ لا ينبغي إغفال الجانب المسرحي في شخصيته ذات الطابع الاستعراضي والتمثيلي؛ استطاع من خلالها أن يحقق بعض الإنجازات المرموقة وأحياناً الوضيعة.

بعض شهود العيان وصفوه بالممثل عندما ارتدى بزة القائد العام، وقد صُفّت عليها النجوم والأوسمة والشارات، بعدما منح نفسه رتبة مشير، وتأبط عصا الماريشالية، وأخذ يستعرض صورته في المرآة منتشياً ومُشهّداً الحاضرين على بهاء مظهره وروعته. كما أخذ عليه الكثيرون بما كان يُعتبر نقيصة؛ الاعتناء بالشكليات المكلفة في بلد فقير بكل شيء حتى بالبروتوكلات الرئاسية؛ حين استقبل المهنئين بعد انتخابه رئيساً للجمهورية مرتدياً بذلته (البونجور)، والوفود من المدن السورية ببزة مدنية بيضاء، وبعد الظهر أعضاء البعثة الملكية المصرية ببزته الرسمية (الفراك)، ولدى لقائه مع الضباط ارتدى بزة مشير، وهي بزة تلبس لأول مرة خصيصاً لهذه الرّتبة، فوجد من تساءل بسخرية: أهذا قائد انقلاب ورئيس دولة، أم مانيكان؟!

تلك النزعة الاستعراضية لمعت مراراً مع طاقات تمثيلية حاذقة؛ وأتت إحدى ثمارها في لقائه مع المشايخ والتجار وزعماء الأحياء الدمشقيين؛ وكانوا قد طلبوا الاجتماع به ليحتجوا على القانون المدني وإلغاء الأوقاف الذرية لعدم توافقهما مع الشريعة الإسلامية؛ فاستقبلهم الزعيم بمظهر تعمده دراميا بحتاً؛ بالمونوكل وعصا الماريشالية والقفازات البيضاء والأوسمة والشارات الملونة، رحب بهم بحرارة، وبعد قليل حسب التمثيلية المعدة سلفاً تلقى هاتفاً من قائد الشرطة عن شخص قبض عليه يحمل مسدساً ووضع في السجن؛ ليحتد قائلاً: أخرجه من الزنزانة، وأعدمه فوراً في ساحة سجن المزة، لا فرق عندي سواء كان يحمل موساً أو مسدساً، أطلق عليه النار، أنا لا أسمح، لن يعترضني أحد، وضعت دمي على كفي، أريد أن أُصلح، أريد أن أطبّق القوانين، لا أقبل بأي أمر من هذا النّوع. اصفرت وجوه المشايخ مما سمعوه، ارجع السماعة، والتفت إليهم قائلاً: أنا سأربي هذا الشعب الذي علّمه شكري القوتلي الاستخفاف بالدولة والقوانين، ثم أخذ نفساً وقال لهم: تفضلوا ماذا تريدون؟ لم يتكلم أحد منهم. بعد دقيقة هب أحدهم قائلاً: جئنا لنهنئك، الله يوفقك والسلام عليكم، واندفع نحو الباب فيما تبعه الآخرون. من قبل عندما دارت الإشاعات حول نيّته القيام بانقلاب، يروي مرافق الرئيس القوتلي أنّ الزعيم سارع إلى الرئيس ونفاها بتذلل تمثيلي متقن، حتى انحنى وكاد أن يقبل يديه.

قد يبدو انقلاب الزعيم والرعب الذي رافقه طوال مدة حكمه، أشبه بمهزلة سوداء في الظاهر، لا تخلو في باطنها من طرافة مثيرة، كان فيها الممثل الرئيسي المخيف، لكنه في حقيقته ليس أكثر من رجل طيب القلب، لم يقبل في عزّ سطوته الانتقام من الرئيس القوتلي ولا إهانته، وقال بأن كرامة القوتلي من كرامة الوطن.

لم يكن الزعيم صاحب مبادئ وأفكار معقدة، حتى نواياه العلمانية كانت بسيطة، لم تتعد مظاهرها السطحية، في تلك السمة المطلوبة والرائجة في تلك السنوات من قبل ضباط الجيش المتعلقين بالغرب، وإلى الأعلى قليلاً، كان النموذج التركي حاضراً، وكان جاهزاً لمحاكاته، كارتداء البرنيطة بديلاً عن الطربوش والكوفية والعقال والاستعاضة بالبنطال عن الشروال وإلغاء الألقاب؛ بك وباشا وأفندي، والرقص على أنغام الجاز في النوادي الليلية، بحيث تبدو قصة العسكري الصارم والقبضة الفولاذية إحدى أكاذيب الزعيم التمثيلية، ومعها الكثير مما تسرع وأقدم عليه، أما ذروتها الانقلاب، فلم يكن انقلابه، وإنما انقلابُ من حوله، من بهيج الكلاس نائبه في القيادة الذي وضع الخطة واللمسات المساعدة، وأديب الشيشكلي الذي قاد وحدات المشاة والمدرعات من قطنا إلى دمشق، وأكرم الحوراني الذي سارع وانضم إلى الانقلاب وأصبح كاتب بلاغاته ورأسه المفكر. هؤلاء الثلاثة استخدموه لأنه الأقدم رتبة، لكنه استطاع الانفراد بالانقلاب منذ اليوم الأول لقوة تمثيله وزهوه بنفسه، وربما قناعته أيضاً بأنه قدر البلاد. على كل حال لن يتغيب ثلاثتهم عن الانقلاب الثاني، سيستخدمون الأقدم رتبة من بعده الضابط سامي الحناوي، بعدما اعتقد الزعيم أنه صاحب الأمر الأول والأخير في الدولة. كما كان لضعف شخصية الزعيم سهلة الانقياد للآخرين، سواء من الضمائر الحية أو الضمائر الميتة، العامل الأكبر في تسييره، استغلوا لديه نزعته الاستعراضية وحرضوا في داخله ممثلاً بارعاً ومغروراً. وكان لسرعة نجاحه والتأييد الذي لاقاه دور كبير في تضخيم داء العظمة لديه؛ وكان مقموعاً في داخله بعد معاركه الفاشلة مع سلطات الانتداب وفي الجيش ومع السياسيين في البرلمان.

عاش الزعيم حياة صاخبة، حياة دنيوية عريضة غير معتدلة، أقرب إلى المجون منها إلى المحافظة، فكان يشرب الخمرة، ومقامراً أقرب منه إلى الاحتراف، يغش في اللعب، ويلغم الورق بلغة أهل الميسر. كان قليل المثل العليا، غير مستقر

عاطفياً. سهل الاستثارة، شجاعاً إلى حد التّهور، أما مزاجيته التي لا تطاق - ولئلا نبالغ بمفاعيلها - لم تتعدّ الغضب وكيل الشتائم. ولم تؤهله إلا للاندفاعات غير المحسوبة نتائجها، فعندما اختلف مرة مع ضابط فرنسي؛ لتنافسهما على مراقصة سيدة، أهانه الضابط، فاستنفر الزعيم قطعته العسكرية في اسكندرون واعتقله. كذلك طبيعته المغامرة، والتي إن تبدت بالمقامرة، فلن ترقى به للقيام بانقلاب مثالي في دقته وحسن إدارته، حصد تأييداً شعبياً كبيراً، وحاز على إجماع أغلبية الضباط الذين هم أكثر مقدرة منه فالزعيم لم يكن سياسياً ماهراً، ولا ضابطاً لامعاً، ولم يحرز صفات قيادية مرموقة، ولا رؤى إستراتيجية مميزة!!

لكن وفي الوقت نفسه إذا أدركنا أن الكثير من الصفات السابقة من قبيل الأوهام والمتطلبات التعجيزية؛ فالانقلابات لا تتطلب الكثير من المؤهلات الاستثنائية، ونجاحها لا يحتاج إلى قادة عباقرة، والدليل سلسلة من الضباط تتالت انقلاباتهم دونما مواهب عسكرية خارقة؛ ولم يكن نجاحها أو إخفاقها إلا وليد ظروف مواتية وتوازنات في القوى، واتفاقيات مؤقّتة، حتى أن المراحل الصعبة التي يخوضونها للاستيلاء على الحكم تفوقها أهمية المهارات المطلوبة للبقاء في السلطة؛ وهذا ما اعتبر فناً ماكيافيلياً قائماً بذاته، افتقده الزعيم فعلاً، فلم يعمر انقلابه أكثر من أربعة أشهر ونصف.

وإذا جارينا تساؤلات الباحثين في التاريخ حول من يصنع التاريخ، فهنا في حالتنا، التاريخ لم يصنعه الشعب، ولا الرجال العظام. التاريخ أحياناً ساحة عشوائية مفتوحة للجميع حتى لهؤلاء الرجال دون المتوسط بالدخول إليه خلسة، أو عنوة على ظهور الدبابات، ورسم أقدار بلدانهم لعقود قادمة، ومن المؤسف أن إغفال التاريخ للشعوب، وعدم اعتماد التمييز بين أحجام الرجال يعود على الأمم بأسوأ النتائج.

فواز حداد

فـوزي الـقـاوقـجـي

أسطورة بطل

(1977-1890)

لم يتمكن فـوج اليرمـوك الثاني (كتيبـة أديـب الشيشـكلي) التقـدم باتجـاه بنـت جبيـل والعسـكرة في مشـارفها؛ إلا بعـد أن قـام اللـواء فـؤاد شـهاب قائـد الجـيش اللبنـاني بتسـهيل مهمتـها في دخـول الأراضـي اللبنانيـة؛ وكانـت أغلبيـة الفـوج مـن المجاهدين والمتطوعين السـوريين. في صبيحة اليـوم التـالي، وبعـد اسـتراحة قصـيرة ذهب قائد الكتيبة النقيب الشيشكلي وقادة السـرايا لإعادة الاسـتطلاع. وفي المسـاء تم العبور إلى منطقة فسوطة بدون أي عائق، ثم انتشرت الكتيبة في الجليل الأعلـى من شمال فلسطين. أما فوج اليرموك الأول (كتيبة محمد صـفا)، ويضـم مجاهـدين متطوعين من مختلف البلاد العربية، فانتظر تحت الأمطار الغزيرة والرياح البـاردة علـى مشـارف الرمثـا في الحـدود الأردنيـة، إلى أن جـاء الإذن مـن الملـك عبـد الله بالعبور، فاجتاز الحـدود في حوالي السـاعة الثانيـة بعـد منتصـف الليـل نحـو جسـر داميا؛ ووصل إلى طوباس قرب نابلس في ضحى الثاني والعشـرين مـن شـهر كـانون الثـاني عـام 1948؛ واتخـذ مقـره في مثلـث جـنين - طـولكرم - نـابلس؛ وقـد جـرى اسـتقبال جمـاهيري حـافـل للفـوج، إذ هـبَّ آلاف الرجـال والنسـاء والأولاد، يـدفعهم الشوق العارم للأخوة القادمين من البلاد العربية، يحدوهم الأمل الكبير بـالخلاص مـن المحـن والمخـاوف الـتي هـددت حيـاتهم؛ فانـدفعوا نحـو المجاهـدين ورحبـوا بهـم وعانقوهم، وبكوا من الفرح، وأثنـوا علـى شـهامتهم، ولهجـوا بالـدعاء لهـم، وامـتلأت الشـوارع والسـاحات بمظـاهـر الحمـاس، وتعالـت الهتافـات، وصـدحت الأغـاني، وتطايرت الزغاريد، ونصبت الـولائم، وعقـدت حلقـات الدبكـة، ولم تفتر الأحـاديث تحت أضواء المشاعل إلى ما بعد منتصف الليل. في ذاك اليوم تجسـد الأمـل هـائلاً في اللقاء الحاشد في غابات زيتون نابلس.

على أن الأمل الذي ولد كبيراً، كان قد ولد ميتاً، دون أن تعلم الجماهير المحتشدة بالحقيقة المرة التي ستأتي على مراحل، وكل مرحلة أشد من الأخرى. وما بعث ذاك الأمل الكاذب هو مبادرة الجامعة العربية بتشكيل جيش الإنقاذ ليدخل الأراضي الفلسطينية، قبل أن يصبح قرار التقسيم نافذاً، وليحول دون قيام الكيان الصهيوني. وما جعل حجمه هائلاً أن جيش الإنقاذ كان تحت إمرة القائد العام اللواء المجاهد فوزي القاوقجي، كأنّ سمعته الأسطورية قد سبقت وصول الفوجين، فالثورات التي أشعلها والمعارك التي خاضها في سورية والعراق، جعلت منه بحق بطلاً من طراز فريد ونادر، عدا أن الفلسطينيين كانوا يعرفونه من خلال مشاركته في ثورة 1936 التي جرت على أرضهم.

❖ ❖ ❖

ولد فوزي القاوقجي في مدينة طرابلس (لبنان) عام 1890، وذهب إلى الآستانة وهو مايزال طفلاً. تدرج في المدارس التركية إلى أن انتسب إلى المدرسة الحربية، وأنهى دراسته العسكرية فيها. تخرج سنة 1912 ضابطا في سلاح الخيالة العثماني، وعمل في الموصل حيث ظهرت شجاعته مع حسن تصرفه ودهائه حين نجح برد منهوبات من قبائل شمر- أكبر قبائل المنطقة - إلى قبائل الجبور. وغدا بعد وقت قصير معلم الفروسية في الكتيبة كلها.

اشترك في الحرب ضد الإنكليز الذين احتلوا البصرة. وفي المعارك التي دارت بين العثمانيين والألمان ضد البريطانيين جنوب سورية، وأصيب سنة 1914 في معركة القرنة وأدخل المستشفى للعلاج، ثم غادره سراً بعد تكليفه من بعض رجال الأحزاب العربية للاتصال بعدد من زعماء الحركة العربية في سورية ولبنان، فوجدهم قد سيقوا إلى السجون والمشانق.

عين في شهر أيار 1916 في فرقة الخيالة العثمانية الثالثة المرابطة على خط بير السبع – غزة الدفاعي في وجه القوات البريطانية. وقد أكسبته أيامه في بير السبع خبرة واسعة في أصول الاستطلاع ونصب الكمائن، ونال شهرة واسعة لقدراته المتعددة، بالإضافة إلى جرأته وذكائه، وقوته البدنية واستهانته بالمخاطر، وحصل على عدد من الأوسمة الألمانية والشهادات من قادته الألمان تشيد بمؤهلاته؛ موقعة من الجنرال ليمان فون ساندرز، وأصبح مرافقاً ومترجماً

للجنرال فون لايزر. وقد آثر القاوقجي الولاء للجيش العثماني حتى نهاية الحرب العالمية، على الرغم من تعرضه إلى دسائس تركية وضع من جرائها قيد التوقيف وكاد أن يحاكم، لولا أن أنقذه الجنرال فون لايزر.

فور انتهاء الحرب عاد إلى مسقط رأسه طرابلس في 16 تشرين الأول 1918؛ وأقام هناك إلى أن زارها الملك فيصل بن الحسين، ودعاه إلى العمل في خدمة الدولة العربية الجديدة، فقبل الدعوة. عُين في الشعبة الثالثة في ديوان الشورى الحربي، ثم طلب نقله إلى الوحدات العاملة فعين آمر السرية الأولى من لواء الخيالة الهاشمي، وتفرغ للتدريب بشكل رئيسي، وأثبت حزماً وقوة في تنفيذ ما أُسند إليه من مهمات إضافية. واشترك كضابط خيال في الجناح الأيسر إبان معركة ميسلون سنة 1920. كما شارك آنئذ بحماية الحي المسيحي ومكان إقامة الملك فيصل قبل مغادرته دمشق.

بعد دخول الفرنسيين إلى سورية التحق بالفيلق السوري في الجيش الفرنسي؛ وكان الضابط الوحيد الذي احتفظ برتبته التي اكتسبها في الجيش العثماني؛ وهي رتبة الكابتن (النقيب)، في الوقت الذي خُفِّضت فيه رتب الضباط العرب الآخرين إلى رتبة الملازم. أصبح آمراً لسرية الخيالة في حماة ومعاوناً للمستشار الفرنسي، ونال إعجاب قادته واكتسب ثقتهم بعد عدة حملات صورية قادها ضد الثوار السوريين، ومن بينهم الزعيم إبراهيم هنانو.

تحت تأثير ثورة عبد الكريم الخطابي في المغرب بدأ القاوقجي يعد للثورة في سورية؛ ويدعو لها وينظم الخلايا ويتصل بالبدو للعمل معه؛ وأخذ يخطط للقيام بعمل كبير، مستغلاً موقعه في الفيلق السوري للحصول على خرائط فرنسية تحدد أماكن المنشآت العسكرية الفرنسية؛ ووزع هذه الخرائط على المحرضين الوطنيين في أنحاء سورية؛ وكان على اتصال بسلطان الأطرش، ونسّق هجومه مع التحركات الجارية في جبل الدروز وحوران، وعندما عقد الشهبندر لقاء سرياً في دمشق في آب مع المبعوثين الدروز حضر اللقاء بعض وطنيّي حماة المقربين من القاوقجي؛ وما مكّنه من الاستمرار في خطته ضمانات الدعم التي تلقاها من القوى الوطنية.

في 5 تشرين الأول 1925، أطلق القاوقجي شرارة انتفاضته في حماة المدينة الأكثر محافظة من الناحية الدينية، والأكثر عداء للفرنسيين، مستعيناً بقوة

مختلطة من جنود الفيلق الفارين وعدة مئات من البدو المسلحين من قبيلة الموالي في معرة النعمان وجوارها. كانت أهداف الهجوم الرئيسية المباني الحكومية التي تضم الموظفين الفرنسيين والمحليين، بما فيها السراي وريجي التبغ ومكتب الدَّين العام العثماني ومديرية الأوقاف. وفي غضون يومين اكتسحت عصبة القاوقجي معظم منطقة حماة الوسطى بالتعاون مع السكان الذين جردوا قوة الشرطة المحلية من السلاح.

فاجأ الهجوم الحامية الفرنسية في المدينة. وقامت التعزيزات التي استدعيت على عجل من حلب ودمشق بمهاجمة حماة من البر والجو بشراسة ودون أي رادع. فقصفت الطائرات الفرنسية منطقتها التجارية، ودمرت بشكل كامل سوقين وأكثر من 115 دكاناً، وأحرق الجنود السنغاليون مساكن الكثيرين من الوجهاء الحمويين، وقُتل ما يزيد على ثملائمئة شخص، معظمهم من المدنيين غير المسلحين، مع إيقاع أضرار كبيرة قدرت بحوالي مئتي ألف ليرة تركية ذهبية. بعد أيام فرّ القاوقجي وعصبته التي ازداد عدد أفرادها إلى 1000 مقاتل، بعد أن خذله غالبية الأعيان المحليين.

لا ينبغي الاستهانة بانتفاضة حماة التي تم القضاء عليها وهي في المهد؛ فقد وضعت نموذجاً سيحتذى في انتفاضات المدن السورية، فعدا عن إبرازها التعاون بين المناطق الثائرة السورية، سوف تعتمد المدن الأسلوب نفسه، فقد كانت شرارة الثورة تأتي من الخارج، وفي الداخل يضمن لها الوطنيون أن تشعل حريقاً هائلاً. وعلى هذا الشكل سيؤدي التحريض من خارج دمشق إلى إشعال الثورة في داخلها بقيادة حارس بساتين الشاغور حسن الخراط؛ وتُخترق المدينة بالتنسيق مع سلطان باشا الأطرش.

أُسندت إلى القاوقجي وظيفة القائد العام لجيش الغوطة وسائر جهات الشمال، وقاد جماعاته طوال ثلاثة أعوام، وكان يعاود الظهور بجسارة مع عصبته في منطقة حماة تارة، وتارة أخرى في الغوطة محيط مدينة دمشق مع مجموعات الأشمر وسعيد عكاش. في ربيع 1927 ومع أن الثورة السورية أمست على شفير النهاية دعم القاوقجي نشاطاتها، وواصل في حماة القيام على رأس 200 ثائر بحرب عصابات. وفي 22 نيسان اقتحم الجنود الفرنسيون حماة بحثاً عنه؛ بعد أن

أفيد عن مكان اختبائه؛ وعندما تعذر العثور عليه قصف الفرنسيون الحي السكني، وبحلول نهاية الشهر كان الفرنسيون قد شتتوا عصبة القاوقجي واضطروه إلى اللجوء إلى العراق.

كان القاوقجي آخر من ترك ميادين الثورة السورية. بعد أن استدعته اللجنة الثورية إلى عمان والقدس في صيف سنة 1928 وكلّفته بالسفر إلى تركية لإقناعها بمساعدتهم، لكن دون جدوى، كانت الثورة قد انتهت. سافر إلى القاهرة حيث كانت الخلافات قد اشتدت بين الزعماء السياسيين السوريين، فلم يمكث فيها طويلاً.

ذهب إلى السعودية في عام 1928 وبقي فيها حتى عام 1932، بعد أن استدعاه الملك عبدالعزيز مع نبيه بك العظمة؛ لإنشاء مديرية الأمور العسكرية وإدارتها. فقام بإدخال تحسينات كبيرة في فروع الجيش النظامي. وشكل فوجاً من المدفعية، وآخر من الرشاشات، وثالث من المشاة. خلال وجوده في الحجاز غادر القاوقجي إلى مصر عقب اندلاع أحداث فلسطين سنة 1929، والتقى أعضاء الوفد الفلسطيني المسافر إلى لندن لمفاوضة الإنكليز؛ وحاول إقناعهم بعدم جدوى المفاوضة، وأنه لابد من العمل والإعداد العسكري كما يفعل الصهيونيون، ولكنه أخفق في سعيه وعاد إلى الحجاز. ولقد حاول في السعودية إتمام عملية تنظيم الجيش، ولكن العراقيل الكثيرة التي وضعت في طريقه والدسائس التي تعرض لها أجبرته على الاستقالة. وقدم إلى بغداد ليصبح معلماً في الفروسية وأستاذاً لتدريس الطبوغرافيا في الكلية العسكرية؛ وحمل رتبة رئيس الخيالة في الجيش العراقي، وحاول أن يستثير همة الملك فيصل لإشعال نار ثورة على الفرنسيين في سورية بعد أن ثبت تأييدهم لحركة الآشوريين سنة 1934؛ ولكنّ وفاة الملك فيصل حالت دون ذلك.

مع تزايد الاضطرابات في سورية وامتداد المظاهرات والصدامات مع الفرنسيين. اتّصل بزعماء البادية الشامية، وبرجالات سورية في عمان وبغداد ودمشق، وأعد معهم خطة للثورة ضد الفرنسيين، وكان في الوقت نفسه مشغولاً بأحداث فلسطين التي زارها في سنوات 1934 و 1935 و 1936؛ فوسّع خطته لتشمل ثورتين في سورية وفلسطين، لكنها أخفقت مع انتهاء أحداث سورية بعد 54 يوما من الإضراب؛ ورضوخ فرنسا لعقد مفاوضات مع الكتلة الوطنية. أما في

فلسطين فقد تفاقمت الأحداث مع الإضراب الكبير واشتعال نار الثورة، مما جعله يسارع إلى الاتصال بقادتها.

كُلف القاوقجي من قبل زعماء الثورة الفلسطينية تجهيز قوة من المتطوعين لنجدة فلسطين؛ فبدأ اتصالاته بالأردن وسورية ولبنان لاختيار الشبان العرب المجاهدين؛ وتزويدهم بالسلاح، وإرسالهم إلى الجبهة التي أشعلها الشيخ عز الدين القسام ثم توارث جماعته بعد استشهاده. وسوف تتجدد الثورة بعد الدعوة التي أطلقتها اللجنة الشعبية في يافا ونابلس للإضراب في 20 نيسان التي سرت في فلسطين؛ فقدّمت اللجنة القومية في حيفا مذكرة إلى حاكم اللواء تعلن فيه الإضراب ابتداء من 22 نيسان 1936، وطالبت بما يلي:

1 - وقف الهجرة حالاً.

2 - سن تشريع يمنع تسرب الأراضي.

3 - تشكيل حكومة وطنية.

أجبرت الموجة الوطنية رؤساء الأحزاب على أن يجتمعوا ويتفقوا على تأجيل إرسال الوفد إلى لندن؛ ورجوا الأمة أن تستمر في إضرابها. في هذا الوقت برزت دعوة إلى تشكيل لجنة عربية عليا برئاسة الحاج أمين الحسيني؛ وأُعْلن في أول اجتماع لها يوم 27 نيسان عن استمرار الإضراب إلى أن تستجيب الحكومة البريطانية إلى مطاليبها، على أن يكون وقف الهجرة هو البادرة الأولى. وعُقد في 8 أيار مؤتمر اللجان القومية التي أكدت على استمرار الإضراب الذي عَمّ أرجاء فلسطين، وفجر الثورة المسلحة، فعادت جماعة القسّام إلى العمل الميداني.

في 25 آب 1936 قاد القاوقجي حملة من المتطوعين العرب، عبرت بادية الشام في مغامرة تاريخية، واستطاع التغلب على سلسلة من المخاطر لاجتياز حدود فلسطين سراً بعيداً عن رقابة البريطانيين والفرنسيين وقوة الحدود الفلسطينية؛ فيما كانت مفارز المتطوعين تصل تباعاً إلى مواقع الثورة. اتخذ القاوقجي من مثلث نابلس ومنطقة جنين خاصة ساحة لنشاط حملته. وأعلن نفسه فوراً القائد العام لـ «الثورة العربية في جنوب سورية» ووزع بصفته هذه منشوراً دعا فيه إلى الالتفاف حوله والانضمام إليه. وقرر في الميثاق الذي أعلنه:

«الاستمرار في النضال إلى أن تتحرر فلسطين وتستقل وتلتحق بقافلة البلاد العربية المحررة».

كان لقدوم حملة القاوقجي أثر كبير في الثوار، فازدادت حماستهم وانتعشت آمالهم بعد أن اتسمت الثورة بطابع الشمول العربي والنظام العسكري الفني؛ وقد أدرك القاوقجي منذ وصوله ما تعاني منه الأوضاع الفلسطينية؛ فالثوار لم يكونوا على الرغم من بسالتهم يملكون الخبرة العسكرية المدربة على مواجهة جيش نظامي حديث؛ كان همهم مناوشة القوات البريطانية ونصب الكمائن لها.

وقد شارك ضباط سوريون سابقون في تنظيم مجموعات الثوار بعد دخول 650 مجنداً مسلحاً معظمهم من حي الميدان والأحياء الكردية في دمشق؛ أكثرهم من عائلات مرموقة في حمص المعقل الرئيسي لعصبة العمل القومي، تولوا قيادة عمليات مجموعات الثوار. بعد أيام من التنظيم والإعداد خاضت قوات الثورة بقيادة القاوقجي معركة بلعا في أيلول سنة 1936؛ هزموا فيها الإنكليز وألحقوا بهم خسائر كبيرة، لم يعهدوها من قبل، فعزلوا القائد العام للجيش الأول الجنرال ويغل. مما بعث روحاً جديدة في نفوس الثوار واللجنة العربية العليا.

كذلك انتصر الثوار في معركتهم الثانية في؛ أيلول 1936 وأنزلوا بالقوات البريطانية ضربة مفاجئة. في حين أخفقت محاولة الإنجليز تطويق قوات الثورة في بيت إمرين يوم 29 أيلول، وانتصر الثوار في هذه المعركة أيضاً، وترك الإنجليز لأول مرة قتلاهم وجرحاهم على أرض المعركة. وكان لذلك كله أكبر الأثر بين العرب، فتقاطر المتطوعون من كل جهة. اعترف البريطانيون بأن وصول القاوقجي والآخرين، قد أحدث تحسناً ملموساً في «تكتيكات الثوار»، وبأن قوات الثورة أبدت «علائم قيادة وتنظيم فاعلين». غير أن الحكومة البريطانية ستبذل في صيف وخريف 1936 جهوداً حثيثة ومنسقة لإقناع الزعماء العرب (عبد الله في الأردن، وابن سعود في الحجاز، والنحاس باشا في مصر، ونوري السعيد في العراق)؛ لممارسة ضغوط على المفتي الحسيني واللجنة العربية العليا التي أنهت الإضراب في تشرين الأول؛ كما أن الموقف عموماً قد أخذ يميل إلى الضعف بسبب الإضراب الطويل وما ألحق باقتصاد فلسطين من خسائر، كذلك عانت قوات الثورة من نقص العتاد والخدمات الطبية. ومع هذا استمر القتال في أنحاء فلسطين، لكن

ليس بالشدة نفسها التي كان عليها. ثم ساد الهدوء، بعد اعلان الهدنة وفك الإضراب. ظل القاوقجي حذراً وطلب من قواته الاحتفاظ بالسلاح والبقاء على أهبة الاستعداد، ريثما تتبين نتائج المفاوضات. على أن القيادة السياسية ستوعز إليه بسحب قواته من فلسطين، فنفذ الأمر مرغماً. انسحب القاوقجي عبر نهر الأردن عند غور بيسان، وتمكن من الإفلات من عدة كمائن نصبتها له القوات البريطانية. وفي الأردن سرح معظم قواته، ولم يستطع الدخول مع مفرزته إلى العراق إلا بعد أن جردتهم السلطات الإنجليزية من أسلحتهم؛ حيث أُستقبل استقبالاً حكومياً وشعبياً حاراً.

أقام القاوقجي في بغداد، غيرَ أن الأوضاع السياسية تغيرت، فقد سقطت وزارة ياسين الهاشمي وصارت الأمور في الجيش لبكر صدقي. فلم يعد مرحباً به؛ لاسيما بعد تدخل الأتراك بسبب موقفه من قضية اسكندرون، وكانت تركيا تحاول فصله عن سوريا، وكان القاوقجي قد رأى في الاسكندرون مسألة حياة وموت لسوريا ولا يمكن لها أن تعيش من دونه؛ وذلك من وجهة نظر إستراتيجية. فحسب رأيه؛ محور اسكندرون – البصرة أهم من محور قناة السويس؛ لأنه طريق بري أقصر يوصل إلى الهند، كما أن الجزيرة السورية وشمال العراق ستختنق بضياع الاسكندرون، إضافة للأتراك لم يرتح الإنكليز إلى وجوده في بغداد. فنفي إلى كركوك وبقي فيها تحت الإقامة الجبرية لتقييد حركته إلى حين عودته إلى بغداد بعد إزاحة بكر صدقي واستلام جميل المدفعي وزارة الدفاع.

في كركوك توضحت له خديعة الإنجليز للحركة الوطنية الفلسطينية، فقد أخذوا يعززون قواتهم في مناطق الثورة الفلسطينية، ويحمون حدود فلسطين، ويجرِّدون القبائل على ضفتي الأردن من السلاح؛ فاتصل من منفاه بعدد من الشخصيات السورية والأردنية والفلسطينية للإعداد للثورة بمساعدة ألمانيا؛ ولكن العمل تعثر بسبب مصادرة الأسلحة، وبدء المفاوضات بين بريطانيا والزعماء الفلسطينيين، وإعلان مشروع التقسيم الذي أوصت به اللجنة الملكية سنة 1937.

اتّجه همّ القاوقجي إلى سورية وقضية لواء الاسكندرون بخاصة، واشترك مع عدد من رفاق نضاله في وضع خطة ثورة تشتعل في سورية؛ وتسري إلى بلاد الشام كلها ويتم معها «إعلان حكومة وطنية تدير الثورة القائمة في أنحاء سورية كلها،

واعتبار قضية فلسطين وشرقي الأردن وسورية ولبنان قضية واحدة وثورة واحدة تحت زعامة زعيم واحد». وبدأ الإعداد والتنظيم للثورة وتم الاتصال بالسفير الألماني، ولكن توقف ذلك كله مع نشوب الحرب العالمية الثانية في أيلول 1939.

أتيحت فرصة العمل للقاوقجي ثانية، حين نشبت ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق سنة 1941. وسرعان ما تألفت في كثير من المدن السورية لجان شعبية لجمع التبرعات للثورة. لكن حملة جمع التبرعات لم تكن كافية لنصرة ثورة العراق؛ وأصبحت المساهمة المسلحة واجبة على كل مواطن. فقرر الوطنيون تشكيل حملة من الشباب للالتحاق بقوات فوزي القاوقجي، وكانت أنباء وجود المفتي الحاج أمين الحسيني في بغداد، وتجمع المجاهدين من البلاد العربية والتفافهم حول الثورة قد أشعل مشاعر الحماس وعضد الآمال بثورة التحرير القومية الشاملة؛ لا سيما بعد الضربات القوية التي أنزلتها القوات الألمانية بالوجود البريطاني في شمالي أفريقيا العربية، واجتياح رومل لليبيا وقرعه أبواب القاهرة، وفرار بعض الضباط المصريين من الجيش الملكي وعلى رأسهم عزيز باشا المصري. وعند وصول موكب المتطوعين إلى جنوب شرق البوكمال قاموا بتحطيم لافتات الحدود. غيرَ أن الإنجليز سيسارعون إلى إخماد ثورة رشيد عالي الكيلاني.

حوّل القاوقجي قواته في العراق نحو فلسطين، فقاد فريقاً من المتطوعين السوريين والفلسطينيين والعراقيين، وفي طريقه تصدى لقوافل الإنجليز العسكرية القادمة من الأردن عند الرطبة؛ وخاض عدداً من المعارك الناجحة. وقد استطاعت طائرة بريطانية رميه بالرصاص على طريق دير الزور تدمر وهو في سيارته وأُصيب بجراح خطرة، فنقل إلى مستشفى دير الزور لإسعافه، ثم مستشفى حلب حيث تم تدبير نقله إلى برلين بطائرة خاصة. وقد أجريت له عدة عمليات جراحية استخرجت بنتيجتها 19 رصاصة وشظية من جسده؛ وظلت رصاصة تسكن رأسه حتى أواخر حياته.

في ألمانيا دعاه القادة الألمان إلى العمل معهم، لكنه أصر على أخذ اعتراف رسمي منهم بحقوق العرب واستقلالهم قبل الالتزام بشيء، وشعر أنهم يحاولون استغلاله واستغلال غيره من الزعماء العرب الموجودين هناك؛ ومنهم المفتي الحاج أمين الحسيني، وكانت العلاقة سيئة بينهما. وقد آمن القاوقجي أن الألمان

والإيطاليين لا يسعون إلى صالح العرب، لرفضهم تشكيل جيش عربي نظامي، كان همهم تجنيد قوات عربية فردية صغيرة تقوم بالتجسس والتخريب خلف خطوط الحلفاء. وقد اتهم القاوقجي الألمان النازيين بتسميم ابنه مجدي (وكانت أسرته قد لحقت به) لأنه لم يتعاون معهم.

مع تراجع ألمانيا في الحرب على مختلف الجبهات، تراجعت آمال القاوقجي. وشهد انهزام الرايخ الثالث ودخول السوفييت إلى برلين. واعتقل مع زوجته ومرافقه في 29 أيار 1946 ثم أطلق سراحه بعد شهر؛ عندما ثبت للسوفييت أن تعاونه مع النازيين كان كرهاً بالإنجليز. وظل هناك تحت الرقابة، لكنه استطاع أن يفلت منهم، ويصل إلى القطاع الفرنسي من برلين، ومنه إلى باريس بعيداً عن أعين الإنجليز الذين كانوا يلاحقونه لتنفيذ حكم الإعدام فيه. ثم طار إلى القاهرة فوصلها في شباط 1947. وهناك وجد قضية فلسطين قد بلغت مرحلة خطيرة، وبدأ الإعداد لحلها بالقوة وبالعمل العسكري بمساندة جامعة الدول العربية للشعب الفلسطيني ممثلاً بالهيئة العربية العليا ورئيسها الحاج الحسيني؛ فاجتمع به القاوقجي عدة مرات وأبدى له استعداده للعمل والنضال.

سافر القاوقجي من القاهرة إلى مدينته طرابلس حيث استقبل استقبالاً شعبياً حاراً. ثم انتقل إلى دمشق ووصلها في 12 آذار 1947 بشكل مفاجئ؛ وحلّ ضيفاً على الحكومة في فندق الأوريان بالاس، وسرى خبر وصوله كالبرق بين الناس، فصدرت الصحف في صبيحة اليوم التالي بمانشيتات عريضة: البطولة في دمشق، البطل في دمشق، المجاهد الكبير فوزي القاوقجي في دمشق إلخ... وهرع الناس بالألوف إلى الفندق لمشاهدته والسلام عليه.

وقابل شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية وأبدى رغبته في العمل الوطني العسكري، وتقدم باقتراح إلى مجلس جامعة الدول العربية المنعقد في عاليه لتأليف قوة من المتطوعين العرب مدربين تسلحهم الدول العربية، يدخلون فلسطين للوقوف في وجه الاستيطان الصهيوني، ولتدريب الشباب الفلسطيني؛ في حين تقف الجيوش النظامية العربية على الحدود مستعدة لتلبية نداء الاستعانة بها عند الحاجة.

وافقت الجامعة العربية على الاقتراح، وتشكلت لجنة عسكرية تمثل الجامعة العربية مقرها دمشق، وأسندت إلى العميد العراقي طه الهاشمي مسؤولية التجهيز والتسليح وإلى محمد عزة دروزة مسؤولية الإعانات؛ وكُلِّف القاوقجي بتولي قيادة قوات المتطوعين، أو ما سمي بجيش الإنقاذ. وبدأ التدريب العسكري في معسكر قطنا القريب من دمشق.

تسلم القاوقجي القيادة رسمياً في 7 كانون الأول 1947 في ظل ظروف شديدة الصعوبة منها عدم التكافؤ بين قوات الشعب الفلسطيني والمتطوعين من جهة والقوات الصهيونية من جهة أخرى من حيث الإعداد والتدريب والتسليح؛ إضافة إلى تحفظات الهيئة العربية العليا على قيادته، وتشكيل قيادة جيش الجهاد المقدس التي بدأت العمل في منطقتي القدس والخليل وتنظيم المقاتلين في مناطق أخرى.

بدأ تدريب جيش الإنقاذ في أول كانون الثاني 1948 في معسكرات قطنا في سورية. وفي نهاية آذار 1948 قدم القاوقجي تقريره إلى جامعة الدول العربية؛ قيَّم فيه حالة قواته: «إن مستوى تدريب المتطوعين هو أدنى من المتوسط، وقدرتهم القتالية منخفضة ويرجع هذا إلى قلة عدد الضباط وضعف النظام العسكري ونوعية السلاح الرديء».

وكان القاوقجي قد نقل في 6 آذار 1948 مقر قيادته من دمشق إلى فلسطين في قرية جبع على سفوح حوريش بين نابلس وجنين، ووجه فور وصوله بياناً جاء فيه: «جئنا إليكم بقلب واحد وهدف واحد وهو إلغاء قرار التقسيم وتدمير الصهيونية وافتداء عروبة فلسطين». وأقام محطة إذاعة خاصة. تسلم جيش الإنقاذ المسؤولية في مناطق محددة له، وضع القاوقجي منهجاً للعمل أساسه تأمين الأمن المطلق واستطلاع العدو ومستعمراته واستدراج القوات الصهيونية خارج المستعمرات. وخاض منذ بداية نيسان عدة معارك ظافرة ضد الصهيونيين الذين تساندهم القوات البريطانية. ومن أبرزها معارك مشمارهاعيميك، 25 نيسان 1948 وكانت المعركة الأولى التي خاضها ضد مستعمرة يهودية كبرى جيدة التحصين، تشرف على مرج ابن عامر الكبير الذي يمتد من قرب جنين حتى حيفا تقريباً، وقد بدأ الهجوم بعد يومين من سقوط حيفا وقاده القاوقجي، يدك تحصينات المستعمرة بمدافعه، لكن الجيش البريطاني تدخل وطلب هدنة 24

ساعة كي يتمكن اليهود من إخلاء النساء والأطفال؛ ثم جددت المهلة إلى ثمانية وأربعين ساعة، وكانت المدة كافية لقدوم الإمدادات من المستعمرات اليهودية المجاورة لإكراه القاوقجي على التراجع. كذلك خاض معارك زرعين، وعارة، وقاقون، وطيرة قلقيلية. وقدم المساعدة إلى المجاهدين في معركة باب الواد - اللطرون في 13 أيار 1948. وكان في بعض الأحيان يخالف أوامر القيادة العامة. وقام باستنجاد عدة جهات لتدارك نقص العتاد والمؤن، وعاد إلى سورية أكثر من مرة، جراء تقصير القيادة في دمشق، وحمّل الساسة مسؤولية التهاون. لما أُعلنت الهدنة الأولى أحس القاوقجي بخطئها الفادح وخطرها على جيش الإنقاذ في الجبهة التي كان هذا الجيش يحمل مسؤولية حمايتها؛ فقد كانت الجبهة واسعة لا تتناسب وإمكانياته ووضع رجاله ونقص عتاده وعدم استجابة المسئولين لمطالبه.

بعد سقوط رقعة واسعة من الجليل (لوبية وصفورية وشفاعمرو والناصرة والشجرة) وسلسلة من الاجتماعات مع المسئولين، قدم استقالته إلى الأمين العام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام مبيناً أسبابها. ولم يعد إلى الجبهة إلا بعد أن قدموا إليه بعض ما يحتاجه الجيش، واستطاع أن يحقق بعض النجاح في جبهة صفد والمنارة. ولكن تعقد الموقف بعد الهدنة الثانية وتوقف الجيوش النظامية عن العمل جعلا جيش الإنقاذ الجيش الوحيد، وكان الصهيونيون بالمرصاد لضرب قواته، بعد أن انفردوا بها. وقد هاجمت القوات الصهيونية جميع جبهات جيش الإنقاذ بقوات متفوقة من الطائرات والدبابات والمدفعية الثقيلة.

زار القاوقجي عمان قبيل دخول الجيوش العربية إلى فلسطين ليبحث دور جيش الإنقاذ بعد دخول الجيوش النظامية؛ ولكن القيادة في دمشق طلبت منه الانسحاب مع قواته، وتسليم مواقعه إلى الجيش الأردني، فانسحب في 16 أيار، لكنه عاد إلى القدس لنجدة الأحياء العربية المهددة بالسقوط. ثم تابع إلى دمشق في 24 أيار، واجتمع بالمسئولين، وشكا إليهم سوء وضع جيش الإنقاذ، وهدد بتقديم استقالته، لكن الرئيس القوتلي أقنعه بالانتقال مع قواته إلى الجبهة اللبنانية، حيث خاض مع الجيشين السوري واللبناني معركة المالكية في 6 حزيران 1948؛ وانتصر فيها، وضمن البقاء لجبل عامل بأسره في يد العرب. وقد اضطر مرغما للاستجابة إلى طلب اللجنة العسكرية تسريح نصف الجيش بحجة عدم

وجود المال اللازم؛ رغم إحساسه بالخطر الصهيوني الذي يهدد جنوب لبنان، وقد شعر بمرارة الهزيمة حين وقعت الدول العربية اتفاقيات الهدنة الدائمة في رودس؛ فقدم استقالته وعاش في دمشق بما يشبه العزلة، ثم غادرها إلى بيروت تحت وطأة ظروف مادية ونفسية أليمة؛ وبقي فيها حتى وفاته في عام 1977.

❖ ❖ ❖

كان فوزي القاوقجي أسطورة بحق، على الرغم من الخلاف حوله، هل كان ذلك المناضل المجاهد الثائر المتأهب دوماً لتلبية نداء الواجب على مختلف الجبهات في المنطقة العربية، أم الفارس المغامر الشجاع محترف الثورات؟!

الصورة الغالبة، هي صورة البطل والمناضل القومي الذي خاض معارك العروبة بفروسية وجرأة قل نظيرهما، ومن الممكن دون تضخيم أو تهويل أن تستخرج من حياة القاوقجي عشرات الأمثلة التي تدلل على بطولاته وشهامته، قاد ثورات وأنقذ مدناً وقرى من الدمار وأشخاصاً من الموت، وتصرف كمغوار وبأريحية. وفي الحقيقة يتضاءل الخيال عما أقدم عليه القاوقجي باندفاع وبساطة وعفوية. بالإضافة إلى تلك الكاريزما التي أحاطت بشخصيته، وجعلت منه ذلك الثائر الجامح، المتنطح للمغامرة، المعتد بنفسه.

هذه الصورة الآسرة تعرضت للانتقادات، ربما بهدف التقليل من قيمة وتأثير شخصية استثنائية كهذه، في زمن تقاعس فيه الملوك والرؤساء العرب وترددت الحكومات والزعامات. وفي ظل ظروف كهذه من الطبيعي أن يكون هدفاً للتشويه والتشهير؛ غيرّ أن بعض هذه الانتقادات قد لا يخلو من صواب، ولا ينبغي إهمالها. وإذا كان قد لابسها التجني، فمن جراء استقلاليته برأيه واستهانته بالآخرين.

أُتهِمَ القاوقجي بحبه للزعامة والعنجهية والنزوع إلى الانفراد بتصرفاته؛ وانتقده بعض الساسة والعسكريين العرب، بأنه كثيراً ما تبجح بانتصاراته، وزف البشرى إلى العرب بقرب فوزه على اليهود، وكانت النتيجة إخفاقه في معظم المعارك التي خاضها، ولم يحل جيش الإنقاذ دون سقوط طبريا وحيفا وعكا ويافا بأيدي اليهود؛ وإن كان قد استطاع في أول الأمر القيام بدور جيد في إدارة بعض المعارك؛ لكنه فشل في تأدية المهام الموكّلة إليه، لافتقاره إلى هيئة أركان عامة، الأمر الذي أحال جيشه إلى مجموعات مهلهلة ومفككة. ولقد تصرف على أرض المعركة بصورة

كيدية، لخلافات قديمة بينه وبين المفتي الحاج أمين الحسيني، فلم يقدّم أية مساعدة لقوات حسن سلامة في الرملة، على الرغم من وجود قواته مع مدافعها الثقيلة في الجوار. كذلك عندما نشبت معركة القسطل، خَابَر عبد القادر الحسيني قبل مقتله بقليل القاوقجي وطلب منه إمداده بصورة عاجلة بسلاح وذخيرة كي يجابه بها الهجوم اليهودي، فأجابه بأنه ليس عند شيء من المساعدات المطلوبة، مع أنه كان يملك بفضل تموين الجامعة العربية مخزوناً كبيراً من الأدوات الحربية.

إذا كان هذا صحيحاً، فهو أمر مؤسف وكثيراً ما تكرر، وهو أن الخلافات بين العرب أنفسهم كثيراً ما ضيعت أراضي، وأجهضت حقوقاً، وأتلفت آمالاً، وأذهبت ضحايا. هذه الشوائب رغم تكاليفها الباهظة يرفضها الكثيرون، وآخرون قد يرفعونها إلى مصاف الخيانة. الناس لا يرتضون للأسطورة أن تهتز، ولا أن يصيبها أيّ خدش ولو كان بسيطاً. ليس من الصعوبة تقييم الدور الحقيقي الذي لعبه القاوقجي، وهو دور كبير وجليل، لكن الأمانة تستدعي عدم الشطط سواء في التبجيل أو الإدانة؛ لاسيما وأن الحكومات العربية خذلت الشعب الفلسطيني، ولم تقدم لجيش الإنقاذ من الذخيرة والعتاد ما وعدت بتقديمه، لقد خاض القاوقجي معارك غير متكافئة على الإطلاق، وعلى الرغم من شجاعة المتطوعين العرب وقدرات القاوقجي التي لا تُنكر، لم يستطع ردم هوة التفوق الإسرائيلي. وهذا ما سيظهر في الحرب التي خاضتها الدول العربية مجتمعة ضد إسرائيل عام 1948، إذ لم يتمكن الزعماء العرب من تجهيز أكثر من عشرين ألفاً من الجنود، لمواجهة جيش يزيد عن ستين ألفاً من المحاربين اليهود المدربين جيداً المزودين بالسلاح والذخيرة والعتاد اللازم.

لكننا نستطيع الوثوق بأمور كثيرة حول شخصية القاوقجي، فهو لم يكن مغامراً انتهازياً، ولا ثائراً طائشاً يسعى إلى مجد شخصي بحت، كان مجده هو انتصار الأمة العربية في معركة النهوض، وكانت آلامه ناجمة عن سوء الأوضاع العربية، وهي دافعه إلى الفعل، كذلك لم تقل حكمته وحنكته أبداً عن روحه التّواقة إلى المخاطرة والتضحية في سبيل أهدافه.

أخلص القاوقجي للثورة في بلاد الشام، وتفانى في سبيل القضية الفلسطينية، وكان على استعداد للنضال في سبيل ما آمن به على الدوام: حرية العرب ووحدتهم؛ ذلك كان معنى جهاده.

تاج الـديـن الحسـنـي

السياسي بين الاعتدال والموالاة

(1890 - 1943)

في حلب، حوالي سنة 1934، وبمناسبة حضور رئيس الدولة محمد علي العابد ورئيس الوزراء الشيخ تاج الدين الحسني، لإزالة الستار عن تمثال المطران (جرمانوس فرحات) الذي عمل على نشر اللغة الفصحى، والتأليف في قواعدها وآدابها، كان من المقرر أن يؤدي الرئيسان صلاة الجمعة في الجامع الأموي الكبير، لكن الكتلة الوطنية رأت أن تحول بينهما وبين المجيء إلى الجامع؛ فقامت بمظاهرة وطنية، انتهت في قاعة المحكمة وبدعوى عرفت باسم (السدة): (مرتفع خشبي يعلو الأرض على شيء من السعة في المسجد، يحجز عادة للولاة والحكام لتأدية الصلاة). في يوم مجيئهما إلى الجامع، سارع شباب الكتلة قبل دخول الرئيسين وجلسوا على السدة، وتعمدوا ألا يتركوا عليها مكاناً لهما، وعندما أخفقت المحاولات التي بذلها ضباط الشرطة والدرك لإجلائهم عنها، عدل الرئيسان عن الصلاة في الجامع الأموي الكبير، وأدياها في جامع الدراويش، المعروف باسم الملاخانة.

كان يمكن لهذه التظاهرة ألا تترك أثراً، لكن سلطة الانتداب ارتأت معاقبة المشاغبين الذين احتلوا السدّة، فألقوا القبض عليهم، بلغ عددهم حوالي خمسين شخصاً، كان على رأسهم سعد الله الجابري وعبد القادر السرميني وناظم القدسي. طرح الوطنيون في المحكمة قضية أن الإسلام لا يعرف نظاماً للتشريفات في الجامع ولا تمييزاً بين السدة وغيرها، ومن ثم فإن احتلال السدة لا يشكل جرماً يُعاقب عليه. ومن ثم استغلوا المحاكمة، وهاجموا الرئيسين، لا سيما الشيخ تاج، ووصفوه بأنه عميل لفرنسا وخائن للوطن، والمفروض على كل مواطن أن يحاربه في كل ساحة ومجال، ولم يقصِّر المحامي إدمون رباط في مرافعته اللامعة أمام القضاة الفرنسيين، فوصفه بأنه نذل جبان. كانت مرافعة وطنية ملتهبة، حتى أنَّ رئيس المحكمة قال، لم تهزني مرافعة كهذه!

على الأغلب لم يمر على سورية سياسي أصابه ما أصاب الشيخ تاج الدين الحسني من القدح والذم، سواء عندما كان رئيساً للوزراء، أو عندما أصبح رئيساً للدولة السورية، لم تنقذه شعبيته في الأحياء والأسواق الدمشقية، ولا نشأته المتدينة في بيت علم وتقوى. فقد كان ابن الشيخ بدر الدين الحسني المحدث الأكبر، أبرز علماء دمشق.

ذاع صيت الأب الشيخ الحسني واشتهر عندما بدأ التدريس أيام الحكم العثماني، وكثر عليه الطلاب، فعينت له الدولة راتباً إلزامياً. أمضى حياته في الدرس والمطالعة والتدريس ما بين داره في حي النقاشات بجوار الجامع الأموي ودار الحديث الأشرفية، وقبة النسر في الجامع الأموي الكبير في دمشق. كان كثير العبادة، شهد له أبناء عصره بالورع والخلق الكريم، تمسك بما جبل عليه السلف الصالحين أعمال ومكارم، زرع الهيبة العظيمة في النفوس بتواضعه الجم واحترامه للناس عامتهم وخاصتهم. كما عفَّ عن الألقاب الكبيرة، والتفاخر بها. عندما أرسلوا إليه عريضة ليقدموها إلى الحكومة، كان تلامذته قد ذكروا فيها عبارة: «إن سيدنا ومولانا المحدث الأكبر الشيخ محمد بدر الدين الحسني يريد كذا وكذا ...». غضب الشيخ، ومزّق الورق، فأعيدت كتابتها من غير ألقاب، وقد اشرأبت قلوب الناس لأن يكون الشيخ خليفة للمسلمين، فاتصل الخبر بالدولة العثمانية والجمعيات السياسية، فخشيت الحكومة مغبّة ذلك الأمر، فأبرقت إلى والي دمشق ناظم باشا، لإجراء التحقيقات، ولما سأله الوالي رد عليه الشيخ: يابا أنا لست متفرغاً إلاّ للدرس!

صيته الذائع، دفع العلماء من كل مكان للالتقاء به، فاستمع الشيخ بخيت المطيعي إلى درسه، وقال له: لو جئتمونا إلى مصر، لافتخرت بكم مصر كلها، ولدرس عليكم علماؤها في الأزهر الشريف. وعندما زاره الشيخ محمد عبده أعجب به غاية الإعجاب. وكان عندما يأتيه سلطان أو وال أو ضابط جنرال لا يقوم له، فقد جاء إليه الجنرال الفرنسي غورو المندوب السامي الأول، فلم يقم له، وزاره جمال باشا فلم يقم له أيضاً، وحاول آنئذٍ أن يأخذ فتوى منه في إعدام «شهداء السادس من أيار»، فرفض الشيخ ووعظه.

عاصـر أواخـر العهـد العثمـاني، وشـهد الانحرافـات والمظـالم علـى أيـدي الاتحاديين، وشهد ظروف الحرب العالمية الأولى، وكانت قاسية على الناس، طفحت بـالظلم والقتـل والفقـر والجـوع، فرعـى أحـوالهم، وتفقـد شـؤونهم، وكـان يسـأل عـن أسـعار أقـواتهم وهمـومهم، ويتصـل بالحكـام ليـدفع عنـهم أشـكال القهـر والعسـف. وعندما قرر الفرنسيون احتلال سورية، أرسل ولده تاج الدين وتلامذته لقتال الغـزاة الفرنسـيين في ميسلون. ولما تغلب الجيش الفرنسـي علـى وحدات الجيش السـوري القليلة ودخل دمشق، أعلن الشيخ الجهاد المقدس، وعلَّم في دروسه، أنَّ الجهاد فرض عين على كل من يستطيع حمل السـلاح واستعماله حتى جلاء آخر جندي فرنسـي عن البلاد؛ وحضّ الناس على عدم دفع الضـرائب للفرنسيين، وعدم التعامل معهـم، وسـافر في حملـة جهاديـة ضـد المسـتعمر الفرنسـي للأمـة المسلمة في بـلاد الشـام، وجابها مـن الشـمال إلى الجنـوب، ومـن الغـرب إلى الشـرق، برفقـة تلميذيـه العـالمين الشـيخ علـي الـدقر، والشـيخ هاشـم الخطيـب، داعيـاً إلى الثـورة علـى الاحـتلال والاضطهاد، ومحرضاً على الجهاد والقتال بحماس منقطـع الـنظير، وعنـدما انـدلعت الثورة السورية الكبرى، اعتُبِر راعيها ومرشدها الروحي والجهادي.

كل هذا لم يشفع للشيخ تاج لدى الوطنيين سعيه المحموم إلى مناصب الدولـة تحت سلطة الانتداب، وتسلمه منهم رئاسة الـوزارة والدولـة؛ ولا لـدى النـاس الـذين لم يغفروا له تعاونه مع الفرنسيين، فنظموا في شتمه الأزجال:

شـــــيخ تـــــاج يـــــا بومـــــة يـــــا بـــــو اللفـــــة المبرومـــــة
هـــــات شـــــعرة مـــــن دقنـــــك لخـــــــيط هالتاســــــومة

لكـن، والشـيء بالشـيء يـذكر، كثيراً مـا جابـت المظـاهرات الشـوارع والأسـواق والحارات، وانتهت إلى السرايا، وهي تهتف له:

شيخ تاج يا عزينا !!

ولد تاج الدين الحسـني بدمشق سـنة 1890. تعلم في مدارسـها الرسميـة، ثـم طلب العلم لدى والـده مـع غيره مـن التلامـذة، وتلقـى عليـه علـم الحـديث والتفسـير والعلـوم العربيـة وأصـول الفقـه والعلـوم الدينيـة. تميـز بحسـن التـودد إلى النـاس، واستغلّ رغبة الحكام العثمانيين في إرضاء والده، فاتصل بهم، وعُيِّن مدرساً للعلوم

الدينية في المدرسة السلطانية بدمشق سنة 1912، وكان من أعضاء مجلس إصلاح المدارس، ومن أعضاء المجلس العمومي لولاية سورية في عهد العثمانيين، كما تولى تحرير جريدة الشرق سنة 1916، التي أمر بإنشائها جمال باشا قائد الجيش الرابع العثماني في الحرب العالمية الأولى.

بعد انهيار الحكم العثماني على سوريا، انتخب عضواً في المؤتمر السوري، كما عينه الملك فيصل سنة 1920، مديراً عاماً للأمور العلمية في دائرة كانت مرجعاً أعلى لدوائر الأوقاف والفتوى والمحاكم الشرعية والخط الحجازي، كما درّس في معهد الحقوق مادة أصول الفقه والأحوال الشخصية والفرائض والوصايا.

لمّا دخل الفرنسيون سوريا، خرج تاج الدين لوداع الملك فيصل، ثم لمّا دخل الجنرال غورو دمشق دُعي لاستقباله بصفته الرسمية، فامتنع وقال عبارته المشهورة: «من ودع فيصلاً لا يستقبل غورو»، فأُقصي من عمله، وبقي شهوراً عدة منزوياً، إلى أن تشكل وفد لمقابلة الجنرال غورو في أمور تتعلق بمصلحة البلاد، وكان من جملة حديثهم أن بينوا له مكانة الشيخ تاج الدين، وأنَّ عزله عن منصبه لا يليق، فعُيِّن حينذاك عضواً في مجلس الشورى، ثم في محكمة التمييز، وبعد ذلك صار قاضياً شرعياً.

بعد انتهاء الثورة السورية أراد الفرنسيون إجراء تغييرات على سياساتهم، فوعد المفوض السامي دوجوفنل القوى السياسية بالتوقيع على معاهدة سوريَّة - فرنسيَّة تحصل البلاد بموجبها على الاستقلال، وأصدر في 26 نيسان 1926، قراراً بتعيين الداماد أحمد نامي رئيساً للدولة والحكومة؛ لكن الحكومة لم تنجح بالحصول على المعاهدة المنشودة؛ ولا بإجراء انتخابات. مما أضاع هيبة الوزارة وجعل سمعتها تتدهور إلى الحضيض. كما لم يكن الشعب راضياً عن الداماد الذي حاول تمهيد السبل ليكون ملكاً على سورية، فقوبل بالكراهية، وكان إذا زار إحدى المحافظات، أغلقت الشوارع والمحلات، واحتجب الناس عن استقباله.

مع تعيين بونسو مفوضاً سامياً دعا إلى تشكيل حكومة مؤقتة من المعتدلين مهمتها الإشراف على انتخابات اللجنة التأسيسية لوضع الدستور، ثم انتخاب رئيس للدولة وتأليف وزارة وطنية وعقد معاهدة بين البلدين. في وقت عاد الموقف المعنوي والسياسي للانتداب يتدهور في سورية. فقد ازداد الاستياء الشعبي

وتوسعت الهوة بين فرنسا والسوريين، بسبب عجزها عن الحفاظ على النظام في دمشق، على الرغم من وجود قوة عسكرية كبيرة، وفشلها في الحصول على تعاون الأهالي، وتفاقم الحالة الاقتصادية البائسة في المدن والريف، والدمار الواسع الناجم عن العمليات العسكرية التي قمعت الثورة. غير أن المشكلة كانت في إيجاد شخص دمشقي، بهدف تهدئة الوجهاء المحليين في العاصمة التي جرى إهمالها، وكان ذلك مهماً بصورة خاصة، لأنها كانت مركز الثورة.

وجد المفوض بغيته في الشيخ تاج الدين الحسني، الذي قبل المهمة، لكن الحذر كان مطلوباً حتى من قِبَل معتدل مثله، فلم يقدم نفسه إليهم كتابع لهم. وإنما كي يكون مقنعاً للجميع أن يظهر قسطاً من النفوذ المستقل في دمشق، فالتزم بقضية وحدة سورية واستقلالها. في هذه الأوضاع المضطربة، لم يكن من السهل التعاون مع الفرنسيين وتبني طروحاتهم المرفوضة أصلاً؛ فكان بقبوله بها قد وضع نفسه بين المندوبية العليا وقيادة الوطنيين. كان التحرك بينهما عسيراً، يحتاج إلى مهارة وحيطة، فمن طرف عليه أن يصوغ شروطه للعمل مع الفرنسيين على نحو يعجبهم، ومن طرف آخر عليه الاعتراف بالمطالب المعتدلة للحركة الوطنية. هذا التوازن الدقيق بينهما، وبالأحرى اللعب على الحبلين، تبدت مهارة الشيخ تاج وسر بقائه واستمراره في الحكم. ولهذا وجد الفرنسيون فيه لاعباً مغروراً لا غنى عنه. أما الوطنيون المتشددون فسوف يصفونه بـ«أخون الخونة».

أفلح الشيخ تاج في ألعابه السياسية التي لم تخل من طرافة، كان أحياناً ليقنع الفرنسيين ببعض المطالب الشعبية كغلاء الخبز مثلاً، يوعز إلى أعوانه كي يحركوا المظاهرات ضده بالذات، ليتخذ من تمثيلية تهجم الناس عليه مسوغاً لمطالبة الفرنسيين التراجع عن قرارهم. أثبتت أساليبه احترافاً وتضلعاً في التحايل على الأطراف كلها، والتلاعب حتى بالمبادئ، على الرغم من نشأته في مناخ محافظ ومستقيم، قوامه المسجد والمدرسة، ومجتمع كان محاطاً بالمشايخ من مريدي أبيه المرموقين، ولم يستطع أن يسلك مسلك أبيه المناقض لمسلكه تماماً، وإن كان بارعاً في استغلال شعبيته لأغراضه الخاصة. ويمكن رد افتقاده للمثل السياسية، إلى ثقافته المتواضعة، عدا عن ضعف ورعه. وإذا كانت شخصيته بقامته القصيرة وضخامة جثته وبروز بطنه، وعرجه قد بدت مضحكة، واستثارت

سخرية الفرنسيين والوطنيين معاً، لكنه خلاف هذا المظهر الهش والمراوغ، كان ذكياً لماحاً وداهية، وسوف يبرهن مراراً على أنه الرجل الملائم للتحرك داخل تلك اللعبة الاستعمارية التي لا ترحم: «فرق تسد».

تولىّ الشيخ تاج رئاسة الحكومة السورية في 14 شباط 1928، استمرت أربع سنوات على الرغم من أنها كانت مؤقتة ومهمتها الإشراف على الانتخابات فقط، وكانت حكومته متميزة على الرغم من عدم وجود شخصيات وطنية فاعلة أو مؤثرة. كان من أعضائها جميل الألشي وزيراً للمالية، وهو سياسي كفء وماكر، سمعته الوطنية سيئة بسبب ما يقال عن خيانته لفيصل. وأيضاً محمد كرد علي وزيراً للتعليم، وكان قد رأس المجمع العلمي العربي، وسعيد المحاسني وزيراً للداخلية وهو محام مرموق وأستاذ في القانون الدولي، والشيخ عبد القادر الكيلاني وزيراً للزراعة والتجارة وهو وجيه متدين، كانت شعبيته في حماة من الخطورة بحيث جعلت من وجوده وزيراً في دمشق ضرورة لازمة.

كان المقصود من الوزارة استرضاء الوطنيين المعتدلين، فتواقت تأليفها مع إعلان المندوب السامي رفع الحكم العرفي والرقابة على الصحف. أعقبها إصدار عفو عن السجناء السياسيين، استثني منه 64 شخصاً؛ منهم الزعماء الوطنيون الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وشكري القوتلي وعادل العظمة وسلطان الأطرش وشكيب أرسلان وفوزي القاوقجي، وكان محكوماً على هؤلاء بالنفي خارج البلاد. نعت الناس العفو بـ«العفو الأعرج» غمزاً من عرج رئيس الدولة.

جعل الشيخ تاج من الوزارة عريناً له، ومارس نفوذه وتحيَّز لمدينته، فعين دمشقيين أكثر من الحلبيين، مما سبَّب الاستياء ضده في حلب. واختص علماء دمشق برواتب عالية، مع أنه كان لا يكنُ احتراماً لهم، كانوا حسب رأيه: يعززون المعتقدات الخرافية لدى الناس، وتوخى أن يَسِمَ عهده ببعض الشكليات، فطلب من وزرائه لبس السترات الطويلة أثناء المهمات والحفلات والمناسبات الرسمية؛ مثلما كان يظهر هو بسترة سوداء تبلغ الركبتين وعمامة. فأبلغه محمد كرد علي بأن هذه السترات يلبسها الحمالون، فلم يكرر طلبه. وكان يحب أن يحيط نفسه بمظاهر الأبهة، ففي أحد المرات بعدما شفي من مرض، أراد الاحتفال بهذه المناسبة، فنبهه مستشاروه إلى عدم وجود موارد كافية، فما كان منه إلى أن

اعتمد على مكانته في الأوساط الدينية، فأعلمهم برغبته، وعلى أثرها نزل إلى الشوارع المشايخ والدراويش لابسو العمامات الخضراء والبرود الملونة رافعين بيارقهم وقارعين طبولهم وملوحين بسبحاتهم الطويلة مع أبواقهم الملتوية. وشنع عليه خصومه بأنه دفع لرؤساء تلك الجماعات أموالاً عامة، كانت مخصصة لعلاج مصابين بمرض السل.

بعيداً عن هذه المظاهر السقيمة ومدى صدقيتها، سيتمكن من نشر الهدوء في البلاد إلى جانب إنشائه لمشاريع عمرانية كثيرة من مرافق عامة ودور للدولة. وكان شغوفاً بأن يذكره التاريخ كبناء عظيم، فاعتنى بنقش اسمه على كل محطة وجدار ومكتب حكومي ومسجد ومدرسة، بُنيت أو رممت إبان فترة ولايته.

عشية الانتخابات، تمكَّن رغم المعارضة الشديدة التي كانت الكتلة الوطنية تبديها له من التحالف معها، وظهرت قائمتان رئيسيتان: قائمة الوطنيين وقائمة المعتدلين الموالين للانتداب. وكان اسمه على رأس كل منهما، وكان الأنشط والأبرز من بينهم، واستقبل بحماسة خلال قيامه بجولة في أنحاء سورية، وأنفق بسخاء على الترتيبات التي أعدت لاستقباله في كل مكان حل فيه، حتى قال بعض الناس بأنه لا فيصل ولا القيصر غليوم الثاني استقبلا على هذا النحو. ولم يقصر في بذل الكثير من الجهود لتسوية الخلافات بين الفرقاء، مما هيأ له الفوز في انتخابات المرحلة الأولى التي جرت بحماس ونشاط، غير أن الكتلة اتهمته بالرشوة، ومع هذا وضعوه على رأس لائحتهم في الجولة الثانية على أمل استرضائه وعزله عن حلفائه. وتمت الانتخابات بهدوء، وكانت النتائج في دمشق مواتية للوطنيين الذين فازوا بسبعة مقاعد من تسعة.

بعد الانتخابات، اجتمعت الجمعية التأسيسية، وانتخبت هاشم الأتاسي رئيساً لها، ثم انتخبت لجنة وضع الدستور، وبمجرد انتهاء اللجنة من مهمتها وقع الاصطدام بين الانتداب والوطنيين، بعدما طلب الفرنسيون حذف ست مواد من المشروع بداعي تعارضها مع صلاحيات الانتداب، ومخالفتها ما عُقد من معاهدات مع دول أخرى كتركيا، وعدم تلاؤمها مع الأوضاع الجديدة في لبنان وفلسطين والأردن، لكن الجمعية رفضت الحذف لمخالفته الحقوق الوطنية. فاضطر الشيخ تاج رئيس الحكومة إلى إلقاء خطاب في الجمعية بتأييد إلغاء تلك المواد، فما انتهى

من خطابه، وسار يريد الخروج، حتى صاح سعد الله الجابري، ونعته بالخيانة الوطنية بألفاظ قاسية جداً. بعد ذلك عمد بونسو إلى وقف أعمال الجمعية التأسيسية، ثم اتخذ قراراً بحلها.

استقر الحكم للشيخ تاج وأيده وزراؤه في موقفه من المواد الست. ومع أنَّ الوزارة أدارت أمور البلد المعاشية والاقتصادية بكثير من النجاح، فالسلطة الفعلية في الواقع كانت بيد المستشارين الفرنسيين، ولم يكن ينفذ قرار صادر عن وزير أو رئيس وزارة، أو حتى مرسوم عن رئيس الجمهورية، مهما كانت صفته القانونية، ما لم يكن مذيلاً بتوقيع المستشار، ومصدقاً أو مشاهداً من المندوب الفرنسي، ليجوز نشره وتنفيذه. وعلى الرغم من السيطرة الفرنسية لم تستقر الأوضاع، وإنما ازدادت اضطراباً، خلالها واصلت الوزارة وبصعوبة ضغطها على الفرنسيين لإصدار عفو عام عن الوطنيين المنفيين، رغم ما سوف تزيده عودتهم إلى البلاد من متاعبها، واستمرت في أداء دور الوسيط بين الانتداب ورجالات الكتلة الوطنية.

لم يحاول الشيخ تاج الاصطدام بالمعارضة، وبالعكس كان لوجهات النظر البالغة الاعتدال التي أعربت عنها حكومته، حافزاً لنهوض النشاط السياسي في المدن السورية، حتى مع اتخاذه طابعاً معادياً لها. وقد أعاد الشيخ تاج ترتيب وزارته ثلاث مرات بتوجه واضح لإنشاء جبهة من المعتدلين. لكن عودة المفوض السامي بونسو من باريس أجهضها، بعد حفل استقباله مباشرة، عندما وجه رسالة إلى الشيخ تاج يعلمه فيها بأنه لم يعد هناك حاجة إلى خدماته. وفي السنة التالية إبان الانتخابات، تخلى المندوب السامي عنه، عندما طلب منه ألا يزعج نفسه بتسجيل اسمه في اللوائح، وعندما خاض الانتخابات، تعرض إلى هزيمة مذلة.

تم تعيين الكونت دو مارتل عوضاً عن بونسو، فيما سيطرت الكتلة الوطنية على مجمل النشاط السياسي في سورية، وازدادت شعبيتها بسبب المواقف المتشددة لقادتها، فعطل الانتداب جلسات البرلمان، وتعطلت معها المفاوضات بين الفريق المعتدل للكتلة الوطنية والفرنسيين، مما أشعل المظاهرات والاضطرابات التي أكدت على رفض معاهدة السلم والصداقة بين فرنسا وسورية. تسلم بعدها المفوض دو مارتل من باريس تعليمات عدة منها: تجديد مرسوم تعطيل البرلمان ستة أشهر أخرى، وطرد الحكومة الحالية لحقي العظم. ودعوة الشيخ تاج المرن -

رغم أنه لا يعتمد عليه - إلى تأليف حكومة جديدة. وفي الواقع لم يتم اختياره اعتباطاً، وإنما بجهود منه، فقد توجه إلى باريس في الصيف الماضي، بحثاً عن دعم ليتمكن من العودة إلى العمل السياسي بعد غياب دام عامين.

أرغمت عودة الشيخ تاج إلى الحكم، الجناح المتعاون من الكتلة الوطنية مع الفرنسيين على إسقاط فكرة استئناف المفاوضات نهائياً. بدا وكأنه سيكون قادراً بتنازلاته على سرقة المفاوضات والمعاهدة الموعودة، فأثاروا من جديد تهمة الخيانة ضده، وجعلوها لصيقة باسمه، وأعادوا إطلاقها في الصحف والشارع، بحيث عندما ذاع نبأ تعيينه رئيساً للوزراء في 17 آذار، أغلقت الأسواق في المدن أبوابها تلقائياً.

لكن مخاوفهم لم تتحقق، كان الفرنسيون يريدون تجميد الأوضاع فقط، فاستمرت حكومة الشيخ تاج عامين تقريباً، لم تتخذ خلالهما مبادرات مهمة، وكانت في الواقع وكالمعتاد عرضة للتجاوز بانتظام من قبل المندوب السامي وأركانه. وكرس الكونت دو مارتل معظم اهتمامه للمسائل الاقتصادية، بزعم وضع أسس لإنعاش الاقتصاد في سورية، ورفض تحت هذا الزعم الإصغاء إلى المطالب السورية. وتركها للوزارة المقيدة التي برع الشيخ تاج وبرحابة صدر في تحمل عواقبها من وطنيين تزايد إحباطهم، تجلت في مظاهرات عمت أرجاء سورية، مما جعل مدينة حلب تستقبل زيارته بالمتفجرات والاضرابات، فجرى اعتقال 188 شخصاً، حكم على 57 منهم بالسجن مدة وصلت عند البعض إلى ثمانية أشهر، وكان من بينهم ثلاثة من زعماء الكتلة.

تكرر هذا المشهد مراراً، وبتوتر أشد، حالما عطّل دو مارتل البرلمان إلى أجل غير مسمى في 2 تشرين الثاني 1934. مما جعل رجالات الكتلة يتوحدون ويخوضون معركة ضد الانتداب بلغت أوجها في مقاطعة جديدة لشركة الكهرباء والترام في دمشق. وكانت المقاطعة علامة دلت على أن المزاج الوطني قد تحول من الإحباط إلى الغضب الشديد، فقد مضى على الثورة الكبرى عشرة أعوام دون أن يتحقق إلا القليل من التقدم نحو الاستقلال.

في ذكرى المولد النبوي، سوف تعيد دمشق المأثرة التي قدمتها حلب، ويرفض قادة الوطنيين السماح لرئيس الوزراء وصحبه بدخول المكان الخاص

على السدة المحجوزة في المسجد الأموي لأعضاء الحكومة لأداء الصلاة. وبعد تأدية الشعائر، ألقى عدد من الوطنيين خطابات حماسية، ثم حملهم رفاقهم إلى خارج المسجد ومشوا بهم في سوق الحميدية وسط هتافات المتفرجين، والأصوات تتعالى منددة بـ«عدو الله». ومع تصاعد الحملات ضد الانتداب والحكومة، طلب دو مارتل من الشيخ تاج تقديم استقالته، وطلب من عطا الأيوبي تأليف حكومة جديدة، فضم إليها ثلاثة من الوطنيين المعتدلين، وأفرج عن بعض المعتقلين، واقترح العودة إلى الحياة البرلمانية.

قدَّم الشيخ تاج استقالته، وسافر إلى أوروبا، تنقل بين عواصمها، وأنهى تطوافه بإقامته في باريس، وبقي فيها إلى قيام الحرب العالمية الثانية، ثم رجع إلى دمشق، ليعهد المندوب العام لفرنسا في الشرق في 12 أيلول 1941 إليه بمهمة رئاسة الجمهورية السورية. وكان ذلك بعد هزيمة فرنسا في الحرب، والتهديد بفقدانها مستعمراتها في الشرق، كان عليها أن تقدم شيئاً للوطنيين، فأصدر كاترو في حزيران 1941 وعداً بالاستقلال، جدده في 27 أيلول بإعلان الاستقلال، لكن الوطنيين فندوه، إذ كيف يمكن أن يكون استقلالاً في حين استثنيت منه سيطرة سورية الكاملة على الجيش أو قوات الشرطة، أو الخدمات العامة، أو الشؤون الاقتصادية، أو الاتصالات؟ وأخذت ضغوط الوطنيين ومعهم البريطانيين ضد الوجود الفرنسي في سورية تتزايد، فتعين على الفرنسيين أن يقدموا شيئاً يتعدى الكلام بشان مسألة الاستقلال؛ فتقدموا خطوة أخرى، استُعيد من خلالها الدستور السوري، وحل مجلس وزراء محل المديرية التي كان على رأسها خالد العظم، على أنه كان لمنصب رئيس الدولة، أهميته بوجود الشيخ تاج المرن بصورة لافتة للنظر، وإلى سيطرته على وزارة كان يجب في هذه المرحلة أن تكون مكبلة. ومن ثم أغاظ الوطنيين أنَّ الوزارة تشكلت من غيرهم، على الرغم من وطنية رئيس الوزراء حسن الحكيم الحليف الأكبر للشهبندر، والخصم الأول للفرنسيين.

بعد تشكيل الوزارة، بدأ الطرفان يتبادلان الانتقادات، فانتقد رئيس الوزراء حسن الحكيم رئيس الدولة الشيخ تاج، بالتدخل الفاضح في شؤون عمله، وبمحاباة أقاربه، فيما صعَّد الوطنيون المعتدلون هجومهم على الحكومة، وأقاموا البرهان على فشلها في حل مشكلة النقص في الخبز، ومشكلات اقتصادية أخرى.

كما اشتد الاضطراب في المدن بسبب الخلل المتكرر في معالجة احتياجاتها الأخرى، من ارتفاع تكاليف النقل العام، إلى عجز الرواتب الحكومية عن مجاراة معدل التضخم، وانتشرت على نحو واسع الاضرابات التي نفذها طلاب المدارس والجامعة والعمال. وكان التطور الإيجابي الوحيد هو إعادة اللاذقية وجبل العرب في شباط إلى سلطة الحكومة السورية.

لم يطل الوقت عندما انفجرت أزمة وزارية، أجبر فيها الشيخ تاج رئيس الوزراء حسن الحكيم على التنحي، وحل محله حسني البرازي، وهو ملاّك حموي ثري، وأحد كبار المتنفذين، ضمت وزارته عدة وطنيين لم يكن أحدٌ منهم من الكتلة الوطنية. أمضت الوزارة مدة ستة أشهر على تفاهم مع رئيس الجمهورية تاج الدين وسلطة الانتداب، إلى أن بدأ الخلاف حول العلاقة مع الانتداب، إذ كان البرازي يصرح بترجيح موالاة بريطانيا التي أصبح لها نفوذ قوي في المنطقة. بينما ثابر رئيس الجمهورية على صلاته الحسنة بفرنسا، ودام هذا الخلاف ثلاثة أشهر، كثرت خلالها اتصالات البرازي بالجنرال البريطاني سبيرس.

في أوائل عام 1942، بات البريطانيون متحمسين لفكرة التعامل مع شكري القوتلي، كزعيم وطني للكتلة يتمتع باحترام كبير، لكن الجنرال الفرنسي كاترو رفض السماح له بالعودة، زاعماً أنه كان محرضاً خطراً بيد دول المحور، وسوف يزعزع بعودته استقرار حكومة البرازي الممزقة بسبب خلافاته مع الشيخ تاج رئيس الدولة. لكن الضغط البريطاني سينجح بعد تعهدهم بعدم إثارة القوتلي لأيٍّ قلاقل، ومن ثم سيدعو كاترو القوتلي للعودة دونما شروط، غير أنَّ البريطانيين هم الذين سيشترطون عليه عدم الإتيان بعمل يمكن أن يسبب لهم حرجاً مع الفرنسيين. الأمر الأكيد هو أن القوتلي سيكون رجل المرحلة الأخيرة من التواجد الفرنسي في سورية، والبريطانيون أدركوا قبل الفرنسيين بأنه رجل الاستقلال السوري.

في ذلك الوقت، توضح للفرنسيين أن الرئيس الحسني وحكومة البرازي لم يكونا متناحرين فحسب، بل كانا فاقدي الشعبية أيضاً. فقام الشيخ تاج ليكسب ثقة الفرنسيين ويطمئنهم، بإقالة وزارة البرازي، وكلف صديقه السياسي الماكر جميل الألشي بتشكيل حكومة ثالثة في 8 كانون الثاني 1943.

المحاولة كانت متأخرة، ولم تنجح كما قدَّر لها صاحبها، فقد شاءت الأقدار ألاّ تدع للفرنسيين فرصة للتفكير بطريقة تبعده عن الرئاسة، أو العمل على إفشال حكومته، إذ بعد مضي أيام قليلة على ممارسة الوزارة لصلاحياتها، توفي رئيس الدولة الشيخ تاج الدين الحسني صريع مرض مفاجئ، حار فيه الأطباء، وكان ذلك في 17 كانون الثاني سنة 1943، حتى أنَّ الصحافة أثارت الشكوك حول وفاته السريعة والغامضة، إلى حد التكهن بأنه مات مسموماً! فسارع الجنرال كوليه ونعاه: «لقد فقدت فرنسا بموته صديقاً مخلصاً».

سُئِل يوماً رجل الدولة والإداري المعروف عارف النكدي عن أكفأ رئيس حكومة ووزير رآهما في المدة الطويلة التي قضاها في مختلف مناصب الدولة حتى بلغ أعلاها؛ فأجاب فوراً دونما تلكؤ: «إنه الشيخ تاج في الرؤساء لأن فيه أخلاق الرئاسة وهي الحلم والعفو عند المقدرة، وجميل الألشي من الوزراء لسعة تدقيقه فيما يعرض عليه وانكبابه على العمل وإطلاعه على دخائل الأمور حتى يعرف أسبابها علماً وواقعاً». ولقد توفي جميل الألشي بعد الشيخ تاج بسنوات قليلة، فنعاه نجيب الريس في القبس بقوله: «مات أول سياسي تمرد على الشارع». في كلمة الريس، يكمن الرابط الذي جمع بين الحسني والألشي، وهو معارضة الشارع لهما، فقد أثار الوطنيون الناس ضدهما على الدوام، رغم محاولاتهما كسب الشعبية حتى بالمال وتوزيع الهبات والرشاوى.

كان الشيخ تاج على الرغم من مواهبه السياسية المتواضعة رجل نظر وعمل، وكان في الواقع رجل الأوقات الضائعة، تلك الأوقات التي يعجز فيها الفرنسيون عن القيام بعمل، فيتقصدون تجميد الأوضاع وإبقاء الأحوال على ما هي عليه، بينما الشارع السوري يضج ويغلي مطالباً بحقوقه الوطنية والسياسية، أو تحسين أحواله الاقتصادية. في تلك الظروف كانوا يلجؤون إلى الشيخ تاج، كما حدث بعد تعطيل البرلمان، وعدم قدرتهم على التجاوب مع المطالب السورية، أو عندما سيطرت الكتلة على الشارع. كان الفرنسيون يدفعون بالشيخ تاج إلى الواجهة ليتلقى أكثر من نصيبه من الاتهامات والمظاهرات والاضرابات؛ لكنه في الوقت نفسه لم يكن يعدم الحيلة ليحصل على بعض المكاسب الوطنية.

ربما كانت مأساة الشيخ تاج، كما مأساة الكثيرين، وهي طموحه إلى السلطة، فمنذ نشأته في العهد العثماني. سار في ركاب الأتراك، وذهب إلى استانبول في وفد (الرحلة العلمية) وخطب أمام مختلف الزعماء الاتحاديين ودعا لهم بالنصر. وفي عهد الملك فيصل تولى القضاء الشرعي مع أنَّ كفاءته العلمية لم تكن لتساعده على الاضطلاع به، فترك الفصل في الدعاوى القضائية للقضاة المساعدين. أما التدريس في كلية الحقوق، فعجز عنه وتركه، وظل يعمل في سبيل الوصول إلى الحكم، فسار في ركاب الفرنسيين إلى أن نجح في تشكيل وزارة 1928 و 1932، وأصبح أخيراً رئيساً للجمهورية. لكن البقاء في السلطة، كان ثمنه مكلفاً، ودفع ثمنه باهظاً، فكان متنفساً - بحق ومن دون حق - لاحتقانات الجماهير، وهدفاً دائماً لاتهامات الوطنيين له - بسبب ومن غير سبب - بالتخوين والعمالة، وكانت أحياناً مغالاتهم في اتّهامه وسيلة لإثبات وطنيتهم، ومسوغاً لكسب الشعبية. لم يكن الشيخ تاج خائناً ولا عميلاً للفرنسيين. فقد تعاون معه أناس كانوا من الوطنيين المتطرفين كحسن الحكيم وفائز الخوري ومصطفى الشهابي، كذلك من خيار الناس كمحمد العايش وفيضي الأتاسي وخليل مردم بك وغيرهم كثير.

أدرك الفرنسيون شهوته إلى السلطة، فاستغلوا طموحه مثلما استغل حاجتهم إليه. لم يأخذه الوطنيون على محمل الجد، كان قادماً من خارج السياسة؛ من المشيخة، مع أن مشيخته كانت لاعتبارات محلية، وبالاعتماد على سمعة أبيه. لم يثبت أهليته حتى لمناصب رسمية، فكانوا واثقين من فشله الذريع، لكنه لم يخفق في تحقيق آماله، وكما رسمها بالضبط، وتمكن من الوصول إلى أعلى منصب في الدولة.

وقد سُئل الوطني والسياسي المعروف فارس الخوري عن الشيخ تاج الدين الحسني، وصحة ما كانت تروجه عنه الكتلة الوطنية من أنه صنيعة الفرنسيين وممالئاً لسياستهم الاستعمارية، أجاب: «لم يكن تاج الدين كذلك، كان وطنياً سورياً مخلصاً وعاملاً بارزاً في الحقل العام.. إلا أنه كان يختلف عنا معشر رجال الكتلة بالاجتهاد، فيقول ليس بالامكان أبدع مما هو كائن، ولذا فإنه كان يتظاهر بالتفاني بصداقته للفرنسيين لجلب أكبر نفع لبلاده، ودرء ما يمكنه درؤه من الضرر، إضافة إلى أنَّه كان عمرانياً كبيراً خلّف آثاراً كثيرة في مختلف أنحاء الوطن السوري ناطقة بفضله».

استطاع تاج الدين الحسني أن يمثّل الاعتدال والمسايرة في زمن ينبذ الاعتدال ويحارب المسايرة، وكان مسلكه هذا في منتهى المشقة، لكنه جعله ميسوراً، لأنه نظر إلى السياسة كلعبة تقبل التقدم والتراجع، والمناورة والمداورة، والليونة وبعض التصلب. لم يعبأ بالمبادئ، وإنما انشغل بالواقع، كيف يستحصل منه على المتاح، ولو كان قليلاً، وأحياناً غير كاف، وبل وزهيد. المهم بالنسبة إليه، أن يحقق شيئاً قد لا يكون انتصاراً، وإنما شبه انتصار، أو شبه هزيمة. المثير أنه أجاد لعبة السياسة علناً، بينما غيره لم يجِدها سوى بالوعود والأكاذيب، دونما تحقيق شيء ملموس. ولا ننسى أيضاً طبيعة شخصيته المهادنة والمساومة، فجارى الفرنسيين بحدود معقولة وأحياناً غير معقولة، وكلاهما أغضبا الوطنيين، لكنه لم يتنازل عن المسألة الجوهرية وهي وحدة سورية واستقلالها.

فواز حداد

سلطان الأطرش

قائد جيوش الثورة السورية

(1891-1983)

الحقيقة أن لسلطان كثيراً من الصور التُقطت خلال معظم سنوات عمره؛ غير أن أكثرها تعبيراً عن شخصيته هي تلك التي أُخذت في سن النضج؛ وفيها يظهر سلطان بالأبيض والأسود متوسط العمر بشاربين أسودين متناسقين؛ ينتهيان - حسب النمط السائد في ذلك الوقت - إلى نهايتين مدببتين.

لا جديد هنا، ولكن القوة الحقيقية ثابتة ومركزة في العينين، فإذا كانت العينان بوابتي الدخول إلى العالم، كما يقول القديس أوغسطينوس، فإنهما هنا تمنحاننا فرصة اختبار خصال الشخصية؛ واكتناه طباعها، وصياغة أو صيانة استجاباتنا تجاهها.

لا تمنحك صورة الأبيض والأسود معرفة باللون الحقيقي لعيني سلطان؛ غير أن بإمكان المرء أن يتكهن أنهما ملونتان؛ ثم سوف يعرف أنهما زرقاوان، وربما كانت الزرقة فيهما هي التي جعلت الكابتن كاربيه يقول حين التقى سلطان أنه: «كان ذا نظرات صوفية قليلاً ومشرقة». وهو رأي صائب وغريب، والغرابة فيه أنه صادر عن ضابط فرنسي لم يعرف سلطان جيداً؛ ولم يكن يحبه قطعاً.

ومع ذلك فإن استقصاء حياة سلطان الأطرش يكشف لنا أنه كان ميالاً إلى ما يشبه التصوف أو الزهد؛ وهو زهد تكشف في المستوى اليومي عن سلوك بسيط في العيش؛ وتقشف ريفي دفعه لكي لا يتمايز عن فلاحي بلدته (على الرغم من ملكيته الواسعة)، فيبني داراً على الطراز التقليدي المتكرر في قرى المنطقة كلها: مضافة للزوار، وبضع غرف متقابلة ومكشوفة. أمّا على المستوى القيادي فإن الرجل أثبت دائماً أنه زاهد في السلطة، وفي الشهرة؛ وليس في المشاركة السياسية بالطبع، فمنذ الساعات الأولى لانطلاقة الثورة السورية الكبرى ردد كلاماً لم يكن موجوداً في الأجَندات السياسية لأكثر القادة العسكريين

والسياسيين آنذاك؛ فقال في تصريح صحفي ما يلي: «لا يمكن لأحد أن يتصور بأن سلطان سيكون رأساً للبلاد، بل أرغب أن أطهر البلاد أولاً، ثم أسلمها لمجلس وطني عام يسن قوانين البلاد، وينتخب من يشاء». وقوّة هذه الكلمات لا تكمن في نزوعها الديمقراطي، أو لنقل في ليبراليتها، وإنما في أنها كانت تحاول أن ترسخ بياناً جديداً للقيادات السياسية، ينحو بها نحواً تغلب فيه الاعتبارات الوطنية و(الديموقراطية) على كل ما عداها من مطامح حزبية أو طائفية أو عشائرية. أما مصداقية كلمات سلطان الأطرش، فقد أكدتها التجربة والممارسة العملية مراراً؛ فلم يبدِ في أي يوم رغبة في المناصب السياسية، إما بسبب الزهد بها، وإما بسبب يقينه من أن بإمكان زعماء آخرين لديهم المعرفة والخبرة في إدارة الشؤون العامة استلام السلطة والحكم، دون أن يخفي في أي يوم آراءه السياسية.

على أي حال، فإن انتشار صوره - إذا ما عدنا إلى موضوع الصور- في محافظة السويداء لا يشير إلى زعامته العشائرية وحدها أو انتمائه المذهبي للأكثرية القاطنة فيها؛ وإنما إلى التمثيل الرمزي الذي له في الذاكرة الجمعية للناس هنا دون غيره من الزعماء العشائريين المعروفين في المنطقة؛ بل لقد وجد من ينازعه رأس الزعامة، أو يرى أنه أكثر أهلية وعراقة ونسبا منه في الصدارة العشائرية، والطائفية أيضاً.

ومن المعروف أن الزعامات العشائرية تتوارث سلطة قيادة القبائل؛ وتحافظ عليها في الأنساب، بصرف النظر عن سمات شخصية الزعيم، ولكن اختيار سلطان، أو انتقاله من الزعيم العائلي إلى مرتبة القائد الوطني؛ استلزم جملة من الشروط الذاتية والموضوعية معاً؛ وهي ما ستكون مضمون كلامنا هنا.

تتحدث أكثر من قراءة في سجله الشخصي عن شجاعته، وجرأته، وفروسيته التي تجمع بين مآثر المقاتل الماهر والرومانسي النبيل. ويضيف آخرون خصالاً أخرى مثل نظافة اليد، والنزاهة، إضافة إلى خصال أخرى تبدو متناقضة كالعناد والتسامح، والحزم والرقة، ويمكن أن نذكّر بطبائع وسلوكيات ومواقف أخرى لاينى يرددها كثيرون ممن عرفوه شخصياً، أو تناقلوا الحكايات عنه.

والحقيقة أننا لا نعدم وجود أي خصلة من هذه الخصال الطيبة لدى كثيرين من أقرانه وأترابه، ورفاق دربه، فالفروسية مثلاً كانت في بدايات القرن العشرين -

وربما حتى العشرينات منه ـ نظاماً للحياة في أكثر مناطق الريف السوري؛ وعلى الرغم من أن سكان الريف ـ ريف الجنوب ـ فلاحون، فإن مقتضيات العيش اليومي من جهة، حيث غياب الدولة، ووسائل الأمن، وطبيعة الانتماءات ذات الطابع القبلي، ونشوب صراعات عائلية وعشائرية وطائفية مركزها ملكية الأرض، ومنابع الماء؛ ومصالح الزعماء، وغير ذلك. أقول إنّ تلك المقتضيات كانت تتطلب من الشباب والرجال النظر إلى الفروسية: ركوب الخيل، وتعلم القتال بالسلاح الأبيض، والتدريب على استخدام الأسلحة النارية، على أنها ضرورة دون أن ننكر أن هذه الضرورة كانت تتحول إلى فعل إغواء للخيلاء والتباهي وإثارة الغيرة والحسد، والتماس إعجاب الفتيات.

لاحقاً نرى أن الشجاعة (أو استنساخ الشجاعة) ستكون من التكاليف اللازمة لمسالك الفرسان؛ وعلى تخومها تقف خصال أخرى مثل شرف الكلمة، والصدق، والوفاء، ويمكن إضافة العديد من الدعامات الأخلاقية المطلوبة لدى الزعيم أو الفارس أو الرجل بوجه عام.

أما حين تجتمع جملة من الشروط والمعايير العرضية والجوهرية معاً في شخصية واحدة؛ ثم تنخرط هذه الشخصية ـ بفضل بنية نفسية وروحية متينة، ونشأة خاصة ـ في شأن ذي طابع جمعي كالثورة الوطنية مثلاً، فإن الأمر يبدو كأننا أمام استجابة خفية لمتطلبات التاريخ!.

ليس لدينا تاريخ نهائي لسنة مولده، ويمكن القبول بعام 1891 مع زيادة سنة، أو نقصان أخرى، حسب بعض المؤرخين. في تلك السنوات كانت السلطنة العثمانية تمر في عهد سماه المؤرخون (عهد الظلم). فقد اغتيل مدحت باشا أبو الدستور العثماني، وعُطل البرلمان والدستور معاً، وأضحى السلطان عبد الحميد حاكماً مطلقاً، يسخر العقيدة والدين والتعاليم السياسية من أجل تأبيد سلطته؛ وفي تلك السنوات أرسلت السلطنة حملة تأديبية إلى الجبل بقيادة ضابط متشدد هو ممدوح باشا؛ ويبدو أنّهُ تمكن ـ ولأول مرة ـ من جمع السلاح الموجود في أيدي الناس، وسوق الشباب إلى الجندية، ثم قبض على بضعة زعماء، ونفاهم خارج البلاد، ومنهم والد سلطان نفسه.

وطوال السنوات التالية كانت البلاد تشهد هبات وانتفاضات متفرقة؛ تقابلها حملات عسكرية متكررة لإخضاع المنطقة والسيطرة عليها.

وسط هذا المناخ الضاغط اضطرت أسرة سلطان للابتعاد عن مجال نفوذ السلطة العثمانية؛ وبسبب الهروب المتواصل ظل سلطان بلا تعليم أمياً لا يعرف القراءة والكتابة؛ غير أن هذا الشاب الأمي نفسه سوف يعود من الجندية التي أرغم على تأديتها في الروملي متعلماً، لا يقرأ ويكتب وحسب، بل يستطيع هو ورفاقه في الثورة السورية الكبرى لاحقاً، «صياغة» بيان وطني من أفضل وأكثر البيانات السياسية استقامة ونزاهة في تاريخ سورية الحديث والمعاصر؛ وهو بيان إعلان الثورة.

ثمة أمر لافت آخر في شخصية سلطان الأطرش؛ وهو أنه لم يتعلم الفنون العسكرية في أي مدرسة أو معهد أو أكاديمية؛ ومع ذلك فقد برهن في المعارك الكثيرة التي خاضها ضد الجيش الفرنسي لاحقاً أنه يملك كفاءة غير عادية في إدارة القتال؛ والكلام هنا لا يدور حول الجرأة والشجاعة في اقتحام أرض المعركة وحدها؛ بل حول تكتيكات الهجوم والتراجع، بناء الكتائب المقاتلة، اختيار المواقع الملائمة للاشتباك؛ أي حول الأساليب عموماً، ومن المعروف أنه لم يخض حرباً نظامية ضد الجيش الفرنسي أبداً، واختار بدل ذلك نهجاً أقرب ما يكون إلى حرب «العصابات»، والطريف أن الفرنسيين أطلقوا على سرايا الثورة الصغيرة المقاتلة اسم (العصابات)، بمعنى قطاع الطرق واللصوص، والخارجين على القانون.

والحقيقة أن سلطان بدأ هذه الحرب منذ بداية العشرينات، واستمر يقود رجال الثورة حتى نهاية ذلك العقد تقريباً؛ والمعروف أن واحدة من أهم معارك الثورة السورية الكبرى، وهي معركة المزرعة، قد حسمت بفضل الهجمات المتقطعة، والمتكررة، وشبه الدائمة، طوال أكثر من ثمان وأربعين ساعة لمجموعات لا تعد من (عصابات) الفرسان، على الجيش النظامي الفرنسي المدجج بالأسلحة الثقيلة، الخطط العسكرية، وطوابير المؤن، والذخائر، والمتقدم نحو السويداء على طريق معبد وشبه مستقيم، سبق أن شقته السلطات الفرنسية، لتسهل تحرك قواتها.

ويبدو أن الفترة التي أمضاها في الجندية كانت مثمرة جداً؛ فقد خدم في الجيش العثماني المولج بإخماد الثورات في البلقان، والراجح أن الشاب الذي تعلم

القراءة والكتابة هناك، قد استوعب درساً في الوطنية لقنه إياه ثوار تلك البلاد الذين كانوا يقاتلون من أجل حريتها واستقلالها: هذا فضلاً عن أساه بسبب اقتياده مع الآلاف من العرب، لمقاتلة شعوب البلقان الثائرة؛ وغضبه من أن آلة القتل ذاتها هي التي تدفع أبناء البلقان وغيرهم للتنكيل بأهله في سورية كلها عامة، وفي الجبل خاصة. وحين عاد بعد ثمانية عشر شهراً، عرف أن القائد العثماني من أصل عربي سامي باشا الفاروقي؛ قد أعدم أباه وخمسة آخرين من زعماء الجبل في أول قافلة أمّت ساحة المرجة الدمشقية من قوافل شهداء الحرية في سورية.

ولأنه أكبر إخوته فقد غدا بعد عودته (رجل البيت)؛ وهذا يعني أنه (شيخ القرية) وفق النظام العشائري السائد؛ ومعنى هذا أيضاً أن عليه مواجهة المهام الملحة فوراً، وأبرزها التصدي للسلطنة العثمانية.

وهكذا أُعدت الظروف لاستقبال سلطان وامتحانه كزعيم وقائد: تجربة الجندية، حرب البلقان، خسارة الأب الشهيد، الصراع مع السلطنة العثمانية، كل ذلك حسم مواقفه. فبعد هذا بسنوات قليلة، أعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك، فانضم سلطان إلى الثورة انسجاماً مع قناعاته وخياراته.

موقفه هذا حسم موقعه القيادي في العائلة والمنطقة أيضاً؛ فعدد كبير من أمراء آل الأطرش كان موالياً للسلطة العثمانية؛ وقد استطاعوا تحييد قسم من السكان بفضل الولاءات العائلية والعشائرية؛ ومنذ تلك اللحظة بدأ اتصالاته مع الأمير فيصل بن الحسين؛ ورفع العلم العربي فوق داره، في إشارة ذات طابع تنبؤي إلى انتصار الثورة؛ وفي تحدّ علني للسلطة العثمانية التي لم تكن قد ترنحت بعد.

ويقول منير الريس في كتابه «الكتاب الذهبي للثورات السورية» إن سلطاناً كان أول من رفع العلم العربي في دمشق المحررة، وقال الريّس أيضاً إن مصطفى كمال نفسه كان يشاهد من نافذة غرفته في فندق فكتوريا العلم العربي وهو يرتفع فوق دار الحكومة؛ حدث هذا مساء الثلاثين من أيلول عام 1918، غير أن العلم العربي الرسمي المسلم من الشريف حسين إلى الأمير عبد القادر الجزائري؛ رُفِعَ في الأول من تشرين الأول عام 1918 من قبل الأمير محمد سعيد شقيق عبد القادر؛ أي صباح اليوم التالي.

غير أنه لم يبق في دمشق المحررة طويلاً، عاد إلى الجبل بعد أن نال لقب «باشا» من الشريف حسين؛ ووطد صداقة متينة مع الأمير الملك فيما بعد ـ فيصل بن الحسين. وصداقته هذه مكنته من معارضة مفاوضات فيصل مع الفرنسيين، وانتقاد اتفاقه مع (كليمنصو) في 7 كانون الثاني 1920. وهو اتفاق تضمَّن أول الشروط التي سمحت للفرنسيين بالتغلغل في سورية حين قبل فيصل (باسم سورية) المعونات؛ والمستشارين الفرنسيين، وأولوية التعهدات والقروض المالية، وكان رأي سلطان أنه «لا جدوى من التفاهم مع الفرنسيين»، والمرجح أنه كان قد عرف تفاصيل اتفاقية (سايكس بيكو) أو فكرة عنها. وهي الاتفاقية التي اقتسم فيها الفرنسيون والبريطانيون المشرق العربي؛ غير أن البريطانيين كانوا أكثر دهاء، و«حكمة» في إدارة سياساتهم من الفرنسيين آنذاك، دون أن يعني هذا أي تبديل في معاهداتهم واتفاقياتهم المشتركة لتوزيع ما عرف بتركة الرجل المريض: (السلطنة العثمانية).

وفي كل الأحوال فإن معارضته لسلوك فيصل والسياسيين الآخرين التفاوضي مع فرنسا بالذات؛ نجم ـ إضافة إلى ما عرف من أسرار السياسة ـ عن التوجس أو الحدس، أو الحس الداخلي العميق الذي تقوده بوصلة فطرية أصيلة؛ فقد كان بعيداً عن الأحزاب والتجمعات السياسية؛ ولم ينتم إلى أي جمعية من الجمعيات الوطنية التي تأسست في أواخر عهد السلطنة العثمانية، دون أن يمنع كثيراً من أصدقائه وأعوانه من الانتساب إلى أي واحدة منها.

ومآل فيصل كان بليغاً في استخلاص الدروس السياسية؛ فقد دُفنت جميع مفاوضاته واتفاقاته مع الفرنسيين تحت أقدام الجيش الفرنسي الذي احتل الساحل السوري من وراء شقوق عقوده وتعهداته له.

بل إن فيصل وجد نفسه مشلولاً بعد تسارع الأحداث، وسرعان ما وصل إنذار غورو الشهير، فقبل به الملك فيصل، وقد رفض سلطان منطق الإذعان للشروط والإملاءات الفرنسية؛ وسارع إلى تشكيل جيش من الفرسان والمشاة لنجدة الجيش العربي في دمشق؛ وحين وصل إلى بصرى الحرير في حوران علم أن فيصل مرّ بدرعا متجهاً إلى الأردن.

رغم ذلك فإن خصاله الفروسية وميوله الوطنية دفعته لدعوة فيصل للعودة إلى سورية والاستقرار في الجبل من أجل مواصلة الكفاح ضد الفرنسيين؛ غير أن السلطات البريطانية التي كانت تحتل شرقي الأردن أرغمت مبعوثي سلطان على العودة إلى سورية حالاً.

ولاشك أنّ انهيار الدولة العربية من جهة؛ واندفاع السلطة الفرنسية المنتدبة إلى سياسة تقسيم سورية إلى دويلات؛ هي التي دفعته للمشاركة في الإجماع الوطني على رفض الانتداب الفرنسي؛ وإعلام لجنة (كنغ كرين) التي شكلتها الأمم المتحدة في أيار 1919 من أجل معرفة رأي الشعب السوري؛ ورفض سلطان من ثم مشروع الدويلة الدرزية الذي تم إقراره من قبل فرنسا من جهة؛ وبضعة زعماء ورجال دين من الجبل عام 1921. وأفصح عن رفضه في الاجتماعات التشاورية المكثفة التي أجراها مع عدد كبير من أبناء القرى والبلدات في الجبل؛ وقد أقلقت تحركاته الفرنسيين، فحاولوا الضغط عليه من خلال قريبه حاكم الجبل المعيّن من قبلهم الأمير سليم الأطرش؛ ثم أرسلوا مندوباً فرنسياً للاجتماع به، وإقناعه، ولكن دون جدوى، فلا هو لان وأطاع، ولاهم نفذوا مطالبه.

غير أن سلطاناً لم يكن قد بدأ بعد أي تحرك ذي طابع عسكري ضد الفرنسيين؛ وإذا ما طرح السؤال المشروع: لماذا؟ فإن أكثر الأجوبة ملاءَمةً، هو القول بغياب الظروف الموضوعية والذاتية لمثل هذه التحركات؛ فللقيام بعمل أو أعمال عسكرية ضد المحتل يجب أن تتوفر جملة شروط. منها: تحشيد الناس، وفحص استعدادهم للثورة، وتسليحهم، وتدريبهم، ودراسة المنطقة السياسية، وطبيعة القوى فيها، وحجمها، ونطاق أهليتها... الخ. ويبدو لي - رغم عدم توفر الأدلة حول هذه المعطيات - أن هذا ما فعله بالضبط. ولذلك فإن قضية (أدهم خنجر) إنما كانت الشرارة الضرورية المنتظرة للقيام بعمل ما ضد الاحتلال.

لكن العمل الأول لم يكن (الثورة) بالضبط، وإنما نوع من جس النبض؛ نبض الناس من جهة، ونبض السلطة المحتلة من جهة ثانية، وفّره له حادث اختطاف أدهم خنجر من بيته، ومصيره الفاجع عقب ذلك.

وأدهم خنجر ثائر لبناني، فرّ إلى الأردن بعد محاولة فاشلة لاغتيال الجنرال غورو أثناء زيارته لأحد زعماء العشائر البدوية؛ كان برفقة عدد من الثوار، وقد

صدر ضدهم وضد أدهم خنجر بالطبع حكم بالإعدام؛ وذات يوم قدم إلى الجبل ليطلب حماية سلطان الأطرش، لا نعرف أسباب اختيار أدهم خنجر سلطان الأطرش حصراً، في وجود عدد كبير من الزعماء الأقوياء في الجبل، وفي وقت لم يكن سلطان قد أصبح قائداً، والرسالة التي بعث بها إليه يستنجد به لا توضح شيئاً غير الاستغاثة: «كنت قاصداً دياركم العامرة لأجل أن أحتمي بها من نوائب هذا الزمان» غير أنه لم يصل إليها، فقد قُبض عليه أمام دار سلطان، وسيق إلى السجن في وقت كان سلطان غائباً عن المنزل.

عاد مسرعاً حين وصلته رسالة أدهم خنجر، وخلال بضعة أيام أجرى اتصالات واسعة، وأرسل كتباً ورسائل إلى أكثر من شخص، بينهم المندوب السامي الفرنسي الجنرال (غورو) نفسه دون جدوى، فقد أصرت السلطة على احتجاز أدهم خنجر، وإرساله من ثم إلى دمشق.

عندئذ قرر سلطان إغلاق طريق دمشق السويداء، مستعيناً بقوة ضئيلة من الرجال في خطوة ارتجالية، وظرف غير ملائم، وفي غياب الاتصالات والتنسيق مع أي حزب أو قوة وطنية سورية أخرى، وردّ الفرنسيون بإرسال قوة مؤلفة من كتيبة لحماية موكب السجين، ولكن سلطان ورفاقه هاجموها، وقتلوا ضابطاً وثلاثة جنود، وأسروا أربعة آخرين.

كان صدى تلك المعركة المبكرة قوياً في الحياة السياسية السورية، فبدأ الشيخ محمد الأشمر مساعيه للعمل على إيجاد تفاهم مشترك بين القوى الوطنية في دمشق والجبل؛ كما تقدم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر بمشروع توفير مرتبات شهرية للثائرين مع سلطان الأطرش.

وفي الشعر كان الشاعر القروي أول من كتب يشيد بها، وقال في مديح سلطان:

خففـت لنجـدة العـاني سـريعاً   غضـوباً لـو رآك الليـث ريعـا

وفي المقابل أوعزت فرنسا لمؤيديها في الجبل كي يجروا مفاوضات مع سلطان؛ وقد نجم عنها اتفاق لفك الحصار عن السويداء لقاء تسليم الأسرى الفرنسيين؛ ووعد بإعادة أدهم خنجر إلى سلطان، لكن فرنسا أخلّت بالاتفاق بعد

أن نفذ سلطان الجزء الخاص به منه؛ ليكتشف بعد ذلك أن الفرنسيين أرسلوا أدهم خنجر إلى دمشق، ثم إلى بيروت، حيث أعدم.

وسرعان ما أغارت الطائرات الفرنسية على منزل سلطان، فدمرته، ودمرت منازل المقربين إليه، ومعاونيه، وبدأت الحكومة المحلية بالاقتصاص ممن نزل في بيوتهم، وفرضت الضرائب عليهم، وتمكنت السلطة الفرنسية من استصدار تعميم من مشيخة العقل تدين سلطان، وتطلب رفع الحماية الشعبية عنه، كما بدأت تقصف القرى التي يُشتبه أن سلطان مرّ فيها، أمام هذا كله اُضطرّ سلطان إلى مغادرة الجبل لاجئاً إلى الأردن؛ وأقام في ديار بني حسن هناك، ومن هناك بدأ ما سميناه من قبل (حرب العصابات) وهو التكتيك الذي سمحت به، وساعدت عليه؛ طبيعة الأرض الوعرة من جهة، وقلة أنصاره والمقاتلين معه من جهة ثانية؛ قياساً إلى عدد الجيش الفرنسي، وعدّته.

لم يرتفع مستوى الأداء القتالي لسلطان ورفاقه من خلال المناوشات المستمرة ضد الجيش الفرنسي وحسب، بل تغير منظور الثورة، وأهدافها، ومهامها؛ «من غرض إنقاذ لاجئ، إلى رسالة إنقاذ وطني».

ولكن الحكومة البريطانية في الأردن لم تسمح له بالتمادي في غاراته على الفرنسيين؛ ودفعت الأمير عبد الله لمحاولة القبض عليه، غير أن الجنود الأردنيين لم ينفذوا الأوامر، ورفضوا التعاون مع القوة الفرنسية المعدة للإيقاع به.

أثناء ذلك أصدرت السلطة الفرنسية حكماً بالإعدام على سلطان الأطرش؛ ثم أصدرت عفواً عنه مقابل وقف عملياته العسكرية ضدها.

وفي خطوة اقتحامية جريئة، قرر سلطان العودة إلى بلاده. وقد أثبتت الأيام أن قراره لم يكن متهوراً قطّ، بل كان امتحاناً عفوياً للمجال الذي امتدت إليه سلطته الأدبية والأخلاقية بين الناس في الجبل؛ وصادف وصوله إلى السويداء احتفال السلطة الفرنسية والمسؤولين المتعاونين معها بما عرف آنئذ بـ (عيد الاستقلال). وفوجئ المحتفلون أن جميع الحاضرين هناك هرعوا إلى (عين الزمان) وهو مقام ديني جنوب مدينة السويداء، حيث وصل سلطان. كان هذا الاحتفاء هو التصديق العفوي على القيم التي يمثلها الرجل، وهو أيضاً المكافأة

الشعبية التي أكد الناس فيها أن سلطان لم يكن مجرد متمرد ضالّ، وإنما قيمة نضالية مستقرّة في النفوس.

ومنذ تلك اللحظة ارتفع مقام الرجل إلى المجال الرمزي؛ أي إلى أن يتماهى مع منظومة القيم والتقاليد والآمال التي يبنيها الناس عادة داخل ضمائرهم، ويعجزون عن إبدائها، أو إعلانها، أو يفشلون في ترجمتها إلى فعل كفاحي ذي طابع تغييري؛ وسرعان ما ينحازون عفوياً أحياناً، وقصدياً أحياناً أخرى، إلى جهة ما، أو حزب، أو فرد يمثل رمزياً وواقعياً أيضاً تلك القيم مجتمعة، أو أكثرها.

وقد أكد سلطان بعد ذلك اليوم صحة الانحياز الشعبي أكثر من قبل؛ فرفض ألف ليرة ذهبية عرضها عليه (كاترو) تعويضاً عن داره التي هدمها الطيران الفرنسي، ورفض كذلك إعادة بنائها، واكتفى بإصلاح غرفتين لسكن عائلته، وبناء مكان صيفي سقّفه بأغصان الشجر والحصائر لضيوفه، وقال ـ حسب إحدى الروايات ـ: «إن داراً تعجز عن حماية ضيوفها ليست جديرة بأن تظل قائمة» ويبدو أن سلطاناً لم يأت من أجل الاستقرار والراحة، بل من أجل التحضير للثورة، وبالطبع فقد حدس بأن بناء منزل لا معنى له إذا كان سيهدم مرة ثانية، وهذا ما حدث بالفعل؛ إذ تطورت الأحداث، ولم يستطع أن يبني بيته مرة أخرى، إلا بعد عام 1937، وفضل أن يظل معسكراً قرب قريته، وإلى ذلك المكان جاء الكابتن كاربيه ليزوره، ثم كتب يقول: «تقدم سلطان بخطوات طويلة، ورحب بنا بكبرياء مكرهة قليلاً؛ كان رجلاً في الثلاثينات من عمره، ذا قامة مديدة، ووجه شديد الرجولة، لكنه ذو نظرات صوفية قليلاً، ومشرقة».

في صفحة أخرى يعترف كاربيه أنه لم يثق بسلطان، هذا فضلاً عن يقينه بأن الإعداد للثورة أو للانتفاضة السورية كان يجري في كل مكان. وكان هذا صحيحاً، أو حقيقة يعرفها ضابط المخابرات المغرم بالتقارير؛ فدولة الانتداب لم تقم حكمها على أساس طائفي وحسب، بل على أن: «طوائف سوريا تشكل شعوباً منفصلة بعضها عن بعض» فقسّمت سوريا إلى دويلات منذ الأيام الأولى لدخول الجيش الفرنسي إلى دمشق، ولم تستجب فيما بعد لمطالب الوحدة التي لم يخل منها أي بند من بنود ومقررات مؤتمرات الأحزاب والحركات الوطنية السورية.

في تلك الآونة حدث تغيير في القيادات الفرنسية، حين استبدلت فرنسا المفوض السامي اليميني (ويغان) بمفوض آخر ذي نزعة ليبرالية هو الجنرال (ساراي)، وقد بدأ (ساراي) عهده بإلغاء الأحكام العرفية، والعفو عن السجناء السياسيين، وفي المرة الأولى التي يلتقي فيها وفداً وطنياً من وجهاء دمشق، سمع مطالب السوريين: توحيد سوريا في حدودها الطبيعية التي كانت قائمة قبل الحرب، الاستقلال، عقد الجمعية التأسيسية، وضع دستور مبني على أساس النظام البرلماني، الحد من سلطة المستشارين الفرنسيين، إطلاق الحريات الديمقراطية. وعد (ساراي) بدراسة المطالب، وسمح بتشكيل الأحزاب، فتأسس على الفور حزب الشعب برئاسة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر.

غير أن الجنرال (ساراي) خيب آمال السوريين سريعاً، وفي أول نزاع بينه وبين حزب الشعب أمر بحل الحزب، واعتقل عدداً من أعضائه، وحافظ على مشروع الدستور الذي وضعته لجنة حكومية فرنسية تحت إشرافه على نظام التجزئة في سوريا، ومنح المفوض السامي الفرنسي مزيداً من السلطات.

وفي الجبل كان الكابتن (كاربيه) قد عين نفسه حاكماً على الجبل بعد وفاة الأمير سليم الأطرش الحاكم المحلي.

انتحل كاربيه سمات المستبد، فكان يأمر أن يستقبل كإمبراطور، ويرغم سكان القرى التي يزورها أن يخرجوا لاستقباله، ويفرض على القرية التي يتخلف بعض أفرادها عن الاحتفالات غرامات باهظة تصل إلى خمسين ليرة عثمانية ذهبية، ويستخدم السخرة لشق الطرق الاستراتيجية، ثم يقدم على عمل غريب، إذ يغرّم المدينة كلها عدداً من الليرات الذهبية العثمانية، بسبب ضياع قطة ضابط من ضباطه، هو (موريل)، ثم يمنع النحنحة، ويأمر المسافرين بالنزول في فندق بناه أحد الفرنسيين في السويداء، ويرسل الجواسيس إلى القرى بصفة «معلمين».

وحين وصل الجنرال ساراي إلى دمشق، طالبه عدد من زعماء الجبل، بوضع حد لتعسف الكابتن كاربيه، وفقاً للاتفاقات المعقودة، غير أن ساراي اعتبر أنّ جميع الاتفاقيات ليست سوى حبر على ورق.

ومع ذلك لا يمكن القول إن اشتعال الثورة حدث بسبب جموح كاربيه وسياساته القمعية؛ كما لم يكن بسبب استيلائه على منصب حاكم الجبل بعد وفاة

الأمير سليم الأطرش؛ وإنما بسبب هذا كله مع أسباب أخرى لها من الأهمية مثل ما لسياسات الانتداب المتغطرسة. فمن جهة، كان لسلطان اتصالات مع القوى الوطنية في دمشق، ومن جهة أخرى كان قد رأى ببصيرته أننا إذا أضفنا إلى كل ما يحدث سخط الناس المتأجج والصامت، فإن الناتج يجب أن يكون تمرداً ما، أو انتفاضة، أو ثورة.

وبفضل حسه الثّوريّ المتنامي، بدأ يحشد القوى الناقمة المتفجرة، ولقيت نداءاته وتحركاته استجابات سريعة، وفي الثامن عشر من تموز 1925 خرج سلطان من بلدته عند الفجر، تصحبه مجموعة صغيرة من الفرسان، لكن عدد الرجال الذين انضموا إليه في صباح اليوم التالي كان قد بلغ 250 فارساً، وفي المساء كانوا قد بلغوا 500 فارس. هذه تقديرات المؤرخ الروسي «لوتسكي»، أما منير الريس فينقل عن مصادر محلية أنهم لم يزيدوا عن مئتين وخمسين مقاتلاً، بين خيالة ومشاة. ويصف عبد الرحمن الشهبندر ما فعله سلطان ذلك اليوم هكذا: «فلما ذهب من (امتان) على (ملح) مثلاً، سار معه نحو أربعين فارساً، لكنه أرسل قبله رسلاً، أوهموا أهل ملح أن جميع الرجال القادرين على حمل السلاح في المقرن الجنوبي (وهي التسمية المحلية لقطاع من المنطقة حسب الجهة الجغرافية) هبوا على قدم وساق... وكان إذا دخل قرية صفّ الناس حوله ورتبهم ترتيباً يلفت الأنظار؛ ثم يأخذون جميعاً في إطلاق العيارات النارية في الفضاء مع أهازيجهم الحماسية التي قلما يجاريهم أحد في استخدامها؛ وحسن استعمالها، ولا جرم أن القرى كانت تلاقيهم بتلك العادة الجميلة، عادة الانتخاء المشهورة، ومن ثم تنضم إليهم، وتسير معهم».

اقتبست هذه الفقرة من الدكتور عبد الرحمن الشهبندر؛ لأشيرَ إلى قدرة سلطان الأطرش العفوية على تأجيج مشاعر الحشود؛ واستقطاب عواطفهم، وابتداع الوسائل الكفيلة بجذبهم إلى الميدان في اللحظة المطلوبة.

وفي كتاب منير الريس (الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي: الثورة السورية الكبرى) صورة لسلطان الأطرش وهو يمتطي صهوة حصان أبيض مزين بأوشحة من الصوف الملون (على الأرجح، لأن الصورة بالأبيض والأسود)؛ وخلفه في أفق الصورة يصطف مئات المقاتلين، وهم يرفعون البيارق (أعلام القرى).

صورة واقعية تسبق عشرات المشاهد التي قدمتها السينما الغربية، والسينما العربية من بعد، في الأفلام التاريخية لتؤكد حضور القائد في المعركة، وكثافة المقاتلين من ورائه، لا تظهر ملامح سلطان في الصورة، لكنه يملأ منتصف البياض والسواد بشكل عمودي، وينظر إلى الأمام وسط سهل أجرد مليء بالحجارة.

اللافت هو التوقيت أيضاً، فقبل ثلاث سنوات من ذلك التاريخ بالضبط، وفي مثل ذلك اليوم بدأت ثورة سلطان الأولى؛ ولا نعرف إن كان الاختيار مقصوداً أم مصادفة، ولكنه يقدم مادة درامية للتاريخ، بل إن معركة الكفر التي وقعت في الحادي والعشرين من تموز 1925، صادفت أيضاً، الاحتفال بذكرى معركة تل الحديد، في اليوم نفسه من عام 1922.

ثم بدأت مواهبه العسكرية أو الحربية في المبادهات القتالية لمواجهة التطورات المتسارعة؛ فبعد أن أسقط رجاله إحدى الطائرتين الفرنسيتين اللتين حلقتا فوقهم في قرية عرمان، وأسروا طيارها، وأخذوه إلى أحد الزعماء المحليين في قرية مجاورة، وصلت أنباء عن تقدم حملة فرنسية تأديبية بقيادة الكابتن (نورمان) تتألف من 172 جندياً وضابطاً حسب المراجع الفرنسية، بينما يشير أمين سعيد في كتابه (الثورة العربية) إلى أنها مؤلفة من 190 جندياً وضابطاً.

سارع سلطان لقيادة رجاله مستفيداً من اندفاعاتهم الجديدة للسيطرة على قلعة صلخد قبل وصول القوات الفرنسية؛ ومن هناك تحرك مسرعاً باتجاه الشمال إلى السويداء، غير أن نورمان كان قد عسكر بقواته في بلدة الكفر؛ ليقطع الطريق عليه إلى المدينة، وهناك جرت أول معركة حاسمة بين القوتين، هكذا: في ساعة القيلولة هاجم الثوار الحملة المعسكرة في الكروم، وفي مدة لا تزيد عن نصف ساعة أجهزوا عليها، حيث تحصي كتب التاريخ قرابة المئة قتيل، من بينهم الكابتن (نورمان) نفسه، وجميع ضباطه.

تجاوزت نتائج هذه المعركة الخاطفة تعداد القتلى فيها (خسر الثوار أربعة وخمسين شهيداً) إلى المعنى الذي أثارته في صفوف المقاتلين من جهة، وفي أوساط السياسيين، من جهة ثانية، وما ولدته من ذعر في دوائر الفرنسيين، من جهة ثالثة.

أما بالنسبة للثوار فقد دفعت إلى صفوفهم المئات من الشباب والرجال، ممن كانوا ما يزالون مترددين، أو خائفين، أما السياسيون فقد بدأت الاستعدادات لإيجاد

نقاط تعاون بين الوطنيين كافة، وقيادة الثورة المسلحة في الجبل، فيما شكل الفرنسيون حملة ضخمة بقيادة الجنرال ميشو، يربو عدد جنودها وضباطها على الستة آلاف عسكريّ، اندفعت مسرعة نحو الجبل، بينما كان سلطان يقتحم مدينة السويداء بثواره، ويحاصر من تبقى من الفرنسيين في قلعتها العثمانية القديمة.

كل هذه التحركات تمت في عشرة أيام فقط. ونذكر هذا لأن تاريخ المعركة الكبرى سيكون بعد ثلاثة أيام من زمن الدخول إلى السويداء؛ وهذا يعني في لغة الجيوش أن الوقت لم يكن متاحاً للمقاتلين لإعادة التسلح، أو انتظار النجدات، أو إقامة التحصينات، أو تدوين الخطط.

يميل عدد كبير من مؤرخي الثورة إلى الحديث عن العفوية والاعتباطية في ترتيب المواجهات؛ بينما يركز المؤرخ الروسي (لوتسكي) على التكتيك الذكي الذي تم تدبيره من أجل الانتصار، والحقيقة - كما تبدو لي - أن معركة المزرعة هي حاصل اجتماع الشجاعة والتهور، والتكتيك الذكي، وسوء حسابات القائد الفرنسي، والزمان والمكان المحددين.

فالهجمات الأولى التي بدأها الثوار قرب تل بركاني اسمه (تل الخروف)، تسببت بتكبيدهم خسائر فادحة في الأرواح، وأفضت إلى إغواء الجنرال ميشو باستسهال المواجهات التالية، بل ربما جعلته يقتنع بأن الجسم الرئيس للمقاتلين قد تحطم؛ ما دفعه للتقدم بالكتائب القتالية من جيشه بسرعة، كي يصل قبل الثوار إلى نبع ماء وسط الطريق اسمه: (نبع المزرعة)، وكان هذا يعني أن الحملة سوف تنتشر على مسافة كبيرة تبلغ أكثر من عشرة كيلومترات في منطقة وعرية مليئة بالصخور، ليس فيها مكان لمسير العربات والخيول إلا طريق وحيدة صاعدة نحو السويداء؛ معنى ذلك أيضاً أن الجيش الفرنسي قد تخلى عن استحكاماته ومتاريسه تماماً، بينما اضطر سلطان للتراجع برفقة قسم من فرسانه ومشاته إلى محيط مدينة السويداء.

المؤكد أن ما حدث في مؤخرة الجيش الفرنسي مساء يوم 2 آب 1925، قد تم من قبل الفرسان الذين هزموا في الصباح. فقد استطاع هؤلاء أن يتجمعوا في القرى المطلة على الطريق الرئيسة التي يتقدم فيها الجيش، والتقوا بمقاتلين آخرين وصلوا متأخرين إلى أرض المعركة. لاحظوا جميعاً الخطأ الجسيم الذي

وقع فيه الجنرال ميشو حين فصل مقدمة جيشه عن مؤخرته؛ حيث الذخائر والمؤن، عندئذ سحق الثوار مؤخرة الحملة تماماً، وأبادوا معظم رجالها، واستولوا على عتادها وذخائرها ومؤنها. ضربة قاتلة، وتوقيت غريب لم يكن في حسابات أحد، وحين وصلت الأنباء إلى كل من الجنرال ميشو، وسلطان الأطرش، أدرك كلاهما ما الذي سيحدث في صباح اليوم التالي الثالث من آب.

أما الجنرال فقد حزم أمره على التراجع بسرعة؛ لإعادة تحميل الجيش من جديد، فيما تقدم سلطان بقواته كلها من جميع الجهات؛ ليسد أمام الجنرال أي أمل في العودة، أو أي تفكير بعدم خوض المعركة.

وعلى الرغم من اختلال ميزان القوة العددية، والنارية بين الثوار والجيش الفرنسي (حتى مع خسارة المؤخرة) فإن انتصار المساء السابق كان قد أقنع سلطان بأن الجيش الفرنسي لم يخسر ذخائره وعتاده وحدهما أو كليهما وحسب؛ بل خسر - بالضرورة - قدراً كبيراً من روحه القتالية.

لدينا المئات من القصص والحكايات والصور التي يتناقلها الناس شفاهاً؛ أو تذكرها كتب التاريخ المتنوعة التي أرّخت لتلك المعركة؛ وهي تجمع على أن الانتصار كان شبيهاً بالمعجزة؛ فقد تمكن أقل من ألف مقاتل من تحطيم جيش نظامي مؤلف من أكثر من ستة آلاف جندي؛ وفيما لم يزد عدد شهداء الثوار عن 250 شهيداً، أربى عدد قتلى الجيش الفرنسي على بضعة آلاف من الجنود والضباط، (تختلف الأرقام من كتاب إلى آخر حسب روايات الشهود وإحصائيات الجهات الرسمية «الفرنسية»).

ونتيجة لهذه المعركة استولى الثوار على 10 مدافع؛ و40 رشاشاً، و2000 بندقية، و5 مدرعات، و100 جَمَل، و25 ألف قذيفة، ومليون طلقة. وهي ذخائر وعتاد مكنتهم من إعداد المقاتلين لحرب طويلة الأمد.

إن دراسة تفاصيل المعركة وما جرى من بعد يؤكد أنه لم يكن انتصاراً عرضياً؛ بل دليلاً على نضج التوقيت والمقاتلين معاً، ويمكن استقصاء النضج السياسي لقيادة الثورة ولسلطان نفسه في التصريحات التي أدلى بها للصحفي الألماني (فيسل) الذي زاره في مقره؛ إذ قال: «إننا لا نثق بالفرنسيين إطلاقاً.. ينبغي أن نحرمهم من إلحاق الضرر بنا.. إننا نطالب باستقلال سوريا بأسرها،

إننا نرفض العودة إلى الظروف التي كنا نعيش في ظلها قبل الانتفاضة.. إننا نقاتل الآن من أجل حرية سوريا كلها» وحين صاغ أحد أعضاء الوفد الدمشقي الموجود هناك برنامج الانتفاضة على النحو التالي: «مجلس تأسيسي منتخب بحرية، يضع دستوراً سوريّاً بصورة مستقلة، حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس النواب، جيش وطني» قال سلطان: «فيما يتعلق بشكل الحكم فأنا أفضل الجمهورية، لكن هذا رأيي الشخصي، ولربما اختارت الأكثرية ملكاً على سوريا».

أفكاره الليبرالية، وتوجهه الجمهوري، عبّر عنهما البيان الأول الذي صدر بعد تشكيل قيادة الثورة، واختياره قائداً عاماً لجيوش الثورة الوطنية السورية، وهو الشهير باسم «إلى السلاح إلى السلاح» وموقع بتاريخ 23 آب 1925. وهنا نسجل مطالبه الرئيسية:

1) - وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها، والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالاً تاماً.

2) - قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي؛ لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة الأمة سيادة مطلقة.

3) - سحب القوى المحتلة من البلاد السورية، وتأليف جيش محليّ لصيانة الأمن.

4) ـ تأييد مبدأ الثورة الفرنسيّة وحقوق الإنسان في الحرية والمساواة والإخاء؛ إلى السلاح ولنكتب مطالبنا المشروعة هذه بدمائنا الطاهرة كما كتبها أجددنا من قبلنا. إلى السلاح والله معنا والإنسانية ولتحيا سورية حرة مستقلة.

إضافة إلى هذا فقد أوضح منذ البداية أنه عازف عن المطامح الشخصية؛ وهو موقف لم يقتصر على البيانات والأحاديث الصحفية، وإنما ترجم إلى سلوك حياتي اتبعه دائماً. وقد قال لحنا أبي راشد - وهو صحفي لبناني - مصري عاش في الجبل إبان الثورة - إنه لا يطمح إلى القيام بدور رئيس الدولة السورية، لكنه يريد تحرير سوريا، ومن ثم تسليمها إلى مجلس وطني عام يسن قوانين البلاد، ويختار شكل الحكم.

وانسجاماً مع آرائه بادر - يساعده كثيرون في قيادة الثورة - إلى تشكيل لجان لقيادة الثورة في جميع المناطق السورية عسكرياً، وإدارياً، ومالياً، وقضائياً، وتموينياً.

الملاحظ هنا أن الشعارات الجديدة التي أخذ يطلقها، والسياسات التي أخذ ينفذها، لا تتطابق مع المستجدات وحسب، بل تسبق في كثير من المرات المذاهب السياسية الراسخة في المنطقة؛ دون أن تنقطع أو تنفصل عن غيرها من الآراء والتوجهات والتيارات.

في الوقت نفسه بدأ الثوار في دمشق وحماه يهاجمون المواقع والثكنات الفرنسية؛ غير أن فرنسا وجهت أقسى الضربات إلى ثوار الجبل؛ ولهذا فقد وسع سلطان دائرة اتصالاته، فراسل كل من رئيس وزراء إنكلترا وإيطاليا، ووزير خارجية أمريكا، ورئيس مجلس النواب الفرنسي، والصحف الأوروبية الكبرى، يشرح لهم جميعاً قسوة وتعسف وجرائم السلطة الفرنسية المنتدبة: «نستنجد بالأمم المتمدنة أن تبطل رِق الشعوب بعد أن أبطلت رق الأفراد».

ومن السمات البارزة لدى سلطان كقائد عسكري استعداده لتغيير تكتيكاته الحربية بعد كل معركة؛ وهذا ما حدث بعد معركة (المسيفرة)، إذ أسفر الصدام المباشر بين الجيش الفرنسي داخل استحكاماته المعدّة جيداً وبين الثوار المكشوفين عن استشهاد المئات منهم؛ فما كان من سلطان إلا أن أوقف القتال المباشر مع الجيش الفرنسي بعد هذا؛ واستبدله بحرب العصابات، وتكتيك الأرض المحروقة. لاسيّما حين رأى أن الفرنسيين بدؤوا يدفعون بجيشهم نحو الجبل عبر المناطق السهلية في حوران عوضَ اقتحام الجبل من الطرق الوعرة؛ لاشك أنهم تعلموا الدرس أيضاً، ولمواجهة ذلك بدأ سلطان يأمر بإخلاء القرى من السكان، والمواشي، والمخزون الغذائي، بحيث لن يلاقي الجيش الفرنسي أي مقاتل، ولن يجد أيَّ إنسان، في طريق تقدمه، والهدف من هذا التكتيك هو استدراج العدو من جديد إلى المناطق الوعرية، وقطع جميع الإمدادات عنه لاسيّما المياه. وهو ما أرغم الجنرال (غاملان) وجيشه على الانسحاب من السويداء، بعد يومين من احتلالها.

وفي الحملة الثانية (لغاملان) استمر الثوار في اتباع التكتيك ذاته. وحين وصلت الحملة إلى قرية قريبة من السويداء، أوهم سلطان قائدها أن عدداً كبيراً من زعماء الجبل سيسعون إليه للإعلان عن ولائهم؛ وأخرت هذه الخدعة العسكرية تقدم الجيش من جهة، وزادت في حرمانه من الماء، إذ اكتشف الفرنسيون أن الثوار سيطروا على جميع منابع الماء القريبة، واضطر غاملان

للتراجع من جديد، ولم يستطع حماية مؤخرة جيشه، فحطمها الثوار، ولاحقوا الحملة في المنطقة كلها.

يمكن تتبع عشرات المعارك بين الثوار وبين الجيش الفرنسي المحتل طوال الأشهر التالية: من آب 1925 حتى ربيع 1926، في وقت نشبت فيه مئات المعارك بين الثوار في دمشق، وحماه، وحمص، والقلمون، وجبال لبنان، وغيرها، وبين الجيش الفرنسي.

غير أن فرنسا بدأت تحشد حملة قوامها عشرة آلاف جندي بقيادة الجنرال (أندريا)؛ لتدفع بها في الربيع إلى الجبل بعد أن أحرقت الغوطة، وقصفت دمشق لمدة يومين كاملين.

وفي نيسان من عام 1926، تمكن الجنرال (أندريا) من احتلال السويداء من جديد، ومن المدينة المحتلة بدأ يشن حملات تأديبية ضد قرى الجبل، والتنكيل بمن يجدونه من الرجال، ولكن الجنرال يعترف في مذكراته أنه وجد في خرج حصان سلطان الميت مستندات من بينها (دعوة السوريين للمقاومة حتى الموت).

كان الثوار قد توزعوا الآن في فرق صغيرة تقاتل من مكان إلى آخر، وتمكن سلطان من الإيقاع بفرقة فرنسية ضخمة جنوب الجبل، وأسر ثلاثين جندياً بينهم ضابط كبير، باعتراف الجنرال أندريا نفسه الذي يقر في المذكرات ذاتها بأن وحداته النظامية تظل أقل خفة وسرعة من تجمعات الثوار.

كانت فرنسا قد تمكنت من حشد قرابة 80 ألف جندي في سورية، وصار بوسع الجنرال أندريا أن يطعم قواته باستمرار لاسيّما أنه استطاع أن يدفع الثوار إلى أطراف الجبل في اللجاة شمالاً، والصفا شرقاً وجنوباً. بينما كانت السلطة تنكل بثوار دمشق والمناطق السورية الأخرى، وتقطع الصلات بين جيوب المقاومة.

ما يذكر لسلطان أنه رفض طوال تلك الأشهر أيَّ شكل من أشكال المفاوضات مع الفرنسيين؛ وفي جميع ردوده السياسية كان يضع استقلال سورية ووحدتها في رأس مطالبه؛ على الرغم من أن عدداً من رفاقه السياسيين قبل الاشتراك في حكومة الداماد أحمد نامي؛ كانوا متنازلين عن هذا المطلب مؤقتاً. ولعل هذا الموقف كان سبباً في إحالة ملفه أو إضبارته - كما يقول أحد المؤرخين - إلى المجلس

العدلي الذي أصدر حكماً بالإعدام عليه غيابياً بتاريخ 27 أيار 1926. وفي الوقت نفسه هدده الإنكليز في الأردن، ليكفَّ عن هجماته ضد الفرنسيين انطلاقاً من الأراضي الأردنية.

سوف يظل سلطان منفياً في وادي السرحان من أراضي المملكة العربية السعودية سبع سنوات برفقة 1500 رجل وامرأة من الثوار ونسائهم وأولادهم؛ وهو مكان صحراوي مقفر، وصفه الأمير عادل أرسلان الذي كان رفيقاً لسلطان في القتال بقوله:

في مهمه كأن السما لم تروه بالقطر من عهد نوح
إنسانه ضب وأشجاره شيح وصوت التغني فحيح

كانت تلك هي نهاية الثورة المسلحة، وبعدها ظل سلطان منفياً إلى سنة 1937، حين صدر العفو عنه، وعاد إلى الوطن.

ممدوح عزام

شكري القوتلي

رجل الاستقلال

(1891- 1967)

تعكس سيرة شكري القوتلي الحياة السياسية السورية لمدّة تزيد عن نصف قرن؛ وهي سيرة تعتبر موازية لمسيرة هاشم الأتاسي؛ وقد تبدو وجهها الآخر المكمل لها لكن الأكثر راديكالية. لعب القوتلي أدواراً أكثر تشدداً بسبب فارق السن، فقد كان أصغر من الأتاسي بحوالي عشرين سنة، كما أن خدمته في الدولة العثمانية كانت قصيرة، وأيضاً لاختلاف شخصية الواحد منهما عن الآخر، فقد كان القوتلي ميالاً للمشاجرة في صغره؛ وفي كبره سيتحول شغبه إلى تمرّد، حتى أنه عندما عُين عام 1913 في وظيفة (مأمور معية) لدى والي دمشق؛ رفض الامتثال لتقاليد كانت تلزم الموظف بتقبيل يد الوالي؛ وأصرّ على تقديم استقالته، لكن تدخل أبيه جعلهم يتغاضون عنه. كان متحمساً لعروبته، تعامل مع الأتراك والفرنسيين والبريطانيين بأسلوب صدامي؛ عنيداً في رأيه كتوماً، للكلمة مكانة عنده، لا يعترف بالهزيمة، جادّ وحازم، عصبي المزاج بسبب القرحة التي عانى منها مبكراً، عندما ينفعل يثور ويغضب بشدة، كانت خصومته توقع الرعب في النفوس، على أن ملامح وجهه الفخور ذي القسمات الصارمة كانت تنطق بالقوة والطيبة والوداعة معاً. تميز بأناقته البالغة، فقد لبس الطربوش كأبناء زمانه، ولبس الفراك والبابيون في الحفلات الرسمية، ووضع الشماخ على رأسه وافترش الأرض، كان على الرغم من ثرائه متواضعاً.

من جانب آخر، كان مرهف الإحساس، لا يحتمل رؤية الآلام البشرية، فقد رفض أثناء الثورة السورية أن يكون عضواً في أحد لجان المحاكم التي تقرّ الإعدام؛ ولم يصادق على حكم بالموت طوال فترات رئاساته الثلاث إلا مرغماً ولاعتبارات قومية؛ كي لا يخالف وصية والدته بالامتناع عن توقيع حكم بالإعدام. كان قوياً في ضعفه، تجلى هذا في حادثة اعتقاله صيف 1916، وإحالته مع أعضاء جمعية

(العربية الفتاة) إلى محكمة عسكرية، وُجّهت إليه تهمة التحريض على الثورة، وتنظيم حزب سرّي، وكان تأليف الأحزاب جرماً جنائياً يفضي إلى المشنقة، وكان الشهيد عبد الغني العريسي قد كتم أمر الحزب، وأبقاه سراً حمله معه إلى القبر، أنكر القوتلي التّهم لكن عندما أدرك أن أمره أنفضح، أيقن بأنهم سيرسلونه إلى التعذيب، وكان يسمع كل ليلة صرخات الضحايا وما يتعرضون له من حالات ضياع الرشد؛ تجعلهم يخرجون عن تعقلهم، فيبوحون بكل ما يطلب منهم دون أن يدرون ما يقولون، خشي أن يفشي أسرار حزب الفتاة، ومنها المحاولة التي دُبرت لاغتيال جمال باشا، مما سيؤدي إلى توقيف الكثيرين، فأقدم على قطع شرايين يده وأوردتها، ولما سال دمه من تحت الباب، جاء الحرس، واستدعوا الدكتور أحمد قدري المعتقل في الغرفة المجاورة، فحبس منفذ الدم، نُقل بعدها إلى المستشفى، وبقي أربعة أسابيع حتى شفي، ثم أعيد إلى معتقله في خان الباشا. وسيصدر ديوان الحزب قراراً ببراءة الموقوفين، بعدما توسط العديدون للإفراج عنهم، إضافة إلى تهديد الأمير زيد بن الحسين لجمال باشا، بأنه إذا قُتل واحد أو مات من سوء المعاملة، فإنه سينتقم له من الضبّاط الأتراك الأسرى في مكة والطائف، ولن يتردد في قتل عشرة مقابل كل عربي.

❖ ❖ ❖

ولد شكري القوتلي بدمشق عام 1891 لعائلة من مالكي الأرض الأثرياء والتّجار في حي الشاغور الشعبي، حفظ في طفولته القرآن، درس الابتدائية في مدرسة العازارية، أتم دراسته الثانوية في مدرسة مكتب عنبر، سافر إلى استنبول عام 1909 وتلقى تعليمه العالي في المدرسة الملكية للعلوم السياسية والإدارية؛ ونال شهادة الدراسة العليا عام 1912، انضم هناك إلى جمعية (العربية الفتاة). عاد إلى دمشق وشارك في نشاطات سرية، قبض عليه الأتراك، ثم أطلقوا سراحه، اعتقلوه ثانية بعد إعلان الثورة العربية في الحجاز، وأُفرج عنه مع انتصار الحلفاء وإقامة الحكومة العربية في دمشق؛ توظف في الإدارة المحلية، وكرّس معظم وقته للنشاطات القومية خارج إطار الحكومة، لاسيما بعد أن أسس مع أصدقائه عام 1918 حزب الاستقلال العربي.

عندما سيغادر الملك فيصل سورية، سيُصدر الفرنسيون عليه حكماً بالإعدام لنشاطه الوطني؛ فيضطر إلى الفرار إلى حيفا، يقيم في القاهرة لمدة أربعة أعوام، يتجول خلالها في أوربا داعية للاستقلال والقضية الفلسطينية. في برلين يتعاون مع شكيب أرسلان، ويقوم بحملات دعائية مناهضة للفرنسيين، مما دفعهم إلى تصنيفه على أنه (أخطر) السوريين في المنفى. يصدر الفرنسيون عام 1924 قراراً بوقف تنفيذ حكم الإعدام.

بعد عودته إلى دمشق لم يوقف نشاطاته، كان في اللجنة التي قابلت الجنرال ساراي، وعبّرت له عن أمانيها في تحقيق الاستقلال كاملاً، فدعاهم ساراي إلى الاتحاد والتآلف، وقال لهم: «بما أنكم تمثلون الفكر النيّر والعقيدة الحرّة، أرغب في مساعدتي، وهذا ما يجعل الثمرة ناضجة في بلادكم». فأجابه القوتلي: «إن هذه الثمرة يجب أن يأكلها أهل البلاد وليس غيرهم». فانسحب ساراي غاضباً من الاجتماع.

التحق بالثورة السورية عند نشوبها عام 1925، ورفد مراكز القتال بالمتطوعين لاسيّما الضباط، وأخذ ينتقل من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية؛ لشراء السلاح والعتاد، ويرسله إلى المجاهدين. لم يشترك القوتلي في القتال بشكل فعلي، كان بعيداً عن ميدان المعركة، واقتصر دوره على الدعم المادي. غادر سورية ثانية بعد أن أصدرت عليه السلطات الفرنسية حكماً جديداً بالإعدام.

جاء فشل الثورة السورية ليس بسبب العنف الذي واجهته من قبل القوات الفرنسية فحسب، بل وأيضاً الخلافات الحزبية بين حزب الاستقلال الذي يتزعمه القوتلي، وحزب الشعب برئاسة عبد الرحمن الشهبندر، الذي كان يعتبر البيت الهاشمي الدّعامة الأساسية للحركة العربية؛ فيما كان القوتلي يعد السعوديين السند الفعلي لسورية وقضيتها؛ هذه الانقسامات المبكرة كانت امتداداً للانقسام العربي بين الهاشميين والسعوديين؛ ظهر هذا التنافس بشكل واضح حين أحرز الشهبندر منزلة المستشار الأول لدى سلطان الأطرش قائد الثورة؛ مما أغضب الاستقلاليين، فأخذوا يهاجمونه ويشككون في وطنيته، وسيبقى الخلاف مستمراً بينهما في الداخل والخارج حتى اغتيال الشهبندر.

عاد القوتلي إلى دمشق عام 1930 بعد صدور قرار بوقف تنفيذ أحكام الإعدام الصادرة على الملتحقين بالثورة؛ ورأى الأجواء مهيأة للعمل داخل الكتلة الوطنية؛ فانضم إليها في عام 1932، واعتُبر أحد مؤسسيها، وأصبح من عداد المكتب الدائم الذين يديرون الشؤون اليومية للكتلة؛ ويؤلفون قيادتها الفعلية، وأحد المسؤولين عند تنفيذ القرارات، وإصدار البيانات، واستقبال الشكاوى، وتسوية الخلافات، وعقد الجلسات، وسوف يتسلم قيادة الكتلة أثناء غياب الوفد المفاوض في فرنسا برئاسة هاشم الأتاسي؛ ويؤمن للوفد الدعم والتأييد المعنوي بإقناع قادة الجبل والساحل بإرسال ألوف البرقيات إلى باريس تطالب بوحدة البلاد السورية ومعارضة الانفصال ونظام الدويلات؛ مما دعم مطالبات الوفد المفاوض.

بعد انتخاب الأتاسي رئيساً للجمهورية، تشكلت وزارة جديدة شغل فيها القوتلي منصبين وزير الدفاع والمالية؛ اختلف مع أعضاء الكتلة لاسيما جميل مردم بك وسعد الله الجابري لتجاهلهما قضية لواء الاسكندرون في اتفاقية 1936، لاسيّما بعد توارد الأخبار من جنيف عن الاتفاق الفرنسي التركي بشأن منح اللواء استقلالاً إدارياً.

غدت اتفاقية 1936 وملاحقها مثار جدل وخلاف بين أعضاء الكتلة أنفسهم؛ كما أصابتها الانتقادات الشديدة من الشهبندر العائد إلى سورية؛ بيد أن فرنسا ستتنكر للمعاهدة عشية الحرب العالمية الثانية؛ ويعلن المفوض السامي (بيو) إلغاءها بحجة أن حالة التوازن العالمي في الوقت الحاضر تجعل الوجود الفرنسي هو الضمانةالفعلية لاستقلال سورية.

وجَّه القوتلي جهوده الدبلوماسية إلى مد جسور نحو القوى الدولية؛ وحاول عقد صلات معهم، فخاطب الجميع وبذل الوعود لهم، ولم تمنعه اتصالاته بالألمان من إقامة علاقات مع بريطانيا. مادام الهدف هو تحقيق الاستقلال وجلاء الجيش الفرنسي؛ على أن البريطانيين قيموه بشكل سيئ: «يستحق مكانة في قائمتنا السوداء، ومن الصعب أن يكون صديقاً لنا». لكنهم سيضطرون إلى الاجتماع به بناء على نصيحة القنصل الأمريكي في بيروت؛ ويستمع المستر غاردنر القنصل البريطاني في دمشق إلى القوتلي الذي سيلمّح له بعدم ممانعته من إقدام بريطانيا

على احتلال دمشق؛ شرط أن يتبع ذلك استقلال سورية التام. أجابه القنصل باستحالة ذلك، على أن القوتلي سيطلب استمرار الحوار مستقبلاً.

❖ ❖ ❖

لم يبرز القوتلي فعلاً على الساحة السورية كزعيم وطني لا منازع له، إلا عندما فرضت عليه الحرب العالمية الثانية مواجهة آثارها المدمرة التي انعكست على الاقتصاد السوري؛ بعد قيام قوات الاحتلال بادّخار المواد الغذائية لصالح جيوشها؛ ما أدى إلى قيام مظاهرات، سميت بمظاهرات الجوع، وإغلاق الأسواق التجارية، واعتقال ما يزيد عن 600 مواطن. دعا القوتلي إلى اجتماع في بيته بتاريخ 24 شباط 1941 حضره مندوبون عن هيئات الكتلة والشباب الوطني وعصبة العمل القومي والنادي العربي؛ أكد فيه على ضرورة تنسيق المواقف بين الأحزاب لخدمة الهدف الوطني والقومي؛ فأيّدته الأحزاب والفئات السياسية كافة، وتواردت برقيات الدعم من زعماء جبل الدروز وزعماء العلويين؛ وشكل هيئة عامة من مختلف الأحزاب والسياسيين للإشراف على تنظيم الإضرابات؛ أسس لها فروعاً في المدن. عمّ الإضراب جميع المحافظات، وأُوقفت الدراسة في المدارس وفي جامعة دمشق، وبلغت المظاهرات ذروتها يومي 24/23 آذار، اشتركت فيه النسوة، وخرج الشعب بجميع طوائفه وقومياته، ووقع 16 قتيلاً وما يقارب ستين جريحاً.

عمدت فرنسا إلى التهدئة بكل وسائل الضغط والإرهاب والملاحقة؛ إلا أنها فشلت، عندئذ كلف المفوض السامي نائباً عنه هو المسيو لافاستر الذي توسط لدى القوتلي لإنهاء الإضراب؛ بغية التمكن من مناقشة قضية غلاء المواد التموينية وإجراء إصلاحات. رد القوتلي قائلاً بأن الأمة لا تثق بالوعود الفرنسية، صبرها قد نفد، عدا أن قضية الإعاشة والتموين تعتبر ثانوية بالنظر إلى قضية الاستقلال، ثم قدم شروطه النهائية: عودة الحياة النيابية ورئاسة الجمهورية، تسليم قضايا الإعاشة إلى السلطات المحلية، إيقاف القرارات التي أصدرتها المفوضية، الإفراج عن المعتقلين. رفض المندوب السامي هذه المطالب جملة وتفصيلاً، وانقطعت المفاوضات واشتعلت الشوارع ثانية بالمظاهرات والرصاص، فقام الفرنسيون بقطع الاتصالات بين المحافظات، ومُنعت التّجمعات وعُطِّلت الصحف؛ واقترحوا تشكيل حكومة محايدة برئاسة الأتاسي. رفض الأتاسي

العرض وأيد القوتلي في بياناته، فكلفت السلطات الفرنسية خالد العظم الذي لم يقبل إلا بعد موافقة القوتلي والأتاسي.

لم تبدأ رحلة القوتلي إلى رئاسة الجمهورية، إلا بعدما علم بأن الجنرال كاترو عرضها على هاشم الأتاسي الذي تردد؛ فاستأذن القوتلي الأتاسي بترشيح نفسه، لأنه غير مرتبط مع الفرنسيين بتعهدات، والموقف بحاجة ماسة إلى حراك سياسي، والمرحلة القادمة سوف تحفل بالمصادمات والمناورات. وافق الأتاسي، كما منحته الكتلة تأييدها ووعدت بانتخابه.

لم يفتقد القوتلي إلى المهارات السياسية في تعامله مع الفرنسيين والبريطانيين والأمريكيين، الليونة مع الصلابة، الإقدام والتراجع، كذلك المهادنة مع افتعال الشغب. كان قد أتقن اللعبة السياسية، فاستطاع اللعب على الحبلين بحيث أقنع الطرفين بأنه يؤيّدهما. بداية استقبل الجنرال هارلي مبعوث الرئيس الأمريكي روزفلت في بيته معتبراً هذه الزيارة بمثابة دعم وتأييد له؛ ثم أكد للجنرال كولييه نائب المفوض السامي بأنه سيعقد معهم اتفاقية تضمن حقوقهم التقليدية؛ أما بريطانيا فقد لوح لها بأنه يمكن أن يكون صديقاً لها مستقبلاً. وفيما بعد سوف يسافر إلى السعودية في 24 تشرين الثاني 1943، ويجتمع بحضور الملك عبد العزيز مع وينستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني الذي سيطلب منه خلال اللقاء ضرورة توقيع معاهدة مع فرنسا حفاظاً على الاستقرار والهدوء؛ وتضمن عدم قيامه بأعمال تربك قوات الحلفاء. في جوابه على طلب تشرشل، قام القوتلي بأداء دور مثير، وقف وأشار إلى الملك عبد العزيز قائلاً: «هذا الرجل أغلى ما عندي في الدنيا، والله لو أراد إجباري على الاتفاق مع فرنسا لقاتلته، بينما لو طلب عيني لقلعتها بإصبعي، وقدمتها له دون تردد، لكن لو حاول إرغامي على ما تطلبه، لأعلنت عليه الحرب».

لم يكن تعاطف الإنجليز مع القوتلي وتأييده إلا من أجل مصلحتهم؛ في حين تصورت فرنسا أن وجوده على رأس الكتلة الوطنية إذا عادت إلى الحكم، سيمنحها فترة من الهدوء هي بحاجة إليها لتسوية نتائج الحرب. استطاع القوتلي أن يجعل الدولتين تتنافسان على دعمه، وتمكن من التعامل معهما بدبلوماسية عالية فيها الكثير من الوعي العملي، لتداخل العلاقات الدولية في فترة لم تسمع فيها سوى

أصوات المدافع وهدير الطائرات؛ ثم أدار حملته الانتخابية ببراعة، وحقق فوزاً كبيراً للكتلة الوطنية، كان من نتائجها فوزه برئاسة الجمهورية.

بدأت رحلة القوتلي في تثبيت استقلال سورية؛ استقلال كان منقوصاً إن لم تنتزع (المصالح المشتركة) من السيطرة الفرنسية، وتشمل الأمن العام وإدارة الجمارك والريجي والمراقبة العامة للبريد والبرق... الخ. وقد وقعت الاتفاقية على انتقال هذه المصالح اعتباراً من 1 كانون الثاني 1944. على أن أكبر العقبات التي واجهته، هي انتقال الجيش إلى السلطات الوطنية، في وقت كانت فيه فرنسا ما تزال طامحة لإبقاء سلطتها على التشكيلات المحلية السورية، التي كانت جزءاً أساسياً من القوات الفرنسية في الشرق؛ وعلى الرغم من التطمينات البريطانية للفرنسيين، اعتقد الجنرال ديغول بأنهم يريدون أن يحلوا محله في سورية. دفعاً للشكوك سلم الجنرال الإنجليزي سبيرز للرئيس القوتلي رسالة من تشرشل، يصر فيها على عقد معاهدة مع فرنسا، تكفل لها وضعاً خاصاً في سورية بعد انسحابها، على أن تضمنها، وأكد له أن السياسة البريطانية في الشرق الأوسط تقوم على أسس التعاون في المنطقة، فرفض القوتلي، وأعاد على مسامع سبيرز تاريخ علاقة فيصل ببريطانيا ووعودها وكيف نكثت بها؛ ثم قال له: «غادر فيصل رحمه الله سورية وليس له فيها سوى كرسي بأربعة أرجل حملها معه، أما أنا فلي في هذه البلد تراث ستّمئة سنة، ولي فيها أهل وإخوان استشهدوا في سبيل الاستقلال، فإذا كان المستر تشرشل يريد أن يفعل بي ما فعله المستر لويد جورج بالمرحوم فيصل، فليثق أن هذه الفعلة لن تتم، وليعلم لن يكون لفرنسا مقام هنا».

خلال جولته بين الأقطار العربية لطرح فكرة التكتل العربي، سيحاول معه البريطانيون من جديد في القاهرة، عن طريق السفير البريطاني الذي أبدى له رغبة تشرشل بالاجتماع به في منطقة البحيرات المرة؛ فعُقد اللقاء بينهما بتاريخ 5 حزيران 1945، أوضح فيه تشرشل للقوتلي أن بريطانيا بذلت إمكانياتها لإقناع الفرنسيين باستقلال سورية، وبالمقابل على السوريين ألا يقذفوا بالفرنسيين خارجاً، إن لفرنسا مصالح حيوية في سورية، ولها دور تاريخي في الشرق، وعلى سورية أن تعامل فرنسا معاملة الصديق. أجابه القوتلي: «لقد أبلغتك قبل الآن برأي الشعب السوري؛ لقد رفضنا الانتداب، ولم ندع وسيلة من وسائل الاحتجاج

والرفض والاستنكار دون أن نجربها؛ وعندما أعيتنا الحيلة لجأنا إلى استخدام السلاح. لكننا لن نقبل بإبرام معاهدة نكبل بها الوطن بقيود العبودية؛ ولو أبيد الشعب عن آخره». ثم التفت القوتلي إلى البحر وقال: «لو أصبحت مياه هذا البحر الزرقاء حمراء قانية، لما ...». وهنا نهض تشرشل وقاطعه بانفعال وهو يصبح مزمجراً: «أتهددني؟ أنت لا تعرف مع من تتكلم، أنت تتكلم مع قائد جيوش الحلفاء، أنا لا أسمح في العالم كله لأحد أن يتحداني». قابل القوتلي غضبه بهدوء، وقال له: «لا يا مستر تشرشل، أنا لا أهددك مطلقاً، أنا أعرف من أنت، ويجب أن تعلم بأن سورية تستحق احترام الحلفاء وتقدير زعماء العالم الحر ومساعدتهم وتأييدهم، لأنها تدين بالمبادئ السامية التي قامت من أجلها هذه الحرب». تلامحت أسارير الرضا على وجه تشرشل وقال: «أيها الرئيس القوتلي، اعملوا مع فرنسا معاهدة ثقافية، وأنا كفيل بكل شيء تطلبونه». لكن القوتلي لم يتزحزح عن موقفه قائلاً: «نريد الحرية، نريد النور، نريد الاستقلال والسيادة». اقترب تشرشل منه وصافحه بحرارة: «أهنئك وأهنئ شعبك بك، إنك جدير بزعامته، اتفقنا لا معاهدات ولا اتفاقيات». تلك كانت رواية القوتلي لاجتماعه مع تشرشل. على كل حال، عندما خرجا من الاجتماع إلى قاعة الاستقبال، سُئل تشرشل عن نتيجة اللقاء، فصرح بأنه يعتقد أن لا بقاء لفرنسا في سورية بعد الآن.

تعاطفت أمريكا مع المطالب السورية، واعتُبر قبول سورية عضواً في الأمم المتحدة خطوة نحو تحقيق الاستقلال؛ بحيث أصبحت قادرة على طرح قضيتها أمام العالم بشكل مباشر، بعد أن كانت فرنسا تنوب عنها في المحافل الدولية. وبدا الأمر موضوع وقت لا أكثر، بيد أن الاستقلال لم يكن سهلاً، وسوف تختتم فرنسا احتلالها لسورية بصفحات دامية.

في أيار 1945 أُرسلت تعزيزات عسكرية إضافية إلى الجيوش الفرنسية في سوريا ولبنان؛ مما دعا الحكومتين إلى إرسال مذكرة احتجاج إلى المفوض السامي الذي قابل شكري القوتلي في القصر الجمهوري، في جو مشحون وعاصف؛ عرض المفوض المطالب الفرنسية بشكل شفهي، واعتبرها نهائية لا مجال للنقاش فيها، فطلب القوتلي مذكرة بها، قدمها المفوض وتضمنت رغبة الحكومة الفرنسية في المحافظة على مصالحها الاقتصادية والثقافية بتفضيل اللغة الفرنسية، أما

العسكرية فكانت اشتراك الفرنسيين في قيادة الجيش، وإعطاءهم قواعد استراتيجية ومطارات وموانئ.

رداً على المذكرة عقد المجلس النيابي اجتماعاً طارئاً ورفض المذكرة بالإجماع؛ دعا القوتلي إلى التعبئة العامة لكل المواطنين القادرين على حمل السلاح؛ ففُتحت مكاتب التطوع، وتأهب الأهالي. في هذه الفترة القاسية أصيب القوتلي بنزيف دموي في معدته هدد حياته، فتطوع عشرات المواطنين للتبرع بالدم لإنقاذه، فيما بدأ الجنود الفرنسيون التحرش بالسكان وإطلاق النار، وتكاثرت أعمال العنف في المدن السورية، كانت البلاد تسير نحو الكارثة، والسلطة الفرنسية تُعدّ لمجزرة كبرى. وجه الجنرال أوليفيه روجيه الحاكم العسكري بلاغاً سرياً إلى الجيش، احتوى على خطة لاحتلال دوائر الدولة وتجريد الشعب من الأسلحة.

بدأ قصف دمشق يوم 28 أيار، واستخدم الفرنسيون المدفعية والدبابات، وعززوا الحواجز في الشوارع، بينما قامت الطائرات بتدمير قلب المدينة، فأصابت أجزاء من شارع رامي والملك فؤاد وسوق ساروجة وباب توما وجامع دنكز والقلعة، استمرت الاعتداءات الوحشية ثلاثة أيام بلياليها، اقتضت خطة الفرنسيين قتل رئيس الوزراء وأعضاء المجلس النيابي حيث كان مقرراً اجتماعهم، إلا أن الجلسة تأجلت بسبب عدم اكتمال النصاب، فقصفوا البرلمان، واحترق وقُتل حُماتُه من الدرك، لم يقتصر الهجوم على دمشق، بل امتد إلى المدن السورية.

استطاع رئيس الوزراء الوصول إلى بيت القوتلي الذي كان طريح الفراش برفقة المفوض البريطاني المستر شون والقائم بالأعمال الأمريكي؛ وطلبا من القوتلي أن ينقلاه إلى مكان آمن، لكن القوتلي فضل الموت على سريره على أن يلجأ إلى الفرار بينما يُذبح مواطنوه؛ وأصر على نقله إلى السرايا في ساحة المرجة ليجتمع بالشعب هناك: «إما نصر سريع أو موت سريع». على أن المفوض البريطاني عاد بعد الظهر طالباً من القوتلي الموافقة على عقد معاهدة ثقافية مع فرنسا؛ ليتوقف إطلاق النار فوراً. فقال للوزير: والله لو قطعت يميني ما وقعت معها أيّ اتفاق. فلجأت المفوضية الفرنسية إلى حرب أعصاب في محاولة لتثبيط العزائم؛ وأشاعت أن شكري القوتلي أُعدم، وأعضاء الحكومة فرّوا خارج البلاد، وأن حكومة ستُؤَلّف، وتُعقد المعاهدة. وعندما اعترى بعض الوزراء الخوف، ولّمحوا إلى إمكانية التفاهم مع

فرنسا، هددهم القوتلي بأن استقالة أي وزير أو عدم ممارسته لعمله ستؤدي إلى إحالته للمحاكمة؛ بعد مماطلات استمرت بضعة أشهر انصاعت فرنسا لإرادة المجتمع الدولي وحُدد الانسحاب في موعد أقصاه نيسان 1946.

في السابع عشر من نيسان غادر آخر جندي أجنبي الأراضي السورية؛ ليصبح هذا اليوم عيداً وطنياً للجلاء.

❖ ❖ ❖

استطاع القوتلي أن يقود معركة الجلاء، ويصمد في مواجهة الضغوط الفرنسية البريطانية من أجل عقد معاهدة تضمن لفرنسا (حقوقها التاريخية)، دون المساومة أو التنازل عن حقوق عدَّها القوتلي من المحرّمات، وأدار في الوقت نفسه اللعبة السياسية مع الكبار بمهارة، وكان لمعرفته بحقائق الصراع الدولي فضل في إنجازه الجلاء مع الاستقلال، دون إلزام سورية بأية معاهدة أو اتفاقية.

بعد الاستقلال كان على القوتلي مواجهة مخلفات التركة الفرنسية من جهة، ومن جهة أخرى ترتيب الوضع الداخلي، كانت الحكومة غير متجانسة، والبرلمان ينقصه الانسجام السياسي، ومع أن القوتلي أكد مراراً على محاربة النزعات الحزبية والعصبية، لم يمنعه هذا من اختيار أعضاء حكومته من الكتلة الوطنية التي سيطر رجالها على أجهزة الدولة، وتعاملوا مع مناصبهم وكأنها إقطاعيّات ورثوها عن آبائهم؛ فانتشرت الرشوة والمحاباة والفساد، كان تشدد القوتلي مع الفرنسيين قد أعقبه تساهل مع الرفاق والأعوان، ما أدى إلى بروز العديد من الانتقادات، ارتفعت وتيرتها، ولم توفر شكري القوتلي بالاسم.

أعلن القوتلي في عام 1947 عزوفه عن ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية ليعيش في هدوء، لكنها كما يبدو كانت إحدى لعبه السياسية، بعد الإعلان قام وفد من النواب بزيارته، وطلبوا منه باسم الأمة الموافقة على تجديد رئاسته لفترة ثانية؛ ولكي يتم ذلك ويأخذ صفة الشرعية، وافق المجلس النيابي وبالإجماع على تعديل المواد 89/85/68 وإلغاء المادة 115. في 10 نيسان 1948 جدد المجلس انتخاب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية.

على أن القوتلي سيدفع الثمن، ويذهب ضحية القضية الفلسطينية التي قدم لها الدعم الكبير والمتواصل؛ فالرجل الذي اعتبر فلسطين المحور الأساسي بين القضايا العربية، ووضع إمكانات سورية تحت تصرف اللجنة العربية العليا لفلسطين، وجهد في التنسيق معها، كما عمل من قبل على إدخال الأسلحة إلى مجاهدي فلسطين عام 1941، وعند نهاية الحرب العالمية الثانية. ودائماً ما كان يردد: «فلسطين عربية وستبقى عربية ولو أطبقت السماء على شعوب الأرض». سيذهب ضحية هزيمة الجيوش العربية في معركة فلسطين.

اتهم الجيش السوري السياسيين بعدم الإعداد الكافي للحرب؛ وبالمقابل اتّهم السياسيون الجيش بالتقصير، فقام قائد الجيش حسني الزعيم بانقلاب في 30 آذار 1949؛ وحمَّل السياسيين وعلى رأسهم رئيس الجمهورية مسؤولية الهزيمة والتردي والفساد؛ ومن السجن قدم القوتلي استقالته. كانت استقالته موضع استغراب من الذين عرفوه عن قرب، وناضلوا معه أيام الانتداب: «شكري بك عنيد، من الصعوبة أن يهادن أو يتراجع، كيف يرحل ويدع الأمور لغيره؟ هذا مستحيل!» أدرك القوتلي أثناء احتجازه في السجن أن الانقلاب نجح خلال أيام معدودات في وضع ركائز قوية له؛ واكتسب تأييداً شعبياً، واعترفت به الدول العربية تباعاً، وتوصل إلى قناعة بأن بعضاً من أقرب المقربين إليه تخلّوا عنه سريعاً في محنته؛ والتحقوا بالانقلاب طمعاً بمنصب أو جاه، ما الذي يفعله؟ الدول العربية لم تقم بعمل جدّي للمساعدة في إنقاذ البلاد من هذه المهزلة، ولا الشعب انتفض على الطاغية العسكري؟!

أُجبر القوتلي على مغادرة دمشق إلى سويسرا حيث أقام في جنيف، بعد أقل من خمسة أشهر نجح العقيد الحناوي بالانقلاب على حسني الزعيم والتخلص منه ومن أتباعه، عقب محاكمة سريعة انتهت بإعدامه مع رئيس وزرائه؛ انتعشت آمال القوتلي بالعودة إلى سورية لاسيّما عندما عاد من جنيف إلى القاهرة؛ وأُستقبل في المطار بشكل رسميّ، بدت الأوراق السياسية مازالت في يده، لكن الانقلاب الثاني الذي منحه أفقاً للمستقبل، سرعانَ ما أُغلق بسبب الموقف المؤيد الذي وقفه الحكم الجديد من العراق، وتلويحه بالوحدة السورية العراقية التي اعتاد القوتلي أن يتخذ موقفاً ثابتاً ضدها؛ حاول وزير الخارجية ناظم القدسي إقناع القوتلي بعدم عرقلة

الوحدة مع العراق؛ وقام عدد من السياسيين بمحاولات استهدفت تحييده؛ لكنه اشترط عودة المجلس النيابي الذي حلّه الزعيم، وأن يطلب منه المجلس العسكري العودة إلى رئاسة الجمهورية؛ لكن الحكومة كانت قد اتخذت قرارها بعدم دعوة المجلس للانعقاد بهدف قطع الطريق عليه وعلى عودة مؤيديه. بعد أشهر قليلة سيضع العقيد أديب الشيشكلي حداً لهذا الجدل، بقيامه بانقلاب على الحناوي وعلى مشروع الوحدة مع العراق؛ ويضع انقلابه في صف المحور السعودي المصري، ويتجاهل - نهائياً - القوتلي الذي اختلطت أوراقه، وأصبحت عودته مجرد سراب، بعدما بات هناك من حل محله بالنسبة للمصريين والسعوديين.

أكمل العقيد الشيشكلي انقلابه الثالث بانقلاب رابع، تسلم على إثره السلطة، فحلَّ الحكومة والمجلس النيابي، واستقال الرئيس الأتاسي، أجريت انتخابات نيابية، وفاز الشيشكلي برئاسة الجمهورية، وباشر أعماله علناً، فعطل الحياة السياسية في البلد ولاحق المعارضة؛ ما أدى إلى انقلاب جديد قام به الجيش مطالباً بتنحية الشيشكلي، الذي غادر البلاد حقناً للدماء.

بدت عودة القوتلي إلى دمشق قريبة. كانت القوات المسلحة بحاجة إلى ترميم بعد خمسة انقلابات أرهقت الجيش بالتسريحات والتنقلات والإبعاد والاغتيال؛ والبلاد في حالة فوضى بعدما أصبحت السياسة مطية العسكر.

ابتدأت رسل السياسيين من المؤيدين والخصوم من حزبي الشعب والوطني بالتوافد إلى القاهرة بهدف حثّ القوتلي على العودة. ما جمع بين الحزبين هو تراجع شعبيتهما إزاء صعود نجم حزبي البعث والشيوعي؛ وقام صبري العسلي من الحزب الوطني بآخر محاولةٍ لإقناعه بالعودة قبل موعد الانتخابات النيابية؛ كانت عودته ضرورية، وحده كان يوحد البلاد ويؤمن لها حاجتها من الاستقرار، ووجوده يشكل الضمان الحقيقي ضد دعاوى الهاشميين. بالنسبة إليه، كانت عودته أكثر من ضرورية؛ استعادة كرامته الجريحة من جراء الانقلاب، وما تأتى عليه من سجن وإبعاد قسري وإهمال.

في 7 آب 1954 هبط القوتلي في مطار دمشق واستُقبل بشكل غير رسمي؛ وبلغ عدد مستقبليه عدة آلاف. ومهما كان عددهم، فالواضح أنه مازال يتمتع

بتأييد قوي، بعد ستة أعوام من الغياب؛ وسوف يخوض معركة الرئاسة، وتسفر النتائج عن فوزه على منافسه خالد العظم، ويستعيد كرامته ومكانته معاً.

تعتبر الفترة الثالثة من رئاسة القوتلي من أحرج الفترات في تاريخ سورية التي باتت هدفاً للتجاذبات الإقليمية؛ والمنازعات العربية، والتوازنات بين الشرق والغرب، واستفحال الصرع بين الأحزاب، وامتداده إلى صفوف الجيش، وانقسام الضباط إلى كتل تؤيد هذا الحزب أو ذاك. سرعان ما وجد القوتلي نفسه في دائرة النزاع، وغير قادر على اتخاذ القرارات اللازمة، كانت السلطة الفعلية بيد مجموعة الضباط من قادة الألوية والأفواج المسيطرة على الجيش والسياسة.

في ذلك الحين كان القوتلي قد توصل إلى قناعة بأن الغرب لم يكن على استعداد لتلبية متطلبات سورية الاقتصادية والعسكرية؛ إذا لم تؤدِّ المحاولات التي بذلها إلى نتيجة، كانت مصالح إسرائيل وحمايتها بالنسبة إلى الغرب هي الأولى بالدعم، ومع أنه كان مؤمناً بإيجابيات التحالف معه، عاد وغيّر موقفه بسبب الخيبات التي لقيها منه بعدم استجابته لمطالبه بتحديث الجيش، ومن ثمّ وافق على التعامل مع أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي، على الرغم من عدائه للشيوعية لأسباب دينية على الأغلب؛ وعقد صفقة أسلحة تشيكية وروسية.

تأزمت الأوضاع الداخلية والدولية بعد تأميم الرئيس عبد الناصر لقناة السويس؛ وأعلن القوتلي بأن الاعتداء على مصر هو اعتداء على سورية؛ ووعد بتطبيق اتفاقية الدفاع المشترك، وأرسل رسائل إلى الحكام العرب، دعاهم فيها إلى مؤازرة مصر، واعتبار قضية القناة قضيتهم. كما سافر إلى موسكو واجتمع مع قادة الاتحاد السوفيتي، وطلب منهم إثبات دعمهم لمصر بالأفعال لا بالأقوال، وعندما سأله المارشال جوكوف عن الطريقة التي يساعدون بها مصر، ردّ القوتلي بلهجته الدمشقية: «مارشال جوكوف، هل تنتظر مني أن أقول لك، وأنت الخبير والقائد العسكري الذائع الصيت، نجم الحرب العالمية الثانية، كيف تستطيع مساعدة مصر في المعركة الدائرة الآن... شو هالحكي؟!».

بعد انتصار مصر السياسي في معركة القناة، تعالت النداءات مطالبة بالوحدة، كذلك لم تفتر مشاريع هاشميي الأردن والعراق (الهلال الخصيب وسورية الكبرى) ومعها المشاريع الإنجليزية (حلف بغداد) والأمريكية (مشروع إيزنهاور)؛

ومؤامرات خططت لقلب نظام الحكم واغتيال كبار السياسيين، من بينها كلها سيأخذ القوتلي جنب الوحدة مع مصر، ويعدها أمنية غالية بالنسبة إليه، لأنها ستكون نواة وحدة العرب.

انطلق موقف القوتلي من الوحدة مع مصر من مفهوم بسيط هو ضرورة التعاون الاقتصادي والأمني والعسكري والثقافي؛ لكن الأحداث المتصاعدة والمتسارعة رهنت مسالة الوحدة لليساريين من بعثيين وقوميين؛ وخسرت تأييد بعض السياسيين المحافظين كخالد العظم الذي طالب بوحدة مدروسة؛ وعلى أن تكون تدريجية على مراحل، وكان القوتلي كما يبدو من هذا الرأي ودونما اتفاق بينهما، لكن زمام الأمور فلت من يده نهائياً. كان الضباط قد جعلوا من الوحدة قضيتهم الأولى، وقيموا السياسيين على أساسها، واندفعوا إلى تحقيقها والتسابق إليها، والتنافس عليها فيما بينهم، استدعى الاستفراد بتحقيق الوحدة من قبل الضباط استبعاد السياسيين المحافظين؛ ففرض الضابط عبد الحميد السراج رئيس الشعبة الثانية رقابة سرية عليهم ومن بينهم شكري القوتلي؛ حتى أفقدوه سلطاته، ولم يتركوا له سوى مقعد الرئاسة في قصر المهاجرين، دونما سلطة فعلية، وسوف يبدأ السرّاج في تهيئة الظروف بتصفية الجيش من ضباط الصف الأول تحت زعم مناوأتهم للوحدة القادمة، حتى أن الرئيس عبد الناصر الذي تردد في الموافقة على الوحدة واعتبرها مبكرة، أخذته حماسة الضباط السوريين، ولم يعد يرضى بأقل من وحدة كاملة اندماجية وفورية.

اكتسحت شعبية عبد الناصر العالم العربي لا سيما سورية، وخرجت الجماهير في دمشق والمدن والمحافظات إلى الشوارع أشبه ببركان هائج يمكن أن يجرف من يقف في وجهه؛ كان شعار الوحدة قد أصبح هدفاً من المستحيل أن تقف أية جهة أمامه، لا الأحزاب ولا القيادات السياسية ولا الغرب.

لم يستطع القوتلي أن يفعل شيئاً، بعد أن وضعه الضباط أمام الأمر الواقع بذهابهم إلى القاهرة، حاملين معهم مذكرة طالبوا فيها عبد الناصر بالوحدة؛ فكان ذهابه إلى مصر وطلب الوحدة من عبد الناصر مجرد إجراءات شكلية، مع أنه كان من أوائل المنادين بها؛ ووضعها على الدوام نصب عينيه، حتى أنه قال يوم

رُفع العلم السوري على دار الحكومة في دمشق في 17 نيسان 1946: «لن يُرفع فوق هذا العلم إلا علم الوحدة العربية».

في 5 شباط عقد مجلس النواب السوري جلسة استثنائية خاصة لسماع الميثاق الوحدوي الذي اتفق عليه؛ وتحدث رئيس الجلسة أكرم الحوراني، وختم كلامه مشيداً بالرئيس القوتلي: «الله أشهد أنه حقق الرسالة وأدى الأمانة، فله تقدير الوطن ومشارف المجد وهامات الخلود.» ثم قدمه إلى المجلس: «الكلام للمواطن العربي الأول السيد شكري القوتلي.» فألقى كلمة استعراض فيها تاريخ سورية، ثم أعلن ترشيحه جمال عبد الناصر ليكون أول رئيس للجمهورية العربية المتحدة.

بعد قيام الوحدة اتخذ القوتلي بيروت مكاناً لإقامته، وكانت لديه انتقادات على أسلوب إدارة الوحدة في الإقليم السوري، لكنه لم يعلنها. وعند حدوث انقلاب 28 أيلول 1961 الذي أدى إلى الانفصال، كان يعالج في إحدى مستشفيات زيوريخ بسويسرا، أرسل تحت ضغط أصدقائه السعوديين رسالة مسجلة بصوته، أيد فيها الحكم الجديد، لكنه سيرفض أي مسؤولية أو منصب عرضتها عليه حكومة الانفصال.

وسيكون لهزيمة حزيران 1967 وقع أليم على نفسه وتأثير مميت على صحته، أصيب على أثر سماع أخبارها، بارتفاع في ضغط الدم، ثم نوبة قلبية وتوفي في 27 حزيران، ونقل جثمانه إلى دمشق ودفن فيها.

❖ ❖ ❖

ولج القوتلي عالم السياسة من أوسع أبوابها وخاض معاركها؛ فحارب وحورب، وخاصم وخوصم، فلم يسلم من الانتقادات، وقد أشيع عنه بأنه تلاعب بأموال الدولة ولم يقدم كشفاً بمخصصاته كرئيس للجمهورية؛ وتصرَّف بأموال المساعدات والتبرعات، وربما ليس من قبيل المبالغة القول بأن القوتلي كان ينفق من ماله الخاص على القضايا العربية، بل واشتهر بكرمه المفرط الذي وصل إلى حد التبذير في كل ما له علاقة بالنضال الوطني والقومي، لم ينفق على نفسه وعلى أسرته قرشاً واحداً من راتب الرئاسة ومخصصاتها طيلة مدة حكمه، ورفض أن يُخرَج له أي عائد من الخزينة، وتبرع بجميع مستحقاته للجيش، كما لم يتقاض أي معاش تقاعدي، وكان يعيد الهدايا الشخصية المهداة إليه إلى الدولة.

أما ما قيل عن محاباته لمعارفه وأقاربه، فالأصح أنهم استغلوا معرفتهم به وقرابتهم منه. وبخصوص الوحدة لم يكن ضدها، كان ضد الشكل الذي قامت به والطريقة التي تمت بها، وفي الحقيقة أصيبَ كبرياؤه بجرح عميق عندما أديرت عملية الوحدة من وراء ظهره. وبعد الوحدة تجاهله الجميع.

كان شكري القوتلي رجل دولة وسياسياً رائداً في الأوقات الصعبة؛ أما تلك الانتقادات وأمثالها فضريبة يدفعها من يدخل غمار السياسة؛ ولا محالة ستصيبه غبار معاركها في زمن كانت فيه البلاد تشق طريقها إلى ديمقراطيةٍ، لم تصمد لهزيمة حرب فلسطين، ومهما قيل عن شكري بك، فقد كانت وطنيته وقوميته وعروبته فوق الشبهات.

فوزي الغزي

أبو الدستور

(1897 . 1929)

الخامس من تموز عام 1929 لم يكن كغيره من صباحات سورية، إذ لم تمض الساعات الأولى من ذلك اليوم حتى أعلن النبأ الفجيعة، وفاة الزعيم الوطني وأستاذ القانون الشاب فوزي الغزي أثناء زيارته منزل أخيه فريد الغزي في الغوطة، حيث تقيم والدته لقضاء إجازة الأسبوع مع زوجته والأولاد.

كل شيء كان روتينياً، بعد وصوله في وقت مبكر إلى بيت أخيه، تناول طعام الفطور، ثم جلس إلى الطاولة ليكتب دفاعاً عن أحد موكليه، وفجأة شعر باضطراب كبير وارتعاش في يديه ورجليه، وبدأ يتلوى ويصرخ من الألم، دون سابق إنذار، وأهله حوله لا يدرون ما ألم به، وهو الذي لا يشكو من أي مرض. مضت ثلث ساعة عصيبة وهو على هذه الحالة من الألم والمغص الحاد، ثم انتفض انتفاضة الموت، وسقط جثة هامدة. أحدث شيوع خبر موته دوياً هائلاً، سوف يتردد صداه لفترة طويلة في الأوساط السورية.

لم يكن فوزي الغزي مجرد شاب وسيم، رقيق ونبيل، أو محام حاذق، وإنما سياسي محنك، وخطيب مفوه، وثائر شجاع... إلخ من صفات نموذجية. ولقد اجتمعت غالبية الآراء حول أهمية المكانة التي وصلها في حياته الواعدة القصيرة والمضطربة.

ينتمي فوزي إلى واحدة من عائلات الدارسين الدينيين، وصلت دمشق آتية من فلسطين في القرن الخامس عشر، وسرعان ما استحوذت على منصب المفتي الشافعي، واحتكرته حتى القرن العشرين. سكنوا في حي العمارة وأداروا أوقافاً خيرية، وكانت لهم أملاك واسعة في دوما. ومن تاريخها، أن المفتي الشافعي الشيخ عمر الغزي نفي لمشاركته في أحداث 1860، ما أفقد العائلة مؤقتاً هذا الموقع الهام ضمن المؤسسة الدينية، لكنها تمكنت من استعادته بعد زمن قصير. في هذه الأثناء، نجح أفراد آخرون منها في احتلال مناصب دينية وعلمانية هامة أواخر

القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فكان منهم أعضاء بارزون في المجلس البلدي وغرفة التجارة، وقضاة كبار في المحاكم الشرعية والتجارية المختلطة.

تلقى فوزي الغزي علومه الأولى في المدرسة الملكية العليا في الأستانة، وحاز على شهادتها بنجاح كبير، عُرف بانصرافه إلى الدراسة، ولم يعرف عنه ميل إلى غيرها من الاهتمامات، فقد كان أترابه العرب في ذلك الوقت يؤلفون «المنتدى الأدبي» ويسعون من خلاله إلى تمثيل «فكرة القومية العربية» من خلال الحفلات والروايات والقصائد الشعرية التي كانوا ينشرونها في مجلة المنتدى، ولم تسجل له مشاركة في هذه الأنشطة. بعد إتمام دراسته بتفوق عاد إلى دمشق، وعين قائم مقام الإدارية في كنف والي ولاية سورية يومذاك، وهي درجة يجب أن يتخطاها خريجو المدرسة الملكية ليعهد إليهم بمثل هذه الوظيفة، وعندما جاءت الحرب العالمية الأولى 1914 تمسك كضابط في الجيش العثماني بأداء الواجب العسكري، وأصر على إتمام خدمته رافضاً نصائح الآخرين بالفرار. أمضى جنديته في الأناضول والقفقاس والعراق وإيران حتى عاد إلى دمشق بعد دخول الجيش العربي عام 1918.

بعد انتهاء الحرب، عين قائم مقام لراشيا، في وقت عصيب كانت فيه راشيا وما حولها محور صراع بين الثوار والجيش الفرنسي، وكان يعتبرها ضمن المناطق الداخلة تحت نفوذه، ومع ذلك كان الغزي شديد المراس مع الفرنسيين في إدارته وبذل قصارى جهده في خدمة الأهالي، بعدها عين رئيساً لديوان وزارة الداخلية في الوزارة العربية الأولى. وظل الغزي في عمله هذا إلى أن خرج من الوزارة في عهد حكومة حقي العظم.

في عام 1923 سمحت فرنسا بإجراء أول انتخابات عامة منذ العهد الفيصلي، وتم اعتماد القانون الانتخابي العثماني، على مرحلتين، الأولى ضمن الأقضية، والثانية ترشيح الناجحين ممثليهم إلى مجلس الدولة الاتحادي، وقد طبق الفرنسيون هذا النظام الانتخابي ليسهل عليهم السيطرة على نتائجها. مع الإعلان عن بدء الانتخابات، ظهرت أربع تجمعات سياسية في دمشق ذات مستوى متدن من التنظيم والأيديولوجيا، اثنان منهما «حزبين حكوميين» قاد الأول والأكثر نفوذاً حقي العظم، وقاد الثاني رضا باشا الركابي وكان سابقاً الحاكم العسكري

ورئيس مجلس الدولة في عهد الأمير فيصل، أما المجموعتان المعارضتان، فقد كانت الأولى بقيادة فوزي الغزي (33 عام) المحامي الوطني سليل عائلة متعلمة ومالكة أراض، إلى جانب واثق مؤيد العظم، (38 عام) ابن مؤيد العظم أحد شهداء 6 أيار 1916. ضمت المجموعة الثانية أنصار عبد الرحمن الشهبندر وغيره من قادة جمعية القبضة الحديدية المسجونين، الداعية إلى استقلال سورية الكامل، وبدل أن تشارك في الانتخابات عرقلتها ودعت الى مقاطعة شاملة، وحققت نجاحاً إلى حد كبير في المدن: دمشق وحلب وحمص وحماه, فانخفضت نسبة المشاركة الى درجة كبيرة، لصالح ارتفاعها في الريف، استغلته فرنسا لتأليب أهالي الريف على أهل المدن، لتوطيد دعائم النظام الاتحادي القائم على تقسيم البلاد الى دويلات صغيرة، وسرعان ما انهار النظام الاتحادي بعد شهر من تطبيقه، ولم يعد بإمكان فرنسا عرقلة توجه السوريين نحو الوحدة.

مع عودة عبد الرحمن الشهبندر الى دمشق من منفاه عام 1924، كان الغزي من ضمن المجموعة المعارضة التي تحركت باتجاه تأسيس أول حزب سياسي وطني قانوني، ليكون حزب الشعب هو الأول منذ عهد فيصل. تركز نشاط الحزب على إبراز التناقضات والغموض في مراسيم الجمعية التمثيلية الموحدة الجديدة للدولة السورية، والتي لن تؤدي إلى استقلال سورية، إلا أن نشاطها الأهم كان خلال زيارة اللورد بلفور الى دمشق في نيسان 1925، وكان قد وقع على إعلان بريطانية 1917 الذي وعد بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وكانت صحف دمشق قد كتبت الكثير من المقالات الانتقادية لزيارة بلفور إلى فلسطين في آذار، وجرى تنظيم مظاهرات حاشدة في دمشق شارك فيها عشرات الآلاف من السوريين احتشدوا في الجامع الأموي وحدثت صدامات عنيفة، نجم عنها وقوع قتلى وجرحى، اضطر معها بلفور للسفر إلى بيروت ترافقه قوات وطائرات حربية، وتزايدت المخاوف الفرنسية من أعمال عنف ضد اليهود، فأحكمت القبضة الأمنية بشدة، وجاء شهر حزيران وأعلن تأسيس حزب الشعب رسمياً، وقد توسعت صفوفه لتزيد عن ألف شخص في دمشق، ضمهم حفل كبير في دار الأوبرا، أعلن فيه زعماؤهم أنهم يمثلون صوت الشعب الحر، وأن سوريا المستقلة لن يكون فيها أي تمييز ديني أو طبقي، ورفضوا بقاء الاقتصاد تحت سيطرة الأجانب. وقد

ضمت قيادة الحزب عبد الرحمن الشهبندر وفارس الخوري، ولطفي الحفار وعبد المجيد طباخ وأبو الخير الموقع، بالإضافة إلى فوزي الغزي وإحسان شريف وسعيد حيدر. وكان ثلاثتهم من أوائل المحامين.

في تموز 1925 انطلقت من جبل العرب أول رصاصة في الثورة السورية الكبرى، وكانت فرصة للوطنيين في حزب الشعب كي يتابعوا قضيتهم، ولم يكونوا قد خططوا لثورة تواكب انتفاضة الجبل، على أن الركود الاقتصادي وغياب المرونة الفرنسية، سيدفع حزب الشعب باتجاه مؤازرة الثورة والتنسيق معها بهدف تصعيدها، وتم العديد من اللقاءات بين الزعماء في دمشق وجبل العرب، قامت على إثرها سلطات الانتداب بحملة اعتقالات واسعة، شملت الكثير من الوطنيين، أودعوا سجن أرواد في آب 1925 دون محاكمة وكان من بينهم فوزي الغزي، وفارس الخوري ونجيب الريس... حملتهم ثلاث سيارات إلى دائرة الشرطة في دمشق، مع أوامر بنقلهم إلى جهة مجهولة. وعن شاهد عيان على لحظات الترحيل: أحاط بالمعتقلين بضعة جنود من الدرك الفرنسي ببنادقهم القصيرة، طلبوا منهم مد أيديهم لوضعها في الأصفاد، إلا ان شاباً لبنانياً من مترجمي دار المندوب، همس في أذن الضابط قائلاً، هذا عيب هؤلاء كانوا وزراء وقد يأتي يوم يعودون فيه وزراء أيضاً. فخجل الضابط وأعفى سجناءه من الأغلال، وسارت بهم السيارات الى أرواد.

كانت هذه المرة الثانية التي يدخل الغزي سجن أرواد، وكان قد دخله عام 1922 وتعرف فيه على الشهبندر وفارس الخوري وثلة من الوطنيين، تم اعتقالهم إثر الاضطرابات العنيفة التي جرت في دمشق أثر زيارة لجنة كراين.

بعد نجاح الشهبندر بالإفلات من الفرنسيين واللجوء إلى جبل العرب، حُظر نشاط حزب الشعب وجرى تفكيكه. فيما استمرت الثورة بالاشتعال لتشمل باقي المناطق السورية. ساهم الوطنيون في الثورة بشي من التردد بعد أن عجزوا عن تحقيق أي تقدم على الجبهة الدبلوماسية مع الفرنسيين طيلة خمسة أعوام، ووجدوا أن الكفاح المسلح هو الطريقة الأفضل لإقناع سلطة الانتداب بالاعتراف بهم سياسياً وقبول مطالبهم على الأقل، مع أن النشاط الثوري لم يكن ضمن استراتيجيهم المفضلة.

شكلت الثورة السورية التي امتدت من عام 1925 ـ 1927 منعطفاً رئيساً في الكفاح الوطني. في تلك الفترة بحث السياسيون الوطنيون عن زعيم ينظم حركتهم ويديرها، فبرز الغزي معارضاً لامعاً، وعضواً في الوفود التي كلفت بمحاورة قادة الانتداب من الفرنسيين، وكان الأكثر اتصالاً مع الداماد أحمد نامي ضمن مجموعة من الوطنيين (سعد الله الجابري وحسني برازي) وضعوا خطة لتأليف الحكومة بالاتفاق مع الداماد والمفوض السامي دوجنفيل يتم فيها مراعاة أن يكون نصف الوزراء من الوطنيين «المتطرفين» مثل البرازي والحفار والخوري، والفريق الآخر من «المعتدلين». لم يقبل الغزي دخول الحكومة، لكنه كان ضمن الوفد المفاوض (لطفي الحفار وأمين ارسلان وعفيف الصلح) وسمح له بالسفر الى السويداء لمقابلة رجال الثورة السورية، سلطان باشا الأطرش، وعادل ارسلان وعبد الرحمن الشهبندر، وحمل إليهم رسالة من المندوب السامي دي جوفنيل، لكن الأمور سارت بعدها على نحو مختلف، إذ لم تبد حكومة الداماد التعاون اللازم لإنجاح مساعي الوفد مع إصرار السلطة الفرنسية العسكرية على قمع الثوار بيد من حديد. بعد مشادة حامية بين الوزراء وأحد الجنرالات الفرنسيين، قدم الوزراء استقالتهم، يوم 13 حزيران 1926، وفي الليل داهمت قوة عسكرية منازلهم واقتادتهم إلى المنفى في الحسكة شمال شرق البلاد ومعهم أربعة آخرين ممن كانوا يرون في مواقف الوزراء مبادئ وطنية لا سبيل للتراجع عنها، وبين هؤلاء الأربعة كان فوزي الغزي، ولم تعلم عائلاتهم بمصيرهم إلا بعد مرور أربعة أيام، فهب زعماء دير الزور لنجدتهم، وصاروا صلة الوصل بينهم وبين أهاليهم. خشيت السلطات الفرنسية من زيارات أمراء البادية للمنفيين، فأبعدت المعتقلين آخر صيف 1926 إلى لبنان ووضعتهم تحت الإقامة الجبرية والمراقبة الشديدة. وكان نصيب فوزي الغزي الإقامة في قرية بقضاء البترون، فيما وضع لطفي الحفار وفارس الخوري وحسني البرازي في قرية أميون.

عاد المنفيون إلى دمشق في شباط 1928، بعد صدور عفو جزئي، واكبه نشر قائمة سوداء تشتمل على 64 شخصاً منعوا من العودة، ومن بينهم الدكتور الشهبندر وشكري القوتلي وسلطان الأطرش. وكان من مفاجآت قائمة العفو احتواؤها على أسماء فارس الخوري وفوزي الغزي وحسني البرازي ولطفي الحفار

وسعد الله الجابري؛ ما فسره المؤرخون بأن فرنسا كانت تهدف من وراء ذلك إلى مفاقمة الانقسام بين الوطنيين، وقد وفقت إلى حد ما.

بعدها جرى التحضير لانتخابات اللجنة التأسيسية، وخاض الوطنيون معركة سياسية شرسة، ووصلوا إلى البرلمان، وفرضوا حضورهم كنخبة متعلمة ومتمدنة مقابل زملائهم ممن دعمت فرنسا فوزهم، كزعامات تقليدية من بدو وريفيين وأعيان. في الجلسة الأولى 9 حزيران طالب النواب الوطنيون باستقالة حكومة الشيخ تاج الدين الحسني المؤقتة، ولما كان النواب الآخرون بدون برنامج أو جهاز حزبي، استطاعت الأقلية الوطنية تفريقهم وبث الذعر فيهم، وكانت النتيجة انتخاب هاشم الأتاسي رئيساً للمجلس بدلاً من الشيخ تاج، وانتخاب إبراهيم هنانو رئيساً للجنة الجمعية لوضع الدستور السوري، وانضمام 26 نائباً آخر، معظمهم من الوطنيين. انتخبت هذه اللجنة بدورها اثنين من أكفأ أعضائها: فوزي الغزي وفايز الخوري، عضوين في لجنة الصياغة الفرعية، فقد كانا كلاهما محامين بارزين ومحاضرين في كلية الحقوق، وهكذا منذ البداية، كانت الجمعية التأسيسية مؤسسة رسمية معارضة للحكومة المعينة من قبل الفرنسيين. انهمكت وبأقل من شهرين خلال صيف 1928 في وضع مسودة دستور مؤلف من 115 مادة؛ استرشدوا بها من قوانين أنظمة ديموقراطية أوروبية، وقد تبنى الدستور النظام الجمهوري البرلماني، ذا المجلس الواحد، ينتخب لمدة أربعة أعوام، باقتراع شامل يتم على مرحلتين.

جاء الدستور وثيقة حديثة ومصقولة لا تعكس فقط، ما لدى واضعيها الرئيسين الغزي والخوري من ذهنية قانونية منسجمة، بل وأيضاً تلك النخبوية الديموقراطية للكتلة الوطنية. كان أكثر ما أرضى الفرنسيين إعادة توكيد المساواة بين جميع أفراد الطوائف الدينية كافة، مع حرية ممارسة الشعائر الدينية والمساواة بين مدارس الطوائف، إلا أن الدستور احتوى على ست مواد أثارت حفيظة الفرنسيين، ترسخ مطالب الوطنيين وهي، أن سورية بما فيها لبنان وشرق الأردن وفلسطين، وحدة واحدة لا تتجزأ، أحقية الحكومة السورية في تنظيم جيشها الوطني، تمتع رئيس الجمهورية بصلاحيات عقد اتفاقات واستقبال سفراء ومنح العفو وإعلان الأحكام العرفية. كان من الصعب جداً أن تقبل سلطة الانتداب

بهذه المواد دون تقييدها باتفاقية خاصة. نتيجة لرفض تلك المواد الخلافية من قبل سلطة الانتداب وإصرار الوطنيين عليها، جرى تأجيل جلسات الجمعية التأسيسية، وتم تعليق إعلان الدستور. كان هذا أول موقف سياسي وقفته سوريا من فرنسا، مما خولها الحق بأن تطالب دائماً بالاستقلال.

كان موقف الغزي حازماً في رفضه تعديل المواد الست الخلافية أو إضافة مادة تكبل الدستور وقال كلمته الشهيرة: «الأفضل أن تظل الحالة مئة سنة على ما هي عليه، على أن نعترف بشيء لم تكن لنا يد فيه، أو أن نجعل الحالة الواقعة حالة حقوقية». ما أدى إلى توتر كبير في البلاد. مثَّل فوزي الغزي خلال تلك الفترة القلقة، اللسان الناطق واليد العاملة والدماغ المفكر والحركة الدؤوب للحركة الوطنية، فكتب المقالات وبذل آراءه لمحرري الصحف الوطنية، ونظم الاجتماعات، فاستحق الإعجاب ولقب بواضع الدستور السوري، وكسب جماهيرية واسعة.

لذلك كان لنبأ وفاته المفاجئ وقع الصاعقة، لاسيما وقد كان في ذروة نشاطه الوطني، كما أذهلت ظروف وفاته أهله وأصدقاءه ومعارفه، لما شابها من غموض مريب. إذ لم يكن يعاني من أي مرض مميت لاسيما القلب، وقد أكد ذلك لطفي الحفار، بأنه هو والغزي خضعا لفحوص طبية في بيروت آخر أيام المنفى، حينها أشاد الأطباء بسلامة الغزي تماماً من أي مرض سوى أنه عصبي المزاج، ما زاد الشك في سبب الوفاة. وكان أصدقاؤه الذين وصلوا إثر وقوع الحادثة قد طالبوا بالتأكد من الوفاة خشية أن يكون مغمياً عليه، ثم اقترح الحفار عليهم تشريح الجثة، ووافقه عدد من الكتلويين الذين رأوا ضرورة في البحث عن أسباب موته المفاجئ ووجد أشقاؤه أنفسهم مضطرين للموافقة، ماعدا شقيقه فريد الذي حاول إقناعهم بعدم لزوم ذلك. ليستقر الأمر أخيراً على تشريح الجثة، وسرعان ما أظهرت النتيجة الأولية وجود آثار لتصلب في القلب، فقرر الأطباء إرسال بعض الأعضاء والمعدة وقسم من الدماغ إلى التحليل، لأن ما أصابه من أعراض قبل وفاته السريعة كالارتعاش الشديد والاضطراب العصبي العنيف والتشنج الحاد يدل على التسمم بمادة فعالة.

يوم السبت 6 تموز أغلقت دمشق أسواقها حداداً، وخرجت الحشود في موكب مهيب لوداع الشاب المحامي والسياسي الوطني فوزي الغزي، وخلافاً للعادة

اشتركت النساء إلى جانب الرجال في التشييع، وزحفت الوفود من جميع أنحاء سوريا ولبنان، كما مشى في جنازته العلماء والوجهاء والجماهير الشعبية الغفيرة بمظاهرة عظمى تأسفاً على رجل قلّ نظيره بين الرجال، حسب شهادات رفاقه.

عقب الدفن، أحس رفاقه في العمل الوطني بعظم خسارته، فقد قال سعد الله الجابري للطفي الحفار: «كأن أخانا فوزي بك الذي خسرناه حقاً كان يودع الحياة بنشاطاته الأخيرة من خطابات ألقاها، ومقالات كتبها، ومعارك خاضها مع الفرنسيين، وربما يكون إفراطه في العمل قد أثر في جسمه النحيل فلم يعد يحتمل السهر الطويل والتعب المتواصل» فأجابه الحفار: «إن فضله على قضيتنا وإخلاصه التام في خدمتها، وتفكيره السليم في سبيلها، خسارة والله، ولكن موته المفاجئ السريع مذهل يا سعد الله».

الذهول الذي خلفته فاجعة موت الغزي لم يأت من المفاجأة فقط، بل لأن الغزي حقق في الأشهر الأخيرة من حياته حضوراً لافتاً في الشارع وعلى صفحات المجلات والجرائد، وكان الناس يتطلعون إلى آرائه الحكيمة والرصينة وهو السياسي المحنك، بخصوص تقرير مصير الدستور، ثم جاء موته في خضم المعركة السياسية مع الدولة المنتدبة، فكان ضربة قاصمة للكتلويين، لتبدو حادثة وفاته سياسية بامتياز. وكتبت القبس في افتتاحيتها عن يوم التشييع: «قال زميل من الصحفيين اللبنانيين، ليست هذه جنازة بل هذه ثورة شعب. وقال إفرنسي، هذا استفتاء شعبي. فالشعب إذن كان يوم السبت يقول كلمته، لا بل جاء يؤيد الكلمة التي قالها في 24 نيسان 1928 يوم رفع فوزي الغزي وإخوانه إلى مقاعد النيابة، وأتى يطوف حول الراية التي جللت النعش ليؤيد كلمة الوطن التي سجلت في قاعة الجمعية التأسيسية يوم 11 آب 1928، وهذا الشعب اجتمع أصيل يوم 6 تموز 1929 يصوت مرة ثانية للدستور كما وضع .. إن يوم فوزي الغزي كان استفتاء شعبياً مباشراً، إن الشيء الذي لا يمكن نكرانه هو أن يوم الموت هو أعظم أيام الشعوب صراحة وأصدقها بياناً».

بعد نحو عشرين يوماً ظهرت نتائج التحليل وتبين أن الوفاة كانت بسبب التسمم بمادة «الستركنين»، وأعيد إجراء التحليل ثانية للتدقيق في مخبر كيميائي آخر فأثبت الثاني أيضاً أن الفقيد تناول كمية من هذا السم، مقدارها عشرون

غراماً؛ تكفي في تقدير الأطباء لقتل عشرة أشخاص، كما أن هذه المادة القاتلة لا يمكن تناولها بواسطة الطعام والشراب، فالمرجح أنه تناولها في «برشانة»، لاسيما وأنه كان يتناول دواء لمعالجة الإسهال والمغص قبل وفاته بستة أيام بواسطة البرشان.

انقضت ثلاثة أسابيع على الوفاة ورجال القضاء يحققون ويراقبون المشتبه بهم لإظهار الحقيقة في هذه الجريمة الفظيعة، ثم تركزت الشبهات على زوجته وابن أخيه رضا الغزي وابن عمه وجيه الغزي، فأُوقفوا بدائرة الشرطة، أما الزوجة ففي دائرة العدلية. بعد التحقيق اعترفت الزوجة بأنها أعطته برشانة قبل وفاته بنحو من ساعة، واعترف وجيه الغزي بتحضير السم بالاتفاق معها ومع رضا الغزي من أجل القضاء على فوزي لأنه كان مصمماً على نقلها والأولاد إلى بعلبك للاصطياف، وهو ما كانت ترفضه لوجود علاقة غرامية بينها وبين ابن أخيه الشاب المدعو رضا الذي لا يتجاوز عمره عشرين عاماً، وكان وجيه الغزي الوسيط في إحضار السم من صيدلية نسيبه منير الغزي بحجة تسميم الأفاعي الموجودة في مزرعته بالقرب من بيته!

لم يكن اكتشاف الحقيقة أقل هولاً ومفاجئة من فجيعة قتل الغزي لدى رفاقه خاصة من عاشره في السجن والمنفى، ولمس منه حباً منقطع النظير لزوجته، ويشهد على ذلك الصحافي نجيب الريس الذي روى حين اجتمع مع الغزي في سجن أرواد، كيف كان يبكي كلما تذكر زوجته وأولاده الذين كان يحبهم حباً يقرب العبادة. يقول الريس في إحدى افتتاحياته في جريدة القبس: «أطل وجه فوزي من خلال حديد الشباك وأخذ يمر بيده على عينيه يكفكف من دموعهما الجارية، ثم يمسح على شعره المتدلي على تلك الجبهة المنيرة ويطرق بنظرات ساجية وديعة إلى الأرض، وأنا أنظر إليه لا أجرؤ على سؤاله عن سبب بكائه، وأخيراً وضع طرف عنقه على أحد قضبان الشبك، ونظر إلي نظرة أقسم أنني ما رأيت شباباً ناضجاً أجمل مما رأيت فوزي في تلك الساعة، وقد شجعتني تلك النظرة التي حرمتنا إياها الأيدي الجانية على سؤاله: خير إنشاء الله هل أحد من الأولاد مريض لا سمح الله؟ وهنا صمت طويلاً قبل أن يجيب، لقد جاءني كتاب من البيت فأثر في نفسي أن زوجتي وحدها، وقد بعدت عنها وعن أولادي، ولقد قرأت هذا الكتاب أكثر من عشرين مرة، فكنت أبكي كلما أعدت قراءته لأنني أتذكر الآن كيف حيل

بيني وبينها. وأفاض في شرح حبه لها، وكيف أنه منذ أن تزوج بها، لم تمل عينه إلى امرأة ولم تستهوه امرأة، وأقسم أنه سافر إلى باريس عام 1922، وكان في نزوة شبابه وعنفوان نفسه وجودة صحته، ومكث فيها ما مكث، وعاد إلى دمشق، فلم يخن زوجته، ولا حاول ولا فكر في أن يأتي أمراً لا ترضى به الرابطة الزوجية، ثم قال إن من يطلب إلى امرأته أن لا تخونه يجب أن يكون هو كالعذراء».

وفيما كانت هناك روايات تؤكد اشتراكها في الجريمة، راجت روايات أخرى سعت لإعفائها من المسؤولية، وبأنها اعترفت تحت الضغط، خاصة وأن السبب المباشر للجريمة لم يكن مقنعاً تماماً. وهكذا بعد أن بدت الحقيقة ساطعة كالشمس، عادت ليلفها الغموض، فقد اعترف أحد الموقوفين بتدبير مؤامرة لقتل الغزي بالرصاص أو بالخنجر، لكن الزوجة خافت أن لا تكون الطعنة قاتلة، أو الرصاصة مميتة، فينجو من الموت وتنكشف المؤامرة. كما جرت معارك على صفحات الجرائد وأروقة المحاكم بين الكتلويين وبين آخرين رأوا أن المتهمة بريئة، وكان من ضمن الدفاعات التي سيقت، أن الزوجة لم تعط زوجها السم، ولم تكن تعلم أنه يميت في غضون ثلاثين دقيقة. فرد الخصوم، ربما لأنها أخطأت، فقد ظنت أنها تعطيه دواء للإسهال يحتاج إلى ثلاثة أيام ليأتي مفعوله القاتل، وهي التي تعلم أن زوجها يتداوى من الإسهال. ومع ذلك، ليس هذا الجدل هو الذي عقد القضية، وإنما ما صرح به رضا الغزي شريك الزوجة، حين نطقت محكمة الجنايات بدمشق في نيسان 1930 بحكم الإعدام على الشريكين، وبتأدية الدية الشرعية وقدرها 521 مجيدية. حينها صرخ رضا في المحكمة: «إن لطفية بريئة، لم تكن تعلم بأن البرشانة التي أعطتها لزوجها كانت تحتوي على السم». وفي رسالة له من السجن، يناشد فيها رئيس الجمهورية الفرنسية كي يفك سجنه يعترف بأنه قتل عمه فوزي الغزي لأنه كان مناهضاً لفرنسا. وقد نشرت الرسالة جريدة النداء البيروتية، ومن ثم نشرت مجلة الناقد صورة عنها وعليها توقيع رضا الغزي، بعد أن أرسل كتاباً إلى جريدة الشعب ينفي علمه بالرسالة.

جاء في رسالته إلى رئيس الجمهورية الفرنسي: (مما لا يخفى على فخامتكم، ما قام به عمي المغدور زعيم سوريا فوزي بك الغزي من إشعال نيران الفتن والثورات في الربوع السورية التي استمرت ثلاثة أعوام، وهو الذي كان

يشرب خلالها نخب دماء الفرنسيين) وفي نص الرسالة الأصلي، يوجد عبارة كتبها رضا ثم شطبها وهي (أني قمت بالاشتراك مع زوجته) ليضع بدلاً منها (اتهمت بالاشتراك مع زوجته بتسميم الزعيم المذكور نظراً للعلاقة الغرامية وتأثير الغريزة التي جبلت عليها نفسي بحب فرنسا) ويتابع في الرسالة (...على أنني لا أقصد بإعلام فخامتكم عن الأسباب التي دفعتني لاقتراف هذه الجريمة، بل لأذكركم بما آل إليه حزب هذا الزعيم من النفوذ والسلطان على المحاكم وأنهم فوق القانون .. إنني لم آت بهذه العريضة لإشفاق علي ورفع حكم الإعدام وحسب، بل كان علي واجب خدمة فرانسة، وجعلت في مقدمتها قتل زعيم الوطنيين أقرب المقربين إلي دون أن أفكر بما سيحيق بي، لا بل لأجل وضع هذه الاقتراحات على بساط البحث في البرلمان الفرنسي).

وكان من اقتراحات رضا الغزي في رسالته، إضافة مادة بخصوص الإرهاب تشمل كل من يوغر الصدور ضد الانتداب، كذلك العمل على القضاء المبرم على نفوذ الكتلة الثورية، وإبقاء الحكومة الحاضرة لما حازته من ثقة بين الناس، وفرض التجنيد الاختياري على الشعب لقاء راتب معتدل، وإصدار عفو عن جميع المجرمين في سجون سوريا بشرط قبولهم التجنيد لصالح فرنسا، وتأسيس اثني عشر معهداً علمانياً فرنسياً في البلاد السورية عوضاً عن المدارس الابتدائية الأميرية!!

هذه الرسالة التي وصلت إلى الصحافة بطريقة ما، لفتت الأنظار إلى الطبيعة السياسية للجريمة، دون الوثوق بها تماماً، إذ من الوارد جداً أن يكون الفاعل قد أراد أن يعطي لجريمته هذه الصفة، لينجو من حكم الموت. كذلك من غير المستبعد على الإطلاق أن تكون الدوافع الحقيقية سياسية لا غرامية، والزوجة كانت ضحية لشريكها، وهو احتمال يقويه التصرف الفرنسي حيال مناشدة المتهم التدخل لوقف تنفيذ حكم الإعدام وإصدار عفو عن مرتكبي الجريمة، لكن صعوبة الموقف وحراجته، وخشية السلطة الفرنسية من استغلال الوطنيين لمشاعر الناس فيما لو أقدمت على هذا العمل، جعلها تستبدل الحكم بالسجن مدى الحياة فقط، إذ لا يمكن التغلب على هيجان شعبي عارم ساهم في تأجيجه رفاق الغزي الكتلويون. وهكذا في الوقت الذي بدأت تظهر فيه مطالبات بإعادة النظر في القضية، توارت قصتهما بين جدران السجن.

بعد حوالي عشرين سنة، في عام 1949 استلم حسني الزعيم مقاليد الحكم في سوريا إثر قيامه بانقلاب عسكري، وأفرج عن زوجة فوزي الغزي. ويقول أسعد الكوراني في مذكراته، إن الزعيم استدعاه وطلب منه وضع عفو خاص عن زوجة الزعيم الوطني المشهور فوزي الغزي، وكان الكوراني حينها يشغل منصب أمين عام وزارة العدل. وقد ألح عليه الزعيم وطلب منه الإسراع بوضع مرسوم العفو. فلما سأله عن السبب قال: إنه قضى في السجن بدمشق شهورا طويلة أيام الفرنسيين كانت فيها تلك السيدة تخدمه بغسل ملابسه وتنظيفها من دون أي مقابل، وقد تأكد من أنها مظلومة، ووعدها بالإفراج عنها، عندما سيتسلم الحكم؛ وقد وجب عليه الآن أن يقابل جميلها بالعفو، بعد أن ظهرت له براءتها من الاشتراك في قتل زوجها.

طلب الكوراني أن يمهله بضعة أيام ليدرس إضبارة الدعوى، ولما درسها ظهر أن قاضي التحقيق الذي تولى النظر فيها لم يكن على مستوى دقة القضية وأهميتها، حتى أنه اتجه فيها اتجاهات سياسية غريبة جدا. وكان رأي الكوراني، أن الزوجة إذا كانت تبغي الطلاق من زوجها المرحوم، فالأمر كان سهلا عليها جدا ولا يتطلب القتل. وإذا كانت تريد الاستئثار بثروته فهي أعلم من غيرها بأنه لا يملك سوى 300 ليرة ذهبية عثمانية. وهو ليس بالمبلغ الكبير .. ثم أنها بفضل زوجها كانت تشغل مكانة عالية جدا في المجتمع، فكيف تسعى للخلاص من زوج له هذه المكانة من أجل الوصول إلى حبيب ضئيل الشأن؟ ومهما شاعت أقوال بغير ذلك فلم تتجاوز حدود الشائعات.. وإذا صح أنها وضعت برشامة السمّ في علبة علاجه وأعطته إياها، حينما طلبها منها، فمن غير الثابت أنها كانت على علم بمحتواها. فركن القصد الجرمي في عملها كان بلا دليل، أو أن الدليل عليه كان موضع الشك، ولكن محكمة الجنايات كانت متأثرة بسيرة الزوجة ومكانة الزوج، وبظروف تلك الأيام السياسية وبالشارع أيضا، وكانت ساحة المرجة حيث تقع دار القضاء تعجّ بالجمهور الصاخب وهو يصيح بطلب الإعدام فوراً..

أصدر الكوراني مرسوم العفو العام ووضعه في نطاق ضيق جداً شريطة أن يكون المحكوم قد أمضى في السجن عشرين عاما، ولو كان محكوماً بالإعدام وأُنزل إلى الأشغال الشاقة المؤبدة. وخرجت لطفية من السجن بعد شهرين من

صدور العفو العام بالمرسوم التشريعي بتاريخ 18 أيار 1949 بمناسبة وقوع الانقلاب الأول في تاريخ سوريا.

وطوي ملف القضية المثيرة التي شغلت السوريين طويلاً، وشكلت ندبة كبيرة في الحياة السياسية الوطنية، دون أن يتم التوصل إلى الحقيقة التي لم تكن غامضة، وإنما كانت غير واضحة بالفعل، بل ومخادعة، إذ المطلوب كان الحقيقة الكلية أو الكاملة، فبالقدر الذي بدت فيه وكأنه لا لبس فيها، لم ترض الكثيرين، من فرط ما خالط العواطف المشبوبة الآثمة، والمشاعر الجامحة المجرمة من غضب شعبي وفجيعة وطنية، عصفت بها السياسة.

سعاد جروس

محمد الأشمر

الشيخ المجاهد

(1892-1960)

شكل إضراب 1936 في فلسطين مأزقاً بالغ الصعوبة بالنسبة لسلطات الانتداب البريطانية؛ ولم تستطع إنهاءه إلا بعد بذلها جهوداً منسقة لإقناع الزعماء العرب (عبد الله في الأردن، وابن سعود في الحجاز، والنحاس باشا في مصر، ونوري السعيد في العراق) بممارسة ضغوط على القيادة الفلسطينية؛ وهو ما فعلوه، ساد بعدها هدوء دام عاماً واحداً تقريباً، وإن لم يكن كاملاً.

مع ربيع عام 1937، بدا وكأن الثورة سوف تستعيد حيويتها عقب صدور توصيات لجنة بيل، القاضية بالتخلي عن الانتداب وتقسيم فلسطين إلى دولتين يهودية وعربية؛ يمكن دمجها في شرق الأردن، وقد رفضها المؤتمر العربي الذي عُقد في بلودان، وكانت قراراته معتدلة إزاء بريطانيا، وذلك لدور بعض السياسيين العرب في المؤتمر الميالين إلى التفاهم مع الحكومة البريطانية. هذه اللهجة المعتدلة أغضبت عدداً كبيراً من الوطنيين السوريين والفلسطينيين، إلى درجة أنهم عقدوا اجتماعاً سرّياً؛ ناقشوا فيه خطط تصعيد المقاومة في فلسطين. وتلته اجتماعات أخرى على هذا النحو.

أثارت أخبار اجتماعات الوطنيين السرية ذعر العقيد غلبرت ماكيريث القنصل البريطاني في دمشق؛ كانت تنذر بتجدد الثورة في فلسطين، وفي الواقع كانت التحضيرات على قدم وساق لإطلاقها؛ فقد ثبت لدى القنصل أن مجموعات صغيرة من السوريين جرى تأليفها تحت قيادات جماعية؛ وتلقت - بما لا يَدَعُ مجالاً للشكّ - عربوناً مالياً يراوح بين جنيهين وأربعة جنيهات فلسطينية، وبندقية، وعدداً قليلاً من الرصاصات، وجلاّبية، وقنّينة ماء. هذه المجموعات كانت في انتظار إشارة من فلسطين لعبور الحدود، في مجموعات من ثلاثة إلى أربعة؛ للقاء في مكان ما على تلال نابلس.

فيما يتعلّق بـ القنصل ماكيريث، فإنه لم يكن قد نسي بعد ماجريات السنوات الماضية في دمشق؛ عندما بلغ التعاطف مع قضية فلسطين حداً كبيراً بين جميع الناس سواء العامة أو النخبة؛ وتلقت الثورة الفلسطينية خلالهما مساعدات لم تقتصر على الدعم الكلامي؛ وإنما شملت المال والسلاح، وشهدت البلاد نزوحاً من المجاهدين السوريين وغيرهم نحو المناطق المشتعلة في مدن فلسطين وقراها؛ في ذلك الحين أدركت الكتلة الوطنية المخاطر المحتملة لهذا الدعم؛ ليس من الفرنسيين، وإنما من الإنجليز الذين كانوا المؤيد الوحيد لهم في مطالبتهم بالاستقلال؛ فقررت وضع حد لتأييد الفلسطينيين، آنئذ كتب القنصل ماكيريث إلى حكومته بأن الكتلة قررت في اجتماع سري أن توصي وبهدوء بحظر الأنشطة المعادية للبريطانيين في فلسطين؛ وإن عبّرت في العلن عن تعاطفها معها. كان القنصل مفرطاً في التفاؤل، المرجح أن هذا الخبر سُرّب إليه لطمأنته، لأن القرار لم ينفذ، نظراً لأن شكري القوتلي زعيم الجناح العربي المتشدد كان رئيساً للكتلة بالوكالة آنذاك.

بدا من العبث الطلب من الفرنسيين التدخل لإقناع حكومة مردم بإنهاء المساعدة السورية للاضطرابات التي بدأت تلوح، ومع هذا جمع القنصل عدداً من الوثائق المتعلقة بتزايد أعمال تهريب الأسلحة من سورية، وبالاستعدادات لتجنيد سوريين في مجموعات مقاتلة. كذلك اكتشاف زمرة من الفلسطينيين منتمين إلى منظمة عز الدين القسام، كانت تخطط في دمشق لسلسلة عمليات اغتيال في فلسطين. كل هذه المعلومات قدمها إلى السلطات الفرنسية في سورية، لكن المندوب الفرنسي الكونت أو ستروروغ قال له بعد عدة اجتماعات، بأن هناك صعوبات عملية لا تساعده على تذليل هذه العقبات.

كان ماكيريث متأكداً من أنَّ الفرنسيين لن يكونوا مستعدين أبداً لقبول أي طلب بريطاني يقضي بتدخل فرنسي لصالح الإنجليز؛ بل وخططوا عمداً للتصرف ببطء، لأنهم لم ينسوا أنَّ البريطانيين أحجموا عام 1925 خلال الثورة السورية، عن إبداء تعاطف ملائم مع الفرنسيين إزاء الصعوبات التي كانوا يواجهونها حينئذ. وكتب ماكيريث مذكراً رؤساءه في لندن بهذا الخطأ: «إنه لواقع لافت أن سلطاتنا البريطانية في فلسطين ولاسيّما في شرق الأردن، أظهرت تجاه

قطاع طرق وثوار سوريين ترحيباً، علينا الآن أن نأسف له بصورة محزنة. والشوكة الحادة في خاصرتنا اليوم هي محمد الأشمر؛ وهو رئيس عصابة.. ومسؤول مباشر عن موت ضابطَين فرنسيَّين، وثلاثة ضباط صف فرنسيين عام 1925، وذو سجل إجرامي، حكمت محكمة عسكرية فرنسية عليه بالإعدام، وقد فر إلى فلسطين، فأصررنا على معاملته لاجئاً سياسياً. وقضيته كقضية فوزي القاوقجي، بوصفه فاراً من القوات الفرنسيّة، كانت واحدة من قضايا كثيرة. ومعظم أولئك الذين استفادوا يومها من اللجوء السياسي البريطاني، يخطّطون الآن للذهاب إلى فلسطين، أو أنهم ذهبوا إليها فعلاً لمتابعة أعمالهم الإرهابية، وهذه المرة ضد الإدارة البريطانية مباشرة».

وقبل أن يستفحل أمر محمد الأشمر وأمثاله من المتعاونين والمحرضين، اختار ماكيريث السبيل المخالف جداً للأصول، وهو، كما قال حرفياً: «السعي لإخافة الحكومة السورية لكي تتخذ إجراءات»، لوقف المساعدات لقوات الثوار في فلسطين؛ فقد كانت الحكومة السورية قد منحت حق اللجوء السياسي والحماية للفلسطينيين المنفيين، الذين لم يضيعوا وقتهم، وألفوا (اللجنة المركزية للجهاد)، التي تولت مسؤولية تنظيم الثورة، وحظيت بتعاون وثيق من لجنة الدفاع عن فلسطين التي كان يرأسها سوريون، وكان التعاون يشمل مجالات جمع الأموال، وشراء الأسلحة، وتجنيد متطوعين، ومقاطعة السلع البريطانية واليهودية، بالإضافة إلى تراخي الإجراءات الأمنية على الحدود، وتزايد أعمال تهريب الأسلحة والمقاتلين، ومشاركة رجال الدرك السوريين المولجين بحراسة الحدود بمساعدة الثوار؛ وذلك بتشجيع كامل وغير محدود من وزارة الداخلية السورية.

أخيراً واتت الفرصة القنصل ماكيريث خلال مأدبة عشاء غير رسمية أقيمت في 17 تشرين الأول في مقر إقامة رئيس الوزراء السوري؛ وناقش الوضع مع جميل مردم واثنين من وزرائه، وأثار فوراً مسألة محمد الأشمر وعددٍ من المهيجين السياسيين المعروفين جيداً في دمشق؛ وفاجأه مردم بأنه قام قبل يوم فقط باستدعاء الأشمر وإخطاره بوقف التدخل في شؤون فلسطين. لكن ماكيريث كان يعلم سلفاً بأن الأشمر رد على مردم بأن «ليس لديه استعداد بأن يملي عليه أحد لا من الحكومة السورية ولا من أيّ حكومة أخرى، ما يفعله أو ما لا يفعله»، كان

تحديه وجرأته مستندَين بلا ريب إلى الشعبية الكاسحة التي تحظى بها القضية الفلسطينية في حي الميدان بالذات؛ هناك لم يكن لرجال الكتلة الوطنية سوى نفوذ طفيف، عندئذ اضطر ماكيريث إلى تهديد مردم في الموضع الأشد إيلاماً، ملمحاً إلى أن الغضب المتصاعد في أوساط الرأي العام البريطاني سوف يلحق ضرراً بالقضية العربية عموماً؛ لكن الأخطر أنّه سوف يوجه ضربة مهلكة إلى الاستقلال السوري؛ وكان مردم لا يجهل بأن بريطانيا كانت النصير الغربي الوحيد لسورية في معركتها السياسية مع الفرنسيين.

وإذا كانت التدابير السورية التي أُتُخذت قد أسفرت عن تغيّر ملحوظ؛ لكنها في الواقع لم تمنع تسلل المقاتلين تماماً؛ ومع أن محمد الأشمر كان قد اتّخذ جميع الترتيبات اللازمة ومعه عدد من المجاهدين السوريين لدخول فلسطين، واتّخاذ مواقعهم في مكان ما بين بيسان وجنين ونابلس، استعداداً لاستئناف الثورة؛ لكن الظروف الجديدة جعلت دخولهم مستحيلاً بسبب ضغوط شاركت فيها الحكومة ومعها جهات فلسطينية. كانت عيون القنصل تترصد محمد الأشمر بالذات، على أنه وغيره من الذين اضطروا إلى البقاء في سورية، ظلوا مصدراً لتموين الثوار الفلسطينيين بالمال والسلاح؛ وأصبحت دمشق مركز إدارة الثورة وتوجيهها.

❖ ❖ ❖

ولد الشيخ محمد الأشمر عام 1892 في حي الميدان الدّمشقي لأسرة مكية الأصل؛ كانت تلقب بآل رجب، استوطن أجداده قرية سيجر قرب حماه، ثمّ انتقلوا إلى دمشق، ولقبت العائلة بالأشمر. نشأ محمد الأشمر وترعرع في بيئة دينية، وتعرّف على الصوفية بواسطة الشيخ أمين الزملكاني الكردي بدمشق؛ ولبس الخرقة الصوفيّة، واتبع الطريقة النقشبندية، ودُعي بمحمد الأشمر النقشبندي. اتصل بعلماء دمشق، ودرس علوم الدين، وتلقى الفقه على يد الشيخ عبد القادر الشموط اثنتي عشرة سنة؛ والحديث على محدّث الشام الشيخ بدر الدين الحسني.

وكان للشيخ الحسني بالذات دور كبير في الدعوة إلى الثورة بعد دخول الفرنسيين سورية؛ والمناداة بالجهاد المقدس حتى جلاء آخر جندي فرنسي عن البلاد؛ وطوال الثورة كان يجتمع بوجهاء دمشق، ويهيب بهم مد يد العون للثوار، ويستقبل المقاتلين، الذين كانوا يأتون إلى دار الحديث بكامل أسلحتهم: فرساناً

وركباناً، لكي يسلموا عليه، ويتبركوا بدعائه، فيقفون في انتظار نزوله من غرفته ليمرُّ بينهم، وهم مصطفّون أقساماً: مشاة وعلى الخيول، فيوجههم إلى تقوى الله، ويدعوهم إلى طلب الفرج منه والنصر على الأعداء، ثم يودعهم، ويرجع إلى مأواه، فيذهبون وقد أذكى الشيخ فيهم نار الحماس، وهم يطلقون الرصاص، وأصواتهم تعلو بالأهازيج الحماسية. أثارت دعوة الشيخ الحسني للجهاد نقمة الفرنسيين، فجاء المندوب السامي الفرنسي وحاول إقناعه بعدم جدوى ما يقوم به، وسأله التراجع عن فتواه، فرفض الشيخ قائلاً له: والله لا تهدأ هذه الثورة إلاّ بخروجكم، فغضب المندوب السامي وخرج.

لم يتلقّ الأشمر علم الحديث وفضائل الجهاد على يد الشيخ الحسني فحسب، بل وأصبح مقرباً منه وملازماً له، وكان خلال الثورة في دمشق والغوطتين، يأتي إليه برفقة المجاهد حسن الخرَّاط صباحاً قبيل الفجر؛ ويقابلاه بدار الحديث، ليقدما إليه بياناً يومياً عن سير المعارك؛ فيوجههما التوجيه المفيد، ويقوي قلبيهما بالإيمان، ويشد من عزيمتهما، دون أن يوفر وسيلة للمساعدة على إمدادهما بالذخيرة والمؤن.

❖ ❖ ❖

كان الأشمر من الذين استقبلوا قوات الثورة العربيّة الكبرى عند دخولها دمشق؛ وبرفقته صديقه المجاهد أحمد مريود، واستبشرا خيراً. لم يطل ابتهاجهما بالتحرر من تسلط الأتراك طويلاً، كانت المطالبات الفرنسية بسورية تشتد يوماً بعد يوم، وعندما عزمت فرنسا على احتلال دمشق، خرج مع المجاهدين يوم ميسلون، وقاتل حتى انهزم الجيش، وعاد إلى دمشق، ثم التجأ إلى حوران بعد دخول القوات الفرنسية، وأقام فيها زمناً، واشترك في التصدي للحملات التأديبية التي كان الفرنسيون يرسلونها إلى حوران؛ ولما جدَّ الفرنسيون في أثره، نزح إلى (الرمثا) في شرقيّ الأردن.

مع اندلاع الاضطرابات في جبل الدروز في 18 تموز 1925، واستفحالها، ووصول أنباء إلى دمشق عن انهيار الرتل الفرنسي المؤلف من 3000 جندي بقيادة الجنرال روجيه ميشو؛ لرفع الحصار عن السويداء، أثارت هزيمة الفرنسيين آمال الوطنيين في أنحاء سورية، كانت هزيمة القوة الفرنسية صاعقة،

فالهجوم الذي قاده سلطان الأطرش ألحق بالفرنسيين خسائر فادحة بالأرواح والعتاد، وانتحر يومها القائد الفرنسي لإحدى الكتائب، والجنرال ميشو نفسه انسحب قبل الأوان، واستولى الثوار على ألفي بندقية. بدا أن الثورة قد بدأت فعلاً، وفي سبيلها إلى أن تشمل سورية.

في ذلك الوقت كان الشيخ الحسني قد أنهى الدعوة لـ «حملته الجهادية ضد المستعمر الفرنسي للأمة المسلمة في بلاد الشام»، وعاد من جولته في سورية، بعد أن جابها من الشمال إلى الجنوب، ومن الغرب إلى الشرق، برفقة تلميذَيه العالمَين: الشيخ علي الدقر، والشيخ هاشم الخطيب، وهم يحضّون على النهوض للقتال ضد الاحتلال.

طلب الشيخ الحسني من محمد الأشمر العودة من الأردن، فعاد سراً إلى دمشق، وكان الزعماء الوطنيون قد بدأوا يعقدون الاجتماعات خفية لوضع خطة للعمل؛ فشارك الأشمر في الاجتماعات مع أعضاء من حزب الشهبندر، وقبضايات أحياء الميدان والشاغور والعمارة وسوق ساروجة، وسياسيون من حماة. ومثلما حركت أخبار الجبل حماستهم، حركت قلقهم أيضاً، فيما يتعلّق بقادة المدن كان تشجيع انتفاضة مماثلة من دون دعم خارجي يعد بمثابة عمل انتحاري من الناحيتين: السياسية والعسكرية؛ فقد كانت المدن محصنة بالقوات والثكنات الفرنسية، والضمانة الوحيدة لاندلاع الانتفاضة وصول قوات الثورة إلى دمشق.

توجه وفد وطني للتداول مع سلطان الأطرش على رأسه نسيب البكري والشيخ محمد الأشمر؛ وهناك أقسم وفد دمشق وسلطان باشا أغلظ الأيمان على أن يتعاونا معاً تعاوناً وثيقاً من أجل طرد الفرنسيين من سورية؛ وحسب الاتفاق تقدمت قوات جبل العرب نحو دمشق، لكن تم وقف جيش الثوار الذي قاده سلطان باشا على بعد خمسة أميال من دمشق بقوة تتألف من ثلاث سرايا من السباهية دعمتها الطائرات الفرنسية، فاضطر الشهبندر وجماعته بعد انكشاف أمرهم للهرب إلى جبل العرب.

لن يطول الوقت، عندما بدأت الانتفاضات تندلع تباعاً، لكن أوّلاً في حماة بقيادة فوزي القاوقجي، ثم في دمشق، وأدت إلى اشتعال الثورة في المدينتين حوالي منتصف تشرين الأول، بعد عودة المجاهدين الدمشقيين الذين غادروا إلى الجبل،

وقيام الذين بقوا في دمشق من زعماء المجاهدين، ومنهم الأشمر، بالخروج إلى الغوطة، واتخاذها قاعدة للهجوم. وبحلول أواخر الشهر، كانت الثورة قد شملت مناطق واسعة من سورية؛ ثورة مترابطة الأجزاء، نجم عنها جبهة وطنية عريضة.

كانت نصائح الشيخ الحسني لتلميذه الأشمر أن يعمل على جمع المقاتلين، ويوحد كلمتهم، ويضع حداً لخلافاتهم، وأكد عليه منع التعديات على الناس. كانت موقعة جوبر يوم 13 تشرين الأول بداية الثورة، تلتها في اليوم التالي معركة المليحة، فالهجوم على الضمير، ومن ثم مهاجمة دمشق بثلاث مجموعات: الأولى مجموعة نسيب البكري عن طريق حي الميدان (بوابة الله)، والثانية مجموعة أبو عبده سكر عن طريق باب السلام، والثالثة مجموعة حسن الخرّاط عن طريق بساتين الشاغور، وتمكنت من دخول دمشق، ورد عليها الفرنسيون بقصف المدينة قصفاً وحشياً، دمر أحياء بكاملها، والمنطقة الواقعة بين سوق الحميدية وسوق مدحت باشا؛ وأصيب سوق البزورية بأضرار كبيرة، وكانت حصيلة القصف حسب جريدة لومانيته الفرنسية 1416 قتيلاً، أغلبهم من المدنيين النساء والأطفال.

خاض الأشمر معارك الثورة، وشارك المجاهدين القتال في منطقة الغوطة، وكانت أشهر المعارك التي شارك فيها: فك الحصار عن جبل الدروز في المسيفرة، ومعركة يلدا، ومعركة بستان باكير قرب حي الميدان بدمشق، ومعركة بستان البندقة بين حي الميدان وكفر سوسة، ومعركة مئذنة الشحم بدمشق، ومعركة جسر تورا على طريق دوما، ومعركة حي الميدان. كما قام ورفاقه بتدمير خطوط السكك الحديديّة التي يستخدمها الفرنسيّون؛ وتقطيع أسلاك الاتصالات الهاتفيّة والبرقيّة، ومطاردة الخونة والجواسيس، وتقديمهم لمحكمة الثورة.

مع شهر تموز من عام 1926، لاحت نهايات الثورة بقيام القوات الفرنسية بتطويق الغوطة بواسطة خمسة جيوش؛ بحيث تتقدم في داخلها وتلتقي في دمشق، احتدمت بعدها المعارك بعنف ووحشية، ولم تختتم فصول الثورة فعلاً إلا في النصف الأول من عام 1927- وكان آخرها يوم 19 أيار - باصطدام الأمير عز الدين الجزائري مع وحدات الأقليات الفرنسية؛ ودارت بينهما معركة عنيفة استشهد فيها الأمير مع 38 مجاهداً.

انتهت الاشتباكات في دمشق والغوطتين، وكلّفت كثيراً من الخسائر سواء بالرجال أو العتاد، فقد كبدت الفرنسيين ما يزيد عن 1500 قتيل، وقضت على زهرة شباب دمشق وغوطتيها، وسببت خراباً كبيراً في المدينة، وتدميراً لعدد من القرى، وتعطل عدة مواسم زراعية. وإذا كانت قد انتهت بالفشل دون أن تحقق مراميها بالجلاء؛ فبسبب ضعف التمويل وعدم كفاية التنظيم، وصعوبة تأمين الأطعمة والذخيرة، لكنها حققت نجاحاً بإجبار الفرنسيين على إجراء انتخابات 1928، وكان أول مرحلة على درب الاستقلال.

بعد سيطرة الفرنسيين على الغوطة لجأ الأشمر إلى حوران؛ واستقرّ في قرية داعل، ولمّا علم الفرنسيّون بوجوده فيها سيّروا حملة عسكريّة ترافقها الطائرات لاعتقاله؛ لكنّه استطاع كسر طوق الحصار الذي ضرب حول القرية، والخروج منها ممتطياً فرسه تحت قصف الطيران عبر نهر اليرموك، واستقرّ في واحة الأزرق، وسمح له الملك عبد الله بالإقامة في بلدة ناعور قرب عمّان، فمكث فيها ثلاث سنوات، وخلال إقامته في الأردن شكّل فرقة عسكرية قوامها ستّمئة مقاتل، وشارك في الهجمات التي شنها الثوار على مراكز الفرنسيين في جنوب سورية (منطقة اللجاة). عندما صدر العفو العام عن الثوار سنة 1931، عاد إلى دمشق، وأقام فيها، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويصلح ذات البين بين العناصر الوطنية.

❖ ❖ ❖

لم تكن مشاركة الأشمر في الثورة السورية مأثرته الوحيدة في مجال النضال الوطني والقومي؛ فقد لبّى داعي الجهاد ثانية، عندما اشتعلت نيران الثورة الكبرى في فلسطين سنة 1936؛ والتحق بصفوفها، ودخل فلسطين مع القائد سعيد العاص على رأس مجموعة من المجاهدين السوريين عن طريق شرقي الأردن، وانضم إلى القوات المحلية والقوات العربية بقيادة فوزي القاوقجي؛ وكانت منطقة نشاطه مثلث نابلس، ولا سيما منطقة طولكرم. قاد الأشمر المفرزة الشاميّة، وكانت إلى جانب المفرزة العراقيّة ومفرزة جبل العرب في معركة آب 1936، التي قادها القاوقجي ومنير الريّس؛ وخاض خلال الأربعين يوماً التي قضاها في فلسطين قبل توقف أعمال القتال عدداً من المعارك؛ أهمها معركة بلعا الثانية (2-3 أيلول 1936)، التي اشترك فيها أكثر من ألف مجاهد، وانتهت بانهزام الإنجليز بعد

أن سقط منهم قرابة 100 قتيل؛ وسقطت لهم طائرتان، ومعركة جبع 24 أيلول، وثبت فيها الأشمر مع المجاهدين على سفح جبل ياصيد، واستطاعوا بعد التراجع في بداية المعركة إنزال الهزيمة بالقوات البريطانية؛ وأخيراً معركة بيت إيمرين 29 أيلول، عندما طوقت نابلس قوات بريطانية كبيرة مدعومة بالمصفحات والطائرات؛ وهاجمت على حين غرة الثوار في دير الغصون، حيث كانت بعض فصائلهم ترابط فسقط منهم عدد من الشهداء، ولكن الفصائل الأخرى المرابطة في بيت إيمرين وبرقة اتخذت الحيطة؛ وهاجمت القوات الإنجليزية، وأوقعت بهم خسائر كبيرة زادت على 150 قتيلاً، ولما توقفت أعمال الثورة في فلسطين إثر نداء الملوك والرؤساء العرب في 12 تشرين أول 1936، وإنهاء الإضراب العام في الأراضي الفلسطينيّة، انسحب الأشمر وجماعته إلى شرقي الأردن، بعد أن سلّموا أسلحتهم إلى الحاج أمين الحسيني، عاد بعدها إلى سورية.

ظل الأشمر على صلة بأحداث فلسطين وزعمائها، واجتمع بالمفتي وبعدد من قادة الثورة الفلسطينية بعد مؤتمر بلودان أيلول 1937؛ واتخذ الترتيبات اللازمة مع المجاهدين السوريين بدخول فلسطين، واتخاذ مواقعهم في مكان ما بين بيسان وجنين ونابلس، استعداداً لاستئناف الثورة، لكن الحكومات العربية حالت دون دخولهم طوال الفترة من أيلول 1937 إلى أواخر 1939؛ لكنهم ظلوا مصدراً لتموين الثوار الفلسطينيين.

❖ ❖ ❖

على أنَّ الأشمر سيصطدم تحت ظل الانتداب مع الحكومات الوطنية، فقد كان من المناصرين للحملات التي قادتها الجمعيات الخيرية الدينية في المدن ضد تدفق البضائع والأفكار الأجنبية؛ ولا سيما انتشار «الحانات والملاهي التي تقدم المشروبات الروحية، وتدير موائد القمار، وتعرض الراقصات». وقد وجهت الجمعيات انتقاداتها الشديدة إلى الملابس المتحررة التي كانت نساء الطبقتين العليا والمتوسطة (ومنهن زوجات لقادة الكتلة الوطنية) يرتدينها في الأماكن العامة، كما ضغط رجال الدين على جميل مردم كي يستقيل من رئاسة الوزارة عام 1939؛ بسبب مسألة الأحوال الشخصية التي حاول الفرنسيون بها اعتبار الإسلام بمنزلة دين بين الأديان، وقاد الأشمر مظاهرة شعبيّة، اشترك فيها الشيخ كامل القصّاب،

والشيخ بهجت البيطار، وكان الطلاب وعلى رأسهم الشيخ علي الطنطاوي يهتفون: ديننا، «ديننا، لا نرضى عنه بديلاً». فاستغل مردم الضغط، واستقال بصورة مشرفة بعد إخفاق سياساته.

كانت التغيرات الاجتماعية قد أبرزت دوراً للمرأة في المجال السياسي؛ فأصبحت تشارك في الإضرابات والأنشطة الخيرية، لكن رجال الدين رأوا في هذا التوجه تخريباً غريباً خطراً للتقاليد والقيم الإسلامية؛ فقامت في أيار 1942 مظاهرات احتجاج ضخمة، تشجب تصرفات النساء اللواتي كنّ يخرجن إلى الأماكن العامة سافرات؛ أو للتنزه مع أزواجهن متكئات على أذرعهم، وطالبوا بأن تجعل الحكومة للنساء عربات خاصة في الترامويات في وقت الازدحام للفصل بين الجنسين، وأن تغلق الحانات والملاهي المجاورة للأماكن الدينية، وان تنشأ شرطة خاصة للأخلاق لقمع الرذيلة، لكن الحكومة لم تُعِر هذه الاحتجاجات اهتماماً كبيراً، مما سيؤدي إلى انفجار كبير في أيار 1944، بعد أن أثبتت الحركة النسائية المتنامية في دمشق وجودها بعقد اجتماعات عامة؛ تم فيها التحريض علناً على العمل على تحرر المرأة، وجرى التركيز على مسألة النقاب، وضمت الاجتماعات عدداً من زوجات سياسيين بارزين في الحكومة والبرلمان.

كانت المناسبة التي أشعلت الاضطرابات هي الحفلة الخيرية التي دعت إليها زوجة وزير التعليم نصوح البخاري، عندما ترامى إلى أسماع رجال الدين خبر أن نساء مسلمات قررن حضور الحفلة سافرات؛ فطالبوا وفي مقدمتهم الشيخ محمد الأشمر أن يقوم رئيس الشرطة بإلغاء الحفلة، فرد عليهم بأن الحفلة شأن مسيحي، وليس باستطاعته سوى أن يطلب من اللجنة عدم السماح للنساء المسلمات بالدخول. أثار هذا غضب الجمهور المحتشد في جامع تنكز، فخطب الأشمر فيهم، واستنهض غيرتهم الدينية، فنزلوا إلى الشوارع وأغلقوا المحلات، وسارت تظاهرة كبيرة أمام منزل الوزير البخاري، ونادي الضباط الفرنسي، حيث كان مقرراً أن تقام الحفلة، وواجه رجال الشرطة المتظاهرين من المشايخ وأتباعهم المسلحين، وأطلقوا عليهم الرصاص، وقتلوا اثنين منهم. بينما تمكن رئيس الوزراء سعد الدين الجابري من إقناع اللجنة بتأجيل الحفلة؛ وأمر الشرطة بملاحقة قادة المظاهرة المتسببين بالاضطرابات، مما أدى إلى محاولة اقتحام دار الشيخ الأشمر

في حي الميدان بغية القبض عليه؛ لكنهم لم يستطيعوا أكثر من تطويق منزله، فاستنفر الموقف الأهالي، وكاد الحي أن يشهد مزيداً من العنف قد يمتد إلى أنحاء دمشق، فتداركه الرئيس شكري القوتلي بإرسال ضباط من الشرطة، استقبلهم الأشمر في مضافته، وأبلغوه على لسان الرئيس الانصياع لطلبه إطفاءً لفتنة قد يستغلها الفرنسيّون ويعرقلون الجهود المبذولة للتوصّل إلى الاستقلال بشكل كامل، فنفّذ الأشمر القرار حقناً للدماء، وحذّر إخوانه من تداعيات الاصطدام مع السلطة الوطنية، وتوجّه إلى جزيرة أرواد مع سجّانه طواعية، واحتجز فيها ثلاثين يوماً، وقد قيل في ذلك الوقت بأن دار الأشمر كانت دائماً حمّى لمن دخلها؛ لم يجرؤ فرنسي على الدنو منها، فلما كان عهد الاستقلال اقتُحمت داره، واقتيد إلى السجن، وعلّق الشيخ علي الطنطاوي على الحادثة بقوله: «نحن نخوض المعركة، وغيرنا يأخذ المغانم».

في معركة الاستقلال، عندما أخذ الفرنسيون يعدون لضرب دمشق، أحبط الأشمر محاولاتهم تجنيد شركس القنيطرة، وجعلهم يأتون مجاهدين للدفاع عن المدينة وحمايتها، ولما قصف الفرنسيّون المجلس النيابي السوري والأحياء والأسواق؛ بادر إلى إقامة سلطة شعبيّة في غياب الحكومة، فبسط الأمن، وحمى الأسواق ومخازن الغلال من أعمال النهب، وقام بتوزيع المجاهدين على أطراف المدينة للدفاع عنها، وردّ العدوان.

بعد الاستقلال، حوالي منتصف الخمسينات، ومع صعود المد الشيوعي في سورية، دُعي الأشمر لزيارة الصين والاتحاد السوفييتي؛ فلبّى الزيارة التي استغرقت ستة أشهر، تفقّد خلالها أحوال المسلمين، ومُنح جائزة ستالين العالميّة للسلام بين الشعوب، وتقلّد وسامها في دمشق يوم 17 آذار 1955، وقد حاول الشيوعيون السوريون استغلال شعبيته من خلال هذه الجائزة. لكن البون كان شاسعاً بينهما، فلا الأشمر يستطيع تجاوز إلحاد الشيوعيين، ولا الشيوعيون يستطيعون استيعاب مسألة تدينه الجهادي، مع أن التعاون كان عبارة عن إقامة علاقة بين الحزب الشيوعي والأشمر كأحد أبطال الثورة السورية، والوجوه الوطنية ذات الشعبية القوية لاسيّما في حي الميدان العريق، وكان من الممكن أن يستفيد منها الحزب الشيوعي في انتخابات عام 1954 التي خاضها الأشمر

بدعم من الحزب. ويذكر أهل الميدان بكثير من الاستغراب والحيرة أنّ خالد بكداش رئيس الحزب الشيوعي رفض آنئذ دعوة الأشمر له لأداء صلاة الجمعة معاً في الجامع الأموي بعد أحد اللقاءات الانتخابية. وفي التسعينيات اعترف بكداش أنه روى هذه الحكاية للزعيم الصيني ماو تسي تونغ، عندما التقى به في بكين عام 1959، وأن الأخير قال له: «ولكن لماذا لم تذهب إلى الجامع؟ كان عليك أن تذهب معه دون تردد»!

❖ ❖ ❖

أمضى الشيخ محمد الأشمر عمره ثائراً ومناضلاً، وكان أحد قادة الجهاد الإسلامي والنضال الوطني في سوريّة وفلسطين؛ حارب الفرنسيين والإنجليز تحت شعار «الدين لله والوطن للجميع». لم يعبأ بالمناصب السياسيّة ولا بالمكاسب الماديّة، وسعى دائماً لرأب ما تصدع في بنيان الوطن، ورصّ صفوف الأمة. كان محافظاً من غير تزمت، وإذا كان قد وقف ضد تحرر النساء، فلأن الدعوة جاءت مواكبة للوجود الفرنسي في سورية، وهذا ما جعل معارضته تأخذ شكلاً متصلباً وعنيفاً. ولا ينبغي أن نستغرب موقفه فقد كان ابن عصره، فهو لم يكن ضد النساء، وإنما ضد التسيّب الاجتماعي، كما أن دعاوى التحرر في ذلك الوقت، كانت تبدو معزولة ومشبوهة، وأحياناً تتم تحت رعاية فرنسية.

عرفت دمشق قدر ابنها البار، عندما اعتلّت صحته في أواخر حياته, وبعدما توفي في 3 آذار 1960، وكرمته بتسمية ساحة الميدان باسمه، فأُطلق عليها «ساحة الأشمر»، كما أقامت جماعة من أهل الدين والخير مسجداً باسمه في حي الزاهرة.

في ذكرى وفاته وقف الشيخ مصطفى السباعي يرثيه، ويعدد مآثره، فقال: كان الأشمر مثالاً للمجاهد الشجاع الجريء الذي يقتحم غمار الموت؛ ويهزأ بالأخطار التي تسعى بين يديه ومن خلفه، كما كان مثالاً للرجل المؤمن التقي الذي كان يلقي بالمواعظ على إخوانه المجاهدين متنقلاً من مكان إلى مكان؛ يبث فيهم من روحه المؤمنة القويّة كل معاني الثقة بالله وبعدالة الحق الذي خرجوا للدفاع عنه.

جميل مردم بك

السياسي المحترف

(1893 - 1960)

«يبدو جميل مردم بنظارتيه، وبدلته المجعدة، وظهوره دوماً مستغرقاً في تأمل عميق، أقرب إلى الشخص المثقف منه إلى المحنك السياسي الغارق في فن الدبلوماسية.»

هكذا كتبت عنه مجلة المضحك المبكي في عام 1933. لا يفي هذا الوصف اللمّاح الموشى بسخرية خفيفة ما ناله مردم من مديح وانتقاد؛ مديح عريض إلى حد الإطناب، وانتقاد لاذع إلى حد الاتهام بالخيانة. وربما لن تصادفنا شخصية لسياسي سوري أثارت تناقضاً في الرأي مثلما أثارته شخصية مردم الإشكالية فعلاً؛ فقد لُقّب بالسياسي الوطني الأوحد في سورية، وثعلب سورية الروّاغ، ومهندس استراتيجية (التعاون المشرف) مع الفرنسيين؛ وَوُصفَ أيضاً بالانتهازي والعميل، وخرجت المظاهرات مراراً تنادي بإسقاطه، كما اتّهمه شكري القوتلي بالغش، وجَرِّ البلاد إلى العبودية بدوافع المكسب الشخصي البحت؛ وهاجمه الزعيم إبراهيم هنانو بشدة مشيراً إلى (الصفقات القذرة) لمردم وشركائه، كما أُتّهم بقبول رشاوى من شركات نفط أجنبية لقاء حقوق امتياز لها؛ ومع أن هذه التهم لم تثبت قط، لكنها أساءت إليه، وعلى الرغم من كثرة منتقدي مردم، كان خصومه السياسيّون أولَ المسارعين إلى التعاون معه.

لا يمكن فهم هذا الهجاء ولا ذاك الإطراء، إلا بإدراك أن جميل مردم كان سياسياً محترفاً، الأكثر حيوية وديناميكية بين أقرانه من قيادات الوطنيين؛ من سبقه منهم أو جاءَ بعده. كانت صحفُ المعارضة ومنافسوه وأعداؤه الألدّاء لا يتورعون عن تحويل دليل غير مؤكد إلى فضيحة كبرى لتشويه سمعته؛ ومن طرفه عاملهم بالمثل، ففرض عندما كان في السلطة قوانين تعسفية على الصحف؛ بهدف منع مقالات تنال منه، واتهم الشهبندر بالعمالة للإنجليز، وغمز من علاقاته مع أمير الأردن عبد الله، ومنعه من فتح مكتب سياسي، وأقال موظفي الحكومة الذين

عرف عنهم بأنهم متعاطفون معه؛ وعندما عاد الشهبندر إلى البلاد مطلع عام 1938، وضعه في الإقامة الجبرية، ثم أطلقه تحت مراقبة الشرطة المستمرة.

منذ أوائل القرن الماضي إلى ما بعد منتصفه، كان حضور مردم فاعلاً في مجريات السياسة السورية وفي صميم أحداثها؛ متصدراً واجهتها أو محركاً لها من وراء الكواليس. كان الوحيد المؤهل للعب أدوار براغماتية مستعصية وبالغة الدقة؛ بل ومستحيلة. وهذا ما منحه الامتياز بأن أحداً غيره لا يستطيع الإقدام على ما قام به؛ لذلك لم تكن كثرة أخطائه إلا لصعوبة المهمات التي تنطّع لها بجدارة، وأخفق بها بجدارة أيضاً.

❖ ❖ ❖

ولد جميل مردم في دمشق 1893 من عائلة عريقة من ملاكي الأراضي؛ وأنهى تحصيله الثانوي في مدرسة مكتب عنبر، التي تخرجت منها أغلب القيادات الوطنية الدمشقية؛ سافر إلى فرنسا للاختصاص بالعلوم الزراعية؛ بهدف تحسين استثمار أراضي العائلة، وتسجل في الوقت نفسه في معهد العلوم السياسية.

انتسب في باريس عام 1911 إلى جمعية (العربية الفتاة) السرية؛ وشغل منصب أمين الصندوق، وكان عمره ثمانية عشر عاماً، كان بين الطلاب العرب الخمسة الذين دعوا إلى عقد مؤتمر عربي في تموز 1913؛ بهدف الحفاظ على هوية (الأمة العربية)، من خلال المطالبة بزيادة الإصلاحات في الولايات الناطقة بالعربية في الدولة العثمانية، شارك في المؤتمر ممثلون عن جميع الأقاليم العربية؛ وشغل فيه وظيفة أمين السر العامّ المساعد؛ وكانت مهمته تنسيق الجهود وتصنيف المطالب الوطنية للعرب. صدر عليه حكم غيابي بالإعدام في محاكمات (عاليه).

قام بين عامي 1918/1917 برحلة إلى دول أمريكا اللاتينية بصفته مندوباً عن مؤتمر باريس؛ بهدف تقوية الصلة مع الجاليات العربية. عاد إلى باريس، وانضم في شباط 1919 إلى الأمير فيصل؛ وألقى خطاب سورية في مؤتمر الصلح في فرساي، أكد فيه أن سورية: «كما استطاعت المساهمة في حدود إمكانياتها بالمجهود الحربي للحلفاء؛ فإنها لا ترفض المساعدة الفنية من الغرب، ولكنها حريصة على ممارسة سيادتها كاملة، وأن تكون هذه السيادة محترمة ومعترفاً بها

علناً». عاد إلى الوطن مع الأمير فيصل؛ وأصبح أحد مستشاريه، كما سمي معاوناً لوزير الخارجية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في حكومة هاشم الأتاسي.

بعد فرض الانتداب على سورية، أسس الشهبندر حزب الشعب من الناشطين الأثرياء والمحامين وملاك الأرض؛ كان مردم من أعضائه البارزين المعترف بهم على أنهم المعبرون الطبيعيون عن تطلعات المجتمع السوري؛ ساهم في ثورة 1925 ضد الفرنسيين تحت زعامة سلطان الأطرش؛ وكانت اجتماعات التحضير للثورة في دمشق تعقد في منزله بالغوطة. عندما حاصرت القوات الفرنسية جبل الدروز تمكن مع الشهبندر من الفرار والوصول إلى مدينة حيفا؛ أصدر المجلس العدلي عليهما حكماً بالإعدام غيابياً؛ قبضت عليه السلطات البريطانية، وسلمته إلى السلطات الفرنسية، وأُرسل إلى المنفى في جزيرة أرواد مع عدد من الزعماء الوطنيين، إلى أن أصدر الفرنسيون قراراً بالعفو عنهم. في عام 1928، شكل الزعماء الوطنيون تجمعاً تحت اسم الكتلة الوطنية برئاسة هاشم الأتاسي، أصبح مردم في عداد (المكتب الدائم) من الذين يديرون شؤون الكتلة اليومية؛ ويؤلفون قيادتها الفعلية، ومن المسؤولين عن تنفيذ القرارات وإصدار البيانات.

جرت الدعوة لانتخابات الجمعية التأسيسية، فأُنتُخب مردم عن دمشق، وساهم مع فوزي الغزي في وضع الدستور، لكن المفوض السامي سيعترض على ست مواد من الدستور؛ ويحل الجمعية التأسيسية؛ ثم ينشره في 1930 بعد إضافة مادة تمنع أي تعديل على المعاهدات والتشريعات دون الحصول على موافقة المفوض السامي؛ ثم دعا لانتخابات جديدة، ومع حلول عام 1931، أعلن هاشم الأتاسي وجميل مردم أن الكتلة مستعدة - بأسف وشيء من التحفظات - لابتلاع (تحريفات) المندوب السامي في الدستور، وللاشتراك في الانتخابات في حال قُدّمت ضمانات على عدم التدخل فيها؛ بيد أن التنازلات لم تلق قبولاً من جميع أعضاء الكتلة، ووجهت إلى مردم انتقادات شديدة؛ لكنه سيتجاهلها، ويبدأ بعقد لقاءات منتظمة وسرية مع الجانب الفرنسي في محاولة للتوصل إلى اتفاق؛ وهو تكتيك سرعان ما أصبح علامة فارقة لأساليب مردم في التعاطي السياسي. في نهاية المطاف، عُقدَت صفقة: ستكون الانتخابات حرة في دمشق إذا ضمن

الوطنيون عدم تقديم أكثر من ستة مرشحين إلى المقاعد التسعة المتنافس عليها؛ كذلك ساد الحل التسووي في حلب، ونجحت الكتلة الوطنية في الانتخابات.

منذئذ تميز مردم عن الآخرين ببراغماتيته السياسية؛ وستتبعها صفقة سرية أخرى بين الكتلة الوطنية والجانب الفرنسي بمشاركته، مع مظهر أرسلان في الوزارة؛ خُصَّ كلُ واحدٍ منهما بوزارتين؛ وَوَصف مردم الوزارة الجديدة علانية بأنها: «وزارة التفاهم المتبادل والشرف»، ورسم بذلك ما دعي بسياسة: «التعاون المشرف» الخاصة بالكتلة الوطنية.

أعلن المندوب السامي إثر عودته من باريس عن استعداده لبدء مفاوضات حول اتفاقية ترضي السوريين؛ وكانت قد سبقت قدومه إضرابات واضطرابات بلغت ذروتها في حلب؛ وامتدت التظاهرات إلى دمشق، وطالبت باستقالة الوزراء الوطنيين رداً على المندوب السامي؛ اجتمعت قيادة الكتلة، وتوصلت بالإجماع إلى قرار يحظّر على النواب الوطنيين العودة إلى البرلمان، قبل تحديد السياسة الرسمية الفرنسية، التي ستقوم عليها الاتفاقية؛ واشترطوا أن تتطابق مع امتيازات الاتفاقية البريطانية العراقية؛ ولم يكن أمام مردم سوى الموافقة، لكن بتردد، غير أن المسؤولين الفرنسيين قدموا المزيد من التأكيدات على الإخلاص الفرنسي؛ وشجّعوا الكتلة على الوثوق بالمفوض بونسو؛ وأعلنوا أن الخارجية الفرنسية فوضته بمعالجة المسألة السورية بالكامل، عندئذ تجددت آمال الكتلة بالتوصل إلى حل لمسألة الاستقلال والوحدة؛ ومنحوا رئيس الجمهورية محمد علي العابد صلاحية التفاوض بشأن اتفاقية (تنظيم العلاقات في المستقبل بين فرنسا وسورية بما ينسجم وأماني البلاد)؛ وانتصرت سياسة جميل مردم في (التعاون المشرّف).

لكن المفوض بونسو الذي سافر إلى جنيف لإلقاء كلمته أمام عصبة الأمم حول الاتفاقية، سيقترح ـ هناك ـ تقسيم الانتداب إلى منطقتين: إحداهما (منطقة المعاهدة) لتشمل دولة سورية، والأخرى (منطقة انتداب) وتشمل لبنان الكبير ودولة العلويين وجبل الدروز؛ وعندما سأله رئيس لجنة الانتدابات الدائمة عن مسألة وحدة سورية؛ رد بونسو مشدداً على الحاجة إلى تطوير منطقة الانتداب قبل دمج الأقليتين العلوية والدرزية في سورية؛ لتخلفهما السياسي. كذلك تعمد تجاوز شرعية مطالبة الكتلة الوطنية بقيادة سورية.

كان ردّ فعل الكتلة متخماً بمشاعر الخيبة والغضب، فبونسو لم يرفض منح الكتلة الاعتراف الكامل الذي تطالب به وتستحقه فحسب؛ بل ونحّى بصورة خرقاء قضية الوحدة. نشر بونسو تصريحاته التي أدلى بها في جنيف؛ ليعطي الجمهور السوري فكرة عن نواياه، واستأنف مفاوضاته مع الرئيس العابد والحكومة؛ وبدورها كانت الكتلة الوطنية صريحة: لا فصل بين مسألة الوحدة وتطبيق الاتفاقية، لا اتفاقية توقع ولا مفاوضات تجرى إلا على هذا الأساس؛ لا عضو في الكتلة يفاوض.

اعتقد مردم أن التقرب من الفرنسيين هو الأمر العملي الوحيد الذي سيأتي بفائدة؛ بعد أن استُنفدت الخيارات الأخرى جميعها؛ فأجرى اتصالات سرية ببونسو، ونجح في إبقاء المفاوضات قائمة، فيما كانت حملة الرفض تتصاعد، وتطالب الكتلة بإرغام مردم على الاستقالة من الحكومة؛ فألح مردم على بونسو بإعادة دراسة مسألة الوحدة؛ لكن بونسو لم يستجب، ورفضت باريس التخلي عن الخط الذي رُسم في جنيف؛ بينما خشي الوطنيون أن يفسد مردم حملتهم بعرض صفقة على بونسو في اللحظات الأخيرة؛ يمكن أن تشق صفوفهم، على أنه سينصاع لهم ويقدم استقالته. كانت المهمة التي أعد نفسه لها في ذلك الوقت مهمة مستحيلة، وعموماً توصل إلى اقتناع بأنه لن يتمكن من مواجهة تصلب الكتلة ولا تليين الفرنسيين، ومن ثمَّ لم يستطع أن يقيم توازناً بينهما، حتى أنه هو نفسه لم يستطع الحفاظ على توازنه في معمعة كان فيها الخاسر الوحيد؛ لكن مردم كان من النوع الذي يتحول من الدفاع إلى الهجوم؛ وقلب خسائره إلى مكاسب، ولم يتأخر الوقت.

وضعت المفوضية العليا نصوص المعاهدة، ووقعت عليها الحكومة الجديدة، وأحيلت إلى مجلس النواب للمصادقة، ولم يكن عدد النواب الكتلويين يتجاوز سبعة عشر نائباً، وحضر المندوب السامي ليسجل انتصاره على الكتلة، ويلقي خطابه التقليدي، وكان المنظر مثيراً عندما نهض جميل مردم، واعتلى المنبر، وتلا مضبطة وقع عليها حوالي خمسين نائباً برفض مشروع المعاهدة جملة وتفصيلاً؛ فسارع وكيل المندوب السامي، واعتلى المنبر من طرفه الثاني، وتلا قرار المفوض السامي بحل المجلس؛ ليقطع الطريق على مردم، لكن رئيس مجلس النواب سينحاز إلى

الكتلة، ويعلن رفض مشروع المعاهدة، فاحتج مندوب المفوض، وتمسك بحل المجلس، فأجابه الرئيس بأن المضبطة قرئت قبل تلاوة القرار. وبهذا يعتبر مشروع المعاهدة مرفوضاً قبل حل مجلس النواب.

في فترة 1934، بدا أن الكتلة قد فشلت بشكل كامل في محاولاتها التفاوض على اتفاقية مع فرنسا؛ وأظهر مؤتمرها الأخير جماعتين متعارضتين؛ الراديكاليين بقيادة هنانو، والمعتدلين بقيادة مردم الذي أحس بأنه لم يكسب شيئاً لصالح خطه السياسي؛ لأن برنامج الكتلة قد بالغ بالتشدد من خلال مطالبته، بأن تشمل الوحدة السورية الأقضية الأربعة والوحدة الإدارية الاقتصادية؛ وعفواً سياسياً عاماً.

لم يتراجع مردم عن مواقفه المرنة وسياساته بعيدة النظر؛ كان رجل حسابات يحاول دوماً الإمعان في المستقبل؛ وريثما يأتي الوقت الملائم أخذ يعمل على توسيع شبكة محسوبيته عبر اتصالات شخصية مباشرة؛ وأن يضم إليه عدداً من الشباب الوطني، وعناصر مهمة من طبقة الملاكين والبرجوازية التقليدية؛ وزعماء الأحياء والمشايخ الشعبيين، هذه القاعدة المتنوعة منحته تفوقاً واضحاً على منافسيه، لاسيّما القوتلي.

انتهى عام 1935 بمحصلة سلبية جداً؛ فرنسا غير مستعدة لاستئناف المفاوضات، والبرلمان معطل، وحكومة الشيخ تاج سيئة السمعة لا تزال قائمة؛ والاقتصاد السوري لم يخرج بعد من أعوام الكساد، والهجوم قائم على سياسة (التعاون المشرف). وبدا بقاء الكتلة معلقاً على عمل سياسي دراماتيكي يعيد بعث المفاوضات؛ على أن فرصة مردم كانت قادمة، وفيها سيحقق إنجازه الكبير، وإخفاقه الأكبر.

في 20 كانون الثاني 1936، اندلعت أعمال الشغب في دمشق رداً على إغلاق مكتب الكتلة الوطنية في القنوات؛ واعتقال البارودي وسيف الدين المأمون. أغلقت الأسواق أبوابها، واحتشد طلاب وشبان الأحياء للإعداد لمسيرة إلى السرايا على رأسها مردم والقوتلي؛ لم تتعدَّ المظاهرة نهاية الشارع عندما ضربت الشرطة طوقاً حولها وأطلقت النار؛ فتفرق الحشد، واعتقل بعض الطلاب. في اليوم التالي، أرسل الفرنسيون قوات لتعطيل مهرجان طلابي في الجامع الأموي؛ فقتلوا أربعة أشخاص. وفي حلب أغارت قوات الأمن على بيت الأمة (مكان إقامة الراحل

هنانو)؛ وصادرت الوثائق الموجودة، فأغلق سوق المدينة، وخرجت المظاهرات، وانتهى اليوم بقتل شخصين. في حمص استمرت أعمال الشغب يومين آخرين، مع مزيد من القتلى. وكانت دمشق على حافة إغلاق تام.

لم تكن الكتلة سيدة الموقف، وإنما الطلاب ونشطاء عصبة العمل القومي وقبضايات الأحياء واجهة التحريض السياسي؛ وقد وجّه الزعماء الوطنيون نداءات طالبين منهم العودة للهدوء؛ إلا أنّ الطلاب رفضوا، ونظموا مسيرة دعوا فيها إلى الوحدة الوطنية ومواصلة الإضراب؛ وبفعل الضغط الهائل، ترأس مردم وفداً للقاء المندوب الفرنسي، في محاولة لنزع فتيل الوضع المتفجر؛ لكن الاجتماع لم يؤدِّ إلى نتيجة، فدعا جميل مردم وباسم الكتلة الوطنية إلى إضراب عام، يدوم حتى تعيد المندوبية الحياة الدستورية إلى سورية.

في الواقع كانت الكتلة تتبع الجماهير أكثر من أن تقودها؛ إذ كان قد مضى على الأحداث أسبوع تقريباً، وإذا كانت الكتلة قد سارعت وقدمت في العلن موقفاً غير تسووي؛ لكنها خلف الكواليس أخذت بتقديم اقتراحات توفيقية؛ في حين كان الطلاب ومعهم علماء الدين قد صاغوا مطاليبهم: عفو عام عن المعتقلين، إلغاء قرار طرد الطلاب، إعادة فتح مكتب الكتلة. رفض الفرنسيون المطالب جملة، فاندلعت المظاهرات مجدداً، وعمت المدن الأخرى، وفي محاولة من المفوضية لاستعادة النظام، اعتقلت جميل مردم ونسيب البكري؛ وفرضت القانون العرفي في أنحاء البلاد؛ واعتقلت أيضاً أبرز قادة الكتلة في حلب؛ اعتقدت أنها بإجراءاتها القمعية كسرت الإضراب، بيد أنه تواصل بقوة، واشتدت أعمال العنف، واتسعت المظاهرات. كان الوضع قد أفلت من يد الجميع.

لم يعد هناك أمام الفرنسيين سوى التفاهم مع الكتلة؛ فقام المفوض السامي بحركة مفاجئة، نحا فيها إلى المهادنة، كعربون للتفاهم، فأقال وزارة الشيخ تاج، وكلف عطا الأيوبي بتشكيل وزارة جديدة، ضمت إليها ثلاثة وطنيين معتدلين؛ لإيجاد صيغة للعمل بين الطرفين. وكبادرة حسن نية إضافية، أفرج الفرنسيون عن المعتقلين دون محاكمة؛ وعندما كادت أن تهدأ الأمور، أصدر هاشم الأتاسي بياناً شديد اللهجة؛ أدى إلى تظاهرة حاشدة في دمشق، فقتلت الشرطة أربعة أشخاص، كانت تلك آخر أعمال الشغب. عقد بعدها قادة من الكتلة ووزراء من

حكومة الأيوبي خلوة مع المندوب السامي في بيروت؛ وتوصلوا إلى اتفاق مُرْض، وأعلن الأتاسي على أثره في 2 آذار أن وفداً سورياً سيتوجه إلى باريس فوراً للتفاوض بشأن الاتفاقية؛ ونجحت الكتلة بالحصول على الاعتراف بها، ممثلة للشعب السوري في مفاوضات تضع حداً للانتداب.

كان إضراب 1936 أكبر انتصار حققته الكتلة الوطنية؛ وأنقذ استراتيجية (التعاون المشرف) التي عادت إلى العمل بإشراف جميل مردم، الذي كان من عداد وفد مفاوض على رأسه هاشم الأتاسي؛ ضُمّ إليه سعد الله الجابري وفارس الخوري.

في باريس واجه الوفد مساومة فرنسية قاسية، فقد أصر الفرنسيون على إبقاء أنظمة الحكم شبه المستقلة في منطقة العلويين وجبل الدروز؛ وكادت المفاوضات أن تنهار، لكن رحيل حكومة سارو، ومجيء حكومة ليون بلوم الاشتراكية عدَّل الموقف؛ فتواصلت المفاوضات طوال الصيف، وبحلول أيلول تم التوصل إلى معاهدة، تضمّنت ضمّ منطقتي العلويين والدروز إلى الدولة السورية مع القبول بإجراءات محددة لحماية الأقليات الدينية؛ وعلى أن تمنح فرنسا حق الاحتفاظ بقاعدتين عسكريتين، مع التسهيلات اللازمة؛ وأظهرت فرنسا كرمها بالتخلي عن الحق باسترداد نفقات إدارتها وحمايتها خلال فترة الانتداب؛ ومكن هذا الاتفاق من عودة الوفد إلى الوطن ظافراً، واستقباله استقبالاً باهراً.

بعد الاحتفالات مباشرة أعدت الكتلة لانتخابات عامة؛ حققت فيها انتصارات ساحقة، فأُنْتُخب فارس الخوري رئيساً للبرلمان، والأتاسي رئيساً للجمهورية، أما مردم فشكل الوزارة، وفي 27 كانون أول صادق البرلمان على الاتفاقية بالإجماع. وعارضها طرفان غير ممثلين في المجلس: عصبة العمل القومي، وجماعة الشهبندر.

كان أول ما فعله مردم بعد توليه الحكم تسديد ديون الكتلة السياسية بتوظيف أكبر عدد ممكن من أنصارها ومؤيديها؛ وبالنسبة للمعاهدة لبث مصيرها معلقاً على قدرة الجبهة الشعبية الحاكمة في فرنسا على إقناع البرلمان بقبول الاتفاقية؛ ولم تكن الأجواء السياسية في باريس مبشرة كثيراً؛ كانت صحف اليمين قد بدأت بشن حملة سياسية نشطة؛ تدعو لرفض التنازلات المقدمة لسورية، لأن المعاهدة عكست تردد فرنسا وضعفها في الخارج؛ ومنعتها من استعادة استثماراتها

في سورية، وفرضت نظاماً أحادياً على منطقة متنوعة علمياً، مبددة نظام الحماية الذي أقامه الفرنسيون للأقليات الدينية.

كان الاتفاق ينص على فترة تجربة لمدة ثلاث سنوات قبل المصادقة الفرنسية؛ فأعطى ذلك أيضاً لخصومها من الفرنسيين الوقت الكافي للتصدي لها؛ فعدا اليمين السياسي، كانت المؤسسات الضخمة ذات الارتباط بالشرق، تنادي بأن على فرنسا البقاء في سورية لحفظ نفوذها التقليدي؛ ولمنع انتشار العروبة إلى شمال أفريقيا؛ وحماية لبنان من النزعة التوسعية السورية؛ وحماية الأقليات من الأغلبية الإسلامية؛ بالإضافة طبعاً إلى حماية مشاريعها التجارية واستثماراتها المالية. هذه المطالب تعالت بقوة مع تأليف حكومة برئاسة دالادييه، الذي تعهد بـ«الدفاع عن الإمبراطورية الفرنسية الاستعمارية المهددة وخطوط الاتصال الفرنسية في البحر المتوسط». أضيف إليها تلاعب الصحف بعواطف الجمهور الفرنسي، بالتركيز على أن الاتفاقية ستلحق ضرراً كبيراً بموقع فرنسا الثقافي المرموق في الشرق؛ بالإضافة إلى عدم قناعة المسؤولين الفرنسيين في سورية بالمعاهدة؛ الذين أخذوا يدفعون باتجاه قيام حركات انفصالية في مناطق الأقليات الكبيرة؛ لدحض ادّعاء حكومة الكتلة أنها تمثل سورية موحدة.

طلبت الخارجية الفرنسية من مردم الموافقة على إدخال تعديلات على الاتفاقية؛ وكانت موافقته مجازفة بصدقية حكومته، ومع هذا قبل التفاوض بشأنها، لأنه يفهم أكثر من غيره الأجواء السياسية المتغيرة في فرنسا، ما جعل خصومه يضاعفون جهودهم لإسقاطه. فسافر إلى باريس للحفاظ على المعاهدة، وبعد عودته استدعت بعض التفاصيل أن يتبادل رسائل مع نائب وزير الخارجية الفرنسية؛ كان من شأنها توفير حماية إضافية للأقليات، والتأكيد أيضاً على أن سورية ستعتمد على التعاون التقني الفرنسي من أجل تنظيم خدماتها العامة.

سَبَّبَ إعلان الضمانات، قيام تظاهرات رافضة في دمشق؛ أدانت الاتفاقية وهددت بالعنف. كان مردم واثقاً بأن الوطنيين يؤيدونه؛ لكن بعد فترة دفعته الانتقادات وأعمال الشغب المتزايدة إلى محاولة احتوائها؛ فأمر بسجن 15 عضواً من جماعة الشهبندر، أعقبها في الشوارع احتدام المظاهرات المؤيدة والمناوئة، وعقد اجتماعات وإلقاء خطب تحريضية؛ مع انتشار إشاعات بأن مردم وافق حين

كان في باريس على بنود سرية مجحفة في الاتفاق المتعلق ببنك سورية، وكان فيها بعض الصحة؛ مما دفع شكري القوتلي إلى الاستقالة.

تحت وطأة هذه الضغوط الخارجية والداخلية، بذل مردم الجهد الأخير لإنقاذ المعاهدة؛ فذهب إلى باريس في آب 1938؛ وأمضى ثلاثة أشهر في التفاوض بشأن ترتيبات جديدة؛ أراد بها التخفيف من مخاوف الحكومة الفرنسية؛ فوقَّع على وعد بالسماح بالتنقيب عن النفط؛ وضمان مكانة للغة الفرنسية في نظام التعليم السوري؛ وبقاء كادر من الوكلاء الفرنسيين في سورية بصورة دائمة؛ وتأمين حقوق الأقليات لاسيّما المسيحيين؛ وهنا وعدت الحكومة الفرنسية بعد أن أرهقت مردم إلى حد الإفراط، بتقديم المعاهدة إلى البرلمان للتصديق عليها.

عند عودته واجه معارضة شديدة؛ وأُتُّهم بجميع أنواع الخطايا، وبحلول نهاية 1938، توضح المصير المشؤوم لمردم: الحكومة السورية رفضت قبول أي من التسويات التي قدمها؛ كذلك رفض البرلمان الفرنسي المصادقة عليها حتى مع التنازلات؛ مما يعني أنه سيجد نفسه مرغماً على الاستقالة. كانت مصداقيته السياسية قد أخفقت بصورة مدوية، وفي الوقت نفسه، لم يستطع التغلب على الحركات الانفصالية؛ وضياع إسكندرون وركود الاقتصاد السوري، كما فقد شعبيته العربية بإحجامه عن التورط في قضية فلسطين.

لم يعد هناك بديل عن الاستقالة، لكن كيف؟ لو كان هناك أيُّ سياسي غيره لخُلع من منصبه في وقت أبكر بكثير؛ لكن لا أحد سوى رجل واحد هو جميل مردم كان يستطيع الصمود؛ ولا يضطر للاستقالة على نحو مشين؛ وربما لو لم تساعده الظروف في العثور على مخرج معقول لاستقالته؛ لما عدم الحيلة.

وسوف تنجده الظروف بقضية تتيح له الاستقالة بصورة كانت أكثر من لائقة؛ عندما أصدر المفوض السامي قراراً يقضي بتطبيق مرسوم تنظيم الجماعات الدينية؛ بعد تعديله من قبل المفوضية الفرنسية، أجاز فيه أن يبدل المسلم دينه، وأن تتزوج المرأة المسلمة من غير مسلم، فأثار حفيظة المسلمين المتدينين، وعلى رأسهم المشايخ الذين اعتبروا أن المرسوم عاملهم كطائفة بين عدة طوائف؛ وبالنسبة لمردم ظفر بقضية تجعل الناس يلتفون من حوله، فأصدر أمراً للمحاكم بتجاهل المرسوم وعدم العمل بمضمونه؛ ما دفع المفوض الفرنسي إلى

التدخل داعياً الحكومة إلى سحب أوامرها؛ لكن الحكومة لن تنصاع وستتمسك بموقفها، أظهر الموقف دهاء مردم السياسي، فقد زاود على المعارضة، وتحدى سلطة الانتداب، واستعاد صيته المتصلب، كان القليل الذي خسره باستقالته، قد ربحه بالتعويض عنها بخروجه من الحكم مرفوع الرأس، وسط موجة عارمة من الحماسة الجماهيرية.

تدل قدرة مردم على المناورة والمساومة - على الرغم من أخطائه - أنه لم يكن وحيداً؛ ولقد وفرت له بيئته سنداً متيناً وشعبية قوية؛ كانت مصنوعة من خلال شبكة من القبضايات المعروفين؛ يدعمونه ويؤيدونه ويُسيّرون له المظاهرات، اعتمد عليهم في الأحياء الشعبية لتعزيز مواقفه، وإذا كان سياسيو الكتلة قد انتقدوه، فقد كانوا يدركون بأن هزيمته هزيمة لهم، مثلما كان نجاحه نجاحاً لهم؛ ولهذا اضطرت الكتلة عند عودته من باريس إلى تأمين سيارات لمؤيديها المهمين وحجزت لهم فنادق في بيروت لتمكينهم من استقباله استقبالاً فخماً. كما تلقى قادة الحزب وقبضايات الأحياء في دمشق مبالغ نقدية لتوزيعها على المتظاهرين، فمنح كل واحد منهم مبلغاً سخياً مقداره قرشان لقاء هتافه لزعامة مردم.

على كل حال، لا يمكن أن يلام مردم وحده، كانت تلك هي الطريقة التقليدية بين السياسيين؛ لخلق شعبية زائفة، ومثلما كان لمردم حاشية مثل تللو والقباني والبيروتي وخدام السروجي؛ كان للقوتلي حاشيته أمثال أبو عبدو العشي وراعي الصفرة والبرنجكجي والعائدي؛ هذا النهج الشعبي والغوغائي ألغته العهود الثورية، وأخرجت الناس في المظاهرات بغوغائية أكبر ودون مقابل، وصنعت شعبيتها بالقسر والقوة.

يُعد جميل مردم بين طاقم السياسيين الوطنيين من تلك النخبة النافذة والعقلانية والطموحة الذين تبنوا خطاً سياسياً نظيفاً غير مهادن في البداية؛ على أن السياسة ليست حرباً مستمرة، وإنما كما أصبحت بعد انتهاء الثورات الوطنية المسلحة؛ عبارة عن مهادنات ذكية تشد من أزرها الإضرابات والمظاهرات وأعمال الشغب؛ وقد وفر مردم لهذا النهج خبراته، إذ كان على بينة بكيفية التعامل مع الانتداب؛ وعلى أسلوب مفاوضة رجالاته، والتعاطي بدراية مع رفاقه من الكتلة والأحزاب الأخرى؛ لكنه ومن دون شك وضع نفسه في الأزمات السياسية الكبرى

بين قوّتين: الانتداب والحركة الوطنية؛ وحاول أن يكون كما أشاع أعوانه عنه (أسد في دمشق وثعلب في باريس). وعلى الرغم من مهاراته السياسية التي لا جدال فيها، فقد تأخر في إدراك أن إقناع الفرنسيين في التصديق على المعاهدة كان مهمة مستحيلة؛ إذ لم يدع الفرنسيون أمامه سوى مجال ضيّق للمناورة، حاول أن يوسعه لكن على حساب التزامه بالاستقلال والوحدة السورية؛ في تلك الفترة، جازف بسمعته الوطنية؛ ولم يكن على صواب في اعتقاده الجازم بأن تقديم التنازلات أمر لابد منه للخروج من مأزق الانتداب.

❖ ❖ ❖

بعد الاستقالة اتّسم نشاطه السياسي بالتضاؤل، حتى كاد أن ينعدم، وذلك بعد اغتيال الشهبندر، وهروبه إلى العراق مع القوتلي ولطفي الحفار إثر سريان الإشاعات بأن قادة الكتلة أوعزوا بقتله؛ ولم يعد إلى سورية إلا بعد أن برّأه القضاة، وتمكن بصعوبة من الحفاظ على زعامته للكتلة حتى عام 1941، حتى انتزعها القوتلي منه. ولقد استطاع الشيخ تاج المكروه من الوطنيين اجتذابه، والاتفاق معه على دعمه في رئاسة الجمهورية مقابل تكليفه بتشكيل الوزارة، فتورط مردم معه وترك رفاقه. استفاد الشيخ تاج من مناصرته له، ثم أبعده وتولى الحكم وحده، وأضاع بهذه المساومة مكانته؛ ما جعله بعدها ينكفئ قليلاً، ثم ينتقل إلى الصفوف الجانبية، ويمارس الحكم دونما طموحات كبيرة، على أن نشاطاته لن تخفت، ولن يتراجع عن أساليبه من مناوراتٍ ومساومات؛ لكن بلا آفاق حقيقية، ففي عام 1943 أعيد العمل بالدستور، وأعيد انتخابه في البرلمان، وكلف بنيابة رئاسة الحكومة ووزارة الخارجية، وتخلى عن الحكم في أيلول 1945. ثم تسلم بدعم عربي، مهمة تمثيل سورية في مصر، وفي السعودية كوزير دولة، وكان للبعثة الدبلوماسية السورية في عهده نفوذ كبير. فترأس الدورة الأولى للجامعة العربية؛ وبناء على تكليف منها توجه إلى القدس للقيام بوساطة عربية لتوحيد الفلسطينيين. بعد الجلاء في كانون أول 1946، دُعيَ لتشكيل وزارة جديدة، وأشرف في تموز 1947، على إجراء الانتخابات للمجلس النيابي.

أراد القوتلي تجديد رئاسته بعدما قاربت على الانتهاء؛ مما تطلب تعديل الدستور، فلم يوافقه سعد الله الجابري؛ ونشب الخلاف بينهما، فاتفق مع

مردم الذي وعده بالعمل على تعديله، وبالمقابل وعده القوتلي برئاسة الوزارة؛ فأعاد تشكيل الحكومة في تشرين أول 1947، وأثناء فترات وزاراته رفض التوقيع على اتفاقية التابلاين، والاتفاقية النقدية مع فرنسا، واتفاقية الهدنة. وبعد الهزيمة في حرب فلسطين لم يقدم استقالته طوعاً، قدر ما أطاحت بحكومته المظاهرات والحوادث الدامية.

كان ذلك آخر عهده بالسياسة، فغادر سورية في كانون الثاني 1949؛ وأقام في القاهرة، ويبدو أنه غادرها في الوقت المناسب، فبعد شهرين من العام نفسه، قام حسني الزعيم بانقلابه، مفتتحاً سلسلة انقلابات، اندفع خلالها العسكر إلى الواجهة، وأخذوا يديرون دفة السياسة علناً، واستجرّوا السياسيين إلى الالتحاق بهم، دون أن يكون لهم ثقل في القرار السياسي؛ وهذا ما جعل مردم لا يرغب في العودة إلى سورية، على الرغم من المحاولات العديدة التي حاولت ثنيه عن قراره؛ مع أن الرئيس عبد الناصر بعد سقوط الشيشكلي وعده بمساندته إذا رغب بترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية؛ غير أن مردم سيدعم بقوة عودة القوتلي إلى رئاسة الجمهورية.

بعد تعرضه لأول أزمة قلبية في عام 1954. نشر تصريحاً أعلن فيه رسمياً اعتزاله الحياة السياسية؛ وكان الظهور الأخير السياسي والجماهيري لمردم بتاريخ 1 شباط 1958، عندما دعاه الرئيس عبد الناصر للوقوف معه ومع الرئيس القوتلي عند التوقيع على إعلان الوحدة بين سورية ومصر.

في 30 آذار 1960، توفي جميل مردم بك في القاهرة.

فواز حداد

خير الدين الزركلي

سيرة علم

(1893 - 1976)

إضاءة أولى:

ما أذكره، أن اسم الزركلي اقترن دائماً بقصيدة حنين، لا أعرف إن كنت قد درستها في كتب القراءة المدرسية، أم أن مدرساً قد قررها لنا من خارج الدروس. غير أنني ما زلت أحفظ مقاطع منها حتى اليوم:

العين بعد فراقها الوطنا لا ساكناً ألفت ولا سكنا
ريانة بالدمع أقلقها أن لا تحس كرى ولا وسنا
كانت ترى في كل سانحة حسناً، وباتت لا ترى حسنا

قصيدة فراق، مشبعة بالمكنون، والخسارات:

ليت الذين أحبهم علموا وهم هناك ما لقيت هنا
ما كنت أحسبني مفارقهم حتى تفارق روحي البدنا

في صورة المخيلة، بدا الشاعر ناحلاً، حائراً، يقف على حدود الحنين، والأمنيات، منفياً، لا يكابد الغربة وحسب، بل يعاني من اللوعة، لعجزه عن العودة إلى وطنه، أيضاً.

كانت القصيدة تماثل - في جانب منها - ما يكتبه الشعراء المهجريون، الذين اختاروا الغربة «بإرادتهم»، وعانوا الشوق «بإرادتهم» أيضاً. غير أنها تفترق عن قصائدهم في نبرة العذاب التي تردد شكوى الشاعر من عجزه عن العودة إلى وطنه، ورؤية الأهل «الذين يحبهم»، وهذا ما زاد في إعجابنا بالقصيدة، في حقبة كانت فيه فكرة الوطن، (والوطن نفسه) بهية، ومقدسة، حين وجدناه يقول:

لو مثلوا لي موطني وثنا لهممت أعبد ذلك الوثنا

إضاءة ثانية:

اسم الزركلي، تردد مرة أخرى أمامنا، حين كنا في دار المعلمين، في ستينيات القرن العشرين. ففي كل مرة كان يكلف أحد الطلاب بكتابة بحث شخصية في التاريخ، أو اللغة، أو التربية، أو علم النفس، أو الجغرافية، كان أحد المدرسين يذكر اسم الزركلي، أو اسم كتابه، كمرجع ثقة، للعودة إليه.

لا أعرف عدد الذين اطلعوا على الكتاب، في حينه، إلى أن قمنا بزيارة إلى مكتبة المركز الثقافي، وكنا برفقة مدرس اللغة العربية. كانت القاعة كبيرة، يزيد طولها عن عشرة أمتار. أشار المعلم فجأة إلى كتاب ضخم، متعدد الأجزاء، موضوع على الرف، في منطقة لا يصلها ضوء الكهرباء، قائلاً: هذا هو كتاب (الأعلام) لخير الذين الزركلي! ثم أفاض في الحديث عن ذلك المؤلِّف الكبير.

كانت الصورة قد اختلفت الآن: فبدلاً من صورة الشاعر الحزين، حلَّت صورة الباحث الصبور، المدقق، الذي أمضى ردحاً طويلاً من حياته في غاية علمية، وأدبية، هي في نهاية الأمر، عمل وطني بكل المعايير.

إضاءة ثالثة:

الصورة الوحيدة التي عُثِرَ عليها لخير الدين الزركلي، كانت في الجزء الثامن من قاموس الأعلام، التقطت له وهو في أواخر عمره: رجل يجلس على مقعد وثير، وقد ارتدى ثياباً أنيقة، ووضع رجلاً فوق أخرى، وراح ينظر إلى المصور بعينين متفحصتين. عدا ذلك لم تكن له صورة أخرى، تشير إلى شخصيته. ولكن الصورة كانت كافية لتحرير المخيلة من صور الماضي النمطية، صورة الشاعر الناحل المحروم من الوطن، وصورة الباحث الذاهل، المشغول بالدراسات، والكتب، لتأتي محلها، صورة الشاعر المشبع بحب الناس، والباحث الممتلئ بحب الحقيقة، والعلم.

ولد الزركلي، واسمه الكامل خير الدين بنُ محمود بن محمّد بن عليٍّ بن فارس الزركلي الدمشقي في 25 حزيران 1893، في مدينة بيروت، لأبوين دمشقيين؛ حيث كان والده يعمل في التجارة هناك؛ وعندما أصبح في سنّ الدراسة، عاد مع أسرته إلى دمشق، لينشأ ويتعلم فيها؛ فدرس في مدارسها الأهلية، وتتلمذ على أيدي أهم علماء دمشق، أمثال الشيخ عبد القادر بدران، والشيخ جمال الدين القاسمي، كما تتلمذ على مدرسة العلامة الشهير محمد كرد علي الفكرية.

في شبابه الفتيّ، ينظر خير الدين حوله، فإذا به لا يجد سوى الكدر، والمصاعب، وأسباب الكآبة، والحزن. فقد انفلت الاستبداد العثماني من عقاله، زمن السلطان عبد الحميد الثاني، وظهرت تجلياته في قمع التحركات الشعبية العربية، المطالبة بالاستقلال، وملاحقة الأحرار من أبناء الأمة.

غير أن الشاب المندفع المؤمن بعروبته، لن ينصاع أو ينقاد لصوت الواقع أو سوطه المسلط على رقاب الناس؛ فأصدر أول جريدة له، سماها (الأصمعي)، والأصمعي أبو اللغة العربية، ومؤسس قواعدها ونحوها، واستخدام الزركلي لهذا الاسم استخدام رمزي، يحاول فيه أن يتحدى السلطة العثمانية، أكثر مما يؤسس لاتجاه علمي أو أدبي. في ذلك الحين، لم يكن الزركلي قد تجاوز العشرين، ولم يذكر تاريخ دقيق لسنة صدور جريدته، ولكنه معلوم أنها صدرت قبل الحرب العالمية الأولى، كما أنها لم تستمر طويلاً، والسبب أن الزركلي نشر في أحد أعدادها صورة متخيلة للمأمون، وكتب تحت الصورة: (الخليفة العربي المأمون)، وكانت كلمة (العربي) سبباً في إغلاق الجريدة؛ ذلك أن الخليفة كان عثمانياً، وكانت هذه الإشارة تعني عدم شرعيته كخليفة، وعدم أهليته.

شارك خير الدين في تأسيس جمعية دمشقية، سمت نفسها (الجمعية الإصلاحية)، إلى جانب أسماء مثل عبد الوهاب الإنكليزي، والشيخ سليم البخاري. وقد كانت الجمعيات، في ذلك الحين، الوسيلة المناسبة لعقد الاجتماعات والتواصل، أياً كان طابعها: ثقافياً أو أدبياً أو اجتماعياً أو إصلاحياً. وهي الصورة السرية للأحزاب القومية، في ظل تصاعد المدّ المناهض للسلطة العثمانية، المطالب بالاستقلال عنها، وفي ظل الاستبداد الحميدي.

كل ذلك يشير إلى وعي مبكر لدى خير الدين الزركلي، واستعداد لافت لخوض التجارب والمعارك الجديدة؛ إذ إن الصراع كان قائماً بين قومية عربية فتية ناهضة، وبين قومية تركية طورانية، تنزع إلى السيطرة، والاستبداد. ولا يوجد تناقض بين أن يكون الزركلي كردياً أو عربياً، فالانتماء الذي بدأ يظهر، ويرسخ، هو الانتماء الوطني، في مواجهة محاولات التتريك. وطنية وجدت ملاذها المبكر، في القومية العربية، دون أن نتجاهل أن الزركلي أبدى حماسة استثنائية لفكرة العروبة، وهو ما يفسر لنا «مغامرته» في جريدة (الأصمعي)، وصورة المأمون.

وإذا كان إغلاق الصحيفة قد أحزنه، أو أغضبه، فإنه لم يزعزع طموحاته، فانتقل إلى بيروت، لمتابعة تحصيله العلمي في الكلية العلمانية (لاييك)، حيث درس هناك اللغة الفرنسية، ثم عين أستاذاً للتاريخ والأدب العربي فيها، عاد بعدها إلى دمشق أوائل الحرب العالمية الأولى، ولم يكن قد تجاوز الحادية والعشرين.

أمضى الزركلي سنوات الحرب، التي كانت تدور بعيداً عن سورية، يتأمل حال العالم المتحارب، واستطاع بقوة الحدس الشعري، وبصيرته، أن يرى عواقب ذلك الشجار الكوني المدمر:

تغير شكل الأرض في بعض حقبة   وبدل خير الأرض بالشر في شهر

كوامن أحقاد أثيرت فهيجت   نفوساً لطلاب القديم من الثأر

الظاهر أنه لم تحدث تغيرات حاسمة في حياته أثناء الحرب، ولقد شهد تلك المجزرة التي نفذها جمال باشا، الحاكم التركي الذي تعرفه الأدبيات العربية بـ«السفاح»، حين اغتال شنقاً عدداً كبيراً من الشبان العرب المناضلين من أجل الاستقلال، في السادس من أيار عام 1916، في بيروت ودمشق، أي وسط احتدام معارك الحرب العالمية الأولى. وإذا ما عرفنا تحركات، وفعاليات، ونشاطات، وإنجازات، أولئك الشهداء، أدركنا حجم الكارثة التي أصابت العرب، ومصدر تلك المعاني النادبة المفجوعة التي انطوت عليها قصيدته الرثائية لهم، لا سيما أن عدداً منهم كان صديقاً له، أو رفيقاً، في تأسيس الجمعية:

نعى نادب العرب شبانها   فجدد بالنعي أحزانها

بكى كل ذي عزة تربه   فهاج نزارها وعدنانها

غير أنه لم يكتف بالبكاء والتوجع، فسافر إلى الحجاز، أثناء الحرب العالمية الأولى، وربما كان على دراية بما يخطط هناك، للثورة على الأتراك، ولقد ألقى أمام الشريف حسين قصيدة، تدل على أنه كان يتلمس آثار الاحتجاج والسخط والاستعداد لتلك الثورة:

إن في الشام أمة لا تطيق الضيـــم تـــأبى لهـــا العلـــى أن تطيقـــا
أنذرونا بالموت ما أعذبَ المـــوت إذا كـــان للحيـــاة طريقـــا

وقبل أن تنتهي الحرب، يجرب الزركلي «حظه» مع الصحافة، مرة أخرى، فيصدر جريدة يومية يسميها «لسان العرب»؛ لكن السلطات العثمانية المتهالكة على حافة الهزيمة، أغلقتها؛ فأصدر جريدة أخرى، بالاشتراك مع صديقه يوسف حيدر سمياها (المفيد). هذه المرة لم يكن في الاسم أي إثارة، من الناحية السياسية. ولكن الصحيفة كانت مشغولة حتى النخاع بالهم العربي، وبالدفاع عن فكرة العروبة.

اتضحت الآن أمام العالم كله، سياسات الحلفاء في الحرب، حين أذاع ثوار أكتوبر في روسيا، الوثائق السرية للدول المتحالفة، تجاه ما عرف في ذلك الوقت، بتركة الرجل المريض. أما الرجل المريض، فهو تركيا، وأما التركة فهي البلاد العربية، ولا سيما الشام والعراق.

ومن بين تلك الوثائق، كانت اتفاقية سايكس وبيكو، بين فرنسا وإنكلترا، لاقتسام هذين الإقليمين، حينئذ نجد الشاعر، يستصرخ المناضلين، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه:

فيم الونى وديار الشام تقتسم أين العهود التي لم ترع والذمم
هل صح ما قيل من عهد ومن عدة وقد رأيت حقوق العرب تهتضم

في تلك السنوات، هيأ مجموعة شعرية للطبع، سماها (عبث الشباب)، ولكن حريقاً في الدار أتى عليها. ويبدو أن الزركلي لم يكن آسفاً عليها، إذ قال إنه، باحتراقها، قد أراح واستراح!

وسرعان ما تتالت الأحداث: إرسال الجنرال الفرنسي «غورو» إنذاره الشهير إلى فيصل الذي كان قد نُصب ملكاً على سورية؛ وتقدم القوات الفرنسية نحو دمشق بعد انتهاء مهلة الإنذار؛ ثم التصدي المغوار للمتطوعين السوريين، ومن تبقى من الجيش الفتي المنحل، للقوات الفرنسية. نعرف جميعاً أن الفرنسيين تمكنوا من التغلب على المقاتلين السوريين، واحتلال دمشق، ثم سورية كلها بعد

ذلك. ما نعرفه أيضاً أن السلطات الفرنسية المحتلة، قد أصدرت أحكاماً بالجملة على عدد من المناضلين والمثقفين السوريين، ومن بين هؤلاء كان الشاعر خير الدين الزركلي، غير أنه كان قد غادر الأراضي السورية متوجها إلى فلسطين. وكانت فلسطين قد أضحت تحت نير الاحتلال البريطاني، وقد غدا أمر عودة الزركلي إلى بلاده سورية مستحيلاً.

كان عمره آنذاك، سبعة وعشرين عاماً. تصوروا أن شاباً في هذا العمر يجد نفسه مطروداً من بلده، ومحكوماً بالإعدام، وقد صادرت السلطة الفرنسية جميع ممتلكاته!

لم يبق خير الدين في فلسطين طويلاً، حتى غادرها إلى مصر. ومن مصر سافر إلى الحجاز، حيث الشريف حسين، الذي منحه بعد ذلك بعام واحد، الجنسية العربية.

حين وصل إلى الحجاز، انتدبه الشريف حسين، لمساعدة ابنه الأمير عبد الله، الذي عينته السلطات البريطانية أميراً على شرقي الأردن، بعد أن سمتها إمارة.

تحمس خير الدين الزركلي للفكرة، معتقداً أنها بداية تأسيس الدولة العربية التي كان يحلم بها. كان قيام تلك الدولة حلماً يخامر وجدان المئات من المناضلين والمثقفين العرب، وكان ظنه بالأمير عبد الله حسناً، لم لا وهو ابن الرجل الذي أطلق الرصاصة الأولى في الثورة العربية على الأتراك؟!

وهكذا غادر الحجاز إلى مصر، ومن مصر إلى القدس، ومن هناك اصطحب جماعة، لمساعدته، وسافر إلى السلط، ثم إلى عمان. وفي عمان عمل على إعداد المناخ المناسب، أو تمهيد السبيل، كما يقول، لدخول الأمير عبد الله إلى الأردن.

وصل عبد الله، ونُصب أميراً. وفي نيسان من عام 1920، تألفت أول «حكومة مركزية» برئاسة اللبناني رشيد طليع، وفي هذه الحكومة، سمي خير الدين الزركلي مفتشاً عاماً للمعارف، ثم رُقي إلى منصب رئيس ديوان رئاسة الحكومة، وبقي في منصبه هذا طوال عامين، أي بين (1921. 1923).

عن هذين العامين، اللذين أمضاهما في الأردن، ألّف كتاباً سماه (عامان في عمان)، وطبعه في مصر، عام 1925، وفيه سجل ذكرياته عن الأمير عبد الله، وعن الحكومة الجديدة، وعن النشاطات السياسية، وعن كل ما تمَّ إنجازه في الإمارة.

خلال ذلك أُبلغ أن السلطات الفرنسية، أوقفت حكم الإعدام الصادر بحقه، فزار دمشق، وعاد منها مع عائلته.

يشير الزركلي إلى أن سياسة الأمير عبد الله قد انكشفت له، وكان أول من نبَّه إليها، أو إلى اتقائها، دون أن يوضح ما الذي أنكشف منها، وجعله يشعر بالاستياء. هل يشير إلى صمت الأمير تجاه قمع انتفاضات العشائر؟ أم إلى قبوله بالرقابة البريطانية المطلقة على مالية الإدارة؟ أم إلى غير ذلك؟ لا ندري. ولكننا نعلم أن الزركلي غادر الأردن، قاصداً مصر، حيث استقر هناك.

ربما سأل أحد ما: لماذا لم يعد إلى الشام إذن، وقد أُلغي حكم الإعدام الصادر بحقه؟ والحقيقة أنه كان ما يزال يحرض ضد الفرنسيين، في الوقت الذي كانت فيه سوريا تستعد للثورة الكبرى ضد الفرنسيين، تلك الثورة التي ستنطلق شرارتها الأولى عام 1925. ومما قاله الزركلي في الاحتلال منددًا:

ويح الجناة على الشآم تيمور ضاق بمثلها ويزيد
جهروا بتحرير الشعوب وأثقلت متن الشعوب سلاسل وقيود
خدعوك يا أم الحضارة فارتمت تجني عليك فيالق وجنود
قرآن أحمد إن بكاك فقد رثى لك قبله الإنجيل والتلمود

نشبت الثورة، وشملت معظم المناطق في سورية، ومارس الفرنسيون أبشع أنواع القمع ضد جميع أبناء الشعب السوري، ولا سيما ضد الثوار وعائلاتهم. و كان أفظع ما فعلوه هو قصف مدينة دمشق. وقد أرسلوا المدرعات إلى أحد أسواق المدينة، الموجود في ذلك الوقت في حي اسمه حي (سيدي عمود)، وهو أحد أحياء وجهاء دمشق، وكان معروفاً بمنازله العربية الجميلة، بكل ما فيها من تحف وآثار، وأحرق ذلك القصف الحي برمته، وصار اسمه منذ ذلك اليوم (حي الحريقة) إشارة إلى ما أصابه من دمار.

عن تلك الجريمة المدمرة، كتب الشاعر أحمد شوقي قصيدته الشهيرة (نكبة دمشق)، التي مطلعها:

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

كان خير الدين الزركلي، يعيش حينذاك في مصر، وقد كتب قصيدة حزينة، لم تشتهر كما اشتهرت قصيدة شوقي، ومطلعها:

الأهل أهلي والديار دياري وشعار وادي النيربين شعاري
ما كان من ألم بجُلق نازل وارى الزناد، فزنده بي واري
إن الدم المهراق في جنباتها لدمي وإن شفارها لشفاري

والظاهر أن القصيدة وصلت إلى الفرنسيين، فأصدروا عليه حكماً جديداً بالإعدام، وكان هذا يعني حرمانه العودة إلى وطنه، فكتب قصيدة أخرى اشتهرت حتى يومنا هذا:

العين بعد فراقها الوطنا لا ساكناً ألفت ولا سكنا
ليت الذين أحبهم علموا وهم هنالك ما لقيت هنا

في مصر اشترى مطبعة، وعمل فيها، وهو خيار يدل على قوة الروح لديه، فقد تخلى عن المناصب السياسية، حين وجد أنها تخالف مبادئه في الحياة، واختار أن يعمل في شأن يحبه، وهو طباعة الكتب؛ غير أن عمله أضرَّ بصحته، فاضطر لبيع المطبعة عام 1927. ولم يقم بأي عمل خلال ثلاث سنوات، زار خلالها الحجاز، بدعوة من الملك عبد العزيز آل سعود، الذي كان قد أتمَّ سيطرته على مناطق عسير، ونجد، والحجاز، ووحَّدها تحت سلطته، وأعلن نفسه ملكاً عام 1927، وسمَّى المملكة باسمه، أي المملكة العربية السعودية.

لم يبق الزركلي في الحجاز طويلاً، وانتقل من هناك إلى القدس، وأصدر مع صديقين له، جريدة يومية، سماها (الحياة)، ولكن السلطات البريطانية المحتلة عطلتها، غير أن الزركلي لم يحبط يوماً أمام أي إجراء تعسفي، فاتفق مع آخرين وأصدروا صحيفة أخرى، سموها (يافا)، وقد صدرت في المدينة ذاتها، التي حملت اسمها.

لم يطل عمله الصحفي هذا، وانقطع مرة أخرى، ويبدو أنه كان قد انتهى إلى آخر العمر، وقد اختار ذلك، بإرادته، وذلك حين أبلغه الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود، أنه قد تمَّ تعيينه مستشاراً للوكالة (ثم المفوضية) العربية السعودية في مصر. ومنذ ذلك العام، 1934، انتقل إلى العمل الدبلوماسي، وظلَّ يعمل فيه إلى ما قبل وفاته بأعوام قليلة.

من الواضح أن العمل الجديد قد ضمن له حياة مريحة، مادياً وجسدياً، وكان سعيداً بالمشاركة في كثير من المؤتمرات، التي مثَّل فيها حكومة العربية السعودية، وقد أتاح له ذلك زيارة المتاحف، والمكتبات، والإطلاع على المخطوطات. كما شارك في مؤتمرات أدبية، واجتماعية.

وكان الزركلي أحد المندوبين السعوديين المشاركين في المداولات التي سبقت إنشاء جامعة الدول العربية، ثم أحد الموقعين على ميثاق تأسيسها. كما نال ترقية جديدة، حين انتدب للعمل في وزارة الخارجية والجامعة العربية، بالتناوب مع الشيخ يوسف ياسين، وسمي عام 1951 وزيراً مفوضاً، ومندوباً دائماً لدى الجامعة العربية. وفي عام 1957 عُين سفيراً ومندوباً ممتازاً – حسب التعبير الرسمي – في المغرب. وفي عام 1963 شعر بالمرض، فدُعي إلى الرياض، ومُنح إجازة للراحة والتداوي، إلى وقت غير محدد، فاختار أن يقيم في بيروت، ولم يعد إلى العمل حتى وفاته في القاهرة، في 25 تشرين الثاني عام 1976.

يرتبط اسم خير الدين الزركلي، في الثقافة العربية، باسم واحد من أهم الكتب التي صدرت في القرن العشرين، وهو كتاب (الأعلام) الذي ألَّفه في ثمانية أجزاء ضخمة. ولنعد إلى الوراء قليلاً، لنعرف متى بدأت فكرة تأليف هذا الكتاب، ومتى بدأ بتنفيذها.

الأرجح أنها بدأت بعد انتقاله إلى القاهرة للعمل في السلك الدبلوماسي؛ فهناك كان قد استقر وارتاح، ولا بد أن الفكرة التي خطرت له آنذاك هي: تأليف كتاب يضم سير وتراجم مؤلفات الأعلام العرب، رجالاً ونساء، منذ الجاهلية، حتى أيام الزركلي.

فكرة طموحة، وكبيرة، ولكنها تتطلب فريق عمل، لكن الزركلي قرَّر النهوض بأعبائها وحيداً. فماذا فعل من أجل تنفيذها؟

في البداية قام بجمع المادة التوثيقية، حيث قرأ مئات الكتب، واطلع على الآلاف من الكتب الأخرى. وقد قام بذلك بكل همة الباحث المخلص، فزار المتاحف والمكتبات في دمشق والقاهرة وتركيا وإيطاليا وغيرها، واستفاد من علم ومعرفة العلامة المعروف محمد كرد علي، والعالمَين أحمد تيمور وأحمد زكي باشا، ومن آلاف الكتب من التراث العربي، وهي تظهر في مسرد مراجعه في كتاب الأعلام نفسه.

لقد زادت الأيام، والشهور، والسنوات التالية، من حماسته واندفاعه لتحقيق الحلم الوليد. لم يقلل تراكم الزمن، ولا تشتُت الأمكنة، من وتيرة عمله، وإيقاع تنفيذه لمشروعه. وبدأت تجتمع لديه المادة العلمية، والتاريخية، والأدبية المطلوبة، دون أن ينشر شيئاً منها، حتى عام 1956.

أورد الزركلي في كتابه سيراً لآلاف المشاهير العرب. يذكر اسم العلم، وتاريخ ولادته ووفاته، ثم يذكر أهم مؤلفاته، ويسمي المؤلفات المطبوعة، والمخطوطات غير المطبوعة، ولا يبدي أي رأي خاص به في سيرة العلم المذكور. غير أنه لم يكتف بالكلام المكتوب وحده، بل أضاف إلى السيرة صور المشاهير الذين ذكرهم، والتقط صوراً لبعضهم بنفسه، وأخذ التوقيع الشخصي لمن استطاع أن يصل إليه منهم، بجانب نماذج من خطوطهم. كذلك لم يكتف بالمؤلفين العرب ، بل أضاف أسماء عدد من المستشرقين، أمثال كراتشكوفسكي، وجويدي.

الطريف أن خير الدين الزركلي، وعلى الرغم من موضوعيته، لم يترجم في كتابه لأي علم من أعلام الدولة العثمانية، ويمكن فهم موقفه، من حملته على العثمانيين في شبابه، وموقفهم من نشاطاته آنذاك.

قبل أن يموت خير الدين الزركلي ببضعة أيام، كان في بيروت، وقد رأى ما يحدث فيها إبان الحرب الأهلية، فكتب ثلاثة أبيات، هي آخر ما كتبه:

متى تتبرج الدنيا ويشدو — هزار ربيعها بعد النحيب
وتبتسم الأزاهر في رباها — معطرة الندى بشميم طيب
أما للكارثات من الرزايا — ختام بين «أحمد» و«الصليب»؟

ممدوح عزام

مؤلفات الزركلي

- ما رأيت وما سمعت.
- الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز.
- ماجدولين والشاعر/ نظم.
- عامان في عمان.
- مؤتمر فلسطين العربي/ بالإنكليزية/ ترجمة إبراهيم عبد القادر المازني.
- شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز.
- رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء\ تصحيح.
- ديوان الزركلي.
- الأعلام / قاموس تراجم لأعلام العرب.

أبو خليل القباني
يوسف العظمة
عبد الرحمن الكواكبي
مريانا مراش
طاهر الجزائري
محسن الأمين
إبراهيم هنانو
شكيب أرسلان
عز الدين القسام
عبد الحميد الزهراوي
أحمد جمال باشا
هاشم الأتاسي
محمد كرد علي
رضا سعيد
فارس الخوري
عبد الرحمن الشهبندر
ساطع الحصري

علي الدرويش
صالح العلي
فيصل الأول
عمر البطش
أحمد مريود
أحمد العائدي
فخري البارودي
ماري عجمي
سعيد العاص
حسني الزعيم
فوزي القاوقجي
تاج الدين الحسني
سلطان الأطرش
شكري القوتلي
فوزي الغزي
محمد الأشمر
جميل مردم بك
خير الدين الزركلي

رواية اسمها سورية

2500 S.P